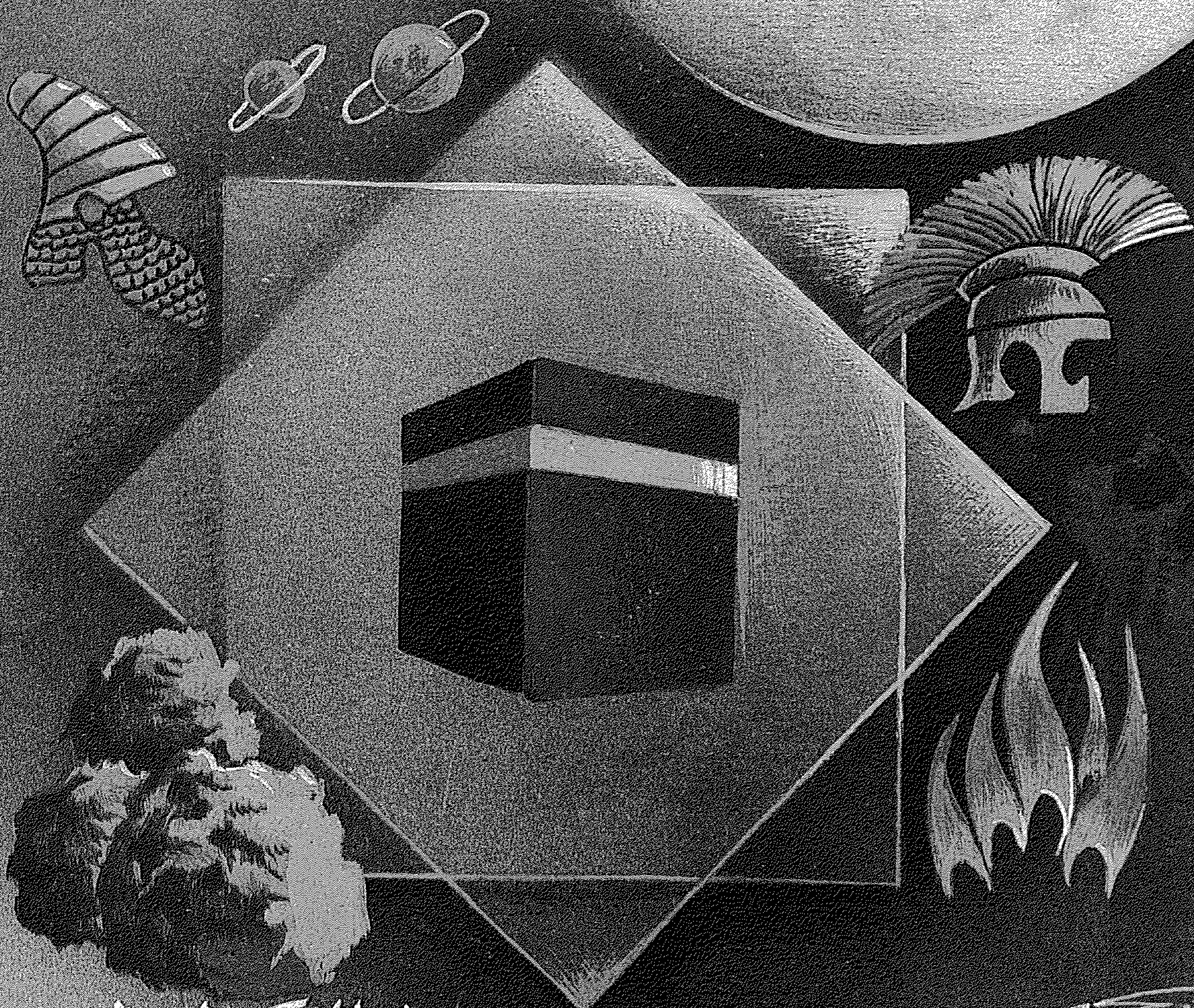
د. محمد ابراهيم الفيومى

تاريخ الفكر الدينى الجاهلى



دار الفكر العربى

اهـــــــداء2005

ا.د.عباس عبد الحميد

جامعة الإسكندرية

تاريخ الفكر الدينى الجاهلى

الدكتور محمد إبراهيم الفيومى
أستاذ الفلسفة الإسلامية جامعة الأزهر
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الرابعة [illegible]
١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
الإدارة: ٩٤ ش عباس العقاد-مدينة نصر- القاهرة
تليفون : ٦١٨٩٦٩ فاكس: ٤٩-٢٦١٩

٢١٤,٢٩ محمد إبراهيم الفيومى.
م ح ت ا تاريخ الفكر الدينى الجاهلى/ محمد إبراهيم.- ط٤،
مزيدة ومنقحة .- القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٤ .
٥٦٠ ص ؛ ٢٤ سم .
ببلوجرافية : ص ٥٤٣ - ٥٥٠ .
تدمك : ٧ - ٠٥٩٨ - ١٠ - ٩٧٧٠
١- الإســـلام والديانات الأخـــرى. ٢ - الديانات -
تاريخ. ا- العنوان .

تصميم وإخراج فنى / محمد سيد عبد العال



مطبعة اميرة

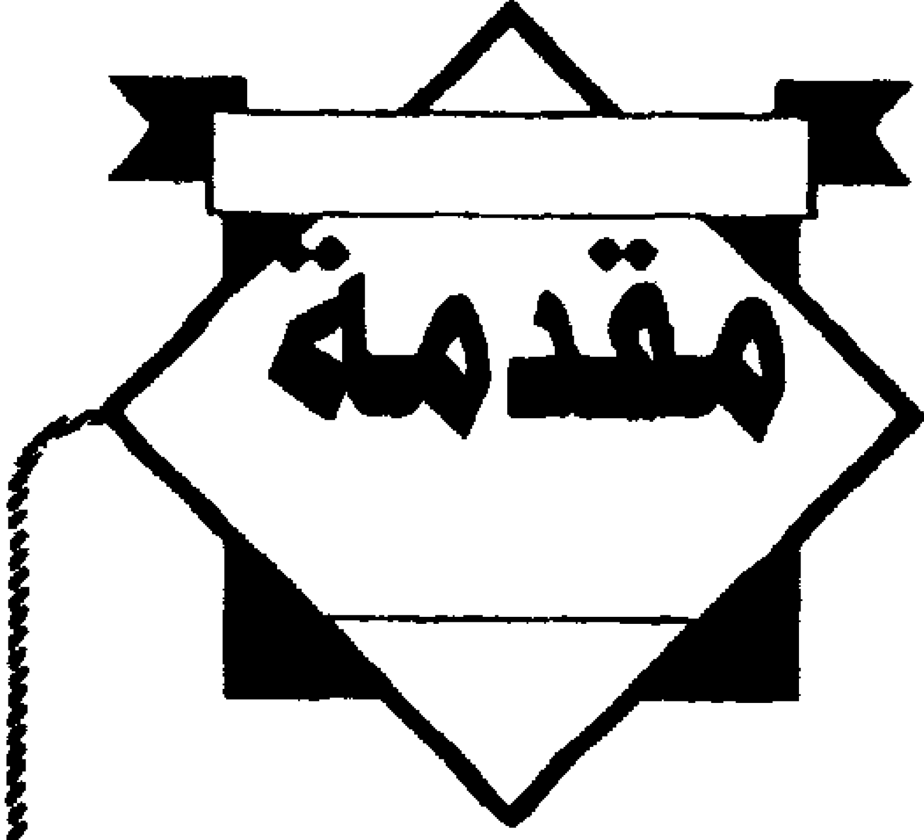
١٢ شارع شنن - عابدين

ت : ٣٩١٥٨١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ
وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ
فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم
مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

الفتح : الآية
﴿٢٨ ، ٢٩﴾



الطبعة الرابعة

لقد نفدت طبعات ثلاث من هذا الكتاب: «فى الفكر الدينى الجاهلى». أما هذه الطبعة الرابعة فتأتى فى ثوب جديد، فغيَّر فى عنوانها بعد أن استوفى الكتاب موضوعات تاريخية، كنت قد أشرت إليها إشارات سريعة، ظننت القارئ تكفيه تلك الإشارة.

ولكن تبين لى فى مراجعاتى أنها موضوعات حرية بالبحث والدراسة، تغلقها الإشارة ولا تفض معناها، فأخذت فى عرضها وتقصيها. وشأن البحث؛ تتابعت المسائل مسألة إثر مسألة، وتداعت القضايا، وتجددت زوايا، وامتدت آفاق أبعادها، وتغيرت رؤيتى، فما كنت أحسبه بالأمس داخلا فى عداد القضايا الزائدة، لم يعد الحال كما كان يخيل إلىَّ قبل.

من هنا توسعت النظرة المنهجية فى إعادة النظر إلى موضوع الكتاب من جديد، على ضوء ما نشرته المطابع جديدا من المصادر القديمة، وما ترجم من دراسات حديثة، وما تكشفت عنه بعثات الآثار، والبحث عن اللقى والخفايا المطوية فى باطن الأرض، وشواهد باقية للأمم الخالية.

لذلك جاءت تلك الطبعة تحمل عنوانا جديدا يتناسق مع ما استوفاه من زيادة وتحرير ومراجعات، وهو «تاريخ الفكر الدينى الجاهلى».

وهو على هذه الصورة الجديدة التى حاولنا أن نستوفى فيها الدقة والتحرير مازال يحمل فى ثناياه صفات النقص البشرى وضعف مسعاه... والله نسأل أن يتجاوز عن أخطائنا ويجعله مقبولا .وبالله التوفيق

د. محمد إبراهيم الفيومى

تحريرا فى ١٠ يونيو ١٩٩٤ م
غرة المحرم ١٤١٥ هـ

مقدمة الطبعة الثالثة

طرح العرب قديما قضية «علاقة الرسول بالأديان السابقة» على بعثته إبان دعوته التى دونها القرآن ورد عليها وكان أهم ما يبغون من ورائها دعوى : «بشرية القرآن» .

وتعنى بشرية القرآن، من حيث السند التاريخي: عزوه إلى تأليف محمد أى أن القرآن من وضع بشرى. وليس من قول إلهى، وتعني القضية أيضاً أن محمداً ليس برسول لكنه هو مفكر استطاع أن يؤلف القرآن.

هذه هى جوانب قضية «بشرية القرآن» . سجلها القرآن، على أنها دعوى مفتراة من العرب على الرسول فى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] هذه الآية على قصرها تناولت القضية شكلا ومضموناً، دعوى ورداً عليهاحين قالت: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ هذه هى الدعوي، أما الرد عليها فجاء تاليا بعدها مشارا إليه فى الآية ذاتها فى قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

فالدعوى والرد عليها من قبل القرآن أفادانا من حيث الجانب التاريخى: أنها قديمة منذ أن بلغ الرسول رسالته وقام بعبء الدعوة إليها. كذلك تفيدنا من جانب آخر أن القضية حين سجلها القرآن–ونحن نعلم أن القرآن كتاب عالمى، لا يختص بزمان ولا بمكان ولا بأمة– كان معنى ذلك أن تسجيلها إنما هو تسجيل للرد على تلك القضية، قضية «بشرية القرآن» ، وعلى العقل الإنسانى –أنى وجد وحيثما اتفق– أن يدرس تلك الدعوى على الرسول، فالقرآن سجلها ليعين المسلم وهو بصدد التيارات الفكرية على أن يدفع تلك القضية، لأن القرآن دافع عنها، ثم هى فى النهاية تصيب صميم دينه.. هذا ما تعنيه قضية بشرية القرآن بشكل عام.

أما شكلها التفصيلى –وهو موضوع الدراسة – فإنه يحتاج إلى تسطيح القضية

---

(١) الآية ١٠٣من سورة (النحل)

بعد تحليلها تاريخيا من جانب، وواقعيا من جانب آخر، مع الاهتمام بالجانب المنطقى فى مناقشة بعض القضايا الموضوعية التى سوف نعرض لها فيما نعرض ليطرح العقل سؤاله من خلال إثارة دعوى بشرية القرآن.

وحقيقة أن هناك أسئلة كثيرة لكن من الممكن أن ترتد إلى سؤال واحد يقول: إذا كان الرسول ألّف القرآن وهو الآن بين أعيننا وبين أيدينا فياترى متى تعلم الرسول؟ وفى أى مدرسة من المدارس القديمة انتظم فيها....؟ وهل ترى ـ عندما ألف القرآن ـ استمده من المسيحية؟ أو من اليهودية؟ أو تلك الصابئة؟ أو من المجوسية؟ أو من الوثنية...؟ وهل كانت هذه الأديان أو تلك الملل منتشرة فى الجزيرة العربية؟ وبأى لغة كانت . ونحن نعلم أن هذه الأديان ليست ناشئة فى مكة وإنما نشأت بعيدا عن الجزيرة العربية، وحقيقة كانت بلسان أعجمى.

فالمسيحية لم تكن بلسان عربى وإنما كان لسانها لساناً سريانيا.

واليهودية لم تكن بلسان عربى وإنما كان لسانها لساناً عبرانيا.

والمجوسية كذلك لم تكن بلسان عربى وإنما كانت أعجمية وباللسان الفارسى.

وكذلك الصابئة لم تكن بلسان عربى وإنما كان لسانها لساناً آراميا.

وكذلك الوثنية الفكرية لم تكن باللسان العربى وإنما كان لسانها إغريقيا رومانيا على أساس أن الفلسفة اليونانية كانت لا تعتقد بعقيدة دينية وإنما كانت تؤمن فيما تؤمن بالعقل الإنسانى وفكره فحسب، فإذا ما تكلمنا عن الوثنية الفكرية فلابد للذهن أن يتجه نحو اليونان.

أما الوثنية المنتشرة فى العرب فإنها كانت وثنية ساذجة ليس لها مضمون فكرى.

وهى أيضا ـ كما تذكر الرواية العربية ـ وفدت إلى العرب على يد عمرو بن لحى حينما جاء « بهبل» من بلاد « البلقان» أيام الإسكندر الأكبر .هكذا جاء فى المراجع العربية.

فالوثنية العربية ـ على الرغم من أنها وفدت إلى العرب ـ كانت وثنية لا تخرج

عن عبادة الحجر من غير شكل فنى أى من غير صورة يخلعها العربى على هذا الحجر نحتا أو تصويرا ولكنه كان يكتفى من الحجر بعبادته فحسب.

وواضح مما قدمناه سابقا أن الأديان التي انتشرت في الجزيرة العربية ومكة منها والتى جمعها الله فى قوله تعالى [1] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ...... ﴾ إلى آخر الآية.

هذه الأديان ـ كما عرضنا سابقا ـ كانت أعجمية وفق ما قال القرآن ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ .... ﴾. فتسجيل القرآن لتلك الأديان يعنى من وجهة النظر التاريخية أن العرب كانوا يعلمون شيئا أو أشياء عن تلك الملل والنحل (الأديان والمذاهب) المنتشرة فى أجواء الجزيرة العربية.

فهل ترى أى شئ تعلم منها محمد؟ وما اللغة التى قدر لمحمد أن يتعلمها..؟ قطعا الإجابة سوف توجه بشكل تحليلى، بمعنى أننا سوف نسير بخطوط متوازية مع تلك الأديان وعلاقة الرسول بها. وذلك موضوع الكتاب:

وليس فى هذه الطبعة جديد أضفناه سوى تحرير ما رأينا تحريره وتنقيحه فهى الطبعة الثالثة التى تزيد كثيرا على الطبعة الثانية..

والله من وراء القصد..

مصر الجديدة يوم الاثنين

محمد إبراهيم الفيومى

٧ صفر سنة ١٤٠٢
٢ أكتوبر ١٩٨٢

---

(١) جزء من الآية (١٧) من سورة (الحج)

مقدمة الطبعة الثانية

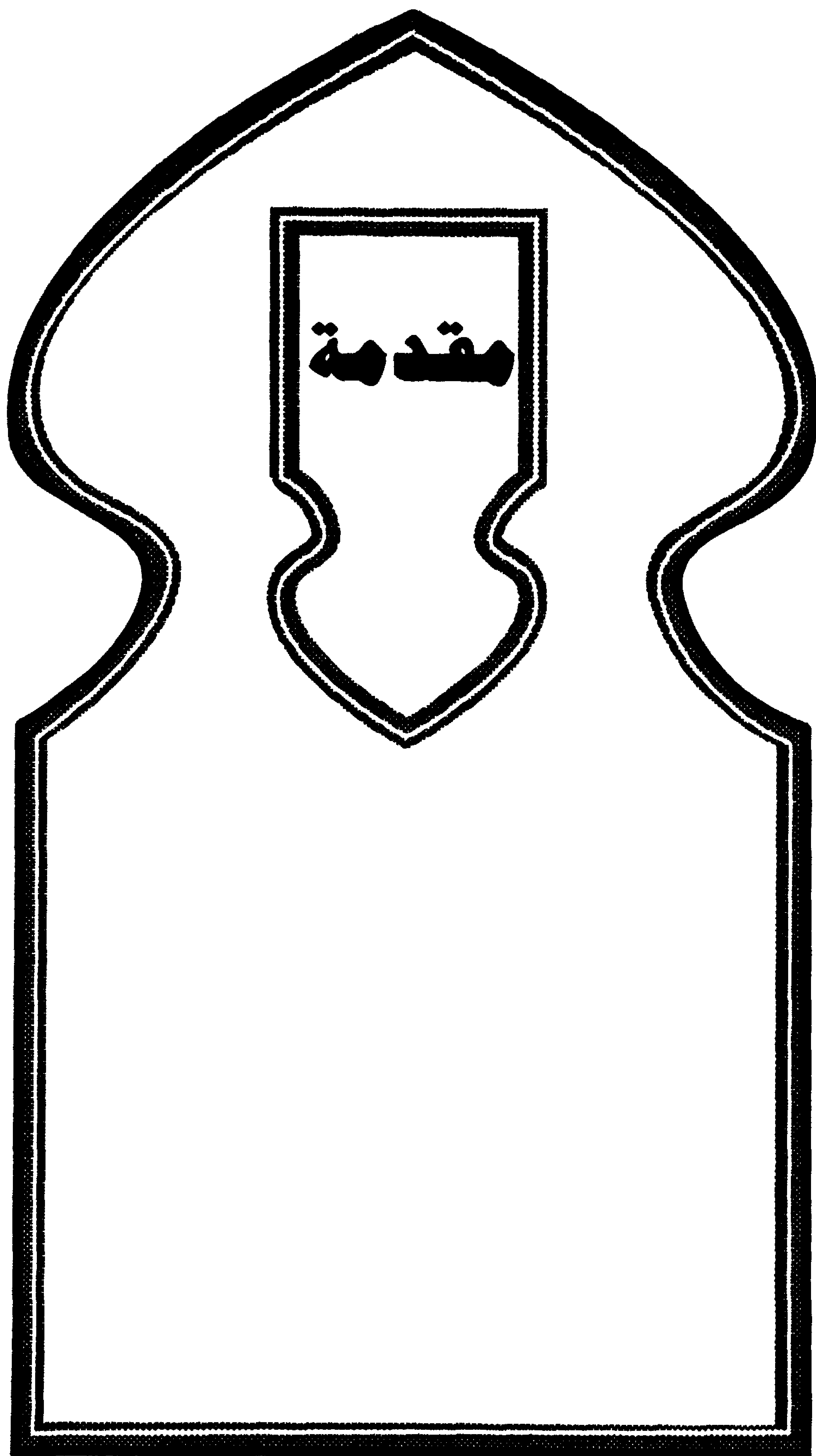
نفدت الطبعة الأولى فى العام الأول من طبعه، وكنت غير راض عنها إخراجاً وتحريراً لأنى لم أشرف عليه حال طبعه حيث سافرت إلى جامعة قطر.

لذلك تأتى هذه الطبعة وقد حرر فيها وزيد عليها وتلافينا بقدر الإمكان ما انبث بين سطور الطبعة الأولى من أخطاء، ولولا أن الطبيعة الإنسانية تتميز بأنها تصيب وتخطئ وهى فى صوابها تعمد إليه وتتحراه وفى خطئها لا تعمد إليه ولا تتحراه إنما تندفع إليه حين تتخيله أنه صواب لولا ذلك لقلنا إنه جاء غير منقوص.

والله ولى التوفيق . . .

محمد إبراهيم الفيومى

مصر الجديدة يوم الخميس الموافق: ٥ رمضان ١٤٠٠ هـ
١٧ يولية ١٩٨٠ م



مقدمة

أما قبل:

فمنذ أن كان للشرق تراث كان ينقسم قسمين:

* قسم مقدس.

* وقسم غير مقدس.

أما القسم المقدس، فهو الذى أوحى الله به للإنسان أى: ما كان أصله الوحى الإلهى.

وأما القسم الآخر: فهو ما سوى ذلك.

ونعنى بصفة التقديس:

١ـ أنها تشتمل على معنى تعبدى.

٢ـ أن الإنسان مطالب بعدم ردها.

٣ ـ أنها محددة من حيث الاتجاه العام بأوصاف معينة:

فهى من حيث الزمان: لا يسأل عنها الإنسان إلا فى سن معينة، ومن حيث المكان: يتعين على الإنسان فى عبادته أن تكون نحو مكان معين.

ويرتبط الإنسان بها من خلال مستوياته العامة: من مستواه العقلى إلى مستواه الوجدانى.. وتبرز فى سلوكه تطبيقا عمليا.

ولها أركانها المكونة لها من حيث أساس بنيانها:

الركن الأول: الله ، والركن الثانى: الوحى، والركن الثالث، الرسول.

والتراث المقدس يرتبط بالمادة والروح معا غالبا.

وتصبح الصفة العامة للتراث المقدس: أنه موضوع للعبادة أو للتعظيم مثل الكعبة والحجر الأسود، فإنها مثل للتعظيم وليست للعبادة.

والعبادة تقتضى:عابدا ومعبودا وعلاقة

عابدا: وهو الإنسان.ومعبودا: وهو الله. وعلاقة: وهو الرسول.

والإنسان مع التراث المقدس: بين أمرين:

* لأنه إما مؤمن.

* وإما غير مؤمن.

فنلمس هنا أننا أمام أمرين: إما و إما، أى أننا فى حرية من حيث الاعتقاد فى التراث المقدس. ولكن حرية الاعتقاد مقرونة بالتخويف والوعيد وسوء العاقبة والطرد من رحمة الله.

فعدم الإيمان على المستوى النفسي: يؤدى إلى تهويش فى الرؤية نحو غد الآخرة، هذا من حيث مستوى الإنسان النفسى.

ومن ناحية عضويته فى الهيئة الاجتماعية: نراه ـ أيضا ـ مهددا بالطرد منها، وغير مشهود له بالعدالة، وقد تنادى بعض طبقات الهيئة الاجتماعية بحل دمه، فلا رفق ولا لين ـ من ناحية الهيئة الاجتماعية ـ مع مريض الإيمان، لأن هذا المرض الذى يلم بصاحبه تنتشر عدواه فى المجتمع، وهو من الأمراض الخبيثة التى يرى المجتمع أنه يجب عليه مكافحتها، ويحجر على من فى قلوبهم زيغ مخافة الفتنة. هذا من ناحية عضويته فى الهيئة الاجتماعية.

أما من حيث صلته بتراثه التاريخي: فهو بموقفه الرافضِ للإيمان يشق عصا طاعة تراثه، وتلك وصمات سياط قاسية يتعرض لها من يزورّ عن الإيمان ويجاهر بازوراره.

ونرى حالات شتى لمن توقفوا بين الإيمان و عدمه: فنرى منهم من التزم الصمت بعدم المجاهرة مع دأبه فى البحث والمطالعة مثل: الإمام الغزالى، الذى قال واصفا حاله ـ عندما انتابته هذه الحالة ـ حالة تهديد إيمانه الراسخ ـ « مكث على هذه الحالة قرابة شهرين بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال» .. أى أنه ظل صامتا دأبه على البحث عن جسر الحقيقة، ثم انتهى بعد مرحلة صمته إلى نتائجه الإيمانية التى ربطته بالهيئة الاجتماعية وبعقيدته وتراثه التاريخى، وجعلته عن جدارة يوصف بحجة الإسلام.

ويبدو أن الغزالى كان يرى وصفه بذلك اللقب حقا فى نفسه، وذلك عندما قال فى كتابه «المنقذ» لما رأى حالته وما هو عليه من قلق فى حله وترحاله قال: وارتبك الناس فى الاستنباطات وقالوا: عين أصابت أهل الإسلام.

أى أن ما أصاب الغزالى أصاب أهل الإسلام.. وعلى أى حال هذا نوع من الإسراف فى فهم الذات، وإلا فكيف نفهم أو يفهم الغزالى؛ أن ما طرأ عليه ـ من اضطراب أو قلق فى أهل الإسلام. هذا صنف.

وهناك نوع آخر من الناس تلابسه تلك الحال ـ حال التوقف فى مسائل الإيمان ـ التى تراهم يهربون منها وبها إلى آراء فلسفية ويلبسونها ألبسة دينية وفى النهاية لا ندرى أهى فلسفة أو دين؟ وعلى أى حال هو نوع من الملق الفكرى الاجتماعى يلجأ إليه صاحبه حذر التنكيل به أو اضطهاده من قبل الهيئة الاجتماعية، وقد عرف التاريخ الفكرى هذا اللون أيضا وحفظ شعاره وهو: التوفيق بين الفلسفة والدين. وهو شعار طريف فيه طرافة ومتعة للعقل بيد أننا من ناحية النقد العقلى أو العلمى نراه هشا ومهوشا: لأننا فيه نساوى بين ما هو مقدس ـ ونحمل أنفسنا على الدينونة به ـ وما هو غير مقدس نرى فيه حريتنا الفكرية وذاتيتنا وتمردنا.

فهل يا ترى أىّ الصفتين أردنا إلباسها بالأخرى.؟ هل أردنا إلباس صفة التقديس للفلسفة أو أردنا إلباس صفة البشرية للدين؟ على أى حال جانب الطرافة واضح وجانب التهويش فى القضية أوضح. لذلك قلنا إن هذا اللون من الملق الفكرى للهيئة الاجتماعية وفى الوقت نفسه توسعة فى مفهوم المقدس، وفى توسعة مفهومه جور على العقل والدين.

بعد ما سبق نرى: أن التراث المقدس ضرورى، وتظهر ضرورته، فى حياة الإنسان الدينية وفى المجتمع حين لا يحجر على الفرد إلا بعد مجاهرته بعدم الإيمان، وأما حقيقة العقيدة فهى تحدد فى المستوى النفسى وأمام الله.

على أن التراث المقدس هو ما كان من الله أو من رسوله، وصفة التقديس تطلق حقيقة على ذلك شكلا وموضوعا.

وأصبحت القاعدة فى مصدر المقدس وغيره قولهم: كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب الروضة الشريفة.

تبدل مفهوم المقدس:

ثم تبدل مفهوم المقدس في نفس الإنسان وفى علاقته به، وكما لاحظنا أن الالتزام بالمقدس شئ ضرورى، وأنه ليس بالهين ولا باليسير على الإنسان تركه،

ولا سيما أن تركه فيه ما يعرضه لمصاعب نفسية واجتماعية لا يقوى على تحملها فسوف يكون فى تحملها انتحاره.

وعلى الرغم من أن المقدس تكتنفه تلك الصعوبات أو كما وصفه القرآن بقوله(١): ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾(٢).

نقول: على الرغم من تلك التبعات وجد بجانب الأديان الصادقة والنبوءات الصادقة أديان كاذبة.. أى: وجد بجانب المقدس الحقيقى مقدس غير حقيقى..

معنى ذلك- كما يفيدنا التاريخ- أن فى الإنسان جانبا يحب الالتزام ببعض المبادئ وعليه أن يرعاه بالاعتقاد المقدس، فطلبا لحاجات الإنسان الروحية تبنى متنبئون كثيرون هذا الجانب وأثروه بما شاءوا له من ثروات وبما طاب لهم من قول.

فالنبوءات الكاذبة توسُّع وتخييل فى مفهوم المقدس، وقلنا: «توسع» لأنها فى حقيقة الأمر ليست من عند الله، لا وحيا ولا تكليفا، وتبين لنا فى وضوح أن وجود الشئ المقدس الذى حمل الإنسان نفسه عليه كان لا يرى فيه أنه يلغى حريته لأن عدم وجوده دعاه إلى طلبه وأعانه عليه شعوره بالحاجة إليه.

كذلك النبوءات الكاذبة: هى التى شلت العقل الشرقى عن أن يتابع وظيفته، وكان دور العقلِ معها شاقا وعسيراً حينما عزلته عن مناقشتها أو حتى عن فهم رموزها كما عرضت الأنبياء الصادقين لمحن القتل والاضطهاد وهم بصدد تحرير الفكر البشرى والتشريع الإلهى من زيف المزيفين، وقد لبست النبوءات الكاذبة ثوب الصادقين لتلبى حاجة الإنسان الضرورية إلى المقدس الحقيقى. وفى ذلك كله ما يؤكد أن فى الإنسان حبا وميلا طبعيا يدفعانه إلى الالتزام بمبادئ مقدسة إن غابت يبحث عنها فى نفسه ويصاب بالقلق إن لم يجدها، ويبحث عنها المجتمع إن غابت عنه، فهى عامل أساسي فى بنائه وتوجيه علاقاته.

١- الآية (٥) من سورة المزمل

(٢) الآية (٧٢) من سورة الأحزاب

ويصبح التاريخ فى سيره من غير النبوءات الصادقة عاجزا عن السمو نحو الله .

فالنبوءات الكاذبة شاركت فى تزييف معتقدات الإنسان الدينية وألهته عن معتقداته الصادقة ووسعت مفهوم المقدس حتى انحرفت بعبادة الإنسان الصحيحة إلى شتى الأنماط: كالنار والكواكب وغيرها. وعلّمت الإنسان الشرقى كيف يخضع عن ذلة لغير الله، وأن الشرق -من الناحية التطبيقية- لا يحكمه إلا مستبد عادل مشارك بدوره فى إبادة هذه المعانى المزيفة وإلا فكيف يعدل وهو مستبد؟ وكيف يستبد وهو يعدل؟ وهو أيضا معنى من معانى النبوءات الكاذبة التى عودت الإنسان الشرقى أن يخضع لغير الله باسم الإنسان المعصوم من الخطأ وهو العادل.

بهذه الأوصاف التى ألبسها المزيفون عليه آمن الشرقى بأنه حقيقة وليس أسطورة، وبات يمنّى نفسه به كما منى «الفارابى» به نفسه فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة» ، ومازال بيننا من يعتقد فى حكم المستبد العادل، وهو على أمل اللقاء به، ومازال ينتظره باسم المهدى المنتظر، أو الإمام المعصوم، أليس هذا المستبد العادل- المثل الأعلى فى نظرية الشرق السياسية- يماثل نظرية الحزب الواحد فى روسية الشرقية من حيث الاهتمام بالرأى الواحد، وعدم الخوض فى تصرفاته بالتعديل أو النقد، وعلى الإنسان -أخيراً- أن يقدم ولاءه للحزب فقط، أو المستبد العادل، وأن ما لدى الحزب من آراء تماثل المقدس. وفى النهاية: أنها رؤية واحدة لرأى واحد، وما وراء ذلك كله من تخويف وإرهاب، وذلك عين التطرف والاستبداد المقدس فالإنسان الشرقى -هو رائد فى حضارته العصرية- حكم نفسه من خلال تراث تاريخى مزيف وهو نظرية الواحد المستبد العادل،وهذا لون من التوسعة فى معنى المقدس على المستوى السياسى.

ووثنية الإغريق تعنى من جانب الإنسان: إشباع حاجته الضرورية إلى إيجاد معنى المقدس فى حياته. ورحلات فيثاغورث وأفلاطون إلى الشرق ساعدتهما على أن يرفضوا وثنيتهم ليحلوا بدارهم وفكرهم فكرة: مثال المثل، أى: الذى لا يتغير ولا يتبدل، وهو المثال الأعلى الذى تتحول الإنسانية إليه محاولة العود إلى ما كانت عليه فى رحاب الله. هذا توسع فى مفهوم معنى المقدس، ومحاولة منهم لإيجاد صورة

طبق الأصل لما عليه الدين الحق، غير أنها في النهاية تفتقر إلى شمار خاتم النبوة، ليجيز معناها الحقيقي المقدس، على أي حال نرى في فكرة أفلاطون الفلسفية: تمردا حقيقيا على الوثنية، لأنه كان يرى: أن الوثنية إن صحت عقيدة شعبية، فإنها لا تصح عقيدة للفلاسفة الكبار أو حتى صغار الفلاسفة.

هدف فكرة أفلاطون الفلسفية -ذات الطابع الديني الشرقي- السعي بها إلى تنزيه الله عن مستوى الفكر الفلسفي، عن مستوى العقيدة الشعبية الوثنية، وشاعت فكرة أفلاطون على يد من بعده من الفلاسفة الذين رضوا لأنفسهم أن يأخذوا بفكرته، ثم راحوا يطبقونها على القرآن، الذي أنزله الوحي الإلهي، وقالوا: إن ما فيه يلائم الحياة الروحية السائدة بين العامة وذوي السذاجة في الرأي، أما العلماء المستنيرون فيرون- من وراء استبطانه وما يعين عليه الإدراك- أن ما فيه حق وصدق، وهم أهل التأويل. ومنهم أهل التوفيق بين الفلسفة والدين، الذين يرون: أنه ليس من المصلحة الدينية أن يكشف للعامة. أما من ناحية الموازنة العامة بين أفلاطون وأهل مدرسته من بعده فإنا نرى في موقف أفلاطون جدوى وله مسوغاته، وهو تمرده على الوثنية الإغريقية، أما موقف هؤلاء الفلاسفة كالفارابي مثلا: فإني رجوت نفسي أن تفهمه أو تنظر جدوى رأيه فتأبى عليها أن تفهمه، وتحصل لها من البحث في جدواه: أن فيه من التقليد والتعصب الذي يجانب عقل الفيلسوف أو المفكر ما فيه. روي عن علي: وقد سئل: هل خصكم رسول الله بشيء؟ فقال: « ما عندنا غير هذه الصحيفة، أو فهم يؤتاه الرجل في كتابه» فعلاقة المقدس الحقيقي بالإنسان هي كما قال علي: « فهم يؤتاه الرجل في كتابه» من غير مصادرة، أو تمييز خاص، لأن معايشة فهم كتاب الله حق للجميع بشروطه.

على أي حال شاركت نظرية أفلاطون في مجال السياسة فخلقت حرية الرأي واحترامه، أو الرأي ومعارضته، فلا يكافح أحدهما الآخر. وكان هذا معنى من معاني الديمقراطيةاليونانية.

ومن الذين توسعوا في «مفهوم المقدس» أولئك الذين دعوا إلى عبادة الوثنية في شتى أشكالها:

فمنهم الذين دعوا إلى عبادة الكواكب، وربطوا مصير الإنسان بمطالعها وإن ميلاده مرتبط بالمصادفة، فهو إن صادف ميلاده سعودا فى طالعه فهو سعيد، وإن صادف نحوسا فى طالعه فهو نحس أو شقى، فعبادة الكواكب خلقت: مشاكل الجبر، والتسيير، والمصادفة، والحظ، وفيها مصادرة حقيقية لحرية الإنسانية، وأصبح الوجود معها يشكل حرجا فى الوجود الإنسانى، ومع ذلك عبدها الإنسان، واستلطف الارتماء فى أحضانها، واستعذب شقاءه فى عبادتها، فجبلته على رضا فيه معنى المذلة حين منحها الإنسان معنى المقدس الذى لا رد فيه ولا مراجعة.

ومع ذلك وجد من الإنسان من ثار على ذلك النوع من العبادة، ورد للإنسان حريته واعتباره، فاستحدث السحر ليلغى به سيطرة الكواكب عليه وعلى مصيره. وبالسحر استطاع الإنسان أن يعلن سيطرته على الأرواح ومدى قدرته على تسخيرها، ألهمته عرفانا بالغيب وأعانته على قضاء حوائجه، فغير بها من مستقبله ورفع بها من عظمته، وألغى من حياته سيطرة الكواكب عليه، وبوساطة السحر استبانت قدرة الإنسان فى تمرده على عبادته.

ولأول مرة تقع دولة الأرواح مستعمرة للإنسان، يجندها لخدمته، ولا تقوى على النفور منه إلا برسالة إلهية، قام بها نبى الله موسى، وذلك حينما بات الناس فى خوف وعدم أمن من كيد السحرة، فرهبهم الناس، أى وقع الناس –وهم يفرون من سيطرة الكواكب– فى أسر السحرة، ودخل الإنسان مرة ثانية تحت سيطرة الإنسان وهو من نوعه وجنسه، خوفا من سحر السحرة وألاعيبهم، وبه اقتناع أن عبادة الأرواح أصبحت غير مجدية إلا عن طريق سحرة وإرضاء أهوائهم فأصبح السحر يؤدى إلى نوع من الاستعباد للإنسان.

ومن ثم اقتضت الحكمة الإلهية –وهى دائما تقف بجانب الحرية الإنسانية– أن ترسل رسولا ليبطل كيد السحرة ويحقق الحرية الإنسانية التى لا تدين لغير الله. ودائما رسالة الله ترعى الإنسان فى حريته وفى عبادته وما توحى به لا سيطرة لأحد عليه وليس عليها قيم سوى كتاب ، وأما من يدعى القوامة على كتابه فإنه يدفعه إلى ذلك حبه النفسى لأن يكون شيئا فى الهيئة الاجتماعية.

وفي عبادة الحجر والشجر وأشكال الوثنية المختلفة توسع من الإنسان في معنى المقدس، ونلاحظ من وراء توسع الإنسان في الرمزيات المقدسة شيئا جوهريا يدفعه ليحدث هذا التوسع ، ذلك هو: شعور الإنسان بإرادته وحريته وخوفه من الكون وليس حبه له.

وعلى رداءة الوثنية في مظهرها نجد أن معنى الحرية الإنسانية كامن فيها، فالإنسان الوثنى شاء أن يقدس، فصنع إلهه، واختار حجره، ومثل شكله ، وحدد مكانه، فأقامه، ثم إن شاء أن يستبدل بحجر آخر أو بشكل أحسن، ثم إن شاء الإنسان الوثنى أن يسخر من إلهه، فعل غير مبال لمعنى تقديسه فهنا سيطرة للإرادة الإنسانية على ما صنعت من رمزيات المقدس.

لكنها حرية وجلة ذليلة حين منحت عظمتها لرمزيات ضئيلة لا تغنى عنها شيئا.. ولكن لماذا فعلت ذلك؟

نرى– من وجهة نظرنا– أن التوسع في مفهوم المقدس يرتبط أيضاً بمعنى الخوف المتزايد عند الإنسان الشرقي، وذلك حينما عجز الإنسان عن فهم الكون. ثم خافه فقدسه، فصفة الخوف من الكون استغلها دعاة الأديان الوضعية المتعددة في الشرق. فالديانات الوضعية المتعددة وراءها نزعة الخوف الناشئة من عدم تعقل الوجود. فالإفراط في المظهر التقديسي للأشياء مظهر من مظاهر الخوف.

والتوسع في مفهوم المقدس: فيه راحة لوجدان الشرقي، وإلغاء لعقله.. وإلا فلماذا توسع في المقدس وهو يعلم أن التوسع ليس من مصلحة العقل.

لذلك نقول– ومن غير إفراط فيما نقول–: إن الشرقي عندما يعجز عن فهم الشيء يخافه، ثم لا ينصرف عنه حتى يخلع عليه أثرا من آثاره النفسية، وهو التقديس، ومن خلال نزعة الخوف الكامنة في نفسه من الوجود تسهل قيادته، كذلك يتميز الشرقي بالإسراف في فهم ذاته، وذلك من خلال نصوص مقدساته فلا يكف عن نجوى ذاته بها.

فاليهودية تقول: نحن أبناء الله وأحباؤه...، نحن شعبه المختار.

والمسيحية تقول: القول نفسه مع اعتقادهم بأنهم أمة الخلاص.

والمسلمون على حالهم هذا يقولون: «خير أمة أخرجت للناس» من غير أخذ بالقرآن الذى يهدى للتى هى أقوم.

فهو لا يحب أن يفهم ذاته من خلال واقعها ويواجه أخطاءه، وهو لا يحب أن يفهم ذاته فقط إنما يتعالى على فهمها ويعتبر كل من يشير إلى خطئه متحسساً العورات.

فالتعالى عن فهم واقع الذات خلق له من الأسباب ما يسوغه مثل:

تسويغ الأخطاء، كأن يسوغ الشعب أخطاء الحاكم وهو يعلم أنه ينافقه.

وإلقاء المعاذير أسلوب لازم للمنطق التسويغى.

ومن ذلك كله الإفراط فى أساليب المجاملات.

كل هذه خصال وادعاءات، تخدم التعالى وترفع من شأن الفردية فى نفس الشرقى لأنها أساليب نابعة من نزعة الخوف، تشبع فى نرجسية الذات غرورا واستبدادا، دون أن تساعدها على فهم أخطائها، وليس ذلك يعنى أن الإنسان الشرقى ليس عنده طاقة تمييز الخطأ من الصواب، قطعا لا نعنى هذا، إنما نعنى أن عنده قدرة التمييز، إنما يغلب أسلوب التسويغ والمعاذير والمجاملات على مواجهة المخطئ بما أخطأ فيه، ولذلك نراه فيما بعد يحكى العمل نفسه ثم يصفه بالخطأ- الذى سوغه من قبل- على شكل رواية تاريخية وبعد أن يزول عامل القهر مصدر خوفه.

فإذا قدر للشرقى أن يفهم قبل أن تحتويه نزعة الخوف تمرد وغلب وسيطر، وذلك كان منه على حقب متطاولة فى تاريخه،وسوف أسوق مثالا شاهدا على ذلك وهو منهاج الإسلام.

تعثر الشرقى كثيرا وهو يبحث عن ذاته من خلال الديانات المتعددة، وبينما هو يتعثر عثر على حقيقته فى نظام الإسلام ومنهاجه، ووجد فيه ما يجيب على أسئلة شتى، استغلق عليه فهمها، خلال رحلته الطويلة فى البحث عن حقيقته،وفيه ألفى ما تتجاوب معه النفس الإنسانية من حيث هى نفس إنسانية لأنه-وهو الصيغة النهائية لسلسلة الوحى الإلهى- قدم المزيد مما يساعد الإنسان على تفهم حقيقته من خلال واقعة وجوده، وعلاقاته بالله. وأن شرعية مبدأ التوبة فى حد ذاته ألغى تصوراتنا عن

الإنسان الملائكي وإمكانية وجوده. ومعنى ذلك أن على الإنسان أن يفهم ذاته من خلال بشريته أو من خلال قول الرسول: « **كل ابن آدام خطاء وخير الخطائين التوابون**».

لذلك نرى أن الإسلام ركز على أمور نبرز منها:

أولا: حدد مفهوم المقدس من غيره،وحدد مصدره وهو الله وما أوحى به إلى رسله،وبذلك التحديد كفل للعقل مجاله وحريته.

ثانيا: سد الطريق على كل متنبئ بقوله عليه السلام: « **أنا العاقب فلا نبى بعدى**».

وقوله تعالى(١): ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾.

وتلك مكرمة الإسلام الحقيقية؛لأن هذا المبدأ الذى قرره الإسلام حمل العقل الإنسانى مسئولية الكفاح ضد الذين يحاولون أن يعوقوا من مسيرة العقل الإنسانى. باسم التنبؤ أو باسم الأوصياء الشرعيين من قبل الله.. وأبطل قول كل من يدعى العصمة، ولا يفيد معنى انتهاء النبوة انتهاء الدين لأن الحياة الدينية باقية ببقاء الوحى الإلهى وهو القرآن وسنة نبيه.

ثالثا: دعا الإسلام العقل إلى أداء وظيفته، ووظيفة العقل فى نظر الإسلام: أن يقوم بعبء وظيفته الشرعية ، وهى الفهم ، والتدبر، والتفكر، وألا يدع وظيفته هذه لأى مضلل ينهاه عنها.

قال تعالى(٢): ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾

بذلك أرشد العقل إلى أخص وظائفه: وهو الفكر، حتى ولو كان فى القرآن أو فى مصدره. وكان هذا الوضع طبعيا من دين ألغى طريقا طويلا ازدحم فيه متنبئون كاذبون: وإنها لدعوة استجاب لها التاريخ نفسه على مستواه العالمى.

١ـ جزء من الآية (٣) من سورة (المائدة)
٢ـ الآية (٨٢)من سورة (النساء)

رابعا: ألغى الخوف الذى يدفع الإنسان ليتوسع فى المقدسات بقوله تعالى[١]:
﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾.

بذلك رفع عن كاهل الإنسان عبء الخوف الدافع إلى الذلة، ليحل محلها: الخشية لله فقط.. فرد بذلك إلى الإنسان اعتباره.

خامسا: يعتبر الإنسان فى نظر الإسلام: «خليفة الله» وصور الرسول مهمة هذا الخليفة بقوله: «لو تعلقت همة ابن آدم بما وراء العرش لنالته» ومعنى ذلك أن على الإنسان أن ينهض بعبء خلافته، وأن عليه فى سبيل ذلك: الأخذ بمبدأ الشورى الذى قرره الإسلام، فإن سلك سبيل الإسلام ألغى الحكم الفردى من طريقه وكل تصوره عن المستبد العادل.

والله -وهو حقيقة العقيدة الإسلامية- ليس جبارا ولا متحيزا للمسلمين، كإله اليهود أو أى إله فى أى دين. إنما الله فى الإسلام هو من تتحدث عنه آياته فى الكون حديث العقل تارة وحديث الوجدان تارة أخرى، وفى ذلك كله ما يؤكد المعرفة فى النفس الإنسانية، ويعين الإنسان على تفهم وجوده فى واقع الوجود.

فعقيدة المسلم، قوة من الحب، وليست ضعفا من الخوف، فجعلها الإنسان حين حملها مما يتفتح بها عقله ويطمئن إليها وجدانه.

أما حين تخلى عن رسالة الإسلام- وكفاه منها انتسابه الاسمىّ إليها- فإنه تردى إلى طبيعة الخوف، فجبن دون مسئوليته أمام الإسلام، وانقاد مع الخرافة التى تسللت إلى مخاوفه، وأعانته على توسعة معنى المقدس مرة ثانية، وتلك مرحلة يقاسيها دعاة الإصلاح.

بذلك كان الدين الإسلامى بما قدمه للعقل الإنسانى- من بين سائر الأديان التى حفلت بها المنطقة العربية- هو الصورة الوحيدة فى التاريخ التى تجاوبت معها الإرادة العربية.

١ـ من الآية (٣٧) من سورة الأحزاب

أما الآن فإن الإرادة العربية متخلفة كثيرا عن فكرها لعوامل كثيرة ترجع – في نظرنا – إلى نوع الولاء والحكم، فبعض هذه الدول محكوم بعصبية الزعامة الأسرية، والبعض الآخر، محكوم بعصبية الزعامة الثورية. وفي الشكلين معاً كان ولاء الحاكم لنوع عصبية انتمائه، أما الولاء الشعب، فغير متبادل بينهما إلا بما تحتمه ضرورة المجاملات، وإذا كان الفكر لا يعرف ولاء غير ولائه الإنساني، فإن نظم الحكم عاقت تجاوب الإرادة معه، وفي هذا كله ما يعوق النهضة العربية الإسلامية عن بعثها الحقيقي، لكن متى تتجاوب الإرادة العربية لتقوم بعبء رسالتها مرة ثانية؟

دكتور / محمد إبراهيم الفيومي

مصر الجديدة في

١٠/ ١١ / ١٣٩٩ هـ .

١ / ١٠ / ١٩٧٩ م .

الباب الأول

الشرق السامى وحدة حضارية ودينية

مفهوم الشرق وأهمية دراسته

إن التصورات حول انقسام المعمورة إلى غرب وشرق، قد تشكلت- على ما يبدو- فى غزو الإسكندر للشرق، ثم أخذت تظهر مع عصر الحروب اليونانية- الفارسية، وبدأ الصراع يزداد مع الصراع الثقافى، وسيطرت على العقل اليونانى فكرة تصارع الهلينية والبرابرة: الغرب والشرق، ثم أخذ الصراع بينهما يزداد فى الاهتمام بتفسير الفروق الحضارية من خلال الاختلافات الجغرافية والظروف الاجتماعية والتاريخية والثقافية. ومع تطور البحوث عن الشرق القديم ازدادت الحاجة إلى تحديد مفهوم الشرق فى صيغة دقيقة متعارف عليها جغرافيا ويكون مفهوماً تاريخيا حضاريا وذلك فى إطار قضية أوسع، وهى قضية العلاقات بين الشرق والغرب.

ولم يكن مفهوم الشرق فى تصور العلماء المعاصرين قد تحدد جغرافيا ولا زمنيا بقدر ما هو مفهوم حضارى، ولم يكن بعد قد حصل على صيغة دقيقة متعارف عليها لدى المختصين بشئون الشرق القديم.

فمفهوم الشرق بالنسبة للرومان، يعنى كل ما يقع شرق إيبريا ثم أصبحوا فى عصر الإمبراطورية يقصدون: مصر والأقاليم الواقعة فى آسيا الأمامية، وكذلك جزء من تراقيا، ثم انحصر المفهوم بسورية فقط،ثم بدأ يتحدد مع بداية القرن التاسع عشر والقرن العشرين حتى شمل المجتمعات القديمة كمصر، وبلاد ما بين النهرين، وفلسطين ، وإيران، ثم توسعت نتيجة الاكتشافات الأثرية التى جرت، وأصبحت تضم هضبة الأناضول والجزيرة العربية، ثم مجتمعات الهند والصين وذلك تبعاً للظواهر الاجتماعية المتشابهة.

وإذا كانت عادة المؤرخين قد جرت على اعتبار أن التاريخ فى المعنى الحقيقى للكلمة يبدأ بظهور النصوص الكتابية الأولى، أى فى تخوم الألفين الرابع والثالث ق.م. وكل ما يسبق ذلك التاريخ قبل هذا الزمن فيطلق عليها ما قبل التاريخ، ولذلك فإن كل ما يتسنى معرفته حول هذه المرحلة يندرج اندراجاً عضوياً فى نطاق تاريخ الشرق القديم.

وفى بدايات اللقاءات بين الشرق والغرب فى العصر الحديث اصطلحت أوربا على تسمية الشرق القديم بالشرق الأدنى، وبصورة غير محددة على الجزء الجنوبى الغربى من آسيا المتاخمة لأوربا، ثم اقتبسته الولايات المتحدة وأضافت إلى رقعته بلدانا هى أقرب إلى الشرق الأقصى منها إلى الشرق الأدنى ، وقد ظل هذا المصطلح الجغرافى-الشرق الأدنى –شائع الاستعمال حتى الحرب العالمية الثانية، وذلك كما يقول فيليب حتى: عندما أنشأت الحكومة البريطانية منطقة عسكرية تمتد من إيران إلى ليبيا وأطلقت عليها اسم الشرق الأوسط، وهو مصطلح كان حتى ذلك الحين يضم عادة الهند والبلدان المجاورة لها، ثم أنشئ بعد ذلك فى القاهرة مركز تموين الشرق الأوسط ، الذى أصبح فيما بعد مشروعاً إنجلو أمريكانيا، وهكذا أصبح هذا المصطلح الجغرافى: الشرق الأوسط مصطلحاً شائع الاستعمال،وتبرز أهمية دراسة الشرق الأوسط من عدة وجوه.

* من حيث موقعه الجغرافى: فهو يقع فى المنطقة الذى يجعل منها مركزاً للمواصلات الدولية التى تربط القارة الإفريقية بأوربا وآسيا.

* إنه مهد أعرق حضارة توصل فيها الإنسان إلى أقدم الاكتشافات وأعظمها خطورة، وأبعدها أثراً فى تقدم الحضارة الإنسانية

* وفيه أيضا نشأت ثلاث ديانات سماوية موحدة.

* وأنه منطقة تضم أقدم الوثائق التاريخية حول حياة الإنسان القديم وأطولها بقاء فى الزمن.

* لذلك خلف الشرق القديم للأجيال التالية تراثاً غنيا من العلم والفن والأدب والفلسفة، وليس هناك رقعة جغرافية أخرى تناظره فى حضارته توفر لنا سجلا حضارياً حرص الإنسان القديم على تدوينه ليكون سجلا مطردا مثله استمر أكثر من خمسة آلاف سنة.

لذلك تذهب الدراسات التاريخية الحديثة إلى أن تاريخ الشرق القديم هو: أول فصل من تاريخ البشرية الحضارى لما له من فضل السبق الحضارى الدينى، والثقافى. كما أظهرت الدراسات التاريخية الحديثة أيضاً أن لحضارات الشرق القديم أعظم التأثير على الحضارة الإغريقية الرومانية والحضارات العربية الإسلامية.

* وليست دراسة الشرق القديم وليدة اليوم أو الأمس، فمنذ أن عرف الإنسان سبيله إلى كتابة التاريخ وظهر مؤرخون وحديثهم عن الشرق لا ينقطع، فقد تضمنت أعمال المؤرخين: اليونان والرومان القدماء معلومات قيّمة حول تاريخ وحضارة وديانات المصريين القدماء والبابليين والفرس والهنود والعرب وشعوب أخرى،

ولكن الدراسات العلمية الحديثة للشرق القديم لم تبدأ فى أوربا إلا فى عصر التنوير، وطوال القرن التاسع عشر بدأ العلماء يتجهون إلى أعمال البحث والتنقيب عن معالم الحضارات الدارسة فيما يظهر لهم من اللقى والآثار والنقود وما عليها من رموز كتابية، ويعكفون على فك ما يظهر لهم من كتابات حضارات الشرق القديم من الهيروغليفية، المصرية القديمة، والفارسية،و البابلية والآرامية.

* ولقد أحدثت البحوث، التى جرت فى مصر وبلاد ما بين النهرين وإيران والجزيرة العربية، نجاحاً جديداً فى مجال دراسة حضارات الشرق القديم، إذ تطورت طرق وأساليب القيام بالحفريات الأثرية، وارتقى المستوى النظرى للدراسات والبحوث المكتبية، وأصبح علماء الآثار والمؤرخون، وعلماء اللغة، يستعملون طرقاً جديدة تماماً لمعالجة المصادر الأثرية والتاريخية، ويستخدمون بصورة واسعة منجزات العلوم الطبيعية وغيرها مما أتاح لهم تناول المادة على نحو جديد، واستخلاص معلومات غزيرة من أدلة الماضى التى لم تؤخذ سابقاً بعين الاعتبار إطلاقاً؛ فإن علم النباتات القديمة، مثلا ييتيح استرجاع الظروف البيئية التى كانت تعيش فيها القبائل الزراعية الباكرة، كما أن استخدام الوسائل التكنيكية الحديثة لدراسة الأدوات تطورت تبعا لدرجة رقة أطرافهاالقاطعة.

* كذلك وتشكّل معطيات علم تاريخ اللغات أهمية فائقة بالنسبة لبحث بعض مراحل ما قبل التاريخ البشرى، وهنا تجدر الإشارة بشكل خاص إلى بعض الفرضيات الهامة جدا التى طرحها العلماء السوفييت وإلى المشاريع التى يقومون بتحقيقها، وربما كانت أهم هذه الأعمال وأنجحها؛ البحوث المتعلقة بعلم اللغة التاريخى المقارن، وخاصة فى مجال التشبيهات اللغوية البعيدة.

ومما تجدر الإشارة إليه: الإشارة إلى اكتشاف ما يسمى بمخطوطات البحر الميت في عداد أهم المكتشفات العلمية في القرن العشرين؛ ففي عام ١٩٤٧ عثر الفتى البدوي محمد الديب من عشيرة تعامره على لفائف جلدية مليئة بمختلف الكتابات في إحدى مغارات الشاطئ الشمالي الغربي للبحر الميت في منطقة مقفرة بوادي قمران « الأردن» التي أسفرت عن اكتشاف ٤٠ ألف قطعة من المخطوطات تمثل بقايا لحوالي ٦٠٠ من المؤلفات المختلفة التي تتضمن الكتب المقدسة والأسفار والمؤلفات الدينية التي وضعها أفراد طائفة دينية سكنت في هذه الأماكن المعزولة في أواخر القرن الثاني ق.م. واصطُلِح على تسميتها حاليا بجماعة قمران، إن مقتطفات كتب التوراة المكتشفة في وادي قمران تتيح تتبع تاريخ النصوص المقدسة، وهذه الكتب أقدم بخمسمائة سنة تقريبا من المخطوطات المعروفة، وتفتح فصلا جديداً في ميدان نقد التوراة، إن المؤلفات الهامة لجماعة قمران -الميثاق-، والوثيقة الدمشقية، ملف الحرب، والأناشيد وغيرها، تعبر عن أيديولوجية هذه الطائفة الدينية المعارضة لليهودية الرسمية وعن نظرتها الاجتماعية، ومبادئها التنظيمية، وكان مؤسس هذه الجماعة وزعيمها الروحي شخص مجهول الاسم لقِّب بالمعلم الصالح، وكان القمرانيون يعتقدون أن الإله أودعه الأسرار المجهولة حتى للأنبياء.

* إن النظرات الثنوية والمهدوية والأخروية لجماعة قمران ومبادئهم الاجتماعية والتنظيمية قد مارست على ما يبدو تأثيراً كبيراً على تشكل الجماعات المسيحية المبكرة في القرن الأول الميلادي، من هنا كان اختراع الكتابة من أعظم منجزات العصر القديم، ولا يمكن المبالغة في تقدير أهمية هذا الاختراع . وكان القدماء أنفسهم يدركون هذه الحقيقة تمام الإدراك، فليس عبثاً أنهم اعتبروا الكتابة هبة من الآلهة فقد كان الإله طوط عند المصريين خالقاً لفن الكتابة وراعيا له، وعند البابليين الإله نابو، وعند الهيليين الإله هرميس.

* ولم تصبح الكتابة مجرد وسيلة لحفظ وتخزين المعلومات وأداة لمساعدة الذاكرة البشرية المحدودة الإمكانيات فحسب، بل غدت كذلك قوة فعالة وعاملاً من أهم العوامل لتحويل حياة المجتمع وثقافته، ومن المعروف أن ممارسة الكتابة والقراءة تغيِّر طابع تفكير الإنسان المرتبط بها، ومع ظهور الدولة والكتابة يفصل العصر القديم

عن العصور البدائية ويشير إلى فجر الحضارة وبداية تاريخ البشرية الحقيقي، وتعتبر كتابة ما بين النهرين أقدم كتابة في العالم، كما اكتشفت في مغارات الصحراء اليهودية بعض المخطوطات التي تعود إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين والمدونة باللغات الآرامية والنبطية واليونانية، ونتيجة لأعمال التنقيب التي جرت خلال العامين ٥٢، ١٩٥٣م في «خربة مرد» وقعت في أيدي العلماء مخطوطات باللغتين السريانية واليونانية، وكذلك مخطوطات عربية تعود إلى القرون ٤ ـ ٨ الميلادية، ومقتطعات من المؤلفات الإنجيلية والأسفار الدينية والوثائق العملية، بل وحتى مقطع من مسرحية «يوريبيدوس» اندروماخا ـ القرن السادس.

إن مخطوطات البحر الميت ذات أهمية عظيمة بالنسبة لفهم العمليات التاريخية المعقدة التي كانت تجرى في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط في أواخر القرن الأول ق.م، ومطلع القرن الأول الميلادي، فهي تلقي ضوءاً ساطعاً على الوضع والظروف الاجتماعية والمناخ الديني والأخلاقي والفكري، الذي كان يكتنف عملية تكون المسيحية ولقيام لجنة دولية من العلماء أنشئت خصيصاً لهذا الغرض(١).

* ويبرز لنا من خلال نشاط علماء الآثار أن الشرق الأوسط يشكل وحدة حضارية ودينية يتسع مداها مع التاريخ، ويقوى تفاعلها الديني بين شعوبه، ويعتبر هذا الإرث الروحي يفوق هذه التقدمات المادية خطورة وأهمية وإن بدا ذا مظاهر وثنية فهو ينبئ عن عراقة الجانب الديني والعقدي في الإنسان وقوته في البناء الحضاري وتوجيهه.

الشرق وحدة حضارية ودينية:

نسوق بعضا من نماذج كثيره ليتبين: أن أعرق شئ في الأساس الحضاري، هو الدين، من حيث هو حقيقة موجهة إلى الله، وإن كانت الطفولة البشرية تدنسه بمظاهر الوثنية.

---

(١) ـ الجديد حول الشرق القديم ـ بإشراف العضو المراسل في أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي ـ السابق ـ بونغارد ـ ليفين ـ دار التقدم ـ موسكو.

١ـ حفائر البحرين :

ـ خلال الفترة الواقعة بين أواخر الخمسينيات وبداية السبعينيات عملت فى البحرين والساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية بعثة أثرية إنجليزية وهولندية مشتركة بإشراف ج : بيبى، والمعروف لدى علماء الآثار أن البحرين (ديلمون أو تلمون) كانت تشغل مكاناً خاصاً فى التصورات الميثولوجية والتاريخية لسكان ما بين النهرين القدماء، ففى النصوص السومرية القديمة كانت هذه الجزيرة تسمى أرض السعداء وتعتبر بمثابة الجنة السومرية، وقد تسنى للعلماء أن يبرهنوا على أن البحرين لم تكن عند السومريين مركزاً هاماً للعبادة فحسب بل كانت أيضاً منطقة عبور هامة للتجارة البحرية التى كان يمارسها التجار السومريون والبابليون فى الألفين الثالث والثانى ق.م. وعن طريق البحرين كانت تعقد الصلات مع (مالوه) حضارة حوض السند، وعثر علماء الآثار فى البحرين على بعض المعابد الضخمة لشعوب ما بين النهرين التى شيدت فى الآلاف ٣-١ ق.م كما اكتشفوا عند الشاطئ الشرقى لشبه الجزيرة العربية عدة حضارات أثرية شبيهة بحضارة ما بين النهرين يرجع عهدها إلى الألف الرابع ق.م. كما أن لقايا الأختام المنبسطة الطلاسم من طراز (حرابا) تسترعى اهتماماً خاصاً لأنها تشهد على الصلات النشيطة القائمة بين الحضارات القديمة للهند وسومر.

٢ـ حفائر جورجيا :

ـ إن حفريات علماء الآثار الجورجيين فى مدينة فانى ـ مدينة صغيرة تقع عند ثغر سولورى الرافد الأيسر لنهر فازيس القديم الذى يسمى حاليا ريونى -لا تزال مستمرة، ولا شك فى أنها ستغنى العلم بشواهد وأدلة جديدة وهامة حول الحضارة القديمة والفريدة لشعوب القوقاز، وقد أتاحت أعمال علماء التاريخ والآثار إعادة النظر فى تقييم مساهمة منطقة ما وراء القوقاز فى تطور حضارات الشرق القديم والحضارة اليونانية الكلاسيكية

٣ـ حفائر تركستان :

ـ وفى عام ١٩٥٤ بدأت دراسة الحضارات القديمة لتركستان الجنوبية لمعهد الآثار التابع لأكاديمية العلوم التركمانية برئاسة ف. ساسون، منذ عام ١٩٦٥م تجرى دراسة شاملة للمركز الضخم لحضارات آسيا الوسطى القديمة، وقد أدرجت الآثار

المكتشفة فى مدار المقارنات الحضارية الواسع مع معطيات الشرق الأوسط وهندستان التى تعكس الاحتكاكات والعلاقات الثقافية والاقتصادية القديمة، قد أتاحت إظهار عملية تطور الحضارة منذ المشاعة الزراعية المبكرة القديمة وحتى المنظومة المعقدة ذات الطابع الدينى، ففى ذلك الوقت كان هناك مركز عبادة ذو برج مدرج أقيم على غرار الزقورات السومرية. كما شهدت السنوات الأخيرة اكتشافات هامة فى أراضى أوزبكستان أيضا حيث إن بعثة معهد حمزة لتاريخ الفن طشقند قد ساهمت بقسط كبير فى دراسة تاريخ هذه المنطقة. وضمن الاكتشافات الجديدة يمكن الإشارة إلى المعبد البوذى الثانى الذى يقع داخل المدينة.

٤ ـ حفائر: داريا ـ أوزبكستان ـ طاچيكستان ـ افغانستان :

ـ لقد أطلق المؤرخون الإغريق على بالكتريا التى كانت تضم شمال أفغانستان وجزءا من منطقة سرحان داريكاأوزبكستان، وكذلك جنوب طاچيكستان ـ اسم بلد الألف مدينة، وخلال عشرة مواسم حفرية تم بصورة كاملة الكشف عن المعبد الذى يمثل تصميمه مخططا كلاسيكيا متطوراً لمعبد النار الشرقى. وتتصل بإيوان المعبد من الشمال والجنوب حجرات خزنات للنار المقدسة وكانت تملأ بالرماد والفحم، وقد ساعد اكتشافه على توضيح الجوانب المبهمة أو المفاهيم الخاطئة حول التراكيب الهندسية لبعض معابد النار، وإن الكتابات اليونانية القديمة المنقوشة على أحد مذابح المعبد العديدة تشير إلى أن المعبد كان يحمل اسم إله وكسوس الذى كان يقع على ضفته، وعلى مذبح آخر بقيت فى صورةواضحة حروف يونانية،واستنادا إلى كمية كبيرة من المعطيات الميدانية تسنى للعلماء أن يبرزوا على نحو واضح دور التقاليد المحلية فى نشوء الحضارة الهلينية البالكترية وإبراز شتى جوانب العلاقات بين شعوب هذه المنطقة ومختلف مناطق الحضارات القديمة الممتدة من الهند إلى البحر الأبيض المتوسط.

وهكذا تبدو بوضوح تام العناصر المكونة للفن اليونانى البالكترى فى ضوء المواد الأثرية المكتشفة فى معبد أوكسوس التى تضم تقدمات الأهالى والسلاح والأدوات المستخدمة فى الطقوس الدينية، وهى العنصر الشرقى الأصلى والعنصر الهلينى

المستورد، والعنصر الغاندارى المنصهر فى بوتقة واحدة ضمن التركيب اليونانى – الهندى.ومن السمات المميزة الهامة لهذا العصر انتشار البوذية فى بالتيريا، وبعض مناطق آسيا الوسطى.

٥ ـ معطيات حفائر آسيا:

ـ وتشير معطيات العلم المعاصر إلى أن آسيا كانت تضم ثلاثة مراكز أولية هامة للاقتصاد المنتج القديم كانت تقع فى آسيا الأمامية وجنوب شرق آسيا وشرقها، وظهر فى إفريقيا مركز واحد على الأقل (شمال شرق إفريقيا) كما نشأت مراكز ثانوية فريدة للزراعة القديمة ذات طابع خاص فى أفغانستان وإيران وشبه الجزيرة الهندية وبعض المناطق الأخرى . لقد كان مركز آسيا الأمامية من أقدم مراكز الزراعة المبكرة، وهو يمتد من آسيا الصغرى إلى الحدود العراقية الإيرانية. (جبال زجروس) ومن فلسطين حتى ما وراء القوقاز، وفى العديد من مناطق آسيا الأمامية كانت تنمو بعض أصناف الحبوب البرية والنباتات القرنية.

وفى الألف السابع ق.م. مارس مركز الساحل الشمالى للبحر الأبيض المتوسط (فلسطين وجنوب غرب سورية) والمراكز الواقعة فى شمال سورية وجنوب شرق الأناضول وجنوبها وزجروس من شمال العراق حتى جنوب غرب إيران ومركز ما وراء القوقاز، بعض التأثير على المنطقة الإفريقية المجاورة له، وقد تشكل فى جنوب شرق الأناضول وشمال سورية مركز ميكر للزراعة القديمة فريد من نوعه وينقسم هذا المركز من وجهة النظر التاريخية للحضارة إلى منطقتين: جنوب شرق الأناضول، وشمال سورية، وكان سكان شمال سورية فى العصر الحجرى الحديث يجرون تبادلاً تجارياً نشيطاً مع أهالى الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط. إن هذه المناطق كانت تقع ضمن منطقة انتشار الزراع السوريين الشماليين، وأنه تشكلت هنا بالذات فى النصف الأول للألف السادس الوحدة البشرية التى أرست بداية سكن واستقرار الزراع فى مختلف أرجاء بلاد ما وراء النهرين.

أما المركز الصغير الثالث فقد كان يقع فى جنوب الأناضول، وفى مطلع العصر الحجرى الحديث تقاربت الجماعات القاطنة فى هذه المنطقة حضاريا مع سكان جنوب شرق الأناضول وتأثيرهم.

٦ ـ حفائر شبه الجزيرة العربية:

ـ لقد كان مناخ الجزيرة خلال الآلاف ٦ـ٣ ألطف بكثير مما هو عليه الآن، وتوفرت هنا فى العديد من الأماكن الظروف الملائمة لتطور الزراعة والرعى، وللأسف لا يزال تاريخها المبكر جداً غير مدروس حتى الوقت الحاضر، ولكن من المعروف أن مستوى مجتمعات الجزء الشرقى من الجزيرة العربية لم يكن أدنى إلى حد ملحوظ من مستوى حضارات ما بين النهرين، وكانت تزرع هناك آنذاك أشجار النخيل، وبعض النباتات الأخرى، وفى المناطق الداخلية للجزيرة العربية كان السكان يمارسون الرعى، ومع مرور الزمن استطاعوا تدجين الجمل ذى السنام الواحد .

٧ ـ حفائر مصر:

وفى مصر اكتسبت مراقبة الفيضانات وضبطها أهمية بالغة بالنسبة للزراع القدامى عندما بدأ المصريون بناء الأقنية وإقامة السدود والجسور والقناطر لمجابهة نزوات نهر النيل الهائج ـ وتنظيم منسوب مياه النهر ـ وأصبحت مصر العليا ضمن منطقة التأثير المباشر أو غير المباشر لمركز آسيا الأمامية، لكن أعمال الرى الضخمة لم تبدأ إلا فى عصر الفراعنة، وبفضل الانتقال إلى الزراعة والرعى أرسيت المقدمات المادية الثابتة لتشكيل الحضارة.

٨ دراسة تاريخ الكتابة :

ـ منذ زمن طويل يعكف العلماء على دراسة تاريخ الكتابة، وبالرغم من أنه لم تتضح بعد أشياء عديدة فى هذا المجال فقد تسنى تحقيق الكثير فيه، فقد استطاع العلماء أن يبينوا كيفية نشوء بعض الأبجديات، وأن يتقصوا أصل العديد من الأنظمة اللغوية وطرق تطورها، وأن يظهروا الترابطات والتعاقبات القائمة بينها، وهم يفترضون أن

أقدم الكتابات قد ظهرت بمعزل عن بعضها البعض، وذلك فى عدة مراكز فى مصر وبلاد ما بين النهرين (جنوب العراق) ثم فى الصين خلال فترة لاحقة؛ ويبدو أنه كانت ثمة مراكز أخرى مبكرة لتشكل الكتابة فى أوربا بشمال شبه جزيرة البلقان وفى شبه الجزيرة الهندية، بمنطقة وادى الهندوس.

٩ ـ كتابة ما بين النهرين:

ـ وتعتبر كتابة ما بين النهرين أقدم كتابة فى العالم، وأغلب الظن كما يذهب علماء الآثار أن الفضل فى اختراع هذه الكتابة يعود إلى السومريين، وهم شعب كان يعيش فى جنوب العراق خلال الألفين الرابع والثالث ق.م.، وفى أوقات لاحقة استخدمت هذه المنظومة الكتابية أيضاً شعوب آسيا الأمامية القديمة الأخرى كالأكاديين والعيلاميين والإيبلائيين والحيثيين والأوغاريتيين والأورانيين والفرس، وذلك بعد تبسيطها وتكييفها مع حاجات لغاتها، وقد استمر استعمال الكتابة السومرية أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وترجع آخر النصوص المعروفة المدونة بالخط السومرى إلى منتصف القرن الأول الميلادى، أما أقدم هذه النصوص فتعود إلى حوالى عام ٣١٠٠ ق.م، وعلى هذا النحو فقد بدأ تاريخ الكتابة السومرية الأولية على تخوم الألفين الرابع والثالث ق.م، وبلغ خمسة آلاف سنة.

ـ ويرى بعض علماء الآثار والتاريخ أن اكتشاف أوانى بلاد ما بين النهرين فى منطقة بعيدة يتيح الحديث عن وجود تجار سومريين فى المستوطنات السورية والعيلامية، وحتى فصائل عسكرية سومرية كانت تقوم بحراسة طرق القوافل.

ـ وعندما نقرأ الكتب نجد أنها تجسدت فيها روح العباقرة البشريين العظماء ويجدر بنا أن نتوقف أحيانا ونذكر بالامتنان والعرفان رواد الكتابة الأوائل وأن نتصور ولو مرة واحدة يوماً قائظا وبرجاً مستديراً لعنبر يجلس تحت ظلاله نفر من الشيوخ شبه عراة يكومون الكرات الطينية بأصابعهم.

١٠ ـ ديانة مصر القديمة

ـ وضع العالم السوفيتي ـ كورستوفتسيف ـ وهو عالم أثرى تخصص فى مجال المصريات كتاباً عنوانه ـ ديانة مصر القديمة، ويتسم هذا العمل بالأصالة من حيث الاستنتاجات ويتميز بمستوى علمى رفيع وتحليل للنصوص، وقد أدخل الكثير من الأمور الجديدة على علم المصريات العالمى.

ويتناول الكتاب بالبحث مختلف أوجه المعتقدات الدينية عند المصريين القدماء مثل عبادة: الرقى والطوطمية، واللاهوت، والكونيات ، والتصورات حول الحياة الآخرة، ويؤكد المؤلف على أن نشوء الأديان هو عملية تاريخية، وأن الدين ذاته، وفى مصر بالذات هو بناء فوقى إيديولوجى يرتفع فوق القاعدة المادية للمجتمع، إلا أنه يكتسب بعد ظهوره نوعاً من الاستقلالية تجاه البناء التحتى، ويبين المؤلف أنه لم تكن فى مصر أبداً عقائد دينية واحدة لكل بلد، فقد كانت الديانة المصرية تمثل ظاهرة معقدة جدا تتجلى فى المجتمع بين معتقدات متناقضة غالباً، ومتعارضة أحياناً، وقائمة فى أوقات مختلفة وفى شتى البلاد.

١١ ـ حفائر تل مرديخ:

ـ فى منتصف الطريق بين المدينتين السوريتين: حلب وحماة، تنتصب هضبة كبيرة تسمى ـ تل مرديخ ـ، وفى مطلع القرن الحالى قامت بعثة أثرية فرنسية بحفريات اختيارية فى موقع تل مرديخ ـ واتضح أن أهالى تلك المدينة الرئيسية لهذه الإمبراطورية التى قامت فى آسيا الأمامية كانوا يتكلمون باللغة الكنعانية القديمة، التى تعتبر سلف اللغتين، الفينيقية والعبرية القديمة، وضمن الأديان التى كانوا يعبدونها كان الرب باوم يشغل مكاناً خاصاً، كما تبين أن أحد ملوك المملكة المكتشفة حديثاً كان يدعى ـ إيبريوم ـ مما حدا ببعض العلماء إلى مقارنته بجد الساميين عبر، ونصادف فى النصوص أسماء أعلام مثل: دلـ أو ـ دو (داوود) وميكائيل وإسرائيل، وكذلك تسميات العديد من المدن الفلسطينية، وحتى مدينتى سدوم، وعمورية، ويبدو أن شعب ـ إيبلا كان أول من استخدم الكتابة السومرية لتدوين لغته. ولقد

برع الإيبلائيون في استخدام هذه الكتابة إلى حد لا يقل عن السومريين والأكاديين ذاتهم، وكان شعب إيبلا يعبد آلهة متعددة، وكان مجمع الأرباب يضم الآلهة الكنعانية القديمة مثل بعل وكيموش، وتذكر لوحات الأرشيف في إيبلا حوالى ٥٠٠ من مختلف الأرباب، ويبدو أن «دجن» كان أهم رب عندهم والذى ظل يتصدر لائحة مجمع الأرباب الكنعانية، ويعنى اسم ـ دجن ـ الغيمة أو المطر، أما زيش إله الشمس فكان شأنه شأن إله الرعد ـ حدد ـ عدا ـ والإلهان كورا، وكاكاب كانا يظهران بصفة شاهد وكفيل لدى توقيع المعاهدات وعقدها،والإله كاشارو،والإله الكنعانى المشترك بعل، وهناك إلهان: رب الأنهار، وكانوا يعتبرون الرب دابر حامياً لمدينتهم، وهو الرب الذى يرد ذكره في التوراة، ولكن ليس كإله وإنما بمعنى «وباء الإله عقابه» من هنا يظهر أن العديد من الظواهر الحضارية والتاريخية التى عرفتها سورية وفلسطين إلى حضارات النيل والفرات مما يشكل معنى التزاوج الحضارى، ولا سيما وحدته الدينية.

١٢ ـ بابل :

ـ وإن السمة الأساسية لبابل كما يرى ـ داندامايف ـ كانت تكمن فى عدم غرس روح التعصب الدينى تجاه معتقدات الشعوب الأخرى، وكان الغرباء المقيمون فى بابل يتخذون أسماء بابلية مركبة تتضمن أسماء الآلهة مثل : ندنتو ـ بعل هبة الرب بعل ـ وبعل ابن مخلوق الرب بعل، وقد كان البابليون يسمون أولادهم بأسماء مركبة من أسماء آلهة الشعوب مثل: متريدات ـ عطية الرب مترا، نسبة إلى اسم الرب الإيرانى، وإلى جانب ذلك فإن الشرق القديم لم يعرف الخلافات والصراعات القائمة على أساس دينى أو الحقد العرقى أو الشعور بتفوق شعب على شعوب أخرى. وكان الغرباء يندمجون بسهولة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية لوطنهم الجديد، وكان ذلك مثار إعجاب المؤرخ اليونانى هيرودوت، فعلى سبيل المثال كان السومريون والأكاديون- وهما شعبان مختلفان من النواحى العرقية واللغوية والحضارية-يعيشان جنبا إلى جنب فى سلام فى منطقة واحدة، وعلى قرون عديدة

إلى أن خرجت اللغة السومرية من حيز الاستعمال الواسع إلى لغة العبادة، والأدب والعلوم.

أما السومريون أنفسهم فقد اندمجوا بالأكاديين فى عملية تاريخية طبيعية، وكذلك عندما أنشأ الآشوريون إمبراطوريتهم الضخمة فى القرون ٩ـ٧ ق.م أخذوا ينتقلون بالتدريج إلى استعمال لغة القبائل الآرامية، ثم اندمج الآشوريون بالآراميين، ويغدو تمازج وتفاعل عناصر الثقافات الشرقية واليونانية من أهم ملامح الحضارة الهلينية، ولكن بابل لم تقطع تقاليدها المحلية فى عهد ملوك الفرس واستمرت الحضارة.

١٣ـ حفائر الشرق الأدنى:

البابلية القديمة فى تطورها الذى لم يتوقف بعد احتلال المقدونيين. بعد الاكتشافات التاريخية ـ الأثرية العظيمة التى جرت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين فى بلدان الشرق الأدنى ومصر وإيران والهند والتى جعلت الآثار الرائعة للحضارات القديمة فى هذه البلدان فى متناول العلم العالمى والحضارة العالمية، وساعدت على إعادة رسم لوحة التاريخ البشرى فى مراكزه الرئيسية، وأصبحت دراسة الجزيرة العربية تكتسب أهمية أكبر فأكبر باعتبارها واحدة من أبرز قضايا العلوم التاريخية المعاصرة، مهد الإسلام وأحد مراكز الحضارة البشرية غير المدروسة وتحولها من بلاد غامضة إلى بلاد معروفة، وتحديد مكانتها الحقيقية فى المسار العام وللتاريخ العالمى، وإن الفحص التاريخى الأثرى للقسم الشمالى الشرقى ـ البحرين ـ والقسم الجنوبى الغربى ـ اليمن ـ والبحوث التى تجرى فى أواسط الجزيرة العربية؛ قد بينت وجود مراكز قديمة للحضارات البشرية هناك أسهمت منجزاتها بقسط كبير فى تاريخ الحضارة العالمية، وقد لعبت هذه المناطق من الجزيرة العربية دوراً هاماً فى إقامة الاتصالات البرية والبحرية بين دول الشرق القديم، وفى عملية تبادل المواد الطبيعية والمصنوعات الحرفية والإنجازات الحضارية والتكنولوجية بين شعوب حوض البحر

الأبيض المتوسط والشرق الأدنى والأوسط والهند وشمال شرق إفريقيا فى العصورالقديمة، وكذلك فى القرون الوسطى جزئيا، مثل هذه الصلات كانت عاملاً هاماً من عوامل الحياة الاقتصادية والثقافية خلال العصور القديمة والوسطى التى أعطت زخما لعملية التقدم العام، وأخيراً فإن الجزأين الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى من الجزيرة العربية لم يقعا على مفترق الصلات التجارية الدولية فحسب بل كانا-ومنذ أوائل العصر الحجرى- حلقة وصل تارة ونقطة انطلاق تارة أخرى لحركات النزوح الكبيرة التى حددت فى نهاية المطاف الملامح العامة للخارطة الحضارية واللغوية للشرق الأدنى والبلدان المتاخمة له، ولقد أسفرت الكشوف البحرينية: معبد مكرس لآلهة الخصب عشترم، ومعبد آخر لإله الشمس، ومعبد لآلهة الأمومة والحب، وتشير بعض النقوش إلى أن التقرب للآلهة تجزى وفاء النذر أو توسلاً لغفران الذنوب المقترفة وهذه النقوش تسمى ـ المسند ـ وتعتبر مصدراً هاماً جداً لمن يشتغل فى تاريخ ولغة وحضارة جنوب الجزيرة العربية، وهى المادة الأساسية اللازمة لإعادة السند التاريخى لهذه المنطقة؛ ويرى علماء الآثار أن هناك تقاربا بين لغة أقدم نصوص الكتاب المقدس للفرس القدامى أفيستا، والكتاب المقدس للهنود القدامى ـ الفيدا، وكذلك بين دياناتيهما من حيث ـ التصورات ـ الجنة والنار، ومصطلحات الطقوس، وتقديم النبيذ للآلهة، والمشعل والمذبح والخلود وعبادة الآلهة والالتزام؛ يذهب فان وديل وهو من أوائل الذين عملوا فى فك الرموز إلى أن السومريين والآراميين فى عصر الفيدى هم شعب واحد على أساس أنه قرأ أسماء الآلهة السومرية وأبطال ملاحم هندية من خلال ما عثر عليه من أصول سومرية لكلمات من مختلف اللغات الهنداوربين اليونانية والسنسكريتية والهندوسية.

نظريات ومذاهب فى تحديد موطن الساميين الأصلى

اختلف المؤرخون حول موطن الساميين الأصلى اختلافاً كبيراً يدور على عدة مذاهب:

أولاً - المذهب الإفريقى:

يرى: أن الساميين نشأوا فى بلاد أفريقية أول الأمر وأقاموا بها زمناً طويلاً، ولما ضاقت بهم هاجروا إلى الأماكن التى استقروا فيها فيما بعد، ويبين أصحاب هذا الرأى رأيهم على أسس جسمانية فيقولون « إن هناك تشابها فى الخلقة بين الحاميين، أو سكان أفريقيا، والساميين، وبخاصة من كانوا يسكنون جنوبى بلاد العرب.

وينقسم أصحاب هذا الرأى إلى طائفتين:

فطائفة تقول: إن الساميين كانوا مع الحاميين يسكنون شمالى أفريقيا فى مصر وما حولها، وأن هجرتهم إلى آسيا كانت بطريق برزخ السويس.

وطائفة أخرى تقول: إنهم كانوا معاً فى بلاد الحبشة وإن هجرتهم منها إلى بلاد العرب كانت بطريق بوغاز باب المندب. هذا رأى دلت الدلائل على أنه ضعيف مردود؛ لأن التاريخ يذكر لنا أن أول هجرة للساميين كانت من آسيا إلى أفريقيا لا العكس، وأما ما عرف من تشابه بين الحاميين، وبعض الساميين فى بعض الصفات الجسمانية؛ فسببه أن الساميين سكان جنوب الجزيرة العربية اختلطوا هناك بالكوشيين المنحدرين من أصل الحاميين، لأنكوش من أبناء حام وتصاهروا معهم[1].

---

(١) يراجع الأمم السامية مصادر تاريخها وحضارتها - حامد عبد القادر عضو مجمع اللغة العربية - مراجعة د. عولى عبد الرءوف طبعة دار النهضة.

ثانيا ـ المذهب الأرميني:

يقول: إن المواطن السامي الأصلي هو قاطن بعض جهات أرمينية؛ ويرى أصحاب هذا الرأي، وفي مقدمتهم ـ أرنست ـ صاحب كتاب تاريخ اللغات السامية، الذي كتبه بالفرنسية؛ يذهب فيه إلى أن الساميين هاجروا أولاً من جهات في مقاطعات أرمينية الواقعة حول إقليم أرمينيا الجبلي في شمال الكردستان الحالية، الواقعة شمال العراق، ويستدلون على ذلك بأدلة مستقاة من روايات التوراة، ومما نقل عن بعض أحبار اليهود.

فهذا الرأي يوصف بأنه رأي نقلي؛ لأنه مأخوذ عن الغير، وليس له أي دليل وهذا الرأي لا يمكن الأخذ به؛ لأنه أصبح من المؤكد الآن، أن مؤلف سفر التكوين، الذي هو مصدر تلك الروايات لم يستند فيما كتب إلى أدلة علمية يقينية، بل كان يأخذ المعلومات من أفواه الرواة والقصاصين، الذين ذهبوا في رواياتهم مذاهب شتى، غير يقينية فيما يتعلق بموطن الساميين الأصلي.

يقول نولدكه، المستشرق الألماني:

قل أن يوجد عالم محقق الآن يعتقد أن موطن الساميين الأصلي هو الشمال الأقصى من بلاد العراق [١].

ثالثا ـ الرأي التركستاني:

يذهب إلى هذا الرأي: طائفة كبيرة، من مستشرقي أوربا، وفي مقدمتهم ـ فون كريمر ـ يقوم هذا الرأي على نتيجة هامة، وهي: أن الساميين قبل تفرقهم، وتفرق لغاتهم الأصلية إلى لهجات مختلفة، كانوا يستعملون اسماً مشتركاً فيما بينهم، ولكن لم يكن لديهم اسم عام مشترك ـ للنخيل، ولا للتمر، ولا كلمة واحدة تدل على النعامة، أي أن الكلمات التي تدل على نخل، وتمر، ونعامة لا

(١) راجع مقالا عن اللغات السامية في دائرة المعارف البريطانية.

توجد بصورة واحدة، ولا بصورة متقاربة فى جميع اللهجات السامية، أما الكلمات التى تدل على جمل، فهى كلمة واحدة تقريبا فى جميع اللهجات، واستنبط ـ فون كريمر ـ من هذه الظاهرة؛ حقيقة جغرافية هامة، وهى: أن موطن الساميين الأصلى، لابد أن يكون بيئة قد استوطنها الجمل منذ أقدم العصور؛ وفى الوقت نفسه لا تعيش فيها النعامة، ولا يوجد فيها نخل.

ويوصف هذا الرأى بأنه رأى لغوى، لأنه يقوم على أساس لغوى، بحت، ومن ثم يصعب على الباحث، المحقق أن يجعله القول الفصل فى هذا البحث المشكل، فإن هناك أسباباً قوية تدعونا إلى الشك فيه، وتحول دون قبوله، وعده نهائيا فى حل المشكلة.

ومن بين هذه الأسباب: ما ذكره نولدكه شيخ المستشرقين، وهو : أن من الممكن أن نجمع عدة ألفاظ، تعد من الألفاظ العامة ـ المشتركة، التى ورثتها جميع اللهجات السامية، والتى لا تنطبق مدلولاتها على أشياء واحدة فى البلاد، التى يقول أصحابها هذا الرأى، أنها كانت موطن الساميين الأول، ولا فى بلاد بابل، التى يقال إنها موطن الساميين الأول.

رابعا: الرأى العربى :

يتلخص هذا الرأى: فى أن جزيرة العرب هى الموطن الأصلى للساميين؛ أول من قال بهذا الرأى هو: سايك الإنجليزىSayce فقد ذكر فى كتاب ألفه فى قواعد اللغة الآشورية، وظهر فى سنة ١٨٦٢ـ العبارة التالية : « إن جميع التقاليد السامية تدل على أن جزيرة العرب هى موطن الساميين الأول؛ فإنها البلاد الوحيدة التى بقيت، أى لم يؤثر فيها نفوذ أجنبى يخرجها عن طبيعتها، وأن مميزات الجنس السامى، التى منها: القوة فى العقيدة الدينية، والشجاعة الخلقية، وقوة الخيال؛ لابد أن يكون مصدرها الصحراء، وفى سنة ١٨٧٣ ـ أعلن شريدر الألمانى الرأى نفسه فى مجلة «تاس أو سلاند»، بحث فيه العلائق الدينية، والجغرافية، والتاريخية، واللغوية، التى كانت تربط الأمم السامية بعضها ببعض، ثم وصل إلى النتيجة نفسها، وهى: أن بلاد العرب كانت مهد هؤلاء جميعاً قبل أن يتفرقوا، وفى سنة ١٨٧٥ـ نشر

سبرنجر ـ الألماني Springer كتابه ـ جغرافية بلاد العرب القديمة، يذهب إلى نفس الرأي.

ولقد أيد «رايتر» الرأى القائل: بأن الهجرات السامية خرجت من قلب الجزيرة العربية إلى ما جاورها؛ فقد هاجرت جموع من العرب إلى سوريا، ومابين النهرين، واستولوا عليها؛ وقد حدث في القرون المسيحية الأولى أن استولى فريق من تجار العرب على مملكة «تدمر» غرب بلاد العرب، وأخضعوها لسلطانهم؛ وكذلك اقتسمت سهول سوريا الجنوبية ثلاث دويلات عربية هي : دويلات الغسانيين، والحيريين؛ وفي إبان الصراع مع الفرس، والروم كان الأكاسرة، والقياصرة يعتمدون على العرب المناذرة، حكام الحيرة، والغساسنة حكام الشام.

ولهذه الهجرات يذهب المؤرخون إلى تمييز الساميين إلى:

* الساميين الجنوبيين ـ بلاد العرب وأثيوبيا.
* الساميين الأواسط ـ يسكنون كنعان.
* الساميين الشماليين ـ الآراميين في سوريا.
* الساميين الشرقيين ـ في بابل وآشور.

ولكن كلهم على السواء كانوا أولاد بيت عربي واحد وأواصرهم المتبادلة تبرز في وضوح في اللغة والدين، والثقافة[1].

وخرجت هذه الهجرات بسبب تصدع سد مأرب في الركن الجنوبي من الجزيرة العربية، الذى ترتب على تصدعه إغراق جميع الأراضي الجنوبية، وهجرة كثير من القبائل القحطانية إلى الشمال في العراق، والحجاز، والشام، وكان منهم المناذرة والغساسنة، والأوس، والخزرج. يقول فيليب حتى: والحجة الجغرافية بالنسبة للجزيرة العربية تقوم على، أن البلاد صحراوية يحيط بها البحر من ثلاث جهات؛ ولذلك فإنه عندما يزيد السكان عن قدرة الأرض المأهولة الضيقة لإعاشتهم؛ فإنهم

(١) ـ تراث العالم القديم ص ٤٥.

يميلون إلى البحث عن مجال حيوى متيسر فقط فى الأراضى الشمالية الخصيبة التى تجاورهم، ويؤدى ذلك إلى الحجة الاقتصادية التى تقول: إن أهل الجزيرة الرحل كانوا دوماً يعيشون على ما يقرب من الجوع، وإن الهلال الخصيب كان أقرب مكان يزودهم بما يحتاجون إليه. (١)

خامساً ـ الرأى الدينى:

يذهب المؤرخون القدماء إلى تقسيم الأجناس البشرية إلى ثلاثة أجناس:

١ـ الجنس السامى ٢ـ الجنس الحامى ٣ـ الجنس اليافثى.

وذلك نسبة فى رأيهم إلى أبناء نوح ـ عليه السلام ـ الثلاثة؛ سام، حام، يافث، على حسب ما ورد فى الفصل العاشر من سفر التكوين، وقد قرروا أن أى جنس آخر لابد أن يكون متفرعاً من أحد هذه الأجناس الثلاثة؛ يقصدون بذلك أن جميع سكان الكرة الأرضية هم من نسل نوح؛ وقد بنوا رأيهم هذا على ما يستفاد من التوراة، من أن الطوفان الذى حدث فى عهد نوح كان طوفاناً عاماً، شمل الأرض جميعاً.

وهذا الرأى الذى يستند إلى مصدر دينى؛ يتضمن حقيقتين هما:ـ

أولا ـ أن جميع لغات العالم انحدرت من لغة واحدة، هى اللغة، التى كان يتكلم بها أبناء نوح بعد الطوفان.

ثانيا ـ أن جميع الشعوب البشرية، التى تسكن جميع أنحاء الأرض، قد انحدرت من أصل واحد، هو نوح ـ عليه السلام ـ، وقد ظل هذا الرأى سائداً حتى عصر النهضة الأوربية.

سادسا ـ الرأى المتطرف:

وجاء عصر إحياء العلوم، والمعارف فى مستهل العصور الحديثة، التى تقدمت فيها العلوم الطبيعية، وانتشرت المباحث البيولوجية، وتعددت المصادر التاريخية بالنقوش وغيرها، من الآثار التى خلفها القدماء، فتغيرت وجهة الباحثين فى هذا الموضوع، وكان من نتائج تلك البحوث أن أنكر فريق من العلماء هذه القصة من أولها إلى آخرها، وعدوها من الأساطير الموضوعة، والأحاديث المختلقة، التى وضعها قدماء

---

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص ٦٧.

القصاصين من الأمم السامية، وخاصة بنى إسرائيل؛ ثم أخذوا يعلنون آراءهم، التى تخالف ماورد فى تلك القصة النقلية فى جملتها وتفصيلها.

سابعا يتوسط بينهما:

غير أن فريقا من العلماء الذين يحرصون على القديم، هبوا يقولون: إن كل أسطورة لابد أن يكون لها أصل تاريخى تستند إليه، وإن قصة خلق العالم كما ذكرت في سفر التكوين، وفى بعض آثار بابل القديمة على فرض أنها غير مقبولة فى تفصيلها، لابد أن تنطوى على شئ من الحقيقة، وعلى هذا الأساس أخذوا يوفقون بين المذهبين: الدينى والعلمى، وأقبلوا يؤولون ما يقبل التأويل من النصوص المدونة فى الكتب المقدسة خاصة بهذا الموضوع؛ كان تفسيرهم لحادثة الطوفان، المروية فى سفر التكوين أنها حصلت بالفعل؛ ولكنها كانت حادثة محلية، ويرجح أن منشأها هو فيضان دجلة والفرات، وما يتصل بهما من نهيرات ـ فيضانا خارقاً للعادة؛ وكانت حادثة مروعة لم يعهد لها التاريخ نظيراً من قبل.

نظريات حديثة فى تقسيم الأجناس:

لقد ظهرت آراء كثيرة مستنبطة من العلوم، التى تبحث فى شئون الإنسان، يستفاد منها أن النوع الإنسانى ينقسم على أساس اختلاف بنيته؛ واختلاف ألوان بشرته إلى أربعة أقسام:.

أولاً الجنس الأبيض: الذى يوصف أحياناً بأنه الجنس القوقازى؛ وقد انتشرت منذ آلاف السنين في أوربا؛ ثم فى حوض البحر المتوسط الشمالى، والجنوبى، وغرب آسيا.

ثانيا ـ الجنس الأصفر: الذى يوصف بأنه الجنس المغولى أو الطورانى، وقد انتشر فى شرق آسيا، وبعض جهات أمريكا(١)

ثالثا ـ الجنس الأسود: الذى يوصف بأنه الجنس النوبى، وقد انتشر فى أفريقيا، وأستراليا.

---

(١) الأمم السامية ص ٦١.

رابعـاً ـ جنس رابع: ليست له مميزات خاصة، بارزة؛ كان يسكن بعض جهات أستراليا، وغينيا الجديدة.

وهذا التقسيم تقريبى؛ وليس معناه أن هذه الأجناس عاشت مستقلة بعضها عن بعض، بعيدة عن الاختلاط بغيرها.

ويرى العلماء؛ أن الجنس الأبيض القوقازى ينقسم إلى: ثلاثة أقسام فرعية:

١ـ الجنس الأصهب الشمالى

٢ـ الجنس الأسمر الجنوبى.

٣ ـ جنس بين هذين الجنسين.

ومن بين هذه الشعوب التى تنتمى إلى الجنس الأسمر الجنوبى، المنتشر حتى الآن فى جنوب آسيا الغربى، وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية، شعوب خاصة اصطلح المؤرخون، من القدم أن يسموها الشعوب السامية(١).

كذلك نرى؛ أن الجنس العربى، أو السامى الأصلى قد فقد شخصيته، ومميزاته بالاختلاط بالأجناس، والشعوب الأخرى وذلك؛ لأن الإسلام لم يمنع من اختلاط العرب بالعجم، والمصاهرة بين الجنسين، ومن ثم نرى: أن القبائل العربية التى تركت الجزيرة العربية، وانتشرت فى بقاع الأرض بانتشار الإسلام، امتزجت بالشعوب المختلفة، وأصبح من الصعب فى كثير من الأحيان تمييزهم من الأجانب(٢).

ويرى فليب حتى: أن هذه التسمية من وجهة علمية؛ هى تسمية لغوية، وتطلق على الذين يتكلمون، أو تكلموا لغة سامية، واللغات السامية، كما هو معترف بها اليوم؛ هى مجموعة لغوية خاصة، تضم اللغة الآشورية، والبابلية ـ الآكادية ـ، والكنعانية (الفينيقية)، والآرامية، والعبرية، والعربية، والحبشية، وأهم خواص التشابه ضمن هذه المجموعة اللغوية؛ هى وجود فعل ثلاثى كمصدر

(١) الأمم السامية ص ٦٣.

(٢) الأمم السامية ص ٦٣.

أساسي، ووجود زمنين للفعل كما في الماضي، والمضارع؛ وتصريف الفعل يتبع نفس الأسلوب؛ وفي جميع لغات المجموعة السامية؛ نجد تشابهاً بين الكلمات الأساسية : كالضمائر الشخصية، والأسماء التي تدل على الغرابة، والأعداد،، وأعضاءالجسم الرئيسية؛ هذه القرابة اللغوية بين الشعوب التي تتكلم اللغات السامية، هي أهم رابطة تبرر ضمهم تحت اسم واحد ولكنها ليست الرابطة الوحيدة؛ فإذا ما قارنا مؤسّساتهم الاجتماعية، وعقائدهم الدينية، وصفاتهم النفسية، وأوصافهم الطبيعية؛ اتضحت لنا نواح هامة للتشابه؛ وعندئذ لابد من الاستنتاج: بأن بعض أسلاف الذين تكلموا البابلية، الآشورية، والكنعانية، والعبرية، والآرامية، والعربية، والحبشية؛ كانوا غالباً يتكلمون جماعة واحدة، قبل أن تحصل بينهم هذه الاختلافات؛ وأن هذه الجماعة كانت تتكلم اللغة نفسها، وتعيش في المكان نفسه[1].

الأمة السامية بطونها، وتراثها الحضاري والديني

أولاً: السومريون:

توحي العناصر المشتركة بين حضارات الشرق الأوسط بأن عوامل نشوئها متشابهة؛ وتتضمن كلمة الشرق الأوسط: مصر، الأناضول، سوريا، لبنان، فلسطين، العراق، إيران، الجزيرة العربية كلها، وكان وادي نهر الهند وأرض الرافدين، ووادي النيل خلال ٣٢٠٠ ق.م، نهاية مطاف أولئك الرعاة من البدو الذين يتحركون في أعماق التاريخ إلى تلك الروافد الخصيبة في اندفاع كالموج الهادر يشق مجراه، ومع مصبه يكون ظعنهم وإقامتهم.

ومن هنا يرجع المؤرخون حضارة ما بين النهرين إلى السومريين، الذين عبروا بالعراق إلى خصائص العصور التاريخية بما تركوه من آثار عبرت عن حضارتهم التي بدأت في القرن الثلاثين ق.م؛ وتعددت مراكز التجمع والتحضر حينئذاك في النصف الجنوبي من سهول النهرين؛ وبهم عرف التاريخ باسمهم ـ السومريين؛ ثم استخدمه الساميون خلفاؤهم في قولهم ـ مات شوميرين ـ بمعنى أراض شومير؛

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ١ ص ٦٦، ٦٧.

نزحوا من المناطق الجبلية للهند، التى تسمى بلو شيستان؛ واستولوا على مقاليد الحكم فى أرض الرافدين؛ وسموا بالسومريين؛ وظلوا إلى أن نزحت الأمة السامية، أو العربية القاطنة فى الجزيرة العربية إلى أرض الرافدين وبلاد الشام.

ويرى علماء الأجناس أن وجود ملامح تشابه بين وجوه السومريين، وسكان وادى نهر الهند؛ دعا كثيراً من علماء الأحفار إلى القول بأن السومريين، كانوا من الأصل الهندى، نزحوا من المناطق الجبلية التى تسمى ببلوشستان؛ واستولوا على مقاليد الحكم فى أرض الرافدين.

ثانيا: الأمة السامية:

يقول سفر التكوين: وسام أبو كل بنى عابر، أخو يافث الكبير، وله أيضا بنون: يوسام، عيلام، آشور، ارفكشاد، آرام(١).

ويعلق الفقيه اللغوى حامد عبد القادر على النص فيقول:

قال النص، أن سام هو أبو كل بنى ـ عبر ـ مع أنه أب لجميع من تناسل من أبنائه المذكورين ﴿عيلام ـ آشور، ارفكشاد ـ آرام﴾ وعبر ـ هذا من أحفاد أرفكشد؛ لأنه ابن شلح بن ارفكشد؛ عبر ـ أيضاً هو الجد الخامس لإبراهيم؛ وإلى عبر ـ هذا ينسب إبراهيم، فيقال: ـ إبراهيم العبرى فالظاهر أن النص خص ـ عبر ـ بالذكر دون غيره من أحفاد سام لما يروى، من أنه كان نابهاً ذا منزلة اجتماعية، عظيمة عرفها التاريخ(٢).

١ ـ عيلام:

عيلام اسم مملكة كانت تقع فى المناطق الجبلية لإيران، وعلى مقربة من أرض الرافدين، شرق بابل، وكانت عاصمتها ـ سوسة الوارد ذكرها فى التوراة ـ شوشان ـ؛ وهى بلاد مجدبة تكثر فيها المرتفعات. والمعروف تاريخياً أن سكانها لم يكونوا ساميين، بدليل أن لغتهم كانت من النوع الإلصاقى؛ وأدخلوا فى الساميين لما كان بينهم، وبين الساميين من علاقات اجتماعية وسياسية.

---

(١) سفر التكوين: إصحاح ١٠ ـ آية ٢١.

(٢) الأمم السامية مصادر تاريخها وحضارتها ص ٢٩.

اقتبس عيلام حضارته من الحضارة السومرية؛ وتعلم منها الكتابة بالخط المسماري، ووفق ما جاء في سفر التكوين (١٤-١٠) أن ملكاً عيلامياً اسمه - كرد لعومر - استعبد البلاد الكنعانية فترة قصيرة(١).

٢ - الآشوريون:

أما الآشوريون؛ فكانوا ساميين لغة ونسباً. ولغتهم قريبة الشبه تماماً بإخوتها اللغات السامية، وخصائص الآشوريين الخلقية، والعقلية هي نفسها الخصائص التي يذكرها المؤرخون على أنها خصائص الجنس السامي.

وينسب الآشوريون إلى بلادهم : آشور، وآشور أكبر مدنها، وعاصمة بلادهم مرتفع على مقربة من التقاء نهر دجلة ونهر الفرات الأسفل؛ ويمكن القول: بأن الآشوريين شعبة من البابليين، هاجروا من بابل، التي هي جنوب العراق، بعد أن ضاقت بهم؛ وذلك للتشابه بين اللغتين: الآشورية، والبابلية بشكل عظيم، ولم يكن الفرق بين اللغتين؛ يجاوز كثيراً الفرق بين لهجتين للغة واحدة؛ كذلك أخذ الآشوريون أبجديتهم المسمارية، وعلومهم، وتقاليدهم الاجتماعية؛ وكانت آلهة كل فريق: هي عينها آلهة الفريق الآخر؛ ما عدا إله آشور الأكبر، الذي اختص به الأشوريون، وهو إله الشمس - أشور - ثم أطلق على المدينة.

يرى حامد عبد القادر : أن السبب في إغفال ذكر البابليين في قائمة الأنساب، التي يتضمنها الفصل العاشر من سفر التكوين؛ هو أن هؤلاء البابليين لم يكن لهم نفوذ سياسي، ولا كيان اجتماعي يعتد به عند تدوين ذلك السفر، ولم يكن سكان بابل ساميين دائما؛ بل إن سكانها الأقدمين كانوا ينتمون إلى شعب آخر، ولم تكن لغة هؤلاء الأقدمين من الفصيلة السامية اللغوية، بل كانت لغة إلصاقية(٢). ولكن - حتى يرى أنهم الآشوريون بعد ما اندمجوا بالسكان الأصليين، وهؤلاء هم الآكديون بعدما اندمجوا بالحوريين، الوارد ذكرهم في التوارة، الذين ورثوا عنهم الملامح الأرمينية (٣).

(١) الأمم السامية ص ٢٦.
(٢) يراجع الأمم السامية ص ٢٧، ص ٢٨ - حامد عبد القادر
(٣) خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأوسط جـ ١ ص ٦٧ - فليب حتى.

ولعل السبب الذى مال إليه حامد عبد القادر لا يتأيد تاريخياً لأن خليفة آشور ناصر، وهو شلمناصر الثالث ـ ٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق. م. واجه تحالفاً عسكرياً فى وادى نهر العاص، على رأس هذا التحالف العسكرى (بن ـ هدد) ملك دمشق الآرامى، والتحالف يضم جيش آحاب ـ ملك العبرانيين، وجيش جندب ، وهو شيخ من شيوخ العرب، وفى هذه المعركة ذكر لأول زعيم عربى فى التاريخ، بذكر اسمه بوضوح.

٣ ـ البابليون الأشوريون:

ورد فى سفر التكوين « وكان سفرهم إلى الشرق ـ أى أبناء نوح ـ، أن وجدوا بقعة من الأرض، فى أرض شنعار فأقاموا هناك» (١) شنعار: هى بلاد بابل، وهى جزء من بلاد حوض دجلة والفرات يقع جنوب مدينة بابل القديمة، ويمتد إلى الخليج الفارسى، ولم يطلق اسم بابل على هذا الإقليم إلا بعد أن استولى عليه «سرجون الأول» فى القرن الثامن والثلاثين ق.م، وأقام هناك معبداً جديداً للإله «صردوح» ثم أطلق على المدينة التى أقام بها ذلك المعبد اسم « باب إيل» وأصبحت فيما بعد بابل؛ على أنه قد ورد فى سفر التكوين (١١ـ ٨٩) تعليلاً آخر لهذه التسمية؛ فقد قيل هناك : أنها سميت كذلك؛ لأن قوماً من الأقدمين بنو هناك هيكلا كانوا يجلسون عند بابه للفصل فى قضاياهم، وفيما يحدث بينهم من خلافات، فسميت المدينة باسم « باب إيل» أى باب الله؛ لأن ذلك هو الأسم الذى أطلقه هؤلاء القدماء على باب الهيكل.

يقول أرسطو: إن بابل أمة أكثر منها مدينة (٢).

يقول يردسوس: إن بلاد بابل كانت مقراً لجموع من الناس ينتمون إلى شعوب أجنبية، كانت قد أقامت فى بلاد الكلدان فترات متعاقبة قبل أن يسكنها الساميون.(٣)

وكانت كلديا تنقسم إلى مقاطعتين: الأولى فى الشمال وهى مقاطعة آكد.

(١) ـ بابل ـ نجيب إبراهيم جـ ٢ ص ١٨٦ . الأمم السامية ص ٣١.
(٢) تراث العالم القديم ص ٤٥
(٣) السياسة جـ٣.

والثانية في الجنوب؛ وهي مقاطعة شنعار، أو شومر، وكانت آكد أسبق المقاطعتين إلى الخروج من أيدى الشومريين إلى أيدى الساميين، الذين سموا فيما بعد بالبابليين، وهم الذين أسسوا أول إمبرطورية سامية، بلغ أوج عظمتها في عهد سرجون الأول في القرن الثامن والثلاثين قبل الميلاد؛ أما المقاطعة الجنوبية وهي شومر، أو شنعار، فلم تخضع للساميين إلا في عصر متأخر.

٤ ـ الآكديون.

كان الآكديون فرعاً من هجرات سامية متوالية، تكاثرت أعدادها بوادى العراق، والشام قبيل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد؛ ثم تشعبت فروعاً كثيره؛ فكان منها ما انتشر في نواحي الشام، واتجهت آمالها نحو المناطق الخصبة بالعراق؛ والشعبة الثانية عرفت باسم الأموريين، أطلق عليهم « السومريون» بمعنى أهل القرب؛ وإن كان هناك بعض نصوص بابلية تذكر أن إحدى آلهتهم الكبرى تسمى «باحور» مما يرجح نسبتهم إليها.

وكانت الجماعة الثانية تعرف «بالآكديين» ، الذين اكتسبوا اسمهم بالانتساب مؤخراً فيما يحتمل إلى العاصمة «آكد» ، التي أصبحت مركزاً لنشاطهم السياسى والحربى، بعد فترة من استقرارهم بالعراق، وبعد أن انتظمت أمورهم وعز شأنهم فيه.

وحين استقر شأنها ونجحت في تكوين دولة كبيرة في العراق، دعت إلى نوع من تعظيم أولي الأمر الكبار فخظر لدى بعض أهل العراق فكرة تقديس الحكام ، أو نعتهم بنعوت الربوبية، وإن جمعتهم هذه الفكرة على السواء، وأدخلت معها ألفاظ ومسميات سامية، وجدت سبيلها إلى لغة العقائد، والآداب، والأسماء؛ فأدخلت إلى الدين اسمى : سين، وشمس؛ القمر والشمس، إلى جانب اسميهما السومريين القديمين «وأوتو» اسم المعبود الزهرة؛ وهي عشتار عند الساميين الأموريين التي شابهت « أنانا» السومرية، كما أدخلت معها بضع صفات ربانية مثل «بعل» بمعنى: سيد وإيل (أوإل) بمعنى إله، وذلك فضلا عن لقب «شارو» بمعنى ملك، وقد حل محل لقب «لوحال» السومرى القديم؛ وألقاب كهنوتيةمثل «شيبو» بمعنى كهنة الطقوس، وعدد كبير من أسماء الأفراد من أطرفها اسم يقرب من اسم «إسماعيل» أو «يشع ال» وله دلالة بالغة الأهمية إذ أن ظهوره منذ أكثر من أربعة آلاف عام يدحض دعوى بعض غلاة اليهود ممن أرادوا أن يشككوا العرب الشماليين فيما تواتر

عن نسبهم إلى إسماعيل ـ عليه السلام ـ بدعوى أن اسم إسماعيل لم يعرف له مثيل يسبق ظهور الإسلام(١).

ويذهب حتى: إن أول شعب سامى هام بحثا عن موطن له فى البلاد السورية، وأقام فيها هو الشعب الذى سماه جيرانه السومريون فى الشرق: بالأموريين.

يقول حتى: ولا ندرى الاسم الذى كان يطلقه على نفسه، وهذه كلمة سومرية، وهى من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد «وماشو» أى بلاد الغرب؛ وكان هذا أيضاً إلههم القديم هو إله الحرب والصيد؛ والأموريون لم يقتصروا على تأسيس دولة فى منطقة الفرات الأوسط، واجتياح سورية، وإنما اجتاحوا بلاد ما بين النهرين؛ وفى هذا السهل يبدأ التاريخ السورى المستمر ،وأول ممثلى الساميين هم الأموريون.

ويقول: وتظهر أول إشارة إلى أرض الأموريين من عصر سرجون حوالى (٢٢٥ ق.م.)، وقد أسسوا عدة سلالات من آشور فى الشمال وأهم هذه السلالات كانت سلالة بابل؛ وهى أول سلالة ظهرت فى هذه المدينة، وانتسب إليها حمورابى(٢).

٥ـ الكنعانيون الفينيقيون:

كان الكنعانيون الذين سماهم اليونان بالفينيقيين ثانى جماعة سامية لعبت دوراً هاماً فى التاريخ؛ والكنعانيون والآموريون ينتسبون إلى موجة الهجرة نفسها؛ والاختلاف الحضارى بينهما ناشئ عن أن مركز الآموريين الأصلى كان فى شمال سورية فتعرضوا لتأثيرات سومرية بابلية، بينما كان مركز الكنعانيين الجغرافى فى الساحل؛ ولذلك كانوا متجهين نحو مصر.

وقد أطلق اسم كنعان فى أول الأمر على الساحل، وغرب فلسطين ثم أصبح الاسم الجغرافى المتعارف عليه لفلسطين، وقسم كبير من سورية؛ وكان هذا أول اسم لفلسطين؛ وفى وثائق العهد القديم الأول أطلق اسم كنعانى بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد بدون أى مدلول عرقى، سادت الديانة واللغة الكنعانيتان بالظهور

(١) ـ الشرق الأدنى القديم ـ مصر والعراق ـ دكتور عبد العزيز صالح طبعة الأنجلو المصرية طبعة ثانية ١٩٨٢.
(٢) ـ تاريخ سورية ص ٧٤، ٧٥.

من غياهب العصور السامية القديمة حوالى مطلع الألف الثانى ق.م ـ غير أن أسلاف الذين سموا كنعانيين كانوا غالباً يحتلون البلاد قبل ذلك بألف سنة أو أكثر.

الوجه الثقافى والدينى للحضارة الفينيقية.

كان الفينيقيون أول أمة بحرية فى التاريخ، وكان البحر لا يخيفهم والعالم المجهول يفتنهم بدلاً من أن يلقى الرعب فى قلوبهم، وكان الفينيقيون أول من قدم أربع مواد هامة مفقودة فى كثير من بلاد البحر المتوسط وهى « الأخشاب، والقمح، والزيت، السحر» وأصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية قبل أن يكون بحيرة يونانية أو رومانية بوقت كبير، وفى بلاد اليونان يشهد وجود أسماء سامية للمواقع، والآلهة إلى جانب وجود الأساطير الخرافية الكثيرة بنشاط فينيقى، ومن الجزر اليونانية التى لها صلة بالاستعمار الفينيقى ـ ساموس ، وكريت ـ وكانت لهما مكانة بارزة فى هذه الناحية، إن السفن كالقوافل ـ فوق ما تحمل من شحنات البضائع ـ تحمل أموراً غير ملموسة تساويها فى أهميتها إن لم تفقها بالنسبة للتقدم البشرى؛ وهذه الأمور غير المادية، هى المؤثرات الحضارية المتنوعة، التى أتى بها التجار الفينيقيون، ونشروها بين الشعوب التى احتكوا بها، وبخاصة اليونان الذين أصبحوا تلامذتهم فى شئون الملاحة؛ وأخذوا عنهم أشياء مختلفة فى ميادين الأدب والدين، والفن الزخرفى، وكان الفينيقيون يلعبون دور الوسطاء من الناحيتين الفكرية، والروحية؛ كما كانوا من الناحيةالتجارية.

يبدو أن الفنيقيين الذين كانوا أول من استعمل نظاماً أبجدياً راقياً فى الكتابة، ونشروه فى العالم؛ قد أخذوا أساس أسلوبهم من مصادر مصرية هيروغليفية بطريق سيناء؛ والرموز الهيروغليفية كانت فى الأصل صوراً للأشياء التى أرادت الدلالة عنها، ولكنها أنشأت من وجهة صوتية أربعين إشارة كانت حروفاً ساكنة؛ غير أن المصريين المحافظين لم يذهبوا إلى حد استخدام هذه العلامات الساكنة وحدها؛ ولذلك فإن العلامات ظلت بدون أهمية حتى حوالى نهاية القرن السابع عشر حين اتفق لأحد الأسر الكنعانية، أو لأحد العمال فى مناجم الفيروز فى سيناء –كما يظن– أن يتجاهل الرموز الهيروغليفية المصرية لعدم تمكنه من حل ما فيها من تعقيد؛ وأن يستعمل العلامات الساكنة، وكان المكان الذى ربما حصل فيه ذلك هو: سرابيط الخادم؛ وقد اعطيت للعلامات الساكنة أسماء سامية، وقيم سامية؛ فقد اتخذ الساميون مثلا علامة

رأس الثور بدون أن يهتموا ماذا يعني رأس الثور في اللغة المصرية؛ سموا العلامة ـ ألف ـ باسمها السامي؛ ثم طبقوا المبدأ الذي بموجبه يعطي الحرف الصوت الأول في اسم الشيء، الذي يمثله؛ وفي هذه الحالة استعملوا علامة الألف لأجل صوت (أ)، وعملوا الشيء نفسه بالنسبة للعلامة الدالة على ـ بيت ـ فسموها ـ بيت ـ، واستعملوها لأجل صوت (ب)؛ وعلى ذلك فإن العامل في سيناء استخدم فقط الفكرة الأبجدية، الموجودة في العلامات الساكنة المصرية، وشكل لنفسه مجموعة بسيطة من العلامات التي يمكن أن تتهجى بها الكلمات؛ والفينيقيون الذين كانت لهم علاقات تجارية مع سيناء اقتبسوا على الغالب هذه الإشارات وأضافوا إليها،وجعلوا منها نظاما أبجديا تاماً مؤلفا من اثنتين وعشرين علامة، بدون حروف صوتية، بسبب تأثير الهيروغليفية المصرية؛ وهكذا حصل ما سموه-بحق-أعظم اختراع أتى به الإنسان،ونظام الكتابة الأبجدية الخطية بحروفها الاثنين والعشرين؛ والمكتوبة من اليمين إلى اليسار، كانت غالباً من عمل الفينيقيين في ببيلوس؛ وقد اخترع فينيقيون آخرون، وهم الذين عاشوا في أوغاريت نظاماً أبجدياً آخر على أساس مختلف فقد كتبوا الأبجدية بقلم على ألواح من الطين؛ ولذلك اتخذت شكل علامات مسمارية أو اسنينيه(١).

ومثل هذه الأبجدية، وتطور الكتابة على يدى الفينيقيين لا تترك مجالا للشك؛ بأن العصر كان عصر تنوع، وتلقيح حضارات تمازجت فيه بحرية الأفكار العلمية، والدينية من بلاد الرافدين، ومصر وسورية، وجرى التبادل فيما بينها؛ وظلت اللغة الفينيقية في شكلها المعروف بالبوني تستعمل حتى العصر الإسلامي.

ديانة الكنعانيين: ديانة الخصب:

الأمر الأساسي في الديانة الكنعانية؛ كما تظهرهُ لنا المكتشفات الأثرية الحديثة، هو : عبارة عن قوى النمو، والتوالد التي يعتمد عليها كيان مجتمع زراعي يهتم بتربية الماشية في أرض أمطارها قليلة، وغير مؤكدة، ويصدق هذا إلى حد كبير على جميع الديانات السامية القديمة؛ والصفات البارزةفي ديانة الخصب السامية هذه، هي الحزن على موت إله النبات وإجراء طقوس للتمكين من الفوز على خصمه « إله الموت»و« والعالم الأسفل»، حتى يضمنوا كمية كافية من المطر الضروري لإنتاج موسم العام الجديد، والفرح عند عودة الإله الذي يموت، ثم يبعث تصبح جزءاً هاماً

(١) تاريخ سورية ص ١١٨، ص١١٩.

من الأعراف المسيحية؛ ويتصل بفكرة جفاف النبات الدوري بسبب حرارة الصيف، وعودته إلى الحياة في الربيع عنصر القوة المتجددة للشمس المنتصرة، عندما تظهر في الشتاء؛ وسمى الكنعانيون هذا الإله «أدون» بمعنى سيد[1] ثم اقتبس اليونان هذا الاسم، وجعلوا منه « أدونيس» وجعل فيما بعد معادلاً للإله المصرى « أوزيريس»، وأصبح «أدونيس» أشهر الآلهة السورية؛ وأقيمت عبادته في اليونان في القرن الخامس، وجعل الفينيقيون حادثته مع «عشتار»، أو سيدة «بيبلوس» عند منبع النهر الذى يسمى اليوم؛ نهر إبراهيم فى لبنان[2].

وأما الختان الذى كان عادة سامية قديمة، فقد كان بمثابة علامة قبلية؛ والديانة الكنعانية تؤكد على دورة الحياة أى تتابع الحياة، والموت؛ ونتج عن ذلك التأكيد على الناحية الجنسية من الحياة؛ وقد تجلى ذلك فى البغاء المقدس، الذى كانوا يمارسونه، بمناسبة إقامة الطقوس فى الأماكن المقدسة وبعض مظاهر هذه الطقوس، استعارها العبرانيون كما يظهر، وكان لديهم ما يسمى «بمومسات المعبد»[3].

الآلهة

إن ديانة كنعان القديمة، وبقية العالم السامى، باعتبار أنها بالدرجة الأولى تقوم على عبادة الطبيعة، كانت تضم آلهتين رئيسيتين تعرفان بأسماء مختلفة؛ ولكنهما فى جوهرهما ـ الجو الأب. الأرض الأم.

وفى أوغاريت، كان إله الجو يعرف باسم «إيل»؛ بينما الإلاهة الأم كانت تسمى «عاشرة»، وكان « أيل» الإله الأعلى للعالم .الكنعانى، العبرانى؛ وبعده يأتى عليان الذى أصبح كبعل له مكان معين، واعتبر حامياً لإحدى المدن؛ وكانت الأمطار والغلال تحت مراقبته؛ والأعياد كانت تقام لإرضائه، والتقدمات تعطى لاستعطافه؛ والذبيحة، أو التقدمة كانت بجوهرها احتفالاً يشترك فيه العابد، والمعبود، أو حفلة اشتراك، ولعدم وجود أية صورة محفورة؛ كانوا يرمزون إلى الإله بعمود أو

(١) تاريخ سورية جـ١ ص ١٢٣.
(٢) سفر حزقيال ٨: ١٤.
(٣) تاريخ سورية جـ١ ص ١٢٧.

حجر، والإله «ملخ» الذى تقدم له الأولاد كضحايا يعتبر أنه نفس «ملقارت» أى سيد المدينة «مدينة صور» كانت رفيقة «إيل» تسمى «عاشرة»، وكانت توجد الآلهة الأخرى اسمها «عشتارت»،و هى «عشتار» عند الأشوريين البابليين وسماها العبرانيون «عشتاوريت»؛ وعند اليونان « أسنارت» ودمجها اليونان «بأفروديت» فأصبحت أشهر إلاهات الخصب وصارت باعتبارها بعلة، أو سيدة متصلة بمكان معين، وأصبحت حامية المدينة؛ وكان اسم «عشتار» هو الذى تتسمى به الإلاهات المحلية، المقرونة «بالبعليم» فى الأماكن المرتفعة، الكنعانية التى كان لها تأثيرها، وجاذبيتها الخاصة بالنسبة للقوم العبرانيين؛ حتى إن الأنبياء اضطروا لمهاجمتها مرارا(١) وبالإضافة إلى لقب « بعلة » فقد كانت «عشتار» تلقب «ملكة»وتظهر «عشتار» كشقيقة «عليان بعل»، وتعطى لقب عذراء؛ وكانت الإلهة «عنات عشتار» تهب الحياة، وتبيدها، ومن أوصافها البارزه: الحب، الحرب.

الهياكل

كانت الفكرة الأساسية فى بناء الهيكل: تزويد الآلهة بمسكن لها؛ فهناك كان الإله يسكن كما يسكن أى كائن بشرى فى بيته الخاص. وبواسطة الهيكل؛ كان يتاح مجال للاتصال بينه وبين البشر، بحيث يتمكن الكائن البشرى من تأسيس علاقات شخصية مع الكائن الإلهى. وأقدم الهياكل الكنعانية، المكتشفة ترجع إلى مطلع الألف الثالث، وكانت فى «أريحا، ومجدو» وكان هذا النموذج القديم يتألف من غرفة واحدة، لها باب على الجانب الطويل من البناء، ويصبح البناء متكاملاً أكثر بعد منتصف الألف الثاني. وأهم صفات هذا الهيكل، كما ظهرت فى الأماكن المكتشفة: كانت المذبح الصخرى، والنصب المقدس، والعمود المقدس، والغرف تحت الأرض. وكان المذبح الذى تقدم عليه الذبيحة، أهم هؤلاء بدون شك(٢).

(١) سفر القضاء ٢: ١٣؛ ارميا ٣٢: ٣٥ ؛ الملوك الثانى ٢٣: ١٣.

(٢) ـ تاريخ سورية جـ ١ ص ١٢٨.

النصب أو الحجر المقدس:

كان يمثل الإله المذكر، وربما كان لأصله علاقة بعضو التناسل؛ وبجانبه كان العمود المقدس، أو الشجرة المقدسة، وكانت تمثل النبات الدائم الخضرة، الذى تسكنه آلهة الخصب، وفى بيت «شأن» كان هذا العمود يقوم فى مدخل الحرم الداخلى؛ والغرف الكائنة تحت الأرض كانت غالباً تستخدم لتلقى النبوءات؛ وكانت الأوانى المستخدمة فى إراقة السوائل، والمزخرفة بالحيات، وطاسات البخور والمباخر التى وجدت تشير إلى : الأعمال التى استخدمت لأجلها هذه الأشياء؛ وتفيد بقايا المعابد، التى كانت لها مصاطب يغسل عليها العابدون أقدامهم قبل الصلاة؛ إن الوضوء الذى يشكل جانباً لابد منه فى الصلاة عند اليهود، والمسلمين لم يكن مجهولاً عند الكنعانيين، والمباخر الكنعانية اقتبسها اليونان، وفى «بيت شأن» كان يقوم مكان مرتفع، فى مؤخره المعبد؛ حيث كان يوضع غالباً تمثال الإله؛ ويدل على بدء المكان المعروف «بقدس الأقداس» .

الأصنام.

اكتفى الكنعانيون عامة بالنصب، والعمود المقدس؛ واستغنوا بها عن صنع الأصنام، والصور، والتماثيل الصغيرة البرونزية التى تمثل بعل واقفا يلوح بالصاعقة بيده اليمنى، المرفوعة؛ كانت شائعة، والآلهة كانت عارية، ويداها على جانبيها، أو تمسكان بثدييها، كما لو كانت تعطى الغذاء؛ وقد وجدت تماثيل صغيرة، متعددة من هذا النوع، مصنوعة من المعدن أو الطين؛ ولكنها كلها تبدو أنها كانت تستخدم فى المنازل، وليس فى الهياكل، وكانت تحترم بسبب قدرتها السحرية؛ وكان المتعبد المتعلم يعتبر التمثال مسكن الآلهة؛ أما العامى فربما اعتبر التمثال نفسه هو الإله، وكانوا يمثلون الإلاهة السورية «أتارغاتس» عادة فى أواخر الألف الثانى بشكل امرأة عارية أيضاً، وترفع إحدى يديها ممسكة بساق نبات الزنبق، أو الحيات؛ وهناك الاهة سورية أخرى وهى: «قادش» تتخذ شكل امرأة عارية واقفة على أسد،وكان الأسد، أو الثور رمزاً للحيوية والقوة، أما لماذا اتخذت الحية رمزاً للخصب فإن ذلك غير واضح؛ كانت عبادة الحية شائعة فى مصر القديمة، وكريت، وغيرهما من بلاد الشرق، «وبيت شأن» التى كان التأثير المصرى ظاهرا فى هياكلها الأربعة المكتشفة، كانت من مراكز عبادة الحية(١).

---

(١) تاريخ سورية جـ١ ص ١٣٢.

التاثيرات الدينية بين: مصر وسوريا والرافدين.

كانت الدول الكبرى فى غرب آسيا فى الألفين الثالث والثانى ق.م. ثلاث دول هى: مصر، بابل، الحيثيون. وتبعها أربع دول أخرى، وهى: دولة الآشوريين، الدولة البابلية الحديثة، دولة الكلدانيين، دولة الفرس، قامت بينها علاقات متبادلة بدأت هذه العلاقات فى بادئ الأمر تجارية؛ ثم تنوعت وكانت أول مدينة احتلت مكانة كبيرة ورئيسية فى العلاقات المصرية السورية مدينة ـ جبلة «جبيل»، وقد نقش خوفو «٢٦٠٠ق.م» بانى الهرم الأكبر اسمه على آنية من الألباستر، وأرسلها كهدية إلى سيدة «جبيل»، واعتبرت هذه الإلاهة من قبل المصريين مساوية لإلاهتهم «هاتور» التى بذلك أصبحت بالنسبة لهم سيدة البلاد، وكان أبو الهول الذى يمثل امنمحت الثالث «١٦٤٢-١٦٣٣» يقوم عند مدخل هيكل بعل فى هذه المدينة، وتدل أسماء الأماكن على اللوائح المصرية، أنه فى حوالى نهاية حكم امنمحت كانت فلسطين، حتى حلفاد فى الشرق، وفينيقية حتى وادى النهر الكبير فى الشمال؛ وحوران، ودمشق ومعظم البقاع؛ جزءا من الإمبراطورية المصرية[1]. وعندما وصل أمنحوتب الرابع أخناتون «١٣٧١ـ ١٣٥٨»العرش، وكان من أكثر شخصيات التاريخ القديم جاذبية، ولم يكن اهتمام أمنحوتب موجها نحو قضايا الدولة؛ وإنما نحو القضايا اللاهوتية، متأثراً بزوجته السورية.

الديانة الحيثية.

تظهر أفكار هذه الديانة متعلقة بعبادة الأرواح، فالينابيع، والأنهار والأشجار والجبال كانت تعتبر مقدسة، وكان أشهر الآلهة «نيشوب» إله العاصفة، وآلهة المدن كانت مظاهر محلية لهذا الإله، وكان اسمه «تلبنش»، وهو يقابل الإله السورى «حدد» ورفيقته تسمى «عشتاروت» وعبادة «نيشوب» عشتاروت ـ تقابل عبادة «تموز عشتاروت» عند السوريين، وأصبحت فى الغرب عبادة «أدونيس» والزهرة «فينوس»، وفى آسيا الصغرى لدى الفريجيين أصبحت عبادة «أتيس»، «سبيل» وكان

(١) تاريخ سورية جـ١ ص ١٧٢.

يمثل «نيشوب» عادة بشكل رجل يقف على ثور، ، ويمسك الصاعقة؛ وأقوى إلاهة أنثى كانت الإهة الشمس، التى أصبحت إلاهة الحرب، واتخذت بعض صفات الأرض الأم، ولباس الإله كان رداءً قصيراً، وقبعة مخروطية الشكل، وأما لباس الإلاهة فكان ثوبا طويلاً، وقبعة أسطوانية مرتفعة(١).

التأثيرات الدينية بين: مصر وغرب آسيا.

وكما كان تأثير الحضارة المصرية على سورية بارزاً؛ فإن هنالك دلائل تستلفت النظر بصورة أوسع عن التأثير السورى فى مصر، ويتضح التأثير السورى فى أقدس قصة مصرية، وهى: قصة آلام أوزيريس، الذى قطع جسمه إرباً، ووضع تحت شجرة الأثل فى جبيل، وقد تكون عبادة «أوزيريس» برمتها مأخوذة من الساحل السورى فى تاريخ قديم جداً، وقد أدخل الإله «حورون» وهو الإله الرئيسى فى بينة إلى معابد مصر أيام أمنحوتب الثانى، ويمكن الاستدلال على عبادة «عشتاروت» فى منتصف القرن الثالث عشر؛ من أن اسم أحد أبناء «رعمسيس» الثانى، كان يدعى «استروت» أى محبوب «عشتاروت» (٢).

دامت فترة السيطرة المصرية السياسية على سورية مدة أطول من فترة سيطرة بلاد الرافدين، غير أن تأثير بلاد الرافدين الحضارى كان أعظم بكثير من تأثير مصر، وكان السوريون أقرب إلى الآشوريين البابليين منهم إلى المصريين، من وجهة عرقية، ولغوية وجغرافية.

كان السومريون، وهم الشعب غير السامى، الذى أبدع حضارة وادى الفرات يمثلون طيلة الألف الثالث ق.م. أهم جماعة حضارية فى غرب آسيا كلها، وأصبحت الكتابة المسمارية التى ؛ اخترعوها، والأفكار الدينية، والروحية التى طوروها، والآداب التى أنشأوها جزءاً من تراث سورية، بما فيها إسرائيل(٣).

(١) سفر أخبار الأيام الثانى: ٢٦ : ٦
(٢) تاريخ سورية جـ١ ص ١٤٦.
(٣) تاريخ سورية جـ١ ص ١٤٦.

التأثيرات الدينية المتبادلة بين: مصر والكلدان، وسورية، والفرس.

ادعى الكلدانيون أصحاب دولة بابل الجديدة؛ السيطرة على سورية كورثة الإمبراطورية الآشورية، وفى عام ٥٨٧ـ ظهر «نبوخذنصر» بنفسه فى شمال سورية، وأقام معسكره فى «ربلة» فى وادى العاصى ومن هناك أرسل قسماً من جيشه إلى الجنوب للتغلب على المدن الفينيقية، وفتح بلاد اليهودية نهائياً، وكانت المستعمرات اليونانية فى هذه الفترة قد حلت محل المستعمرات الفينيقية الأصلية وبذلك انتهى العالم الفينيقى، الذى اشتهر بنشاطه وعلمه؛ ولكن الشعب الفينيقى حافظ على شخصيته حتى فتوحات الإسكندر.

كتاب الموتى:

يقول فيليب حتى: ومن المصادر الأولية الفريدة للاطلاع على الفكر الدينى القديم فى مصر وصف الدينونة أو الحساب الذى يؤديه الميت فى العالم الثانى، فقد خلف لنا المصريون فى ـ كتاب الموتى ـ تفاصيل دقيقة عما يجرى يوم الحساب مما لا نجد له مثيلاً فى حضارات أخرى فى هذا الكتاب، وهو أفضل كتاب أدبى يعنى بناحية الدين فى مصر القديمة، وصف لطقوس الدفن بلغة رمزية خفية المعنى؛ ووصف للمغامرات الخطرة التى سيمر بها الميت؛ وأفضل نسخة عن هذا الكتاب هى نسخة مزينة بالرسوم على ورق البردى يملكها المتحف البريطانى الذى يعرضها فى غرفة تعرف «بالغرفة المصرية»، وقد وضعت هذه النسخة من كتاب الموتى فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد لأحد الكتاب وزوجته فى ثيبة، واسمه آنى؛ وأروع ما فى المشاهد المصورة فى هذه النسخة تلك المشاهد التى تمثل يوم الدينونة. يدخل الميت قاعة الدينونة بخشوع تتبعه زوجته توتو، وعندما يتقدم نحو الديان يتلو صلاة ندامة على اثنين وأربعين خطيئة أمام اثنين وأربعين قاضيا يحق لكل قاض منهم أن يحاسبه على خطيئة تقع ضمن دائرة اختصاصه، يبدأ الرجل بسلسلة من الاعترافات السلبية، كأن يقول: لم أسرق ولم أكذب، ولم أتآمر ولم أبك أحدا ولم اغتصب أرضاً، ولم أزن ولست بقاتل، ولم أتلاعب بالموازين ولم أخدع، ثم يلى هذه الاعترافات السلبية اعترافات إيجابية فيبدأ قائلاً: إنى طاهر نقى، أطعمت الجائع

وسقيت العطشان، وكسوت العريان،ونقلت الرجل الذى لم يكن عنده مركب ينقله [١].

وبعد أن تغفر خطايا آني وزوجته ـ وهو وزوجته واحد ـ يحضرونه ليقف أمام الإله أوزيريس الجالس على عرشه فى محراب تحيط به زوجته إيزيس وأختها نفتيس كما كانا فى الحياة الدنيا.

مما لا شك فيه أن فكرة الخلود بعد الحياة الدنيا التى يتوقف الفوز بها على تصرف المرء وسلوكه فى المجتمع قللت من أهمية الطقوس والشرائع ورفعت من شأن الحياة العملية الفاضلة التى يحياها الإنسان على الأرض، كما أنها قللت من شأن العبادة والقيام بشعائرها ورفعت من شأن السلوك والتصرف الاجتماعى،ولكن النظرة إلى الخطيئة أنها تخلف المرء عن المحافظة على الشعائر والطقوس الدينية ظلت النظرة الشائعة التى كان أهل العراق القديم ومصر وإيران يأخذون بها.

وقد تحدرت إلينا من عصر بناة الأهرام. أقوال حكمية تتضمن تعاليم اجتماعية عن طريق الاعترافات التى كان الميت يعترف بها يوم الدينونة، وعن طريق النقوش الكتابية على القبور والتوابيت والمراسيم المتعارف عليها فى أمور الدفن؛ هذه الأقوال الحكمية وهذه المبادئ الاجتماعية تشير كما يقول المؤرخ برستد [٢] عنها «إلى انبلاج فجر الضمير الإنسانى» وإلى نشوء نظام أخلاقى. ففى سياق إسداء النصح إلى ولده سيزوز ستريس الأول يقول الملك الطاعن فى السن أمينمحات الأول (حكم فى حدود ٢٠٠٠ ق. م.) تصدقت على السائل وأطعمت اليتيم وأذنت للوضيع أن يدخل إلى مجلسى كما كنت أدخل النبيل [٣].

---

(١) خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى جـ١ ص ٩٢،ص٩٣ تأليف فيليب حتي طبعة الدار المتحدة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٨٢م

E.A. Wallis Budge, The Book of the Dead The : Papyrus of Ani London 1913. PP. 573, 75,87.

(٢) خمسة آلاف سنة جـ١ ص ٩٣.

James H.Brearted the Daum of Conscince PP. 183 seg P.P. 203.

(٣) خمسة آلاف سنة جـ١ ص ٩٤. ونفس المرجع السابق

ولم يكن للآراميين، الذين أتو حديثاً، ولا الإسرائيليين، والفلسطينيين تأثيراً كبيراً على هذه الشخصية؛ لقد أفادت الحضارة الآشورية البابلية شعوب الشرق الأدنى إفادات كثيرة مثل : المحراث ، الذى كان لاستنتاج الأرض نسبيا عما كانت عليه قبل، وتقسيم السنة إلى اثنى عشر شهراً، وإلى أسبوع مؤلف من سبعة أيام، وأول يوم فى الأسبوع اكتسب اسمه من زحل، واليوم الثانى كرسى لإله القمر،والثالث لعبادة الشمس؛ وتاريخ الاحتفال بعيد «الفصح» لا يزال متصلا بالتقويم الغربى، والساعات الشمسية،ونظام التنبؤ بالخسوف والكسوف، وعلامات الأبراج الاثنى عشر، وكثيراً من أنظمة المقاييس والموازين[1] .

٦ـ الآراميون:

ينسب سفر التكوين الآراميين إلى آرام بن سام بن نوح، وقيل هم المقصودون فى القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[2] إلخ، والآراميون قبيلة من قبائل السامية، تنتقل فى البادية، فى الشمال الشرقى من جزيرة العرب على حدود بلاد العراق الجنوبية، إلى أن انتهى أمرهم إلى الاستقرار بعض الوقت فى بعض جهات سورية، حيث أسسوا دولة قوية، وعاشوا عيشة حضارية[4] .

يقول حامد عبد القادر: وكان من أشهر تلك الدويلات:

١ــ دويلة آرام دمشق، فى منطقة «دمشق»

٢ ــ دويلة آرام صوبة فى منطقة «حران»، وكانت حران، على الطرق التجارية الهامة، التى تصل الشام بالجزيرة، وشمال الشام ببلاد العرب.

٣ ــ مملكة آرام راحوب، فى منطقة اليرموك .

---

(١) تاريخ سورية جـ١ ص ١٥٦.

(٢) سورة الفجر آية ٧.

(٣) الأمم السامية ص ١٠٤.

٤ ـ مملكة آرام ـ قفخا في منطقة جبل حرمون.

٧ـ الآراميون ـ حران.

وقد احتل الآراميون مدينة حران غالباً، وهى أحد مراكزهم فى ما بين النهرين، قبل احتلالهم دمشق، واقتبس القادمون الجدد بالتدريج حضارة الآموريين، والكنعانيين، الذين أقاموا بينهم، غير أنهم احتفظوا بمظهر واحد من حضارتهم، وهو اللغة. وبخلاف الاسرائيليين والفلسطينيين؛ الذين أقاموا فى أواخر القرن الثالث عشر فى جنوب مناطقهم؛ فإن الآراميين احتفظوا بلهجتهم الأصلية، التى قدر لها أن تلعب دوراً بالغ الأهمية فى حياة غرب آسيا؛ وقد انقسمت إلى أقسام:.

١ـ آرام النهرين، وهم الذين سكنوا ما بين الفرات، ورافدة الخابور.

٢ـ فدان آرام؛ وهم الذين سكنوا ما بين دجلة، والفرات، ومركزها حران، وتقع حران على طريق تجارى عظيم، وأصبحت من أعظم مراكز الحضارة الآرامية.

٣ ـ أرام دمشق؛ وقد تأسست مملكة دمشق فى أواخر القرن الحادى عشر؛ وأصبحت مملكة كبرى تمتد إلى الفرات من جهة، وإلى اليرموك من جهة أخرى.

الوجه الثقافى والدينى للحضارة الآرامية.

كان التجار الآراميون هم الذين نشروا لغتهم؛ منذ أول عهدهم فى مختلف البلدان؛ وهى فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية؛ وكان فوزهاعلى شقيقاتها اللغات السامية الأخرى، بما فيها العبرية؛ وأصبحت لغة المسيح وشعبه، والإشارة الثانية إن لم تكن الأولى للمسيحيين وجدت مكتوبة بالآرامية بحروف لاتينية مشوهة على جدار مسكن؛ وربما كنيسة فى بومبى، مما يجعل تاريخها قبل ٧٩م؛ وهناك صلاة آرامية تسمى «مديش المقدس» تشبه الصلاة المسيحية، المعروفة بالصلاة الربانية فى بعض عباراتها؛ وهى أقدم منها، وتبدأ بعبارة «ليتمجد ويتقدس اسمه العظيم» وأسطورة أحيناء الواسعة الانتشار تحوى بعض حكم آشورية، أو بابلية، ولكنها بالآرامية؛ وقد كتبت فى القرن السابع أو ما بعده؛ ولم يقتصر انتشار الآرامية

على المناطق السامية؛ ففى عهد «داريوس» الكبير٥٢١ـ٤٨٦ جعلت الآرامية اللغة الرسمية بين مقاطعات الإمبراطورية الفارسية، وهكذا أصبحت حتى فتوحات الإسكندر اللغة المتداولة فى إمبراطورية تمتد من الهند حتى الحبشة، وإن مثل هذا الفوز الذى حققته لغة لا تدعمها سلطة إمبراطورية من أهلها ليس له مثيل فى التاريخ، ومع انتشار اللغة الآرامية انتشرت الأبجدية الفينيقية، التى كان الآراميون أول من اقتبسها، واستعملت فى لغات أخرى فى القارة الأسيوية؛ وحصل العبرانيون على أبجديتهم من الآراميين بين القرنين السادس، والرابع، وكانوا قبل يستعملون الأبجدية الفينيقية القديمة مدة من الزمن، والحروف المربعة التى تطبع اليوم بها كتب التوراة العبرانية نشأت من الكتابة الآراميةوأخذ عرب الشمال أبجديتهم التى كتب بها القرآن الكريم من الآرامية التى استعملها الأنباط؛ وكذلك حصل الأرمن، والفرس والهنود على أبجديتهم من مصادر آرامية، وحروف البهلوية، والسنسيكريتية إلى قلب الصين، وكوريا،و هكذا وصلت الحروف الفينيقية شرقاً بطريقة الآرامية إلى الشرق الأقصى، وغرباً بطريق اليونان إلى الأمريكتين مطوفة العالم كله.(١).

وقد تفرعت اللغة الآرامية مع الزمن إلى مجموعتين هما:.

ا ـ المجموعة الشرقية، فى وادى الفرات، وتمثلها المندعية والسريانية.

ب ـ المجموعة الغربية، وتمثلها الآرامية التوراتية، والترجوم، ولهجات الشمال، وحماة، والتدمرية والنبطية؛ ثم أصبحت السريانية وهى لغة «أوديسا» لغة الكنائس فى سورية، ولبنان وبلاد الرافدين مع بعض الاختلافات المحلية، حتى حلت العربية محلها؛ عندما اتخذ المسيحيون الآراميون لهجة أديسا، وجعلوها لغة الكنيسة، والأدب والتعامل الثقافى، وصاروا يعرفون باسم سوريين.

الديانة الآرامية: حدد الراعد:

والإله الذى كان يوجه الآراميون أعظم اهتمام لعبادته كان «حدد» إله الزوابع والرعد، ويسمى أيضاً «أدو ـ أو ـ أدو» وكان مفيداً حين يرسل المطر الذى يخصب

١ ـ تاريخ سورية جـ١ ص ١٨٢ ص ١٨٣.

الأرض، وكان مفيداً حين يرسل السيول، وكان من ألقابه «ريمون» الراعد؛ وقد يطلق عليه الاسمان معا «حدد ريمون» وكان أهم معبد للإله «حدد» في هيرابولس «منبج» أي المدينة المقدسة. ولكن له معابد في مدن سورية أخرى كثيرة، وفي لبنان؛ وكان محبوباً بصورة خاصة بين المزارعين في سورية، وامتزجت عبادته فيما بعد بعبادة الشمس،وزخرف رأسه عند ذلك بالأشعة كما في بعلبك، وفي الغالب يعتبر «جوبتر» هليوبولينانس، الذي عبد في بعلبك معادلاً للإله «حدد» الذي تبدل فيما بعد، فأصبح «جوبيتر الدمشقي» وعرف الآراميون عادة تسمية أبنائهم «بارحدد» أي «ابن حدد» أو ابن آلهة أخرى، وعبدت رفيقة «حدد» أو زوجته في هيرابولس وفي مراكز سامية أخرى باسم «أتار غاتس» ويتألف رمزها من الهلال مع قرص الشمس؛ كان لها معبد في كرنيون في جلفاد، وكانت عسقلان في فلسطين مركزاً لعبادتها، حيث اعتبرت غالباً معادلة لأفروديت ـ كذلك انتشرت عبادة «أتارغاتس» بين اليونان، وكان كهنتها عموماً من الخصيان اللذين اعتادوا القيام برحلات اليونان وإيطاليا لنشر عبادتها بواسطة التنبؤات، والرقص الروحاني، ولجمع تبرعات الأتقياء لأجل معبدها، وكان التشريع الآشوري يطلب من نساء الرجال الأحرار، وبناتهم أن يغطين رؤسهن حين يخرجن إلى الشارع؛ وكانت مجموعة الآلهة الآرامية تضم فيما سوى الزوج الإلهي «حدد وأتارغاتس» عدداً من الآلهة الأخرى، ذات المكانة الثانوية، بعضها محلي والبعض الآخر مستعار من الأمم المجاورة، وكانت الآلهة: حدد، وإيل، وركاب، وشمس؛ وهي التي أعطت الملك بناموا الأول الصولجان في الكتابة الأثرية التي تركها، ومنحته الأشياء التي صلى لأجلها ركاب، أو سائق المركبات هو إله مستورد إلى سورية، مع إله الشمس الآشوري؛ وشمس الأشوري هو اسم إله الشمس، الذي كان يعبد في العالم السامي كله؛ ورشوف هو الإله الفينيقي «رشف» الذي كان كثيراً ما يمثل بشكل جندي مسلح، وفي كتابة ذاكر ملك حماة يرفع هذا الملك يديه لبعل شمين «سيد السموات»ورد فيها: فإن بعل شمين وإيل، وبرو شمش، وسهر، وإله السماءوإله الأرض.. مستهلكة، ويتضح أن بعل شمين هو «حدد» وهو «إيل وبر» في الغالب،و سهر هو إله القمر؛ وكانت حران مركزاًالإله القمر الذي يسمى «سين» عند الأشوريين.

ويرد ذكر هذا الإله «سين» القمر على حجر تيماء، وهى واحة فى شمال الحجاز، التى ترجع كتابتها إلى القرن الخامس ق.م. ، والإلهان المذكوران على هذا الحجر هما: سلم، ويشير إلى بعل المحلى، والثانى عاشرة.

تشريعات حمورابى:

استولى «سامو‌ابى» أولا على شمال بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق.م. وكان جنوبها يومئذ فى حوزة ملك عيلامى. وخلف سامو‌ابى ابنه «سامو‌ليلا» وانتقل إلى بابل فاتخذها كرسيا لمملكته، وهو أول من فعل ذلك؛ وتوالى بعده خلفاؤه من أسرته كما سيأتى. حتى أفضى الملك إلى حمورابى؛ وهو سادسهم فناهض العلاميين فى الجنوب وعليهم ملك اسمه فى آثار بابل «كرد لا قمر» وهو «كرد لا عومر» التوراة، وكانت بابل عاصمة غربى آسيا لا يثبت أمير على إمارته إلا بعد أن يشخص إليها وينال التصديق من أنه «ابن بعل».

وفى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد دخل الآراميون فى دور جديد؛ فتدرجوا فى الرقى بما امتازوا به من النشاط، فحازوا الأرضين وملكوا الإقطاع، وفى جملة المالكين «سموا أبى» جد عائلة حمورابى فاستعان بأبناء قبيلته فى توسيع دائرة سلطته وفى أثناء هذه الدولة ظهر إبراهيم الخليل، وهاجر من أور الكلدانيين[1].

تمدن دولة حمورابى:

كان السومريون قبل هذه الدولة قد اتخذوا دينا ووضعوا شريعةواخترعوا كتابة، ولهم لغة خاصة. فلما غلبهم الحمورابيون اقتبسوا تمدنهم، ونظمهم، وكان الحمورابيون فى أول دولتهم يستخدمون اللغة السومرية فى المكاتبات، ثم أهملوها بالتدريج حتى ذهبت وذهب معها العنصر السومرى، وبقى العنصر السامى.

ولكن الحمورابيين استبقوا الخط السومرى، وهو القلم المسمارى لأنهم استخدموه فى تدوين لسانهم،وزادوا فيه أحرفاً لم تكن فى السومرية.

---

(١) العرب قبل الإسلام جـ١ ص ٤٠، ص ٤١، ص ٤٢.

أما تمدن السومريين فاقتبسه الحمورابيون ورقوه وزادوا فيه كما فعل المسلمون بتمدن الروم والفرس وأكثرهم عناية في ذلك حمورابي فإنه جمع الشرائع ونظمها وبوبها فعرفت باسمه، وقد رتبها في ٢٨٢ مادة، وجدوا نسخة منها ١٩٠١ في بلاد السوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الأسود الصلب طولها سبع أقدام وتدل تلك الشريعة على تقدم تلك الأمة في سلم الاجتماع إلى أرقى ما بلغت إليه تلك العصور ولا سيما في شروط الزواج والتبني والإرث .. وإليك خلاصة ذلك.

نظام الاجتماع ـ طبقات الناس.

كان الناس في ذلك العصر ثلاث طبقات: الأحرار، العبيد، طبقة متوسطة بينهما، عبرنا عنها بالموالي على نحو ما كان عليه العرب في صدر الإسلام، فإن الموالي عندهم أرقى من العبد وأدنى من الحر، فإذا صح أن هذه الدولة عربية كان العرب أسبق أم الأرض إلى سن الشرائع، وتنشيط العلم وإنهم بلغوا في نظام الاجتماع ما لم يبلغ إليه معاصروهم،ومازالت الدولة البابلية الأولى ـ الحمورابية ـ قائمة حتى غلبت على أمرها فخرج بعض أهل الدولة فراراً من ذلك الغالب إلى إخوانهم في جزيرة العرب وأنشأوا في اليمن دولة عربية عرفت بدولة المعينيين، كان لها شأن كبير في تاريخ اليمن قبل دولة سبأ وحمير[1].

هل دولة حمورابي عربية؟

لاخلاف في أن دولة حمورابي سامية الأصل، ولكنهم اختلفوا في نسبتها إلى فرقة من الفرق السامية؛ وعندنا أنها من بدو الآراميين، وهم عرب ذلك العصر أو العمالقة، والأدلة على ذلك :

١ـ أن بروسوس مؤرخ الكلدان ذكر بين الدول التي حكمت بابل دولة سماها: عربية، وذكر عدد ملوكها وسني حكمها ودولة حمورابي أقرب دول بابل عهداً من الزمن الذي عينه بروسوس للدولة العربية.

(١) تاريخ العرب جـ١ ص ٤٩، ص ٥١.

٢ـ أن سكان بادية العراق كانوا يعرفون عند أهل بابل باسم عمورو ـ أى أبناء المغرب ـ وهذا الاسم يشمل كل من سكن غرب الفرات من الأمم السامية، وفيهم الآراميون في الشام، وبدوهم في باديتها، وفى التاريخ القديم أن الكنعانيين اكتسحوا فلسطين فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، وأخرجوا أهلها الأصليين، ويوافق ذلك نزول بدو الآراميين بابل وأنشاءتلك الدولة فيها واسمهم عمورو كما تقدم،ثم سموهم عريبى ومعناها أهل المغرب أيضاً، والطبرى يسمى جد العمالقة عريب[1].

٣ـ أن معبودات البابليين كثيرة الشبه فى أسمائها وأسماء الذين ينتسبون إليها بأقدم آلهة العرب فى اليمن وغيرها مثل «إيل ـ وبل، وشمس، واشتار، وسين، وسمدان، ونسر»

٤ـ إن الحمورابيين اتخذوا بابل قصبة لمملكتهم على حدود البادية قرب المكان الذى اختاره اللخميون كرسيا لدولتهم الحيرة ـ بعد ذلك بنحو ثلاثين قرنا والمكان الذى اختاره العرب المسلمون فى أيام بداوتهم ـ الكوفة ـ عملاً برأى: عمر حتى لا يكون بينه وبين المسلمين ماء، فإذا أحب أن يركب راحلته إليهم ركبها[2].

٨- العبرانيون:

كان داخول العبرانيين إلى كنعان نتيجة ثلاث هجرات:ـ

الأولى هجرة إبراهيم من بلاد الرافدين، تتصل بالهكسوس.

الثانية: هجرة إسرائيل، وتتصل بالآراميين.

الثالثة: قد أتت من مصر، والجنوب الشرقى، بقيادة موسى فى أوخر القرن الثالث عشر.

من خلال تلك الهجرات، أتى الشعب الذى عرف فيما بعد، بالعبرانيين متجولين، ومغامرين ومرتزقة. وجنوداً لا ارتباط بينهم، ثم استقروا بالتدريج بين السكان الذين سبقوهم، وفاقوهم فى مدنيتهم، وتعلموامنهم حرث الأرض، وبناء المنازل،

(١) تاريخ العرب جـ١ ص ٤٩.

(٢) تاريخ العرب جـ١ ص ٥١.

وممارسة فنون السلم، وأهم من ذلك القراءة، والكتابة؛ ويضاف إلى هذا كله، أن العبرانيين تركوا لهجتهم السامية القديمة، واتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم، واللغة الفينيقية، واللغة العبرانية القديمة، كما هي مدونة في العهد القديم، لا تختلفان إلا من ناحية اللهجة، وأصبح العبرانيون القدماء بوجه الإجمال، ورثة المظاهر الأساسية للحضارة، الكنعانية المادية؛ وأتباع كثير من العبادات والعادات، والصفات الدينية الكنعانية.

هجرة إبراهيم وإسرائيل.

تقول المرويات العبرانية: إن إبراهيم[١] جدهم الأكبر، أو قبيلتهم الأصلية أتى «أور» في بلاد الرافدين، بطريق حران؛ وقام مؤقتا قرب حبرون «الخليل» وترك وريثه إسحق[٢] ابنا اسمه يعقوب[٣]، وبعد أن قام يعقوب في فدان آرام عدة سنوات، وقع عليه الاختيار ليكون صاحب الشأن تفضيلاً له على أخيه «عيسو»[٤] وتغير اسمه، فأصبح «إسرائيل»[٥] وحصل عيسو على اسم آخر وهو : «آروم» أي أحمر؛ وحل ورثته فيما بعد محل كل سكان منطقة جبل سعير، وعرفوا باسم الأدوميين؛ وهكذا أزيل عيسو من حياة العبرانيين وتفكيرهم؛ كما أزيل قبلاً إسماعيل بن إبراهيم من جاريته المصرية هاجر، وفضل عليه إسحق، وبين أولاد يعقوب الاثنى عشر كان يوسف[٦] الحادي عشر وهو الابن الأكبر لراحيل؛ وقد باعه إخوته لجماعة في مصر، وارتفع شأنه في الدولة المصرية، وبعد أن أقام ورثة يوسف وإخوته أجيالا عديدة في مصر عادوا إلى فلسطين.

الخروج من مصر: هجرة موسى.

يبدأ تاريخ بني إسرائيل الحقيقي كشعب، بالخروج من مصر، وفي حدين وهو القسم الجنوبي من شبه جزيرة سيناء وضع العهد القديم، وتزوج زعيم الإسرائيليين موسى، الذي يبدو اسمه ككلمة مصرية، من ابنة كاهن مدين الذي يعبد يهوة[٧].

---

(١) بالعبرية إبرام أي الأب.

(٢) بالعبرية ليتسم إيل.

(٣) بالعبرية ليحفظ إيل.

(٤) سفر التكوين ٢٠ :٢٣.

(٥) بالعبرية ليحكم إيل.

(٦) بالعبرية ياسف ليضيف إيل.

(٧) سفر الخروج ٣: ١، ١٨: ١٠.

والذى علم موسى هذه العبادة الجديدة قبل أن يوحى إليه، وكان هذا الإله العربى الشمالى إله الصحراء؛ والأصل إله القمر، ومقره كان خيمة، وطقوسه تشمل بعض الأعياد والتضحيات من بين القطيع [١]؛ وتزاوج آخرون غالباً مع المدينيين، والفينيقيين وسائر سكان بادية من شمالى الجزيرة العربية؛ وفى حوالى «١٢٥٠» ظهر هؤلاء البدو المنحدرون من أطلال العشائر فى الجهة الجنوبية الشرقية من سورية، أى من بادية شرقى الأردن؛ وكان أول فوز عبرانى فى شرق الأردن على «سيمون» ملك الأموريين؛ وتبعه فوز آخر على «عوج» الملك الجبار، ملك باشان وعندما سيطر العبرانيون على البلاد كانوا يقسمونها بين القبائل الإحدى عشرة، وتركوا قبيلة «لاوى» الكهنوتية موزعة بين سائر القبائل لتهتم بشئونها الدينية؛ وهكذا أسكنت قبيلتا «يهوذا، وبنيامين» فى الأراضى المرتفعة حول أورشليم، بينما استقرت القبائل الأخرى فى السهول الأكثر خصبا فى الشمال.

وكان العبرانيون؛ الشعب الوحيد بين الشعوب السامية القديمة؛ الذى أنشأ شعوراً قومياً متطرفاً، كما أن العبرانيين وحدهم من بين الساميين القدماء؛ الذين احتفظوا بصفاتهم القومية، وبفرديتهم.وقد ساعدت الديانة مساعدة كبرى فى توحيدهم، وتعاونهم؛ وفى عهد نبى الله «داود ١٠٠٤ـ ٩٦٣ ق.م» تمت له بنتيجة فتح «أدوم» السيطرة على طريق التجارة العظيم بين سورية، والجزيرة العربية؛ وفى عهده أيضاً بدأ الأدب العبرى، وهو من أغنى وأرفع ما تركه الشرق القديم من مظاهر حضارية؛ وقد استعاروا الكتابة من الفينيقيين، ويظن أن الكهان بدأوا فيما بعد بإعداد كتب مشابهة للوثائق الرسمية وأدخل جانب منها فى العهد القديم؛ وأول فصلين من سفر الملوك الأول هما: أول قطع من النثر العربى: وكتابة عن ترجمة حياة داود فى الفصول (٩ إلى ٢٠) من سفر صموئيل الثانى هى قطعة رائعة من الإنشاء التاريخى؛ كذلك بدأت مجموعات من المؤلفات الشعرية فى عصر داود؛ وكان هو نفسه شاعراً، وله مكانته؛ وفى الواقع فإن الأثر الذى تركته مواهبه الشعرية، والموسيقية

---

(١) نفس المرجع ١٨٣، ١٠٥.

كان عظيماً، حتى إن الأجيال نسبت له، وضع عدد من المزامير التى بلغ من قيمتها الإنسانية العامة، وأهميتها الدائمة، أنها لا تزال تستخدم كمصدر روحى، وكوسيلة لرفع القوى الروحية[١].

إسرائيل:

كان دواد، وسليمان قد وجدا بصورة مؤقته شعبى إسرائيل، ويهوذا المنفصلين، كانت قبيلة «إفرايم» وغيرها من القبائل الشمالية، التى تسكن الشمال أكثر تعرضا للتأثير الكنعانى، وكانت تفضل الزراعة، وفى مسائل العبادة الألوهية (جمع إيل) وتعبدها بطقوس شمسية مأخوذة من الطقوس الكنعانية القديمة؛ وكان أشهر ملوك إسرائيل الأوائل «عبرى ٨٨٥ ـ ٨٧٤» ويدل (اسمه على أصل عربى أو بالأحرى نبطى؛ وكان الأثر المهم الذى تركه مدينة السامر[٢] التى أسسها وحصنها، ونقل إليها مركز الحكم من ترزن[٣] وبنى فى عاصمته الجديدة قصراً وسعه وزخرفه ابنه ووريثه «أخاب».

ويذكر الرواة أن الملك «أخاب» تزوج «إيزابل» ابنة «اتبعل» ملك صور، وكانت ذات شخصية، وسيطرت على زوجها، وحاولت فرض عبادة «بعل صور» على إسرائيل؛ وأدى ذلك إلى نزاع مرير، وطويل للسيادة على حياة إسرائيل الدينية بين عبادة البعل، وعبادة «يهوه»، وظل النزاع إلى أن استولى «باهو» على العرش فى «٨٤٢ ق.م.» وأعاد عبادة يهوه كعبادة وحيدة فى إسرائيل[٤].

الساسريون:

وفى عهد «سلمناصر الخامس» وعلى يديه تلاشت مملكة إسرائيل إلى الأبد؛ ولم يشكل المسبيون سوى قسم صغير من سكان المملكة الشمالية غرب الأردن؛

---

(١) تاريخ سورية جـ١ ص ٢٠٤، ص ٢٠٥.

(٢) سفر الملوك الأول ١٦ :٢٤.

(٣) ترزن لم يعرف موقعها بعد.

(٤) سفر الملوك الأول ١٦ :٣١.

وهكذا فإن الأسباط العشرة، المفقودة؛ إنما المسبيون منهم اندمجوا بغيرهم؛ ثم أضاف «سرجون» وخلفاؤه إلى سياسة السبى، ونقل الذين كانوا شوكة فى جانب دولة «آشور» شيئا آخر، وهو: فقد أتوا بقبائل من بلاد بابل، وعيلام، وسورية، وبلاد العرب لتحل محل الإسرائيليين المسبيين، وأسكنوها فى السامرة.

وقد امتزج المستوطنون الجدد بين إسرائيل ليشكلوا السامريين، واتخذت معتقداتهم الدينية أيضاً مع عبادة «يهوه» وبعد عودة «عزرا» و«نحميا» من السبى حيث دافعا عن فكرة النقاوة العنصرية وطردوا من أورشليم حفيد الكاهن الأعلى، لزواجه من ابنة الحاكم السامرى، ويبدو أن ذلك الكاهن، المطرود أصبح كاهن السامريين، وبنى هيكل «لاجل» على جبل «جريزيم» لينافس هيكل «أورشليم»؛ وكان كتاب اليهود المقدس حينذاك يتألف من الكتب الخمسة فقط؛ ولذا فإن هذا القسم من العهد القديم، ظل منذ ذلك الحين الكتاب المقدس الوحيد للسامريين، وقد نقلوه فى نوع قديم من الحروف العبرية «وجريزيم» وليس «صهيون» هو المكان المقدس بالنسبة لهم؛ وازداد العداء بين اليهود والسامريين مع الزمن، ولم يكن التزاوج بينهم مسموحاً فى أى وقت؛ ومن أطراف أحاديث المسيح، حديثه مع امرأة سامرية تعجبت كيف يطلب منها أن تعطيه ليشرب مع أنه يهودى[١]؛ واختار المسيح فى مثل من أبدع أمثاله رجلا سامرياً ليكون بطل قصة، ويلعب فيها دوراً نبيلا[٢]؛ وفى أثناء اضطهاد انطيوقس تألم السامريون، كما تألم اليهود[٣]، بالرغم من موافقتهم بالظاهر على التساهل وتكريس هيكلهم على جبل «جريزيم» للإله «زفس[٤]» ولغة السامريين هى العبرية[٥].

(١) انجيل يوحنا ٤: ٩
(٢) انجيل لوقا ١٠: ٣٠، ٣٧.
(٣) سفر المكابيين الثانى ٥: ٢٣.
(٤) المرجع السابق ٦: ٢.
(٥) تاريخ سورية جـ١ ص ٢١٤.

يهوذا:

وكانت قبيلتا يهوذا، وبنيامين في الجنوب تفضلان (يهوه) الذى مسكنه هيكل «أورشليم» والذى كانت عبادته أكثر بساطة. وشهد عرش «يهوذا» عدداً من الملوك يشبه عدد ملوك إسرائيل؛ وهو تسعة عشر ملكا، غير أن هذه المملكة الجنوبية دامت نحو قرن وثلث، أكثر من مملكة إسرائيل فى الشمال.

وفى عهد «يوشيا» توسعت المملكة فى أيامه نحو الشمال وحاولت إعادة توحيد إسرائيل مع «يهوذا» ثم اكتسب «يوشيا» شهرة خالدة كمصلح دينى حين تعاهد مع شعبه على عبادة (يهوه) وحده، وأحرقوا أوانى بعل، والأجرام السماوية المؤلهة، التى كانت فى الهيكل، وهدموا بيوت المابونين المجاورة، وخربوا المرتفعات فى بلاد «يهوذا» فى بلاد إسرائيل[1].

الوجه الثقافى والدينى للعبرانيين.

اتبع العبرانيون فى مراحل حياتهم الأولى فى فلسطين النموذج الحضارى للشرق الأدنى، الذى كان يمثله الكنعانيون ، وقد أعطت كنعان لإسرائيل لغتها وأبجديتها.

ويعنى ذلك: أنهم اقتبسوا دفعة واحدة تقريباً ـ مجموعة من الطقوس، والمشاهد، والمراسيم القديمة، التى تضم الأعمدة الخشبية، والأماكن المرتفعة، وعبادة الحية[2]، والعجل الذهبى[3] والتحريمات المتصلة بالطقوس فى الأسفار الخمسة تفيد ضمناً أن هذه العادات كانت قبل تحريمها قد اقتبسها العبرانيون من جيرانهم، ثم اعتبرها الرؤساء غير متفقة مع اتجاهات الديانة العبرانية، والاعتراف «بيهوه» كالإله الرئيسى –بحق الفتح– لم يمنع اعتبار الآلهة المحلية مسيطرة على

---

(١) الملوك الثانى ٢٣: ١ـ٢٥.

(٢) سفر الملوك الثانى ١٨: ٤.

(٣) السابق جزءا وصفحة.

خصب البلاد ؛ وكانت سلطة «يهوه» على الدولة؛ بينما شئون الحياة العادية من زراعة وتجارة لم تكن من صلاحياته الرئيسية. وكان «يهوه» يكتسب كثيراً من صفات «بعل» مما جعله سيد السماء وباعث المطر، والمسيطر على العواصف. وكان الأهل كثيراً ما يسمون ابنهم البكر بالنسبة ليهوه؛ بينما يسمون صغارهم بالنسبة (لبعل). وتزداد نسبة الأسماء العبرانية المؤلفة من اسم (بعل) باطراد في الفترة الأولى. (وشاول) يسمى ابنه (إيش بعل ورجل بعل)، و(يوناثان) يسمى ابنه (مريد بعل - بعل ينازع) ولقد سبق أن بعل فرضته (إيزابيل)[1] يقول فيليب حتى: لم يصلنا مؤلف يشبه العهد القديم في أهميته من العصور التي سبقت المسيحية، والعهد القديم هو أكثر من مؤلف أدبي، إنه صرح حضارة بكاملها؛ وقد كان العهد القديم خلال العصور قوة فعالة في حياة الرجال والنساء، ومرت مادته نفسه بأطوار كثيرة من الانتقاء والحذف، والتحقيق والضبط قبل أن تتخذ شكلها النهائي، وهناك نوع من الوحدة تتخلل العهد القديم[2].

الكهنة:

كان الكهنة يشكلون طبقة خاصة بين الأمم القديمة. أما الكهنة عند العبرانيين، فكانت تنحصر في أسرة هارون بصورة وراثية، والكاهن هو الذى كان يعلم الشريعة، ويعمل أكثر مما يعلم، ويقوم بالمراسم عند المذبح، ويجرى سائر الطقوس، ويعمل كوسيط بين الإنسان والله، وتفسيرات الكهنة يطلق عليها الحكمة، والحكمة بخلاف الشريعة، فالأولى مصدرها الإنسان نتيجة اجتهاده واختياره وتعاليمه، وكتب الحكمة العبرانية الكبرى هي:

اسفار أيوب، والأمثال، والجامعة، وأعظم كتب الحكمة بدون شك سفر أيوب، وكان الحكيم العبراني يخاطب الفرد وليس المجموع، ورسالته كانت إدراك النجاح أكثر منها الحصول على رضى الله[3].

(١) تاريخ سورية جـ١ ص ٢٢٢

(٢) سفر الخروج ١:٢٨

(٣) تاريخ سورية جـ١ ص ٢٣١.

النبوة الإلهية عربية لفظا ومعنى:

ويؤكد المرحوم الأستاذ العقاد أن الإسرائيليين (اليهود) تعلموا النبوة الإلهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب، ولم تكن لهذه الكلمة عند الإسرائيليين (اليهود) لفظه تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومحاورتهم للعرب المقيمين فى أرض مدين. فيقول: « إن كلمة نبى عربية لفظا ومعنى لأن المعنى الذى يؤديه لا تجمعه كلمة واحدة فى اللغات الأخرى والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء القدماء بالآباء ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار... فكانوا يسمون النبى بالرائى[١] أو الناظر أو رجل الله، ولم يطلقوا عليه اسم نبى إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين فى التوراة، وهم: ملكى صادق،وأيوب،وبلعام،وشعيب الذى يسمونه يثروب،وهو معلم موسى الكليم» [٢]. وقد سمى إبراهيم الخليل برئيس الآباء[٣] ويستشهد العقاد ببعض علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا إلى تأييد اقتباس أتباع موسى كلمة النبوة من العرب مثل الأستاذ هولشر والأستاذ شميدت اللذين يرجحان أن الكلمة دخلت اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين. فتشير التوراة إلى أن عاموس اغتاظ وغضب لما أطلق عليه اسم نبى وقال: «لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبى بل أنا راع وجانى جميز»[٤].

فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال الرب: اذهب تنبأ لشعبى، ويعطى نص عاموس دلالتين؛ على خلاف ما يذهب بعض المستشرقين فى تأويله فى أنه اغتاظ أو غضب إنما أراد من إطلاقه عليه دلالتين:

الدلالة الأولى: أنه تنبأ من الله.

الدلالة الثانية: أن النبوة كانت تورث.

---

(١) صا ٧: ١٢.

(٢) العقاد، «الثقافة العربية». ص ٧١.

(٣) عبـو ٧: ٤.

(٤) عا ٧: ١٤ ـ ١٥.

ولما كانت النبوة لها إطلاقات شتى فهى تطلق فى التراث العبرانى على الكهنة والعرافين والسحرة وعلى الأنبياء الكذبة.. إلخ، فإن عاموس حددها على أن الله نبأه من عنده.. وليست نبوته من قبيل تلك المعانى ولا من قبيل الإرث.

تعقيب:

من هنا نلاحظ أن: معظم الأدوات التى تعبر عن العقائد يتشابه بعضها مع البعض، والديانات تضم:

١ـ الآلهة الأنثى أكثر من الذكور.

٢ـ الآلهات الأنثى مزينة بالحلى الجميلة، وفى بعض الأحيان تحمل أطفالا فى بطنها.

٣ـ وهناك تماثيل للآلهة تعبر عن تقديم الناس النذور والطلبات والحاجات.

٤ـ وللثور مكانة بارزة بين تلك الآلهة، شأنه فى ذلك شأن أرض الرافدين، وسوريا ومصر.

٥ـ كما وجدت بين تلك الآلهة والتماثيل: أصنام وصخر طويل عريض.

وكذلك تشير إلى لوحات عديدة إلى آلهة كثيرين، وهناك لوحات تصف تدفق النهرين من رحم الآلهة، ولوحات أخرى رسمت آلهة الأشجار، وهذه الآلهة كلها رسمها الهنود بكل براعة، ودون غموض؛ وهى تختلف بطبيعتها وصفاتها وملامحها عن آلهة أرض الرافدين كل الاختلاف؛ وكذلك عن آلهة مصر.

وكذلك نرى من بين آلهتهم بطلين عظيمين؛ واحد منهما يصارع الأسود بكل شجاعة؛ والآخر نصف جسمه يشبه إنساناً والنصف الآخر يشبه حيواناً متوحشاً بشعاً، ممسكا بيديه ثوراً وأسداً؛ وهو يشبه أنكير، والبطل السومرى فى أرض الرافدين من بعض الوجوه، كما تصفه أسطورة الطوفان السومرية،وهناك رموز دينية وسحرية كثيرة مثل الصليب، والنقاد.

الكتفان نقشت على الطوابع، والأدوات المعدنية شأنها فى ذلك شأن رموز بابل، وعيلم، وهناك صورة تصوره جالساً رسم بقرن وثلاثة وجوه، وهذا الإله: هو

الذى سمى لدى الآراميين «سيفا» وهو إله عظيم جليل القدر ملك الغابات والوحوش له عدة وجوه، ومما لا شك فيه أنه أقدم الآلهة الهندية، وقد وجد فى وادى نهر الهند منذ القدم، وهو يملك السلطات الواسعة فى الكون. فإنه يشبه «براهما» إله الخلق فى الشكل، وكذلك الإله «فشنوا» الحارس الحافظ؛ وقد اجتمعت فيه صفات فى مصر ومع أنه كان يتخلق بصفات هامة مثل الهدم والتخريب، فقد تحلى أيضا بصفات بناءة، مثل منح الحياة، وجلب الخصوبة وفق عقيدتهم، ولقد أدخله الآراميون فى عقائدهم.

ومن شيدت له المعابد، ووضعت له التماثيل، ولم تزل هذه الظاهرة معروفة وموجودة فى معابد الهندوس، وكانت العبادة تؤدى لكل من الإله «سيفا» ورمزه الفروج جنبا إلى جنب؛ وبهذا تكون الآلهة الثلاثة، أى الآلهة: « الأم، والإله سيفا، وإله الفروج» من أهم آلهة سكان وادى نهر الهند.

تكاد تتشابه العقائد الوثنية فى كل عصر وزمان من حيث صفاتها: كل صفة من صفات الله صورة إنسانية أو حيوانية وهذه هى الآلهة. وإن قدرة الله وجبروته قد تجسدت فى صورة إله فى كل أمة من الأمم مثل:

بعل عند الساميين.

أندرا عند الآراميين.

جوبتر عند اليونانيين.

أما «فشنوا» عند الدراوديين؛ فهو شخصية بطل تاريخى أضفوا عليه صفات الألوهية، وهذه الشخصيات « كراما، كرشنا» وهذا أساس نظرية التفحص أو التجسد؛ وأخذ بهذه النظرية المسيحيون فى : تجسد المسيح، وبعض الفرق الإسلامية كالإسماعيلية والبهائية، والقديانية.

كذلك عقيدة سيطرة الجن، والعفاريت على الإنسان وتغلغلهما فيه، وتعذيبهما إياه، أو إخضاعه ليتحدثوا على لسانه مظهر من مظاهر التجسد للقوى الخفية الشريرة، ولطردها ألفت التمائم والتعاويذ، والكلمات السحرية فى أرض الرافدين فى حضارة

بابل والهند الآرية، وإذا استطاع الجن السيطرة على الأشرار من الناس، فإن الآلهة أقدر منهم على التجسد فى الناس الطيبين، فمن الصعب أن يتبين علماء الآثار والتاريخ أين تكمن بداية تلك الشعوب فى مجراها ومرساها، وما هو موطنها الأصلى. فلم يقع أى انقطاع فى تيار الحضارة فى البلاد القديمة فى الشرق إيران سورية بلاد ما بين النهرين مصر، بل اتصلت وشائج الحضارة البيزنطية الساسانية: الإطارات الذهنية، طرق التفكير، والطرق التقنية والأفكار السائدة والأشكال الفنية.

مراجع هذا الباب

(١) ـ القرآن الكريم .

(٢) ـ الكتاب المقدس.

(٣) ـ الأمم السامية.

مصادر تاريخها وحضارتها تأليف حامد عبد القادر ـ عضو مجمع اللغة العربية. مراجع د. عونى عبد الرءوف طبعة دار النهضة للطبع والنشر.

(٤) تراث العالم القديم

تأليف: د. ح. دى بورج ترجمة زكى سوس مراجعة دريحى الخشاب در صقر حفاجة طبعة دار الكرنك.

(٥) تاريخ سوريا

تأليف فيليب حتى ترجمة جورج حداد، عبد الكريم رامق طبعة دار الثقافة ـ بيروت

(٦) الشرق الأدنى القديم ـ مصر والعراق تأليف در عبد العزيز صالح طبعة مكتبة الأنجلو المصرية

(٧) ـ العرب قبل الإسلام

تأليف جورجي زيدان ـ مطبعة الهلال ١٩٠٥

(٨) خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى تأليف فيليب حتى، طبعة الدار المتحدة .

(٩) الجديد حول الشرق القديم

تأليف نخبة من المستشرقين وهم:

(أ) ـ المقدمة: كلوتشوف ـ بونفارد ـ ليفين

(ب) ـ الفصل الأول : بدايات الزراعة والرعى ـ كاوتشوف

(ج) ـ الفصل الثانى: الجديد حول أصل الكتابة ـ بيلوفا

(د) ـ ((الثالث: منجزات علم المصرويات ـ بوتقارد ـ ليفين

(هـ) ـ ((الرابع: تل مرديخ – إيبلا القرعة

(و) ـ ((الخامس : الجديد حول المجتمع البابلى الألف الأول ق.م.

(ز) ـ ((السادس : تاريخ حضرموت وحضارتها ـ قضايا دراستها والبحوث الأخيرة ـ سافروتوف.

(ح) ـ الفصل السابع: الفرضيات القديمة والجديدة عن موطن الأجداد الهندأوربى.

(ط) ـ الفصل الثامن: الردافيديون: موطن أجدادهم وزمان ومراحل انتشارهم

(ى) ـ الفصل التاسع: الألفوئيون: اكتشافات جديدة ومسائل جديدة

(ك) ـ الفصل العاشر: مرغوش أومرو ـ كوشيلينكو

(ل) ـ الفصل الحادى عشر : موطن البارتيين تاريخه وحضارته ـ غامكر يليرزه

(م) الفصل الثانى عشر : كنوز طلاتبه ـ كوشيلينكو.

(ن) الفصل الثالث عشر : المخطوطات تتكلم ـ غرياز نيفكى

(س) ـ الفصل الرابع عشر : مواد جديدة عن التاريخ القديم والحضارات العريقة فيما وراء القوقاز ـ كوسيليتكو.

الباب الثانى

العرب فى طورهم التاريخى والسياسى

عرب ومدلوله التاريخى:

إذا أطلق لفظ العرب بعد الإسلام، أردنا سكان جزيرة العرب والعراق، والشام، ومصر، والسودان والمغرب.

أما قبل الإسلام؛ فإنه يختلف عما بعد الإسلام من حيث:

مفهومه وجغرافيته. ففى التاريخ الفرعونى، والفينيقى والأشورى. كان يراد بالعرب: أهل البادية فى القسم الشمالى من جزيرة العرب، وشرق وادى النيل فى البقعة الممتدة بين الفرات فى الشرق والنيل فى الغرب، ويدخل فيها بادية العراق والشام، وشبه جزيرة سيناء، وما يتصل بها من شرق الدلتا والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الأحمر[1].

وكان المصريون يسمون الجبل الشرقى الذى يحد النيل فى الشرق جبل العرب. وكان لفظ العرب فى التاريخ القديم يرادف لفظ «بدو» أو بادية، وهو معنى هذا اللفظ فى اللغات السامية ومنها فى اللغة العبرانية «البادية» يقابلها فى اللغة العربية «العرابة» فى وداى موسى، والأعراب سكان البادية خاصة ولا مفرد لها. ولما تحضر بعض قبائل العرب قديماً وأقاموا فى مدن اليمن والحجاز وحوران وغيرها لم يعد لفظ العرب محصوراً فى «البدو» فتنوع معناه كما تنوع مسماه.

يقول جورجى زيدان[2]: فاضطروا إلى كلمات تميز بين الحالين فاستعملوا لفظ «الحضر» لأهل المدن.و«البدو» لأهل البادية ولم يبق للفظ «العرب» من معنى البداوة إلا فى مثل ما اصطلح عليه العرف فى قولهم «أعرابى».

وكان النسابون إذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها؛ قالوا: القبيلة الفلانية و«أعرابها» ويعرف العرب عند السريانيين باسم: «طايه» نسبة إلى طيئ إحدى قبائلهم.

---

(١) معجم البلدان جـ ٣ ص ٦٣٣.

(٢) العرب قبل الإسلام جـ١ ص ٣٦ طبعة ١٩٠٨ .

وكان الساميون فى أعالى جزيرة العرب، وقد خيم بعضهم فى البادية بين العراق والشام. فمن تحضر منهم هناك خدم دولتها فى الحروب،فكان سكان تلك المدن يسمونهم «آراميين» أى أهل الجبال، وأهل ما بين النهرين يسمونهم «عمورو» أى أهل الغرب، لأن بلادهم واقعة غرب الفرات وهو اسمهم القديم فى بابل.

وقد يراد بالعمورو أهل غرب الفرات من بدو وحضر إلى البحر المتوسط ثم سموهم «عريبى» أو عرب، ومعناها فى اللغة السامية الأصلية «الغربيون» وكانوا يسمون بلادهم «حات عربى» أى بلاد الغربيين أو بلاد العرب.

يقول چورچى زيدان: وبما أن تلك البلاد صحراء بادية صار لفظ «عرب» فى اللغات السامية يدل على البادية كما فى العبرانية والعربية، ويقول جواد على: وترى علماء العربية حيارى فى تعيين أول من نطق بالعربية فبينما يذهبون إلى أن «يعرب» كان أول من أعرب فى لسانه وتكلم بهذا اللسان العربى، ثم يقولون: ولذلك عرف هذا اللسان باللسان العربى، تراهم يجعلون العربية لسان أهل الجنة ولسان آدم؛ أى أنهم يرجعون عهده إلى مبدأ الخليقة، وقد كانت الخليقة قبل خلق «يعرب» بالطبع بزمان طويل، ثم تراهم يقولون: أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيل. ألهم إسماعيل هذا اللسان العربى إلهاماً. وكان أول من فتق لسانه بالعربية المبينة وهو ابن أربع عشرة سنة، وإسماعيل هو جد العرب المستعربة على حد قولهم[1]

رأى المستشرقين وعلماء التوراة:

أما المستشرقون وعلماء التوراة المحدثون، فقد تتبعوا تأريخ الكلمة وتتبعوا معناها فى اللغات السامية ، وبحثوا عنها فى الكتابات الجاهلية وفى كتابات الآشوريين والبابليين واليونان وغيرهم، فوجدوا أن أقدم نص وردت فيه لفظة عرب هو نص آشورى من أيام الملك «شلمنصر الثالث» ملك آشور، وقد تبين لهم أن لفظة عرب لم تكن تعنى عند الآشوريين ما تعنيه عندنا من معنى، بل كانوا يقصدون بها بداوة وإمارة ـ مشيخة ـ كانت تحكم فى البادية المتاخمة للحدود الآشورية، كان حكمها

(١) المفصل جـ١ ص ١٤، تاج العروس جـ٢ ص ٣٥٢، اللسان جـ٢ ص ٧٢.

يتوسع ويتقلص فى البادية تبعا للظروف السياسية ولقوة شخصية الأمير،وكان يحكمها أمير يلقب نفسه بلقب «ملك» يقال له «جنديبو» أى جندب ـ كانت صلاته سيئة بالآشوريين لاشتراكه فى تحالف عسكرى مع ملك دمشق الآرامى «وأحاب» ملك العبرانيين لضرب ملك آشور. وهذا أول نص فيه ذكر واضح لزعيم عربى[1].

ووردت فى الكتابات البابلية جملة «ماتو أربى» Matu Arabaai ومعنى (ماتو) (متو) أرض فيكون المعنى أرض عربى. أى أرض العرب أو بلاد العرب أو العربية أو بلاد الأعراب ـ بتعبير أصدق وأصح إذ قصد بها البادية، وكانت تحفل بالأعراب[2]، ومراد البابليين أو الآشوريين أو الفرس من العربية أو بلاد العرب البادية التى فى غرب نهر الفرات الممتدة إلى تخوم بلاد الشام[3]. وبهذا المعنى أى معنى البداوة والأعرابية والجفاف والقفر وردت اللفظة فى العبرانية وفى لغات سامية أخرى، ويدل ذلك على أن لفظة «عرب» فى تلك اللغات المتقاربة هو البداوة وحياة البادية أى معنى «أعراب» وإذا راجعنا المواضع التى وردت فيها كلمة «عربى، وعرب» فى التوراة نجدها بهذا المعنى تماماً، ففى كل المواضع التى وردت فيها فى سفر (أشعياء) مثلاً نرى أنها استعملت بمعنى بداوة وأعرابية كالذى جاء فيه: «ولا يخيم هناك أعرابى» و«وحى من جهة بلاد العرب فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين ياقوافل الردانيين» فقصد بلفظة عرب فى هذه الآية الأخيرة البادية موطن العزلة والوحشة والخطر، ولم يقصد بها قومية وعلمية لجنس معين بالمعنى المعروف المفهوم[4].

ويرى بعض علماء التوراة أن كلمة «عرب» إنما شاعت وانتشرت عند العبرانيين بعد ضعف «الإسماعيليين» وتدهورهم وتغلب الأعراب عليهم، حتى صارت اللفظة مرادفة عندهم لكلمة «إشماعيليين». ثم تغلبت عليهم فصارت تشملهم مع أن «الإشماعيليين» كانوا أعراباً كذلك أى قبائل بدوية تنتقل من مكان إلى مكان طلبا للمرعى وللماء. وكانت تسكن أيضاً فى المناطق التى سكنها الأعراب أى أهل البادية. ويرى أولئك العلماء أن كلمة عرب لفظة متأخرة اقتبسها العبرانيون

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى ص ١٢٠ فيليب حتى.

(٢، ٣، ٤) ـ المفصل جـ١ ص ١٧، ص ١٨، الإصحاح الثالث عشر آية ٢٠ والإصحاح الحادى والعشرون آية ١٣.

من الآشوريين والبابليين بدليل: ورودها في النصوص الآشورية والبابلية، وهي نصوص يعود عهدها إلى ما قبل التوراة؛ ولشيوعها بعد لفظة «إسماعيليين» ولأدائها المعنى ذاته المراد من اللفظة ربط بينهما وبين لفظة «إسماعيليين» وصارت نسباً، فصير جد هؤلاء العرب «إشماعيل» وعدوا من أبناء «إسماعيل»[1].

وأول من ذكر العرب من اليونان هو: «إسكيلوس» «أشيلس» ٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق.م. ـ من أهل الأخبار منهم ذكرهم في كلامه على جيش «أحشويرش» وقال: إنه كان في جيشه ضابط عربي من الرؤساء مشهور، ثم تلاه «هيرودتس» شيخ المؤرخين نحو (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ـ ق.م.) فتحدث في موضوعات من تأريخه عن العرب حديثاً يظهر منه أنه كان على شئ من العلم بهم، وقد أطلق لفظة (Arabae) على بلاد العرب البادية وجزيرة العرب والأرضين الواقعة إلى الشرق من نهر النيل فأدخل طور سيناء وما بعدها إلى ضفاف النيل في بلاد العرب، فلفظة العربية عند اليونان والرومان هي في معنى بلاد العرب، وقد شملت جزيرة العرب وبادية الشام وسكانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم على سبيل التغليب لاعتقادهم أن البداوة كانت هي الغالبة على هذه الأرضين فأطلقوها من ثمّ على الأرضين المذكورة[2]، أما النصوص العربية الجنوبية فقد وردت فيها لفظة «أعرب» بمعنى «أعراب» ولم يقصد بها قومية أي علم لهذا الجنس المعروف الذي يشمل كل سكان بلاد العرب من بدو ومن حضرفورد: «وأعرب ملك حضرموت» أي «وأعراب ملك حضرموت» وورد «وأعرب ملك سبأ» أي « وأعراب ملك سبأ» وكالذي ورد في نص «أبرهة» نائب ملك الحبشة على اليمن. ففي كل هذه المواضع ومواضع أخرى وردت بمعنى أعراب. أما أهل المدن والمتحضرون فكانوا يعرفون بمدنهم أو بقبائلهم، وكانت مستقرة في الغالب، ولهذا قيل «سبأ» و«همدان» و«حمير» وقبائل أخرى بمعنى أنها قبائل مستقرة متحضرة تمتاز عن القبائل المتنقلة المسماة «أعراب» في النصوص العربية الجنوبية مما يدل على أن لفظة (عرب) «العرب» لم تكن تؤدى معنى الجنس والقومية، وذلك في الكتابات العربية الجنوبية المدونة والواصلة إلينا إلى قبيل الإسلام بقليل (٤٤٩م ـ ٥٤٢ م).

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٢٠.

(٢) المراجع السابق جـ ١ ص ٢١.

يقول جواد على : والرأى عندى أن العرب الجنوبيين لم يفهموا هذا المعنى من اللفظة إلا بعد دخولهم الإسلام، ووقوفهم على القرآن الكريم وتكلمهم باللغة التى نزل بها وذلك بفضل الإسلام بالطبع، وقد وردت لفظة (عرب) فى النصوص علماً لأشخاص(١).

وقد عرف البدو ـ أى سكان البادية بالأعراب فى عربية القرآن الكريم، وقد ذكروا فى مواضع من كتاب الله، وقد نعتوا فيه بنعوت سيئة تدل على أثر خلق البادية فيهم.

وقد ذكر بعض العلماء أن الأعراب بادية العرب وأنهم سكان البادية(٢)، والنص الوحيد الذى وردت فيه لفظة (العرب) علماً على العرب جميعاً من حضر وأعراب؛ ونعت فيه لسانهم باللسان العربى، وهو القرآن الكريم، وقد ذهب (د.هـ. ملرا) إلى أن القرآن الكريم هو الذى خصص الكلمة وجعلها علماً لقومية تشمل كل العرب وهو يشك فى صحة ورود كلمة (عرب) علماً لقومية الشعر الجاهلى كالذى ورد فى شعر لامرئ القيس، وفى الأخبار المدونة فى كتب الأدب على ألسنة بعض الجاهليين. ورأى (ملر) هذا رأى ضعيف لا يستند إلى دليل؛ إذ كيف تعقل مخاطبة القرآن قوماً بهذا المعنى لو لم يكن لهم سابق علم به؟

وفى الآيات دلالة واضحة على أن القوم كان لهم إدراك لهذا المعنى قبل الإسلام وأنهم كانوا ينعتون لسانهم باللسان العربى، وأنهم كانوا يقولون للألسنة الأخرى ألسنة أعجمية ـ قال تعالى : ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ (فصلت آية ٤٤) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ (الأحقاف آية ١٢). إلخ هذه الآيات، ففى هذه الآيات وآيات أخرى دلالة على أن الجاهليين كانوا يطلقون على لسانهم لساناً عربياً، وفى ذلك دليل على وجود الحس بالقومية قبيل الإسلام. ونحن لا نزال نميز الأعراب عن الحضر ونعدهم طبقة خاصة تختلف عن الحضر فنطلق عليهم لفظة (عرب) فى معنى (بدو وأعراب) أى المعنى الأصلى القديم،

(١) ـ المفصل جـ١ ص ٢٣، ص ٢٤.

(٢) المفصل جـ١ ص ٢٤.

ونرى أن عشيرة (الدولة) وعشائر أخرى تقسم سكان الجزيرة إلى قسمين حضر وعرب ونقصد بالعرب أصحاب الخيام أي المتنقلين؛ وتقسم العرب ـ أي البدو إلى : (عرب القبيلة)، (عرب الديرة) وهم العرب المقيمون على حافات البوادي والأرياف ـ أي في معنى (عرب الضاحية) وعرب الضواحي في اصطلاح القدماء ـ (القدامى)[1].

وخلاصة ما تقدم أن لفظة (ع.ر.ب.)، (عرب) هي بمعنى البداوة والأعرابية في كل اللغات السامية، ولم تكن تفهم إلا بهذا المعنى في أقدم النصوص التاريخية التي وصلت إلينا؛ وهي النصوص الآشورية وقد عنت بها البدو عامة مهما كان سيدهم أو رئيسهم، وبهذا المعنى استعملت عند غيرهم، ولما توسعت مدارك الأعاجم وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب توسعوا في استعمال اللفظة حتى صارت تشمل أكثر العرب على اعتبار أنهم أهل البادية وأن حياتهم حياة أعراب. ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم فصارت علمية عند أولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكانها، وأطلق لذلك كتبة اللاتين واليونان على بلاد العرب لفظة (Arabae) أي العربية بمعنى البلاد العربية بلاد العرب[2].

الجاهلية:

اصطلاح مستحدث ظهر بظهور الإسلام، وقد أطلق على حال العرب قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من إطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها وتتمكن منها، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي قد تسميها أيضاً بتسميات جديدة، وفي التسميات التي تطلق على العهود السابقة مما يدل ضمناً على شيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان[3].

---

(١) المفصل جـ ١ ص ٢٤، ص ٢٥.

(٢) المفصل جـ١ ص ٢٥ ، ص ٢٦ .

(٣) السابق جـ١ ص ٣٧، المزهر ص ١٧٦.

(الجاهلية) أى أيام الجاهلية أو «زمان الجاهلية» استهجاناً لأمر تلك الأيام الذى هو ضد الحلم، الأنفة والخفة والغضب، وما إلى ذلك من معان، وهى أمور كانت جد واضحة فى حياة الجاهليين، ويقابلها الإسلام الذى هو مصطلح (مستحدث أيضاً ظهر بظهور الإسلام)، وعماده الخضوع لله والانقياد له، ونبذ التفاخر بالأحساب والأنساب والكبر وما إلى ذلك من صفات نهى عنها القرآن والحديث[1].

وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم في مواضع منه، منها آية سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾الفرقان آية ٦٣. وآية سورة البقرة ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ آية ٦٧. وآية الأعراف قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ آية رقم ١٩٨.

وفى كل هذه المواضع ما ينم على أخلاق الجاهلية؛ وقد ورد في الحديث: «إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل»[2] وورد أيضاً «إنك امرؤ فيك جاهلية»[3] وبهذا المعنى تقريباً وردت الكلمة فى قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا[4]

وازدراء بجهل أصحابها لحالة الوثنية التى كانوا عليها، ولجهالة الناس إذ ذاك وارتكابهم الخطايا التى أبعدتهم فى نظر النصرانية عن العلم وعن ملكوت الله «وقد أعفى الله عن أزمنة هذا الجهل فيبشر الآن جميع الناس فى كل مكان إلى أن يتوبوا»[5].

وقد وردت لفظة ـ الجاهلية ـ فى القرآن الكريم، وردت فى السور المدنية دون السور المكية؛ فدل ذلك على أن ظهورها كان بعد هجرة الرسول إلى المدينة؛ وأن إطلاقها بهذا المعنى كان بعد الهجرة، وأن المسلمين استعملوها منذ هذا العهد فما بعده[6].

(١) المفصل جـ ١ ص ٣٨، ص ٣٩.
(٢) بلوغ الأرب جـ١ ص ١٦.
(٣) ذيل أقرب الموارد جـ٣ ص ١١٥، فجر الإسلام جـ ١ ص ١٦.
(٤) بلوغ الأرب جـ١ ص ١٦، محيط المحيط ص ٣٠٩، أساس البلاغة جـ١ ص ١٤٥.
(٥) المفصل جـ١ ص ٣٧، ص ٣٨ وأعمال الرسل والإصحاح السابع عشر آية ٣٠
(٦) المفصل جـ١ ص ٣٨.

وقد فهم جمهور من الناس أن الجاهلية من الجهل الذى هو ضد العلم أوعدم اتباع العلم، ومن الجهل بالقراءة والكتابة، ولهذا ترجمت اللفظة فى الإنكليزية بـ The time of Igmorance ، وفهمها آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين وباتباع الوثنية، والتعبد لغير الله، وذهب آخرون إلى أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهى بالأحساب والكبر والتجبر وغير ذلك من الخلال التى كانت من أبرز صفات الجاهليين، ويرى المستشرق «جولدزيهر» أن المقصود الأول من الكلمة (السفه) أى لا يسفة قوم علينا فنسفه عليهم فوق سفههم: أى نجازيهم جزاء يربى عليه، واستعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير[1].

وجاء فى سورة المائدة آية ٥٠ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أى أحكام الملة الجاهلية وما كانوا عليه من الضلال والجور فى الأحكام والتفريق بين الناس فى المنزلة والمعاملة[2].

وأطلقوا على ﴿الجاهلية الجهلاء﴾ والجهلاء صفة للأولى يراد بها التوكيد وتعنى «الجاهلية القديمة»[3] وكانوا إذا عابوا شيئا واستبشعوه قالوا: «كان ذلك فى الجاهلية الجهلاء»[4] وهى: الوثنية التى حاربها الإسلام، وقد أنب القرآن المشركين على حميتهم الوثنية فقال:﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[5] الفتح آية ٢٦.

يقول جواد على: والرأى عندى أن الجاهلية من السفه والحمق والخفة والغضب، وعدم الانقياد لحكم وشريعة وإرادة إلهية،وما إلى ذلك من حالات انتقصها الإسلام[6].

---

(١) بلوغ الأرب جـ١ ص ١٦.
(٢) المفصل جـ١ ص ٤٠، تفسير الخازن جـ١ ص ٥١٦.
(٣) محيط المحيط ص ٣٠٩.
(٤) أقرب الموارد ص ١٤٧.
(٥) عن الجاهلية والجهل وما ورد بهذا المعنى فى القرآن الكريم، راجع تفصيل آيات القرآن الحكيم . تأليف جون لابوم ونقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقى ص ٦٢١.
(٦) المفصل جـ١ ص ٤٠.

ونحن نرى هذا الرأى . الذى يرى : أن الجاهلية وصف لمرحلة تاريخية مليئة بالسفه والحمق وعدم التروى فيما ينبغى التروى فيه، والتاريخ الجاهلى الذى رواه الإخباريون ملئ بالشواهد والأخبار التى تؤيد هذا الرأى من غير تعسف فى البحث عن شواهد تؤيده،فما التاريخ الجاهلى إلا تاريخ حروب بين القبائل من حرب «البسوس» و«داحس والغبراء» وهما معاً من أفتك الحروب شراسة بأهلها وأشدها هولاً وأطولها زمنا، وما ذلك إلا نمطا من أنماط نزق العقل العربى الذى يجانب كل المجانبة ما أثر عن العرب من مرويات الحكَم : فحياتهم تتردد بين مأثور من القول الجميل الموزون المقفى ونثر ذى فواصل من الحكم والأمثال الحميدة، وبين سلوك فاضح سفيه كتلك الحروب التى ذهبت بالأجيال وقد طال مداها أربعين عاماً بسبب ناقة أغراها الكلأ فهامت على وجهها من غير إذن رعيانها. فتاريخ الحروب الجاهلية تاريخ سفاهات وحمق وثأرات ظالمة.

أقسام العرب لدى الإخباريين

اصطلح مؤرخو العرب أن يقسموا تاريخ العرب قبل الإسلام إلى قسمين:

* العرب البائدة: وهى التى بادت قبل الإسلام.

* العرب الباقية: وعندهم قسمان :.

١ـ العرب القحطانية من حمير من أهل اليمن وفروعها.

٢ـ العرب العدنانيون ـ فى الحجاز وما يليها.

*العرب البائدة:

يرى مورخو العرب أن العرب البائدة تطلق على: عاد، وثمود والعمالقة، وطسم، وجديس،وأميم، وجرهم، وحضرموت ومن ينتمى إليهم ويسمونها العرب العاربة، وأنهم من أبناء سام.

قال ابن خلدون : وكان لهذه الأمم ملوك ودول فى جزيرة العرب.

وامتد ملكهم فيها إلى الشام ومصر فى شعوب منهم. ويقال: إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وآطام وقصور إلى أن غلب عليهم بنو يعرب ابن قحطان(١).

يقول چورچى زيدان: وإذا تدبرت ما نقله ابن خلدون عن العرب البائدة، رأيت مورخى العرب يقسمونهم إلى قسمين:

الأول ـ عرب العماليق من نسل «لاوذ بن سام»

الثانى ـ سائر القبائل البائدة من نسل «أرم بن سام» كان يقال «عاد إرم» فلما هلكوا قيل «ثمود إرم» فلما هلكوا قيل: «سائر ولد إرم».

ويرى چورچى زيدان: والصحيح فى اعتقادنا أن «إرم» اسم القبيلة فقالوا «عاد إرم» كما قالوا «ثمود إرم» وقبائل العرب البائدة من نسل «إرم» ويعرفون بالأرمان.

العمالقة: فى العراق وفى مصر:

يريد المؤرخون بالعمالقة قدماء العرب ، وخصوصاً شمال الحجاز مما يلى جزيرة سيناء الذين فتحوا مصر باسم «الشاسور البدو أو الرعاة» ويسميهم اليونان «هكسوس».

وأصل لفظ العماليق أو « العمالقة» مجهول والغالب:أنهم نحتوه من اسم قبيلة عربية كانت مواطنها بجهات العقبة أو شمالها حيث كان العماليق على قول التوراة، ويسميها البابليون «ماليق» أو «مالوك» فأضاف إليها اليهود: لفظ «عم» أى شعب أو الأمة فقالوا: «عم ماليق» أو «عم مالوق» فقال العرب «عماليق» أو «عمالقة» ثم أطلقوه على طائفة كبيرة من العرب القدماء.

وأقدم من ذكر سيادة العرب على العراق كاهن كلدانى اسمه بروسوس من أهل القرن الرابع ق.م. عاصر الإسكندر وبعض خلفائه، كان عالماً باللغة اليونانية فنقل تاريخ بلاده إليها، وجعل كتابه هدية إلى «أنطيوخوس» ملك سوريا. وقد ضاع ذلك الكتاب، وإنما عرفه الناس من نصوص نقلها عنه «بولودوروس» وبوليسنور من أهل القرن الأول قبل الميلاد، وعنهما نقل « أوسابيوس، وسنسلوس».

(١) تاريخ ابن خلدون جـ١ ص ١٨.

بدأ «بروسوس» تاريخه بالخليقة حتى أيامه،فأخذ يعدد فى مولفه عدد الدول قبل الطوفان،ودول ما بعد الطوفان حتى دولة العرب العماليق عدد ملوكها ٩ وسنى حكمها ٢٤٥ سنة.

يقول جورجى زيدان: فهذا القول على اختصاره يوافق خلاصة ما وصلنا إليه بعد النظر فى ما اكتشفه العلماء فى بابل وآشور من النقوش،أو قرأوه فى كتب اليونان وغيرهم[١]

أما مصر فقد نزح الساميون إليها من عهد قديم جداً ويؤخذ من الاكتشافات الأثرية الأخيرة. أن العصر الحديدى بمصر يبدأ بدخول الساميين إليها، وأن المصريين قبل دخول الساميين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية، فأتاهم الساميون بالحدادة فى أقدم أزمنة التاريخ المصرى، ولعلهم حملوا إليهم ذلك من وادى الفرات عن تمدن سومرى الأصل اكتسبه الساميون بالمجاورة قبل فتح بابل وحملوه إلى مصر، ومما يستند به الأثريون على أقدم نزوح الساميين إلى مصر: أن أقدم آلهة المصريين «فتاح» سامى الأصل.

جاء الساميون مصر من الشرق؛ إما بطريق برزخ السويس أو بالبحر الأحمر، ولذلك ما برح المصريون منذ القدم يسمون بلاد العرب «الأرض المقدسة» أو «أرض الآلهة».

وبعد عرض هذه المعلومات عن العرب البائدة ـ ينتقل النسابون العرب للحديث عن الجدين اللذين ينحدر منهما العرب وهما «قحطان وعدنان» وبما أن جميع الناس ينحدرون من آدم فإنه لابد من وجود قرابة ـ ولو بعيدة ـ بين هذين الجدين؛ ومسألة القرابة بين قحطان وعدنان تتوقف على ما إذا كان قحطان هذا من نسل إسماعيل الذى هو جد عدنان، وتكاد تجمع كلمة النسابين على أن قحطان هذا ليس من نسل إسماعيل، ويعيدون نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام.

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام جـ١ ص ٣٧ ١٩٠٨.

والعرب الذين انحدروا من نسل قحطان هم الذين يطلق عليهم النسابون اسم «العرب العاربة» أو «العرب العرباء» أى العرب الحقيقيين، وأما نسل عدنان فهم العرب المستعربة أو المتعربة - أى الذين لم يكونوا عرباً واستعربوا[١].

إن نسل قحطان هم عرب الجنوب «قبائل اليمن» الذين نشأوا فى الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة فى حين أن نسل عدنان هم عرب الشمال الذين ظهروا أول ما ظهروا فى القسم الشمالى من الجزيرة [٢].

إبراهيم عليه السلام مؤسس البيت العبرى والعربى:

كانت آخر مرحلة من مراحل فتوحات حمورابى فى إقليم ما بين النهرين هى هزيمته لغريمه القوى «رم - س - Rim - Sin » ملك لارسا. وكانت مدينته تقع إلى الجنوب شرق «لجش» وشمال «أور» بل إن مدينة «أور» أعلنت عن نفسها بأنها تحت حماية ملك بابل. ولقد كان بين رعايا «رم - س» رجل ما زالت أعظم ديانات العالم تتطلع إليه على أنه شيخها الجليل الوقور، والأب الروحى لعقيدتها، ذلك هو نبى الله إبراهيم الخليل، يقطن مدينة ذكرها الكتاب المقدس على أنها مدينة «أور الكلدانيين» وأنه طبقا لما جاء فى سفر التكوين الإصحاح الحادى عشر [٣] «فخرجوا معا» فى صحبة أسرته كلها «ليذهبوا إلى أرض كنعان» وكانت هذه الرحلة واحدة من أعظم الرحلات أهمية قام بها إنسان[٤].

وطبقا لما جاء من بيان فى «سفر التكوين» كان أول مكان استقر به إبراهيم عليه السلام فى رحلته إلى أرض كنعان هو: حران، وهى مدينة تقع الآن جنوب تركيا بالقرب من الحدود السورية وكان إبراهيم ينتمى إلى قوم يسمون بالعبيرو، وهم أنفسهم العبرانيون. وفى سفر التكوين: إن إبراهيم عليه السلام نفسه يوصف على أنه إبرام العبرانى ثم بعد ذلك يفتون على أنه سورى أو آرامى، ولا شك كما يذهب

(١) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٣٦ تأليف درنية عاقل طبعة دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٧٥م.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧.

(٣) آية ٣١

(٤) فلاسفة الشرق ص ١٠٩ تأليف «أوف. توملين» ترجمة عبد الحميد سليم - مراجعة : على أدهم طبعة: دار المعارف.

المؤرخون أن الآراميين قبيلة مماثلة تماماً أو لها علاقة بالآموريين. أما عن الآموريين فقد تمتعوا بنفس الشهرة التى تمتع بها العابيرو فى عهد «رم ـ س» معنى ذلك أن العابيرو كانوا مقرونين بمجموعة من الناس وكان يلصق بهم اسم شامل هو الآراميون، وأن هذه المجموعة كانت تحيا حياة مماثلة لحياة البدو، وطبقا لما جاء من بيان فى «سفر التكوين» كان أول مكان استقر به إبراهيم عليه السلام فى رحلته إلى أرض كنعان هو: حران يؤكد الكتاب المقدس «يشوع»[1] أن عائلته توافرت على خدمة آلهة أخرى ـ آلهة سومر، بنوع خاص آلهة «أور» وكان الإله القومى وقتذاك لمدينة «أور» هو «نانار» إله القمر، وكانت تلك المدينة هى : «حران» وكذا كان والد نبى الله إبراهيم[2].

وطبقا لما جاء فى الكتاب المقدس: تلقى إبراهيم أول رسالة مباشرة موجهة إليه من «الإله» . وكانت الرسالة فى هذه الحالة قد اتخذت صيغة الأمر، إذ كان على إبراهيم أن يقود قومه إلى أرض كنعان، وأن ينشئ مجتمعاً جديداً هناك.

وإله إبراهيم هو إله: إسحق ويعقوب وإسماعيل، بعد هذا الأمر نبذ إبراهيم آلهة «أور» القومية؛ وآلهة «سومر» الوطنية.

ثم قيل لإبراهيم[3] «اذهب من أرضك» يعنى ما بين النهرين، فخرج إبراهيم مع قومه العابيرو يدعو إلى عقيدة التوحيد؛ ومع كل معركة صحراوية كانت تقوى الوحدة القلبية. وازدادت شهرة إبراهيم، وعظم قدر إله إبراهيم ـ خلال رحلته من «أور» إلى «حران» ومن «حران» إلى «فلسطين». صان إبراهيم العهد إلى أن أقام هاجر زوجته بجوار عين ماء فى الصحراء[4]؛ وأسس نبى الله إبراهيم عقيدة التوحيد لإله ليس للطبيعة وإنما للتاريخ الدينى.. كانت عين الماء: زمزم والصحراء حمى مكة.. قال تعالى ﴿ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ... ﴾ إلخ الآية. (٣٧ من سورة إبراهيم)

(١) إصحاح ١٤ آية ١٣.
(٢) فلاسفة الشرق ص ١١٢.
(٣) سفر التكوين ١٢-١
(٤) سفر التكوين ١٦ ـ٧، ١٣.

عرب الشمال عرب عدنان ـ الإسماعيليون: الحجاز

يصطلح كتاب العرب أن المراد بعرب الشمال على الإجمال: الإسماعيلية أو العدنانية، ومنازلهم شمال بلاد اليمن فى تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك شمالاً إلى مشارف الشام والعراق. وهم يرجعون بأنسابهم إلى إسماعيل بن إبراهيم.

ويرجع تاريخ هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل إلى ما ذكرته التوراة والقرآن. وحكاية إسماعيل في التوراة لا تختلف كثيراً عما جاء فى القرآن فقد ذكرت التوراة إخراج إسماعيل وأمه هاجر إلى برية بير سبع وسكناه برية فاران، وأن أولاده آباء القبائل التى أقامت ما بين «حويلة» إلى «شورة» وكانت شورةعند برزخ السويس وحويلة خولان فى شمال اليمن وبينهما الحجاز، ونجد وتهامة وجزيرة سيناء.

أما التاريخ العربى فقد بنى روايته فى أصل عرب الشمال على ما جاء فى القرآن الكريم. فأصل المكان الذى قام فيه إسماعيل وأمه فهو: مكة بدل برية فاران.

ويقول المؤرخون: إن إسماعيل أقام بمكة، وتزوج امرأة من جرهم أصحاب مكة فى ذلك العهد فولدت له اثنى عشر ولداً.

والروايتان متفقتان فى أن إسماعيل ربى فى البادية، وأنه كان رامياً بالقوس شأن أهل البادية؛ وأنه خلف اثنى عشر ولدا أسماؤهم تطابق أسماء بعض قبائل الشمال؛ وإنما اختلفوا فى المكان الذى أقام فيه إسماعيل. فالتوراة تقول إنه «برية فاران أو جبل فاران، وكلاهما عند العقبة شمال جزيرة سيناء، ومؤرخو العرب يقولون: وفقا للقرآن : إنه مكة بالحجاز.

يقولَ جورجى زيدان: ويسهل تطبيق الروايتين متى علمنا أن جبال مكة، أو جبال تسمى أيضاً فاران، فيكون المراد أن «البرية» التى أقام فيها إسماعيل «برية» الحجاز وأنه أقام حينا فى سيناء ثم خرج إلى الحجاز وسكن هناك وتزوج. ولم تذكر التوراة إسماعيل بعد خروجه من بيت أبيه إلا عند حضوره دفنه على عادتها من الاختصار فى ما يخرج عن تاريخ أمة اليهود أو ديانتها.

قال المقدسى: اختلف الناس فى نسب العرب. فقال بعضهم كلهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم. وقال آخرون: ليست النمر من ولد إسماعيل ولكنها من ولد قحطان بن عابر فهم أنسب وأقدم من غيرهم، ولذلك تفخر أعراب اليمن على غيرهم من العرب.

وقال ابن إسحق: لم أجد أحداً من نساب اليمن له علم، إلا وهو يزعم أنهم (ليسوا) من ولد إسماعيل، ويقولون نحن العرب العاربة كنا قبل إسماعيل، وإنما تكلم إسماعيل بلساننا لما جاورته جرهم إلا هذين الحيين: الأنصار، وخزاعة. فإنهم يزعمون أنهم من ولد إسماعيل. قالوا: وأخو قحطان ويقطر من عامر بن عابر فولد يقطر جرهم وجزيلا فلم يبق فى جزيل بقية فنزلت جرهم مكة فنكح فيهم إسماعيل.

وقال رجل من قحطان بن هميسع: والنساب على أن قحطان بن عابر وقحطان بن عامر ونزار جرثومتان لأنه نسبة ولد إسماعيل من نزار ونسبة اليمن من قحطان هذا هو الأصل.

ثم قال المقدسى: ونزار نزاران فهذا نزار بن معد بن عدنان والثانى: نزار ابن أنمار، ثم اختلفوا فى نسب عدنان.

وقد روى ابن عباس أن النبى ﷺ انتسب فلما بلغ عدنان وقف وقال: كذب النسابون.

وقد روى ابن إسحق: عن يزيد بن رومان عن عائشة أن النبى قال: استقامت نسبة الناس إلى عدنان.

والعرب مختلفون فى عدد الآباء بين إسماعيل وعدنان فقال بعضهم: إنهم أربعون أباً، وقال آخرون: إنهم عشرون، أو خمسة عشر أو أقل من ذلك ـ ومن عدنان تناسل عرب الإسماعيلية فعندهم أن عدنان ولد بمكان ، ومعداً هو أبو القبائل العدنانية أو الإسماعيلية وأقدم ما علمناه من أخبار هذه القبائل وصل إلينا عن طريق التوراة فقد جاء فى سفر التكوين بأنباء قصة يوسف بعد أن طرحه إخوته فى

البئر قوله: ثم جلسوا يأكلون ورفعوا عيونهم ونظروا فإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم محملة نكعة وبلسانا ولاذنا وهم سائرون لينزلوا إلى مصر[١].

وكان ذلك فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وكان الإسماعيليون يحملون التجارة إلى مصر، وهم الذين اشتروا يوسف وباعوه فى مصر. ثم جاء ذكرهم فى سفر القضاة[٢] بعد ذلك الحين بخمسة قرون وهم يحاربون الإسرائيليين ويسمون هناك تارة «بنى المشرق» وطورا «الإسماعيليين» وبعد ذلك بخمسة قرون أخر ذكر أولئك العرب فى سفر « أشعياء باسم قيدار» وهو فى التوراة: ابن إسماعيل فيراد باسمه قبيلة الإسماعيلية على الأقل، وهو يتنبأ بقرب زوال مجدهم[٣].

وأصبح الإسماعيلية فى عرف التوراة من ذلك الحين قبيلتين قيدار، ونبيت وظن بعضهم أن المراد بالنبيت أو الضبط الأنباط أصحاب بطرا. وبعد أشعيا بقرن وبعض القرن فى : القرن السادس ق.م.« جاء نبوخذ نصر» الذى يسميه العرب بختنصر واكتسح شمال جزيرة العرب،وغلب على الإسماعيلية أو بنى قيدار أو بنى المشرق فى البادية.

وكانت العرب العدنانية بادية أقامت فى تهامة والحجاز ونجد إلا قريشاً فقد تحضروا فى مكة، وتقسم العدنانية إلى «عك» ، و«مضر» أما «عك» فنزلت فى نواحى زبيد وجنوب تهامة وقد ذكرها اليونان فى كتبهم فسموها Acchitae وليس لهم تاريخ يذكر.

أما معد فهو البطن العظيم ومن تناسل عقب عدنان كلهم. وإذا قال العرب: «معد» يريدون القبيلة لا الرجل، وانقسمت إلى فرعين كبيرين: «نزار»، «قنص» الكثرة والنسل فى نزار وهم عدة فروع. أشهرها خمسة: قضاعة، ومضر، وربيعة، وإياد، وأنمار، وكانت لهم منازل فى تهامة والحجاز ونجد[٤]

---

(١) سفر التكوين: ٣٧ عدد ٢٥.
(٢) القضاة ص ٦ عدد ٢٣، ٧، ٣٣.
(٣) أشعيا ص ٢١ عدد ١٦، ١٧.
(٤) البكرى ص ١٣.

كانت مساكن قضاعة ومراعى أنعامهم جدة من شاطئ البحر الأحمرفما دونها شرقاً إلى منتهى ذات عرق وهى الحرتان،نجد وتهامة إلى حيز الحرم من السهل والجبل، وكان لقضاعة بطون أقامت فى أماكن مختلفة من جزيرة العرب فى البحرين ووادى الغرب واليمن.

وقبائل مضر: أقامت فى حيز الحرم إلى السروات ومادونها من الغور وماوالاها من البلاد، وأقامت ربيعة فى مهبط الجبل من غمر ذى كندة «بينه وبين مكة مسيرة يومين».

وبطن ذات عرق وما صاحبها من بلاد نجد إلى الغور من تهامة.

وأقامت إياد وأنمار معا ما بين حد أرض مضر إلى حد نجران وشعابها وجبالها وما صاحبها من البلاد.

وكل قبائل عدنان بدو رحل إلا قريشاً فإنهم تحضروا فى مكة.

ويرى المقدسى: فأما «عك» فأول من تبدى فى البادية والعدد فى «معد» ويرى أن «معد» ، و(عك) تبادلا الأسماء «فعك» ولد «معد» و«معد» من أولاده من تسمى «بعك» كما يرى أيضا أن «خثعم» وبجيلة، من أنمار صار إلى اليمن، ونقل «قمعة» ابن إياس: أنهم فى اليمن ومن خندف وقيس وولد مدركة بن إياس هذيل، وولد سعد تميم بن معاوية وولد خزيمة بن مدركة أسد بن خزيمة فمنه تفرقت بطون العرب إلى أن صارت الصلت إلى اليمن، ورجعت قريش إلى مكة على يد قصى مجمع قريش.

٤ـ عرب الجنوب عرب قحطان: اليمن:

يقول ابن خلدون: وفى أنساب التبابعة تخليط واختلاف لا يصح منها ومن أخبارها إلا القليل.

يرى المؤرخون: أن عرب اليمن ينتسبون إلى يعرب بن قحطان، ويعرفون العرب المتعربة، لأنهم اقتبسوا اللغة من العرب البائدة كما يذهب مؤرخوا العرب: أن بنى قحطان لما نزلوا اليمن كان فيها بقية من العرب العاربة والدولة فيهم، وهم من العماليق فأبادوهم وكان أول ملوك الدولة القحطانية يعرب بن قحطان غلب على قوم عاد باليمن والعمالقة بالحجاز.

الدور المعيني:

أول من ذكر اسم معين: مورخ يوناني «استرابوان» قال: في معرض حديثه عن اليمن، يشغل القسم الجنوبي من جزيرة العرب أربعة شعوب.

١ ـ الدور الأول :المعيني ـ عاصمتها قرنا

٢ ـ الدور الثاني: السبئي ـ عاصمتها مأرب.

٣ ـ الدور الثالث: القتبي عاصمتها تيماء.

٤ ـ الدور الحضرمي: عاصمتها شكوة.

بعد هذه الإشارة التاريخية، ظلت معلومات المؤرخين عنها ضئيلة، فكانوا يظنون نسبه إلى بني يعرب ـ مكة ـ حتى وفق المستشرق «هاليفي» إلى اكتشاف أنقاض معين، وقرأ اسمها على المسند، وبجانبها راقش. فتوجهت الأنظار إليها، ومع كثرة النقوش المعينية عثروا عليها وقرأوها وليس ثمة أثر تاريخي يساعد على تنسيق حوادثها أو مبدأ أمرها.

ويلقب ملوكها بلقب «فرواد؟» وامتد نفوذ المعينيين في إبان دولتهم إلى شواطئ البحر المتوسط، وشواطئ خليج العجم، وبحر العرب، أي أنها شملت كل جزيرة العرب؛ ولغتها كثيرة الشبة باللغة السبئية غير أن ثمة ملاحظة تشكك في نسبة المعينيين إلى قحطان وهي: أن المشهور في تاريخ العرب، وما جرى عليه المؤرخون: أن دولة اليمن بعد قبائل البائدة ترجع بأنسابها إلى قحطان، فإذا صح هذا علي دولتي «سبأ وحمير» فإنه لا يصح علي دولة معين؛ لأنها أقدم كثيراً من بني قحطان. كذلك ورد ذكر المعينيين في سفر الأخبار الثاني[1].

وأعانه الله (عزيا) على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمين بجوار بعل، وعلى المعينيين. كذلك جاء ذكر هذه الأمة مع أمة «ماليق» في آثار بابل ٢٥٠٠ ق.م.والأرجح أنهم جاءوا اليمن بعد نزولهم العراق، واقتباسهم شيئاً من تمدن السومريين أو البابليين، ودياناتهم مع وقوع التغيير في لسانهم بتوالي الأجيال، وقد

(١) الإصحاح الثاني ٢٦ : ٧.

لاحظ بعض الباحثين، ومنهم «وينكلر، وهومل، ودوفرتى» أن : بعض مظاهر الحضارة المعينية تشبه حضارة البابليين، فالإلهان «شماش، وعشتروت» البابليان يشبهان الإلهين: «شمس، وعشتر» اليمانيين.

كما أن النقوش والأختام المعينية تشبه بعض ما وجد فى العراق القديمة[1]. ويعتبر المعينيون بحق أقدم الشعوب التى حملت لواء الحضارة فى بلاد العرب الجنوبية، ويعتبر الأستاذ «فريتز هومل» أن اللفظ الصحيح لاسمهم هو «معان» وليس «معين» وأن «معان» هو النطق القديم جداً للكلمة.

والمعينيون شعب عربى قديم كان يسكن منذ أن ظهر على مسرح التاريخ بلاد العرب الجنوبية. ولكنه ما لبث بعد أن استقر وثبت أقدامه كشعب متمدن تاجر ما لبث أن انسرح داخل بلاد العرب وخارجها فهاجرت جاليات منه إلى مصر والجزر اليونانية وغيرها. ويذكر نقش عثر عليه فى مصر، ويعود إلى العام الثانى والعشرين من حكم الملك «بطليموس السادس» أى حوالى عام ١٥٩ ق.م.» أن جالية معينية كانت تسكن مصر وأنها كانت تتاجر بالطيب والبخور. هذه التجارة التى كانت رائجة فى ذاك الزمان نظراً لأهمية هذه المادة فى المعابد والقصور[2].

ويحدد «ألبرايت» فى بحثه هذا فترة حكم الملوك المعينيين بين سنتى «٤٠٠ـ١٠٠ ق.م.» أما العالم «ملاكر» فيرى أن حكم معين يمتد بين القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد .

وهناك قضية أخرى ترتبط بتاريخ دولة معين، وهى قضية الحكم فى «حضرموت» وما إذا كانت «حضرموت» مستقلة لها أسرة حاكمة خاصة لها أم أنها كانت تتبع معين، والواقع أن بين المؤرخين من يعتقد أن «حضرموت» كانت تابعة فى فترة من تاريخها لحكم المعينيين بدليل أن بعض الملوك المعينيين كانوا يتلقبون بلقب ملوك «حضرموت» إلى جانب معين؛ واشتغل المعينيون بالزراعة، والتجارة، وكان بعضهم بدوا يرعون الماشية ويعيشون حياة تنقل وارتحال. وكان مجتمع معين مؤلفاً من عدة طبقات فيه الأرستقراطيون، والعبيد، وبين الطبقتين طبقات أخرى،

---

(١) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٨٣.

(٢) المرجع السابق ص ٨٤.

وهم بوجه عام متدينون يعيرون الدين أهمية كبيرة، وللمرأة بينهم مكانة محترمة ومقام رفيع، ومن آلهة معين «ود»ونكرح» وترد أسماء هذه الآلهة الثلاثة فى الكتابات المعينية على هذا الترتيب «عشتر، ود، نكرح» في الغالب، وترد بعدها فى بعض الأحيان جملة «الالت معن» أى «آلهة معين» أما «نكرح» فيظهر أنه رمز إلى الشمس، وهو يقابل «ذات حمم ـ ذات حميم» فى الكتابات السبئية: وأما «ود» فقد ظلت عبادته معروفة فى الجاهلية إلى وقت ظهور الإسلام، وقد ورد اسمه فى القرآن الكريم .. سورة نوح آية ٢٣، وقد تحدث عنه ابن الكلبى: فى كتابه ـ الأصنام ـ أن : قبيلة كلب كانت تتعبد له بدومة الجندل، ووصفه فقال: «كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، وقد زبر.[١] عليه حلتان متزر بحلة، مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة[٢] فيها نبل.

وقد نعت «ود» فى بعض الكتابات بنعوت مثل «الاهن» «الهن» أى «الإله» و«كهلن» «كاهن» «كهلان» أى القدير المقتدر، وكتب اسم «ود» بحروف بارزة على جدران فى القرية «قرية الفاو» وذلك يدل على عبادته فى هذه البقعة.

ويرمز «ود» إلى القمر بدليل: ورود جملة «ودم شهرم» «ودم شهران» أى «ود الشهر» فى بعض الكتابات، ومعنى كلمة «شهرم» «شهر»، «والشهر» القمر. وتمثل هذه الآلهة المعينية ثالوثاً يرمز إلى الكواكب الثلاثة: الزهرة، والشمس، والقمر[٣].

الثانى: الدور السبئى:.

يرد ذكر سبأ فى النقوش الآشورية التى تذكر أن كلا من «تغلات فلا صر ٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م»، «سنا شريب ـ سنحاريب» ، « أسر صون ٧١٥ ـ ٦٨٥ ق.م» أخذ الجزية من «يثعمر وكرب أيلو» من ملوك سبأ.

كما يرد ذكرها فى سفر التكوين فى التوراة «بلقيس التى تزوجت سليمان كانت ملكة سبأ» ويمتد عصر سبأ بين : ٩٥٠ ـ ١١٥ ق.م. على وجه التقريب[٤] ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً واضحاً عن أصل السبئيين، وتقول المصادر العربية:

---

(١) زبر : أى عظم جسمه.

(٢) الوفضة : وعاء من الجلد كالجعبة، أسفلها مستو، يحمل فيها الراعى زاده وأداته.

(٣) الأصنام ص ٥٥،١٠،٥.

(٤) تاريخ العرب ص ٩٢ ٩٣.

إنهم يعودون فى أصلهم إلى: «عبد شمس بن يشجب» الذى يقولون أنه لقب بسبأ؛ لأنه أكثر من الغزو فى البلاد وسبا خلقاً كثيراً، وهو أول من سن السبى عند العرب فالسبئيون فى نظرهم من سلالة القحطانيين.

ويمكن تقسيم حكم سبأ فى اليمن إلى ثلاثة أدوار، وذلك حسب الأسماء التى كانت تطلق على الملوك السبئيين.

ففى الفترة الأولى كانوا يطلقون على رؤساؤهم لقب «مكرب» وهى كلمة دينية تعنى المقدس، ثم تلتها الفترة الثانية التى أصبح رؤسائهم فيها يلقبون بـ «ملوك سبأ» وفى الفترة الثالثة كانوا يلقبون رؤساؤهم بلقب «ملك سبأ وريدان»[1].

وكان أول من أطلق عليه لقب «مكرب» سبأ هو : «سمح على» حوالى (٨٠٠ ـ ٧٨٠ق.م) ، ولا نعرف عن حكمه سوى أنه قدم هدية من البخور والمر للإله «المقه» الذى أرشد القبيلة بعد تجوالها إلى أرض فيها اللبن والعسل. وقد خلفه ابنه «يدع إيل ضريح» وهو الذى بنى معبداً آخر «للمقه» فى «صرواح» عاصمة «مكارب سبأ» كما بنى معبداً آخر «للمقه» وكذلك «لعثر» فى مأرب. وهذه أول إشارة لمأرب مما يدل على أنها كانت مدينة كبيرة آنذاك. وقد تلا هذا المكرب «يثعمر» «ونز» الذى بنى معبدا للإله القمر «حوباس» وخلفه ابنه «يدع إيل» الذى حصن مدينة «نسق» فى الجنوب[2].

وقد ولى بعد «كرب إيل بين» ابنه ـ أو ابن أخيه «زمر على ونز»وهو الذى قام بتشييد سد مأرب ـ الذى يعتبر أعظم سد شيد فى الجزيرة، ومن أعاجيب العالم القديم؛ ويرد ذكر هذا السد فى القرآن الكريم: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ إلخ إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ سورة سبأ ١٥ـ١٩ .

وقد ترك لنا الهمذانى فى كتابه: الإكليل، وصفاً للسد كما زاره « أرنو وهاليفى وغلازر من الأوروبيين» [3].

(١) تاريخ العرب القديم ص ٩٣.
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق ص ٩٤.

الدور الحميري الثاني:

حوالى سنة(٣٠٠م) لمت دولة حمير شعثها للمرة الثانية وضمت إليها القبائل المجاورة، وأخضعت «حضرموت» وسائر بلاد اليمن وأصبح لقب ملوكها : «ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات» ثم أضيف إلى هذا اللقب قسم آخر: «عربهم فى الجبال وفى التهامة» ويفهم من هذا أن الدولة الحميرية الثانية أصبحت ذات حدود متسعة وتخضع بلاد كثيرة لسلطانها، وقد عرف العرب هذه الدولة الثانية باسم «دولة التبابعة» وحديث المؤرخين عن ملوكها حديث أقرب إلى الخرافة[1].

وفى الدور الحميرى الثاني: بدأت الديانة المسيحية واليهودية تتسرب إلى اليمن وتحل محل الديانة الوثنية، التى كانت تدور حول عبادة النجوم والكواكب والشمس. وكان انتشار المسيحية تدريجياً، وقد قام بالدعاية لها المبشرون المسيحيون، وخاصة اليعاقبة أتباع مذهب الطبيعة الواحدة الذين جاءوا من الحبشة، وأنشأوا لهم كنائس فى عدن وظفار ونجران، ومن الجائز أن إرساليات مسيحية نسطورية من الحيرة وسورية أيضاً قامت بالدعاية للديانة المسيحية وكسبت المسيحية بعض الأتباع فى اليمن، وقد انتشرت اليهودية أيضاً فى اليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية.

ويبدو أنها دخلت شمال الجزيرة قبل هذا العهد وربما كان ذلك على أثر: خضوع فلسطين « لاوريانوس وتيتوس» وتدمير «بيت المقدس» على يد هذا الأخير (٢) سنة ٧٠م..

الثالث: الدور الحبشي والفارسي:.

حوالى سنة ٣٤٠م هاجم الأحباش اليمن واستولوا عليها، فوجدت المسيحية فيهم سنداً قوياً؛ غير أن الحكم الحبشى لم يتح له أن يعيش طويلا؛ لأن رجال الدين المتعصبين لوثنيتهم تعاونوا مع أهل البلاد اليمنيين على مقاومة الأحباش النصارى واستطاعوا إخراجهم سنة ٣٧٨م. وعادت الوثنية تتربع المكانة الأولى وكانت أهداف هذه الحملة الحبشية الأولى على اليمن انتزاع السيادة التجارية من اليمنيين، وبث

---

(١) السابق ص ١٠١.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٢.

الدين المسيحى، وقد كانت هذه الحملة الأولى بمثابة حملة استطلاعية مهدت السبيل للحملات التى أتت بعدها ففقدت المسيحية بخروج الأحباش سنداً قوياً لها، كما أن ملوك حمير الذين لجأوا إلى يثرب إبان الغزو الحبشى تأثروا بالديانة اليهودية التى كانت منتشرة فيها آنذاك[١].

ويذكر نقش: أن ملك كرب الذى طرد اليهود كان يعبد «ذى سماوى بعل السماوات والأرض» مما قد يستنتج منه أن اليمنيين فى هذه الفترة كانوا يؤمنون بإله عظيم هو: «ذى سماوى» رب السماوات والأرض إلا أنهم لم يتركوا آلهتهم الأخرى، كما أنهم لم يدينوا باليهودية التى تسمى إلهها «يهوه» لا بعل كما يدعوه هذا النقش[٢].

ويبدو أن: «أبو كرب» قد وصل لنوع من السيادة على يثرب، ومن غير البعيد أنه كان يتعاون مع اليهود من سكانها ضد الأحباش والنصارى.

وقد خلفه: شرحبيل يعفر، الذى بنى بعض الأجزاء الخربة من سد مأرب سنة ٤٥٠م ثم تعاقب على حكم اليمن ملوك ليس لهم أعمال هامة حتى جاء «ذونواس» الذى كان شديد التعصب على المسيحية وأراد اجتثاثها من اليمن فطلب من النصارى ترك دينهم: ولما رفضوا أحرقهم فى أخدود حفره لهم. وهذه الحادثة مذكورة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ إلى ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[٣] وكان الكثير من المؤرخين حتى فترة قريبة يرون: أن سبب اضطهاد «ذى نواس» للنصرانية هو: تعصبه الدينى إذ أنه كان يدين باليهودية وهو متعصب لها؛ قد يكون هذا التعصب أحد الأسباب التى دعت «ذا نواس» لفعل ما فعل؛ ولكن هناك أسباباً أخرى لاضطهاده للنصارى منها: أن المسيحية فى الشرق كانت تحت حماية «بيزنطة» والحبشة وانتشارها يعنى ازدياد نفوذ هاتين الدولتين فى

---

(١) السابق ص ١٠٢.

(٢) السابق ص ١٠٣.

(٣) سورة البروج ٤ ـ ٨.

اليمن مما لا يرضى اليمنيين بينما لم يكن يرافق انتشار الديانة اليهودية أى خطر سياسى؛ لأنه لم تكن هناك دولة تحمى اليهود.

بل يقال إن اليهود هم الذين حرضوا «ذانواس» على اضطهاد النصارى لأن أبناء دينهم فى بيزنطة كانوا: يعاملون معاملة سيئة إلى أبعد الحدود، ورغم قسوة «ذى نواس» اليهودى على النصارى فلا يعرف عنه أنه قسا على الوثنيين اليمنيين، بل ظلت الوثنية قائمة فى اليمن حتى ظهور الإسلام؛ مما قد يستدل منه أيضاً أن قسوته على النصارى لم تكن بدافع العصبية اليهودية. بل بدوافع وطنية؛ لأن الوثنية أحرى بنقمة اليهودى المتدين من النصرانية.

أثار اضطهاد «ذى نواس» للمسيحيين بيزنطة فأوعزت إلى حليفتها الحبشة بالهجوم على اليمن فجهز الأحباش حملة بقيادة «أرياط» استطاعت أن تقضى على الدولة الحميرية، وتشد من ساعد النصارى، وقد اتبع الأحباش سياسة لينة مع اليمنيين واعتمدوا على الأمراء المحليين فى الإدارة.

وقد جرد «أبرهة» حملة للاستيلاء على مكة ولكن لم يكتب لهذه الحملة النجاح ومات أبرهة» وهذه هى الحادثة المعروفة بحادثة الفيل التى أشار إليهاالقرآن الكريم فى سورة الفيل.

وإذا أردنا تلخيص ما توصلنا إليه عن آلهة العرب الجنوبيين قلنا أنهم تعبدوا كما ذكرنا لثالوث سماوى تألف من ــ القمر والشمس وعشتر وهو الزهرة فى رأى معظم الباحثين.

وقد عرف القمر بـ «ود» عند المعينيين، وبـ «المقه» عند السبئين، وبـ «سين» عند حضرموت، وعرفت الشمس بـ «نكرح» عند المعينيين، وبـ «شمس» عند السبئيين، وبـ «شمس» عند أهل حضرموت وأوسان.

وعرف «عشتر» بـ «عشتر» عند المعينيين والسبئيين وعند قتبان وأهل حضرموت والأوسانيين.

الفروق بين القحطانية والإسماعيلية:

أهم الفروق بين هذين الشعبين نظام الاجتماع واللغة والدين. وأسماء الأعلام كما يأتى:

١ـ نظام الاجتماع: قد رأيت فى كلامنا عن العرب أن لفظ العرب أريد به فى الأصل سكان بادية جزيرة العرب فى الشمال، ثم أطلق على سائر سكانها؛ وقلنا أن لفظ العرب باللغات السامية يرادف لفظ البدو عندنا؛ فالعرب هم البدو، وهذا التعبير يصدق على عرب الشمال، الذين نحن فى صددهم فهم فى الأكثر أهل خيام وإبل ورحلة وغزو لا يستقرون فى مكان؛ لأن معاشهم من كسب الإبل، والقيام عليها فى ارتياد المرعى، وانتجاع المياه والنتاج والتوليد، وغير ذلك من مصالحها، والفرار بها من أذى البرد عند التوليد إلى القفار ودفئها وطلب التلول فى المصيف للحبوب وبرد الهواء لا يبنون بيوتاً، ولا ينشئون مدناً بخلاف أهل اليمن فأكثرهم أصحاب قصور، ومحافد ومدن، وأسوار ومفارش وحدائق .

اللغة:

إن لغة اليمن أو عرب الجنوب تعرف بلغة حمير، وهى تختلف كثيراً عن لغة عرب الحجاز أو الشمال، وإن كانتا من أصل واحد، ولكن الفرق بينهما يدل على تباعد أصحابها فى العادات والأخلاق فهما يختلفان فى الإعراب، وفى الضمائر وفى كثير من أحوال الاشتقاق والتصريف[١] .

الأسماء:

لكل من الطائفتين أسماء خاصة لا تشاركها فيها الطائفة الأخرى ولا يخفى ما للأسماء من الدلات الاجتماعية؛ وأسماء اليمنيين فى الدولتين: المعينية، والسبئية تشبه الدولة الحمورابية أو البابلية: كقولهم « أب يدع »، والينع، ويثع ايل، ومعدى كرب، وأبو بكر، وعلهان، وكرب إيل»ونحو ذلك مما لا شبيه له عند عرب الشمال فى الطور الثانى.

ويختص هؤلاء بأسماء لا تجدها عند اليمنيين؛ لأنها من مقتضيات البداوة، ولذلك رأيت بينها كثيراً من أسماء الحيوانات لكثرة وقوع أبصارهم عليها فألفوها، وأصبح لكل منها رمز عن خلق أو خصلة فسموا أبناءهم بها، وليس ذلك من بقايا الطوطيمة كما توهم بعضهم[٢] فمن أسمائهم من هذا القبيل « أسد، ونمر، وثعلبة،

---

(١) العرب قبل الإسلام . ج١ ص ١٦٥ . ص ١١٦.

(٢) راجع كتاب أنساب العرب لجورجي زيدان.

وكلب، وثعبان» ونحوها، وبعض أسمائهم تنسب إلى آلهتهم . كعبد اللات، وعبد العزى وعبد مناة، وبعضها مقتبس من الأمم المجاورة لهم كاليونان والسريان، وقد حرفوها. فأمرؤ القيس مثلا نظنه تحريف «ماركوس» «مرقس» وربما تعمدوا تحريفه ليكون له صبغة عربية، كما حرفوا: «سامرا» فجعلوها «سر من رأى» وكما جعلوا «وسارس» المعبود اليوناني «ذو الشرى» يؤيد ذلك: أن هذا الاسم «أمرؤ القيس» لم يكن معروفاً عند العرب قبل النصرانية، أو قبل مجاورتهم اليونان، وقد يتسمون بأسماء اليونان بعد ترجمتها « فالحارث» يجوز أن يكون ترجمة «حيور جيوس» اليونانية ومعناها العامل في الأرض، وصخر ترجمة «بطرس» ونحو ذلك.

وبعض أسماء أولئك البدو مأخوذ من الأوصاف أو المناقب مثل «سعيد، عامر، حسان ، محمد » ونحوها، ولا عبرة بما أدخله العرب منها بين أسماء ملوك حمير مثل الحارث وعمرو فإنه قليل ولم نجد له ذكراً في الآثار المنقوشة.

٤ـ الأديان : يشترك هذان الشعبان في كثير من ضروب العبادة وفي عبادة بعض الأصنام، ولكنهما يختلفان في الإجمال؛ فآلهة اليمن أقرب إلى معبودات البابليين، وعندهم «عشتار، وإيل، وبعل» وغيرها وأما الشماليون فيشتركون في عبادات تختلف عن تلك:« كاللات والعزى، ومناة، وهبل» وغيرها.

والعداء بين قحطان وعدنان قديم، تمتد جذوره إلى الفترة التي سبقت ظهور الإسلام. وقد استمر هذا العداء بعد ظهور الإسلام وتمثل في العداء بين الأنصار من سكان المدينة، والقرشيين من سكان مكة، وقد كان لهذا العداء أثره البين على سير الحوادث في الإمبراطورية الإسلامية، وامتد حتى وصل الأندلس.

دول العرب قبل الإسلام

لقد قام قبل ظهور الإسلام، قيام ثلاث دول عربية، وسقوطها علي حدة وهى:

* دولة الأنباط فى الجنوب.
* دولة تدمر فى الشمال.
* دولة الغساسنة بينهما.

وقد اشتركت هذه الدول ببعض أوصاف عامة فى تاريخها المتعاقب، ويرجع أصلها إلى تحضير القبائل البدوية أو المتنقلة كما يرجع ازدهارها إلى المرور التجارى وتحالفت كل منها لبعض الوقت باعتبارها دولة حاجزة مع الدولتين العالميتين وهما:«روما وفارس» وتلقت المساعدات منها.

وقد قضت روما على الدولتين «النبطية والتدمرية» وقضت بيزنطة وفارس على دولة الغساسنة ثم قامت المناذرة والكنديون، وهم من القبائل البدوية التى تحضرت.

يختلف الرواة ومؤرخو العرب فى نسبة مؤسس الدول التى ظهرت قبيل ظهور الإسلام فى شمال جزيرة العرب: فبعضهم ينسبهم إلى بنى قحطان من حمير وكهلان أو معد أو العمالقة؛ وأهمها: دول الغساسنة فى الشام، والمناذرة فى العراق. وكندة فى نجد..

وعلى أى حال فإن: دليل قحطانية هذه الأم يرجع إلى أقوال النسابين لكن هناك دليلا يشير إلى عدنانية هذه الدول، وأنهم من عرب الشمال وهو: معبوداتهم؛ فمعبوداتهم ترجع إلي عرب الشمال. ولو كانوا من عرب اليمن لوجدنا بين معبوداتهم اسم «عشتار أو إيل» أو نحوهما.

وكذلك يقال فى: أسمائهم؛ فليس فيها رائحة الأعلام السبئية أو المعينية بل هى مثل أسماء سائر عرب الشمال قبلهم: كالأنباط ونحوهم، ومنها: «الحارث وثعلبة وجبلة والنعمان وغيرهم» ولا يعترض بما ذكره العرب بين أسماء ملوك حمير من أمثال هذه فإن أكثرها مبدل بأسماء شمالية وعدم تنافى ما ذكرناه على الأسماء التى وقفوا عليها فى الآثار المنقوشة. أما الدليل على قحطانية هذه الأمم: فقول النسابين وهو أضعف من أن يعول عليه، وما أغنى القحطانيين عن الرحلة إلى بادية الشام والعراق والرجوع إلى البداوة، وهى شاقة على من تعود الحضارة والرخاء.

كذلك يزعم نسابو العرب أن: الغساسنة لم يرحلوا من اليمن إلى الشام رأساً، بل أقاموا حيناً فى تهامة بين «بلاد الأشعر وبين عك على ماء يقال له: غسان فنسبوا إليه». ذكرها «بطليموس» فى أواسط القرن الثانى للميلاد قال: إنهم يقيمون على شواطئ جزيرة العرب الغربية نحو ما هو الآن: «تهامة». لكن يرى جورج زيدان: أنهم كانوا بالحقيقة من عرب تهامة العدنانيين؛ وأنشأوا لأنفسهم دولة تحت رعاية الروم فى ما هو الآن: «البلقاء وحوران عرفت بدولة الغساسنة، أو بنى غسان بصرى فى حوران» وتعرف أنقاضها الآن «بابكى شام شام. وفيها كان دير «بحيرة الراهب»[1].

وانتشر أهل البادية فى بادية الشام والعراق والجزيرة، والحجاز والبحرين. ونجد قبائل كثيرة من البدو أهل الرحلة أكثرهم من: عدنان «عك» يتولاهم، أمراؤهم أو مشائخهم بلا دولة أو جند ولا حصون أو قلاع إلا نادراً؛ وإنما قلاعهم: شجاعتهم وبداوتهم، وكانت الدول المتحضرة تستعين بهم فى حروبهم؛ فتسابق المناذرة والغساسنة إلى إدخالهم فى رعايتهم، وكل منهما تنتمى إلى دولة كبرى: الغساسنة للروم، والمناذرة للفرس. ونشأت فى أثناء ذلك دولة «كندة» وهى تنتمى إلى «حمير» وكانت تنازعهما تلك السيادة. فأصبح عرب الشمال يتنازع السيادة عليهم ثلاث دول عربية تتناوب الفوز فى ذلك على مقتضى الأحوال.

وكانت قبائل البدو من الجهة الأخرى ترغب فى الدخول تحت حماية إحدى تلك الدول لما فطر عليه أهل البادية من التنازع والتخاصم؛ فكانت كل قبيلة تسعى فى الانضمام إلى دولة تستنجدها أو تلجأ إلى جندها عند الحاجة؛ وقد يتسابق بعضهم إلى التقرب منها للتفاخر بخدمتها كما كان بنو يربوع يتفاخرون بردافة ملوك الحيرة؛ ومرت برهة من الدهر كان فيها الانتماء إلى إحدى تلك الدول كالفرض الواجب فمن لا ينتمى إلى إحداها سموه «الأحمس» والجمع «حمس» وأشهر الحمس فى الجاهلية: «حمس قريش» فكانوا لقاحا لا يدينون للملوك[2]؛ ويزداد العرب قرباً وبعداً من إحدى الإمارتين تبعاً لسطوة الفرس أو الرومان وكانت الغلبة لهما.

---

(١) العرب قبل الإسلام جـ١ ص ١٨٤.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام جـ١ ص ١٦٥.

أولا - الأنباط، عاصمتها بتراء:

فريق من الساميين أسسوا لهم دولة كانت تمتد من الجزء الجنوبى الشرقى فى فلسطين إلى رأس خليج العقبة، وهو ما يسمى اليوم بشرق الأردن، وقد أطلق مؤرخو اليونان على بلادهم «أدبيابترا» أى بلاد العرب الصخرية.

يقول حامد عبد القادر:

والمرجح أن الأنباط يرجعون إلى أصلين:

الأول : آرامى، وهو الفريق المحتل أو الدخيل.

الثانى: عربى، وهم سكان البلاد الأصليون الذين اختلط بهم الآراميون الفاتحون.

وعلى مر الزمن أخذ العرب الأصليون يتغلبون على الآراميين حتى قضوا عليهم، ولكن العنصر الآرامى فى اللغة النبطية ظل متغلبا على العنصر العربى، وقد انتشرت اللغة النبطية فى تلك البلاد إلى أن طغت عليها الآرامية بعد أن أصبحت اللغة الرسمية فى العالم الشرقى كله.

وقد اندمج هؤلاء السكان فيما بعد بالاتحاد النبطى ومعهم قبائل ثمود ولحيان فى شمال الحجاز، وكان الأنباط لا يزالون رحلاً فى القرن الرابع ق.م. يعيشون فى خيام، ويتكلمون العربية، ويكرهون الخمر، ولا يهتمون بالزراعة؛ وفى القرن التالى تركوا حياة الرعى، واتبعوا حياة الاستقرار،، وعملوا فى الزراعة والتجارة.

وفى أواخر القرن الثانى كانوا قد تحولوا إلى مجتمع منظم جداً متقدم فى الحضارة، ومتصف بالتطور والترقى[1].

إن كلمة «بتراء» وهى: اللفظ اليونانى لكلمة «صخر» وفى العربية الفصحى: «الرقيم»[2] هى ترجمة كلمة «سلع» العبرية ووادى موسى هو: الاسم الحديث للموقع بكامله؛ وكانت «البتراء» المدينة الوحيدة بين الأردن والحجاز التى توجد فيها

(١) الأمم السامية ص ١٠٨، تاريخ سورية جـ١ ص ١١٥.

(٢) القرآن ١٨ : ٨، ياقوت الحموى جـ١ ص ٩١-٧٢٨.

مياه غزيرة ونقية، وزيادة على ذلك كانت المدينة حصينة من جهاتها الثلاث: من الشرق والغرب والجنوب «وأصبحت البتراء» منذ أواخر القرن الرابع المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوب الجزيرة العربية الذى ينتج التوابل واللبان، وبين مراكز الاستهلاك والبيع فى الشمال، وكانت تسيطر على الطرق المؤدية إلى «مرفأ غزة» فى الغرب؛ وإلى «بصرى ودمشق» فى الشمال، وإلى «إيلة» على البحر الأحمر، وإلى« الخليج الفارسى عبر الصحراء» وكانت تستبدل فيها جمال القوافل بجمال أخرى نشطة، وكانت تلك العاصمة محفورة فى قلب «صخر رملى» يظهر جميع ألوان «قوس قزح» ؛ ولذلك كانت تشكل مزيجاً فريداً من : الفن والطبيعية [1] وإن موقعها كحلقة اتصال بين فلسطين وبلاد العرب وبين اليمن والآراميين مكنها من نشر الأبجدية الآرامية فى بلاد اليمن وهى: الأبجدية التى نشأ منها: «الخط المسند» وهو الخط الذى أخذ منه «الخط العربى» بعد تعديله، وإضافة ستة أحرف، التى تسمى: الأحرف الروادف التى يجمعها قولنا: «ثخذ ضظغ» وفى القرن الثالث اعتنقت «البتراء» المسيحية .

ملوك الأنباط:

كان الحارث «حوالى ١٦٩ ق.م» على رأس قائمة هؤلاء الملوك، ويدعى «آرتياس Aretas » وقد تسمى بهذا الاسم كثير من ملوك الأنباط كما تسمى به ملوك الغساسنة، وكان الحارث معاصرا لمؤسس الأسرة «المكابية» ويعتبر الحارث الثالث المؤسس الحقيقى حوالى ٥٧ ـ ٦٢ لسلطة الأنباط، وهو الذى: فتح الباب على مصراعيه للتأثيرات اليونانية والرومانية، وأدخل مملكته ضمن المحور التام للحضارة «الهيلينية» وكسب ثوب مجد «الهلينية» وكان أول من سك نقوداً نبطية، اقتبس لها النموذج المعروف عند «البطالمة». وعلى يد الحارث الثالث بدأت «البتراء» تتخذ مظاهر «مدينة، هلينستية نموذجية» فكان فيها شارع رئيسى جميل وعدة أبنية دينية وعامة؛ ومنذ هذا العهد أخذت دولة الأنباط تقوم بدور موال حليف لرومة؛ وبلغت المملكة ذروتها فى عهد الحارث الرابع «٩ قبل الميلاد ـ ٤٠م» الذى كان حكمه طويلاً

(١) تاريخ سورية جـ١ ص ٤١٨.

مزدهراً، وقد تابع عملية نشر الحضارة الرومانية،وكان من ولاته ذاك الذى حاول القبض على بولس فى دمشق[١].

وقد تزوج الحاكم «هيرودس» بن «هيرودس الكبير» ابنة الحارث هذا وطلقها ليتزوج راقصة كانت السبب الرئيسى فى مقتل «يوحنا المعمدان»[٢] وكانت المملكة تضم فى أقصى اتساعها جنوب فلسطين، وشرق الأردن، وسورية الجنوبية وشمال الجزيرة العربية.

ويمكن أن يرجع تاريخ الأماكن المرتفعة التى لاتزال قائمة فى «البتراء» والقبور الجميلة التى تمثلها «قبور الحجر ـ مدائن صالح» فى الحجاز إلى زمن حكمه وكانت «الحجر» مركزاً لقبيلة ثمود[٣].

ومن الحقائق المستخرجة من الكتابات الأثرية المحلية والنقود ومنذ حكم «عبيدة الثالث حوالى ٢٨ـ ٩ ق.م.» أخذت تظهر صورة الملكة مع الملك، واستمرت التماثيل النصفية المزدوجة للزوجين الملكيين حتى نهاية الملكية، وهناك كتابات أثرية على تمثال «لعبيدة الثالث تدعوه الإلهى» ذلك مما يدل على أن الأنباط كانوا: يؤلهون ملوكهم بعد الموت» وبموت «مالكو» ينتهى عصر الأنباط الذهبى الذى بدأ فى عام «٥٠ ق.م» ثم أصبحت بلاد الأنباط جزءاً من الولاية العربية الرومانية التى كانت «بصرى» فيها المدينة الرئيسية وكانت ملتقى هاماً لطرق القوافل الذاهبة إلى دمشق والبحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسى وبذلك أصبحت «البتراء» فى ذمة التاريخ من حيث أتت وظهرت تدمر ».

مملكة تدمر:

وبينما كانت «شمس البتراء» آخذة بالغروب كانت تشرق «شمس تدمر»وهى : مدينة أخرى للقوافل، وكان الذين استقروا فيها بضع قبائل عربية بفضل نبع غزير يقوم فى قلب الصحراء، وتصلح مياهه للشرب وكانت مملكة فى واحة فى صحراء الشام فى الشمال الشرقى من دمشق، وتنسب هذه المملكة إلى عاصمتها «تدمر»

(١) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١١ : ٣٢.
(٢) إنجيل متى ١٤ ـ١٦ ـ ١١.
(٣) القرآن سورة ١٠ آية ٨ .

وكانت مدينة عامرة ذات شهرة واسعة في العصور القديمة بنيت لها الهياكل والمعابد الضخمة، وشقت الطرق الفسيحة وأقيمت الأسواق الواسعة وتظهر بهذا الاسم لأول مرة «حوالى ١٨٠٠ ق.م.» وتعود في الظهور إلى وثيقة أشورية لاصقة تقول: «إن: تيجلات فلاسر» حوالى ١١٠٠ ق،م، طارد أعداءه البدو حتى هذا الملجأ الصحراوى، ولا يزال الاسم السامى القديم يظهر فى كلمة تدمر العربية.

والمؤرخ العبراني: «أخبار الأيام الثاني ٨:٤» يروى: أن سليمان بنى «تدمر» والأسم باليوناني يعنى مدينة النخيل وهى: المدينة التى ذكرها القرآن، واستعمل سليمان الجن فى بنائها؛ وكانت «تدمر» تقوم بين هاتين الإمبراطوريتين العالميتين، وساعد موقعها المنعزل فى قلب الصحراء على عدم تمكن الرومانية من سهولها للاستيلاء عليها[١].

واستفاد تجارها من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقاء الطرق التى تعبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل فى الصحراء على إذن بمرور قوافلهم بسلام. وكان الأدلاء يقودون هذه القوافل عبر المنطقة الجرداء كما كان يحميها ركب الرماة من غارات البدو، واستعيض بالتدريج عن أكواخها الطينية ببيوت من «الحجر الكلس» وأنشئت شوارع عريضة، وكان الشارع الرئيسى يؤدى إلى معبد «بعل» وقد أقيمت الأعمدة فى الشوارع واتخذت المدينة مظهر مدينة رومانية يونانية مزدهرة.لم يكن سهلاً لمدينة الصحراء أن تحافظ على سيادتها التامة فى وجه النفوذ المتزايد للإمبراطورية الواقعة فى غربها، وفى أوائل العصور المسيحية كانت قد اعترفت بسيادة «روما» وبدأت «تدمر» والدول التى تدور فى فلكها عهداً جديداً من الازدهار الذى دام أكثر من قرن ونصف بعد أن أصبحت تابعة «للدومة» وأخذ المواطنون البارزون فى «تدمر» يضيفون أسماء «رومانية» إلى أسمائهم؛ ،كان التدمريون آراميين وإن كان بعض حكامهم يرجعون إلى أصل عربى، وقد تأثروا بالحضارة

---

(١) تاريخ سورية جـ١ ص ٤٣٢.

اليونانية ودخل لغتهم كثير من الكلمات اليونانية، ومن ثم كانت اللغة التدمرية لهجة آرامية لم يدخلها من العربية إلا بعض أسماء أعلام ، ويرجع الفضل إلى الآراميين فى تعديل الأبجدية الفينيقية ونشرها[1].

من ملوك تدمر:

ارتقت أسرة «أذينة» التى كان يتصدر اسمها «سبتموس» إلى مركز الزعامة فى «تدمر» فى منتصف القرن الثالث؛ والتمثال الذى شيد فى عام «٢٥١» على شرف عميد الأسرة سبتيموس حيران بن أذينة يدعوه زعيم رأس تدمر» ويبدو أنه كان أول «تدمرى» أضاف لقب «راس» إلى رتبته الرومانية كعضو فى مجلس الشيوخ.

ويرجح أن: حيران هذا والد أذينة» المشهور باليونانية «أوديناتوس» ويستدل من أسماء الأعلام بأن: الأسرة كانت من أصل عربى، ويدعو المؤرخون اليونان «أذينة» هذا «حاكم العرب» وفى زمن «حيران» كان الجيش الفارسى أوقع هزيمة مخجلة بالجيوش الرومانية قرب «أديسا» حتى أن إمبراطورها «فاليران» وقع أسيراً وتوفى فى الأسر. فى هذه الأثناء قد خرج «أذينة» فى هذه المعركة على رأس جيش كبير من السوريين وقبائل البدو لإنقاذ «فاليران» فهزم الفرس، غير أنه لم يتمكن من فك أسر «فاليران» وكوفئ أذينة فى ٢٦٢ على ولائه للإمبراطور الجديد «فالينوس» فمنح لقب زعيم، الذى منه ما يشبه نائب الإمبراطور على الجناح الشرقى من الإمبراطورية. فى ذروة نجاح «أذينة» اغتيل وريثه فى أحوال غامضة فى (٢٦٦ ـ ٢٦٧) وكانت من تدبير «رومة» ومهما يكن فإنه يتضاءل كشخصية تاريخية أمام أرملته التى حكمت بعده باسم ولدها القاصر «وهب اللات» وكانت «زنوبيا» التى تذكرها الكتابات الأثرية التدمرية باسم «تبت راباى» ابنة «العطية» وهى «الزباء» وقد ادعت القربى بزميلتها السابقة «كليوباترا» فى مصر، ورعت الثقافة اليونانية وكانت هى نفسها تتكلم الآرامية اليونانية وبعض اللاتينية، وبلغ منها أنها جمعت تاريخ الشرق وكانت زينة المفكرين، بين رجال بلاطها الفيلسوف «لونجينوس» وهكذا استطاعت «ملكة البادية أن تشكل لنفسها ولابنها» إمبراطورية انتزعتها من الرومان.[2].

---

(١) الأمم السامية ص ١٠٨

(٢) تاريخ سورية جـ١ ص ٤٣٩، ص ٤٤٠

وتعتبر آثار «تدمر» من أكثر المناظر جلالاً فى الصحراء، وقد تحول معبد «بعل» الذى يقوم على سطح مرتفع إلى ما يشبه المتحف، ووجدت فيه أشكال نساء محجبات وهن يساهمن فى احتفال دينى؛ وكانت الحضارة «التدمرية» حضارة غريبة فهى مزيج من عناصر سورية ويونانية وفارسية، ولا شك أن السكان الأصليين كانوا قبائل عربية وقد تبنوا فى كلامهم وكتابتهم اللغة الآرامية السائدة وبقيت أكثرية السكان عربية رغم امتزاجها بالآراميين، ولا شك أن الطبقة المثقفة كانت تتكلم اليونانية زيادة على الآرامية، ويظن أن رجال الأعمال كانوا يفهمون اللغة العربية كما كان يستعملها بعض «التدمريين» كلغة دارجة(١).

فيلسوف «تدمر» لونجينوس:

لم ينبغ فى «تدمر» أحد من رجالها ورجال الفكر المتميزين سوى: «ديونيسيوس كاشيوس لونجينوس» ويرجح أنه من مواطنى حمص وقد درس أولاً فى الإسكندرية ثم فى أثينا حيث كان من تلامذة «فيرفريوس» وكانت أمه سورية وعرفت اللغة السوريانية؛ وكان من معاصريه «أميليوس الأنامى» ويعتبر هذا الفيلسوف التدمرى فريداً فى عصر كثر فيه الثرثارون الخياليون، وبلغ من سعة معلوماته: أن وصفه أحد معاصريه بأنه مكتبة حية ومتحف متنقل. «ولونجنيوس» هو الذى علم «زنوبيا» الأدب اليونانى، وأصبح مستشارها بعد ذلك، ولسوء الحظ لم يبق من مؤلفاته سوى بعض الفقرات والمقتطفات، وترينا هذه بأنه قد بقى وثنياً رغم أنه لم يكن مناوئاً لليهودية والمسيحية وتحمل القتل على يدى الرومان برباطة جأش وبشاشة وجه حريتين بجعله كسقراط.

دولة الغساسنة ـ عاصمتها بصرى:

تؤكد الروايات أنه: حوالى نفس الوقت الذى كانت فيه الدولة «التدمرية» آخذة بالزوال كانت إحدى القبائل العربية تشق طريقها إلى «حوران» وهؤلاء هم «بنو غسان» الذين ينسب سبب رحيلهم عن اليمن إلى تصدع قديم فى «سد مأرب» وتنصر «الغساسنة» خلال القرن الرابع.

---

(١) السابق ص ٤٤٤.

وكان مؤسس سلالتهم شخص يسمى: «جفنة بن عمرو مزيقياء» الذى لا يعرف تاريخه بوجه التأكيد، وفى التواريخ العربية يختلف عدد الملوك بين أحد عشر، واثنين وثلاثين. ويسمى الغساسنة أيضاً بآل «جفنة» أو «بأولاد جفنة» وذلك لأن: أول ملوكهم هو: «جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر» ويفسر الإخباريون سبب تسمية «عمرو بن عامر» بـ : «مزيقياء» بتفاسير عدة: منها «قول حمزة الأصفهانى» : وتزعم الأزد أن عمراً إنما سمى «مزيقياء» لأنه: كان «يمزق كل يوم من سنى ملكه نميرة فسمى هو مزيقيا» وسمى ولده «المزاقية» وقيل: إنما سمى «مزيقيا» لأن: الأزد تمزقت على عهده كل ممزق، عندما تهدم سيل العرم.

ويعتقد نولدكه: أن هذا هو التفسير الصحيح، وهو يرى: أنه مأخوذ من الآية الكريمة من سورة سبأ آية ١٨ قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ...... ﴾ إلخ الآية.

وهناك من يسمى الغساسنة بآل ثعلبة: نسبة إلى جد آخر يسمى ثعلبة[1].

ملوك الغساسنة والنصرانية:

كان «الحارث بن جبلة ـ حوالى ٥٢٦ ـ ٥٦٩» أول هؤلاء الملوك، وأعظمهم الذى يظهر لأول مرة عام ٥٢٨، وهو يحارب «المنذر» الثالث اللخمى ملك الحيرة. واللخميون أصلهم أيضا من جنوب الجزيرة العربية كانوا يسكنون على طول الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية، واستخدموا كدولة حاجزة بنفس الطريقة التى استخدم البيزنطيون بها الغساسنة. واعترافاً بخدمات «الحارث» فقد عينه الإمبراطور «يوستنيان» فى العام التالى سيداً على كل القبائل العربية فى سورية ومنحه لقب «فيلارك» رئيس قبيلة وبطريق.

وفى عام ٥٤٤ ـ أسر «المنذر» أحد أبناء «الحارث» وقدمه ضحية للآلهة «العزى» التى تقابل «أفروديت» وانتقم «الحارث» لنفسه بعد عشر سنوات فى معركة حاسمة جرت قرب «قنسرين» حين قتل غريمه اللخمى وقام «الحارث» فى

(١) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ١٥٣.

عام ٥٦٣ ـ بزيارة لبلاط «يوستنيان» حيث ترك تأثيراً عميقاً على أفراد الحاشية كشيخ بدوى مهيب. وحصل أثناء وجوده فى : القسطنطينية على تعيين «يعقوب البرادعى» أسقفاً على الكنيسة المونوفيزية السورية؛ وقد انتشرت العقيدة الجديدة فى سورية كلها أثناء حكمه وحكم ابنه ويقال: إن يعقوب البرادعى رسم مائة ألف كاهن، ونصب تسعة وثمانين أسقفا فى تلك البلاد. ووصلت المملكة حينذاك ذروة اتساعها؛ وإذا كانت تمتد قرب «البتراء» إلى «الرصافة» شمال «تدمر» وتشتمل على «البلقاء» والصفا وحران، ولكن حماسته للمذهب الذى تعتبره بيزنطة غير متفق مع الديانة الرسمية باعدت بينه وبين «يوستين» الذى بلغ منه أن ارتاب فى ولائه السياسى، وبذلك توطد هذا المذهب فى سورية. ويرى بعض المؤرخين: أن مدة حكمهم نحو ستمائة سنة، وعدد ملوكهم ٣٢ ملكا، أى من أوائل القرن الميلادى إلى ظهور الإسلام.

دولة المناذرة ـ الحيرة والأنبار.

اللخميون فى العراق:

كان اللخميون عمال الفرس على أطراف العراق، كما كان الغساسنة عمال الروم على مشارف الشام.

وتسمى هذه الدولة: دولة آل نصر، وآل لخم، وآل عمرو بن عدى، أو ملوك الحيرة، أو المناذرة على السواء.

وتاريخ هذه الدولة أوضح من تاريخ آل غسان؛ لأنه كان مدوناً فى كتب الحيرة ومثبتا فى كنائسهم.

وكانت الحيرة على ثلاثة أميال من مكان الكوفة فى موضع يقال له: النجف على ضفة الفرات الغربية، فى حدود البادية بينها وبين العراق، وتقع الآن فى الجنوب الشرقى من مشهد على. وبعض المؤرخين يذهب إلى أن لفظها سريانى، والبعض الأخر يذهب إلى أنه عربى.

أهل الحيرة عرب يقسمهم الإخباريون إلى طبقات ثلاث:

(تنوخ ـ العباد ـ الأحلاف).

تنوخ:

وهؤلاء فى نظرهم من قبائل متعددة فيها القحطانيون والعدنانيون، والتنوخيون وغيرهم. قبائل سكنت بيوت «الشعر والوبر» غرب الفرات بين الحيرة والأنبار» .وهى قبائل عرب من الجنوب، التى تركت اليمن على أثر تصدع «سد مأرب» .

وأما العباد: فهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها، فهم إذن حضر مستقرون، ويقول أغلب الإخباريين عنهم :إنهم كانوا من النصارى. وأصل كلمة العباد على ما يقولون: مختلف فيها فبعضهم يرى: أنهم سموا بالعباد لأن وفداً منهم وفد على كسرى، ولما سألهم عن أسمائهم وجد أنها كلها تبتدئ بكلمة «عبد» فقال لهم: أنتم عباد كلكم، فسموا بالعباد.

ويقول آخرون: إنهم إنما سموا بهذا الاسم، لأنهم : كانوا يعبدون الله(١) .

ويقول جواد على: إن هذا الاسم لم يكن يعنى قبيلة أو بطناً، وإنما يعنى جماعة من القبائل شتى جمعت بينها وحدة الدين ووحدة الوطن، لذلك لا يطلق إلا على النصارى من أهل الحيرة؛ أما غيرهم من نصارى العرب فلم يشملهم اسم العباديين، ويمكن أن نقول استناداً إلى روايات الإخباريين فى تحديد مدلول الكلمة، واقتصارها على نصارى الحيرة دون غيرهم من نصارى العرب: «إن هذه الكلمة أطلقت فى الأصل على من تنصر من أهل الحيرة لتميزهم عن غيرهم من سكان المدينة «أى مدينة الحيرة» من الوثنيين، ولم يكن أولئك النصارى فى بادئ أمرهم بالطبع إلا فئة قليلة، ثم توسعت من بعد، فلما انتشرت النصرانية فى الحيرة لازمت هذه التسمية جميع نصاراها كائناً من كانوا، وصارت علماً لهم لم تميزهم عن الوثنيين فحسب؛ وإنما ميزتهم أيضاً عن بقية النصارى العرب من غير أهل الحيرة.(٢)

وأما الأحلاف: فهم بقية سكان الحيرة ومن نزل فيها من العرب ولم يكن فى الأصل لا تنوخيا ولا من العباد، وكان بين سكان الحيرة جماعات من: النبط والفرس واليهود»

---

(١) تاريخ العرب القديم ص ١٧١ نبيه عاقل.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٤ ص ١٤، ١٥ جواد علي

أما الأنبار: فقد زعم الإخباريون أنها بنيت أيام «بختنصر» وقد لعبت دورا هاماً في المعارك التي جرت بين «فارس، وبيزنطة» زمن الإمبراطور «جوليان» سنة ٣٦٣.

من ملوك المناذرة والنصرانية:

يكاد ينعقد اجماع المؤرخين العرب على: أن أول من حكم من بني تنوخ كان: «مالك بن فهم» وهو في نظرهم من الأزديين، ثم انتقل الحكم إلى: «جذيمة الإبراش» المعروف «بجذيمة الوضاح»، وتولى «عمرو بن عدى» الإمارة على العرب ـ عرب الحيرة والأنبار بعد «جذيمة». وقد اتبع سياسة خاله «جذيمة» في التحالف مع الفرس فساعده هذا على تقوية نفوذه على القبائل النازلة في العراق.

ولم يزل «عمرو بن عدى» ملكا على الحيرة حتى مات؛ وتولى الملك بعد وفاة «عمرو» ابنه «امرؤ القيس» وكان عاملاً للفرس على «فرج العرب» أي موضع المخالفة من العدو المجاور من ربيعة ومضر، وبادية العراق والحجاز، والجزيرة.

وفي نهاية القرن الرابع ومطلع القرن الخامس يطلع علينا اسم ملك لخمي هو: «النعمان الأول ابن امرئ القيس ٣٩٠ ـ ٤١٨». وهناك روايات تنسب تنصره، منها: أنه تنصر بتأثير القديس «سمعان العمودى» الذى كان يقوم بالتبشير للمسيحية بين أهل الحيرة؛ وإن «سمعان» هذا شفاه من مرض كان به فتنصر[1].

وفي أيام «المنذر بن امرئ القيس» المعروف «بماء السماء» وقع الاحتلال الحبشي لليمن فاتسع بذلك نفوذ الروم في بلاد العرب؛ وذلك لما يربط الأحباش بالبيزنطيين من روابط، وأساسها تدينهما بدين واحد.

وكما يذهب المؤرخون: أن ملوك الحيرة تولوا الملك ٣٦٤ سنة وكلهم من نسل «عمرو بن عدى» من آل«نصر» أو «لخم» إلا ستة من الدخلاء وهم: «أوس بن قلان، والحارث بن عمرو بن حجر الكندى، وعلقمة بن يعفر، وإياس بن قبيصة، وفيشهرت، وزادية الفارسى» وقصبة ملكهم جميعاً: الحيرة».

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٤ ص ٨١.

حضارة الحيرة:

كانت الحيرة في عهد «المناذرة اللخميين» من المراكز الحضارية الهامة فى مختلف الميادين. فقد كان لموقعها بين العراق والشام وبلاد العرب أثر كبير فى احتكاك أهلها بغيرهم من الشعوب؛ فتأثروا بالثقافات العالمية آنذاك كالفارسية واليونانية والسريانية، وكان لمعرفة أهلها باللغة الفارسية أثر كبير فى نقل آداب الفرس إليهم؛ وساهم بعض أسرى الروم الذين وقعوا فى قبضتهم فى نقل علوم اليونان وآدابهم إليهم؛ وكان ملوك الحيرة يشجعون الشعراء ويغدقون الهبات والعطايا عليهم، وغدا بلاطهم مقصد مشاهير شعراء الجاهلية «كالمرقش الأصغر والمتلمس وطرفة بن العبد والمرقش الأكبر وحسان بن ثابت وعمرو بن كلثوم وغيرهم» وكانت الحيرة تزخر بمعاهد العلم ومدارسه فقد تلقى «إيليا» الحيرى مؤسس «دير مار إيليا» فى الموصل دراسته الدينية في مدرسة بالحيرة، كما تلقى «مار عبد الكبير» دراسته فى إحدى المدارس فيها.

ويذكر ياقوت أن الصبيان في الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة فى كنيسة قرية من قراها اسمها «النقيرة»[1].

وأما الأديرة والكنائس: فقدكانت كثيرة أيضاً فى الحيرة والمنطقة المجاورة لها، وكان لتنصر المناذرة أثر كبير فى دفعهم لبناء العديد منها. وتحفظ لنا كتب الديارات وتقاويم البلدان أسماء عدد كبير منها، ويعتبر دير «هند الكبرى» من أشهر الأبنية التابعة لهذه الزمرة،، وقد بنت هذا الدير «هند أم عمرو بن هند» وهناك دير «هند الصغرى» الذى بنته «هند ابنة النعمان بن المنذر» وأقامت فيه حتى ماتت ودفنت فيه. وعدد كبير آخر غيرها. وقد وصفت الحيرة عند الإخباريين بالبياض فقالوا عنها: الحيرة البيضاء تعبيراً عن حسن عمارتها وطغيان هذا اللون على سائر أبنيتها، وكان أهل الحيرة مِلَلاً ونحلا دينية كثيرة فقد كان بينهم الوثنيون الذين يعبدون الأصنام، والصابئة الذين يعبدون الكواكب، والمجوس الذين يعبدون النار، هذا فضلا عن أتباع النصرانية واليهودية، وكان معظم نصارى الحيرة نساطرة، ومنهم قلة

(١) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٢٠١.

من اليعاقبة، وكان بدء التبشير بالمسيحية فيها ببطء أول الأمر ولكنها ما لبثت أن وجدت الكثير من الأنصار.

ويدعي الطبري: أن امرأ القيس كان أول من تنصر من ملوك الحيرة، وقد يكون هذا الخبر غير مؤكد، وكل ما يمكننا الجزم به: «أن المنذر بن ماء السماء» كان نصرانيا وتزوج «بهند» وهي نصرانية «أيضاً، وقد بنت الدير المعروف، باسم «دير هند الكبرى» وقد حدث صراع بين النساطرة واليعاقبة حول اجتذاب الحيريين إلى مذهبيهما، وقد تفوق النساطرة في هذا الصراع واجتذبوا عددا كبيرا من نصارى الحيرة إلى مذهبهم(١).

ديانة مناذرة الحيرة:

واختلفوا في ديانة ملوك الحيرة فمن قائل: إنهم تنصروا على عهد «امرئ القيس» الأول ابن عمرو في أوائل القرن الرابع. وقائل: إن أول من تنصر «النعمان بن المنذر» في آخر القرن السادس. وبينهما أقوال كثيرة لا سبيل إلى تحقيقها ؛ لاختلاف القائلين فيها مثل اختلافهم في عدد ملوكهم وفي تعاقبهم وسني حكمهم(٢)

ويبدو أن ملوك الحيرة لم يتنصروا عقيدة؛ إنما تنصروا سياسة أي تبعاً لولائهم السياسي للرومان لما غلب الرومان على الفرس ودارت الحيرة في فلكهم فترى في سجل الكنيسة الشرقية أن الحيرة كان عليها أسقف لسنة ٤١٠ م، وأن ملكها حمى النصرانية سنة ٤٢٠، وترى في الجهة الأخرى: أن النساطرة واليعاقبة اشتد جدالهم في أوائل القرن السادس للميلاد، وتنافسوا في الرئاسة ففاز النساطرة، وملوك الحيرة كانوا إلى أواسط القرن السادس على الوثنية؛ وإن المنذر امرئ القيس بن ماء السماء» كان يقدم ذبائح من البشر إلى العزى، وكان بين نسائه امرأة من غسان اسمها «هند الكبري» أم عمرو بن هند» كانت مسيحية فبثت مبادئ النصرانية في ابنها فنشأ نصرانيا، يؤيد ذلك ما نقشته على ديرها. ولما ماتت رجع خليفته «قابوس أو المنذر بن

(١) تاريخ العرب القديم ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) العرب قبل الإسلام

المنذر» إلى الوثنية، ونشأ ابنه النعمان فيها يذبح للأصنام حتى تنصر «الجاثليق» على يد «حبر يشوع» وفى التاريخ العربى أنه : «تنصر على يد عدى بن زيد».

وقد اتفق القولان: بأن يكون عدى رغبه فى النصرانية والجاثليق عمده.

مملكة كندة:

كندة فى عرف النسابين العرب: قبيلة عربية جنوبية تنسب إلى «ثور بن عفير بن عدى بن الحارث» وينتهى النسب إلى يعرب بن قحطان(١).

وعلى قول العرب بطن من كهلان، عرب الشمال. وأصلهم فيما رواه الثقاة: من البحرين والمشقر وأنهم أجلوا عنها إلى حضرموت: وأقاموا فى بلد يعرف باسمهم «كندة» مرتفع من الأرض يشرف على حضرموت، وتصب أوديته فيه ثم إلى مهده وقصبته الكبرى «أدمون». وأقام الكنديون هناك دهراً وهم على وفاق مع الحميريين بين حكام تلك البلاد.

وهناك خلاف بين الإخباريين حول أسباب نزوح كندة إلى الشمال، فاليعقوبى: يشير إلى حرب قامت بين «كندة وحضرموت» طال أمدها وأدت إلى جلاء «كندة عن حضر موت».

يقول اليعقوبى: وكان بين «كندة وحضرموت» حروب أفنت عامتهم، وطالت الحرب بينهم، وأفنت رجالهم ودامت حتى ضرستهم وكثر القتل فى كندة وصارت كندة إلى أرض «معد» فجاورتهم.

وهناك فريق آخر من الإخباريين: يرجعون نزوح كندة من حضر موت إلى نجد إلى وجود قرابة بين «حجر بن عمرو» سيد كندة و«تبع» صاحب السلطان آنذاك على نجد والحجاز وغيرها من بلاد العرب؛ فولى «تبع حجراً» على قبائل «معد» كلها لأنه: قريبه من جهة ومن أتباعه المخلصين من جهة أخرى(٢).

ويذهب فيليب حتى: إلى القول بأنه كما كان الغساسنة عمالاً للبيزنطيين واللخميون عمالا للفرس؛ فقد كان كذلك ملوك كندة فى أواسط الجزيرة العربية

(١) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٢٠٥.

(٢) تاريخ العرب القديم ص ٢٠٥.

عمالاً لتبابعة اليمن المتأخرين؛ ويحدد حتى تاريخ تولى «حجر على معد» بسنة ٤٨٠م؛ وهو أول زعيم من زعماء كندة تمكن من توحيد صفوفها وفرض سيطرتها على القبائل الأخرى، وتوسيع رقعة أرضها حتى بلغت حدود مملكة اللخميين(١).

وكان «الحارث» أقوى ملوك كندة وأشهر رجل نعرفه من أسرة آكل المرار؛ وقد تولى الإمارة على بكر؛ وكما مد نفوذه على بكر فقد نجح «الحارث» فى مد نفوذه على الحيرة فى الفترة ما بين ٥٢٤ ــ ٥٨ .ويرجع نجاحه فى بسط نفوذ «كندة» «على الحيرة» وانتزاع السيادة عليها من المناذرة إلى سببين؛ كما يذكر حمزة الأصفهاني: وإلى هذين السببين: أن الملك الفارسى «قباذ» أهمل شئون مملكته، وتغاضى عن سياسة رعيته ورعاية أمورهم.

كما أنه أخذ بزندقة «مزدك» وقد أدى كل هذا إلى صدام بين «قباذ» و«المنذر بن ماء السماء» الذى رفض الدخول فى : المزدكية ولم يرضخ لضغط «قباذ» وهرب «المنذر» من دار مملكته بالحيرة، ومضى حتى نزل إلى الجرساء الكلبى وأقام عنده(٢).

ولما ملك فارس «كسرى أنو شروان» وأعاد المنذر بن ماء السماء» إلى ملك الحيرة. كان «الحارث بن عمرو» يومئذ فى «الأنبار» فلما بلغته عودة المنذر إلى عرش الحيرة» خرج هارباً فى أصحابه وماله وولده؛ فتبعه المنذر بالخيل من «تغلب وإياد وبهراء» فلحق بأرض كلب ناجياً بنفسه؛ ولكن «بنى تغلب» انتهبوا ماله، وهجائنه وأسروا ثمانية وأربعين شخصاً من أفراد أسرته وقدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم.

حضارة الكنديين:

لم يكن الكنديون أصحاب حضارة راقية تشبه حضارة المناذرة أو الغساسنة، فقد حافظوا على النظم والحياة البدوية؛ ولم يقيموا فى حضارة ثابتة، بل كانوا يتنقلون بين الجنوب والشمال، واستعملوا الخيام كمساكن، ولم يعرف عنهم بناء المدن والقصور(٣).

(١) السابق ص ٢٠٩، اليعقوبي جـ١ ص ٢١٦، ابن خلدون جـ٢ ص ٥١٩.

(٢) السابق ص ٢١٣، العقد الفريد جـ ٦ ص ٧٨ تحقيق محمد سعيد العريان.

(٣) المراجع السابقة.

أما دياناتهم: فكانت وثنية ومن أصنامهم المشهورة «ذو الخلصة» الذى انتقلت عبادته إلى عرب الحجازفيما بعد. وقد تسربت الديانة اليهودية إليهم فاعتنقها بعضهم، ويبدو أنها جاءتهم بسبب مجاورة اليهود «لبنى كنانة» فى يثرب وخيبر؛ وبسبب اتصال الكنديين «بالتبابعة الحميريين» فى عهودهم الأخيرة وتبعيتهم لهم.

أما المسيحية: فكانت أكثر انتشاراً فى: نجد من اليهودية واعتنقها: «بنو تغلب، وجماعة من بنى أسد» وقد انتقلت إليهم عن طريق الغساسنة وعباد «الحيرة وأحباش اليمن، ولعل أهم ما يجب أن نذكره عن الكنديين أنهم كانوا زعماء اتحاد قبلى يضم قبائل مختلفة تعترف بزعامتهم وتدين بالولاء لهم(١).

---

(١) المراجع السابقة.

مراجع هذا الباب

(١) ـ القرآن الكريم .

(٢) ـ كتب السنة.

(٣) ـ الكتاب المقدس.

(٤) ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى.

(٥) البدء والتاريخ ـ طاهر المقدسى.

(٦) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد على.

(٧) ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ الألوسى

(٨) ـ نهاية الأرب ـ النويرى.

(٩) ـ تفسير الخازن.

(١٠) ـ تفسير الزمخشرى ـ جار الله الزمخشرى.

(١١) ـ فجر الإسلام ـ أحمد أمين.

(١٢) ـ تاريخ العرب قبل الإسلام د/ نبيه عاقل.

(١٣) ـ العرب قبل الإسلام ـ چورچى زيدان.

(١٤) ـ الأمم السامية ـ الأستاذ حامد عبد القادر

(١٥) ـ تاريخ سورية ـ فيليب حتى.

الباب الثالث

العرب وروافد الفكر الديني

العلاقات التجارية والدبلوماسية:

لم يكن العرب قبل الإسلام في عزلة عما حولهم: فكريا أو اجتماعيا، أو اقتصاديا، وليس ثمة داع لها، فلم يؤثر تاريخيا، أنه ضرب عليهم سور يعوق من حركات الدخول في الجزيرة العربية أو الخروج منها، وليست الجزيرة العربية بالأرض الخصبة ، التي تكفل لقاطنيها وفرة في العيش ، وخصوبة في الرزق حتى يكره العربي في حبها السعي عن تحصيل ضرورات عيشه، وإنما كانت طبيعتها قاسية جافة، وأرضها جرداء مقفرة، ترغم أهلها أن يضربوا بإبلهم في أفناء الأرض شهورا، ليصيبوا منها أقواتهم، وضرورات عيشهم، ونرى في القرآن الكريم تسجيلا لهذه الرحلات في سورة كاملة – سورة قريش– قال تعالى:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ① إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ② فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ③ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾.

هذا من ناحية حركات الخروج منها:

أما من ناحية حركات دخول الناس فيها – أي الجزيرة العربية– فله من الدواعي العدد الكثير:.

ففيها الكعبة: وهي – من البيوت السبعة القديمة– مما يجذب إليها الرائي أو السائح للتعرف عليها، وهناك روايات تاريخية تذكر أن الفرس قصدوها كثيرا[١].

كما دخلها جيش أبرهة الحبشي[٢] ورحل إليها قديما نبي الله إبراهيم وأقام ابنه إسماعيل فيها وجددا معا بناء الكعبة وأسسا حولها دين التوحيد.

---

(١) يراجع المسعودي – مروج الذهب (١ : ١٨٨) قال: وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيما له ولجدها إبراهيم.

(٢) وكتب غير واحد من اليونانيين المؤرخين: أن أبرهة زحف على مكة في مركب يجرها أربعة من الفيلة وأن جيشه لم يعد منه إلا القليل لكثرة من مات منه بالوباء: أبو الأنبياء: العقاد. كما لجأ إليها النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة وكلا المذهبين اضطهدا سياسيا، ودينيا.

يذكر القرآن ذلك فيقول: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وهى وإن كانت من حيث طبيعة جوها لا يطمع فيها طامع، تعد بمعزل عن أطماع السياسيين. وأصبحت بذلك كأنها منطقة حيادية، ولهذا السبب – وهو عزلتها– رغب فيها اللاجئون السياسيون الذين وقعوا فريسة للاضطهاد السياسى، أو الدينى، فكانوا يفزعون إليها لأنهم يجدون فيها الملجأ الآمن المطمئن وكذلك جاليات اليهود، والنفر من النصارى، الذين ما دخلوا تلك البلاد إلا فراراً من حملات الاضطهاد الرومانى التى وقعت عليهم.

لذلك لم يكن بعيدا علينا أن نجد فيها – كما ذكر القرآن– بعضا من اليهود والنصارى، والمجوس، والصابئين، والذين أشركوا، ونجد فيها: الأصنام، والأوثان، ومصطلحات دينية غير عربية مثل: الجبت، والطاغوت.

ومعلوم: أن اليهودية لم تنشأ فيها، ولا النصرانية، ولا المجوسية، ولا الصابئة، ولكنها وفدت إليها تحت قسوة الاضطهاد السياسى أو الدينى.

وسنعرض بالتفصيل لتلك الأديان والمذاهب فيما بعد.

كل هذا وغيره يعطينا أن العربى لم يكن فى عزلة عما حوله، سواء من ناحيته، لأنه خرج منها متاجرا، أو من غيره فلم يكن فى عزلة عنها، إذ وجدنا من يمم وجهه شطرها.

ومن العوامل الأساسية فى التوسع ودعم النفوذ الرومانى وتوطيده فى الشرق أمور كان قوامها:

– الدبلوماسية.

– والتجارة.

ولكنها كانت مؤيدة بقوات حربية عظيمة، ونشاط حربى مضن. وفى مصر وفى بلاد العرب وشمال إفريقية اتبعت هذه السياسة بعينها.

فالبلاد العربية جرى فيها حركات حربية وتجارية ودبلوماسية.

ويرى م - رستوفتزف: أن الدبلوماسية والتجارة هما من أسس التوسع الروماني في بلاد العرب. وهذا معناه - في نظرنا- أن العربي كان له اعتباره الفكري منذ القدم.

ويقول: ولم تكلل حملة إيليوس جالوس على بلاد العرب بالنجاح التام ولكنها على أي حال ضمنت للتجار الرومان الحصول على مرافئ آمنة وهم في رحلتهم من مصر إلى موانئ الهند.

ويقول: وكان التجار من الأعراب يقومون بدور الوسيط بين التجار المصريين وزملائهم في الهند، وكانت هذه التجارة إلى حد كبير تقوم على الكماليات[1].

وليس الأمر بحثا في دوافع الخروج، أو الدخول فيها فحسب، بل يرى علماء التاريخ: أن شبه الجزيرة العربية هي أصل الهجرات السامية لتلك المنطقة[2].

وحجتهم في ذلك أنها بلاد صحراوية. يحيط بها البحر من ثلاث جهات، لذلك كان السكان عندما يزيد عددهم عن قدرة الأرض المأهولة الضيقة عن إعالتهم يميلون إلى البحث عن مجال حيوي، فيجدونه فقط في الأراضي الشمالية الخصبة التي تجاورهم.

ويؤدي ذلك إلى الحجة الاقتصادية التي تقول: إن أهل الجزيرة الرحل كانوا دواما يعيشون على ما يقرب من الجوع، وإن الهلال الخصيب كان أقرب مكان يزودهم بما يحتاجون إليه .

يقول سبتينومو سكاتي[3]:

«فالساميون يظهرون في أقدم المصادر على أنهم بدو صحراء العرب يدفعون بأنفسهم دائما إلى الخارج ويتغلغلون في المناطق المحيطة ويوطدون أقدامهم فيها فهناك:

- الأكاديون الذين نراهم في أرض الرافدين في الألف الثالثة قبل الميلاد.

(١) تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعية والاقتصادية صفحات ٩٢ ، ١٤٥ .

(٢) العرب واليهود، والتاريخ (١ : ١٨٩) د / أحمد سوسه، وتاريخ سورية: فيليب حتي جـ ١ و قصة الحضارة (٢ : ٢٦٤) .

(٣) يراجع كتابه في الحضارة السامية ص ٢٢٥ .

– ثم الأموريون الذين أسسوا فى بداية الألف الثانية سلسلة من الدول فى فلسطين وسورية وأرض الرافدين.

– ثم العبريون والآراميون الذين جاءوا بعد ذلك بقرون قليلة ليسدوا الفراغ التاريخى الذى خلفه انسحاب «شعوب البحر» فى فلسطين وسورية.

ثم العرب الذين خرجوا من صحرائهم بعد ذلك بعدة قرون فى حركة فتح عظيمة نقلتهم إلى أقصى البقاع، وهؤلاء جميعا ليسوا سوى أسماء مختارة برزت فى الحركة المستمرة التى كانت فى كثير من الأحيان خفية مجهولة الأبطال، والتى وجّهت ودفعت سير الأحداث فى الشرق الأدنى.

ثم يقول: ولم يكن بد من أن يتنقل البدو ومعهم آثار أحوالهم الأولى، ومن هنا كان بحثنا فى النظام الاجتماعى القديم لصحراء العرب عن الخطوط التقريبية.. وحاولنا أن نقوم على وجه التقريب أيضا، الصور السياسية للشعوب المختلفة فى معتقداتها وطقوسها وفى قوانينها بل فى فنها أيضا، وليس التراث البدوى لتلك الشعوب كافيا وحده لتغيير ذلك الطور وهو العنصر الذى وصفناه بأنه سام .

ويضيف نتنج قوله[1] :

«المحاولات الناضجة فى القرن التاسع عشر فى فك رموز الكتابات التى تعود إلى العصر السابق على ظهور المسيحية كشفت عن تشابه بين لغات البابليين والأشوريين والآراميين والكلدانيين والفينقيين والعموريين والعبرانيين والعرب والأحباش. وهو تشابه لافت للنظر بحيث يوحى بأن هؤلاء الناس جميعا لابد أنهم ينبثقون من الأصول نفسها».

ومن هذا ثبت أن أسلافهم المشتركين كانوا العرب الأصليين – أو الساميين من قبيلة سام – إذ أن اسم «عربى» هو التعبير السامى عن ساكن الصحراء – وأن

---

(١) ترجمة: دكتور السيد يعقوب بكر

مراجعة : دكتور محمد القصاص

ص ٥ العرب نتنج ترجمة د. راشد البراوى . الأنجلو .

أول استيطان للعرب على نطاق شامل إنما كان فى اليمن على عهد مملكة مأرب وهى الجيل الخامس من نسل سام.

وقد تأيدت الفروض بشواهد تاريخية منها :

* القرابة اللغوية بين الشعوب التى تتكلم اللغات السامية.
* عقائدهم الدينية .
* مؤسساتهم الاجتماعية.

هذا فضلا عن خصائص أخرى نضرب صفحا عنها .

وهذا التشابه جعل من السهل استنتاج: أن الأسلاف الذين تكلموا البابلية والأشورية والأمورية، والكنعانية، والعبرية، والآرامية، والعربية والحبشية، كانوا غالبا يشكلون جماعة واحدة فى الأصل. لعوامل : سياسية واقتصادية، ومع التاريخ، حصل بينهم خلافات، وكان من آخر الهجرات القديمة حوالى ٥٠٠ ق. م: هجرة الأنباط إلى شمال شرقى جزيرة سيناء، حيث كانت عاصمتهم البتراء. هذا عدا هجرات الفتح الإسلامى. وهذه الهجرات الأخيرة: هى الحجة التاريخية التى يؤيد بها أصحابها نظريتهم التى تجعل من شبه جزيرة العرب الموطن الأصلى للساميين، ويضيفون إلى ذلك حجة لغوية مؤداها: أن اللغة العربية قد احتفظت فى نواح كثيرة بأشد تشابه باللغة السامية الأم التى كانت جميع اللغات السامية من لهجاتها.

وكذلك لديهم حجة سيكولوجية: ترى أن سكان شبه جزيرة العرب وبخاصة سكان البادية قد احتفظوا بأنقى الصفات السامية .

ومما نحب أن نشير إليه أن عقائدهم الدينية كانت تقوم على عبادة الطبيعة فى شكلها البدائى، وكانت هذه العبادة شائعة بين الرُّحَّل من بادية الشام وبلاد العرب، وكان يوجد بجانب إله القبيلة إله أعظم يطلق عليه: هبل أو بعل أو اللات.

وكانت اللات أو هبل الآلهة الرئيسية فى الجزيرة العربية .

فدعوى أن العرب حجزهم عن العالم القديم وثقافته عزلتهم عنه، غير واردة، ولا تثبت أمام التاريخ الحديث الذى أصبح يتكلم عن العرب ودورهم فى التاريخ القديم، من خلال علوم الحفائر والنقوش التاريخية القديمة، ومما ينبغى أن يقال: إن

ما يستكشفونه من حفائر تاريخية فى تلك المنطقة، يعطى ما أشار إليه القرآن الكريم، وهو عدم عزلتهم، وما تعاقب فى المنطقة العربية على حقب متتالية فى التاريخ من مراكز حضارية عربية يشهد بذلك، فضلا عن المركز الدينى الثابت وتلك المراكز هى:

* مكة : عاصمة دينية قديمة تقع فى وسط الحجاز.
* البتراء عاصمة دولة تجارية عربية ورئيسها عربى وكانت فى الجنوب.
* تدمر عاصمة دولة تجارية عربية ورئيسها عربى فى الشمال.
* بصرى: عاصمة دولة الغساسنة وهى عاصمة تجارية عربية ورئيسها عربى وتقع بين «البتراء» و«تدمر».

ويجمع بين هذه الدول الثلاث بعض المظاهر العامة وفق تاريخها المتعاقب من حيث :

* أصلها : الذى يرجع إلى تحضير القبائل البدوية أو المتنقلة.
* وازدهارها : الذى يرجع إلى تجارة المرور.
* وقد تحالفت كل منها مع إحدى الدولتين العظيمتين لبعض الوقت باعتبارها دولة حاجزة بين تينك الدولتين العالميتين وهما : فارس والروم، وتلقت المساعدات منهما.
* ونهاية كل منها كانت على يد إحدى الدولتين .

فرومة قضت على الدولتين: الدولة النبطية، والدولة التدمرية (الزباء) وقضت فارس وبيزنطة على دولة الغساسنة.

وأنها جميعا كانت وسائل جيدة للتزاوج بين حضارات الغرب: رومة، واليونان، وبين حضارات الشرق : فارس والهند وبيزنطة،، فنقلت من الهند إلى الغرب ونقلت من الهلينية. وكانت مع مرفئها التجارى عاملا مهما فى ظهور التراث الهلينستى وظهرت مدارس اشتغلت بالفكر الشرقى والهلينى فى ربوع تلك الدول منها :

* مدرسة أنطاكية .
* مدرسة نصيبين
* مدرسة الرها.
* المدائن.

* وجند يسابور.

فتلك المدارس: كانت روافد صالحة لنشر الهيلنستية فى الشرق والغرب، ونشر تراث الشرق والغرب أيضا فى المغرب الرومانى. وسنعرض لتلك المدارس ووظائفها:

١ - **فالبتراء:** من الدويلات المهمة التى قامت فى العصر السلوقى وأهلها من الأنباط (من العرب المتكلمين باللغة الآرامية) وازدهرت طوال ثلاثة قرون من القرن الثانى ق. م. إلى القرن الثانى الميلادى، وفى القرن نفسه ضمها الامبراطور الرومانى تراجان[١] إلى الامبراطورية، وظلت إلى أواخر القرن الرابع وهى المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوب الجزيرة الذى ينتج التوابل ومراكز البيع فى الشمال.

وكانت تسيطر على الطرق المؤدية إلى مرفأ غزة فى الغرب وإلى بصرى ودمشق فى الشمال وإلى آيلة (إيلات) على البحر الأحمر وإلى الخليج الفارسى عبر الصحراء.

وكانت تستبدل فيها الجمال النشطة بجمال القوافل.

واستطاع الحارث الثالث العربى النبطى[٢]: أن يدخل مملكته ضمن المحور التام للحضارة الهلينستية: وكسب بذلك لقب محب الهلينية.

وبدأت البتراء - وهى جزء من الولاية الغربية الرومانية - تتخذ مظاهر هلينستية نموذجية. يقول فيليب حتى: كانت حضارة الأنباط: عربية فى لغتها، آرامية فى كتابتها، سامية فى ديانتها، يونانية ورومانية فى فنها وهندستها المعمارية، وهى لذلك

(١) يراجع: مقدمة تاريخ الحضارات القديمة: طه باقرص ٥٩٨ منشورات دار البيان.

(٢) كان المؤرخون القدامى يرون أن العرب غير الأنباط فترى المسعودي فى كتابه مروج الذهب (١: ١٨٢) يقول: وقد تنازع الناس في ملوك الطوائف: أمن الفرس كانوا أم من النبط أم من العرب؟ غير أن هذا الخلاف يشير إلى أن هناك أصلا لهذا الاختلاف.

يقول فيليب حتى: وقد أصاب (سترابو) و(يوسيفوس) و(ديوروس) باطلاق اسم العرب على الأنباط إذ أن أسماءهم الشخصية وأسماء آلهتهم وأثر التحريف العربى فى كتاباتهم الآرامية لا تدع مجالا للشك بأن لغتهم الوطنية كانت لهجة عربية شمالية وظهر فى الكتابات الأثرية؛ أسماء مثل: على، حبيب، سعيد ... إلخ.

ويبلغ من كثرة استعمال كلمات عربية صرفة فى إحدى الكتابات الأثرية المتأخرة (٢٦٨ م) أن النص كله يكاد يكون عربيا، راجع: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص (١: ٤٢٦ و ٣٢٧) ترجمة د / جورج حداد وعبد الكريم رافق ومراجعة د / جبرائيل جبور. دار الثقافة ببيروت.

حضارة مركبة: سطحية في مظهرها الهليني ولكنها عربية في أساسها وبقيت كذلك.

٢- تدمر:

وأما تدمر (زنوبيا) فيرجع بناؤها إلى نبي الله سليمان. وكانت تقوم بين هاتين الأمبراطوريتين العالميتين، وساعدها موقعها هذا على عدة ميزات منها.

* عدم تمكن الفرق الرومانية والفرق الفارسية من سهولة الاستيلاء عليها.

* استفاد تجارها من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقاء الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب.

* استغل رجال السياسة بذكاء موقعها الإستراتيجي من حيث إنها بين دولتين كبيرتين متنافستين: فكانوا يقفون مرة بجانب رومة، ومرة بجانب الفرس، مما جعلهم يحافظون على ميزان القوة ويستفيدون من الحياد.

وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل في الصحراء على إذن بمرور قوافلهم بسلامة. وكانت النتيجة أن أصبحت (تدمر) من أكثر المدن ثروة في الشرق القديم.

وأصبح رئيسها - (أذينة زوج زنوبيا) يحوز لقب (زعيم الشرق) ونائبا للإمبراطور غالينوس الروماني - غالينوس في الشرق، وذلك بعد أن خاض معركة ضد الغرب ليخلص «فاليران» الإمبراطور الروماني، الأسير لدى الفرس، فهزم الفرس، ولم يستطع تخليص الإمبراطور الأسير، ثم اغتيل في ظروف غامضة.

تولت زنوبيا أو الزباء من بعده، وكانت طموحه، فوسعت من دولتها حتى أصبحت تشمل سورية، وجزءا من أسيا الصغرى، وشمال الجزيرة العربية، ويقول المورخون : كادت تكون إمبراطورية. ورعت الثقافة اليونانية وجمعت تاريخا للشرق. يقول فيليب حتي: وكانت حضارة تدمر: حضارة غريبة فهي مزيج من عناصر سورية ويونانية وفارسية، ولا شك أن السكان الأصليين كانوا قبائل عربية وبقيت أكثرية اللسان عربية.

ويصف م . رستوفتزف قوة دولة تدمر فيقول[1] :

وكانت الحال في المشرق أسوأ منها في المغرب فقد غزا الفرس سورية وهددوا آسية الصغرى فسار فاليران لصدهم وبالقرب من أديسا (الرها) هزمه هزيمة نكراء ووقع في أيدى أعدائه (٢٦٠م) ونجت آسية الصغرى وسورية من قبضة فارس، أنقذ الأولى (آسية الصغرى) كاليسنوس– أحد قواد الرومان– الذى طرد الفرس. وأنقذ الأخرى: (سورية) أوديناثوس شيخ تدمر الذى أنزل الهزيمة بالغزاة عندما حاولوا عبور الفرات في عودتهم إلى فارس.

لذلك اعترف جالينوس بأوديناثوس الذى استمر يحكم سورية وجزءا من آسية الصغرى ، وبقى يحمل لقب الإمبراطور حتى قتل ٢٢٦– ٢٦٧م فخلفه على العرش ابنه فابالاثوس وقد قامت أمه زنوبيا بأعباء الحكم نيابة عنه وكانت إمبراطورية تدمر في الشرق أكثر رخاء وأشد تماسكا تحت حكم زنوبيا وابنها فابالاثوس وقد لاحت بالتدريج لزنوبيا فكرة إنشاء امبراطورية رومانية شرقية مستقلة يحكمها أغسطس مستقل.

ولكن أوريليانوس – الذى تولى زمام الأمور بعد كلوديوس – الذى لقى حتفه ضحية طاعون عصف مرة ثانية بصفوف الرومان سنة ٢٧٠م– وبعد أن هزم القوط سار إلى الملكة زنوبيا واستطاع بعد حملة اكتنفتها الصعاب من كل جانب أن يعيد سيادة رومة على الشرق وأن يفتح مصر مرة ثانية وأن يستولى على مدينة تدمر ويأسر حكام الإمبراطورية التدمرية على الرغم من المدد الذى جاءهم من الفرس.

٣- دولة الغساسنة :

ودولة الغساسنة : (الحارث بن جبلة بن الأيهم) التى قامت في خلال القرن الرابع الميلادى إلى أن جاء الإسلام.

منح الحارث من قبل «بوستنيان» لقب «فيلارك» أى رئيس قبيلة واستطاع أن يهزم المناذرة في معركة قنسرين التى تعرف بـ «يوم خليمة».

وقام الحارث في عام ٥٦٣ بزيارة بلاط يوستنيان حيث ترك تأثيرا عميقا على أفراد حاشيته كشيخ بدوى مهيب.

(١) تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجماعى والاقتصادى (١ : ٥٢٧)

ويقول المؤرخون : وكان موظفو البلاط بعد سنوات من هذا الحادث حين يريدون أن يهدئوا الأمير المعتوه «يوستين» وهو ابن أخ يوستيان ووريثه يتفوهون بالقول:

اسكت : وإلا استدعينا الحارث.

وحصل الحارث أثناء وجوده بالقسطنطينية على تعيين يعقوب البرادعى[١] أسقفا على الكنيسة فكان يعقوب من أتباع نسطور ومذهبه القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح .

وأصبحت بصرى - التى بنيت كاتدرائيتها فى عام ٥١٢ - العاصمة الدينية، فى المنطقة ووصلت المملكة حينذاك ذروة اتساعها إذ كانت تمتد من قرب البتراء إلى الرصافة شمالى تدمر وتشتمل : على البقاع ، والصفا، وحران.

٤- دويلة المناذرة:

وقامت فى بداية القرن الثالث الميلادى فى البادية المحاذية للفرات فى منطقة الكوفة دويلة عربية مهمة هى مملكة الحيرة، وأصل أهلها وملوكها من عرب اليمن، عرفوا بالمناذرة واللخميين ، وتقع الحيرة، عاصمتها على بعد نحو ٣ أميال جنوب الكوفة، وكان أهلها نصارى على المذهب النسطورى وكان ملوكها موالين أو محالفين لملوك الدولة الساسانية، ومن ملوكها الأوائل امرؤ القيس الأول (القرن الرابع الميلادى) والنعمان الأول ابن امرئ القيس، والمنذر الأول (٤١٨-٤٦٢) ابن النعمان ، وقد عظم فى زمنه شأن الحيرة، والمنذر الثانى (٥٠٥-٥٥٤) وهو الذى سماه العرب «ابن ماء السماء» ، وأعقبه ابنه المسمى: عمرو بن هند (٥٥٤-٥٦٩) الذى خلده شعراء العرب من الجاهلية مثل: طرفة بن العبد، والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم. وانتهى حكم السلالة فى حكم النعمان الثالث الذى يكنى «أبو قابوس» (٥٨٠ - ٦٠٢) ، صاحب النابغة الذبيانى، حيث صار الملوك الساسانيون

---

(١) وكان الحارث مسيحيا يعقوبيا، وقد دافع عن مذهبه بحماسة وتوفيق عظيمين فى وقت كان التعلق بأهداب هذا مجازفة خطيرة، كما كان لايدخر وسعا فى الدفاع عن أصحاب الطبيعة الواحدة وتحريرهم من الاضطهاد أن يقع عليهم، وبفضله توطدت دعائم الكنيسة اليعقوبية بعد أن كانت مهددة بالخطر: نولدكه: أمراء غسان ص ١٤ ترجمة داهندى جوزى ود قسطنطين زريق .

يتدخلون فى شئونها وأخيراً انحاز عرب الحيرة إلى خالد بن الوليد فى فتحه العراق(٦٣٣)[1].

وقد بذلت داخل الصحراء نفسها محاولات للتنظيم السياسى كدولة كندة التى وحدت تحت حكمها عدة قبائل من وسط الجزيرة.

ولكن ظل البدو فى جملتهم أحرارا من مثل هذه التنظيمات السياسية فلم يطلبوا وحدة فوق قرابة الدم التى وحدت بينهم فى قبائل ، وإنما كانوا يجوبون بلادهم الرملية الشاسعة مستقلين بعضهم عن بعض. وقد حكت لنا الرواية الإسلامية ذكريات تنافسهم وتصارعهم. «فأيام العرب» مملوءة بحروب وثارات نشأت فى الأصل عن نزاع على الماشية أو المراعى، أو عيون الماء، وهنا تبرز شخصية البدوى حية نابضة بصفات الشجاعة والكبرياء والإصرار والحيلة وهى صفات كان لها دور لا يستهان به فى النظام العظيم الذى انبثقت عنه أحداث الجزيرة العربية فيما بعد، وقد قامت مدن فى واحات الحجاز خاصة وكان طريق القوافل المتجه إلى الشمال يسيطر عليه مركزان يغلب عليهما طابع التجارة هما: يثرب التى سميت المدينة فيما بعد ومكة إلى الجنوب منها، وكانت تحكم مكة حكومة قلة قوامها التجار.

وكانت تفد عليها فى أيام الأسواق والمواسم الدينية أفواج العرب من جميع أنحاء الجزيرة فلم يكن فى وسط الجزيرة رقعة تضارع مكة مركزا لاجتماع القبائل واختلاطها بعضها ببعض[2].

من هنا يتبين لنا، أن المنطقة العربية تعرضت لتيارات: من الرومان تارة، والفرس أخرى، وبيزنطة الثالثة الأخيرة، وفى هذا ما ينفى القول القائل: إن العرب كانوا فى عزلة عن التاريخ، ويثبت لنا: أن المنطقة شهدت حضارات تعاقبت عليها، وشاركت فى أحداثها السياسية، والاقتصادية ومظاهرها الاجتماعية، أيضا، غير أن هذه التأثيرات بتياراتها لم تستطع أن تلغى شخصيتها العربية، إنما كانت طلاء ظاهرا لم يلبث أن انجلى عنها. أما لماذا انجلى عنها؟ فسوف نعرض له .

---

(١) مقدمة من تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر ص ٦١١ منشورات دار البيان .

(٢) يراجع الحضارات السامية القديمة ص ٢٠٤ .

وبعدما كانوا يرون أن العرب حجزهم التاريخ عن حضارته، أصبحوا يرون، من خلال ما استجد أمامهم من وثائق تاريخية وصلوا إليها عن طريق الحفائر والآثار: أن المنطقة تعرضت للتيارات المختلفة: من غزو يونانى، إلى رومانى، إلى فارسى، إلى بيزنطى، وبالتالى «أصبحت قادرة على العطاء، وأصبح الإسلام - فى نظرهم - هو ثمرة هذا العطاء» وتلك قصة سنعرض لها فيما بعد.

وأصبح الإسلام يتكون -فى نظرهم - من عدة تراثات:

* التراث الهلينستى: أى التراث الشرقى الغربى الذى ألفت بينه مدرسة الإسكندرية حاضرة البحر المتوسط .

***التراث الدينى: العبرى: اليهودى و المسيحى**

نبدأ بالتراث الهلينى وموقف الشرق منه.

مراكز الثقافة الهللينستيه :

لقد عرضنا للأحداث السياسية التى تعرضت لها المنطقة العربية والدويلات التى قامت بها على أزمان متعاقبة من التاريخ وكيف كانت تحتويها إحدى الدولتين العالميتين حينذاك إما الفرس أو الروم.

وكان الهدف الذى كانت ترمى إليه الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية هو العمل على الحيلولة دون قيام أى نظام سياسى قوى فى الشرق يخشى أن يكون خطرا على إحدى الدولتين وكلما زادت القلاقل والمتاعب في الشرق كان هذا أفضل لصالحها، وكلما تضاعف عدد الدول المستقلة كان هذا أجدى وأنفع لرومة وكلما زادت الابتكارات وتعقدت الأمور فى الشئون الداخلية لكل دولة من دول الشرق تضاعف أمل كل من الإمبراطوريتين فى أن تصبح سيدة الموقف والقوة المتحكمة فى مصير الشرق بأسره[1] .

وإن أهم ما يقال عن هذه الدويلات من حيث مظهرها السياسى: أنها كانت دويلات تزدهر بازدهار مرفئها التجارى، وتندثر باندثاره، وكانت ترى تبعيتها لإحدى

---

(١) تاريخ الدولة الرومانية الجتماعى والاقتصادى (١ :٢٤) تأليف م رستوفتزف ترجمة : زكى على، محمد سليم سالم مكتبة : النهضة المصرية.

الدولتين ولاء سياسيا واجبا، وكان هذا الولاء يتغير من حين لآخر، وعامل التغير الأساسي في ذلك: هو الظروف الدولية للدولتين الكبيرتين، وأما هذه الدويلات فعليها أن تشكل ظروفها تبعا لهذا التغير دون إعلان رغبتها في شكل التبعية.

وترتب على ذلك – من وجهة نظرنا– أن أصبحت ميول هذه الدويلات العربية مرتبطة بميول الإمبراطور الشرقي، أو الروماني، وبدلا من أن يكون الولاء للوطن: أصبح الولاء للإمبراطور، وفي هذا ما جعل الأسر الحاكمة لهذه الدويلات تسعى – نفاقا سياسيا منها– إلى التشبث بمظاهر حضارية ذات غشاء رقيق، لم يلبث أن تكشف عن بداوة وسعى إلى حياة الترف بشتى أشكاله وألوانه وصنوفه.

وفي هذا ما صرفها عن دراسة مكوناتها الحضارية، وعن إبراز عوامل شخصيتها الإنسانية ، وعن الدعوة إلى توظيف لغتها، ، ورفع أدبها، ومناقشة قضايا وطنها، والبحث عن حرياتها الإنسانية، وحريتها في العلاقات السياسية.

لذلك كنا نراها: دويلات متعاقبة في سلسلة التاريخ الإنساني، تظهر «دولة البتراء» ، ثم تغيب مع غياب الأسرة التي حكمت، فإذا ما أخطأت سبيل ترضية الإمبراطور، كان عليه أن يغطي عليها، دون أن يغيب نجم الإمبراطور السياسي، ولأول مرة رأينا دويلات تنتحر انتحارا سياسيا نتيجة القلق السياسي الذي انتابها.

ثم تظهر دولة (تدمر) لتعيد التاريخ نفسه والأسلوب نفسه ويقضي عليها بالوسيلة السابقة نفسها.

إلى أن جاء الإسلام فاحتوى الدولتين العالميتين: سياسيا، وفكريا، ودينيا، وشفى ما بهما من علة القلق السياسي، وكان الإسلام بما أحدثه من تغيرات، على المستوى العالمي قد أظهر بمبادئه الرفيعة حقيقة الإنسان عندما ضل عن فهمها من خلال ما حوله من أفكار دينية ماجت بها منطقته، فنلاحظ أنه كان في المنطقة تغييرات سياسية، ولكن غير محددة من الوجهة السياسية. فتارة إلى الشرق وتارة أخرى إلى الغرب، فإذا نادت دولة الشرق الكبرى فارس بثقلها على هذه الدويلات تغمر

مجرى علاقاتها إلى الرومان وهكذا، فهناك حقيقة تغييرات سياسية طرأت على المنطقة غير ثابتة الهدف السياسي، والوجهة الحضارية،ويضاعف ذلك: عدم وعي الأسرات التي حكمت فيها بهدفيها السياسي، والحضاري، وذلك مما عجل بانتحارها السياسي.

وحال العرب اليوم مثله بالأمس، دويلات ظهرت في المنطقة العربية وازدهرت لعامل اقتصادي لا دخل للعبقرية العربية فيه، وسيطرت عليه، إحدى الدولتين العالميتين، فظهرت المنطقة بمظهر حضاري غربي، ورجع العربي من غير أن يدري إلى بداوته، فكره العمل، وبات على ذلك منعم البال بثرائه المادي، فَشَلّ بذلك من عبقريته، ومن تفهمه لمستوى حضارته، وكذلك أسرات حاكمة يرى فيها، أنها مسئولة عن توجيهه لما تحب وترضى، فمفهوم التعاون العربي نراه لا يخرج عن معناه القبلي: وهو الأسرة لا الوطن وهو الأحق بالرعاية والتقديس.

وفي ذلك ما يشير إلى مستقبلها إن ظلت على هذا الحال كلقمة طيبة المذاق يعافها الذوق عندما يتغير مذاقها أو يتغير مذاقه على حد سواء، لذلك كان على العربي أن يبحث عن شخصيته وأصالته، وأن يرصد أموال البترول لصالح ورعاية السلوك الحضاري النابع حقيقة من الإسلام، وعليه يتحدد مظهرنا الحضاري اللائق بعبقريتنا ومنهجنا الإسلامي.

وإن وضعنا – عربا ومسلمين– في حضارتنا الحديثة لمؤسف، إذ ما زلنا بعيدين عن المشاركة في بناء الحضارة، وإن ما يبدو علينا من مظاهر هو مظهر استهلاكي لابنائي، وفي ذلك تَدَهْوُر وتَدَلّ، والعربي –تاريخيا– محسود حينما حباه الله برسالة الإسلام – وحيا مقدسا – لا مظهر لعبقرية العربية في تأليفه، وهو العامل الجوهري للحضارة الإنسانية، وحينما منحته أرضه –وستمنحه– بترولها وهو عامل جوهري في قوة الحضارة المادية – لم يكن فيه مظهر للعبقرية العربية إنما هو منحة إلهية أيضاً.

وفي كلتا الحالتين: استحق العربي دوره التاريخي والحضاري. لكن هل قام بعبء هذا الدور، إنه ما زال يتسول التكنولوجيا من الغرب!!

ولنرجع إلى حديثنا عن المدارس الهلينستية التى انتشرت فى المنطقة فنقول:

ما عرضناه كان مقصورا على الجانب السياسى فقط. ترى هل يكون ثمة تغيير من الناحية الثقافية؟ أو بمعنى آخر: هل اطردت الحياة الثقافية غير متأثرة بالتغيير السياسى؟

ولكى نجيب عن هذا السؤال: نقدم بين يديه شيئا عن المراكز الثقافة الهلينية في المنطقة العربية،ولون الثقافة التى غزت هذه المنطقة،ونلاحظ من مقتضى الأحداث السياسية أن الشرق أصبح – والمنطقة العربية فيه– خاضعا إلى حد كبير للنفوذ الثقافى الإغريقى، وكما نشأت عواصم سياسية نشأت أيضا بجانبها عواصم ثقافية.

يقول م. رستوفتزف:

ويمكن أن نصف المظهر الذى كان عليه العالم القديم قبل نشوب الحروب الأهلية فى رومة وإيطالية على الوجه الآتى: ففى أثناء المدة التى يطلق عليها اسم العصر الهلينستى أخذ مركز الحضارة فى التحول تدريجيا من الغرب إلى الشرق فحلت الإسكندرية فى وادى النيل وأنطاكية على نهر العاصى،وبرغامة على نهر كايكوس Caicus محل أثينا فى الصدارة والأسبقية فى المدنية»[1]، وكان من أولى العواصم الثقافية: مدرسة الشرق الكبرى:

مدرسة الإسكندرية حاضرة البحر.نظام فلسفى جديد:

وكما هو واضح من اسمها، أنها تحمل اسم ذلك الفتى الإغريقى بانيها ومؤسسها، الذى خضعت لنفوذه الدنيا، وهو لما يزل فى عقده الثالث ذلك هو : الإسكندر الأكبر، الذى أسسها سنة ٣٢٣ ق.م وقد ظل اسمه عليها إلى الآن.

وقد أنشأ خلفاؤه من بعده – فيها: أكاديمية يونانية تناظر بزهوها العلمى المدارس الأثينية، بل وتتفوق عليها لما احتوت عليه من تراث شرقى، وتراث يونانى،

(١) يراجع تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى (١ :١٦) م ستوفتزف . ترجمة ومراجعة: زكى على، محمد سليم سالم – مكتبة النهضة العربية .

وأصبحت موئلاً للعلماء والمفكرين الذين وقع عليهم الاضطهاد، ولا سيما بعد ما أغلقت أثينا فانتقلت إلى الإسكندرية بتراثها وفلاسفتها، مع اهتمام حكماء مصر بها أيضاً، فانتقلوا من معابدهم إليها لما لقيته من حفاوة وتقدير، استطاعت بهما أن تكون وريثة عين شمس ووريثة أثينا الحضارى بين الحضارتين: الاغريقية والسامية الذى بدأه الإسكندر المقدونى بفتوحاته، عن نشوء حضارة جديدة تعرف بالحضارة الهلينستية تقابلها الحضارة الهلينية والأغريقية الخالصة، وأصبحت الهلينستية الحضارة التى تميزت بها بلدان الشرق الأدنى فى القرون الثلاثة التى سبقت المسيحية وبعدها، ومن هنا جمعت بين خصائص الثقافة الشرقية، وخصائص الثقافة الأغريقية، وأصبح من الصعب أن يحتفظ الفكر اليونانى بخصائصه، أو أصالته، كذلك أصبح الفكر الشرقى يميل إلى الاندماج فى الطابع الهلينى، والهلينى فى الشرقى، وبذلك أصبح فكرها عالمياً. ومع ذلك فالمحيط اليونانى فى الإسكندرية فقد الأصالة التى كان يتميز بها الفكر الأثينى، واتخذ طابعاً عالمياً وظهر فيه ميل ظاهر نحو الفكر الشرقى. وعلى الرغم مما كانت تدعيه الثقافة اليونانية القديمة من الأصالة لم تكن خالية تماماً من المؤثرات الشرقية، ويمكن أن نرجع الكثير من مظاهر الحياة والفكر اليونانيين إلى أصول مصرية وبابلية . هذا وينبغى أن نلاحظ أنه: على الرغم من أن الإسكندرية كانت ذات أثر بارز جداً فى تحول الفكر اليونانى فى العصر المتأخر، لم يكن مثل هذا التحول وقفا عليها، ولم يكن محليا، بل لم يكن قوميا أيضاً، وإنما كان تحولاً عالمياً. وقال أوليرى: إن الحياة اليونانية العالمية الجديدة التى ازدهرت بعد عهد الإسكندر كانت جوانب متعددة أنتجت نوعاً من الأدب خاصاً بها، وأخرجت نقداً أدبياً وسارت قدما بالفلسفة منتهجة فى أكثر الأحيان سبلاً جيدة، كما أنتجت بحوثا جديدة فى الطب، والفلك، والرياضيات والفروع الأخرى من العلم، فكل هذه متداخل بعضها فى بعض لأنها كلها ذات منزع متماثل، وكلها تتحول تحولاً طبعياً من ثقافة اليونان القديمة.

وفى النهاية يكفى القول: أنها ألفت بين التراثين، وأصبح ما يعرف فى تاريخ الفكر الفلسفى: بالهلينستية يرجع إلى نشاطها العلمى تاريخا واصطلاحاً .

الأفلاطونية المحدثة:

وفي القرن الثالث الميلادي انتقل المركز الفكري العالمي من أثينا وروما إلى الشرق، كما انتزع زعامة الفكر الفلسفي جماعة من أصحاب الثقافة الهلينية في الأناضول وسوريا ومصر وغيرها من بلدان الشرق الأدنى، وهكذا شهد القرن الثالث انحلال الأنظمة الفلسفية القديمة وتقهقرها بمثابة تمهيد السبيل لبروز أنظمة جديدة توفق بين الفلسفة الأغريقية والفكر الشرقي كما مهدت السبيل أيضاً أمام انتصار المسيحية الحاسم.

كانت الأفلاطونية المحدثة نظاماً من هذا النوع، وكانت محاولة للتوفيق بين نظريات أفلاطون، وأرسطو من جهة، وبين بعض الآراء الدينية الشرقية وفي ذلك الجو الفكري الذي كان شائعاً في منطقة الشرق الأدنى استطاعت الأفلاطونية المحدثة أن تكون من ثنائية أفلاطون التي تنطوي على «المثال» «والمادة» الفكرة القائلة بأن الله والطبيعة شيء واحد، وأن الإنسان والكون المادي ليسا سوى مظهر من مظاهر الذات الإلهية، وهو المذهب المعروف بمذهب «وحدة الوجود».

وكان من أنصار الأفلاطونية المحدثة: أربعة من سكان الشرق الأدنى: .

١ - ساكاس (أمونيوس).

يقول عن نفسه: إنه من أهل الإسكندرية، ونشأ مسيحياً، وتفقه في الدين على يد والديه، ولكنه عندما بدأ يدرس الفلسفة تحول عن دينه وصار وثنياً.

٢ - أفلوطين: وأفلوطين من أسيوط، ولد حوالي ٢٠٠-٢٧٠ م. ولأفلوطين عدة مؤلفات كتبها على حقب:

الحقبة الأولى: كتب واحداً وعشرين كتاباً من تاسوعاته.

الحقبة الثانية في روما: كتب في اثنائها أربعة وعشرين كتاباً.

الحقبة الثالثة والأخيرة: كتب تسعة من الكتب .

وانتهت أعمال أفلوطين المصري بتلمذة «فيرفوريوس» الصوري له.

٣- فرفوريوس: توفي ٣٠٥، وهو الذي شرح نظريات أفلوطين وأشاعها فيكون بذلك المؤسس الأول لنظام فلسفي ظل قروناً يستأثر بالفكر الأوربي الفلسفي .

٤- يمبلنجوس توفي: سنة ٣٣٣ تلميذ بارز لفرفريوس سوري المولد، ولم يسر «يمبلنجوس» على خطى الفلاسفة من قبله الذين كانوا يشدون الرحال سعياً وراء العلم، بل بقي يعلم في موطنه أتباعه الفلسفة الفيثاغورسية. أخذ «يمبلنجوس» يعزو إلى الأعداد معنى اسمى من المعنى الذى لها فى علم الرياضيات، كما أنه عدل كثيراً فى آراء معلمه بالنسبة للصوفية، هذه الأفكار والآراء المجموعة بعضها مهلهل لقيت في مدينة الإسكندرية من يأخذ بها وينظمها كي تصبح نظاماً فلسفيا تبعا لميول هذه المدرسة في جعل الفكر الأغريقي على أنواعه فكرا شرقيا، لقد اصطحبت هذه المدرسة في هذه الفلسفة كثيرا من الآراء التي تعزى إلى «فيثاغورس» وإلى أتباعه، وأضفت عليها تفسيراً صوفياً، وإلى «فيثاغورس» يعزى مذهب التقمص، والمذهب القائل بأن الحياة الأرضية ليست سوى وسيلة لتطهير النفس.

فيلو الإسكندرى ونشأة الفلسفة الدينية والأصول العرفانية:

إن تفاعل اليهودية مع الفلسفة الإغريقية يجسدها «فيلو» اليهودى الإسكندرانى حوالى ٢٠ ق.م إلى ٤٠ بعد الميلاد، الذى كان من أوائل وأعظم الفلاسفة اللاهوتية اليهود. كان يضع نصب عينيه الدفاع أمام فلاسفة الإغريق عن الوحي الإلهي، وأن كتب التوراة الخمسة كتب موحى بها من الله؛ وكان هذا المبدأ مجهولاً لدى فلاسفة الإغريق، كذلك كان «فيلو» يقول بثنائية الإنسان أى «أنه مادة وروح»التى نادى بها أفلاطون؛ وأن الجسد هو سجن الروح، التى تتوق أبداً إلى الخلاص منه والرجوع إلى الله؛ والله فى نظر «فيلو»: لا يحده عقل، وهو أسمى من كل معرفة؛ أما المادة فلها حدود ولها نهاية؛ ولذا وجب أن يكون هناك وسيط بين الحدود واللامتناهي، وهذا الوسيط بين الله وبين العالم هو: «الكلمة» التى وصفها بأنها أول مولود لله: إنها الإله الثانى. لقد كان «لفيلو» أثر عميق فى «اللاهوت» المسيحى والفكر المسيحى. وعلى منهج «فيلو» الإسكندرى.هيأت مدرسة الإسكندرية الذهن البشرى لتقبل النظام الفلسفى الجديد وانصرافه عن نظام الفلسفة الإغريقية

القديم، الذى كان يعتمد على العقل وحده، وكان سبباً من أسباب خذلانه؛ وعلمت المدرسة الإنسان بأنه: لا يستطيع أن يعيش بالعقل وحده، ومن هنا أقبل الإنسان على النظام الفلسفي الجديد الذى كان يعتمد على احتضان الديانات الشرقية التى تكتنفها الأسرار والروحانيات؛ ومن أهم هذه الديانات الشرقية :

* عبادة سيبل؛ وهى أصلاً : الآلهة الأم لفريجيا.

* وعبادة إيزيس فى مصر .

* ومترا فى فارس .

مثل هذه الديانات تنطوى على أسرار لا يمكن تفسيرها ولا تعليلها، فقد اقتضى الأمر أن يكون أتباع هذه الديانات من الخلص الذين كرسوا أنفسهم لدخول حظيرة الأسرار؛ والمبدأ الأساسى الذى ترتكز عليه الديانات الروحية هى: أن التوصل إلى معرفة الله لا يتم عن طريق العقل ولا عن طريق الحواس العادية بل عن طريق الإيحاء والتأمل والإحساس؛ والغاية القصوى التى تسعى إليها هذه الديانات هى: الاتحاد بالله المخلص.

وتعد جميع الأديان الروحية الغيبية أتباعها بنيل السعادة على الأرض، كما تضمن لهم دخول الجنة فى الحياة الأخرى.

وتختلف المسيحية عن الأديان الروحانية فى : أن تلك الديانات كانت وقفا على فئة خاصة مؤهلة للاطلاع على أسرارها؛ لكنها غير مأذونة بالبوح بأسرارها، وكان دخول التابع إلى حظيرة الأسرار يقتضى إعداده إعدادا دينياً خاصاً؛ لأن الممارسة الدينية كانت سراً، فمن العسير أن تعرف شيئا عن الطقوس والشعائر التى كانوا يتبعونها عندما يدخلون عضوا جديداً إلى حظيرة الأسرار، فقد كان الكهنة يحتفظون بتلك الأسرار ويغالون فى الحفاظ عليها. ونذكر على سبيل المثال: كان الدخول فى ديانة «مترا» يتم على سبع مراحل : فكان على طالب الدخول إلى دين الجماعة: أن يمر فى دور تطهير، إما بالماء أو الدم، وهذا له ما يقابله بالمسيحية وهو: العمادة، ثم يتلو هذا الاتحاد بالإله فى إشراك المريد فى حفلة طعام دينية، يتبع ذلك

تزويد المريد ببعض أسرار المعرفة، التي كانت تقوده إلى الرؤيا، كانت «إيزيس» تظهر للعباد وتتكلم معهم. وكان الإغريق يقومون بطقوس العربدة التي كانوا يمارسونها على شرف الآلهة الأم «سبيل» وعشيقها. كما أخذوا عن الفينيقيين أعباءهم الصافية التي كانوا بها تكريماً «لعشتروت» وعشيقها «ادونيس» ثم أصبحت هذه الإلهات وعشاقها إلهات إغريقية رومانية؛ فحنان الأمومة الذى كان يتجسد فى «إيزيس» جعل من هذه الألهة آلهة محببة إلى نفوس الناس رجالاً ونساء على السواء.

وقد انتشرت عبادة «إيزيس». و«أوزيريس» فى العهد الرومانى، وراقت للناس أكثر مما انتشرت فى العصر الهللينى ففى أثناء القرنين الأولين للميلاد كان للآلهة «إيزيس» مزارات وهياكل منتشرة فى صقلية وسردينيا وإيطاليا؛ ومنذ القرن الثانى للميلاد وما بعده كانت ملة «إيزيس وأوزيريس» من ألدخصام المسيحية وفى الفترة القصيرة التى انتعشت فيها الوثنية فى روما ٣٩٤. كانت «إيزيس» أم الآلهة «وميترا» يحتلان المرتبة الأولى.

يقول حتى: وفى النهاية أصبحت «إيزيس» بمثابة «مريم العذراء» كما صار «هورس» قرين «المسيح» . فكانت عملية دمج أكثر منها عملية تنحية وإزاحة. وفى القرن الثالث كان الناس يتأرجحون فى إيمانهم بين الإلهة «ميترا» والسيد «المسيح»

ولكن المسيحية ما فتئت أن انتصرت فى القرن الرابع انتصاراً حاسماً على دين «ميترا» وتجمل فيما يلى خصائص الفكر الإسكندرى ما دام هو الذى كان يغذى المراكز الثقافية وهو فيما يلى:

أولا: تتميز هذه الخصائص بالاتساع الفكرى، واتساعها الفكرى وإن كان ميزة أبعدت عنها تهمة التعصب لثقافة دون أخرى. جعلها لا تتعمق فى القضايا بقدر ما حملت عبء التوفيق بين القضايا المتنازعة.

ثانيا: ركزت على المنهج التوفيقى أو التلفيقى: فربط أولا: بين المدارس الفلسفية القديمة. ثم ثانيا: بين أفكار الفلسفة القديمة وفكرها الحديث، هذا من جانب موقفها الفلسفى، ثم من ناحية موقفها من الدين حاول بعضهم – مثل فيلون الإسكندرى– أن يوفق بين توحيده الدينى، واتجاه الفلسفة، ثم غالى فى اتجاهه عندما

أخذ يؤكد اتجاه الفلسفة اللاهوتي وحملها على تأكيد قضايا الدين الذى كان يعتنقه وهو الدين اليهودى[1].

ثالثا: أبرزت ثنائية الوجود إبرازا منطقياً، وجهتها إليه الروحية الشرقية من جانب، والمادية الهلينية من جانب آخر، فعندما كانت تحاول المزاوجة بين تراث يتميز بالروحية، وتراث يتميز بالمادية صادفتها هذه الثنائية فأبرزتها.

رابعاً: التأكيد على الحقيقة المطلقة التى وافقت ميلها إلى الطابع اللاهوتى فحولت الفكر إلى تلك الغاية.

خامسا: الملاءمة بين اليهودية والفلسفة التى حمل عبئها فيلون.

سادسا: الملاءمة بين المسيحية والفلسفة وقد حمل عبئها أفلوطين ورجال الكنيسة وكانت تلك المحاولة بدء الانشقاقات الحقيقية فى المسيحية.

هذه الخصائص - وإن كانت تبين المسئولية الجديدة التى حملتها مدرسة الإسكندرية كانت تتسم بسعة الأفق، غير أن منهجها هذا - وهو المنهج التوفيقى- شغلها بقضايا عسيرة الحل. وحقيقة الأمر: أنها شاركت وأعطت الكثير من الحلول التى تتسم بالطرافة والمتعة العقلية، غير أنها لم تكن على درجة عقلية مقبولة، لا من جهة الدين ولا من جهة الفلسفة.

وعلى الرغم من هذه المهمات نراها بدت عاجزة مقعدة عن نواح أخرى: وذلك عندما صرفتها تلك القضايا عن مشاكل واقعها، وعن تحمل مسئولية وطنها، وقضايا تاريخها، وأصبحت مع هذا الازدهار التاريخى: توصم بالعزلة وهى حاضرة الفكر والثقافة.

وما انتهت مدرسة الإسكندرية إلا بعد أن خطت منهج خلط الدين بالفلسفة، أى المقدس بغيره، وكانت المسيحية باستسلامها لهذه الخطة نموذج هذا الخلط. وتقبلها الرومان على أنها أقرب الصور لوجهة نظر «أنطيوخوس» عندما أراد أن يحكم الشرق بسياسة واحدة، ودين واحد؛حيث تبنت مدرسة الإسكندرية وجهة نظره هذه

---

(١) تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها فى الفصل الثالث عشر من الأفلاطونية المحدثة. وللاستزادة راجع : الفكر العربى ومكانته فى التاريخ، دلاس أوليرى فى ترجمة تمام حسان، والفكر العربى للاستاذ إسماعيل مظهر وهو يعتبر ترجمة لديلاس أوليرى ترجمة فيها تصرف أدبى كذلك الآراء الدينية والفلسفية، لفيلون الإسكندرى تأليف إميل برتيه ترجمة د. محمد يوسف، ود . عبد الحليم النجار..

وراحت تنسج بخيوطها تلك الصورة، بيد أن صورة المحاولة باتت على شاكلة (أبى الهول) : صورة إنسان على جسم حيوان رابض، إنها تصورات مدرسة عمن شمس عن الوجود نفســه، وعن دين (أخناتون) أصبحت المسيحية تحمل اسم الدين من غير جوهره، وتحمل اسم الفلسفة من غير منهجها، وكان ذلك من أخطر نتائج مدرسة الإسكندرية ومن أشيع مناهجها.

يقول: جيبون:

لقد أهمل الأفلاطونيون المحدثون: المعرفة التى تتناسب مع وضعها وقدرتها، كما أهملوا: حقل علم الأخلاق، والطبيعة، والرياضة، وذلك فى الوقت الذى اجهدوا فيه قوتهم فى المناقشات اللفظية فى الميتافيزيقا، وحاولوا: أن يكشفوا عن أسرار عالم الغيب، ودرسوا أرسطو، وأفلاطون ليوفقوا بين آرائهما فى موضوعات لم يكن أحد هذين الفيلسوفين أقل جهلا بها من بقية بنى آدم.

هذه هى الصورة العامة لنوع الثقافة التى تسلمتها المراكز الثقافية العربية، فما الصفة العامة لمراكز الثقافة التى انتشرت فى المنطقة العربية.

١- مدرسة إنطاكية:

كانت إنطاكية بمثابة حلقة الاتصال بين العالم القديم والعالم الحديث، لذلك كانت مركز التقاء الحضارتين، الإغريقية، والشرقية، وكانت تزخر بالأغريق والمستشرقين، والشرقيين المتأغرقين من جميع الطبقات، وعلى مختلف درجات التعليم، فقد أصبحت تشتمل ليس على مجرد المذاهب الدينية الأغريقية القديمة الراسخة لعبادة «زيوس»، «أبولو» وباقى جمهرة هذه الآلهة، بل كانت تشتمل كذلك على المذاهب السورية لعبادة «بعل» Baal والإله الأم، فضلا عن الديانات ذوات الأسرار بعقائدها عن الخلاص وعن الموت والبعث وعودها لما بعد الحياة.

كذلك شهدت التغييرات التى عرفت بها الحقبة الأخيرة من العصر الهلينستى حينما كانت المذاهب الدينية والفلسفية القديمة آخذة فى التحول إلى معتقدات فردية تبعا لانصراف الناس إلى التماس العزاء الدينى عن مشاكلهم ومطامعهم

الشخصية. وأصبح مثلها مثل المراكز الأخرى التي كانت قد ازدهرت فيها الديانة والفلسفة الهلينستيتان وكان من دعاتها الأول: القديسان: نيقولاوس، وبرنابا.

نيقولاوس وظهور الهرطقة في أنطاكية

وطبقا لبعض المصادر كان نيقولاوس الأنطاكي وهو الذي كان من أوائل المهتدين وأحد الشمامسة السبعة في القدس (أعمال الرسل ٦:٥) ابتدع هرطقة باكرة عرفت باسمه.

والظاهر أن هذه الحركة المنسوبة إلى نيقولاوس كانت ترمي إلى إيجاد حل وسط بين المسيحية والعادات الاجتماعية السائدة وذلك بالتوفيق بين ممارسة عادات وثنية معينة والانخراط في سلك الطائفة المسيحية.

والهرطقة المنسوبة إلى نيقولاوس كانت - من بعض الوجوه- الطليعة لمذهب الغنوسطية الذي كان يفوقها إلى حد بالغ من حيث بعد الأثر وخطورة الشأن وهو مذهب القائلين: بأن الخلاص يتم بالمعرفة دون الإيمان .

ازدهر هذا المذهب في جو ديني وفكري في أنطاكية، حيث كان الاختلاط بين جماعات أفريقية وشرقية متباينة الجنس والدين يهيئ مجالا واسعا لدراسة ونشر مذاهب جديدة دينية، وفلسفية.ولما كان مذهب الغنوسطية مذهبا يتوسط بين الفلسفة الوثنية والدين، وكانت أصوله إغريقية، إلا أنه اقتبس بعض الآراء المسيحية، وبعض الآراء اليهودية، وكان ذلك المذهب في وضع يهيئ له منافسة العقيدة المسيحية. فقد كان يَعِدُ بمعرفة التدبير الإلهي للكون وبالخلاص. بما في ذلك الأمان من قوى الشر على الأرض وضمان حياة سعيدة في العالم الآخر. وقد بدأ ظهور هذا المذهب في الشرق ثم انتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية وتعددت صوره المتباينة إلى ما لا سبيل إلى حصره، وتفاوتت تعاليم كل قطب من أقطابه، ما بين أنظمة غير مسيحية قطعا،وأنظمة كُيِّفَتْ على نحوٍ بدت معه على هيئة هرطقات مسيحية.

ومذهب الغنوسطية الذى وصل إلى أنطاكية كان سليل تعاليم «سيمون بمبلخوس» من سماريا، وهو الذى كان فى عهد الحواريين يدعو بين الناس بأن ثمة ربا أعلى يوزع القوى ذو الفيوض التى كان سيمون نفسه من بينها.

وقد ادعى سيمون أنه صنو المسيح وعرض على الأنظار ضروبا من السحر جذبت إليه كثيرا من الأتباع [١].

برنابا فى انطاكية:

أرسل شيوخ القدس: برنابا إلى أنطاكية - وكان من القبارصة مثل بعض أوائل المبشرين فى أنطاكية - لكى يتفقد ما كان جاريا فيها وينهى إليهم مدى نجاحه وما ينتظر له مستقبلا. وكان خليقا ببرنابا بوصفه من القبارصة أن يشعر وهو فى أنطاكية بأنه فى موطنه تماما، كما أن أهل المدينة كانوا خليقين بأن يروا فيه فردا من أبناء طائفة مجاورة تربطهم بها روابط الألفة. ولقد تم على يديه المزيد من حالات الهداية، ولما رأى أن النجاح كان حليف الدعوة ذهب إلى طرسوس حيث كان بولس يقيم إذ ذاك ودعاه إلى المجئ إلى أنطاكية للمعاونة فى بث الدعوة.

وقد مكث برنابا وبولص فى أنطاكية لمدة سنة وهما يقومان بالوعظ فآمن عدد كبير من الناس وذلك حوالى سنة ٤٠م.

وكانت النتيجة التى أسفر عنها هذا العمل هى ظهور طائفة تختلف عن الزمرة الأصلية من أتباع السيد المسيح فى القدس، وقد تمثل التغيير فى ظهور التعبير الجديد، تعبير «المسيحيين» الذى ظهر فى مستهل الأربعينيات من القرن الأول للميلاد.

وليست لدينا أية بينة عن حجم الطائفة المسيحية فى أنطاكية عندئذ وأما عن نظامها فإنه يروى لنا أنه كان ثمة «رسل» «ومعلمون» ذكرت أسماؤهم على وجه التحديد بأنهم كانوا: برنابا وسيمون نيجر، «ولوكيوس القوريني»و «ماناين» و«بولس»

(١) أنطاكية القديمة. جلانفيل داونى. ترجمة د. إبراهيم نصحى ص ١٦٧ . النهضة المصرية.

ولقد كان هؤلاء الرجال ورفاقهم في رابطة الإخاء بأنطاكية هم الذين وضعوا الخطة لحملات التبشير المنظمة التي قام بها بولس وزملاؤه وتولت الطائفة تدبير الوسائل التي بدأت بفضلها رحلات التبشير[1]

من أهم جهود برنابا:

جدت مشكلة «تطبيق ما تقضي به طقوس الشريعة اليهودية على المهتدين غير اليهود، وذلك أنه في الأصل عندما كان كل المهتدين من اليهود لم يكن ثمة مجال للبحث في مراعاتهم لمقتضيات تلك الشريعة إذ لم يكن هناك مشكلة إلا بعد ما بدأت العقيدة الجديدة (المسيحية) تتخذ وضعا واضحا متميزا. حيث ظهر نزاع من اليهود المتأغريقين مؤداه: أنه ليس من الضروري المحافظة على تلك الشريعة اليهودية.

وعندما بدأ غير اليهود في الإقبال على اعتناق المسيحية، دخلت المشكلة مرحلة دقيقة بصدد الختان والأحكام الخاصة بالأطعمة والمشاركة في الواجبات بين المسيحيين من اليهود وغير اليهود.

كان بولس يرى: أنه لم يكن أمرا عمليا تطبيق الشريعة على غير اليهود، وأن من يعتنقون المسيحية منهم يجب إعفاؤهم من طقوس الختان، فقد كان من شأنها أن تعني في نظر المهتدين منهم أن يصبح أحد أفراد الأمة اليهودي مسيحيا، وأنه نزل عن تراثه الإغريقي الروماني، وقد توصل برناباوبولص إلى الاتفاق مع أقطاب القدس- جيمس وبطرس ويوحنا – على أن تكون الدعوة إلى الهداية الموجهة إلى غير اليهود طلقة غير مقيدة بأحكام الشريعة اليهودية [2].

انطاكية تحت حكم تدمر:

بعدما هزم الفرسان الرومان ٢٦٠ ووقع فالريانوس نفسه أسيرا في يد الفرس، وفي صيف ذلك العام بعينه اجتاحت سورية قوات الملك سابور من جديد واستولت على أنطاكية مرة أخرى. وقد هبطت سطوة الرومان ومكانتهم إلى الحضيض، واغتنم

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٦٢ .

حكام تدمر هذه الفرصة لتحرير مملكتهم من سيطرة الرومان وسرعان ما وجدت أنطاكية نفسها فى داخل نطاق نفوذ تدمر الآخذ فى الاتساع .

فى ذلك الحين كانت أبرز شخصية فى أنطاكية هى شخصية أسقفها بولص من سميساط، وكان بولص ينتمى إلى الشطر السامى من أهل سوريةويمثل مصالح العنصر السامى أكثر من مصالح العنصر الأغريقى الرومانى من السكان، وقد أسند إليه الاضطلاع بمهام دينية ومهام معاشية، وكان يتمتع بتأييد«تدمر» ويؤدى مهام المندوب المفوض عنها فى حكم أنطاكية، وأصبح بولص السميساطى شخصية لها أهميتها أيضا من الناحية اللاهوتية فإن تعاليمه التى كانت تدعو بإصرار إلى أن الله واحد والمسيح بشر مهدت هذه الأفكار السبيل للمذهب الأريوسى وأنشأت فيما بعد عرفا تقليديا فى مذهب المدرسة اللاهوتية بأنطاكية.

يرى جلانفيل: أن هذه التعاليم المبسطة قد أعدت إرضاء لزنوبيا ملكة تدمر التى كان يظن أن لها ميولا يهودية. ومن المحتمل أن تكون وجهة نظر بولص فيما بعد تتعلق بوحدانية الله وقدرته تأثرت باعتقاد اليهود اعتقادا جازما فى التوحيد. وأما إنكار ألوهية المسيح أو متبوعيتها فإن ذلك كان فكرة نبتت فى عهد مبكر جدا حالما أصبحت طبيعة المسيح موضوعا للدراسة والمناقشة المفصلة وكانت إنطاكية – عندما حل عهد بولص– مكانا خليقا بأن تلقى فيه مثل هذه الفكرة تأييدا ولا سيما بعدما أصبحت معقلا من معاقل المذهب الأريوسى الذى كان فى جوهره يشايع هذا التفسير. وارتبط تاريخ الطائفة المسيحية فى أنطاكية بمجرى النزاع الأريوسى حول طبيعة ألوهية المسيح، وهو ذلك النزاع الذى أحدث انشقاق الكنيسة إلى معسكرين فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية، وظل هذا الانشقاق إلى سنة ٣٢٥م موعد مجلس نيقية، وفيه تمت الموافقة على حل أدمج بموجبه فى العقيدة النص على وحدة الأب والابن مادة وجوهرا وتسوية وضع جماعة المنشقين.

ولا نرى فى أنفسنا ميلا نحو تحليل «جلانفيل» لدعوة بولص إلى التوحيد بأنها كانت ترضية لملكة تدمر ،وفى نظرنا أن الأمر ليس كذلك لأن التوحيد ظاهرة تغلب على الديانات السامية ولنذكر خاصة «ال»وهو إله سامى مشترك:

ال : لدى الأكاديين .

وال: لدى الكنعانيين.

والوهيم: عند العبريين.

والله: عند العرب.

وقد عرف اليمنيون أيضا هذا الاسم واستعملوه فى الغالب اسما عاما بمعنى إله وهو مدلوله الأصلى حقا، ولكنهم استعملوه أحياناً علما على إله خاص ويكثر وروده فى أعلام الأشخاص .

وفى هذا الجو الفكرى ذى الطابع المسيحى أنشأ بسطاثيوس Bustathius أسقف أنطاكية: مدرسة بها، على نمط مدرسة الإسكندرية ولم يسر تاريخها على وتيرة واحدة، ففى أوائل عهدها نفى بوسطاثيوس سنة ٣٣١م وترك المدرسة فى رعاية فلافيان Flavain وقد أشرك معه الناسك ديودوروس Diodorus.

وهؤلاء الثلاثة جميعا وهم: الأسقف بوسطاثيوس، وفلافيان وديودوروس كانوا من زعماء الخصومة[1] من أتباع أريوس .وهذه الزعامة: هى السبب فيما تعرضت له مدرسة أنطاكية من عنت، فقد كان لأتباع أريوس فى هذا الوقت، قوة سياسية كبيرة، وزادت قوتهم بعد موت قسطنطين سنة ٣٣٧ م ومع ذلك استمرت المدرسة إلى سنة ٣٧٩ عندما صار ديودوروس أسقفا لطرسوس.

وقد كان فى سنة ٣٨١م أحد الأساقفة الذين رسموا فلافيان على كرسى أنطاكية، ولما ارتقى ديودوروس إلى كرسى الأسقفية: شتت المدرسة.

وكان بين أنطاكية، ومدرسة الإسكندرية: تنافس لم يكن كله وديا وذلك عندما اتهمت مدرسة الإسكندرية الأسقفين: ديودوروس أسقف طرسوس، وثيودور أسقف مصيصة، بأنهما بذرا –دون قصد منهما: بذور المذهب النسطورى.

---

(١) الحضارة السامية القديمة ص ١٩٥.

٢- مدرسة نصيبين:

تقع نصيبين : في الرقعة التي تخلت عنها فارس لروما سنة ٢٩٨م، ولما كانت حينذاك مدينة من مدن الحدود تشرف على الطريق الرئيسي بين شمال ما بين النهرين وبين دمشق، فإن الرومان حصنوها أحسن تحصين، ولعله كان فيها: بعض مسيحيي مابين النهرين.

وفي حوالي سنة ٣٠٠-٣٠١ عدّت نصيبين كرسي أسقفي وكان أول أسقف لها هو بابوا ثم خلفه الأسقف يعقوب الذي أنشأ بها مدرسة على غرار مدرسة أنطاكية وكان فيها قبل أن تقع في أيدي الرومان : مدرسة يهودية، أنشأها الحبر يهوذا ابن بنثيرا، وهو راوية، وقد ورد باسمه سبعة عشر فصلا في (المشنه)، والمرجح أن استيلاء الرومان على المدينة قضى على مدرستهم فيها، وعلى أية حال فلا ذكر للمدرسة بعد هذا التاريخ، وبعد يعقوب أقيم شيخ اسمه إبراهيم على رأس هذه المدرسة.

٣- مدرسة الرها:

عندما وقعت نصيبين مرة ثانية في يد الفرس ٣٤٣ م. فر إبراهيم رئيس مدرسة نصيبين فهرب إلى الرها، ولا شك أنه كان هناك لاجئون كثيرون مثله، فالتفوا حوله. وهكذا أنشئت مدرسة مسيحية في الرها، ويمكن أن تعد مدرسة الرها بعثا لمدرسة نصيبين،وكما هو واضح كانت مدرسة الرها في أول أمرها جماعة ليس لها صفة رسمية، وكذلك ليس لها سند قانوني أو رسمي مثل: مدرسة نصيبين وأنطاكية.

٤- المدائن - المانوية ٢١٦:

كان ماني يعلم في مدينة كتسيفون «المدائن» دينا يجمع بين «الزرادشتية» و«المسيحية» كما أعلن نفسه رسول السيد المسيح، وكان يفسر الأناجيل بحسب عقيدة العرفان التي كانت تنطوي على تحرير الأعضاء الذين اعتنقوا مذهبه من تسلط المادة بواسطة المعرفة؛ ونظراً لتطرفه وخروجه على عقيدة «زرادشت» حكم عليه الكهنة المؤدبون بالموت؛ إلا أن أتباعه وتلامذته حملوا الرسالة، وانتشرت انتشاراً واسعاً

حتى بلغت شمال إفريقيا واعتنق القديس «أوغسطين» قبل تنصره المانوية مدة تسع سنوات .

٥ - جنديسابور:

كان دين الدولة الساسانية الرسمى طوال حكمها: الدين الزرادشتى إلا أن التركيز على سيادة «أهورا مزدا» إله النور والخير، كان أكثر من التركيز على النظام الثنائى، وحين أنشأ كسرى الأول فى ٥٥٥ مدرسة جنديسابور فى الطب والفلسفة، دعا أساتذة مسيحيين ليتولوا أمر التعليم فيها، وكانت لغة التدريس: اللغة السريانية، وقاموا بترجمة المؤلفات اليونانية إلى لغتهم السريانية، وترجمت أساطير «بيدبا» ثم وجدت طريقها إلى «أسبانيا» عبر ترجمة عربية قديمة من أسبانيا انتشرت فى سائر الأقطار الأوربية. كما قامت فى أحيان كثيرة بالتوفيق بين الأديان وتوحيد العقيدة، وكانت تميل للنسطورية كمل كان «الساسانيون» يعطفون على «النسطوريين» ويتسامحون معهم، ولعل ذلك يرجع-من وجهة نظرنا-إلى اتجاه الأساتذة المسيحيين الذين انتدبوا للعمل فى المدرسة ومعاداة الفرس للروم، ولما كانت النسطورية وقعت تحت الاضطهاد الرومانى فقد تعاطف معها الساسانيون ثم هم نظروا إليها من حيث دعوتها للتوحيد.

هذه صورة عامة عن: المدارس التى قيل عنها: إنها حملت تراث مدرسة الإسكندرية إلى المنطقة العربية على الرغم من أن تاريخها مازال مجهولاً نرى أن ما علم منه يفيدنا، إذ أن هدفها الأول هو: نشر أصول الدين الوثنى بين المسيحيين الذين كانوا يتكلمون بالسريانية.

يقول ديالاسى: «فقد كانت عقائدهم اللاهوتية ونظام كنائسهم، كما بين «أسترزيجو فسكى» غير مطابقين للأصول المعتمدة فى الكنيسة الكاثوليكية».

وكما نلاحظ: أن رؤساءها أساقفة مسيحيون، أى رجال دين، لكنهم لم يكونوا رجال دين فقط، لكنهم رجال دين منشقون بعضهم على بعض فحملت هذه المدارس طابع هذا الانشقاق. فالمدارس كانت ذات طابع دينى، وكانت القضية

المسيطرة عليها: قضية طبيعة «المسيح»، والرأى، ومنهجه حول طبيعة «المسيح» لم يكن واحداً، إنما كان يتغير تبعاً للولاء السياسى، كما كانت غالبية هذه المدارس يرجع الفضل فى إنشائها إلى: بعض المضطهدين من: السياسة، والكنيسة. وهذا مما أدى إلى: فشل الهلينية فى المنطقة العربية، لأن هذه المدارس كان رؤساؤها: رجال الدين مضطهدين فحولوها إلى غايات دينية غير متفق عليها؛ وكثيراً ما كان يستعدى عليها رجل السياسة فيشتت شملها ويبعثرها، أضف إلى ما سبق: أن بعدهم عن الإغريقية جعلهم ينعزلون داخل المادة السريانية المترجمة، فانقطاعها عن الهلينية صيرها إقليمية خالصة، وحامت فلسفتها: حول الدين، واللاهوت، ولئن كانت قد نشرت بعض أفكار فلسفية عن المسيحية فى بلاد جديدة؛فإن هذا الفكر لم يساعد على التحول، وأصبح حال هذه المراكز الثقافية ليس بأحسن من حال العواصم السياسية للمنطقة العربية، فما تكاد تظهر وتتماثل للازدهار حتى يطويها ليلها الطويل.

يقول دلاسى أوليرى: أن الثقافة اليونانية لم تنتقل إلى العرب عن طريق هذه الاتصالات الأولى، ولقد تحقق انتقال العلوم اليونانية إلى العرب عندما استقرت الخلافة العربية فى مدينة بغداد التى كانت حديثة البناء بالقرب من «جنديسابور».

آراء قلقة للمستشرقين حول الهلينستية والسامية

بعد عرضنا عن الهلينية فى الشرق والمنطقة العربية فيه، رأينا: أن نعرض بعض آراء استشراقية مغالية،ونلاحظ أن هذه الآراء مهما تنوعت أهدافها ووسائل مناهجها فإنها ترجع فى نهايتها إلى موقفين:

الأول: موقف من يَصِمُ العقلية السامية بعدم الفهم الطبعى للأمور.

وهذا الموقف كان من نتائجه: أن ميّز بين عقليتين:

الأولى : علقية آرية، خصائصها : جمع وتحليل.

الثانية : عقلية سامية، خصائصها: التجزىء.

الثانى : موقف من يرى: أن الشرق لا يحب الثقافة ذات النزعة الإنسانية؛ وبين خلاف جوهرى مؤداه:

أن الرأى الأول : يرد العجز العقلى إلى: علة فطرية.

والرأى الثاني: يرد العجز العقلى إلى عوامل كسبية أى تخلف حضارى- وهما معاً – على اختلافهما فى تفسير علة إخفاق الهلينية – يتفقان على: أن عدم تجاوب الشرق مع الهلينية هو السبب فى ذلك إما: لعلة مرضية أو لعلة مزاجية.

وغاب عن الفكر الاستعمارى المعادى للسامية أن السبب الذى أدى إلى عدم تفاعل الهلينية مع التراث الشرقى ليس خاصاً بالعقلية السامية، إنما يرجع إلى عوامل دولية تخص الصراع الثنائى بين الإمبراطوريتين ذلك أن التيارات الثقافية التى غزت المنطقة بعضها هب من فارس، وهى دولة كانت عالمية، فترى فى تراثها...هذه الصفة العالمية نفسها، فكانت تكافح رومة سياسيا، وثقافيا لإحلال سياستها وثقافتها فى كل بلد تدخله.

ورومة أيضاً كانت دولة عالمية، وتراثها كذلك أيضاً؛ أى كانت ترى فيه هذه الصفة العالمية؛ فكانت تكافح الفرس سياسيا وثقافيا من أجل إحلال ثقافتها فى كل رقعة يمتد نفوذها عليها، والمنطقة العربية التى كانت مرة فى حوزة الفرس ، ومرة فى حوزة الروم. فكان من الصعب أن تستقر على تراث ثقافى ذى طابع واحد؛ ولاسيما أن الذين قاموا به – وهم من آباء الكنيسة – مضطهدون سياسياً ودينياً. فكان المواطن يعزف عن هذا اللون من الثقافة الحرجة، ولم تكن فى المنطقة العربية دولة ذات طابع استقلالى تبنت الدعوة إلى هذا اللون من الثقافة. أضف إلى كل ذلك: أن المادة الهلينية التى ترجمت جاءت عن الإسكندرية بعدما أتخمتها بالمباحث اللاهوتية، فلو لاحظ المستشرقون هذه الاعتبارات، وأخذوا فى اعتبارهم ضعف المادة الهلينية حين فسروا إخفاقها فى الشرق لما انتهوا إلى هذه النتائج من جانب.

أما موقف الذين يصمون العقلية السامية بالعجز لعوامل وراثية: دون النظر إلى العوامل التاريخية التى أحاطت بالتراث الثقافى وذلك من جانب آخر. فإن النظريات العلمية المعاصرة ذهبت به بددا.

يقول ديلاسى أوليرى: بتتبع التاريخ فى تحول البنية الاجتماعية التى يوجد المجتمع اليوم فيها ثلاثة عوامل رئيسة تعمل فى هذا التحول وهى:

– العنصر القومى.

– اتجاه تيار الثقافة.

– انتقال اللغة .

وأول هذه العوامل فسيولوجي، وأهم عامل فى تقدم البنية الاجتماعية هو: تناقل الثقافات. والثقافة ليست من الأمور الوراثية، ولكن تناقل الثقافة يعود إلى الاتصال؛ لأن الثقافة تُعلّم وتستفاد بالتعليم والدراسة والبحث، ولكنها لا تورث.

يقول أوليرى: وليس فى هذا ما يتصل بمسألة العنصر؛ فالثقافة لا تورث باعتبارها من الميراث «الفسيولوجى» الذى يرثه الطفل من أبيه، وإنما يجرى تعلمها بالاتصال الناشئ عن الاختلاط بالتقليد، والتعليم، وما أشبه ذلك.

وأما الموقف الثاني: الذى يرى أن: الشرق لا يحب الثقافة ذات النزعة الإنسانية فذلك ما نحب أن نعرض له، ونفسح له المجال من خلال كتاب: «الشرق وتراث اليونان» [هانزهينرش] ترجمة د عبد الرحمن بدوى تحت عنوان روح الحضارة العربية، وفيه يذهب المؤلف إلى آراء ينقض بعضها بعض، ويجعل نقطة بدايته غزو الإسكندر فيقول: كان غزو الإسكندر الأكبر وما تلاه من تكوين إمبراطورية يونانية فى غرب آسيا هو الحدث الفاصل فى تاريخ تطور الروح الشرقية، والسبب المباشر فى وقوع الشرق تحت تأثير الثقافة اليونانية التى ساعدته على أن تدب فيه حياة جديدة من الحضارات المختلفة؛ التى تتكون منها الحضارة الشرقية عامة، والتأم شملها فى وحدة جديدة تحمل طابع الروح اليونانية؛ وتلك الوحدة هى التى يطلق عليها اسم الهلينستية .

ثم يرى المؤلف: أنه تحت تأثير الثقافة اليونانية: دبت فى الشرق حياة جديدة وتحت التأثير نفسه ترقت الروح الشرقية؛ وأن الوحدة الحضارية التى ظهرت فى الشرق تحمل طابع الروح اليونانية.

ونتيجته التى استهدفها: أنه حصل فى الشرق تغير، مصدره الحضارة اليونانية. ثم أخذ يشرح وجهة نظره، من بين رؤيتين للتاريخ يوضح بهما الأثر الزمنى للسيطرة الهلينية، فيقول:

– هناك رؤية المؤرخ السياسى: وهى موقوتة بدءا من الإسكندر، ونهاية بقيام ما يدعى بالإمبراطورية الرومانية، ثم يقول:.

«وللمؤرخ السياسى الحق، حينما يريد أن يفهم معنى الهلينية، وتلك الحقبة التى استمرت حتى قيام الإمبراطورية الرومانية من أسوس، حتى أكتيوم وحدها»

– هناك رؤية للمؤرخ الفكرى، أو الروحى، وهى تمتد حتى أعتاب العصر الحديث كل الحداثة فيقول:

لكن الدارس للتاريخ الروحى للشرق القريب، لا يستطيع الاقتصار على هذا التحديد، لأنه يجد أمامه هذه الواقعة ألا وهى: أن ثمة أفكاراً يونانية هى التى أنشأت الحياة الروحية الشرقية، ووهبتها القوة الدافعة المولدة، لا فى عصر خلفاء الإسكندر الاثنى عشر وحدهم فحسب، بل وأيضا فى العهدين الرومانى، والبيزنطى، إلى العهد الإسلامى.

والحضارة الروحية التى أسستها الهلينية: قد امتدت حيث بلغت فى الشرق أعتاب العصر الحديث كل الحداثة، أى إلى نفوذ المدنية الأوربية والعلم منذ الأجيال الثلاثة الأخيرة.

والنتيجة كما يقول – وفق نظره:

وعلى هذا : نرى أن نقطة ابتداء الحضارة الشرقية، التى بلغت كمالها فى الإسلام، هى بعينها نقطة ابتداء الحضارة الغربية.

ثم بعد ذلك طرح سؤالا جعله مقدمة لدراسة مقارنة، ممهدا له بقوله:

لكن أقل مقارنة بين الخصائص الروحية للشرق الإسلامى الحديث، ولعالمنا الغربى، تدلنا على تباين فى الموقف ينتظم كل شئ العام عنه والخاص، حتى أبسط الجزئيات ، فنرى أنفسنا أمام سؤال يطرح على البحث قضية بشكل آخر، وهى المقارنة بين خصائص الشعوب وهو: كيف أدى قبول قوة روحية واحدة بعينها ونعنى بها الثقافة اليونانية– إلى نتائج مختلفة كل الاختلاف هناك كما هى الحال ها هنا؟

من هنا أخذ المؤلف يمهد لإجابته على ما طرحه من سؤال: يتيح له بيان خصائص الشرق الفكرية،وهكذا كانت صياغته سؤالا وإجابة تلخيصاً لوجهة الغرب في الشرق والإسلام منذ بدأ الغرب تاريخه الثقافي فيقول:«في الحضارة الشرقية نشاهد الشعور بالسنة والتقاليد وشدة التمسك بهما قد بلغا أوجهما.

بيد أن كليهما يبدو هناك في تركيبه متميزا بطريقة خاصة من فكرة التقاليد عند الغرب، فالتقاليد معناها في الشرق: المحافظة على ما هو أصلي وقديم.

والتقدم الروحي لا يمكن أن يتم عنده إلا في : التفسير والتكيف مع الأوضاع الجديدة، لا في التحويل والصياغة من جديد لما ورثوه ونقلوه.

والعلة الرئيسية في هذا: إنما هي: الرابطة الدينية والتي في داخلها يتم تطور الروح في الشرق.

والتقليد – أو السنة– لا يمكن نقضها لأنه ينظر إليها على أنها من الوحي وما هو من الوحي ليس في مقدور المتأخرين، ولا من شأنهم أن يمسوه، لأنه مما بلغ للإنسان من قبل على أنه الحقيقة.

ثم رجع المؤلف متسائلاً مرة ثانية عن عدم نجاح التراث الهليني في الشرق مرة ثانية: كيف أمكن إذن ألا يغير اقتحام الفكر اليوناني للشرق، منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، هذا الموقف الروحي عند الشرقيين؟

وبالجملة، ولصياغة المسألة هنا في صيغة موجزة نتساءل:كيف أمكن ألا يكون الشرق حتى العصر الحديث قادراً على إيجاد نهضة أو نزعة إنسانية؟

يقول مجيبا: ولقد قدر للشرقيين، حينما اتصلوا باليونان. أن يجدوا أنفسهم مالكين لثقافة روحية دخلت دور التحجر تبعا لموقفها المحافظ من السنة التقليدية الذى لم يتبدل تبديلا كافيا.

فلم يكن ثم ما يتعلمونه من اليونان بل (على العكس من هذا) لم يكن لهم أن يتعلموا شيئا، لأن تقاليدهم قد قدسها الوحي، وفضلا عن هذا قد استغرقت الغاية بعدهم الروحي، فبينما أحس الرومان في اتصالهم باليونان أن المثل الأعلى للفضيلة

والمروءة، يمكن أن يُسْمَى به إلى أعلى صورة، صورة الدراسات الإنسانية، ومن أجل هذا أقبلوا على اليونان: برغبة فى العلم غير محدودة تمتاز بالحرية الباطنية والتفتح، اتجه الشرقيون، لا إلى الإنسانية وإنما إلى الظفر بالقداسة وبالنجاة.

ولهـذا نرى أن المثل الأعلى، ذا الطابع الدينى المرتبط بالعقائد الثابتة، عند الشرقيين، لم يسم حينما انكشف له الفكر اليونانى إلى استهداف غايات جديدة، وإنما.. اشتد فى حركته هو الخاصة.

ولم يكن هذا فحسب: فإن الإمكان الحاسم، الجديد الذى تبدى آنئذ أمام الشرقيين: كان هو استغلال التراث اليونانى من أجل «توكيد» نوازعهم الخاصة.

لذا لم يكن طبع الحضارة الشرقية بطابع الهلينية، حركة نهضة، أو ميلادا جديدا، وبعثا لقديم، وإنما: كان استمرارا فى المحافظة عليه وتخليده.

فاستفاد القوم فى «الشرق» من القوى اليونانية. بإمكان تنظيم هذا الخليط العديم الصورة. من المنقولات الأسطورية، والنبوية، والتشريعية، والمثلية، وترتيبه تحت وجهات نظر رئيسية موحدة يسيرة ثم جعلها تتواتر فى صورة أثبت، وقبل كل شيء: جعل فهم تقاليدهم الخاصة وقيمتها مفتوحا أمام غيرهم ممن هم خارج نطاق جماعتهم الحضارية.

وفى رأيه أن العلة التى جعلت الأثر اليونانى عقيما فى الشرق هى كما يقول:

وهكذا نرى العلة الرئيسة. أن التراث اليونانى فى الشرق، قد كان ذا عقم بالغ حتى الأعماق، وإن لم يكن هذا التراث أقل نفوذا وتعبيرا منه عند الرومان، وهذا العمق لا يمكن أن ننعته إلا بأنه كان مؤلما،فما تعلمه الشرقيون من اليونان: أفادهم فى الاستغلال العربى له، لا فى الظفر بتنشئة جديدة وترق فى الثقافة.

ومن ناحية أخرى يتبدى جليا الآن: لماذا كان السؤال – الموجه إلى الحضارة الروحية الشرقية – عن العلة: فى أنها لم تستطع إيجاد نزعة إنسانية تتجدد من جيل إلى جيل؟

يقول- أي المؤلف: لماذا كان هذا السؤال ليس سؤالا صادرا عن خارج أو عن وجهة نظر لا تقوم في طبائع الأشياء نفسها، بل هو سؤال له أساس في جوهر الأمور عينها؟

والنتيجة النهائية هي كما يقول: إن كل من يدخل مع اليونانيين في صلة حيوية يوضع أمام الاختيار بين إحدى خصلتين:

- إما أن يتتلمذ لهم أي لليونانيين - عن وعي وإرادة.

- وإما أن لا يفعل.

يشرح المؤلف ذلك فيقول: فإن تأثير يونان له من الصولة، وكذلك قوة عقلهم المفكر، المنظم لمجموع الواقع المطلق لنفسه، هو من الإقناع بالنسبة إلى كل إنسان يكون على علم به بحيث لا يوجد ثم مندوحة عن هذه القوة وذلك التأثير، فمن يلق اليونانيين لابد أن يتعلم منهم، والمسألة: هي فيما إذا كان سيحول هذه الضرورة إلى إرادة حرة ويعرف كيف يشكر اليونانيين من أجلها أم لا.

نلاحظ أن المؤلف بدأ يظهر بوضوح أمله: من عدم استفادة الشرق من التراث الهليني، وأخذ يوطئ لذلك بما قاله عن الشرق وهو:

إن عدم نجاح رسالة التراث اليوناني في الشرق، راجع بالدرجة الأولى إلى تمسك الشرق بتقاليده وتراثه، فما أحب الشرق أن يكون تلميذاً، ولا أحب أن يفعل، وإذا كان اليونان أحب أن يكون معلماً مسيطراً فإن الشرق قد نبذه.

ثم يقول: والشرقيون اعتقدوا الثقة بتقاليدهم، واعتقدوا أنهم لا يستطيعون أن يأخذوا عن اليونانيين إلا ما ينتسب إلى الصناعة الفنية، وليس عليهم أن يتعلموا منهم توجيهاً روحياً جديداً، ولم يستطع الشرقيون أن يرتفعوا إلى مستوى الاعتراف الخليق بالنفس العالية الحرة، الاعتراف بالرسالة اليونانية، التي يشير بها «هوراس» للرومان في قوله: «يونان مقهورة تقهر المتبربر الظافر».

وبعد أن انتهى الباحث إلى هذه النتيجة: وهي أن الثقافة اليونانية رفضها الشرق، وما أخذ منها كان: بمثابة الاستفادة، أو ما أدخلوه على صناعتهم الفنية. فالشرق لم

يتتلمذ على اليونان بوعى وإرادة، لذلك عجز التراث اليونانى أن يترك أثراً للنزعة الإنسانية فى الشرق.

ولقد كان من الملاحظ حقيقة، ونطمئن إليه، وهو ما أفزع الباحث وأقلق عليه باله: هو أن حروب الإسكندر استطاعت أن تغلب الشرق سياسياً، غير أن ثقافته اليونانية لم تستطع أن تقهر الشرق، ولا أن تغلب عليه، ثم بعد ذلك بدأ منه تجاهل - فى حنق وفى عصبية- لا مسوغ له، وليس فى طرحه سؤاله؛ إنما فى الإجابة عليه، الذى أراد أن يقارن، فيها بين ثقافتين: ثقافة روحية يصطبغ بها الشرق اصطباغاً؛ وثقافة عقلية يصطبغ بها الغرب الإغريقى اصطباغاً؛ لكن المؤلف يقلق من تلك النتيجة فهو يقول: ومن ثم تتضح الصعوبة غير العادية التى تكمن فى مسألة ما إذا كان على المرء أن يرد مركز الثقل فى الإنتاج الروحى- وخصوصاً منه الدينى والفلسفى- الذى أبدعه الشرق إلى الهلينى أو العنصر الشرقى؟ فالمؤلف يستكثر على الشرق أن يكون مبدعاً للروحية تلك التى جعلها منقصة ثقافية. ثم يتابع شرحه فيقول: وتلك مسألة تعرض نفسها بإلحاح خاص فى كل درجة من درجات التحول الروحى للمسيحية، وبالنسبة إلى تلك الحركة التى اقتحمت نطاق اليهودية، التى انكفأت على نفسها وغلقت أبوابها باطراد متزايد منذ عهد المكابيين ضد العالم الهلينى المحيط، ولكنها فى أصولها لم تظهر بعد صورة روحية راسخة، بل ظفرت بها أول مرة بفضل التوغل فى أرض هلينية حقاً.

إن هذه المسألة يجاب عنها بصورة جلية منذ القرن الثالث بعد الميلاد لما أن نما المذهب المسيحى فى مدرسة الإسكندرية إلى نظام فلسفى استقصيت فيه الذرائع، وهذا الجواب: هو أنه ما من أحد يمارى فى سيادة الفكر اليونانى فى علم اللاهوت المسيحى من ناحيته التنظيمية المذهبية. بيد أن الإجابة عن هذه المسألة تترجح وتتردد، حينما يتصل الأمر بنشأة تاريخ المسيحية، وأكثر من هذا حينما يتصل بالحركات ذوات الصلة الماسّة بها، من حيث: التوجيه فى النظرية الكونية وتسير موازية لها، وكذلك أيضاً حينما يتصل الأمر بالنظرة الإسلامية فى الحياة والوجود التى أتت بعد ذلك .

نقول: إن إجابة تتردد وفقاً لكون المرء في أحكامه هنا: هل يبدأ من الأسس العقلية التنظيمية لهذه النظرات في الوجود والحياة؟ أو يبدأ وهذا أقرب بكثير إلى هذا المستشرق الذى آراؤه سبقت مقدماته من الموقف الذاتي.

ونحن نلاحظ عليه تردده عندما أخذ يبين الأثر الهليني على المسيحية واليهودية والإسلام، رأيناه: متحيزاً كما يظهر تردده، حين أراد أن يقومه، حيث تساءل: هل يرده إلى العنصر اليوناني أو العنصر الشرقي؟ ثم بعد تردده نراه يقول: الإنتاج الروحي – وخصوصاً– الديني والفلسفي الذى أبدعه الشرق يرجع إلى الهلينية.

أي أن في الشرق ثمرات إبداعية؟ غير أنه أضافها إلى الهلينية؛ وإذا كان الأمر كذلك: أي أن التراث الهليني نجح؟ أليس في هذا ما ينقض نتيجته السابقة. وهي: أن التراث الهليني لم ينجح في الشرق، ويصبح ما أحصاه على الشرق من نقائص عاقت نموه الثقافي غير حقيقية؛ لأنها إن كانت فيه كامنة. فلماذا استجاب لسنة التطور؟

لاشك أنه اعتراف قلق، ذلك الذى جعل المستشرق يعترف «أن في الشرق إبداعاً» غير أن حيرته في تساؤله هل هو إبداع راجع إلى العنصر الهليني الذى أعلن أنه فشل في الشرق؟ أو راجع إلى الشرق الذى فيه نقائص تعوق نموه الثقافي؟: حيرة تنم عن تعصب وتعيننا على وصف نظراته بأنها تحتاج منه إلى مراجعة متأنية متروية.

ثم راح المؤلف بعد ذلك: يبين الأثر اليوناني في الشرق، واختار في سبيل إظهار ذلك: قضية الكون والوجود.

فقال: ولشق طريق علينا على الأقل خلال هذه المرحلة لابد أن يتساءل المرء: أين مجال التاريخ الروحي الحقيقي؟ وإلى أي نقطة يجب أن يتجه انتباهه، حتى يتبين بوضوح: تطور النظرة الكونية، ويقدر على إيضاحها؟ ومن ذا الذى يمكن أن يشك، وهو يضع السؤال على هذا النحو في أن الأسس التصورية للنظرة الكونية وأطوارها هي بعينها التي يمكن تعرفها بيقين وتعرف درجاتها في تاريخ طور الفكر والتحرر

الذاتي للعقل. بينما التدين الفردى حينما يكون عامرا بالقوة، والمميزات الخاصة. يكون بمعزل عن التحول، بل عن الارتباط الزمنى إلى حد أن انتظام أصحابه فى خط التحول يصطدم بعقبات لا تكاد تذلل.

ولهذا: لا تكاد توجد إمكانيات أخرى للتأمل التاريخى الروحى عند الشرق، غير ابتداء هذه الواقعة ألا وهى:.

أن الكلم اليونانى، والفكر اليونانى- وهذا الأخير يكون ممثلاً فى صفوة محدودة- بحاجة إلى مزيد من الوصف، وقد أثر كلاهما فى الشرق، وحيا هناك ومازال يحيا حتى العهد الحديث.

وتاريخ الفكر اليونانى فى الشرق: يقدم لنا الخيط الأحمر، الذى يعين المرء على ضم كثرة من صور النظرة الكونية تحت لواء مركب تحولى واحد ملئ بالمعانى، وفضلاً عن هذا يسمح بربطه ومقارنته بالتاريخ الروحى للغرب.

وهذه المصادرة لا شئ أبلغ فى تحقيق صحتها من مجرى التحول الحقيقى للفكر الشرقى تبعاً لكونه قد خضع بكل إذعان: لتأثير العقل اليونانى منذ اللحظة التى تعارفوا فيها، وليس فى تاريخ النظرة الكونية فى الشرق قوة عقلية واحدة، يمكن أن تقارن فى أهميتها وجلال شأنها: بالقوة اليونانية، بل يستطيع المرء، أن يذهب إلى أبعد من هذا، ويقول:

إن اتجاهات النظرة الكونية - لدى الشرقيين منذ الهلينية- تبلغ فى كل حالة، درجة من الوضوح العقلى، وقابلية التعليم والفاعلية، إلا حينما عملت فيها: نظم التطورات العقلية اليونانية، والاستثناء الوحيد فى هذا الباب هو: الديانة التشريعية اليهودية.

ثم يقرر المؤلف- وهو بصدد بيان الأثر الإغريقى على الشرق: إن نظرات الشرق فى الوجود، أثر إغريقى، لأنها خضعت فى أطوارها : للفكر والتحرر الذاتى للعقل، واستبعد المؤلف أن تكون هذه النظرات، وليدة التدين، لأن التدين- فى نظره- حينما يكون عامرا بالتقوى، والمميزات الخاصة، يكون بمعزل عن كل طور،

بل من الارتباط الزمني، إلى حد أن انتظام أصحابه في خط التحول، يصطدم بعقبات لا تكاد تذلل.

وواضح من اتجاهه أنه يميز بين نظرتين بالنسبة إلى الكون والوجود:

– النظرة الدينية: ومميزاتها عدم التطور، والتحير في مصدرها.

– النظرة العقلية: ومميزاتها التطور، ويرجع أصلها: إلى اليونان.

والمؤلف: إذ يضع هذا التمييز بين نظرتين، نراه لا يبني حكمه عليهما ولا يراعيهما في منهجه فضلا عن أننا نلمح تعسفا منه: حينما أسند نظرات الشرق في الوجود إلى الهلينية، في الوقت الذي حاول فيه – سابقا كما بينا– أن يطعن الشرق بعدم قدرته على التطور والعجز عن متابعة الهلينية كما عجزت الهلينية من وجهة نظره– أن تكون دواء لداء الشرق القعيد عن التطور، فكيف ترقى – بعد ذلك– في نظراته حول الوجود؟

ثم يرجع فيقول: ولهذا نرى المثل الأعلى، ذا الطابع الديني، المرتبط بالعقائد الثابتة عند الشرقيين: لم يَسْمُ حينما انكشف الفكر اليوناني، إلى استهداف غايات جديدة، وإنما اشتد في حركته هو الخاصة، ولم يكن هذا فحسب، بل إن الإمكانات الحاسمة الجديدة التي تبدت آنذاك أمام الشرقيين: كانت هي استغلال التراث اليوناني: من أجل «توكيد» نوازعهم الخاصة.

ولذا لم يكن طبع الحضارة الشرقية بطابع الهلينية، حركة نهضة، أو ميداناً جديداً، أوبعثا لقديم، وإنما كان استمرارا في المحافظة عليه وتخليده».

بعدما قرر المؤلف هذا التقرير: نراه ناقضه، وناهضه، وذلك عندما رد «نظرتهم»، إلى الكون والوجود: إلى الأثر الإغريقي، واستبعد أن يكون وليد تدينهم».

ولنا بعد ذلك سؤال يقول: وترى هل تراث الشرقيين، الخاص بالوجود والكون، يدخل تحت وصف المؤلف لتراث الشرق«بأنه خليط عديم الصورة» «أو أنها نظرات على مستوى فكرى عظيم» فينحلها إلى اليونان؟ فإذا كانت الأولى فهي وليده الشرق، وإذا كانت الثانية فهي أثر يوناني.. وهذا لعمرى قسمة ضيزى.

حقيقة الأمر أن المؤلف يتحامل على الشرق حينما ينحل إليه «كل خليط عديم الصورة».

ونراه لا يرى فى ذلك استثناء واحدا سوى: اليهودية. فيقول:

والاستثناء المميز الوحيد فى هذا الباب هو، كما سنبين « الديانة التشريعية اليهودية» فبهذا الاستثناء، بدأ المؤلف: يعطى بعضا من الأصول الثابتة للشرق والأساس له فى تكوين تراثه وخصائصه، حينما رأى ذلك فى الدين اليهودى وهذا أقدم دين شرقى بلغة السماء نعرفه بكتابه.

إذا كانت اليهودية مستثناة – وليست كلها.. بل شريعتها .. فما المقابل الذى يقدمه المؤلف ويظهر فيه الأثر اليونانى ؟

يقول– وفى مقابل هذا–: نشاهد مثلا: أن الديانة القائمة على عبادة النجوم، ومنشؤها من البابليين، وليست مطلقا نتاجا أصليا للتحول الروحى البابلى، وإنما هى بالأحرى: نتيجة تعمق فى علم النجوم البابلى، والقياسات الفلكية، بمعاونة التصورات اليونانية، والفلسفة اليونانية، وبخاصة: الراقية منها.

وقوة النفوذ الهائلة، التى كانت للنظرة الكونية النجومية فى العصر الهليـنى، لا يجب أن تفهم إلا إذا اتضح للمرء: أن اللوغوس اليونانى هو الذى نظم تلك النظرية، وبعث فيها قوة الإقناع.

والأمر على هذا النحو – أيضا– فيما يتصل باستمرار تأثير النظرة الكونية الإيرانية الأقدم فى الشرق القريب وما وراءه، فالتفكير الإيرانى يتضمن بعض الأطوار التوجيهية، ذات القوة الرمزية العظمى، ومضمونها الرمزى الواسع، قد جعلتها: تبدو أكثر قابلية للتعبير عن الميول الخاصة للثقافة الشرقية، بنظرتها الكونية فيها عن غيرها، لذلك كان لابد لهذه التصويرات الأسطورية المقيدة بالتفكير الأسطورى، لكى تصبح رموزا كلية مفهومة لدى الجميع فعالة– يقول المؤلف–: إنه كان لابد من دخول العقل اليونانى فيها لينظمها على هيئة مذهب محكم فى تفسير العالم والتاريخ.

فما قدمه من نموذج، وهو الديانة القائمة على عبادة النجوم، أى الديانة الوثنية، واعتبره أثرا يونانيا: نوافقه عليه، بل نوافقه على أن الوثنية التى غزت الشرق، وغزته كان أصلها يونانيا.

ثم يقول: ولا سبيل – بعد كل ما قلناه– إلى إيضاح المهام الملقاة على عاتق التاريخ الروحى الشرقى، إلا بالتأمل فى أهمية الفكر اليونانى بالنسبة إلى الشرق، ووجوهه الخاصة، أى بالتأمل فى ظاهرة انعدام النزعة إلى الشرق، ووجوهه الخاصة، أى التأمل فى ظاهرة فقدان النزعة الإنسانية فى الشرق.

ويحاول المؤلف، فى النهاية: أن يبين بوضوح أن السبب فى عدم نجاح التراث اليونانى الشرقى: هو عدم اهتمامه بالنزعة الإنسانية، لماذا؟

فيقول: ذلك أن الفكر الشرقى لا يقوى على إدراك عالم محكم إحكاما لا يوصف، منظور إليه بقوة بصيرة دقيقة واضحة، وفيه لكل شئ مكانه، وتدبير الآلهة وفعل بنى الإنسان كلاهما: يجرى على نظام واحد طبعى. إن جاز القول. إذ أن الفكر الشرقى يوجه كل همه نحو الحاجة للنجاة بالنسبة إلى الذات المفردة الخاصة، ونحو أحدية الله وعلوه على الكون، وقوته وقدرته التى تهيمن على كل الأفعال الإنسانية.

وكذلك، لن يستطيع أن يفهم هذه اليقينية التى وصل إليها سقراط، ألا وهى: أن الحياة الإنسانية الخلقية، لا تملأ معناها عن طريق التفكير العقلى الخلقى، أو التأملى النظرى الميتافيزيقى، ولكن عن طريق تحقيق مضمون الحياة كله داخل نطاق الجماعة، بينما عند الشرقيين، فى العصر القديم، قد أصبح التفكير والحديث عن الأمور الخلقية: موضوعا للأحاديث الوعظية، وبهذا فقد القوة الدافعة إلى العمل. ولو شاء المرء أن يعبر فى صيغة موجزة عن الحد الذى عنده يقف فهم الشرقيين لليونانيين، لاستطاع أن يقول: أن هذا الحد: هو الفكر الكونى عند اليونانى. أعنى: تصور العالم: على أنه كل محكم الأعضاء، جوهره يقوم فى انسجام أجزائه.

فانبعاث الفكر الشرقى، لا يهدف إلى تأمل الكون المنظم، وإنما يهدف إلى جمع الصلة بين النفس المفردة و المحتاجة إلى النجاة، وربها.

ذلك: أنه إذا اقتصر كل الاهتمام على النجاة الشخصية، وعلى التوتر بين الكمال الإلهى، والنقص الإنسانى، أصبحت العين عمياء عن العالم الخارج عن الذات الخاصة، ولم يعد ثم تفكير فى نظم العالم الموضوعية.

ثم قال: وهنا نشير، كذلك إلى وجهة نظر أخرى يجب ألا نغض النظر عنها فى السؤال عن عدم تقبل الشرق لتراث اليونان.

عاد ليجيب: فإن أتباع الأديان الشرقية التى أثمرها الفكر اليونانى رأوا أنفسهم منقادين إلى هذه النتيجة وهى: أن مضمون الوحى الذى كان من نصيبهم: هو الحقيقة المطلقة بالضرورة.

ولبلوغ هذه الحقيقة: كان لابد أولا من «تأويل» وثائق الوحى فى صورتها الأسطورية المنقولة، تأويلا بوجهتين:

* وجهة تصور الآلهة وأضدادها ونشوئها وخصوماتها ونسبتها إلى ظواهر كونية.

*ووجهة تعدها بمثابة رموز خلقية وتسبغ عليها خيرية النفس وشريتها وما بينهما من صراع.

بعد ذلك نقول:

إن المؤلف لا يحاول: أن يتراجع، بعدما قدم من شواهد تثبت عُقْمَ التراث اليونانى فى الشرق، سواء أكان هذا التراث لا يتفق معه، أم كان لعدم ميله إلى الأخذ بالنزعة الإنسانية.

قلنا: لا يحاول أن يتراجع على الرغم من أنه بات متحيرا فى حكمه على تراث الشرق– ليعيد النظر من جديد فى تراث الشرق وسيكلوجية التقابل وبين الهلينية. على أنه لا يؤخذ من وجهة النظر العامة للمؤلف: أن الشرق لم يحتفل بتراث اليونان.

أما سؤال المؤلف: الذى بدأ به بحثه: وهو أن نقطة مبدأ الحضارة الشرقية: هى اليونان،فكان غرضاً منه، إلغاء بحثه.

وليس معنى عدم تقبل الشرق للتراث اليونانى، تخلفا فى الشرق، بل قد يكون كما قلنا: راجعا إلى نوعية الثقافة التى ترجمت كما قلنا.

وقد يحلو لنا أن نزكى ثقافة، على ثقافة، ولكن من المكروه أن نجعلها المقياس الأمثل، أليس محاولة فرضه هى عين الاستبداد فى الرأى؟ والاستبداد مرض يوصم صاحبه بالأثرة ولا يرجى له العلاج منها.

وفى ذلك ما يفيد – من خلال منهج بحثه– تورطه فى معنى التعصب بشامل معناه:

* تعصب وطنى.
* تعصب دينى.
* تعصب لليونانية.

لذلك جاء البحث سابقة لا تُوَطِّئُ لها مقدماته.

ثم نراه يعيب علينا: أن نأخذ من الوحى فى الوقت الذى نراه يستشهد بسقراط فعاب على الشرق، بما أخذ به؟.

ثم نأخذ عليه: أنه خلط بين الدين الإسلامى، والدين الوضعى[1] وهو يعلم جيدا ما يعنى مبدأ التفريق بينهما.

وفى النهاية أحب أن أشير إلى نقطة جوهرية: بين الثقافة، والحضارة.

وإذا كانت الثقافة اليونانية – حقيقة كما يتفق الباحثون–: لم تتقدم وكانت نمت نمواً بطيئا فى الشرق عنه فى الغرب، وكانت هى العامل الأول –كما يقولون– لكل تحول حضارى، فكيف نفسر إذن الحضارة الإسلامية إبان ازدهارها؟

وهذا ما لم يثْرِهُ المؤلف ولم يتعرض له.

(١) فيقول .. أن خطب كليما نتس Hone lies clementincs هى التى حددت الشعور بالرسالة لدى مؤسسى الدينين اللذين ظهرا فى الشرق بعد المسيح، إلا وهما: مانى ومحمد.

نقول: إنه قد تنتقل ثقافة إلى حضارة فتتقدم الحضارة ولا تتقدم الثقافة الوافدة، ومنها الحضارة الإسلامية التى قد تكون حددت الثقافة بغايتها الحضارية.

فالحضارة الإسلامية، كانت بعد الوحى: عواملها ذاتية، وخارجية استفادت من الثقافات الأخرى ما وسعها الاستفادة، فتقدمت الحضارة الإسلامية: لغة وفكرا وتاريخا، وجغرافية، وما زال الإسلام مزدهراً، إن كان المسلمون فى ضعة وضعف. وأصبح لها وزن خاص وخصائص حضارية خاصة. إذا أخذنا هذا فى الاعتبار لأصبحت دعوى «هانز هيترش شيدر» يشوبها روح التعصب لليونانية، لأن الحضارة ليست مهمتها تنمية التراث الوافد لتعيده مرة أخرى إلى حيث أتى، إنما مهمتها الاستفادة التى تيسر لها مسيرتها وتخدم غاياتها، حتى تحدث آثارها ذكرا بينا فيما يأتى من حضارات. *ولذلك كان لابد للثقافة أن تتغير، وأن تكيف نفسها بكيفية الظروف* المتغيرة، وأن تلبى المطالب الجديدة، ولذلك لا يمكن أن تظل وفية لماضيها دون حاضرها، إلا حين تكون حياتها غير حقيقية أو تكون ثقافة لا وظيفة لها، وعندما يكون حالها هكذا، تصبح وظيفة المجتمع: رفضها، لأنها أصبحت، لا تتناسب مع وضعه وقدرته.

على أية حال: لم تكن الهلينية من أقوى المؤثرات فى الشرق والمنطقة العربية فيه: إنما كانت الأديان السماوية: هى الأثر الوحيد والحقيقى للشرق، وأثره البارز على الغرب، أو بمعنى آخر: الأديان – وهى تراث شرقى– أثر تَرِكَةَ الشرق على الغرب، أما مناهجه العقلية فهى أثر يونانى فى بعضه.

والنتيجة النهائية التى يجب أن يصل إليها، غير أن بحثه لم يمهد لها هى كما يقول: «وأتى العرب معهم بإرادة الغزو، وكلمة دينية جديدة لكنهم لم يأتوا بحضارة خاصة يمكن أن تحل محل تلك التى وجدوها فى البلاد التى فتحوها، وبقدر ما توغل فى المقاطعات القديمة ذات الحضارةوبقدر ما نقلت مراكز سلطانهم من مواطنهم الأصلية: إلى سورية، ومنها إلى العراق، وجاء العرب عيالا على الحضارة العتيقة الراسخة فى نفسها ذات الطابع الموحد الذى كان عند من أخضعوهم. وهكذا بدأت تبرز، منذ نهاية القرن الثامن: وحدة الحضارة الإسلامية التى لم تكن شيئا آخر

غير تحول عمره ألف سنة، وكانت القوى الروحية المقومة فيها: هى قوة التراث الهليني.

على أى حال بعد أن عرضنا للمد السياسى الهلينى ومراكزه الثقافية فى الشرق والمنطقة العربية فيه، ثم عرضنا لبحث «هانز شيدر» تبينا أن المؤلف مذعور من عدم نجاح الهلينية فى الشرق، وكان هذا فى نظره ظاهرة مرضية – كما بينا– أنه يتحامل على الحضارة الإسلامية، وعلى الوحى الذى عده عائقا دون نهضة الشرق، وعده أيضا من الحواجز الأساس، دون قيام النزعة الإنسانية فى الشرق، لذلك صار العرب عيالا على الحضارة العتيقة الراسخة .

ويقول: وكانت القوة الروحية المقومة فيها هى: قوة التراث الهلينى .

إذا كانت هذه نتائج طبعية ساقه إليها بحثه فلماذا يقول متسائلا: كيف أمكن ألا يكون الشرق حتى هذا العصر، قادرا على إيجاد نهضة أو نزعة إنسانية؟

ومعروف على أية حال: أن محاولة الطعن فى الشرق، أو الإسلام، كانت رسالة قديمة، قام بها الجيل القديم من المستشرقين، وأصبح الجيل الحديث والمعاصر، يؤدى خدمات جليلة للتراث الإسلامى والعربى.

يقول م . رستوفتزف:

« وعلى ذلك نرى أن حضارة العصر الهلينستى لم تصبح فى أى وقت مزيجا من الحضارة الشرقية اليونانية وإنما بقيت أو كادت تكون أغريقية صميمة فى جوهرها مع إضافة شئ قليل جدا من العناصر الشرقية إليها، ولم يكن المظهر الرئيسى الجديد لتلك الحضارة الإغريقية فى العصر الهلينستى هو طابعها الشرقى الإغريقى وإنما كان طابعها العالمى، وهذا ما جعلها مستساغة مقبولة لدى مختلف الحكومات الوطنية الجديدة التى ظهرت فى كل من الشرق والغرب.

ومع ذلك لم تتقمص إحدى الدول الجديدة فى الشرق – ومنها بارثيا– باكتريا – والهند– أرمينيا وغيرها– الثقافة الإغريقية تماما، بل بقيت العادات والأفكار الإغريقية طلاء رقيقا يكسو بناء محلياً ذا طابع شرقى صميم، وبالإضافة إلى

ذلك نرى الأثر الإغريقي في الشرق قد اقتصر وجوده على المدن وعلى الطبقات العليا من السكان، ولم يكن له أي أثر على الإطلاق على سواد الناس وعامتهم. وكان تغلغله أعمق في حياة الأمم الغربية من الأيطاليين والكلديين وأهل أيبريا والتراقيين ولكن الحضارة اليونانية بقيت هنا أيضا وفيةً لنشأتها الأولى ولطابعها الحقيقي، فكانت هي حضارة المدن وساكنيها واستمرت محتفظة بهذا الطابع.

وعلى ذلك كانت الحضارة الهلينستية لا تعدو أن تكون مظهرا جديدا في تحويل حضارة المدنية الإغريقية فحسب، بل إنه في الممالك الهلينستية التي قامت في آسيا الصغرى وفي سورية ومصر وعلى ضفاف البحر الأسود لم تتأثر الجماهير المقيمة في الريف بالحضارة الإغريقية مطلقا وإنما حرصت على التمسك بعاداتها القديمة وسجاياها وعقائدها الدينية الموروثة[1].

يقول ديلاسي أوليري: إن الثقافة اليونانية لم تنتقل إلى العرب عن هذه الاتصالات الأولى[2].

ويقول فليب حتي: ولكن الواقع: هو أن الشرق الهيلني كان شيئا مصطنعا، فديانة اليهودي: احتفظت بتقاليدها القديمـــة في وسط هذا الشرق الهليني:

وبالإضافة إلى ذلك ترى أن السلوقيين تبنوا العبادات المحلية بأشكال هلينية وأظهر أكثرهم احتراما للألهة المحلية[3].

ولكن هذا لا يعني جعل الشرق هلينيا بقدر ما يعني جعل العالم الهليني شرقيا وأصبح أفراد الجاليات اليونانية بالتدريج: أكثر تأثرا بالحياة السامية من تأثر الوطنيين بالحياة اليونانية. ونجحت الحضارة في سورية الآرامية، وفلسطين اليهودية، بأكثر من المحافظة على مكانتها بوجه عام، فأعطت أكثر مما أخذت.

والذي حصل نتيجة إدخال الهلينية: هو تمزيق البنيان الأساسي والفكري الذي كان ساميا صرفا، والسماح للتأثيرات الرومانية بالدخول فيما بعد[3].

(١) يراجع تاريخ الأمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي (١ :٢٣).

(٢) علوم اليونان ص ٩٠ .

(٢) أصبح بعل يسمى : زفس وأقيم في معبد أبولون ذلك الإله اليوناني في «وقته» وسط غابة من الشجر حيث تكثر المياه (بيت الماء) وأصبح كمركز للخلاعة فيما بعد.

(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ١ ترجمة : جورج حداد وعبد الكريم رافق، أشرف على مراجعته د/ جبرائيل جبور – دار الثقافة بيروت .

اليهود في بلاد العرب:

١- الهلينستية واليهودية:

لقد بدأ شتات اليهود - بعد تخريب أورشليم- على يد البابليين(*) عام ٥٨٨ ق. م ولجأ كثير منهم إلى مصر، وأفناء المنطقة العربية- وعندما سمح «قورش» بإعادة بناء أورشليم بعد هزيمته للبابليين ٥٣٨- فتحها لهم، غير أن بعضهم فضل الاستقرار خارجها، ولا سيما بعد أن بنى الإسكندر الأكبر: مدينة الإسكندرية، وهم مع شتاتهم ظلوا يحافظون على دينهم وقوانينهم حتى عهد «أنطيوخوس ابيفانيس ٤٧٥ - ١٦٤ ق.م» وقد حاول هذا الملك أن يشربهم الثقافة الهلينية، وأن يدخل عبادة الآلهة اليونانية في أورشليم، وصفتها التوراة «آلهة الغرباء» يقول البيروني: ولولا أن التوراة حظرت عبادة كل ما دون الله والسجود للأصنام، بل ذكرها أصلاً، وخطرها على البال؟كان يتصور من هذه اللفظة أن المأمور به هو : رفض الآلهة الغرباء دون التي ليست بعبرية[١].

وأدى صنيعه هذا من جانب اليهود إلى قيام ثورة بزعامة المكابيين، ولم يستطع «أنطيوخوس» أن يقمعها حتى خلع وقتل في سبيلها الكاهن الأعظم «أونياس» الثالث وهرب أيضاً: «أونياس» الخامس ابن الكاهن القتيل لينجو من الرجس والفوضى اللتين أشاعتهما سياسة أنطيوخوس.

غير أن «بطليموس» أحسن وفادتهم وأعطاهم معبداً مصرياً مهجوراً في: «ليونتوبوليس»[٢] حيث أقاموا هيكلا يدعى «أونياس» ربما نسبة إلى «أونياس» الكاهن، على صورة هيكل أورشليم، ولعل الترجمة[٣].... اليونانية للعهد القديم

(*) وذلك على يد بختنصر البابلي فكان من أموره على بني إسرائيل وإثخانه فيهم وهدمه لبيت المقدس وإحراقه للتوراة وقتله لأولاد الأنبياء واسترقاقه لنساء ملوكهم ولذراريهم.

روجع - الروض الأنف للسهيلي جـ١ ص ١٨٨.

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أومرذولة ص ٣٠. لأبي الريحان البيروني.

(٢) ليونتوبوليس هي : نيتو على عهد الفراعنة ومحلها الآن - كفر مقدام- بالقرب من مركز ميت غمر من أعمال محافظة الدقهلية ومازالت آثاره للآن تشاهد.

قال الشهرستاني في الملل والنحل - جـ١ ص ١٩٩ - السامرة فرقة من اليهود هؤلاء قوم يسكنون جبال المقدس وقرية من أعمال مصر. وقال : ولغتهم غير لغة اليهود، وزعموا: أن التوراة كانت بلسانهم وهي قرية من العبرانيين فنقلت إلى السريانية. نقول: لعل هي لينتوبوليس.

(٣) زكان يقرؤها يهود مصر أيام فيلون الإسكندري واليهود الذين انشقوا على الربانيين.

وهى التى تعرف باسم السبعينية[١] قد وضعت على مراحل متتالية من أجل هذا الهيكل المحلى.

أما «كاليجولا» الذى نودى به إمبراطورا فى ٣٨ ق.م فقد زينت له أوهامه أنه فوق البشر فطالب رعاياه بتأليهه وإقامة تماثيله فى مختلف المعابد. ولعله قد تأثر فى حداثته بفكرة تأليه الملوك الأحياء وهى فكرة كانت شائعة فى ممالك الشرق الهلينستى ولا سيما فى مصر، ولكنها كانت غريبة على الرومان فلم تلق بينهم رواجا كبيرا.

رفض اليهود الامتثال لأمر الإمبراطور الخاص بإقامة تماثيله فى جميع المعابد، ولم يكن من المعقول أن يقبل اليهود تدنيس معابدهم بتماثيل البشر مهما جل قدرهم وهم يؤمنون بإله واحد فاقتحم الإسكندريون معابدهم ونصبوا فيها تماثيل كاليجولا بالقوة فلما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للإمبرطور.

وكان من البدهيّ ألا يسكت اليهود على ما أصابهم من هوان تجاوز حد الاحتمال فى تلك الفتنة.

ففى شتاء ٣٨/٣٩/٤٠ على الأرجح أوفد اليهود إلى رومة سفارة من خمسة أعضاء على رأسهم «فيلون» وأوفد الإسكندريون سفارة مثلها على رأسها «أبيون» لكى يعرض كل من الفريقين قضيته على الإمبراطور ،وشاء حظ اليهود التعس أن يتلقى كاليجولا وقتئذ نبأ تدمير الجالية اليهودية لمعبد أقامه الإغريق فى بلدة «بامنيا» على ساحل فلسطين فتثور ثائرته ويبعث إلى بترونيوس حاكم سورية يطالبه بصنع تمثال له وتنصيبه فى معبد اليهود الكبير بأورشليم .

وقدتضمنت مطالب اليهود - فيما يبدو- حرية العبادة وفقا للشريعة الموسوية وتحديد وضع جاليتهم فى المدينة أو بالأحرى اكتساب حقوق المواطنة السكندرية، وقد صدموا عندما ابتدرهم كاليجولا بأنهم قوم كفرة لا يؤمنون بألوهيته .

---

(١) وفى مدرسة الإسكندرية التى كانت تتميز بميزات خاصة أتى اتصال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية بالثمار فى إصدار الترجمة SEPTUGINT النسخة الإغريقية لأسفار العهد القديم، وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنه يظن أن سبعين مترجما قاموا بوضعها فى القرنين الثالث والثانى، أو ربما تنتسب إلى مجلس الشيوخ GEROUSIA البالغ عدده واحداً وسبعين عضوا لموافقته عليها وقد حرفت الكنيسة المسيحية «العهد القديم» عن طريق هذه التسمية على الأرض (تراث العالم (١ :٢٢).

أجاب الوفد اليهودى بأنهم نحروا الثيران من أجل الإمبراطور: مرة عند اعتلائه ومرة أخرى بعد شفائه من مرضه، ومرة ثالثة ابتهاجا بانتصاره فى حملته على الرين. وعندئذ قال كاليجولا:

قد يكون صحيحا أنكم قدمتم القرابين من أجلى ولكنكم قدمتموها لإله آخر فما فائدة ذلك، إنكم لم تقدموا القرابين لشخصى[1].

ولم يفز اليهود منه بطائل إذ صرفهم قائلا: يبدو لى أن من تبلغ بهم الغباوة إلى الحد الذى لا يؤمنون معه بألوهيتى هم أجدر بالرثاء منهم بالعقاب.

وبعد أن خلفه بعد اغتياله كلوديوس تراءى ليهود مدينة الإسكندرية أن الفرصة قد حانت لتسوية حسابهم مع الإغريق فتقدموا بمطالبهم وهى حقوق المواطنة الكاملة بها.

غير أن مطلب اليهود كان يظهرهم بمظهر المتناقض ذلك أن المدينة اليونانية كانت مدينة وثنية تؤمن بأكثر من إله واحد، وكان الدين فيها مرتبطا بالحياة الاجتماعية والسياسية ارتباطا وثيقا فكان خليقا باليهود أن ينأوا بأنفسهم عن هذه الحياة أو أن يتنازلوا عن دعاواهم بأنهم عبدة الإله الحق الأوحد.

لذلك يرجح كثير من الباحثين الآن أن اليهود كانوا منقسمين إلى :

* فريق متزمت.
* وفريق متحلل بعض الشئ من قيود الشرعية الموسوية ومتأثر بأساليب الحياة اليونانية.

ولعله كان هناك حزبان بين الإسكندرانيين.

* حزب المتهورين أو المتطرفين.
* وحزب المتزمتين أو المعتزلين .

وعندما أرسل اليهود بمطالبهم أرسلوا بعثتين إحداهما تمثل الطائفة المحافظة والأخرى تمثل الطائفة المتحررة التى تأثرت بالثقافة وأساليب الحياة اليونانية .

---

(١) مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ص ١٠٠ د. عبد المطلب أحمد على - دار النهضة العربية ١٩٧٤ .

وظلت هذه الاشتباكات بين اليهود والإغريق من ناحية وبين الرومان واليهود من ناحية أخرى، إلى أن قامت ثورة اليهود الكبرى وهى أكبر ثورة نشبت بين اليهود فى مصر منذ الفتح الرومانى فى آخر عهد مكسيموس.

أخذت علاقة اليهود والرومان فى التدهور السريع بعد ثورتهم فى فلسطين سنة ٦٦ وتدمير معبدهم الرئيسى بأورشليم سنة ٧٠ وقد زادها سوءاً ذلك القرار الذى أصدره فسبسيان بارغام اليهود على دفع ضريبة الدينارين لمعبد الإله جوبيتر فى روما بدلا من دفعها لمعبد أورشليم، وقراره الآخر بتدمير معبد أونياس فى لينتو بوليس بمصر وهو (تل مقدام) الذى ارتابت فيه الحكومة فى أنه مركز لنشاط الحركة اليهودية الأخيرة. وصارت أملاكه وهو معبد كان قد شيد حوالى ١٦٠ ق. م. لمنافسة معبد فلسطين. لذلك قام اليهود وتعمدوا بالذات بهدم معابد وتماثيل الآلهة اليونانية: أبولون، وزيوس، وهكاتى، وغيرها من المعابد كمعبد إيزيس والمعبد القيصرى ودمروا حمامات المدينة وأروقتها المسقوفة وأنديتها وملاعبها وعاثوا فى الحقول فسادا حتى أصبحت جدباء، وامتد لهيب الثورة إلى قبرص حتى أن مواطنيها أصدروا فيما بعد قرارا يحرم على اليهود أن تطأ أقدامهم أرض الجزيرة، وتنتهى بوقوف الإمبراطور هدريان فى صف اليهود بعد ثورتهم الأخيرة وقضائه بمعاقبة زعماء الإغريق.

وكانت ثورة المكابيين على صنيع أنطيوخوس تعنى :

* عدم إحلال الوثنية محل الدين اليهودى وإقامتها مكانه فى معبد أورشليم، هذه الوثنية أراد أنطيوخوس من تطبيقها إخضاع الشرق له سياسيا ودينيا. ووصف اليهود صنيعه هذا «بالرجس المخرب»[1].

* عدم سيطرة الهلينية من حيث اللغة والثقافة على لغتهم وثقافتهم.

* قيام حركة يهودية قوية تدعو إلى رعاية، تقليدهم العبرية واستعمال لغتهم ضد سيطرة الهلينية وثقافتها.

* تضمين دعوتهم أنهم خير الأجناس وعليهم الانفصال عن «الشعوب» غير اليهودية وما فيها وحولها من تطرف .

---

(١) سفر أعمال الرسل .

* لازم قيام هذا التطرف: قيام حركة اليهود الربانيين، ويبدو أنها كانت ذات قدرة، لأنها تحملت من جانبها عبء دعوة تطبيق الشريعة اليهودية على جاليات اليهود فى أى مكان، من مراعاة جميع الطقوس وسائر السنن الشرعية إلى الختان، وفرضا لازما.

ثم أُصدِرَتْ عدة فتاوى تتسم بالجرأة وتخدم الروحين الوطنية والدينية معا منها:

* تحريم قراءة الأسفار المقدسة فى البيعة اليونانية .

* تحريم قيام أى صلات ودية مع الوثنيين أو غيرهم من المختونين.

أصبحت الشريعة الموسوية أكثر صرامة، وازدهارا بفضل شروح الربانيين.

وبهذه الروح القومية الدينية استطاعت اليهودية أن تعمل. وهى فى شتاتها مبعثرة على إحياء دينها، ولغتها وثقافتها، وترابط جنسها، وهذا من الأمثلة النادرة فى التاريخ الإنسانى .

وبلغ من موقفهم أن الأسفار التى أثر فيها الفكر اليونانى تعتبر لدى اليهود محذوفة لأنها فى نظرهم تحمل طابعا رواقيا[1] .

ثم أخيرا كانت الأسفار التى تنسب إليهم وهى : أى أسفارهم التى تنسب إليهم – أربعة :

الأول: وهو أهمها من الناحية التاريخية: يروى الأحداث التى جرت فى إقليم يهوذا Judee منذ حكم أنطيوخوس الرابع حتى موت سيمون (١٧٥ إلى ١٣٥ ق.م) .

الثانى: يتناول قسما من الحقبة عينها بصورة موجزة .

الثالث: يروى أحداثا عجيبة خاصة بالملك بطليموس الرابع فيلوباتر، ويعنى خصوصا ببيان كيف أن العناية قد أنقذت يهود الإسكندرية من بين أيدى ذلك الحاكم.

(١) نلاحظ عندما نقرأ ما كتبه الشهرستانى عن اليهودية أو فرقها: عدم وجود مسحة من التراث الفلسفى اليونانى على اليهودية، وينسب الشهرستانى: تحيرهم وتفرقهم: إلى دعوة موسى عليهم، كذلك لا نجد من قريب ولا من بعيد قضية من قضايا الفلسفة. إنما الذى لاحظناه: أن الاختلاف يدور حول الأخذ بالنص أو التأويل، ووراء ذلك كله حبهم لعزلتهم القومية

الرابع: هو بحث فلسفي ينسب إلى المؤرخ يوسفوس وفيه يجرى الحديث عن الشهداء الشباب الذين يطلق عليهم خطأ اسم المكابيين السبعة الذين حكم أنطيوخوس إيفانوس بإعدامهم لأنهم رفضوا الأكل من لحوم ذبحت للأصنام[١].

وهذه الحركة الإصلاحية التى قامت ضد الهلينية ووثنيتها، كان من آثارها عند اليهود: أن خلقت لديهم ميلا طبعيا إلى العزلة القومية منعت بها السيطرة القومية اليونانية، ومما لا يمكن إنكاره: أن سياسة العزلة المصطنعة قوت الإخلاص الدينى وأوجدت سموا خلقيا يناقض الانحلال السائد فى العادات الأغريقية الرومانية، والإغريقية الشرقية، وكلها أبعدت الأمم عن أى نصيب من الميراث الروحى. هذا من جانب، ومن جانب آخر: أن سياسية العزلة جعلتهم يرون:

أن الالتزام بتبشير الأميين بعقيدة موسى لا يعتبر مبدأ من مبادئ ناموسهم كما أنهم لم يميلوا إلى فرضه على أنفسهم باعتباره واجبا يتطوعون لأدائه .

واليهودية بعزوفها عن التبشير لتتفق تماما مع تعاليمها التى تقضى بأنها دين للعبرانيين فقط، غير أنها: راحت تبشر بنوع غريب كالسحر، وعلم التنجيم، وكان لديهم كتبهم الخاصة فى السحر، وتعاويذه ورقاه[٢].

هذا الموقف الصارم، أو التطرف اليهودى، أفسح مكانا لوجهة نظر نقدية عامة معاصرة، تصف الدعوة بالتطرف حين قيامها فتقول:[٣] إن الثقافة اليهودية لا تعدو أن تكون منقولة عن الغير،وإنهم لا يشاطرون من حولهم أى شعور بالأخوة البشرية، بل ينطوون على أنفسهم، وإنهم فى الحقيقة: ملحدون؟ لأنهم يقولون: بأن لا وجود فى الحقيقة لأى إله إلا «يهوه»، وهى تهمة كانوا هم أنفسهم السبب فى إثارتها، بإصرارهم على أن ما تعبده الشعوب الأخرى هو الصورة والتمثال الفعلى، وليس (كما هو الواقع) الله الذى لم يكن التمثال إلا رمزا له[٤].

---

(١) الشرق والتراث اليونانى هامش ص ٣٢ ترجمة د. عبد الرحمن بدوى

(٢) يراجع علوم اليونان ص ٥٨ .

(٣) الحضارة الهلينية ص ٢٤٨ .

(٤) كانت العقيدة اليهودية فى القرن الأول، ذات وضع عجيب: فهى من ناحية نظام يرفض تقبل الأفكار الأغريقية، فى حين أنه يفتح الباب على مصراعيه لتقبل مؤثرات الشرق– كعلم التنجيم، وعلم مس الشياطين، والسحر، ذلك أنها كانت تأمل أن تحصل بفضل هذه الأمور على خدام يخدمون روحها : الحضارة الهلينية ص ٢٤٩

على أية حال كافحت اليهودية كثيرا ضد وجهة نظر «أنطيوخوس» غير أنها وقعت – وهى إذ تحاول الاحتفاظ بمفهوم «المقدس الحقيقى» – تحت تأثيرات تصوراتها الذاتية عن سمو جنسها: فضيقت معناه تضييقا جنسيا.

عوامل هجرة اليهود إلى الجزيرة العربية:

إن اليهود يرغبون عن الدعوة إلى دينهم، على أساس: أن اليهودية للعبرانيين أولاد يهوذا بن يعقوب جنسا، وأتباع موسى دينا، وليست دينا لغيرهم من الأجناس، وأن إلههم وهو: «يهوه»، هو الإله الحقيقى، وغيره من الآلهة إنما هو مثل له، وأن كل نداءات التوراة خاصة «بيهود» فهى ليست دينا تبشيريا، لذلك لم يقم الأحبار بالدعوة إليها، وجانب آخر: هو أن عدم استقرارهم السياسى: ساعدهم على عدم التبشير، زادهم تمسكا بدينهم .

من هنا: تعلم أن الديانة اليهودية، التى دخلت فى بلاد العرب، لم تكن للتبشير، وإنما كانت لمجرد الهجرة عندما انتقلت جماعات اليهود الذين فروا من اضطهاد الرومان فى القرن الأول الميلادى «ولا شك أنه كانت هناك أسباب دعت اليهود إلى ترك أوطانهم والنزوح منها إلى البلاد العربية وأهم هذه الأسباب :

١ – زيادة عدد اليهود فى فلسطين زيادة مطردة، فقد قيل: إنهم بلغوا أربعة ملايين[(١)].

٢ – اضطهاد الرومان لليهود فى القرن الأول قبل الميلاد، ولجوءهم إلى أرض الجزيرة العربية، التى كانت أحب إليهم من غيرها: لأنظمتها البدوية الحرة، لوجودهم فى أقاليم رملية بعيدة، تعوق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها[(٢)].

٣ – بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود فى أصقاع العالم قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب[(٣)].

---

(١) تاريخ الإسلام العام ص ١٦٣ دكتور على إبراهيم حسن.

(٢)(١: ٢٤)

(٣) تاريخ الإسلام العام .

فاليهودية وجدت فى بلاد العرب نتيجة اضطهاد اليهود،وترتب على ذلك أن العرب المجاورين لهؤلاء الأقوام تهودوا دينا أو ثقافة تبعا لمجاورتهم تلك الجموع اليهودية. وكان أصل اليهود باليمن - كما يذهب كُتّاب السيرة- يرجع إلى الحبرين الذين رافقا تُبّعًا فى رحلته إلى اليمن وهدما البيت المسمى برئام. ومعنى هذا الرأى: أنه يذهب إلى أن اليهودية دخلت وفق دعوة تبشيرية. ولا مانع لدينا أن تكون اليهودية فى عصرها الأول كان لها دعوة تبشيرية أو أنها أرادت أن ترد على الاضطهاد الوثنى لها فبشرت لتهدم البيت الوثنى المسمى «رئام» وهذا كله إن صحت الرواية.

يقول السهيلى صاحب الروض الأنف: غير أنه وجد فى الأوس والخزرج من قد تهود،وكان من نسائهم من تنذِر إذا ولدت أو عاش ولدها أن تهوده؛لأن اليهود عندهم كانوا أهل علم وكتاب .

ورأى يرى أن يهودية اليمن ترجع إلى أجدادهم الذين ظعنوا إلى ذلك القطر منذ عهد سليمان.

ومع ذلك لم تستطع اليهودية أن تتغلب على الوثنية فى بلاد العرب؛لأن كثيرا من أحكامها مبنى على المشقة فضلا عن الرفض اليهودى للاندماج بالأمم ، ثم أخيرا انصراف العرب عن تحصيل مواردهم الثقافية وعدم ميلهم إلس مثل هذا التغيير.

٢- اليهودية فى جزيرة العرب :

وردت لفظة «يهود» معرفة فى القرآن الكريم «اليهود» .

وردت فى مواضع من سورة البقرة آية ١٣٤ ، ١٤٠ ، فى سورة المائدة آية ١٨ ،٥١، ٦٤ ، ٨٢ ، فى سورة التوبة آية ٣٠ .

وكلها سور مدنية، ولم ترد فى سورة من السور المكية، كما وردت لفظة «يهوديا» فى سورة آل عمران، فى شرح ديانة إبراهيم. قوله تعالى : ﴿ مَاكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا ...﴾ إلخ، وهى من السور المدنية كذلك .

وعبر القرآن عن: «اليهود» وعن مقتضى «اليهودية» بـ ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾، ﴿مَن كَانَ هُودًا﴾، ﴿ كُونُوا هُودًا ﴾،﴿ كَانُوا هُودًا﴾، وسورتا : الأنعام، والنحل من السور

المكية، وبناء على ذلك تكون جملة ﴿ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قد نزلت قبل نزول لفظة «اليهود» فى القرآن الكريم.

ومن صور المنهج الرفيع فى القرآن الكريم: استعمال اسمين عند التحدث عن العبرانيين، فهم تارة : «اليهود» ، وتارة أخرى «بنو إسرائيل» وتقوم عبارة ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ فى بعض المواضع مقام لفظ «اليهود» والقرآن الكريم حينما يستعمل الاسمين لا يفعل لأنهما مترادفان: كما يقول مثلا: «المسيح» و«عيسى بن مريم» — بل يطلق عليهم «اليهود» ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ فى مواضع السخط أو التنديد بسيئ أعمالهم، أو عند حكاية ما أصابهم من الذلة والعبودية لفساد طويتهم، وسوء نيتهم.

أما إذا جاءت فى مواضع من القرآن الكريم: تذكر بفضل الله تعالى على هؤلاء القوم ذواتهم، أو اصطفاء الله تعالى لهم، وإسناد الرسالة إلى رجال منهم، وإسباغ الحكمة والنبوءة عليهم ... إلخ فإنه يطلق عليهم عبارة : «بنى إسرائيل» . واستعمال هذين الاسمين : مقصود، ولم يأت عفواً، فإسرائيل هو : «يعقوب» ، و«يعقوب» نبى من أنبياء الله تعالى، ورث عن أبيه «إسحاق» وعن جده «إبراهيم» رسالة الدين الحنيف.

ومن هنا لا يتحدث القرآن عن أولاد «يعقوب» — أى بنى إسرائيل— إلا بالخير والرضا، فإذا صدر منهم ما يغضب: فالقرآن يسميهم اليهود.

أما الشئ الذى لم يرد فى القرآن: فهو مصطلح «عبرى وعبرانى» فإنه لم يرد فى القرآن مطلقا، وهذا يدل فى نظرنا على أن «العبرى أو العبرانى» ليس خاصًا «باليهود» من حيث هم جنس .

ولما كانت فلسطين امتداداً طبيعياً للحجاز، كان من الطبيعى اتصال سكانها بالحجاز، واتصال سكان الحجاز بفلسطين، وذهاب جاليات «يهودية» إلى العربية الغربية للاتجار وللإقامة هناك، خاصة بعد فتوح الدول الكبرى لفلسطين، واستيلائها عليها، وهجرة اليهود إلى الخارج فكانت العربية الغربية لاتصالها بفلسطين من الأماكن الملائمة المناسبة لهجرة اليهود إليها وإقامتهم فيها، ولا سيما عند مواضع

(١) المفصل جـ٦ ص ٥١٢ ، ٥١٣ .

المياه، وفى الأرضين الخصبة الغامرة، غير أننا لا نستطيع التحدث عن هجرة اليهود هذه إلى هذه الأنحاء حديثا علميا معززا بالكتابات والتواريخ، ولم يترك يهود جزيرة العرب لهم أثرا مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها، وكل ما عثر عليه منهم نصوص معدودة وجدت في اليمن لا تفصح بشئ ذى بال عن :«اليهود» و«اليهودية» كذلك لم يصل إلينا أن أحداً من المؤلفين والكتبة العبرانيين ذكر شيئا عن يهود الجاهلية، وليس لنا من تأريخ اليهود فى جزيرة العرب إلاّ ما جاء فى القرآن الكريم، وفى الحديث وكتب التفسير والأخبار والسير،فمادتنا عن تأريخ «اليهودية» فى العربية لا ترتقى إلى عهد بعيد عن الإسلام،ويتبين من روايات المؤرخ اليهودى «يوسفوس فلافيوس» أن: «اليهودية» كانت قد وجدت لها سبيلاً بين العرب، وأن بعض ملوك مملكة «حدياب» كانوا قد دخلوا فيها، ويذكر المؤرخ «سوزومين» أن اليهود كانوا ينظرون إلى العرب الساكنين شرق الحد العربى على أنهم : من نسل «إسماعيل» وأنهم كانوا يرون أنهم من نسل «إسماعيل» و«إبراهيم»[١] .

فهم من ذوى رحمهم، ولهم بهم صلة قربى؛ وكانوا يرجون لذلك دخولهم فى دينهم، واعتقادهم دين «إبراهيم» جد «اليهود» و«العرب»، وقد عملوا على تهويد أولئك العرب .

ويظهر من مواضع من التلمود أن نفراً من العرب دخلوا فى اليهودية، وأنهم جاءوا إلى «الأحبار» فتهودوا أمامهم، وفى هذه المرويات التلمودية تأييد أهل الأخبار، التى تذكر أن «اليهودية» كانت فى حمير وبنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة وغسان» .

وذكر اليعقوبى: أن ممن تهود من العرب: اليمن بأسرها، وكان تُبع حمل حبرين من أحبار يهود إلى اليمن، وأبطل الأوثان وتهود من باليمن وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام[١] .

وقد ذكر علماء التفسير فى تفسيرهم الآية : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ .. ﴾ أنها نزلت

(١) المفصل جـ٦ ص ٥١٤ .

في الأنصار. وكانت المرأة في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن «تهوده» فتهود قوم منهم؛ فلما جاء الإسلام أرادوا إكراههم عليه فنهاهم الله عن ذلك حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام، أو أنهم لما بقوا على يهوديتهم، وأمر اليهود بالجلاء وفيهم من شق على آبائهم نزول أبنائهم يذهبون مع اليهود فقالوا: يا رسول الله أبناؤنا وأخواتنا فيهم. فسكت عنهم رسول الله ﷺ - فأنزل الله تعالى :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ فقال رسول الله: قد خير أصحابكم، فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم .

وذكر العلماء أيضاً : أن ناساً من الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة وغيرهم من «يهود فتهودوا» وأن من الأنصار من رأى في الجاهلية أن «اليهودية» أفضل الأديان فهودوا أولادهم . فلما جاء الإسلام، ودخلوا فيه أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه فنزل الوحي بالآية المذكورة.

ويرى بعض المؤرخين اليهود: أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل وانفصال عن بقية أبناء دينهم، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن «يهود العربية» مثلهم في العقيدة، بل رأوا أنهم لم يكونوا «يهوداً» لأنهم: لم يحافظوا على الشرائع «الموسوية» ولم يخضعوا لأحكام التلمود، ولهذا لم يرد عن «يهود» جزيرة العرب شئ في أخبار المؤلفين العبرانيين[1] .

يقول جواد علي : أن عدم ورود شئ عن «يهود» الحجاز في أخبار المؤلفين العبرانيين لا يمكن أن يكون دليلاً على عزلة يهود الحجاز عن بقية اليهود فقد أهمل غيرهم أيضاً، ولم يشر إليهم. لأن التأليف والنشاط الفكرى عند العبرانيين كانا قد تركزا في هذه العهود على المستوطنات «اليهودية» في «العراق» وعلى فلسطين وعلى طبريا» بصورة خاصة، ولم تشتهر الجاليات «اليهودية» التي انتشرت في مواضع أخرى بالتأليف؛ فكان من الطبيعي أن تنحصر أخبار «اليهود» في هذا العهد في هذين القطرين، ولهذا لم يشر إلى «يهود» الحجاز وإلى «يهود» بقية جزيرة العرب[2] .

يقول إسرائيل ولفنسون في بيان سبب إغفال ذكر «يهود العرب» في مؤلفات اليهود: «وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث ق. م. أنهم كانوا: يستنكرون وجود يهود في الجزيرة العربية؛ ويقولون: إن اليهود في جهات

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥١٤، ٥١٥، الطبرى جـ٣ ص ١٠ وما بعدها .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٥١٥، ص ٥١٦ .

خيبر ليسوا يهوداً حقاً، إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية، ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً» ويقول:.

«كان العالم شير يعتقد أن اليهود فى بلاد العرب كانت لهم صبغة خاصة وكانت يهودية فى أساسها، ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودى؛ يقول معلقا: وبقيت هذه البطون العربية على أديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية، فعدت من موالى اليهود.

وإذا وفقنا إلى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجهة الدين والعقلية، فإن من المتعذر أن نوفق إلي: التمييز بين العنصرين من وجهة الأخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لأن:

اليهود الذين سكنوا فى بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم، واتبعوا سبيلهم، فى النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربى».

ويقول: ولا أعلم فى تاريخ اليهود القديم إقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات وتقاليد أبنائه إلى هذا الحد سوى: إقليم الجزيرة العربية[1].

ويرى بعض الإخباريين: أن ابتداء أمر اليهود فى الحجاز، ونزولهم وادى القرى، وخيبر وتيماء، ويثرب؛ إنما كان فى أيام «بختنصر» فلما جاء «بختنصر» إلى فلسطين هرب قسم منهم إلى هذه المواضع، واستقروا بها إلى مجئ الإسلام، وليس فى الخبر ما يحملنا على استبعاده، فهروب اليهود إلى أعالى الحجاز ودخولهم الحجاز أمر سهل يسير فالأرض واحدة وهى متصلة، والطرق مفتوحة مطروقة، ولا يوجد أى مانع يمنع اليهود أو غير اليهود من دخول الحجاز؛ ولا سيما أن اليهود كانوا خائفين فارين بأنفسهم من الرعب؛ فهم يبحثون عن أقرب ملجأ إليهم يحميهم من فتك بابل بهم، وأقرب مكان مأمون إليهم هو : الحجاز.

وفى رأى البلاذرى: أن اليهود نزلوا يثرب قبل الأوس والخزرج فيقول: رواية عن العباس بن هشام الكلبى عن أبيه عن جده محمد بن السائب قال: لما هدم «بختنصر» بيت المقدس، وأجلى من أجلى وسبى من سبى من بنى إسرائيل لحق قوم منهم بناحية الحجاز، فنزلوا وادى القرى ويثرب، وكان بيثرب قوم من جرهم،

(١) تاريخ اليهودية فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ص ١٣ لجنة التأليف والترجمة .

وبقية من العماليق قد اتخذوا النخل والزرع، فأقاموا معهم وخالصوهم فلم يزالوا يكثرون، وتقل جرهم، والعماليق، حت نفوهم عن يثرب واستولوا عليها وصارت عمارتها ومراعيها لهم، وبقى اليهود خارجها إلى أن هاجر إليها الأوس والخزرج[(١)].

وعن الطائف يقول: كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية.

ونقل البلاذرى أن أهل «مقنا» كانوا يهوداً صالحهم الرسول ﷺ على ربع عروضهم خشب يصطاد عليه – وربع ثمارهم، وقال: وأخبرنى بعض أهل مصر أنه رأى.

أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن: هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب، وأعالى الحجاز على أثر ظهور «الروم» على بلاد الشام، وفتكهم بالعبرانيين، وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخى، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين، ومن هؤلاء المهاجرين على رأى الإخباريين: بنو قريظة وبنو النضير. ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب، فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه وبيا فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائداً أمروه أن يلتمس لهم منزلاً طيباً وأرضاً عذبة إذا بلغ العالية وهى : بطحان، ومهزور– واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه وعيون غزيرة – رجع إليهم بأمرها وأخبرهم بما رآه فقر رأيهم على الإقامة فيها، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان، ونزلت قريظة ومن معها على مهزور، فكانت لهم تلاعه، وما سقى من بعاث وسمورات[(٢)].

وقد عرف بنو قريظة، وبنو النضير من بين اليهود، بـ(الكاهنين) نسبوا ذلك إلى جدهم، الذى يقال له «الكاهن» وهو الكاهن بن هارون بن عمران. على زعم أهل الأخبار،فهم على هذه النسبة من أصل رفيع، ومن نسب حسيب يميزهم عن بقية طوائف يهود، ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من إخوانهم فى الدين.

ويرى نولدكه: احتمال كون بنى النضير وبنى قريظة من طبقة الكهان فى الأصل، هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التى وقعت فيها فسكنوا فى هذه

(١) فتوح البلدان ص ٢٩ للبلاذرى – مراجعة : رضوان محمد رضوان
(٢) المفصل جـ٦ ص ٥١٧، ص ٥١٨ الأغانى جـ ١٩ ص ٩٤

الديار، وهناك عشائر وأسر يهودية تفتخر بإلحاق نسبها بالكاهن «هارون» شقيق «موسى» النبى.

كذلك يرجع أوليرى: كأمثاله من المستشرقين أصل بنى قريظة وبنى النضير إلى اليهود،ويرى: أنهم غادروا ديارهم وجاءوا إلى هذه المنطقة فى الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل فى عام ٧٠ للميلاد، وتنكيل «هدريان» باليهود فى عام ١٣٢ للميلاد؛ يرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم إلى الكاهنين وإلى الأسباط العشرة[١].

ويرى المقدسى: أن سبب لجوء اليهود إلى المدينة هو: الهروب من الاضطهاد الرومانى فيقول:.

جاء فى الخبر أن: طسطوس بن استينانوس الرومى الكافر لما خرب بيت المقدس إحدى المرتين، وتفرقت بنو إسرائيل جاءت قريظة والنضير وهما: من صريح ولد «هارون بن عمران أخى موسى بن عمران» حتى نزلوا يثرب وذلك فى الفترة؛ وكان نزول الأوس والخزرج إياها زمن سيل العرم لا شك؛ ويقال إن مسقط يهود إليها من عهد «موسى بن عمران»؛ وذلك: أنه بعث جيشاً إلى يثرب وأمرهم أن يقتلوا كل من وجدوا على قامة السوط. قال: فقتلوا إلا غلاماً لم يروا أحسن منه فإنهم استبقوه وانصرفوا إلى الشام. وإذا «موسى» قد ملك، وتبرأت بنو إسرائيل من هذه الطبقة لمخالفة أمر «موسى» واستحيائهم من هذا الغلام، فأقبلو راجعين إليها واستوطنوا بها فإن كان هذا حقاً فقد سبقوا الأوس والخزرج إلى يثرب[٢].

وكان بنو «قينقاع» أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء، وكانوا يسكنون فى أحياء يثرب، وكانوا أغنياء على غير وفاق ووئام مع بقية أبناء قومهم بنى قريظة وبنى النضير، وقد اشتركوا فى يوم «بعاث».

ويرى أوليرى: احتمال كون بنى قينقاع من أصل عربى متهود أو من بنى «أدوم» وقد تكون بعض القبائل اليهودية التى ذكر أسماءها الإخباريون قبائل يهودية حقاً أى من الجماعات اليهودية التى هاجرت من فلسطين فى أيام القيصر «طيطوس» أو «هدريان» أو قبل أيامها أو بعدها؛ ولكن بعضا آخر منها لم يكن من أصل يهودى؛ إنما كانت قبائل عربية دخلت فى دين يهود؛ ولا سيما القبائل المسماة

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٢٤ .

(٢) البدء والتاريخ - البلخى المقدسى مجلد٢ ص ١٣٠ .

بأسماء عربية أصيلة ولبعض هذه الأسماء صلة بالوثنية تشعر أنها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود.

والظاهر أنها تهودت إما بتأثير التبشير، وإما باختلاطها ودخولها فى عشائر يهودية جاورتها فتأثرت بديانتها.

وقد ذكر البكرى أن بنى حشنة بن عكارمة وهم من بلىّ، قتلوا نفراً من بنى الربعة ثم لحقوا بتيماء فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم فتهودوا، فأدخلوهم المدينة فكانوا معهم زماناً ثم خرج نفر إلى المدينة فأظهر الله الإسلام، وبقية من أولادهم بها وهنالك بطون أخرى عربية الأصل كانت على دين يهود.

وقد اشتهر يهود خيبر من بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم. وخيبر موضع غزير المياه كثيره، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل وزعم أن يهود خيبر هم من نسل – ركاب– المذكور فى التوراة وأن –يوناداب– Jamadeb جندب ابنه تبدى مع أبنائه ومن أتباعه، وعاش[١] عيشة تقشف وزهد وخشونة، وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول إلى الحجاز حتى بلغوا خيبر فاستقروا بها، واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب، وأنهم أقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم[٢]، وذهب المستشرق أن كلمة خيبر كلمة عبرانية الأصل Kheber ومعناها الطائفة والجماعة، وذهب بعضهم أن معناها الحصن والمعسكر[٣] وقد ذهب بعض المستشرقين استناداً إلى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الإسلام إلى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً بل كانوا عرباً متهودين تهودوا بتأثير الدعاة اليهود، ولكن الاستدلال من دراسة الأسماء على أصول الناس لا يمكن أن يكون حجة للحكم على أصولهم وأجناسهم: فالفرس والروم والهنود وغيرهم ممن دخل فى الإسلام تسموا بأسماء عربية، وبعضها أسماء عربية خالصة[٤].

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٢٤، ص ٥٢٥ ، الملوك الثانى الإصحاح العاشر الآية ١٥ – ١٨ .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٢٦.
(٣) المفصل جـ ٦ ص ٥٢٦، ص ٥٢٧
(٤) المفصل جـ ٦ ص ٥٣٠ .

وتسمياتهم هذه لا تعنى أن من تسمى بها كان عربى الأصل. ثم إن كثيرا من اليهود فى الغرب وفى أمريكة وفى البلاد العربية والإسلامية سموا أنفسهم بأسماء غير عبرانية، ولكنهم كانوا وما زالوا على دين يهود والأسماء وحدها لا تكفى فى إعطاء رأى علمى فى تعيين الأصول والأجناس، ولا سيما فى المواضع الكائنة على طرق التجارة والمواصلات وفى الأماكن التى يكثر فيها الاختلاط.

وللمستشرق – ونلكر– رأى فى هذا الموضوع، خلاصته:.

أن أولئك لو كانوا يهوداً حقا هاجروا من فلسطين إلى هذه المواضع لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعى على خلاف ما كان عليه هؤلاء اليهود[1].

ولكن اليهود مع ما كان لهم من قلاع وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأراضى التى أنشأوا مستوطناتهم فيها، ولم يتمكنوا من إنشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام اليهود، بل كانوا مستقلين فى حماية سادات القبائل يؤدون لهم إتاوة فى كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم ومنع الأعراب من التعدى عليهم، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم فكان لكل زعيم يهودى حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين[2]وكان جل اعتماد اليهود فى هذه المنطقة عند ظهور الإسلام على التجارة ومعاطاة الربا والزرع، وبعض أنواع الصناعة كالصياغة، وتربية الماشية والدجاج، وصيد الأسماك فى أعالى الحجاز على ساحل البحر الأحمر، واشتهروا بالاتجار بالبلح وبالبر والشعير والخمر، وكانوا يجلبون الخمر من بلاد الشام، وكانوا يبيعون بالرهن، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه. وقد ورد أن الرسول رهن درعاً له عند يهودى من أهل يثرب فى مقابل شعير كان به حاجة شديدة إليه.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٣٠ ، ص ٥٣١ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٣٢ ، ص ٥٣٣ .

ومن الصناعات التى اشتغل بها اليهود - النسيج وهو من اختصاص نسائهم على الأكثر، والصياغة وقد اختص بها بنو قينقاع، والحدادة وهى صناعة يأنف منها العرب ويزدرونها ويرونها من الحرف الممقوتة الحقيرة[١].

ويذكر أهل السير والأخبار:

أن يهود يثرب كانوا إذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبى يستعلون به عليهم.

ففى رواية عن بعض الصحابة أنهم قالوا: كنا قد علوناهم فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون لنا: إن نبيا يبعث الآن نتبعه، قد أطل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم ولما ذكرهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور ونفر آخرون بدعواهم تلك، وبظهور النبى العربى بقولهم لهم: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فكان جواب يهود لهم ما جاء على لسان سلام بن مشكم أحد بنى النضير: ما جاءنا بشئ نعرفه وما هو بالذى كنا نذكره لكم، وقد أشير إلى ذلك فى القرآن الكريم بقوله تعالى

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢]
البقرة آية ٨٩.

قد ذكر المؤرخ النصرانى فيلوستورجيوس Philostorgius فى حوالى سنة ٤٢٥م أن أهل سبأ كانوا يتبعون في السبت سنة إبراهيم ولكنه ذكر أيضا أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر ومعبودات أخرى، وأن بعضاً منهم كان على دين يهود، وأنه

(١) أيضا المفصل جـ٦ ص ٥٣٥، ص ٥٣٦ وأيضاً صحيح البخارى جـ٢ ص ١٦ ، ص ٤٥ .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٣٦ ، ص ٥٣٧ .

قاوم رسالة (ثيوفليس) الذى أرسله القيصر قسطنطين ٣٤٠-٣٦١م للتبشير بين الحميريين وذكر المؤرخ - ثيودوروس Theodoruslector وهو من رجال النصف الأول للقرن السادس للميلاد.

إن الحميريين كانوا فى بادئ أمرهم على دين يهود، دخلو فيه أيام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع سليمان، بدعوتها إياهم إلى هذا الدين ولكنهم كما يقول هذا المؤرخ عادوا فارتدوا إلى الوثنية، ثم دخلوا بعدئذ فى النصرانية فى أيام القيصر أنسطاس Anastasius ولم يشر هذا المؤرخ إلى وجود اليهودية بين الحميريين كما أنه لم يشر ولا المؤرخ الآخر إلى تهود أحد من ملوك حمير[1] وورد فى أخبار الشهداء الحمريين أن أحباراً من فلسطين من طبريا كانوا قد جاءوا إخوانهم فى الدين يهود اليمن وسكنوا معهم، ومعنى هذا أن الصلات بين يهود اليمن ويهود فلسطين كانت موجودة، وأن يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين، ويجب أن يقال مثل ذلك عن يهود الحجاز إذ لابد أن يكون ليهود الحجاز اتصال بيهود فلسطين وبيهود اليمن، وكيف لا يكون لهم اتصال بهم، وهم جيران فلسطين ولهم تجارات معهم، ثم إنهم على طريق اليمن وفلسطين فإذا أراد يهود فلسطين الذهاب إلى اليمن أو يهود اليمن الذهاب إلى فلسطين فلابد من المرور بأرض يهود الحجاز والنزول بهم، وقد كانت نجران من المستوطنات المهمة التى نزل بها اليهود فى اليمن وهى مكان خصب، وقد عاش اليهود فيها مع غيرهم من العرب من نصارى وعبدة أصنام، ووجدو اليهود فى مواضع أخرى من جزيرة العرب وكان بالبحرين قوم من اليهود صالحوا المسلمين مثل النصارى على دفع الجزية عن رؤوسهم[2].

بدأت خصومة اليهود للإسلام خصومة فكرية، هم يرفضون الاعتراف بنبوة الرسولﷺ، وبأن دعوته موجهة إليهم، ويرفضون نبوة فى غير بنى إسرائيل، والرسولﷺ يدعوهم إلى الإيمان بالله وإلى الدخول فى دعوته المبنية على الإيمان

(١) المفصل جـ ٦ ص ٥٣٩، ص ٥٤٠ .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٤٠، ص ٥٤٢، وأيضا المعجم جـ١ ص ٣٢٧ .

بالله رب العالمين، رب العرب وبنى إسرائيل والعجم، وعلى الإيمان بنبوته ونبوة الأنبياء السابقين، ثم تطورت هذه الخصومة إلى معارك وحروب، والحروب كما نعلم تبدأ نزاعاً فى الآراء والأفكار ثم تتحول إلى صراع ونزاع وقتال[١]، وعمد اليهود إلى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمينة التى كانت كامنة فى نفوس أهل يثرب من الأوس والخزرج من أيام الجاهلية فأثاروها كما استفادوا مما كان بينهم وبين رجال من المسلمين من الحلف والجوار فى الجاهلية للاحتماء بهم وللاتقاء بهم مما قد يلحق بهم من أذى[٢]، وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم وإيامهم الماضية، وأخبار الرسل والأنبياء، وما جاء فى التوراة والمشنا وغير ذلك عرفت بين الجاهليين بـ المدراس، وبيت المدارس، المدارش وأطلق الجاهليون على الموضع الذى يتعبد اليهود فيه – الكنيس، كنيسة اليهود تمييزاً لهذه الكنيسة التى هى لفظة خاصة بموضع عبادة[٣].

وقد أخذ الجاهليون مصطلح المدارس من العبرانيين من لفظة مدارش التى هى من أصل درشDorash التى تقابل درس فى العربية، وتؤدى هذه الكلمة المعنى المفهوم من لفظة درس العربية تمام الأداء قال ابن عباس: دخل رسول الله بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أى دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم ودينه فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً فقال لهما رسول الله ﷺ فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأبوا عليه، ويظهر أن هذا المدراس كان من بيوت مدراسهم بيثرب[٤].

وعرفت مساجد اليهود أى المواضع التى كانوا يصلون بها بالمحاريب جمع محراب، وعرف علماء اليهود ورجال دينهم بـ الأحبار جمع الحبر وبـ الربانيين وقد وردت الكلمتان فى القرآن الكريم– المائدة آية ٤٤ ، ٦٣ وللفظة حبر أهمية كبيرة تشير إلى العلم والمعرفة وإن كانت لا تصل إلى درجة رابى – ربى Rabbi .

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٤٥
(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٤٨ .
(٣)المفصل جـ٦ ص ٥٥٠ .
(٤) المفصل جـ٦ ص ٥٥٠، ص ٥٥١ وأيضا الطبرى جـ٧ ص ١٤٥ .

أما الربانيون فهم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهى على رأى بعض العلماء الإسلاميين: وقال بعض آخر الربانى العالم الراسخ فى العلم والدين،أو العالم العامل المعلم،أو العالى الدرجة فى العلم،وفرق بعضهم بين الربانيين وبين الأحبار بأن جعل الأحبار أهل المعرفة بأنباء الأمم وبما كان ويكون وذهبوا إلى أنهما من الألفاظ المعربة العبرانية أو السريانية. وهى من الألفاظ التى وردت فى القرآن الكريم فى أثناء الكلام على علماء يهود[١].

وذكر القلقشندى أن المشهور من ألقاب أرباب الوظائف عند اليهود ثلاثة ألقاب: الأول الرئيس وهو القائم فيهم مقام البطرك فى النصارى والثانى الحزان وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد على المنبر ويعظهم. والثالث. الشيلحصبور وهو الإمام الذى يصلى بهم .

وقد أطلق القرآن الكريم على أسفار اليهود أى كتبهم المقدسة التوراة وعرفت بهذه التسمية فى الحديث وفى كتب التفسير وصارت علماً لها فى الإسلام. كذلك أطلقت هذه اللفظة على معابد اليهود، ولم يعرف ورودها فى الشعر الجاهلى خلا بيت ينسب إلى شاعر جاهلى يهودى اسمه سماك.

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء فى أصل كلمة التوراة حتى ذهب بعضهم إلى أنها عربية ولكن أكثريتهم ترى أنها عبرانية، لأن لغة موسى كانت العبرانية، وبهذه اللغة نزلت التوراة. ثم هم يختلفون فى تعيين حدود التوراة. فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار ويرى بعض آخر أنها أكثر من ذلك وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات لا يستثنى إلا الأناجيل[٢].

والمراد من الكتاب الذى أنزل على موسى، والمذكور فى مواضع من القرآن الكريم التوراة، أى هذه الأسفار الخمسة التى نتحدث عنها، وهو تعبير قرآنى لا نستطيع أن نقول إنه كان من مصطلحات الجاهليين، كما أننا لا نستطيع نفى

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٥١ ص ٥٥٢ وأيضا تاج العروس جـ١ ص ٢٦٠ .

(٢) المفصل جـ٣ ص ٥٥٣، وأيضا اللسان جـ٢ ص ٢٦٥ وما بعدها وأيضا القرآن والرهبانون ص١٧٩ ، المفردات الأصفهانى ص ٧٤.

ذلك إذ يجوز أن يكون الجاهليون قد أطلقوه على تلك الأسفار أو على العهد القديم كله بمعنى هذه الأسفار وبقية ما ورد فيها من أخبار الأيام والملوك والأنبياء، وقد ورد فى الأخبار عن أبى هريرة أنه كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولو آمنا بالله».

أما الزبور والذبد فقد وردتا فى القرآن الكريم ويراد بـ الزبر فى بعض الآيات مثل ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الكتب المنزلة، وقد وردت الكلمتان فى بعض الشعر المنسوب إلى الجاهليين كامرئ القيس والمرقش الأكبر وأمية بن أبى الصلت، وذكر علماء اللغة أن معنى زبر كتب ونقش، ويرى بعض المستشرقين احتمال كونها من الكلمات العربية الجنوبية، ويرى بعض آخر أنها من أصل مزمور Mazmor العبرانى، ومزمور فى اللهجة السريانية، ومزمور فى الحبشية، أخذت الكلمة وأجرى عليها بعض التغيير حتى صارت على هذا الشكل[1].

وقد قال أبو هريرة: الزبور ما أنزل على داوود من بعد الذكر من بعد التوراة، وذكر بعض العلماء أن الزبور خص بالكتاب المنزل على داوود.

وقد ذهب الشعبى إلى أن الزبور الكتاب المنزل على داوود، أما الذكر فما نزل على موسى، وذهب آخرون مذاهب أخرى فى تفسير المراد من الزبور ومن الذكر ولكن الرأى الغالب أن المراد من الزبور مزامير داوود وذلك لنص القرآن على ذلك.

وقد تعرض ابن خلدون لموضوع علم اليهود العرب وثقافتهم فقال:

إذا تشوقت العرب إلى معرفة شئ مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم وهم أهل التوراة من اليهود وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك[2].

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٥٤ ص ٥٥٥ صحيح البخارى كتاب التفسير جـ ٣ ص ١٩٨ .
(٢) المفصل جـ ٦ ص ٥٥٦ ، ص ٥٥٧ واللسان جـ ٤ ص ٣١٥ ، والمقدمة جـ١ ص ٤٣٩ .

ولما كانت اللغة العبرانية لغة الدين عند العبرانيين، وبها نزل الوحي على موسى فلا بد أن يكون لعلمائهم ورجال دينهم في جزيرة العرب علم بتلك اللغة وفقه بها، ولكن هذا لا يعني ضرورة كونهم كعلماء طبرية أو قيصرية في فلسطين أو بعض المواضع التي اشتهرت بعلمائها في التلمود بالعراق، ولست أستبعد أن يكون لهم علم بلغة بني إرم أيضاً لأن هذه اللغة كما نعلم كانت لغة العلم والثقافة قبل الميلاد وبعده، وبها كتبت كتب عدة من التلمودين، ثم إنها انتشرت بين سواد الناس حتى صارت لغة سواد يهود يتكلمون بها ولو برطانة وبلهجة خاصة هي اللهجة التي يمتاز بها سواد اليهود في كل قطر يعيشون فيه[1].

ولم يظهر في يهود جزيرة العرب من حاز شهرة في العلم والفقه والتأليف والخطابة على نحو ما ظهر بين يهود العراق أو فلسطين أو مصر وإلا لاشتهر أمره وذاع خبر علماء يهود بابل وفلسطين ومصر، ولا يمكن أن تكون عزلتهم عن بقية يهود الأقطار المذكورة سببا كافيا في تعليل عدم شيوع اسم أحد من هؤلاء، إن قضية عزلتهم عن بقية إخوانهم في الدين هي نفسها تحتاج إلى سند يثبت وجود تلك العزلة، فمواضعهم في أعالي الحجاز على اتصال ببلاد الشام وهي لا تبعد كثيرا عن مساكن إخوانهم في فلسطين ثم إنهم كانوا على اتصال مستمر بهم بالتجارة، وقد كانوا يشترون حاصل بلاد الشام من خمور وحبوب وما شاكل ذلك وينقلونه إلى يثرب، يذهبون إليها للتعامل والاتجار. فكيف يكون يهود جزيرة العرب في معزل عن غيرهم مع وجود الأسفار والتجارة، لا سيما أن أحبار طبرية كانوا يأتون إلى يهود اليمن ليلقنوهم أمور الدين، ولا يستبعد أن يكون من بين أولئك الأحبار من ذهب إلى يهود يثرب أو خيبر أو تيماء. فالقضية على ما يظهر ليست قضية عزلة يهود جزيرة العرب عن بقية يهود وانفصالهم بذلك ثقافيا وعلمياً عن بني دينهم انفصالا يؤثر في مستواهم الثقافي والعلمي فيجعلهم دون غيرهم من إخوانهم في العلم والثقافة، إنما يظهر هنالك جملة عوامل حالت دون نبوغ أحد فيهم، فيهود جزيرة العرب مهما قيل عنهم وعن رقيهم وارتفاع مستواهم عن مستوى من كان في جوارهم لم يكونوا في ثقافتهم وفي مستواهم الاجتماعي أرقى من الفلاحين وسكان القرى وما إليها في العراق أو فلسطين أو مصر، كما أن حالتهم المادية لم تكن على مستوى عالٍ

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٥٨ .

بحيث يمكن أن تقاس بالأحوال المادية التى كان عليها اليهود الآخرون فى الأراضى المشار إليها أو أصحاب تلك الأراضى من غير يهود. ثم إن عددهم مهما قيل فيه لم يكن كبيرا وقد رأينا أن رجالهم المحاربين لم يكونوا يتجاوزون كلهم فى الحجاز كله بضعة آلاف، وفى مثل هذا العدد والظروف والأحوال لا يمكن بالطبع أن تتوافر الإمكانيات المساعدة على البحث والتتبع والتعمق فى العلم[1].

وقد عرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر والاتقاء منه، وبعلمهم بالتعاويذ، فكان المشركون يلجئون إليهم إذا احتاجوا إلى السحر أو إذا اعترضتهم مشكلات يرون أنها لا تحل إلا بقراءة التعاويذ عليها، وقد ذكر المفسرون أن اليهود عملوا السحر للنبى وعمله رجل اسمه لبيد بن الأعصم أو بناته من يهود يثرب، وقد أشير إلى سحر اليهود فى الحديث[2].

وقد لجأ العرب إلى اليهود يأخذون منهم الرقى والتعاويذ، فقد ورد فى الأخبار أن أبا بكر دخل على عائشة وهى تشتكى ويهودية ترقيها فقال أبو بكر رضى الله عنه: أرقيها بكتاب الله يعنى بالتوراة والإنجيل، وقد حافظ يهود جزيرة العرب على حرمة السبت، ويوم السبت من الأيام المقدسة التى يجب مراعاة حرمتها، فلا يجوز ليهودى الاشتغال فيه والقيام ببعض الأعمال، ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالاشتغال فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً – وقد وردت إشارات إلى يوم السبت فى القرآن فى معرض الكلام على بنى إسرائيل، وأشير فى بعضها إلى أخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم، وإلى نقضهم له وعدم مراعاتهم جميعاً لهذا العهد وإلى أنهم اعتدوا فيه[3].

وفى هذه الإشارات دلالة على أن من اليهود عامة من خالف حرمة هذا اليوم فلم ينفذ ما ورد فى أحكام شريعته عنه ...

ولكن هذا عام غير خاص بيهود العرب الجاهليين، وإنما يشير إلى خروج بعض بنى إسرائيل على أحكام دينهم وعدم مراعاتهم لها، وهذا اليوم من أقدس

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٥٩ .

(٢) صحيح البخارى باب السحر، عمدة القارئ ٢١ / ٢٧٩ الحديث رقم ٧٧ وما بعده.

(٣) الأعراف آية ١٦٢، النحل آية ١٢٤ ، البقرة آية ٦٥، النساء آية ٤٦ وأيضا التفاسير الآتية: روح المعانى ٢٥٦/١، الطبرى ٦٥/٩ ، والكشاف ١ / ٢١٨ .

الأيام فى نظرهم، وقد وقف العرب الذين كانوا على اتصال باليهود على بعض أحكام دينهم مثل الرجم بالنسبة للزنا، واعتزال النساء فى المحيض. فذكر العلماء أن حكم الإسلام فى الحيض اقتصاد بين إفراط اليهود الآخذين فى ذلك بإخراجهن من البيوت، وتفريط النصارى فإنهم كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض، ومثل الدعاء إلى الصلاة عند اليهود بالنفخ فى الشبور، ومثل صوم عاشوراء وأعيادهم .

وقد اختلف يهود جزيرة العرب عن الجاهليين فى الأمور التى حرمتها شريعتهم عليهم فى مثل المأكولات كما اختلفوا عنهم فى عبادتهم وفى اعتقادهم بوجود إله واحد هو إله إسرائيل وفى أمور عقائدية أخرى واختلفوا عنهم فى بعض العادات والمظاهر الخارجية فكان اليهود مثلاً يسدلون شعورهم أما المشركون فكانوا يفرقون رؤوسهم .

ورد عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم وكان النبى يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشئ، ثم فرق النبىﷺ رأسه.

لم يسلم من يهود فى أيام الرسول غير عدد قليل من المتبينين منهم مثل عبد الله بن سلام، ولم يتعاون معه غير عدد قليل منهم مثل يامين بن عمير بن كعب النضرى، ويامين الإسرائيلى، ومخيريق، وكان رجلاً غنياً صاحب نخيل، وهو أحد بنى ثعلبة بن الفطيون حث قومه على مساعدة الرسول ﷺ ومعاونته فى غزوة أحد[1] .

وكان فيمن أسلم من بنى قريظة - كعب بن سليم القرظى، وهو من سبيهم فى الإسلام ويعد فى الصحابة، ولكن لا تعرف له رواية[2] .

وفيمن أسلم من يهود بنى قريظة رفاعة القرظى خال صفية زوج النبى ﷺ لأن أمها برة بنت سموأل - سموال- أما أبوها فهو حيى بن أخطب، ويعد - زيد

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٦ ، ص ٥٦١ ص ٥٦٢ .

وأيضاً - ارشاد السارى جـ١ ص٣٤٠ كتاب الحيض، عمدة القارئ ١٧ / ٧١ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٦٤.

ابن سعية- سعنة - فى طبقة الصحابة ، ويقال أنه كان أحد أحبار اليهود الذين أسلموا، وأنه كان أكثرهم علماً ومالاً، وقد شهد مع النبى ﷺ مشاهد كثيرة وتوفى فى غزوة تبوك مقبلاً إلى المدينة .

ولم يظهر من يهود اليمن فى الإسلام ممن عرفوا برواية الإسرائيليات سوى رجلين، هما كعب الأحبار، ووهب بن منبه.

فأما كعب فقد أدرك زمن الرسول غير أنه لم يره، ولم يدخل فى الإسلام إلا فى أيام أبى بكر أو عمر، وهو أبو إسحق كعب بن مانع بن هينوع هيسوع، وقد عرف بين المسلمين بكعب الأحبار وبكعب الحبر من باب التعظيم والتقدير لعلمه.

ولم ينسب أحد إلى كعب مؤلفا، وكل ما نسب إليه فهو مما ورد عنه بالمشافهة والسماع وهو بين صحيح يمكن أن يكون قد صدر منه وبين مشكوك فى أمره وضع عليه، وفيه ما هو إسرائيلى، صحيح أى أنه مما هو وارد فى التوراة أو فى التلمود أو فى الكتب الإسرائيلية الأخرى وفيه ما هو قصص إسرائيلى نصرانى وما هو محض افتعال وخلط.

مصادر مناقشة العرب للرسول ﷺ فى مصدر القرآن:

نسوق هذا النموذج بعدما قدمنا ما تعرضت له المنطقة من اتجاهات فكرية ودينية، يتميز هذا النموذج بأنه جمع لجنة تمثل الاتجاه المثقف ثقافة عقلية فى مدرسة «جنديسابور» وهو : النضر. واتجاه رجال الدين اليهودى، وذلك عندما أفلست الوثنية العربية اتجه رجالها إلى يهود يثرب ليسألوهم عن مسائل يختبرون بها الرسول، وذلك كان بعد أن اتخذ الإسلام. طريقه فى قبائل قريش: من الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين، دعا رجال من أشراف قريش من كل قبيلة إلى اجتماع بينهم فاجتمع:

عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة. وأبو سفيان بن حرب.والنضر بن الحارث، أخو : بني عبد الدار . وأبو البخترى بن هشام . والأسود بن عبد المطلب بن أسد .وزمعة بن الأسود.والوليد بن المغيرة.وأبو جهل بن هشام .وعبد الله بن أبى أمية . والعاصى بن وائل . ونبيه ومنبه ، ابنا : الحجاج السهميان. وأمية بن خلف .

اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهـر الكعبة .

قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد، فكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك: فأتهم،فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا – فهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم – ودار ذلك فى نفسه حديثا نفسيا حتى جلس إليهم .

فقالوا له : يا محمد : إنا قد بعثنا لنكلمك – وإنا والله ، ما نعلم رجلا من العرب، أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا ما لا. وإن كنت تطلب به الشرف فينا : فنحن نسودك علينا .

وإن كنت تريد به ملكا : ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا نراه قد غلب عليك– وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا– فربما كان ذلك: بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بى ما تقولون؟

ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم : رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرني: أن أكون لكم بشيرا ونذيراً .

قالوا يا محمد: فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت: أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا، ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا. فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به: فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام ،والعراق(١) .

فقال لهم رسول الله: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه: فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وأن تردوه عليّ : أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم، وقد حكي القرآن ذلك:(٢) .

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا: فخذ لنفسك(٣)، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك .

---

(١) وقد أنزل الله عليه قرآنا سأله فيما قومه من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وبعث الموتى قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾. الرعد / ٣١

(٢) وأنزل عليه في قولهم: خذ لنفسك ما سألوه أن يأخذ لنفسه أن يجعل له جنانا وقصورا وكنوزا ويبعث معه ملكا يصدقه عما يقول ويرد عليه :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝ ﴾ الفرقان ٦/ --

وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝ ﴾ الفرقان / ٢٠

(٣) وأنزل عليه فيما قال عبد الله بن أمية .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝ ﴾ الإسراء / ٨٩ / ٩٣

ورد عليهم فيما عرضوا عليه من أموال: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . سبأ : ٤٧

وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم وتتلمس من المعاش، كما نتلمسه، حتى نعرف فضلك، ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا - كما تزعم .

فقال لهم رسول الله: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم. قال القرآن حاكيا ذلك منهم [1]:

قالوا: ﴿فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك لو شاء فعل، لا نؤمن لك إلا أن تفعل﴾ .

فقال رسول الله : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا : يا محمد أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به.

ثم يقولون: إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة.

فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا، حتى نهلك أو تهلكنا.

وقال قائلهم، فمن تعبد؟ الملائكة أو بنات الله؟

وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: قام عنهم، وقام معه: عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، بن عبد الله، بن عمر، بن مخزوم، وهو ابن عمته: فهو لعاتكة بنت عبد المطلب.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. فقال عبد الله بن الزبعرى: أكل ما يعبد من دون الله حصب جهنم. قال: فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله من قول ابن الزبعرى فقال رسول الله: كل من أحب أن يعبد من دون الله مع من عبده، إنهم يعبدون الشياطين.

فقال له: يا محمد،عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم.

ثم سألوك لأنفسهم أمورا، ليعرفوا بها منزلتك من الله، كما تقول، ويصدقوك، ويتبعوك، لم تفعل، ثم سألوك: أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله: فلم تفعل. ثم سألوك : أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم من العذاب: فلم تفعل.

فوالله لا أومن بك أبدا، حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك، حتى تأتيها، ثم تأتى معك: بصك أربعة من الملائكة، يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله: إنك لو فعلت ذلك، ما ظننت أنى أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله .

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفا مما كان من قومه حين دعوه. ولما رأى من مباعدتهم إياه.

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ، قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمدا قد أبى، ألا ما ترون منه من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا.

وإنى أعاهد الله: لأجلسن له غدا بحجر، ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته، لأهوى بصخرة على رأسه، فأسلمونى عند ذلك، أو امنعونى فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا: والله لا نسلمك لشئ أبدا فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا - كما وصف- ثم جلس لرسول الله ينتظره. وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان رسول الله بمكة وقبلته الشام، فكان إذا صلى بين الركنين: البرانى، والأسود، جعل الكعبة بينه وبين الشام فقام رسول الله يصلى، وقد غدت قريش.

فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه، عرض لى دونه فحل من الإبل، ما رأيت مثل هامته، ولا أنيابه لفحل قط، فهم بى أن يأكلنى.

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كلدة فقال: يا معشر قريش إنه والله قد نزل أمر ما أتيتم بحيلة بعد. قد كان محمد فيكم: غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم.

وقلتم كاهن: لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم.

وقلتم شاعر: لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه.

وقلتم مجنون: لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه .

يا معشر قريش: فانظروا فى شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم .

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة: وتعلم فيها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفندبار فكان إذا جلس رسول الله مجلسا يذكر فيه بالله، وحذر قومه من قبلهم من نقمة الله، خلفه فى مجلسه إذا قام ثم قال:

أنا والله يا معشر قريش، أحسن حديثا منه، فهلم إلى: فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، وكان قد تعلم فى فارس.

ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا منى؟

قال ابن هشام: وهو الذى قال فيما بلغنى: سأنزل مثل ما أنزل الله.

وكان ابن عباس يقول: نزل فيه ثمانى آيات من القرآن.

قول الله عز وجل: إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين.

وكل ما ذكر عن الأساطير فى القرآن: وردت فيه.

فلما قال لهم النضر بن الحارث بعثوه وبعثوا معه: عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عنه، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله: فإنهم أهل الكتاب وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة.

فسألا أحبار اليهود، عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله.

وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن: فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل: فالرجل متقول، فَرَوْا فيه رأيكم.

١- سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول: ما كان أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجيب.

٢- وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها: ما كان نبؤه؟

٣- وسلوه عن الروح: ما هى؟

فإن أخبركم فاتبعوه فإنه نبى، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبر أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها، فهو نبى، وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرَوْا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله.

فقالوا: يا محمد. أخبرنا: عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول: قد كانت لهم قصة عجب؟

وعن رجل كان طوافا: قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؟

وأخبرنا عن الروح: ما هى؟

فقال لهم رسول الله: أخبركم بما سألتم عنه غدا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله – فيما يذكرون– خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة فقالوا:

وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشئ مما سألناه عنه، وأحزن رسول الله مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل من الله: بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح في سورة الإسراء.

رواية علاقة الرسول بحكمة لقمان:

دعا رسول الله سويد بن الصامت إلى الإسلام.

فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي.

فقال له رسول الله: وما الذي معك؟

قال: مجلة لقمان (يعني حكمة لقمان)

فقال له رسول الله: اعرضها على فعرضها عليه .

فقال له : إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا. قرآن أنزله الله عليّ هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه.

وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه .

فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، وقيل: أسلم.

ويظهر من المحاورة: يعني مناقشة الرسول في مصدر القرآن:

– أن محمدا: أعلن إعلانا ذاع بين قومه ومسجلا في القرآن: أنه لم يتلق علما من إنسان، وسمع ذلك النضر نفسه، وغيره ممن شك فيهم العرب: أنهم يعلّمون الرسول. فلم يعلن أي إنسان منهم، أو من اليهود، أو من المسيحيين أنه هو الذي يعلم الرسول فضلا عن أنه لم يدّعِ أحد منهم ذلك.

– وكما تفيد الرواية أن النضر بن الحارث على ما كان يدعيه من علم تلقاه من مدرسة جنديسابور كان يعلمهم أخبار الفرس فقط.

– وسويد بن الصامت صاحب مجلة لقمان: سمع منه الرسول وقال له: هذا كلام حسن، ثم سمع الرسول فقال له: إن هذا القول حسن. ولم يدع سويد أنه علم الرسول أو أن الرسول أخذ منه شيئا.

وأن اختيار اليهود له، كان يعنى: إظهار علامات النبوة وهم أعلم الناس بها وبدلائلها، وقالوا للنضر: إن أفتاكم فهو نبى مرسل، واليهودية وهى دائما ضد الوثنية الرومانية أمدت الوثنية العربية بعد أن أفلست فى جدلها مع الرسول بأسلحة ماضية لتختبره بها، ثم تشاء إرادة الله أن تنتهى الوثنية ومعها اليهودية بأسلحتها ويصير سفراء العرب إلى دعاة على الرغم منهم فيظهرون علامات النبوة .

علاقة القرآن بهما:

خلاصة القول: أن القرآن حدد موقفه من اليهودية والنصرانية على حد سواء .

أولا: من حيث المبدأ:

– اعترف بهما: دينين سماويين، وموسى وعيسى رسولين أوحى إليهما[١]

– حض على الإيمان بهما: وأن إيمان المسلم لا يصح إلا بالإيمان بهما وبغيرهما من الرسل[٢].

–وضّح علاقة الإسلام بهما على أنهـا تكميل وتتميم وتصحيح[٣]

(١) قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ . (البقرة ٢٨٥)

(٢) قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران ٨٤)

(٣) قال تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى ١٣).

– قام القرآن بما اشتمل عليه من التاريخ الديني للرسالات السابقة عليه بنشر مضمون الكتب السابقة عليه، مظهرا بذلك وحدة السلسلة الدينية(١).

ثانيا: من حيث التفاصيل:

– أبدى ملاحظات أساسية عليهما منها:

– نزاع بعضهم بعضا:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾(٢).

– تفرقهم في العقيدة إلى فرق لكل فرقة كتابها:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾(٣).

---

(١) قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

(آل عمران٦٤)

وقال: ﴿ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ

(العنكبوت٤٦)

وقال: « إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ » (الأعلى)

وقال: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ (آل عمران٢٠)

ونسوق قولا لفيليب حتى يشهد على حسن معاملة الرسول لأهل الكتاب.

«وكانت الطبقة الثالثة تتألف من أهل الذمة وهم للذين قبل منهم على أنه دين منزل، والمراد بين النصارى واليهود والصابئة ذلك أن الإسلام شملهم بالأمان وصانهم بالعهود والمواثيق».

وقد أتاح النبي نفسه «انظر آيات سورة التوبة : ٢٩ والبقرة: ٩٩ ، ١٠٣، وآل عمران: ٦٢ ، ٦٥ ... إلخ». للنصارى واليهود هذا الوضع السمح على اعتبار أنهم أهل الكتاب، ومرد ذلك إنما هو إجلال النبي للكتاب المقدس . انظر تاريخ سورية ص ٩٨ جـ٢ .

(٢) البقرة : ١١٣ .

(٣) الأنعام : ١٥٩ .

- **إهمالهم للتوراة:**

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(١)

- **تحريفهم لكتبهم المقدسة:**

تحريف فى العقيدة: « كقولهم المسيح ابن الله، وعزيرا ابن الله »(٢).

تحريفهم مفهوم علاقة البشرية بالله إلى بنوة له: قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(٣).

- **تحريفهم فى شريعتهم:**

قال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾(٤). وفى القرآن عن قضية التحريف التى منها:

قوله تعالى:

(أ) ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾(٥).

وقوله: (ب) ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾(٦).

وقوله: (جـ) ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧) ﴾.

وقوله: (د) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ(٨) ﴾.

ثم بعد ذلك رسم القرآن للرسول الغاية النهائية من بيان ذلك قائلا:

﴿ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾(٩).

(١) الجمعة :٥
(٢) من الإنجيل
(٣) المائدة
(٤) النساء: ١٦١ .
(٥) سورة البقرة ٧٥
(٦) النساء : ٤٦
(٧) البقرة : ١٤٦ .
(٨) البقرة : ١٧٤ .
(٩) الشورى : ١٥ .

ولهذه الغاية النبيلة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾[1].

ولقد كان موقف أهل الكتاب من القرآن عجيبا:

فإن وجدوا بعض ما فى القرآن يتفق معهم قالوا: أخذه محمد من الكتاب[2].

وإن وجدوا روايات لا تنتمى إلى كتبهم مع أنها خاصة بتاريخهم قالوا هذا حديث مفترى[3].

---

(١) البقرة: ١٠٩.

وفى عصرنا هذا أخرج يوسف إلياس الحداد سلسلة دروس قرآنية:

(أ) الأنجيل والقرآن (ب) القرآن والكتاب جـ١

قال الأستاذ محمد عزه دروزه عنهما فى كتابه (القرآن والمبشرون) وقد كتب الخورى لكل من كتبه الأربعة، مقدمة برأيه الظاهر وفيها دعوة إلى التفاهم وتبادل الثقة بين: المسلمين والنصارى لأنهم يدينون بدين كتابى متحد المصدر والمبادئ والأهداف. غير أنه حشا كتبه بأقوال وبيانات وروايات وتحليلات عن القرآن ومحتوياته ونظمه ولغته وترتيبه وعن شخصية النبى وسيرته ورسالته وصلتها بأهل الكتاب وتجديد أكثر اليهودية والنصرانية وكتبهما فيها الغريب العجيب المذهل من التخرص والتعسف والتجنى والمجازفة وتحريف الكلام واللعب بالألفاظ وعدم التورع عن أقوال فيها افتراء وسوء أدب نحو القرآن ورسوله وكتاب وحيه وأصحابه الأولين وتابعيهم ونسبة الدس والزيادة فى القرآن ص ٧٢٦.

(٢) يقول فيليب حتى فى كتابه تاريخ سورية (٢: ١٤٤): لقد كانت عقيدة التوحيد ويوم الحساب من أروج المواضيع فى الأدب القرآنى وفى الأناجيل المرفوضة والرسائل الصوفية على السواء ثم يقول: حتى جعلوا الإسلام من وجوه عديدة وريثا للنصرانية والسريانية.

(٣) يقول الأستاذ محمد عزه دروزه فى كتابه القرآن والمبشرون ص ٣٩: على أن هناك أشياء كثيرة وردت فى القرآن من هذه القصص ولم ترد فى الأسفار المتداولة. ومنها ما ورد فى القرآن والأسفار متغايرا فى الجزئيات بل وفى الصور المهمة معا. فليس فى سفر التكوين مثلا ما ورد فى القرآن من أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وعصيان إبليس والموسوس لآدم وحواء فى الجنة هو الحية فى حين أنه فى القرآن إبليس، وليس فى هذا السفرما فى القرآن من قصص إبراهيم مع قومه وتخريب لأصنامهم ونظرته فى النجوم وحجاجه مع قومه ومحاولتهم إحراقه فى النار وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله الحرم أى مكة واشتراك إبراهيم وإسماعيل فى بناء الكعبة.

وليس فى هذا السفر ما فى القرآن من محاورة بين نوح وابنه الكافر وعدم ركوب هذا فى السفينة وغرقه ومحاورة نوح مع الله تعالى فى ذلك. وليس فى السفر ما فى تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف ولا كلام النسوة ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن. وليس فى أسفار الخروج والعدد وتثنية الاشتراع التى فيها موسى وفرعون وبنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر وحياتهم فى سيناء ما فى القرآن من خبر سحرة فرعون والتقاف الثعبان لحبالهم وعصيهم وسجودهم وإيمانهم ومحاورتهم مع فرعون وغرق فرعون وجنوده حينما خرجوا لمطاردة بنى إسرائيل. والقرآن يذكر أن الشخص الثانى الذى أراد موسى أن يبطش به هو عدو فى حين أن سفر الخروج يذكر أنه عبرانى. قال الأستاذ دروزه: ونحن نعتقد أن ما ورد فى القرآن ولم يرد فى الأسفار المتداولة أو ورد فيها مباينا لما ورد فيه قد ورد فى أسفار أخرى كانت متداولة بين أيدى اليهود لم يصل إلينا وهذه ظاهرة تثبتها الأسفار المتداولة التى ورد فيها أسماء عديدة ليست بين الأسفار المتداولة.

وإذا تقدمت البحوث وعلم الحفائر وأظهرت دلائل تؤيد روايات القرآن وتثبت لهم ما حرفوا فى كتبهم بالزيادة أو الحذف – وهذا ما قاله القرآن عنهم – دعوا إلى التفاهم وتبادل الثقة ما دمنا ندين بدين واحد، من حيث المصدر والغاية(١).

وحقيقة أن الدعوى إلى التفاهم اشتدت فى عصرنا، ولكنها دعوى مغلوطة، لأننا نؤمن بالمسيحية واليهودية وبالأديان السماوية مع الإسلام على حد سواء. فليس بين الإسلام والتوراة والإنجيل: أزمة ثقة، أما هم: فإننا نراهم يعانون أزمة الثقة بينهم كطوائف وبين اليهودية كدين، وهذا قديم تاريخيا، ثم أخيرا بينهم جميعا وبين الإسلام، أما نحن المسلمين فبراء منها لماذا؟

لأن الدعوة طرحها القرآن – ومازالت مطروحة– وعليهم الاستجابة لها، وبالتالى فالمشكلة التى بيننا وبينهم هى فى مدى قدرتهم على الاستجابة نحو الكلمة السواء(٢).

(١) وعجبنا عندما وقف البابا شنوده؛ ونادى بدعوة التعاون بين الأديان السماوية ثم ذكر شخصيات إسلامية تاريخية ولم يذكر الرسول ﷺ فهل بذلك صدق مع نفسه أو صدق مع دعوته؟ أو نقض بنفسه وفى نفس دعوته ما دعا إليه ! ؟

(٢) أما عن عوائق التفاهم فهى كما ذكرها الإمام عبد الحليم محمود ردا على رسالة كان قد بعث بها إليه د. ميجل دى إيبالثا سكرتير عام الصداقة الإسلامية المسيحية– مدريد – أسبانيا والرسالتان كما يلى:

السيد المحترم صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد :

فيسر جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية فى مدريد أن تتوجه إلى فضيلتكم لتشرف بإخباركم بما استقر عليه الرأى من انعقاد مؤتمر قرطبة العالمى المسيحى الثالث خلال عام ١٩٧٩ ، إن شاء الله. وقد رأت إدارة الجمعية اختيار موضوع محمد وعيسى ملهمين للقيم الاجتماعية المعاصرة ليكون اللقاء الإسلامى المسيحى المقبل. والمقصود أن يشرح المسلمون كيف يعبر النبى ﷺ عن هذه القيم المعاصرة بالنسبة لمسلمى اليوم سواء برسالته وعقيدته ودعوته. أو بشخصيته وسلوكه ونفسيته المثالية. بينما يشرح المسيحيون كيف يعبر عيسى عليه السلام عن القيم الاجتماعية نفسها عند المسيحى اليوم.. ورغبتنا أن يدرس هذا الموضوع مجموعة ممن يعيشون فى مجتمع متكافل يفيض بالمودة والوفاق. وإن اختلفت عقائد مواطنيه وتنوعت أديانهم.

وسوف يتولى عملية تنظيم وإعداد المؤتمر من الجانب المسيحى الكليات المتخصصة فى علوم اللاهوت نذكر منها خاصة كلية اللاهوت بمدريد. والجامعة البابوية فى روما.. ويعد الموضوع – بمشيئة الله– من الجانب الإسلامى الجامعات المتخصصة فى بعض البلدان الإسلامية. ومؤسسات إسلامية وشخصيات مسلمة، يستوى فى ذلك من يعيشون داخل أسبانيا ومن يقيمون خارجها.

ونعتقد أنه من الممكن دراسة رؤوس الموضوعات التالية فى نطاق الموضوع العام للملتقى وهى: الحرية والعدالة والمساواة فى مختلف مظاهرها وجوانبها المتعددة فى هذا الدين أو ذاك. ولا يعنى هذا –بطبيعة=

= الحال أن هذه هي الكلمة النهائية، على العكس نحن نتوجه إليكم منذ الآن وفي لحظة نشأة الفكرة آملين أن تثروا الموضوع بما تقترحونه وأن تتفضلوا بإضافة ما ترونه مفيدا ونافعا، ولسنا نشك أنكم ستزودوننا بسديد الرأي وصائبه- بإذن الله. فأنتم أدرى بهذا الحقل منا، ولكم في هذا الميدان خبرة قد لا تتوفر للكثيرين بحكم احتكاكم بالمجتمعات، وجهودكم في القارات المختلفة. وقد سبق أن شرفتمونا حين تفضلتم بإيفاد وفد مثل بلادكم في مؤتمر قرطبة الإسلامي المسيحي الأول الذي عقد في عام ١٩٧٤ م .
وما نبغيه في هذه المرحلة - مرحلة الإعداد والدراسة- هو النصيحة وتبادل الرأي، والاستفادة بالمشورة دون إلزام أو التزام بحضور المؤتمر. وسوف نتصل بكم في مرحلة أخرى إن شاء الله من أجل توجيه الدعوة لحضور جلسات الملتقى نفسه إذا رغبتم في ذلك .
وفي انتظار كريم دركم نرجو أن تتقبلوا خالص تحياتنا وأطيب أمنياتنا بالصحة والسعادة.
وسلام الله عليكم وتحياته ورحمته وبركاته ..

سكرتير عام جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية
(إمضاء)
دكتور : ميجيل دي إيبالثا مدريد إبريل ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم د. ميجيل دي إيبالثا

تحية طيبة وبعد:

فقد وصلني خطابكم المؤرخ : إبريل ١٩٧٨ م
وإني أشكر لكم هذه الرغبة في التفاهم بين المسلمين والمسيحيين وإثراء الفكر المعاصر بالحلول التي أوحاها الله تعالى إلى محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم، وذلك فيما يتعلق بالمشاكل المعاصرة.
وقد وصلني أخبار المؤتمرين السابقين.
وأحب أن أنبه، في مودة، ومن أجل تفاهم عميق إلى بعض الأمور:
١- إن الإسلام - منذ أن بدأ- خالف الجو العالمي : اليهودي .. في أمر عيسى عليه السلام. لقد أعلن الإسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه. وأما عيسى عليه السلام فهو وجيه في الدنيا والآخرة وأما أمه فهي صديقه. نبوة عيسى عليه السلام جزء من إيمان المسلم. وبراءة أمه وطهرها جزء من إيمان المسلم ولم يقف الإسلام من عيسى عليه السلام ومن أمه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم إلى الآن من عيسى وأمه. لقد افتروا - ومازالوا- على عيسى وعلى أمه ورموهما ببهتان شنيع.. أما الإسلام فمجدهما وما زال مستمرا في تمجيده لهما.
فماذا لقي المسلمون من المسيحيين في مقابل ذلك؟
٢- أنه لابد من الاعتراف بالدين الإسلامي وبرسوله حتى ينال المسلمون في أوربا ما ينال اليهود من الاعتراف بأعيادهم وبشعائرهم.. وأنه لا يتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحترمه المسلمون هو عيسى عليه السلام وأتباع رسول لا يعترف به المسيحيون وهو محمد ﷺ.
٣- إن المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والالحاد وكان يجب أن يسيرا في خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة.. ولكن للأسف - يسير المسيحيون في طريق تنصير المسلمين بقوة: فهم يعملون ليل نهار على أن ينصروا المسلمين في كل مكان في العالم. وكل الدول وأمريكا ترسل إرساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح أو بأسلوب خفي مستور، ويضيق المسلمون بذلك ضيقا شديدا. رغم ذلك فإن ملايين الجنيهات تنفق في سعة للتنصير بكل الطرق. =

= ومما هو ملاحظ أن الدول الإسلامية ليس لها إرساليات تبشيرية.. وقد أرسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة . ومع ذلك فإن المسيحيين تركوا أمة بنى إسرائيل الضالة وأخذوا يعملون على تنصير المسلمين.. تساعدهم الثروة. وتساندهم وسائل الحضارة الحديثة .

ولو حصروا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما أثار ذلك ضيق المسلمين الشديد وكراهيتهم للاسلوب ولموضوع التنصير نفسه.

٤- والمسلمون أقليات فى بعض الأقطار المسيحية مثل الفلبين. وهذه الأقليات المسلمة ينكل بها باسم المسيحية: تؤخذ أرضها وييتم أطفالها وترمل نساؤها. ولا تجد إلا ارتياحا فى نفوس الأغلبية المسيحية..

ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين فى الأقطار التى بها الأغلبية المسيحية: نحن نحب أن ينتهى ذلك: إنسانيا ونحب أن ينتهى ذلك دينيا:

٥- وفى المؤتمرات التى تعقد فى أسبانيا وغيرها هناك أسلوبان للحديث.

(أ) التزام العقل. وهنا لا يتحلل المسلمون من مبادئ دينهم فيتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالأسلوب العقلى فيكون موقفهم منهما موقف اليهود: يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقاً شديدا. ويقولون على المسيحية نفسها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا.

ولكن المسلمين فى هذه المؤتمرات يتبعون مبادئ دينهم فيحترمون المسيح عليه السلام وأمه.. أما المسيحيون فإن البعض منهم لا يبالى فيتحدث عن رسول الإسلام بما يضيق به المسلمون : فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم، وإنما تكون وسائل تنافر، وذلك كما حدث فى المؤتمرين السابقين من بعض المسيحيين.

(ب) التزام ما تمليه روح التفاهم: فلا يساء إلى المسلمين فى مقدساتهم.

٦- وأحب أن أقول إن الإسلام هو العامل الأكبر فى تثبيت المسيحية حين اعترف برسالة عيسي عليه السلام، احترام أمه عليها السلام...

فماذا قدم المسيحيون؟ لا شئ !!

بل على العكس من ذلك لقد هاجموا وما زالوا يهاجمون رسول الإسلام ومبادئ الإسلام فهل يمكن مع ذلك التفاهم؟

٧- وأحب أن أقول إن الإسلام اعترف بوجود المسيح عليه السلام وبرأ أمه. ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثيل له وما زال يقابل بهذا الجحود من المسيحيين على أكبر خدمة أديت للمسيح عليه السلام.

وبعد فإنى أحب صادقا أن نتعاون فى صد كل انحراف.. وأحب أن أقول أنه لولا تقديرى لكم لما كتبت لكم هذا. وإننى يسرنى أن أقرأ لكم .

سأتحدث إليكم عن رأيى فى موضوع المؤتمر فى المستقبل إن شاء الله.

ولكم تحيتى وتقديرى ...

«د. عبد الحليم محمود» شيخ الأزهر

نشر فى مجلة الأزهر - الجزء الثالث - السنة الخمسين

رجب ١٣٩٨ هـ الموافق يونيو ١٩٧٨م.

بيد أن موقفهم السيكولوجى ما زال كما قرره القرآن فى قوله:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾.

فالحرب الصليبية – وهى تعتبر أول غزو مسلح ذى شكل دينى قامت به أوروبا لغزو الإسلام فى داره – جعلت هدفها الظاهر الدعوة التبشيرية للمسيحية كما هو واضح فى اسمها – وفى حقيقة الأمر كانت أطماعا فى لبن الشرق وعسله– والدعوة التبشيرية لمن؟ للإسلام. وتلك دعوة فى ظاهرها مغلوطة فضلا عن رفضها من حيث المبدأ من عدة جوانب: لأن دين الإسلام يعترف بالأديان السماوية ويعتبر الإسلام نفسه أنه مكمل لها، وعلى هذه الأديان دراسة العلاقة التى قررها الإسلام. ومن حيث دولة الإسلام، ذات السيادة فإنها تعترف بالدين المسيحى وتحترم المسيحية فغزو أوروبا لدولة الإسلام كى تحملها على الاعتراف بالدين السماوى غير وارد.

وأما من ناحية علاقة الإسلام – من كونه دينا ودولة– بالأقليات الدينية فإن حقوقهم قد كفلها الإسلام وباتوا إخوة مع المسلمين فغزوهم لتأمين هذه الأقليات غير وارد أيضاً كأسباب لغزو مسلح.

لذلك قلنا إن الصليبية حملت الصليب رمزا للتعذيب، ولم ترفع الكتاب رمزا للحب والسلام.

وفى النهاية يقول كارلو نللينو[1]: التشريع عند النصارى عمل بشرى ليس له ارتباط متين بأقوال الإنجيل، أما التشريع فى الإسلام فلا يتصور إلا كفرع من العلوم النقلية الدينية، أصوله فى القرآن، والسنة، والإجماع.

فلهذا السبب أيضا تنطوى كتب الفقه الإسلامية على العبادات التى لا مكان لها فى فقه الأمم النصرانية وكفى ذلك برهانا على عظيم شأن القرآن فى الهيئة الاجتماعية الإسلامية ودخول أحكامه فى أمور دنيوية فقط عند النصارى .

(١) تاريخ الآداب العربية – كارلو نلينو ط ٢ – دار المعارف ص ٩٩ .

ومما ذكرته كتب التاريخ الإسلامي عن علاقة المسلمين بالمسيحيين- وفق التوجيه النبوي.ما ذكره ابن سعد في طبقاته عن كتبه ورسائله إلى الأساقفة وديار المسيحية في العرب وما أوصى به سفراءه. يذكر ابن سعد فيروى:

وكتب رسول الله لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم على ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم جوار الله ورسوله لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا كاهن عن كهنوته ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شئ مما كانوا عليه ما نصحوا أو أصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين[1].

وكتب إلى ضغاطر الأسقف:

سلام على من آمن، أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية وإني أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. والسلام على من اتبع الهدى..

وفي بعض كتبه لأهل نجران يقول ﷺ : ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم لا يُغَيِّرْ أسقفا عن أسقفيته ولا راهبا عن رهبانيته ولا واقفا عن وقفانيته وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس رباً ولا دم جاهلية ومن سأل منهم حقا فبينهم النّصف غير ظالمين ولا مظلومين..

إلى أن قال: وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي أبدا حتى يأتي الله بأمر إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم..[2].

(١) طبقات بن سعد (١ : ٢٦٦) .

(٢)طبقات بن سعد (١ : ٢٦٦) .

المسيحية فى بلاد العرب

ا - الهلينستية وآباء الكنيسة:.

يقول حتى: فى الوقت الذى كان الناس فى العالم يتجهون بأبصارهم ناحية «روما» على أنها سيدة الدنيا ومحور نشاطها؛ وفى الوقت الذى كانوا ينظرون بدهشة وذهول إلى عرش قيصر وجلال مجده، فى هذا الوقت ولد طفل فى «مَذود» فى مدينة قابعة فى زاوية من زوايا ولاية صغيرة تابعة للإمبراطورية الرومانية؛ ولكن «المذود» هذا خلد على مر الزمن؛ بينما أعمل العدم فى إمبراطورية روما معوله؛ أما المولود فهو «يسوع» وهو اسم عبرى معناه: «يهوه هو الخلاص». ولم يذكره مؤرخ لاتينى كلاسيكى معاصر سوى: مؤرخ واحد اسمه «تافيطس» وذلك عندما تكلم بصورة عابرة عن رجل يدعى «المسيح» وهى لفظة آرامية معناها «الممسوح بالدهن» وهى علامة على «النبوة أو الملوكية». وهذا المسيح هو الذى حكم عليه الوالى «بنطس بيلاطس» بالموت فى عهد «طياربوس قيصر» حوالى: ٢٧م.

وقد طبق السيد «المسيح» تعاليمه، ومارسها فى حياته؛ ومن أجلها مات على الصليب، وعلى وجه العموم نستطيع أن نقول: إن تعاليم المسيحية الجديدة أمدت البشر بنظرة جديدة إلى الحياة، كما أنها أكدت على ضرورة تكريس الذات تكريساً لمحبة الله، ومحبة الإنسانية، وكانت سيرة «المسيح» على الأرض خير مثال تجسدت فيه هذه المثل بصورة واقعية. وما كان للمسيحية أن تنتشر هذا الانتشار لو لم يكن فى رسالتها أجوبة عن أمثلة يسألها الناس عن جوهر الحياة ومعناها، وعن الموت ومعناه: أجوبة ترضى فضول السائلين فكريا وروحياً؛ لأن العصر الذى ظهرت فيه المسيحية كان عصرا يتمخض بقلق فكرى وروحى، وكان من الطبيعى أن يسأل الناس عن: الحياة والموت وعن أسرار هذا الكون.

أما الديانات الإغريقية الرومانية فكانت تعد بالخلود قلة من الناس هم الذين خدموا أمتهم، وأحسنوا إليها، كما أن أسرار الديانات الشرقية القديمة كانت وقفا على نخبة من الناس .

أما المسيحية فقد كانت على نقيض هذه الديانات؛ كانت ديانة للجميع بمثلها وأخلاقياتها ومعتقداتها الراسخة، وبتعاليمها عن الحياة الثانية.

ولفظة – النصرانية، نصارى – التى تطلق فى العربية على أتباع المسيح من الألفاظ المعربة، يرى بعض المستشرقين أنها من أصل سريانى هو نصروبو، نصرايا Nasroya - Nosroya

ويرى بعض آخر آنها من Nazerenes – التسمية العبرانية التى أطلقها اليهود على من اتبع ديانة المسيح، وقد وردت فى العهد الجديد فى أعمال الرسل حكاية على لسان يهود، ويرى بعض المؤرخين أن لها صلة بالناصرة التى كان منها يسوع حيث يقال يسوع الناصرى، أو أن لها صلة بـ الناصريين Nasarenes إحدى الفرق القديمة اليهودية المتنصرة، وقد بقى اليهود يطلقون على من اتبع ديانة المسيح– النصارى، وبهذا المعنى وردت الكلمة فى القرآن الكريم، ومن هنا صارت النصرانية علما لديانة المسيح عند المسلمين .

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء فى معنى هذه الكلمة وفى أصلها هى من قبيل التفسيرات المألوفة المعروفة عنهم فى الكلمات الغريبة التى لا يعرفون لها أصلاً، وقد ذهب بعضهم إلى أنها نسبة إلى الناصرة التى نسب إليها المسيح[١] .

وأن قدماء النصارى حينما كانوا يتحدثون عن أنفسهم كانوا يقولون:.

تلاميذ المسيح، ذلك أنهم كان ينظرون إلى المسيح نظرهم إلى معلم يعلمهم، وكذلك نظروا إلى حوارييه، فورد تلاميذ يوحنا وقصدوا بذلك النصارى[٢] .

أما فى القرآن الكريم وفى الأخبار فلم ترد هذه اللفظة اليونانية الأصل ولهذا نجد أن العربية اقتصرت على إطلاق نصارى، نصرانى، نصرانية على النصارى تمييزا لهم عن أهل الأديان الأخرى.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٨٢، ٥٨٣، وأيضا غرائب اللغة ص ٢٠٧، أعمال الرسل الإصحاح ٢٤ آية ٥، اللسان جـ٧ ص ٦٨، المفردات ص ٥١٤

(٢) المفصل جـ ٦ ص ٥٨٤ ، إنجيل مرقص الإصحاح الثانى آية ١٨ .

أما مصطلح عيسوى، مسيحى فلم يُعرفا فى المؤلفات العربية القديمة وفى الشعر الجاهلى، فهما من المصطلحات المتأخرة التى أطلقت على النصارى وقد قصد فى القرآن الكريم بـ أهل الإنجيل(*) النصارى إذ لا يعترف اليهود بالإنجيل، وقد أدخل علماء اللغة اللفظة فى المعربات[1].

مدرسة الإسكندرية واللاهوت المسيحى :

كانت الإسكندرية مهد الأفلوطينية، وأكاديمية الإسكندرية مرضعتها، وكان من حسن طالع المسيحية التى ورثت كثيراً من الفلسفتين: «الفيثاغورية والأفلاطونية المحدثة» أن مال إليها منذ بدء عهدها جمهور من كبار المفكرين البارزين فى العالم الرومانى الهلينى.. ففى مدينة الإسكندرية كانت تلتقى التيارات الفكرية من: يهودية ومسيحية ووثنية فتصطرع حينا، وتتفق حينا آخر، تألفت مدرسة فكرية تعنى بتعليم العقائد الدينية وإليها يعزى الفضل فى تقدم المسيحية الفكرى.

بولس الرسول:

بدأت عملية إدخال العناصر الهلينية بالرسول «بولس» الذى كان رجلاً يهودياً ارتد عن دينه، واعتنق الهلينية مذهباً فكرياً، ثم جاء من بعده آباء الكنيسة الذين كانوا أيضاً أتباع الهلينية، وكان «بولس» قد سعى قبل ظهور آباء الكنيسة إلى تحرير الديانة الجديدة من قيود التقليد اليهودى المتعنت .

وبالتوفيق بينها وبين الفلسفة الإغريقية أعدت المسيحية نفسها لتكون نواه قوة عالمية؛ وجعلت من نفسها جسراً يربط، بين الفكر الشرقى والغربى راحت ترسى قواعدها فى حوض المتوسط الشرقى؛ ومن هناك أخذت تبث رسالتها إلى البشرية؛ وعلى يد الرسول «بولس» أخذت علاقة المسيحية بالفلسفتين: الرواقية والأفلوطينية المستحدثة علاقة أخذ وعطاء.

وما أن أطل القرن الثالث الميلادى حتى كانت المسيحيةِ قد أفلحت باللحاق بركب الرواقية، ونجحت فى التوفيق بين نظرتهما والاقتباس من ملامحها. ولعل

(*) المائدة آية ٤٧ .

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٨٥ ، ص ٥٨٦ .

«بولس» أبرز شهيد لاقى حتفه تنفيذاً لأوامر نيرون سنة ٦٧م، واستمرت تلك الاضطهادات عنيفة قاسية حتى أصبحت فى عهد «قسطنطين» دين الدولة الرسمى.

١- كلمنت ١٦٠م - ٢٠٣ :

يعتبر «كلمنت» مؤسس المدرسة الإسكندرانية للاهوت المسيحى، كان فى بادئ الأمر وثنياً له اطلاع واسع على الفلسفة الإغريقية، وحاول وفق منهجه التوفيق بين أفضل ما فى الوثنية القديمة من فكر، وبين الديانة المسيحية الجديدة.

٢- اوريچين: المتوفى سنة ٢٥٣ م:

ولد «أوريچين» فى مصر حوالى سنة ١٨٥م من أبوين وثنيين كما يدل على ذلك اسمه الذى يعنى: «هبة الإلهة هورس» وهو تلميذ «كلمنت»، وبعد خصومة نشأت بينه وبين أسقف بلدته رحل إلى «قيسرية من أعمال فلسطين»حيث أقام هناك ويؤلف، وفى شروحه وتعليقاته على أسفار التوراة اعتمد الأسلوب المجازى الرمزى؛ وعذب وأهين وسجن فى الاضطهاد الذى سنه دقيانوس.

٣- اثناسيوس: المتوفى ٣٧٣ م

ظهر فى القرن الثالث للميلاد قديس ثالث: من آباء الكنيسة الإغريقيين «أثناسيوس». ولد فى الإسكندرية، وكان من أشد خصوم الوثنية، ومن ألد أعداء الهرطقة، ويعتبر بحق من آباء الأرثوذكسية .

وكانت خصومته للهرطقة موجهة بالدرجة الأولى لمذهب «أريوس» المتوفى سنة ٣٣٦ الذى كان أحد رجال «الإكليربوس» فى الإسكندرية. وفى الإسكندرية نشأ هذا المذهب الذى عرف باسمه.

كان «أريوس» يقول: بأن «الله» فوق إدراك البشر ومعرفتهم؛ وأنه منفصل عن أى مخلوق كائن، وأن «السيد المسيح» لم يكن «الله» بالمعنى الشامل؛ إلا أن تعاليم «أريوس» رفضت فى مجمع «نيقيا» سنة ٣٢٥ وفى مجمع «نيقيا» برز «اثناسيوس» بسبب وضعه قانون الإيمان المعروف بالقانون: «التيفاوس». وفيه تشديد على الثالوث؛

وبوصفه أسقفاً لمدينة الإسكندرية رفض «أثناسيوس» تقبل الأوامر التى كان يصدرها الإمبراطور، والتى كانت تنم عن عطف على «الأريوسية ومناصرة لها» ثم نفى مراراً وعزل، ثم فى منفاه عاش مع النساك.

وفى كتاب يعزى إلى: «أثناسيوس» نجد وصفا مسهباً لحياة ناسك كان يعرفه «أثناسيوس» اسمه «أنطونى» مصرياً. عاش هذا المتزهد المصرى المولد مدة عشرين سنة فى الصحراء المصرية.. وبعد ذلك نشأت رهبنيات فى مصر السفلى، ومن مصر انتشرت حركة الرهبنة إلى سوريا، ومنها إلى فلسطين إلى أن عمت العالم المسيحى بأسره.

الرهـــا:

احتدم الجدل اللاهوتى فى خلال القرن الرابع والخامس وكان من أمتع النشاطات الفكرية وأطرفها لدى علماء ذينك القرنين. كان ذلك الجدل يدور حول شخص «المسيح وطبيعته الإنسانية» وعلاقتها بطبيعته الإلهية؛ وعلى مر الأيام انقسمت الكنيسة السريانية إلى طائفتين:

السريانية الشرقية، التى تعرف بالنسطورية، وأصحابها النساطرة.

السريانية الغربية، التى تعرف باليعقوبية، وأصحابها اليعاقبة.

الكنيسة السريانية الشرقية:

كانت الكنيسة السريانية الشرقية تفاخر بأنها تأسست فى عهد الرسل وبهذا تكون تأسست قبل عهد «نسطورا» بما لا يقل عن قرنين من الزمن وهى تعتبر نسطورا من الأباء اليونانيين، لا من الآباء السريان.

ولكن بما أنها رفضت أن تصدر فى حقه الحرم الكنسى فقد ظل اسمه مقروناً بهذه الكنيسة المعروفة بالنسطورية.

احتضنت مدرسة الرها العقيدة النسطورية، وتولت الدفاع عنها، وانطلقت منها رسل التبشير إلى الصين والهند.

الكنيسة السريانية الغربية :

إذا كان الفرع الشرقى للكنيسة السريانية الذى غرس جذوره فى إيران يعتبر من ناحية الفلسفة اللاهوتية نسطورياً، فإن الفرع الغربى الذى تأصلت جذوره فى كنائس سوريا «مونوفستيا» أى:كنيسة القائلين بأن «المسيح» طبيعة واحدة. أى القائلين بأن «المسيح» إنسان إله وتعظيم العذراء.

وفى مطلع القرن السادس كانت قد ترسخت فى سوريا، وأصبحت تعرف بالكنيسة اليعقوبية. وأصحابها اليعاقبة: نسبة إلى «يعقوب البرادعى» واضع طقوسها وأسقف الرها ٥٤٣ م – ٥٧٨م ومن سوريا انتشرت عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة شمالاً إلى أرمينيا وجنوباً إلى مصر حيث اعتنقتها الكنيسة القبطية .

آباء الكنيسة اللاتين :

يقول حتى:.

فى الوقت الذى كان فيه آباء الكنيسة فى الإسكندرية يعملون على إغناء اللاهوت المسيحى بتلقيح العقائد المسيحية بعناصر من الفلسفة الأغريقية، كان الآباء القديسون اللاتين يدخلون على سلطة الكنيسة وإدارتها عناصر رومانية فى حقلى التشريع والقضاء .

اوغسطين ٣٥٤ :

ولد سنة ٣٥٤ فى «نوميديا» غرب مدينة قرطاجة؛ ولم يعتنق المسيحية حتى سنة ٣٨٧، بعد أن كان من دعاة الأفلاطونية الجديدة؛ وبعد اعتناقه بسبع سنوات رسُم أسقفا على مدينة «هبو» وهى مستعمرة فينيقية ثانية فى شمال إفريقيا، وبقى فى هذا المنصب حتى مماته سنة ٤٣٠م ومما شهره مؤلفه الموسوم بـ «اعترافات» وهو: كتاب ممتعٌ يسر وفيه سيرة حياته؛ وكذلك مؤلفه «مدينة الله» الذى يتخيل فيه الكنيسة المسيحية إمبراطورية جديدة ناشئة تقوم على أنقاض روما.

من هنا يظهر على سبيل المقارنة بين آباء الكنيسة الإسكندرانية وآباء الكنيسة الرومانية، بأن آباء الكنيسة الإسكندرية وارثى التراث الإغريقى الحضارى الذى يؤكد الإيمان بالعقل وحب العلم وطلب المعرفة لذاتها.

هم الذين أوجدوا الفكر المسيحى القديم وخلقوا له نظاماً خاصاً به. وكان الثلاثة : «كلمنت، وأوريچين، وأوغسطين» هم الذين وضعوا العقيدة فى الثالوث، وقد أكد الآباء الإغريق على الأفلاطونية الجديدة التى نادى بها أولاً «بولس» الرسول، وتمييزها بين عالم المحسوسات الذى هو عالم زائل منقلب وبين عالم الفكر الذى هو ثابت دائم سرمدى؛ وهذا التمييز من شأنه أن يوضح الفرق بين المادة والروح بين الجسد والنفس.

يقول حتى : لقد أضحى العالم «وادي الدموع» الذى يأخذ بيد الإنسان إلى العالم الآخر. كما أن حياة التنسك والتقشف أصبحت فى نظر الناس هى الحياة الفضلى.

وعلى نقيض الآباء اليونانيين كان الآباء اللاتين وارثو التقليد الرومانى يعنون أولاً بتنظيم المجتمع البشرى ووضع الشرائع والقوانين التى تضبط شئونه؛ كما أنهم يعملون على تنظيم الكنيسة كمؤسسة ونظام؛ وذلك لأن الشعب الرومانى كان واقعيًا فى نظرته أكثر من الشعب الإغريقى.

توسع الرهبنة:

فمنذ إعلان المسيحية دينا رسميا فى عهد «قسطنطين» للدولة الرومانية ولمدة قرنين، ازدهر عصر «المطارنة والأساقفة» والرهبان والراهبات، والمتنسكين والزهاد» بشكل لم يعهد من قبل، فقد تضاعف عدد الكنائس والأديرة فى مصر وعبر سوريا حتى آسيا الصغرى. وكان أسلوب العيش المفضل هو عيش الرهبنة التى نشأت فى المسيحية بممارسة التقشف والزهد. ومن الذين انعشوا حياة التزهد والترهبن:

١- القديس مارون:

كان القديس «مارون» مؤسس «الطائفة المارونية» وشفيع كنيستها فى لبنان راهباً ناسكا قضى حياته فى البرية الواقعة إلى الشمال من أنطاكية.

٢- افرام السوريانى ٣٠٦- ٣٧٣ :

كان «أفرام السوريانى» أولاً: لاهوتيا فى الكنيسة السريانية هو، الذى دعا إلى الرهبنة بين قومه وهو الذى أنشأ فى «الرها» مدرسة اللاهوت، أصبحت فيما بعد أول جامعة فى الكنيسة السريانية

وبهذا شاركت فى دخول المسيحية الكنيسة بآبائها اليونانيين فى نشر الثقافة اليونانية من جانب، وإسباغ ثوب الثقافة اليونانية على المسيحية من جانب آخر، وبلغ منها: أن باتت تفضل قراءة العهد القديم فى ترجمته اليونانية.

ثم بدأت جهود فردية: تعكف على التوفيق بين العقيدة المسيحية والفلسفة اليونانية، وظنوا أن تضافرها مع الفلسفة: يعطيها قوة، ولكن خيب ظنهم انشقاقها العقدى الذى ظهر فيما بعد.

وظهر الأثر الفلسفى على القديس بولس - وهو رائد التوفيق بين المسيحية والتراث الفكرى عند الشعوب الداخلة فيها، فى رسائله التى وفق فيها بين المسيحية والفلسفة اليونانية، وظهر جليا: عندما نشبت الخصومات داخل الكنيسة أن صيغت هذه الخصومات فى مصطلحات فلسفية يونانية،ودارت معاركها وفقا للأصول الفلسفية.

وقد استخدم القديس بولس- وهو من أهل طرسوس أحد مراكز الرواقية المختارة: لغة تلك المدرسة للتعبير عن المجتمع الروحى الذى ينتظم كل المسيحيين أعضاء، وتتردد باستمرار فى رسائله: فكرة رعوية سماوية، وفى عظته فى أثينا: اقتبس من أنشودة إقلينثى الرواقي لزيوس، وأعلن فى ألفاظ تردد صدى العقائد الأساسية فى المذهب الرواقي: أن الله لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدى، وأنه «صنع من دم واحد: جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض»[١].

وهكذا منذ البدء: أتيح للكنيسة المسيحية أن تكون مبشرة بالثقافة العقلية اليونانية، وبالعقيدة الإنجيلية معا.

ورأينا وجهة نظر يهودية معاصرة تقول: إن دخول المسيحية فى الهلينية: انحراف منها إلى اليسار، وأنهم يدفعون بأنفسهم فى استهانة متزايدة نحو التراخى، ويدفعون من جانبهم: الحركة الهلينية فى اطراد إلى الأمام.

وبسبب هذه الانتقادات اليهودية: وقعت خصومة[٢] بين اليهود والمسيحيين.

---

(١) (الأعمال ص ٩: ٢٨) هو «لأننا أيضا ذريته» يراجع تراث العالم القديم جـ١ ص ٢٣٨ .

(٢) قد سجلت الخصومة بين هاتين الطائفتين فى (أعمال الرسل الحواريين) .

وأشار القرآن إلى نتائج هذه الخصومة بينهما فقال: «وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» البقرة ١١٣ .

وكانت هذه الخصومة ما يفيد: أن المسيحية هى وريثة الهلينية، وذلك عندما سايرت إلى حد كبير تيار الفكر الهليني في الشرق.

وفي النهاية نقول: لقد حققت المسيحية توسعا دينيا، فأصبحت الدولة الرومانية مسيحية بعد وثنيتها اليونانية، وأصبح من المعالم البارزة التي طبعها الشرق على الغرب: أن دان الغرب بدين شرقى، غير أن الغرب أخذها بعد أن طبعها اليونان بطابعهم الفلسفي، مما جعلها فيما بعد، إبان عصور النهضة الأوربية محل انتقاد من البعض، ورفض وإنكار من البعض الآخر.

وفي هذا ما يميز الإسلام عنهما: فهو قد انتشر بلغته، وكتابه، وشمل أمما، وشعوبا، فضلوا لغته على لغاتهم. كذلك يتميز بأنه دين دعوة منذ أن نشأ، وفي حياة الرسول نفسه: أرسلت سفراء، وكتب لنشر الدعوة الإسلامية. وكان له من القوة التي كفلت له حمل السيف، على من ناصبه العداء، أو في سبيل تأمين دعوته، إذا تعرضت لمناورات الخصوم المعارضين.

وكان من أكبر الآثار الفلسفية على المسيحية: أن صرفت النصارى عن التوحيد دين المسيح، إلى عبادة الصليب، وفي هذا التحول: تغير مفهوم المقدس الحقيقي لديها، لأن الصلب والصليب لم يكن تشريعا منه.

وعلى أية حال لقد توسعت في مفهوم المقدس: حين أدخلت قضايا فلسفية إلى صميم دينها بل إلى صميم عقيدتها.

يقول جيبون:

وخلط الغنوصيون، بالإيمان بالمسيح: كثيرا من العقائد، والمذاهب الغامضة، تلك اشتقوها من الفلسفة الشرقية، بل حتى من ديانة زرادشت التي تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم غير المرئي.

واستطاع هؤلاء الهراطقة الغنوصيون أن يخرجوا بدلا من الأناجيل الأربعة التي قررتها الكنيسة بمجموعة كبيرة من التواريخ، التي تلتئم فيها مناقشات المسيح، وحوارييه، وأعمالهم، مع أفكار كل شيعة بعينها.

كيف دخلت المسيحية مكة والجزيرة العربية:

كانت هناك روافد حملت المسيحية إلى الجزيرة العربية. بل إلى مكة ذاتها هي:

١- الاضطهاد الذى وقع على المسيحية منذ المسيح ذاته جعل أتباعها يبحثون عن أماكن فى كهوف الجبال وبطون الصحراء ليتواروا عن أعين الرقباء من الرومان .

٢- رحلات قريش التجارية ونظرية تقسيم الناس إلى أحرار وعبيد شاركت بدورها فى إدخال المسيحية إلى مكة .

٣- دخلت المسيحية الجزيرة العربية دخولا رسميا على يد «الحارث الغسانى».

٤- دخلت المسيحية قلب مكة مع الغزو الحبشى لها .

٥- ظهور جماعة يدعون بالحنفاء يرمون وراء تحنفهم سحب الثقة الدينية من الأوثان، ثم طلبوا أديانا شتى فبعضهم طلب الحنفية وبعضهم طلب الأوثان وبعضهم طلب المسيحية.

وإذا كانت المسيحية قد دخلت مكة فإلى أى حد انتشرت؟

بقيت المسيحية رهينة لغتها السريانية أو الرومانية فلم تنتشر انتشارا ملحوظا لا من قريب ولا من بعيد، وكل الذين اعتنقوها من العرب هم الذين كانوا على صلة باللسان الأعجمى .

فلم ينتشر كتابها المقدس لأنه لم يترجم إلى اللغة العربية. كذلك شعائر صلاتها (القداس) لم تترجم.

ليس معنى وجود المسيحية وانتشارها بين العرب تعلم الرسول منها وإنها كانت مصدره فى تأليفه للقرآن لأن الرسول ادعى النبوة وكان الوحى مصدره فيما قال وفيما يفعل، وقامت شواهد الواقع والتاريخ على صدق دعوته ثم كان القرآن من أكبر شواهد الأدلة بيننا عليه.

وأما ما بينهما من عناصر متشابهة ومثلها اليهودية فإن القرآن نفسه حسم ذلك حين قال إن ما أنزل على محمد ليس بدعا عما نزل على غيره من الرسل ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ... ﴾[1] الآية .. ويصبح كل بحث يحاول أن يبرز

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣ .

عناصر التشابه بين ما نزل من وحى السماء فهو من غير أن يدرى يدور فى فلك الآية السابقة حين أكدت وحدة وحى السماء، وفى الوقت نفسه يؤكد دعوى نبوة الرسول وصدق ما قاله ودفع النوازع فى النفوس البشرية حين تريد أن تخلق من المتجانسات تنافرا.

وأهم علامة فارقة ميزت نصارى عرب الجاهلية عن العرب الوثنيين هى أكل النصارى للخنازير، وحملهم للصليب وتقديسه، ورد أن الرسول قال لراهبين أتياه من نجران ليبحثا فيما عنده: يمنعكما عن الإسلام ثلاث أكلما الخنزير، وعبادتكما الصليب، وقولكما لله ولد. وورد أنه رأى عدى بن حاتم الطائى وفى عنقه صليب من ذهب لأنه كان على النصرانية .

أما الزمن الذى دخلت فيه النصرانية إلى جزيرة العرب فتحاول مؤلفات رجال الكنائس رد ذلك التاريخ إلى الأيام الأولى من التأريخ النصرانى [١].

وإذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة، فإن دخول النصرانية إليها كان بالتبشير. وبدخول بعض النساك والرهبان إليها للعيش فيها بعيدين عن ملذات الدنيا، وبالتجارة وبالرقيق ولا سيما الرقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة، وبفضل ما كان لكثير من المبشرين من علم ومن وقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير فى النفوس تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم فى دينهم، أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم فنسب دخول بعض سادات القبائل ممن تنصر إلى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض، وقد نسبوا ذلك إلى فعل المعجزات والبركات الإلهية، وذكر بعض مورخى الكنيسة أن بعض أولئك الرهبان القديسين شفوا بدعواتهم وببركات الرب النساء العقيمات من مرض العقم فأولدن أولاداً، ومنهم من توسل إلى الله أن يهب له ولداً ذكرا فاستجاب دعوتهم فوهب لهم ولداً ذكرا كما حدث لضجعم سيد الضجاعمة إذ توسل أحد الرهبان إلى الله أن يهبه ولداً ذكر فاستجاب له،فلما رأى ضجعم ذلك دخل فى دينه وتعمدهو وأفراد قبيلته، ومنهم من شفى بعض الملوك العرب من أمراض كانت به

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٨٦ وأيضاً البلاذرى ص ٧١، واللسان ١٣ / ٤٤٣ مادة وثن ، النصرانية وآدابها القسم الأول للويس شيخو.

مثل – ما رايشو عزخا– الراهب ذكروا أنه شفى النعمان ملك الحيرة من مرض عصبى ألمّ به، وذلك بإخراجه الشيطان من جسده[١].

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب والمشقات التى كانوا يتعرضون لها، فدخلوا مواضع نائية فى جزيرة العرب، ومنهم من رافقوا الأعراب وعاشوا عيشتهم وجاروهم فى طراز حياتهم فسكنوا معهم الخيام حتى عرفوا بـ – أساقفة الخيام–، بـ – أساقفة أهل الوبر، بأساقفة القبائل الشرقية المتحالفة وبأساقفة العرب البادية، وقد ذكر أن مطران بصرى كان يشرف على نحو عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان وقد نعتوا بالنعوت المذكورة لأنهم كانوا يعيشون فى البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر.

وقد دخل أناس من العرب النصرانية باتصالهم بالتجّار النصارى وبمجالستهم لهم، روى أن رجلا من الأنصار يقال له أبو الحصين كان له ابنان فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا أتاهم ابنا أبى الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصروا فرجعا إلى الشام معهم.

ودخلت النصرانية جزيرة العرب مع بضاعة مستوردة من الخارج هى تجارة الرقيق من الجنسين، فقد كان تجار هذه المادة المهمة الرابحة يستوردون بضاعتهم من أسواق عالمية مختلفة، ولكن أثمن هذه البضاعة وأغلاها هى البضاعة المستوردة من إمبراطوريتى الروم والفرس لمميزات كثيرة امتازت بها عن الأنواع المستوردة من أفريقية مثلا، فقد كان صنفها من النوع الغالي الممتاز الجمال والحسن والإتقان ثم الابتكار وبالقيام بأعمال: لا يعرفها من هم من أهل إفريقية.

وقد كان فى مكة وفى الطائف وفى يثرب وفى مواضع أخرى من جزيرة العرب رقيق نصرانى كان يقرأ و يكتب ويفسر للناس ما جاء فى التوراة والأناجيل، ويقص عليهم قصصا نصرانيا ويتحدث إليهم عن النصرانية، ومنهم من تمكن من إقناع بعض العرب فى الدخول فى النصرانية، ومنهم من أثر على بعضهم فأبعده عن الوثنية ، وسفه رأيها عندهم لكنهم لم يفلحوا فى إدخالهم فى دينهم فبقوا فى شك

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٨٧، ص ٥٨٨ ، وأيضاً النصرانية وآدابها جـ١ ص ٣٥ ، الديورة فى مملكتى الفرس والعرب للقس بولس شيخو ص ٣٢ ، ص ٤٧ .

من أمر الديانتين يرون أن الحق فى توحيد الله وفى اجتناب الأوثان لكنهم لم يدخلوا فى نصرانية لأنها لم تكن على نحو ما كانوا يريدون من التوحيد وتحريم الخمر وغير ذلك مما كانوا يبتغون ويشترطون[1].

وقد تسربت النسطورية إلى العربية الشرقية من العراق وإيران فدخلت إلى قطر وإلى جزر البحرين وعمان واليمامة ومواضع أخرى، ومن الحيرة انتقلت النسطورية إلى اليمامة فالأفلاج فوادى الدواسر إلى نجران،واليمن وصلت إليها بالتبشير وبواسطة القوافل التجارية، فقد كانت بين اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقة، وكانت القوافل التجارية تسلك جملة طرق فى تنمية هذه العلاقات وتوثيقها. وقد قوى هذا المذهب ولا شك بعد دخول الفرس إلى اليمن، ولما عرف من موقف رجاله من كنيسة الروم، ولما كان لأصحابه من نفوذ فى بلاط الشاهنشاه ومن صداقته لهم[2].

وقد بقيت النسطورية قائمة فى اليمن فى أيام الإسلام.

أما اليعاقبة فقد انتشر مذهبهم بين عرب بلاد الشام والبادية، وقد اصطدم هذا المذهب بالكنيسة الرسمية للبيزنطيين واعتبرته من المذاهب المنشقة الباطلة لذلك حاربته الحكومة وقاومت رجاله. كما عارضه النساطرة لاختلافه معهم فى القول بطبيعة المسيح وفى أمور أخرى، وهذا ما حمل النساطرة على الحكم بهرطقة اليعاقبة، كما حمل هذا الاختلاف اليعاقبة على الحكم بهرطقة النساطرة حتى صار اختلاف الرأى هذا سببا فى وقوع معارك كلامية وجدل طويل عريض بين رجال المذهبين.[3]

واليعاقبة – يدعون بـ المنوفسيتين أى القائلين بالطبيعة الواحدة لقولهم إن المسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً فقيل لهم من أجل ذلك أصحاب الطبيعة الواحدة. هم مذهب من مذاهب الكنيسة الشرقية نسبوا إلى يعقوب البرادعى ويسمى بـ جيمس أيضا، المولود فى حوالى سنة ٥٠٠ للميلاد فى مدينة الأجمة من أعمال

---

(١) المفصل جـ ٦ ص ٥٨٨ ، ص ٥٨٩ وأيضاً النصرانية جـ١ ص ٣٣. وتفسير الطبرى جـ٣ ص ١٠ ، وتفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٦٢٩ وأيضاً – النصرانية جـ١ ص ٥٩ وما بعدها.

(٣) المفصل جـ٦ ص ٦٣٠ ، وأيضاً النصرانية جـ١ ص ٦٧، شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٢٩٢ وما بعدها .

نصيبين فى شرقى الرها والمتوفى سنة ٥٧٨ للميلاد. ولد فى أسرة كهنوتية، وتتلمذ لـ ساويرس الذى صار رئيساً على بطريركية أنطاكية فى عام ٥١٤ للميلاد.

ثم اضطر إلى مغادرة أنطاكية إلى مصر لاختلافه مع رجال الدين فى هذه المدينة فى طبيعة المسيح. إذ كان يقول بوجود طبيعة واحدة فيه؛ وأخذ يعقوب رأيه هذا فى المسيح.

وذهب يعقوب فى حوالى سنة ٥٢٨ للميلاد إلى القسطنطينية لحمل القيصرة -ثيودورة- Theodora - على التأثير فى الكنيسة، وحملها على الكف عن اضطهاد القائلين برأيه فى طبيعة المسيح. وقد مكث فى القسطنطينية خمسة عشر عاماً، وسعى حثيثا فى نشر مذهبه والتبشير به، وهذا ما أوقعه فى نزاع مع بقية رجال الدين هناك؛ لخروجه على تعاليم المجمع الخلقيدونى الذى عين التعاليم الثابتة فى طبيعة المسيح [1].وكان يعقوب أسقفا على الرها فى حوالى سنة ٥٤١م.

وكان الحارث بن جبلة من المقدرين له، والمحبوبين عنده. لذلك كان ممن توسطوا لدى بلاط القسطنطينية للسماح له بالخروج منها، وللتوفيق بين آرائه وآراء الكنيسة البيزنطية، كما توسط المنذر لدى البيزنطيين للغرض نفسه[2].

وكانت فى أيامه أسقفيتان على العرب: أسقفية عرفت بأسقفية العرب، وأسقفية التغلبيين، وكرسيها بـ عاقولا، وعاقولا هى موضع بالكوفة أما كرسى أسقفية العرب فكان فى الحيرة.

وقد دخل أكثر الغساسنة فى هذا المذهب وتعصبوا له، وطالما توسطوا لدى الروم فى سبيل حملهم على الكف عن اضطهادهم والتنكيل بهم. ظلوا مخلصين لهذا المذهب إلى ظهور الإسلام[3] وكان لليعاقبة مشهد مقدس يحجون إليه للتبرك به والنذر له هو مشهد القديس سرجيوس فى مدينة سرجيوبوليس Sergigapalis وهى الرصافة.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٦٣١ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٦٣١ .

(٣) المفصل جـ٦ ص ٦٣١ ص ٦٣٢ وأيضاً ذخيرة الأذهان جـ١ ص ٣٠٣ .

وكانت أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به ويقصدونه للتبرك به على عكس نصارى الحيرة الذين امتهنوا القبر في حروبهم مع الغساسنة واعتدوا على المدينة.

وقد كان نصارى الحيرة على مذهب نسطور في الأغلب كما كانوا من الوثنيين ، ولذلك لم تكن لسرجيوس في نفوسهم منزلة ومكانة، وذكر أهل الأخبار أن من بين فرق النصرانية أو الفرق التي هي بين بين - بين النصرانية والصابئة دين يقال له الركوسية، وذكروا أن الرسول قال لحاتم الطائي: إنك من أهل دين يقال لهم الركوسية. ولكني أشك في صحة هذا الحديث، إذ كانت وفاة حاتم قبل مبعث الرسول، ولم يثبت أنه التقى به[1].

٢- المسيحية والرسول :

وبعد ذلك فنستطيع القول عن الأثر المسيحي وزعم القول به على الرسول من خلال ما سبق أن نزعة التبشير في المسيحية إلى الاضطهاد الذي تعرضت له من الدولة الرومانية، هذه النزعة ظهرت للمرة الأولى بعد استشهاد القديس اسطفانوس، وما تلاه من اضطهاد ولم يكن الاضطهاد، هو السبب الوحيد في انتشار المسيحية، ولكنه كان سببا من أسباب انتشارها ولعله كان من أهم الأسباب:

وكان من نتائج هذا الاضطهاد لجوء بعض المسيحيين - على أثره- إلى بلاد ما بين النهرين خارج الامبراطورية الرومانية، وبذلك استطاعوا أن ينشئوا كنيسة ما بين النهرين، خصوصاً فيما حول «الرها» في هذه الكنيسة ظهرت المسيحية: بآدابها وبلغتها السريانية، والترجمة للكتاب المقدس إلى السريانية كانت عن النص العبري، وليست عن النص اليوناني.

وأصبحت «الرها» بتمايزها السرياني: كنيسة، ومدرسة، مركزا مشعا وطيد الأركان، ذا شهرة واسعة بين سكان ما بين النهرين، وفارس وممن يتكلمون السريانية. باعتبارها مركزا كنسياً للشعوب المتكلمة بالسريانية. فإنها مثلت الجانب السرياني من الحياة العقلية، وضارعت به الإسكندرية. وانتشرت اللغة السريانية تدريسا وتعليقا، في الرها، ونصيبين، وحران.

(١) المفصل جـ٦ ص ٦٣٣، ص ٦٣٤ وأيضاً أسد الغابة جـ٣ ص ٣٩٢، اللسان جـ٧ ص ٤٠٥، تاج العروس جـ٤ ص ١٦٣ .

ومن هنا ظهر تمايز بين كنيستين فى الشرق من حيث الوسائل التعليمية:

- كنيسة الإسكندرية: وهى يونانية ذات شكل مسيحى.

- كنيسة سريانية: مسيحية فى تقاليدها[1].

وقد أدى هذا التمايز فى الأسلوب إلى حساسية مفرطة، أخذت تزداد بفضل النعرة العنصرية، بين السريان، والهلينيين: ثقافة أو جنسا، أدى إلى تأليب الإسكندرية (الكنيسة الجامعة) : والسياسة الإمبراطورية على الكنيسة السريانية، ورأت الإمبراطورية - من وجهتها السياسية- أن فى هذا تمردا على السلطان: سلطانها السياسى من جهة، وعلى الكنيسة الجامعة من جهة أخرى، ومن هنا: راحت تقضى بعنف على تلك الكنائس المحلية، ذوات الصبغة القومية، أو المنزع الاستقلالى: لغة ودينا.

هذا من حيث الموقف السياسى.

وأما من الناحية الدينية :وهى التى تكمن وراء هذا الاختلاف بين انطاكية والإسكندرية وما بينهما من منافسة وميول متعارضة فإن الكنيسة السريانية كانت تنزع إلى تناول اللاهوت بما يمكن أن نسميه تناولا عقليا- مشوبا بالحذر- بقدر ما يحتاج إليه النص المقدس: من حيث الفهم، أو التأويل.

وأما الإسكندرية: فكانت تميل إلى تناوله تناولا فلسفيا، يوافق القواعد اليونانية، أو تناولا رمزيا، وفق رمزية الهند، وفارس، وقد تعدى الخلاف الشكلى إلى انقسام حقيقى فى العقيدة.

فأصبحت الكنيسة السريانية تذهب إلى إنكار إمكان إطلاق لقب والدة الإله على العذراء مريم، ذاهبة إلى أنها لم تكن إلا أما لعيسى، باعتباره بشرا آدميا، وطرد فى سبيل ذلك نسطورس، بقرار من مجمع أفسوس سنة ٤٣١ بزعامة كرلس، بطريرك الإسكندرية، ولكن السريان لم يقبلوا هذا القرار، ورفضوا قرارات المجمع، وانفصلوا، وعرفوا باسم النساطرة، وانبرت الرها تعضد نستوريوس[2] بوجه عام. واقترن النساطرة بالرها والمنطقة العربية عموما.

---

(١) يراجع : ما كتبناه عن إنطاكية فى هذا الكتاب.

(٢) رجع نستوريوس إلى الدير الذى جاء منه بالقرب من أنطاكية ثم نفى إلى البتراء فى بلاد العرب وتوفى بعد عام ٤٣٩ بقليل. ولعل معلومات الشهرستانى عن نسطورا غير دقيقة فيقول: النسطورية أصحاب: نسطور الحكيم، الذى ظهر زمان المأمون وتصرف فى الأناجيل بحكم رأيه.

ومنذ أن أصبح المذهب النسطورى مضطهدا، ونحن نلاحظ سرعة فى انتشاره، وإشرافا، وتوجيها، وسيطرة على الكنائس، والمدارس فى المنطقة العربية. وانتشر نشاط النساطرة بين العرب فى الجنوب الغربى، ثم اتجه نحو الشرق عبر آسيا الوسطى، إلى أن بلغ الشرق الأقصى.

ومن المدن العربية الكبرى التى تنصرت: الحيرة، وذلك حوالى نهاية القرن السادس، وذلك حين تنصر النعمان ملك الحيرة وتبع هذا تحول كثير من الأعراب إلى المسيحية، وهم من قبيلة اللخميين يؤلفون الارستوقراطية الحاكمة فى الحيرة.

يقول ابن هشام : وبنجران بقايا من أهل دين عيسى على الإنجيل، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأس يقال له : عبد الله بن تامر.

يقول ديلاسى أوليرى: ويبدو أن هؤلاء الذين اعتنقوا المسيحية قد أخذوا المذهب النسطورى، وارتضوا أن يقوم بخدمة القداس رجال الدين النساطرة، الذين يتكلمون السريانية.

وعلى الرغم من هذا كله فشلت المسيحية فى أن تمد جذورها بين العرب فلم يتأثر وسط الجزيرة العربية بالمسيحية.

خلاصة القول كما يقول دوزى أن المسيحية لم تستطع بما فيها من تقاليد وعقيدة التثليث وعقيدة صلب المسيح أن تجذب انتباه العرب أو أفكارهم[1].

ومن وجهة النظر العامة: عجزت المسيحية أن تنتشر فى الشرق مثل انتشارها فى الغرب. وذلك للسبب الذى يقوله «رينان» لأنها الوارثه بلا واسطة لآثار الآراميين من مدرسة الإسكندرية.

ثانيا - أصحاب الطبيعة الواحدة:

يرجع نشر عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة فى المنطقة العربية إلى يعقوب البرادعى. ولم يذهب إليها مضطهدا، شأن نسطورس، إنما جاء به إلى المنطقة العربية، الحارث بن جبلة ملك قبيلة غسان العربية، وكان قد قدم فى ٥٤٣ ق.م. إلى بلاط

(١) حضارة الإسلام: ص ٢٨ صلاح الدين خودابخش ترجمة د. / على حسنى الخربوطلى.

ثيودورا، وكانت الحكومة البيزنطية تمده بالمال لقاء حمايتها للحدود السورية، وكانت تسبغ عليه لقب ملك بصفة رسمية وحدث فى هذه الزيارة أن طلب الإذن لبعض الأساقفة فأجيب إلى طلبه.

فأعطى لبصرى: يعقوب البرادعى.

وللرها: ثيودور

وأصبح أصحاب الطبيعة الواحدة مجتهدين، وموفقين فى نشاطهم التبشيرى، وكانوا يجوبون الصحارى فى حمى قبيلة غسان العربية.

قال النابغة الذبيانى فى وصف آل غسان:

محلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب(١)

يقول فيليب حتى:

« وفى أيام البعثة المحمدية كان معظم هذه القبائل من المسيحيين، وكانت الأديرة، والصوامع، منتشرة فى الوادى كله، وقد كان رهبان النساطرة ينتشرون من هذا المركز العام، فيجوبون خلال بلاد العرب كلها، ويزورون الأسواق الكبرى، ويعظون من يصيخون إليهم السمع، وقد جاء فى السيرة أن النبى ﷺ قد ذهب إلى سورية فى شبابه، والتقى بالقرب من بصرى، براهب يدعى نسطورا.

ثم يقول فيليب حتى:

وأصبحت بصرى التى بنيت كاتدرائيتها فى عام ٥١٢ العاصمة الدينية فى المنطقة كما اشتهرت كمركز تجارى كبير، وتقول المرويات الإسلامية أن النبى محمد ﷺ مر بها هو وقافلته.

ويضيف «حتى» قائلا:

وهناك اطلع على كثير مما عرفه عن المسيحية.

ويقول حتى:

وقبل أن يزول الغساسنة نقلوا بعض الأفكار المسيحية التى كان لها تأثير مع بعض أفكار أخرى على الإسلام.

(١) محلتهم: مسكنهم – ذات الإله: بيت المقدس.
ويروى مجلتهم: قال القتيبى: تقديره كتابهم كتاب الله وكانوا نصارى وكتابهم الانجيل. يوم السباسب. يوم الشعانين الأحد السابق لأحد الفصح عند النصارى. ديوان النابغة الذبيانى ص ١٢ دار صادر.

وهكذا زودت الحضارة السورية الإسلام ببعض العناصر المبدعة، كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل[١].

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز:

وسوف لا نعول كثيرا على قصة بحيرا الراهب الواردة فى الأثر والتى تذكر أن محمدا ﷺ قابله وهو فى الثانية عشرة من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب فى سفره إلى سورية. فالصواب يمنعنا من الأخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدرا لتعليم محمد ﷺ، لأن الحادثة: إما أنها أسطورية، أو أنه يتعين علينا أخذ كل الوقائع التى تذكرها فى الحسبان ، وحينئذ نجد أن القصة تذكر أن هذه المقابلة كانت فى حضور جميع أفراد القافلة، وأن محمدا كان فى دوره «مسئولا» لا مستمعا، وبانتهاء الاستجواب: خلص الراهب إلى نبوءة مضمونها توقع بعثة هذا الشاب رسولا فى المستقبل. إن الفكرة إذن تفند نفسها[٢].

ونحب أن نعرض للرواية التاريخية التى ذكرت مقابلة الرسول ﷺ لبحيرا الراهب، والرواية التى ذكرت مقابلة ثانية فى مرحلة أخرى من العمر لنسطورا الراهب.

أولا رواية بحيرا:

قال ابن إسحاق: التقى بحيرا برسول الله وهو ابن تسع سنين.

وفى الطبرى : ابن اثنتى عشرة سنة.

وكان الرسول قد خرج مع ركب أبى طالب وهو فى تجارته إلى الشام فمر على راهب فى صومعته فى بصرى: هو بحيرا، فمن بحيرا؟

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ١ ص .

(٢) مدخل إلى القرآن: عرض تاريخى مقارن ص ١٣٤ الدكتور محمد عبدالله دراز ترجمة محمد عبد العظيم ومراجعة د/ السيد محمد بدوى.

اقرأ مقال هوارب: بالجريدة الأسيوية عدد يوليو أغسطس ١٩٠٤ بعنوان مصدر جديد للقرآن حيث ورد ما يلى فى الخاتمة:

لا تسمح النصوص العربية، التى عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى فى الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسيج الخيال..

قال ابن إسحاق: بحيرا كان إليه علم أهل النصرانية.

ووقع في سيرة الزهرى: بحيرا كان حبرا من يهود تيماء.

وفي المسعودى: أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس، تلك رواية بحيرا.

ثانيا – رواية نسطورا الراهب.

رآه الراهب تحت ظل شجرة، وهو فى رحلته بتجارة خديجة إلى الشام.

وتذكر الرواية: أنه ليس بحيرا الراهب لأن هذه الرواية كانت بعد العشر.

الروايتان تفيدان معا:

التقاءهما بالرسول ﷺ: وهو فى رحلة تجارية مع قبائل قريش، وأن الرسول ﷺ لم يجالسهما، وإنما تكلم فى شأن مستقبله مع شيخ الركب. وأنهما نصحا بعودته خوفا عليه، من الروم أو اليهود، ولم يقترحا استبقاءه معهما حتى عودة القافلة من رحلتها، فالمسيحية الأولى: قامت بالدور التبشيرى لمستقبل رسالة الإسلام ونبيه. وهذا ما تقرره الروايتان:

أنهما لم يتحدثا إليه، لا من قريب ولا من بعيد: فى شأن تعلمه.

وعلى احتمال أنه تعلم منهما واستمع إليهما، فأى شئ تعلمه منهما؟

وعقيدة أى مذهب تعلم؟هل العقيدة النسطورية؟ أو عقيدة مذهب الطبيعة الواحدة، وكلاهما كان منتشرا فى تلك المنطقة؟ ثم ما المدة الزمنية التى تكفى لإحاطته بالمسيحية؟

بعض المستشرقين يرى أن وراء هذه الروايات دورا تاريخيا فى صلة الرسول بالمسيحية، ومثل هذه الآراء، وجدت من بحوث المستشرقين ما ناهضها، وناقضها، ووفق مناهج بحوثهم أثبتوا تفاهتها من عدة أمور منها:

– عدم تعرض القرآن لمشكلات المسيحية.

– تناقض ما جاء فى القرآن عنها مع شعراء العرب المعاصرين للنبى ﷺ، وقد ثبت من تحرير شعرهم أنهم كانوا على صلة بالمسيحية: كأعشى قيس شاعر

الغساسنة، وكأمية بن أبى الصلت الذى بات آسفا على نفسه وخيبة رجائه فى فشل قيادته الدينية، وهم على ذلك الحال لم يتقولوا على محمد ﷺ بأنه أفاك.

– الحاجز اللغوى: الذى أشار إليه القرآن – بين الرهبان ومحمد يمنع ما ينتج من هذه الروايات.

– يقرر هوارت: Huart

أنه مهما كان إغراء الفكرة التى تقول بأن تفكير المصلح الشاب (محمد) ﷺ قد تأثر بقوة عندما شاهد الديانة المسيحية بسورية، فإنه يجب استبعادها، نظرا لضعف الأسس التاريخية للوثائق التى كانت أمامنا، وعدم وجود روايات صحيحة غيرها.

وسوف نرى رأيا لمستشرق قدم بحثا مفصلا ودقيقا فى هذه الموضوعات[١] قال ذا٤ المستشرق: ومن البهتان ما شاع من القول أن النبى ﷺ تعلم من هؤلاء قصص التى التى تحتل مكانا بارزا فى القرآن.

وقد قال أعداؤه: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾[٢].

وفى القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[٣].

وفيه أيضا: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾[٤].

وهؤلاء المسيحيون المستضعفون فى مكة: لم يكونوا هيئة منظمة، ولم يكن لهم أسقف.

ويقول هذا المستشرق عن أصحاب الطبيعة الواحدة:

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب : د/ لاسى أو ليرى ترجمة دكتور / وهيب كامل مراجعة زكى على ص ٨٩، ٩٠ ، ١٢٤ .

Voir it Arapic a ccidutal avant l'Hegie La mance.

بلاد العرب قبل الهجرة .

(٢) الآية ١٤ من سورة الدخان .

(٣) الآية ١٠٣ من سورة النحل .

(٤) الآية ٤ من سورة الفرقان

وكانت مدينة نجران، فى بلاد العرب، غير بعيدة من مكة وهى الأخرى مسيحية تدين بمذهب الطبيعة الواحدة. ولا نستطيع أن نحدد مركزا لأصحاب الطبيعة الواحدة يدعى نقل الثقافة اليونانية إلى العرب بالثقة نفسها التى حددنا بها مركز النساطرة فى جنديسابور.

ومع ذلك لا يمكن إغفال هذه الصلة، لأن مراكز أصحاب الطبيعة الواحدة كانت فى الحق أديرة، ولم تكن جامعات، كما كان الأمر فى جنديسابور، ولذلك لم تكن مراكزهم وثيقة الصلة بالعرب، كما كانت مدرسة النساطرة.

ويقول عن مدرسة نصيبين:

وكانت مدرسة نصيبين مزدهرة إبان الفتح الإسلامى، ولكنها لم تكن فيما يبدو ذات أثر مباشر على العرب، ولعل السبب فى ذلك أنها كانت لاهوتية صرفة.

ثم يقول: لم تكن «فى المنطقة العربية» كتب بالعربية، ولم تكن فى العربية ترجمة للكتاب المقدس، ولم يكن هناك قداس باللغة العربية .

ثم قال: إن الثقافة اليونانية لم تنتقل إلى العرب عن طريق الاتصالات الأولى، ولقد تحقق انتقال العلوم اليونانية إلى العرب، عندما استقرت الخلافة العربية فى مدينة بغداد.

ثم يقول: «إن الفتح العربى فى سنة ٦٣٢ لم يوقف الحياة الدينية أو الفكرية لطائفة النساطرة أو أصحاب الطبيعة الواحدة» .

ويتكلم صاحب تاريخ سورية عن علاقة المسلمين بالمسيحيين فيقول:

«لقد فرض العرب الجزية وتركت الطوائف التى تدفع الجزية حرة تتبع قوانينها ودياناتها وتقاليدها وتحيا حياتها الفكرية الخاصة[1] .

ولقد كتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية يقول:

إن العرب الذين أولاهم الله السلطة على العالم فى هذا العهد هم كما تعلمون يقيمون بيننا ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء بل هم على عكس من

(١) تاريخ سورية ص ١٤٣ .

ذلك يمتدحون ديننا ويجلون الكهنة والقديسين ويجودون بالتقدمات للكنائس والمناسك[1]».

بعد ذلك نقول عن المسيحية فى المنطقة العربية:

عجزت المسيحية – قبيل الإسلام– على الرغم من تعدد مراكزها وانتشار رجالها فى المنطقة العربية عن أن تكون دينا للمنطقة العربية سوى بعض قبائل اعتنقوها تزلفا سياسيا، ولعل عدم انتشارها يرجع إلى عدة عوامل كامنة فى المسيحية ذاتها مثل:.

– التنافس بين مذاهبها.

– انشقاقاتها العقدية حول: طبيعة المسيح والموضوعات المتعلقة بها.

– الاضطهاد السياسى للمذاهب التى تسربت – من اضطهاد القيصر لها ثم اعتنقها الناس .

– عدم رضا بعض رجال الكنائس عن عملية التوفيق بين المسيحية والتراث الفلسفى اليونانى الذى أظهر المسيحية من حيث معارفها الفلسفية كأنها منظمة مزيجها يونانى وروماني، ومخلخلة البنيان من حيث بناؤها الدينى.

هذه الأمور وغيرها ساعدت الناس على أن يرغبوا عنها لأن الوجه الهلينى الذى ظهرت به طبع عليها أخص خصائصه: وهو الوثنية، إذ الفلسفة اليونانية لا تحب إلا أن تكون وثنية فى جوهرها.

وبات عجز المسيحية عن الانتشار واضحا فى المنطقة العربية، وبلغ من عجزها أن ظهرت عبادات قريبة الشبه بها كالزرادشتيه والبوذية بين الجماعات المسيحية نفسها.

وظهرت المانوية وهى من أخطر العبادات الجديدة، وقد أسسها مانى حوالى ٢٤٦م وقد مات مانى فى السجن بسبب معتقداته.

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم – عرض تاريخى وتحليل مقارن : الدكتورة عهد محمد عبد الله دراز ص ١٣٧ .

وهذا وغيره أدى إلى انصراف الناس عنها إلى اعتناق هذه المذاهب، فكانت هذه المذاهب على خطورتها – فى نظرهم– أقل تعقيدا فى قضاياها، وأجمع للقلوب لقلة اختلاف ذويها، ولا تناظر المسيحية من حيث جفاف روحها الدينى.

يقول تايلور فى كتابه «المسيحية القديمة» : أما ما قابله محمد ﷺ وأتباعه فى كل اتجاه: فلم يكن إلا خرافات منفرة، ووثنية منحطة، ومخجلة، ومذاهب كنيسة مغرورة، وطقوسا دينية منحلة، وصبيانية، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيِّرة: بأنهم رسل من قبل الله، ومكلفون بإصلاح ما ألم بالعالم من الفساد[1].

ويقول الدكتور شوقى ضيف: على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار.

ثم يقول: وأكثر من كان يتجر بها (أى الخمر) اليهود والنصارى وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق.

ويقول أنهم كانوا يضربون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى، ويضعون فوقها راية تعلن عنهم فيأتيهم الشباب ليشربوا، وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبنهم»[2].

ومن جانب المقابلة بين التراث الشرقى والتراث الغربى نقول:

استطاع الشرق بعد أن هُزم سياسيا: أن يرفض بعنف سيطرة التراث اليونانى الرومانى، وحاول حصره داخل مدرسة الإسكندرية وأن يصر بعنف بالغ – كما رأينا فى موقف اليهودية – على رفض الوثنية الدينية، وتعرض اليهود من أجل ذلك : إلى الشتات وذلك فى سبيل عقيدتهم. وهذا موقف يصم السياسة: بأنها لا تستطيع تغير من عقائد الناس. هذا من ناحية الموقف الرافض للتراث الهلينى من قبل اليهود.

(١) مدخل إلى القرآن – عرض تاريخى مقارن د/ محمد عبد الله دراز ص ١٣٧

(٢) العصر الجاهلى ص ٧٠ .

أما المسيحية بعد ما بينا موقفنا فإننا نلاحظ فى النهاية - وهى دين شرقى - أنها سيطرت من جانبها على الوثنية الرومانية وتشكلت الدولة الرومانية بالمسيحية وحملت - ضمن أعبائها - عبء مشاكلها وتبعة نشرها.

وليس فى الأمر - كما رأينا - عجز فى طبيعة العقل الشرقى أو انحطاط الشرق عن الغرب كما يزعمون. إنما كل ما فى الأمر أن الرومان تبنوا - والغرب بعدهم- الثقافة الهلينية وهى ما كانت تعنيهم.

أما حضارة الشرق فإن الإسكندر ما استطاع- ولا خلفاؤه من بعده- أن يقهرها وإن هزمه سياسيا وحربيا غير أنه لم يقهره ثقافيا، لأنه لا يحب أن يكون منتميا إلا إلى نفسه من خلال تراثه السماوى أو الوضعى، وليس لعلة مرضية كما يزعمون حين يعللون رفض الشرق التراث اليونانى ووثنيته، وإذا كان كذلك فكيف يكون مريضا وعنده من الوعى الحضارى الذى به فرض رسالته الدينية عليه، وهذا أعقد ما فى المسألة؟

وفى ذلك ما يفيد - من وجه آخر للمسألة: أن رسالة الشرق الدينية ضرورية للإنسانية، وذلك يفسر فيما بعد ظهور الإسلام: وإلا فلماذا أخذ الغرب بالدين الشرقى؟

ألسنا أمام مشكلة فيها تقابل الاستفهام وهو: لماذا رفض الشرق التراث الهلينى؟ ولماذا قبل الغرب الدين الشرقى؟

وفى النهاية نقول: وحقيقة دور المسيحية واليهودية من خلال مصادر تاريخية أنهم كانوا وفق نصوصهم يعتقدون فى «مسيا»[1] جديد- أى : الممسوح بالطيب أو الذى مسحه يهوه بالطيب- وكانوا يذهبون إلى تفسير اضطهادهم بأن التاريخ - وفق تصورهم- يدور ليحقق عودة مجتمعهم الذى تتحقق فيه الإرادة الإلهية واستفاضة نبوءتهم.

(١) تراث العالم القديم ص ٩٤ .

يقول ابن سعد: كان في بني تميم: محمد بن شعبان بن مجاشع وكان أسقفا يذكر سبب تسميته محمدا. قيل لأبيه: إنه يكون للعرب نبي اسمه محمد، فسماه محمدا(١).

يقول ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من فوقه قالوا:

إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه ما كنا نسمع من رجال يهود- كنا أهل شرك: أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالو لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم(٢).

كان اليهود دائما يبشرون بمسيا يخلصهم من وطأة ما وقع عليهم من شدائد حتى بعد مجيء المسيح(٣).

فهذه النصوص التاريخية تفيدنا أن المسيحية أو اليهودية على حد سواء قامتا بدور تبشيري بنبي قرب مبعثه فكيف بعد مجيء محمد رسولا ينكرون عليه رسالته؟ لا أرى باعثا على ذلك سوى أنهم كانوا يحاولون تزييف التاريخ الديني للرسالات الإلهية وتلك قضية أثبتها القرآن حين أثارها عليهم.

التنظيم الديني

من الألفاظ التي لها علاقة بالدرجات والرتب الدينية عند النصارى لفظة البطرك، والبطريق - وقد وردت لفظة - البطريق- في شعر ينسب إلى أمية بن أبي الصلت. وقد ذهب علماء اللغة إلى أن البطرك هو مقدم النصارى، وهو في معنى البطريق أيضا.

وبين البطريق والأسقف منزلة يقال لشاغلها - المطران

وقد عرف بأنه دون البطرك وفوق الأسقف.

(١) الطبقات الكبرى (١: ١٦٩)

(٢) المرجع نفسه (١ : ١٦٩)

(٣) تراث العالم القديم ص ٩٤ .

وقد ذكر القلقشندى بأنه القاضى الذى يفصل الخصومات بين النصارى. والأسقف من الألفاظ التى تدل على منزلة دينية عند النصارى، وقد وردت فى كتب الحديث. وقد ذكر بعض علماء اللغة أنه إنما سمى أسقف النصارى أسقفاً لأنه يتخاشع[1].

والقس من الألفاظ الشائعة بين النصارى، ولاتزال مستعملة حتى الآن. ويقال لها قسيس فى الوقت الحاضر أيضا، وهى من أصل آرامى هو Gachicho ومعناه كاهن وشيخ، وقد جمعها أمية بن أبى الصلت على قساقسة (*) وذكر بعض علماء اللغة أن القس والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى وقد وردت لفظة قسيسين فى القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة المائدة آية ٨٢﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ﴾.

– وترد لفظة شماس – فى جملة الألفاظ التى لها معان دينية عند النصارى الجاهلية، وهى من الألفاظ الحية التى لا تزال تستعمل فى هذا اليوم أيضا وتعد من الألفاظ المعربة عن السريانية، وتعنى خادم. ومنها البيعة، فهى إذن ليست من الوظائف الدينية الكبيرة، وإنما هى من المراتب الثانوية فى الكنيسة .

وورد فى كتاب رسول الله إلى سادة نجران: «لا يغير أسقف عن سقيفاه ولا راهب عن رهبانيته ولا واقف عن وقفانيته» ويظهر من هذا الكتاب أن الواقف منزلة من المنازل الدينية التى كانت فى مدينة نجران والظاهر أنها تعنى الواقف على أمور الكنيسة أى الأمور الإدارية والمالية والمشرف على أوقافها وأملاكها[2] .

الواهب

هو المتبتل المنقطع إلى العبادة وعمله هو الرهبانية. وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الرهبانية غلو فى تحمل التعبد من فرط الرهبة. وقد ذكرت الرهبانية فى القرآن الكريم، وذكرت فى الحديث. وقد نهى عنها الإسلام:لا رهبانية فى الإسلام. وقد

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٦٣٨، ص ٦٣٩، وانظر تاج العروس ٦/ ٢٩٦ النصرانية وآدابها ، صبح الأعشى ٥/ ٤٧٢، اللسان ١١/ ٥٦ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٦٤٠ ، ص ٦٤١ الطبقات لابن سعد ٣٥٨/١

(*) لو كان منفلت كانت قساقسة يحييهم الله فى أيديهم الزبر

ندد القرآن الكريم كثير من الأحبار والرهبان فورد ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[1] ومن عادات الرهبان وتقاليدهم التى وقف عليها أهل الجاهلية الامتناع عن أكل اللحوم والودك أبداً أو أمداً، وحبس النفس فى الأديرة والصوامع والكهوف، والاقتصار على أكل الصعب من الطعام والخشن من الملبس، ولبس السواد والمسوح. وهى عادة انتقلت إلى الأحناف أيضاً وإلى الزهاد من الجاهليين الذين نظروا نظرة زهد وتقشف إلى هذه الحياة. كما كانوا لا يهتمون بشعورهم فكانوا يطلقونها ولا يعتنون بها، ولذلك كانت شعورهم شعثا، وعبر عن الراهب بالأشعث: لأنه كان يطلق شعر رأسه ولا يحلقه ولا يعتنى به[2].

وقد نهى الرسول بعض الصحابة – مثل عثمان بن مظعون– وهو من النصارى فى الأصل من تقليد الرهبان فى الإخصاء وفى الامتناع عن الزواج ومن التشدد فى أمور أحلها الله للناس. ويظهر أن هذا التشدد إنما جاء إليه وإلى أمثاله من وقوفهم على حياة الرهبان وعلى رأيهم وفلسفتهم بالنسبة لهذه الحياة. وفى حق هؤلاء نزلت الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ المائدة آيـــة ٨٧.

وذكر أن الرسول لما سمع بابتعاد (عثمان) من أهله دعاه فنهاه عن ذلك ثم قال: ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم: ألا إنى أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى. فنزلت الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ إلخ .

يقول لعثمان لا تجب نفسك فإن هذا هو الاعتداء.

وورد فى الحديث: لا صرورة فى الإسلام – والصرورة التبتل وترك النكاح– أى ليس ينبغى لأحد أن يقول لا أتزوج لأن هذا ليس من أخلاق المسلمين بل هو من فعل الرهبان[3].

(١) المفصل جـ ٦ ص ٦٤٣، وراجع الآيات – التوبة آية ٣٤، المائدة اية ٨٢، الحديد آية ٥٧ .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٦٤٤ ، ص ٦٤٥ تفسير الطبرى ٨/٧، أبو السعود ١٤١/٤ .
(٣) المفصل جـ٦ ص ٦٤٥، ص ٦٤٦، الطبرى٦/٧ روح المعانى ٧/٧ .

الساعور

من أسماء المسيح وهو من أصل - سوعورو- Soouro - بمعنى زائر. وتطلق اللفظة على من يزور القرى ويطلع على أحوالها وذلك بأمر من الأسقف - والكنيس والكنيسة- موضع عبادة اليهود والنصارى فهما في مقابل المسجد الجامع عند المسلمين. والكلمة من الألفاظ المعربة عن الآرامية وتعني لفظة Knovchto - كنشتو- كنشت- في السريانية اجتماع ومجمع وأطلقت بصورة خاصة على كنيس اليهود.

ولهذا نجد العرب يطلقونها على معبد اليهود كذلك. ويقال في العبرانية للكنيس - كنيستا- بمعنى محل الصلاة. ونجد الكتب العربية تفرق بين موضع عبادة اليهود وموضع عبادة النصارى فتطلق- الكنيس على موضع عبادة اليهود، والكنيسة على موضع عبادة النصارى[١].

ومن الكنائس التي اكتسبت حرمة كبيرة عند النصارى العرب: كنيسة القيامة، وكنيسة نجران، وكنيسة الرصافة، وقد أشير في شعر للنابغة إلى صليب على الزوراء منصوب - أي على كنيسة، والصوامع والبيع هما من الألفاظ التي استعملها الجاهليون للدلالة على مواضع العبادة عند النصارى. وقد ذهب العلماء إلى أن البيعة من الألفاظ المعربة أخذت من السريانية.

وقال علماء اللغة العرب: الصومعة كل بناء متصمع الرأس أي متلاصقه، والأصمع اللاصقة أذنه برأسه. وقد أشير إلى البيع في القرآن: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾[٢] الحج آية ٤٠ .

الدير

لفظة الدير هي من الألفاظ النصرانية الشهيرة المعروفة بين العرب وهي أكثر اشتهارا من الألفاظ الأخرى التي لها علاقة بمواضع العبادة أو السكن عند النصارى.

---

(١) المفصل جـ ٦ ص ٦٤٩ غرائب اللغة ص ١٨٧ ، ص ٢٠٤ النصرانية وآدابها .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٦٥٠، ص ٦٥١ أيضا المعرب ص ٨١، المفردات ص ٢٨٨، اللسان ٢٠٨/٨.

كما كانت محلاممتازا للشعراء ولأصحاب الذوق والكيف حيث كانوا يجدون فيها لذة ومتعة تسر العين والقلب من خضرة ومن ماء بارد عذب ومن خمر يبعث فيهم الطرب والخيال، ولذلك أكثر الشعراء فى الجاهلية والإسلام من ذكر الأديرة في شعرهم. حتى الشعراء النصارى مثل - عدى بن زيد العبادى- يترنم فى شعره بذكر الدير لأنه نادم فيه- بنى علقما- وعاطاهم الخمر ممزوجة بماء السماء. ولفظة - الدير- هى مثل أكثر الألفاظ النصرانية من الألفاظ المعربة - عربت من أصل سريانى هو دير Dayr بمعنى دار - أى بيت الراهب[1].

المحراب:

من الألفاظ التى استعملها النصارى فى أمور دينهم- إذ أطلقوها: على صدر كنائسهم.وقد استعملت فى الإسلام أيضاً. حيث يشير إلى القبلة، ويؤم الإمام فيه المصلين.

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن محاريب بنى اسرائيل مساجدهم التى كانوا يصلون فيها. وقد وردت لفظة المحراب فى أشعار بعض الجاهليين كما وردت بالقرآن الكريم[2] وفى الشعر الجاهلى[3].

الهيكل

ويذكر علماء اللغة أن الهيكل بيت النصارى فيه صورة مريم وعيسى، وربما سُمى به ديرهم. وأن الهيكل العظيم واستعمل للبناء العظيم، ولكل كبير،ومنه سمى بيت النصارى الهيكل.

قنديل

لفظة قنديل من الألفاظ المعربة، أصلها يونانى هو Candela أى شمعة، وقد دخلت إلى العربية قبل الإسلام عن طريق الاتصال التجارى بين جزيرة العرب وبلاد الشام[4].

(١) المفصل جـ٦ ص ٦٥٣، ص ٦٥٤ ، وأيضا غرائب اللغة ص ١٨٢ .

(٢) آل عمران آية ٣٧ ، ٣٩ ، مريم آية ١١ ، ص آية ٢١ .

(٣)المفصل جـ٦ ص ٦٥٥ ، ص ٦٥٦ .

(٤) المفصل جـ٦ ص ٦٥٧ .

ومن أهم العلامات الفارقة التى ميزت معابد النصارى عن معابد اليهود والوثنيين الناقوس الذى ينصب فوق سطوح الكنائس وفى منائرها للإعلان عن أوقات العبادات ولأداء الفروض الدينية، وهوعند الجاهليين خشبة طويلة يقرع عليها بخشبة أخرى قصيرة يطلقون عليها – الوبيلة– وهو فى مقابل البوق عند يهود يثرب إذا أرادوا الإعلان عن مواعيد العبادة، وقد عرف هذا البوق بين عرب يثرب بـ القنع، وبـ الشبور، وقد ذكر علماء اللغة أن الشبور شئ يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقربون به[1].

اثر النصرانية فى الجاهليين:

وأهل نجران هم الذين كانوا يجادلون الرسول فى طبيعة «المسيح» فلم يكن بمكة أو يثرب قوم منهم يستطيعون مجادلته فى أمور الدين.

وقد ذكر بعض المفسرين أن أهل نجران كانوا أعظم قوم من النصارى جادلوا الرسول فى «عيسى» جاءوا إلى الرسول فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا : عيسى. تزعم أنه عبد الله. فقال: أجل إنه عبد الله. قالوا: فهل رأيت مثل عيسى، أو أنبئت به. ثم خرجوا من عنده غاضبين.

وقالوا: إن كنت صادقاً؟ فأرنا عبدا يحيى الموتى، ويبرئ الأكمه ويخلق من الطين كهئية الطير فينفخ فيه.

فلما عادوا قال رسول الله: مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

لقد كانت النصرانية عاملاً مهماً بالطبع فى إدخال الآراء الإغريقية، والسريانية إلى نصارى العرب. فقد كانت الكنيسة مضطرة إلى دراسة الإغريقية، ولغة بنى «إرم» لما للغتين من قدسية خاصة نشأت من صلتهما بالأناجيل.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٦٥٨، وأيضاً عمدة القارئ ٥/ ١٠٢، اللسان ٨ / ١٢٦، ٦ / ٥٩ .

الباب الرابع

الصابئة والمجوسية

تاريخ الصابئة وجغرافيتها الفكرية

من الملل والنحل التى تحدث عنها القرآن - وهو يذكر الأديان والملل: الصابئة، والصابئة من الملل التى أثار القرآن بعض قضاياها، وعرض لها بالنقاش والجدل فى أكثر من موضع، وكان من أهمها: «بشرية الرسول».

كذلك عرض لها حين عرض لمقابلها وهو الحنيفية ملة إبراهيم الكبرى كما وصفها القرآن، فالصبوة - كما يذكرها المؤرخون للأديان- فى مقابلة الحنيفية[(١)].

فمن الناحية التاريخية: نجد أن الصابئة سابقة على الحنيفية التى جاءت مجادلة ومناقضة لها.

يقول الشهرستانى :

وكانت الفرق فى زمان إبراهيم راجعة إلى صنفين اثنين:

- الصابئة .

- الحنفاء .

فإن كان هذا النص يفيد: أن الفرقتين متساويتان فى النشأة التاريخية فنرى أن هناك من النصوص التى ذكرها الشهرستانى: ما تصرح بأسبقية الفكر الصابئى على الدين الحنفى، وذلك حينما رد فكرهم - بتصريحهم- إلى «عاذيمون» و«هرمس» ورد الحنيفية إلى رأس الحنفاء «إبراهيم»[(٢)].

والصابئة كذلك أقدم من المجوسية، التى ترتد فى نشاطها إلى «زرادشت»[(٣)] الذى ظهر فى ملك «بختنصر» الذى جاء بعد «النيروز» بكثير وهو الذى أرسل إليه نبى الله إبراهيم على بعض الروايات التاريخية.

ومن هنا كانت الصابئة من أقدم المذاهب فكرا.

---

(١) الملل والنحل (١ :٦) للشهرستانى المتوفى ٥٤٨ هـ تخريج د/ محمد بن فتح الله بدران ، الأنجلو جـ١ ، ٢ وفتح البارى لابن حجر المتوفى سنة ١٨١ جـ ١٠ عن أبى بكر الرازى قال: وهم الذين بعث إليهم إبراهيم . والنيسابورى فى تفسيره على هامش الطبرى المسمى غرائب القرآن ورغائب الفرقان ص ٣٠١ قال: الذين جاءهم إبراهيم .

(٢) الشهرستانى ص (١ :١٠)

(٣) مروج الذهب للمسعودى (١ :١٧١) المتوفى سنة ٣٤٦ دار الشعب .

يروى الطبرى : أنهم كانوا بجزيرة «الموصل»[١] ويؤكد هذا النقل المسعودى فيقول : وديارهم بين بلاد واسط، والبصرة من أرض العراق[٢].

ويقرر ابن حجر : أن أهل بابل كانوا قوما صابئين[٣].

ويقول النيسابورى: وينسب هذا المذهب إلى الكلدانيين[٤]. ويتوسع الشهرستانى فيجعلهم يشملون النبط - والفرس- والروم- والهند[٥].

فهذا المذهب كان واسع الانتشار الجغرافى، وأمته من الأمم الكبار. وقد اختلف فيه اختلافا كثيرا بحسب ما وصل إليهم من معرفة عن هذا المذهب. ويفيد نقل الشهرستانى: أنه شمل دولا من الشرق، ودولا من الغرب.

والنقول السابقة - عدا توسع الشهرستانى- تفيد: أن هذا المذهب نشأ فى بلاد شرقية، وكانت الدول التى تميزت وتفردت بالسيادة فى الشرق هى دولة الفرس.

ودولة الفرس: هى التى حكمت تلك المناطق الجغرافية التى ذكرها الرواة تارة، وحكمتها الدولة الرومانية تارة أخرى.

فالفرس أخذوا الملك من البابليين، كذلك والعراق كانت تحكم تحت حكم ملوك دولتى الفرس الأولى والثانية.

ويقول المسعودى: إن أنهار العراق احتفرت فى عهدهم آخذة من الفرات[٦] فيكون أول الصابئة ظهر فى إحدى ولايات دولة الفرس.

ثم يتابع ويقول: ظهر فى ملك «طهمورث» - من ملوك دولة الفرس الأولى- رجل وفد من الهند ، يقال له: «بوداسف» وأحدث مذاهب الصابئة[٧].

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى (١٠:٣٥٢/٣١٠/١) الأميرية .

(٢) مروج الذهب الصفحة نفسها.

(٣) فتح البارى (١٠:١٨١)

(٤) فى تفسيره السابق (١:٤٠٣)

(٥) الملل والنحل (١:٢١٠)

(٦) مروج الذهب (١:١٦٥)

(٧) نفس المرجع (١:١٨٨).

ويقال إن هذا الرجل كان أول من أظهر آراء الصابئة من الحرنانيين والكيماريين.

وهذا النوع من الصابئة مباين للحرنانيين فى نحلتهم القديمة.

وكلام المسعودى يفيد، أن نشأتها الأولى كانت فى حران، وما ينسب لبوداسف هو أنه أظهر آراءهم القديمة، ويرجع ظهور نشاطها بين ملوك فارس الأولى لميولهم الدينية وقد ورد فى وصايا أردشير لابنه سابور:

يا بنى: إن الدين والملك أخوان، ولا غنى لواحد منهما عن صاحبه، فالدين أس الملك، والملك حارسه، وما لم يكن له أس: فمهدوم، وما لم يكن له حارس: فضائع.

كذلك من ينظر فى موضوعات عبادتها: يجد بينها وبين اهتمامات الدولة الفارسية شبها كبيرا، فالمسعودى تحدث عن أعمال ملوك فارس الأولى قائلا:

وتكلم هؤلاء القوم فى مراتب الألوان: من الحمرة، والسواد، ومراتب الأنوار: وما وراء ذلك من أسرار الطبيعة.

ثم قال: وتغلغل القوم فى هذه المعانى: إلى ما علا من الأجسام السماوية من النيرين والأفلاك واختلافها فى ألوانها وإلى غير ذلك من الأشخاص العلوية.

وهذا التسطيح الفكرى قابل لأن يجعل منه «بوداسف» مظاهر العبادة فيقول: إن معالى الشرف الكامل، والصلاح الشامل، ومعدن الحياة فى هذا السقف المرفوع، وفى النجوم السيارة، وفى أفلاكها: التدبير الأكبر[1].

وفى المناظرة التى أوردها الشهرستانى فى كتاب «الملل والنحل»: ما يفيد أن صاحبها الأول «هرمس»، «وعاذيمون» لكن بعد انتهاء المناظرة استبعد[2] الشهرستانى: أن يكون «هرمس من الصابئة».

---

(١) المرجع نفسه (١: ٦٩).

(٢) يقول: وكان فى الخاطر بعد: زوايا، نريد نمليها، وفى القلم خفايا أكاد أخفيها، فعدلت عنها إلى ذكر «حكم هرمس العظيم، لا على أنه من جملة فرق الصابئة، حاشاه، على أن حكمته تدل على تقرير مذهب الحنفاء» (٢: ٤٦).

وربما يقصد الشهرستانى - من نفيه عن «هرمس» : أن يكون من الصابئة ذلك النوع الذى نص عليه المسعودى- وهو متقدم على الشهرستانى- : الذى ينسبه إلى «بوداسف» الهندى الذى أظهر نوعا معينا من «الصابئة» هذا النوع من الكيماريين.

ويبدو أن «بوداسف» الهندى أظهر نوعا معينا من الصابئة «هذا النوع من الصابئة مباين للحرنانيين فى نحلتهم» كما يروى المسعودى.

وفى نظرنا: يمكن أن ينصرف استبعاد الشهرستانى لـ «هرمس» أن يكون من الصابئة إلى هذا النوع الذى أظهره «بوداسف» وهذا النوع الذى أظهره هو الخاص بعبادةالكواكب.

ويؤكد احتمالنا ما رواه ابن النديم عن الكندى من أنه قال: إنه نظر فى كتاب يقربه هؤلاء القوم: وهو مقالات لـ «هرمس» فى التوحيد كتبها لابنه على غاية من التقانة فى التوحيد - لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها وعن القول بها[1].

فهرمس يعتبر مؤسس مذهب التوحيد: فى الصابئة و«بوداسف» أحدث الوثنية : فى التوحيد.

وعلى ذلك يكون «هرمس» و «عاذيمون» أوجدا الصابئة الأولى: التى تدعو إلى الروحانية، و«بوداسف» أحدث مذهب عبادة الكواكب، وذلك ما تقرره مصادر الإسلاميين[2].

وسواء أكان المراد هو الصابئة الأولى- تعبير الشهرستانى- أم صابئة بوداسف تعبير المسعودى: فإنهما معا نبت فكرهما فى الشرق فى بعض المناطق العربية من بلاد الرافدين.

يقول صاحب «بلوغ الأرب»[3]: والصابئة قوم إبراهيم: كانوا بحران فهى دار الصابئة الأولى وكانوا قسمين هما:

---

(١) الفهرست لابن النديم المتوفى ٣٨٥ هـ ص ٤٤٥ المكتب التجارى.

(٢) يقول ابن حجر فى فتح البارى (١ :٣٧) رواية عن غيره: هم منسوبون إلى صابى بن متوشلخ عم نوح وهذا رأى ثالث يذهب بها بعيدا إلى نوح.

(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب (٢ :٢٤) السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى سنة ١٢٧ عنى بنشره محمد بهجة الأثرى سنة ١٩٤٢.

- صابئة حنفاء.

- صابئة مشركون[١].

قال ابن حزم: وكان الذى ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض والغالب على الدنيا ويقول: وهم المكذبون بنبوة إبراهيم[٢].

انتقالها إلى جزيرة العرب:

ولما كانت صلة جزيرة العرب بالفرس قديمة، من حيث متاخمة الحدود والعلاقات السياسية، فإنه لمن المنتظر أن نرى انتقالا فكريا، يتناسب مع طبيعة عقل البدوى، وهذه العلاقات قديمة، حتى قيل: إن من ملوك الفرس الأولى من عرب الضحاك (اسمه: بيوراسب)، وزعموا أنه من اليمن قال الشاعر العربى:

وكان منا الضحاك تعبده الـ   جامل والوحش فى مساربها[٣].

ويذكر المسعودى: أن الناس تنازعوا فى ملوك الطوائف أمن الفرس كانوا، أم من النبط؟ أم من العرب؟

وكانت ملوك العرب من مضر بن نزار بن معد من اليمن.

وقد قيل إن أول من نزل من الملوك ببلخ وانتقل من العراق «يكادوس» وقد كان سار نحو اليمن بعد أن كان له بالعراق - تمرد على الله- ببنيان بناه لحرب السماء.

وملك اليمن الذى سار إليه «كيكاووس» فى ذلك الوقت هو «شموين فريقس».

(١) يقول عمر بن الخطاب عندما سأله نعيم بن عبد الله: أين تريد ياعمر؟ فقال: أريد محمدا : هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش.
قال جميل: يا معشر قريش قد صبا عمر؟
ورد عليه عمر: كذبت ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. يراجع ابن هشام ص ٢١٩.

(٢) الفصل لا بن حزم (١:٢:١٠).

(٣) الجامل: جماعة الجمال.

قال المسعودى:

«وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيما له».

وكان آخر من حج منهم - الفرس الأول- «ساسان» و«ساسان بن بك» أهدى غزالتين من ذهب وجواهر قذفها فى زمزم.

قال المسعودى: وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة[1].

ثم قال معلقا: وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف لها.

فمتاخمة الجزيرة لتخوم الفرس، وعلاقتها بها من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ورحلات العرب التجارية: صيفا وشتاء، تحدث عنها القرآن فقال:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ...﴾ السورة.

وهذا يفيد أنه كما تبودلت السلع التجارية بين العرب وجيرانهم، تبادلوا معهم إفرازات العقول والآراء على قدر ما لهم من حظ فى العقل ونصيب من الفكر والرأى.

وهذا طريق طبعى لروافد انتقال الآراء الفكرية لأى أمة من الأمم، وأمة العرب ليست بدعا فى ذلك .

فاتصالات العرب التجارية بالعراق والشام زودت فى العرب خبرة النقل التجارى والفكرى. بيد أن الشهور الطوال التى كان العربى يضربها بإبله عبر الصحراء قللت من اهتماماته الفكرية فكان حظه من النقل الثقافى يبدو متواضعا بل وساذجا، لا يتكافأ مع نقله التجارى. كذلك كان ميلهم إلى الشعر يجعلهم ينأون عن استنباط الأمور. ومع ذلك يمكن أن نقول: من هذا الاهتمام الضئيل بالمعرفة انتقلت ألوان شاحبة من الصابئة إلى الجزيرة العربية.

---

(١) المسعودى: : مروج الذهب (١ :٢٦٦) عن كتاب «السكيكين» ترجمة: عبد الله بن المقفع عن الفارسية الأولى ذكره المسعودى وأخذ عنه النص السابق وقال عنه: الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمنه من خبر أسلافهم.

فلم يتفرغ دارس من العرب لدراستها إنما نقل منها شوائب ألم بها العربى : من تاجر عامله معاملة الصابئة، فإذا أعجبته نقلها، وإن عافها نبذها من غير سؤال عنها فى الحالين. ينقل الشهرستانى «أن لهم حدودا وأحكاما» أى أن للصابئة شريعة عملية ذات كيان فكرى، وإن صح ما قلناه تكون قد انتقلت إلى جزيرة العرب اسما من غير مضمون فكرى لأن استعمالها فى اللسان العربى جعلها بمعنى: مال أو خرج، أو طلع، وليست اسما لمذهب فهو لفظ أطلقه العرب على خوارج الجاهلية، أى : الذين خرجوا عن دين الجاهلية، وعلى كل من استحدث دينا غير دينه. وهم الذين أطلق عليهم صابئة الحنفاء. هذا الإطلاق فى حد ذاته يرشح رأينا فى أنها انتقلت إليهم من غير مضمون فكرى.

أو يكون المذهب الصابئى انتقل بمضمونه الفكرى منذ رحلة إبراهيم وإسماعيل . ونحن نعلم: أن إبراهيم وإسماعيل استوطنا الجزيرة العربية.

وهذا الفرض له من آيات القرآن ما يؤيده.

فمنها ما ورد فى سورة إبراهيم: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

ومنها ما ورد فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾...

كذلك ذكر القرآن الكثير من مجادلات إبراهيم للصابئة.

وهناك جانب آخر ذكره أنتونى نتنج[٢]، أنه خلال فترة قصيرة حكم الكلدانيون الشام وبلاد شبه جزيرة العرب وجنوب تركيا خلفا للأشوريين.

(١) سورة إبراهيم آية ٣٥، ٣٦، ٣٧ .

(٢) يراجع : العرب ص ٦ ترجمة : د. راشد البراوى، الناشر الأنجلو المصرية.

ومع هذا تكون الصابئة دخلت الجزيرة العربية منذ نبى الله إبراهيم وإسماعيل بمضمون فكرى غير أنها على هذا الفرض، دخلت مقابلة للحنيفية وبناء على هذا جعل القرآن - والعرب قبله- كل من لا يعتنق الحنيفية صابئا.

فمن يوم أن دخل مذهب الصابئة العقدى شبه الجزيرة العربية دخل مضطهدا تحدوه لعنات نبى الله إبراهيم أبى الأنبياء. وبهذا نستطيع أن نفسر عدم انتشاره فى الجزيزة العربية. كذلك نستطيع أن نفسر اضطهاد الذين اعتنقوه لأنهم فى عرف الجاهلية: خارجين عن دين الجماعة .

وعندما جاء الإسلام أكد نبذ هذا المذهب، ولما لم يكن له كتاب يحمل مكوناته الفكرية، ضاع صلبه ولم يبق منه سوى مسائل وقضايا عرض لها القرآن.

وبسبب كل ذلك تعرض المذهب الصابئى لوسائل الضياع المتعددة الكفيلة بمحوه، من عدم كتاب له ومن اضطهاد ومكافحة إلى نبذ معتنقيه، كل ذلك لازم المذهب الصابئى منذدعوة نبى الله إبراهيم. والإسلام عندما عرض لها مناقشا كان ذلك منه لخطورة قضاياها الدينية وأهمها:

منعهم أن يكون النبى وسيطا يبلغ عن الله لأنه بشر وأحلوا محله فى الوساطة «النيرات» ثم عبدوها.

والإسلام إذ يعرض لها بالنقد الجدلى، لا يستقى معلوماته من صحف إبراهيم، فإنها لم تكن موجودة لدى العرب، ولا يستقيها من مصادر أصحابها، لأنهم لم يكونوا على علم كامل بها، إنما ذكرها له الوحى من حيث قضاياها الفكرية التى قد يثيرها العقل الإنسانى، ويطيب له الجدل فيها. فما أثار القرآن من قضايا حولها كان يهم الصابئة الأولى والصابئة الأخرى، وذلك ما لم يتح للعربى الاضطلاع به والاطلاع عليه. ففكر القرآن عن الصابئة كان وحيا لكونه أوسع مما كان يعرفه العرب عنها بل وأوسع مما كان يعرفه الصابئ العربى وغيره عن مذهبهم، وفى هذا ما يؤكد أن فكر القرآن عن الأديان كان فكرا عالميا، أى يهم النوع الإنسانى المفكر، دون نظر منه إلى مكونات العرب الفكرية خاصة.

وفي القرآن آيات تدل على أن عبادة الكواكب دخلت اليمن كما قصتها علينا سورة النمل:

قال تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ
بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ
وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾. (آيات ٢٠-٢٥).

وفي هذا يقول البلخي في كتاب «البدء والتاريخ» : من قبائل الصابئة: سبأ الحميرية أول من دان بها من العرب: يعبدون الشمس.

وكنانة: تعبد القمر.

وجرهم: المشترى

وقريش: عبدوا الشعرى «الشعرى اليمانية».

فقد ساد في جنوب الجزيرة العربية ثالوث من الكواكب - وفي أرض الرافدين منشأ الصابئة:

- إله نجمة الصباح.

هو عشتر : لدى البابليين والأشوريين.

وعشترت: لدى الكنعانيين.

- إله القمر: هو ود : عند المعينيين.

والمقه : عند السبئيين.

وعم: في قتبان .

وسين : في حضرموت.

وإله الشمس: اسمه في قتبان، وحضرموت: شمس ، وشمش: في أرض الرافدين.

فهذه الصلات تؤيد أن كثيرا من العناصر الدينية في الشعوب السامية كان يتوقف بعضها على بعض[1].

ولعل في تسميتهم : بعبد شمس، وعبد اللات، وعبد الشعرى، ما يفيد عبادتهم للكواكب.

لقد انبثت مظاهر في الوثنية العربية فارتفعت من مظاهر مادية في الأرض إلى عبادة النيرات أو أفلاكها في السماء، فالمذهب الصابئي أثر كثيرا في الوثنية العربية؛ ورضى العربي أن يأخذ منه ما يعدل به وثنيته. ففي وثنيته الكثير من العناصر الصبئية مثل عبادة الأفلاك، والحنيفية مثل عبادة الكعبة، والوثنية اليونانية مثل عبادة التماثيل، فخلطوا بينها وبين وثنيتهم وبينها وبين الحنيفية، لذلك قلنا: وأن ما لديهم من مذاهب الصابئة يعتبر ألوانا شاحبة.

وينقل الرواة – كما نقلوا من قبل – أن عمرو بن لحى هو أول من نصب الأصنام– وينقلون أيضا: أن أبا كبشة هو أول من أتى هو بعبادة النجوم إليهم ،ويصبح مفاد الروايتين أن الوثنية العربية قد وفدت إلى العرب من بلاد خارج الجزيرة العربية، كذلك الصابئة أتى بها أبو كبشة.

العرب وعبادة الكواكب :

وقد رأى بعض العلماء أن عبادة أهل الجاهلية هي : عبادة الكواكب في الأصل، وأن أسماء الأصنام والآلهة – وإن تعددت وكثرت – إلا أنها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي هو: الشمس، والقمر، والزهرة، وهو رمز لعائلة صغيرة تتألف من أب هو: القمر، ومن أم هي الشمس، ومن ابن هو الزهرة. وذهبوا : إلى أن أكثر أسماء الآلهة هي في الواقع نعوت لها، وهي من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى في الإسلام[2].

(١) الحضارة السامية القديمة. تأليف سبتينو موسكاتي ترجمة . د السيد يعقوب بدر

(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٠.

ونجد فى حكاية كيفية اهتداء إبراهيم إلى عبادة إله واحد الواردة فى سورة الأنعام تفسيراً لسبب تعبد الإنسان للأجرام السماوية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ[1]﴾ إلخ آية ٧٥ وما بعدها من سورة الأنعام.فقد لفت ذلك الكوكب نظر إبراهيم، وبهره بحسن منظره وبلونه الزاهي الخالب فتعبد له، واتخذه رباً – فلما أفل، ورأى كوكباً آخر أكبر حجماً وأجمل منظراً منه تركه، وتعبد للكوكب الآخر وهو : القمر ، فلما أفل ورأى الشمس بازغة وهى أكبر حجماً وأظهر أثراً وأبين عملاً فى حياة الإنسان وفى حياة زرعه وحيوانه وجوه ومحيطه ترك القمر، وتعبد للشمس، فيكون قد تعبد لثلاثة كواكب قبل أن يهتدى إلى التوحيد هى : القمر، والشمس، والمشترى، أو الزهرة على ما جاء فى أقوال المفسرين.

ويشير القرآن: فى مواضع أخرى إلى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية، ولا سيما الشمس والقمر، ففيه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾[2] إلخ فصلّت آية ٣٧ . وهذه الأجرام السماوية الثلاثة هى الأجرام البارزة الظاهرة التى بهرت نظر الإنسان ، ولا سيما الشمس، والقمر، والزهرة.

واعتبر الجاهليون القمر أباً فى هذا الثالوث، وصارهو الإله المقدم فيه، وكبير الآلهة، وصارت له منزلة خاصة فى ديانة العرب الجنوبيين، وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل التغليب[3].

والإله – القمر– هو الإله «المقه» عند السبئيين، وهو إله سبأ الكبير، وهو : «عم» عند القتبانيين، وهو: «ود» عند المعنيين، وهو: «سين» عند الحضارمة. واتخذ «الثور» من الحيوانات رمزاً للقمر، ولذلك عد «الثور» من الحيوانات المقدسة، التى ترمز إلى الآلهة .

ونجد: هذه الصورة مرسومة فى النصوص اللحيانية، والثمودية، وعند غير العرب من الشعوب السامية؛ وقد نص على اسمه فى الكتابات إذ قيل: له «ثور» . وقد ذكر الألوسى: أن عبدة القمر اتخذوا له صنماً على شكل عجل وبيد الصنم جوهر

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٤.

(٢) سورة فصلت آية.

(٣) السابق ص ٥١، ص ٥٢

يعبدونه ويسجدون له، ويصومون له أياماً معلومة فى كل شهر؛ ثم يأتون إليه بالطعام والشراب، والفرح والسرور. فإذا فرغوا من الأكل أخذوا فى الرقص، والغناء وأصوات المعازف بين يديه؛ ولم يشر إلى اسم الجاهليين الذين فعلوا ذلك فلعله: قصد عبدة القمر بصورة عامة من العرب وغيرهم[1].

وقد تعبد العرب للشمس فى مواضع مختلفة فى جزيرة العرب، وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد، وفى زمن لا نستطيع تحديده لعدم وجود نصوص لدينا يمكن أن تكشف لنا عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب؛ وعبدها أقوام آخرون من غير العرب من الساميين، مثل البابليين، والكنعانيين والعبرانيين؛ وقد أشير فى مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس، ومع ذلك عبدت فى مدن يهوذا.

وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس، فيها عرفت بـ «بيت الشمس» والشمس أنثى فى العربية، فهى إلهة، أما فى كتابات «تدمر» فهى مذكر ولذلك فهى إله ذكر عند التدمريين.

ويرى «ولهوزن»: أن ذلك حدث بمؤثرات خارجية، وكانت عبادة الشمس شائعة بين التدمريين، وورد فى الكتابات التى عثر عليها فى «حوران» أسماء أشخاص مركبة من «شمس» وكلمة أخرى؛ ويدل على ذلك شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة[2].

وذكر «سترابو» أن : Helios أى الشمس هى: الإله الأكبر عند النبط، ولكن الكتابات النبطية، لا تؤيد هذا الرأى. والإله الأكبر فيها هى: «اللات» فلعل «سترابو» قصد: اللات؛ وإذا كان هذا صحيحاً فتكون «اللات هى الشمس» والشمس من الأصنام التى تسمى بها عدد من الأشخاص، فعرفوا بـ «عبد شمس».

وقد ذكر الإخباريون: أن أول من تسمى به «سبأ» الأكبر لأنه: أول من عبد الشمس، فدعى بـ «عبد شمس».

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٤ .

(٢) السابق ص ٥٥ .

وقد ذُكر أن بني تميم تعبدت له، وكان له بيت وكانت تعبده بنو «أد» كلها، وكانت سدنته من «بني أوس بن مخاش» بن معاوية، فكره هند ابن أبي أهالة، وصفوان بن أوس بن مخاش. وذكر أن عبد «شمس» اسم أضيف إلى «شمس المساء» لأنهم كانوا يعبدونها، والنسبة عبشمي[1] ويلي الشمس؛ والقمر الزهرة، وقد ذكرت في النصوص العربية الجنوبية، وتسمى «عشتر»وهو بمثابة الابن للشمس والقمر؛ وهذا الثالوث الكوكبي يدل في رأى الباحثين في أديان العرب الجنوبيين على أن عبادة العرب الجنوبية هي عبادة نجوم. وهو يمثل في نظرهم عائلة إلهية مكونة من ثلاثة أرباب هي : الأب: وهو القمر، والابن: وهو الزهرة، والأم: وهي الشمس[2].

وعبد بعض أهل الجاهلية أجراماً سماوية أخرى، وتقربوا إليها بالنذور والصلوات. ففي كتب الإخباريين: أن طائفة من تميم عبدت «الدبران» وفي كتبهم أيضاً: أن بعض قبائل لخم، وخزاعة، وحمير، وقريش عبدوا «الشعرى». وأن أول من سن ذلك لهم، وأدخل تلك العبادة إليهم: «أبوكبشة» وهو من خزاعة أحد أجداد النبي -ﷺ- من قبل أمهاته. خالف قريشاً في عبادة الأصنام، وعبد «الشعرى العبور» وكان يقول: إن الشعرى تقطع السماء عرضاً، فلا أرى في السماء شيئا شمساً ولا قمراً، ولا نجماً يقطع السماء عرضاً[3].

وذكر القرطبي: أن أول من عبد «الشعرى» : «أبو كبشة»؛ ولذلك كان : مشركو قريش يسمون النبي -ﷺ- ابن أبي كبشة، حين دعا إلى الله -تعالى- وخالف أديانهم، وقالوا : ما لقينا من ابن أبي كبشة، وكان الحارث – وهو غبشان ابن عمرو بن ملكان- ويكنى أبا كبشة ممن يعبد الشعرى.

والشعرى: هي المقصودة في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وإنه هو رب الشعرى﴾ النجم آية ٤٩ . وكان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له :

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٥ ، ص ٥٦ .

(٢) السابق ص ٥٧ .

(٣)السابق ص ص ٥٨، ٨٧ .

«الشعرى». وهو : النجم الوقاد الذى يتبع «الجوزاء» ويقال له: «المرزم» وقد كان من لا يعبد «الشعرى» من العرب: يعظمها، ويعتقد تأثيرها فى العالم[١].

ويذكرون أن بعض «طيئ» عبدوا «الثريا»؛ وبعض قبائل ربيعة عبدوا «المرزم» وأن كنانة: عبدت «القمر».

ويتبين من بعض الأعلام المركبة مثل: «عبد الثريا» و«عبد نجم» أن «الثريا» و«نجما» صنمان معبودان فى الجاهلية.

وقد ذهب بعض المفسرين : إلى أن النجم المذكور فى سورة النجم فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ آية[٢] «الثريا» والعرب تسمى «الثريا» نجما، وقال بعض آخر: إن النجم هنا: الزهرة، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها[٣].

وعبد بعض الجاهليين «المريخ» واتخذوه إلهاً، كما عبد غيرهم «سهيلا» وعطارد، والأسد، وزحل».

وقد ذكر أهل الأخبار: أن أهل الجاهلية يجعلون فعلاً للكواكب حادثاً عنه، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وكانوا يجعلون لها أثراً فى الزرع، وفى الإنسان. فأبطل ذلك الإسلام، وجعله من أمور الجاهلية جاء فى الحديث: ثلاث من أمور الجاهلية: الطعن فى الأنساب، والنياحة والاستسقاء بالأنواء»[٤].

معنى الصابئة وأقسامها:

رأينا فيما سبق من القول: أن الصابئة نشأت أول ما نشأت فى العراق. سواء أكانت الصابئة الأولى التى أنشأها «هرمس» أو الصابئة الأخرى التى نسبت إلى «بوداسف» فإن : النشأة كانت فى العراق وبعض من بلاد فارس.

فيا هل ترى: عندما نقلت الكلمة إلى الجزيرة العربية نُقلت من مصدرها إلى العربية كما هى؟ أم ترجمها العرب عن أصلها الفارسى أو الأرامى؟

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٨، تفسير القرطبى ١١٩/١٧.

(٢) سورة النجم. آية ١

(٣) السابق ص ٥٩، وبلوغ الأرب ٢ / ٢٤٠ .

(٤) المفصل جـ٦ ص ٦٠، ابن الأجرابى الأزمنة والأنواء ص ١٣٦ .

لا نجد لدينا ما يرجح الاحتمال الثاني. لأن الكلمة مجهول نسبها إلى لغة معينة فيبقى الاحتمال الأول: وهو أنها نقلت إلى الجزيرة العربية وأصبحت من الكلمات المشتركة بين اللغتين واللسانين العربى وغير العربى وذلك جائز.

وهناك احتمال ثالث وهو أن الكلمة وضع عربى، وأصبحت علما على مذهب غير عربى، وهذا مانراه قريبا إلى الصواب.

ومما وصل إليه بحثنا عن أصل الكلمة أننا لم نجد لها أو حولها بيتا من الشعر: تناول معتنق هذا المذهب، مدحا أو قدحا - قوى النسبة لشاعر أو منحول إليه - وهذا يجعلنا نميل إلى أن هذا اللفظ: أطلقه القرآن اصطلاحا على مقابل من خالف وثنية الجاهلية الأولى وليس من أهل الكتاب.

يقول الألوسى: اختلف فى اللفظ.

- فقيل: غير عربى.

- وقيل: عربى[1].

ثم يترك الألوسى نقله «غير عربى» على عمومه من غير تعقيب يبين فيه أصل هذه الكلمة: أفارسى أم هندى أم سريانى، أعرض، عن هذا ثم راح يبين اشتقاقها العربى[2] فقال:

- صبا معتلا بمعنى مال. قال الشاعر:

إلى هند صبا قلبى   وهند مثلها يصبى

- وصبأت النجوم : إذا طلعت.

يقول ابن منظور: عنوا: أنه خرج من دين إلى دين، ونقل عن ابن إسحاق الزجاج قوله فى الصابئين: معناه: الخارجون عن دين إلى دين.

---

(١) روح المعانى (١ :٢٣١)للألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ .

(٢) لسان العرب ابن منظور (١ ر١٠٨) يقول ابن منظور: يزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون .

وفي حديث بني جذيمة: كانوا يقولون لما أسلموا: صبانا صبانا. وكانت العرب تسمّى النبيَ الصابئ[١] *.

في اللسان العبرى:

نرى كذلك الكلمة في اللسان العبرى تفيد ما يفيده الوضع العربي:

ففي الأسفار:

-فصبأوا على مدين[٢].

- هصبئتم على أريئل[٣].

- أي الصابئون على بيت المقدس.

- وردت (أريـا)[٤] بمعنى:أسـد، وإل في العـبـرية بمعنى: الله، يعنى: أن الصابئين على بيت المقدس أسد الله[٥].

- وورد بمعنى: الحنق[٦].

- بمعنى:الجهاد أو القتال والحرب[٧].

(١) المرجع نفسه، كذلك يراجع كتاب تهذيب إصلاح المنطق شرح ابن الخيب التبريزى لمتن إصلاح المنطق لابن السكيت قال: صبا - صبا- خرج من دين إلى دين.

* لم نجد فيما رجعنا إليه من مصادر اللغة العربية المختلفة بيتا واحدا من الشعر الجاهلى يفيد مدح مذهب الصابئة، أو ذمه، وذلك - ربما- يرجع- فى نظرنا- : إلى أنه كان مضطهدا، ولا يستبعد هذا الاحتمال، لأن العربى وإن اشتهر بالصلابه والاحتمال، فإن التاريخ لا يروى فى عصره الجاهلى: موقفا يشهد لعرب الجاهلية بحبهم للاستشهاد فى سبيل عقيدتهم الدينية، وإنما تواتر إلينا التاريخ مأثورا عندما هبوا لمنازلة أبرهة، انصرفوا عنه عندما عرفوا وجهته: أنه يقصد البيت، قائلين له على لسان سفيرهم المفاوض: أما الإبل فهى لى، وأما البيت فله رب يحميه. .فالعربى لا يأبه لدينه، وآثر تاريخيا أنه استشهد فى سبيل الحب: مجانين الهوى، وبلغت شجاعتهم: أنهم كانوا لا يتهيبون من وعيد قومهم وإنذارهم بالبطش.

(٢) سفر العدد ٣١ - ٧ .

(٣) اشعيا ٢٩ - ٧ .

(٤) أيوب ١٨-١٠ .

(٥) ملتقى اللغتين العربية (١: ٦٢) مراد فرج سنة ١٩٣١ .

(٦) الرجس المخرب كما جاء فى دانيال (١١: ٣١) وتجعل الرجس المخرب.

(٧) سفر العدد ٣١ - ٣ .

- وأطلق على ما بالسموات من كواكب ونجوم[(١)].
فالفعل في اللسان العبرى يشمل: المعنى العربى وزيادة، فيفيد معنى: تقدموا، وتجمعوا، أعدوا أنفسهم للجهاد لله والعمل لما يقضى به أمر الله [(٢)].
«وصبأ» الأعداء زحفوا وهجموا، فيها ما يحتمل أنها أطلقت لغويا وليس فيها ما يحتمل أنها أطلقت على نحلة، أو دين، أو مذهب معين.
وتقول دائرة المعارف الإسلامية: أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبرى (ص. ب . ع) أى غطس. ثم أسقطت العين وهو يدل بلا ريب: على المنديا، أو الصبوء وهي فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد في العراق (نصارى يوحنا المعمدان)[(٣)].
ويبدو أن اصطلاح صابئة : أطلق على جماعتين من اليهود:
الجماعة الأولى: هم اليهود الذين خرجوا على المسيح: فهؤلاء صابئة مؤمنون.
الجماعة الثانية: هم اليهود الذين وافقوا.. أبوللونيوس «عندما فتح أورشليم ١٦٧، وهو أحد قواد أنطونيوس، هدم السور، وبنى فى مدينة داوود قلعة جديدة، وملأها بالجند، وجاء فى أعقابه مندوب يحمله أمرا بتحريم الديانة اليهودية ووضع هيكل إغريقى: هو الرجس المخرب[(٤)] فوق المذبح اليهودى بفناء المعبد. ليحل الوثنية محل اليهودية، أو كما يقول المؤرخون[(٥)] ليوحد الديانة بالبلاد، وافق كثير من اليهود على الدخول فى تلك العقيدة الوثنية - واليهودى لا يصنع تماثيل للأرباب - وانضموا للحزب المشايع للهلينستية، المناصر لأنطيوخوس، فهؤلاء صابئة وثنيون من اليهود*.

---

(١) سفر العدد (٤ - ١٩ - ٢٧)
(٢) تكوين ٢ - ١ تثنية ٤ - ١٩ وأشعيا (٣٤ - ٤)
(٣) دائرة المعارف الإسلامية (١٤ : ٨٩)
(٤) جاء فى سفر دانيال (١١ :٣١) ويجعل الرجس المخرب.
(٥) الحضارة الهلينستية : قارن ص ٢٢٩.
* يروى ابن حجر فى فتح البارى (١ :٣١٠) رواية عن أبى العالية تقول: الصابئون فرق من أهل الكتاب: يقرؤون الزبور، هذا يؤيد ما ذهبنا إليه أن فى اليهود صابئة.
* وتقول دائرة المعارف الإسلامية (٨٩:٨٩) ومن الواضح أن الصابئة الذين ذكرهم القرآن وجعلهم فى ثلاثة مواضع: هم من اليهود والنصارى: يعدون من المنديا، وتلاحظ أن النص يحتوى على خطأين.
الخطأ الأول: أن القرآن ذكر الصابئة والنصارى من أهل الكتاب في ثلاثة مواضع ومعهما اليهود والنصارى.
الخطأ الثاني: قوله أن اليهود والنصارى يعدون من المنديا. فإن القرآن لا يستنتج منه هذه النتيجة وأن ما فى القرآن يفيد: أنه مذهب يغاير ما عليه اليهود والنصارى لأن القرآن ذكر الصابئة معهما كما فى سورة البقرة أو بينهما فى كما سورتى الحج والمائدة

فالمعنى في الوضع اللغوى لكلمة صابئ لا ينبئ، من قريب أو من بعيد، عن معنى مقدس، أراده العربي منها:

والصابئ عند العربي- مع العبرى- كلمة وصفية تعطى معنى «زنديق» في العهد العباسى أو في عصرنا.

والعرف الجاهلى استعملها وأطلقها: على كل من خرج عن دين الجماعة أو القبيلة، وعبر بها عن سخطه عندما أراد أن يسخط على كل من جانب دينه الرسمى أو مألوف وثنيته.

وعلى ذلك يكون معناها عند العربي واسعا: يتسع لمن استحدث دينا غير دين قومه، ووسعت أيضاً كل من خرج من دينه إلى غير دين.

يقول الطبرى : والصابئون: جمع صابئ، وهو: المستحدث بسوى دينه دينا، كالمرتد في الإسلام عن دينه، وكل خارج من دين كان عليه إلى آخرغيره تسميه العرب: صابئا.

ثم قال: اختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل:

-فقال بعضهم: يلزم ذلك: كل من خرج من دين إلى دين .

- وقالوا : الذين عنى الله بهذا الاسم: قوم لا دين لهم[1].

وهذا يذهب إليه الشهرستانى: عندما عدها نحلة ولم يجعلها دينا[2]*

فعندما يستعملها العربي فإنه يستعملها بمعناها اللغوى: الخروج أو الميل. قال المشركون للرسول : قد صبأ .

لذلك لم يؤمن بعض العرب : برسول الله لأنهم وضعوا في اعتبارهم: أن الرسول وأصحابه من الصابئة، أى الخارجين على دين الجماعة.

---

(١) تفسيره ص ٢٥٢ (جامع البيان في تفسير القرآن)

(٢) روح المعانى للألوسى (١ :٢٣١).

* يذكر صاحب فتح البارى: رواية عن ابن مردويه بإسناد حسن عن ابن عباس قال: الصابئون ليس لهم كتاب .

فلم يستعمله العربى بمعنى: مذهب معين أو نحلة معينة، لجماعة معينة،أو يكون قد استعمله لكننا لم نر لذلك نصا لكن إطلاقه كان على الخارج مطلقا.

أما الإسلام: فأطلقها على صنف ذى عقيدة، أخطأت تنزيه الله، فوسطت الكواكب بينها وبينه، إذ الكواكب فى عرفهم: تحتوى على النور الإلهى.

وبعضهم عبد الملائكة لخاصتها الروحانية، وكان ذلك اجتهادا منهم أو توجيها من بعض حكمائهم.

يقول أبو حنيفة: أنهم ليسوا بعبدة أوثان، وإنما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة[1].

وقيل:هم قوم موحدون يعتقدون تأثيرهم النجوم ويقرون ببعض الأنبياء كيحيى[2].

ولعل هذا النص ظاهر الوضع والانتحال لأنهم يقولون بالوسائط الروحانية ولا يقولون بوسيط بشرى مثل وساطة الأنبياء وهذا من أهم عقائدهم التى صادمهم فيها القرآن، ويمكن حمله على صنف معين: صابئة المنديا أى: الذين اتبعوا يوحنا المعمدان وخرجوا على تعاليم اليهود،وهذا ما ذهبت إليه دوائر المعارف الأجنبية واختارته،لكن المصادر الإسلامية عدتهم فرقة من فرقهم.

أما نص أبى حنيفة فإن القرآن يؤيده لأنه عدهم وسطا بين اليهود والنصارى. ويورد الطبرى: نصا عن ابن وهب يؤكد ما ورد عن أبى حنيفة يقول:

الصابئون ليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى إلا قول: «لا إله إلا الله»[3].

فهم قوم يعظمون الكواكب بناء على تفسيرين:

- الأول: أن خالق العالم : الله إلا أنه أمر بتعظيم هذه الأجرام.

---

(١) المرجع نفسه

(٢) تفسيره (١ :٢٥٢)

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١ :٣٠١) للنيسابورى.

- الثاني: أنه خلق الأفلاك والكواكب وفوض التدبير إليها فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي المدبرة لهذا العالم.

يقول الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق[1]:

«ومذهب الصابئة- على ما يحيط بتاريخه من غموض- يكاد يتم الاتفاق على أنه يقر بالألوهية، ويرى أنها تحتاج في معرفة الله ومعرفة أوامره وأحكامه إلى متوسط يكون روحانيا لا جسمانيا؛ ففزعوا إلى هياكل الأرواح وهي الكواكب، فهم عبدة الكواكب».

بعد ما سبق نقول: إن الكلمة في الاستعمال العربي الجاهلي أطلقت على من خرج من دينه سواء إلى دين أو إلى غير دين. ويقول أبو حيان المفسر: الصابئون: قيل هم الخارجون من دين مشهور إلى غيره .

وفي الاستعمال الإسلامي تطلق على جماعة بعينها معتنقة مذهبا معينا غير الحنيفية. لأن القرآن عندما يذكر الصابئة يذكرها مقترنة بدعوة معتنقيها إلى الإسلام أما الحنيفية فإن الإسلام يصف بها نفسه.

وتبقى كلمة ذكرها المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن يقول فيها:

«وإذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل في زمرتهم هي تسميتهم بالصابئين فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك»[2].

يعلق الدكتور أبو ريده على هذا الهامش فيقول:

ربما يكون قصد المؤلف ما لوحظ من شبه بين بعض عبادات الصابئة وبعض العبادات الإسلامية[3].

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ص ١٠٢.

(٢) تاريخ الدولة العربية. نقله عن الألمانية وعلق عليه دكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ص ٣ راجعه د. حسين مؤنس - الألف كتاب ١٣٦.

(٣) سألت امرأة عربية: صحابيين من صحابة رسول الله: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله، قالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين. ثم لما رجعت إلى قومها قالت : العجب، لقيني رجلان: فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ: إلى آخر الحديث. يقول ابن حجر في فتح الباري (١ :٣١٠) هناك فرق بين الصابئ: المراد في هذا الحديث، والصابئ المنسوب للطائفة المذكورة.

نقول: ربما هذا ما قصده المؤلف، أى أن الشبه بين المسلمين والصابئين هو الذى سوغ للمشركين أن يطلقوا على المسلمين صابئة بينما لو لاحظ - المؤلف- الآيات الثلاث التى تناولت الصابئين لم تعفهم من الدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح وفى الأخرى تناولتهم بالإنذار الشديد من الله فلم يهادنهم الرسول، ولم يصطنع معهم دون غيرهم لينا فى القول، إنما كان موقفه يتسم بالوضوح والحسم مع سائر الأديان،ولم يؤثر أن ادعى عليه أنه افتراه من الصابئة أو ادعت عليه الصابئة هذه الفرية.

أما من جهة إطلاق المشركين على المسلمين: صابئة، فإن هذا كما بينا كان من باب وصفهم بأنهم خرجوا على دين الجماعة الرسمى ومألوف عقائدها.

يقول الألوسى: وأهل دين هؤلاء فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ومذاهبهم ويخرجون من قبيح ما هم عليه: قولا وعملا: فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله إلا ما رأوه فيه من الحق[1].

قال ابن كثير: وأظهر الأقوال: قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين إنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرراً لهم يتبعونه ويتفهمونه.

ولهذا كان المشركون ينبذون من أسلم: بالصابيء، أى: أنه قد خرج من سائر الأديان ، وأديان أهل الأرض إذ ذاك[2].

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٥٢) الألوسى.

(٢) تفسير ابن كثير (١:١٠٣)

أقسام الصابئة(*)

أولاً الصابئة الأولى أو صابئة الحنفاء:

أصل فكر الصابئة الأولى من جهة نظرنا: القول باحتياجها في معرفة الله، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه: إلى متوسط. والتي يقال عنها: أنها تنسب إلى «هرمس» و«أنماثاذيمون» على ما تذهب إليه مصادر الإسلاميين.

(*) ولعل أحسن من توسع في هذا البحث وبين الفرق الصابئية مستندا إلى العقل والنقل هو ابن الإمام أبو الحسن على بن محمد المكنى بأبي على بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي الملقب سيف الدين الآمدي المتوفي عام ٦٣١ هـ . فقد ذكر في كتاب خطي له يدعى (كتاب أبكار الأفكار) حقق بعضه د. أحمد المهدى. أن أشهر فرق هذه الجماعة أربع وهي :

الفرقة الأولى

أصحاب الروحانيات: وقد يقال ذلك بالرفع أخذا من الروح وهو جوهر. وقد يقال بالنصب وهو حالة خاصة به. وقد زعم هؤلاء أن أصل وجود العالم يتقدس عن سمات الحدث وهو أجل وأعلى من أن يتوصل إلى جلاله بالعبودية له والخدمة من السفليات وذوات الأنفس المنغمسة في عالم الرذائل والشهوات وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات بينه وبين السفليات وهي أمور روحانية مقدسة عن المواد الجرمانية (نسبة إلى الجرم) والقوى الجسمانية والحركات المكانية والتغيرات الزمانية في جوار رب العالمين. وهم مجبولون على تقديسه وتمجيده وتعظيمه دائما وسرمدا. قالوا: وهم آلهتنا وأربابنا ووسائلنا إلى حاجاتنا وبهم يتقرب إلى الله تعالى. وهي المدبرة للكواكب الفلكية والمدبرة لها على التناسب المخصوص حيث يتبعها انفعالات في العناصر السفلية. وحركات بعضها إلى بعض وانفعال بعضها من بعض عند الاختلاط والامتزاج المفضي إلى التركيب الموجب لتنوع المركبات إلى أنواع المعادن والنباتات والحيوانات وتصريف موجودات الأعيان من حال إلى حال ومن شأن إلى شأن إلى غير ذلك من الآثار العلوية والسفلية.

وزعموا أن الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات وأن نسبة الروحانيات إليها في التقدير لها والتدوير، نسبة الأنفس الإنسانية إلى أبدانها وأن لكل روحاني هيكلا يخصه ولكل هيكل فكلا يكون فيه. وزعموا أن المعرف لهم (غاريمون وهرمس) اللذان هما أصل علم الهيئة وصناعة النجامة. وهرمس هو أول من قسم البروج ووضع أسماءها وأسماء الكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وبين الشرف والوبال والأوج والحضيض والمناظر والتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجوع والاستقامة والميل والتعديل. واستقل باستخراج أكثر الكواكب وأحوالها. وقيل إن غاريمون هو شيث وهرمس وهو إدريس (عليه السلام).

الفرقة الثانية

أصحاب الهياكل: أنهم قالوا إذا كان لا بد للإنسان من متوسط فلابد من أن يكون ذلك المتوسط كما نشاهده ونراه حتى نتقرب إليه. والروحانيات ليست كذلك فلا بد من متوسط بينها وبين الإنسان، وأقرب ما إليها هياكلها فهي الإله والأرباب المعبودة والله تعالى رب الأرباب وإليه التوسل والتقرب، فإن التقرب إليه،=

= تقرب إلى الروحانيات التى هى كالأرواح بالنسبة إليها. ولا جرم أنهم دعوا إلى عبادة الكواكب السبعة السيارة ثم أخذوا فى تعريفها وتعريف أحوالها بالنسبة إلى طبائعها وبيوتها ومنازلها ومطالعها ومغاربها واتصالاتها ونسبتها إلى الأماكن والأزمان والليالى والساعات وما دونها إلى غير ذلك. ثم تقربوا إلى كل هيكل وسألوه بما يناسبه من الدعوات فيما يناسبه من الأماكن والأزمان واللباس الخاص به وبالخاتم المطبوع على صورته. والهياكل عندهم أحياء ناطقة بحياة الروحانيات التى هى أرواحها ومتصرفة فيها. ومنهم من جعل هيكل الشمس رب الهياكل والأرباب. وهذه الهياكل هى المدبرة لكل ما فى عالم الكون والفساد على ما سلف فى تعريف مذهب الفريق الأول. وربما احتجوا على وجود هذه المدبرات وأنها أحياء ناطقة بأن حدوث العالم- إذ الكلام فيه - إما أن يكون مستندا إلى حادث أو قديم ولا جائز أن يكون مستندا إلى حادث إذ الكلام فيه كالكلام فى الأول والتسلسل والدور محالان فلم يبق إلا أن يكون مستندا إلى ما هو فى نفسه قديم وذلك القديم أما أن يكون موجبا بذاته أو بالاختيار. فإن كان الأول، فأما أن يكون كل ما لا بد منه فى إيجاد الحوادث متحققا معه، أو أنه متوقف على تجدد. فإن كان الأول فيلزم قدم المعلوم والقدم علته وشرطه . وإن كان الثانى، فالكلام فى تحديد ذلك الأمر. كالكلام فى الأول وهو تسلسل. فلم يبق إلا أن يكون فاعلا مختاراً وليس فى عالم الكون والفساد فاعل قديم مختار إلا الأفلاك والكواكب ولذلك حكموا بكونها أحياء ناطقة.

الفرقة الثالثة

أصحاب الأشخاص وهؤلاء زعموا أنه إذا كان لابد من متوسط مرئى فالكواكب وإن كانت مرئية، إلا أنها قد ترى فى وقت دون وقت لطلوعها وأفولها وظهورها وصفائها نهارا فدعت الحاجة إلى وجود أشخاص مشاهدة نصب أعيننا تكون لنا وسيلة إلى الهياكل التى هى وسيلة إلى الروحانيات التى هى وسيلة إلى الله تعالى فاتخذوا بذلك أصناما وصورا على صور الهياكل السبعة. كل صنم من جسم مشارك فى طبيعته لطبيعة ذلك الكوكب ودعوه وسألوه بما يناسب ذلك الكوكب فى الوقت والمكان واللبس والتختم بما يناسبه والتحيز المناسب له على حسب ما يفعله أرباب الهياكل إلا أنها هى المعبودة على الحقيقة. وهذا هو الأشبه بسبب اتخاذ الاصنام. ويحتمل أن يكون اتخاذ الأصنام بالنسبة إلى غير هذه الفرقة وتعظيمها لاتخاذها قبلة لعبادتها أو لأنها على صورة بعض من كان يعتقد فيه النبوة والولاية تعظيما له. أو لأن القدماء أرباب الهياكل والأصنام وعلماءهم، ركبوا فراغ طلاسم ووضعوها فيها وأمروهم بتعظيمها لتبقى محفوظة بها. وإلا فاعتقاد الألوهية فيما اتخذوه صورا من الأخشاب والأحجار وكونه خالقا لمن صوره مبدعا لما وجده قبل وجوده من العالم العلوى والسفلى، ومما لا يستجيزه عقل عاقل. بل البداهة برده وإبطاله وإن وقع ذلك معتقدا لبعض الرعاع ومن لا خلاق له من العوام منهم، فلا يلتفت إليه ولا معول عليه.

الفرقة الرابعة

الحلولية. (وقد سماها ابن بطوطةوغيره من ثقات المؤرخين بالحرنانية وهو الأصح عندنا) وهؤلاء زعموا أن الإله المعبود واحد فى ذاته أبدع أجرام الافلاك وما فيها من الكواكب وجعل الكواكب مدبرة لما فى العالم السفلى، فالكواكب آباء أحياء ناطقة والعناصر أمهات وما تؤديه الآباء إلى الأمهات، تقبلها بأرحامها فتحمل من ذلك المواليد وهى المركبات والإله تعالى يظهر فى الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها من غير تعدد فى ذاته وقد يظهر أيضافى الأشخاص الأرضية الخيِّرة الفاضلة وهى ما كان من المواليد وقد=

والحنفاء: هم الذين اتبعوا ملة إبراهيم. وعندما يرتبط الاصطلاحان بعضهما ببعض يصبح المعنى الاصطلاحى مغايرا لكل من الاصطلاحين على حدة وينفرد بمعنى جديد وسوف نتتبع معالمه: فالصابئة كانوا يرون في الوسيط: وجوب روحانيته، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها، من رب الأرباب. وروحانية الوسيط – يرون فيها– أنها تتنافى مع الجسماني، فجسمانية الوسيط تجعله بشرا مثلنا، يحتاج مثل ما نحتاج إليه: من أكل وشرب ويماثلنا، فى المادة، والصورة. عبر عن هذا المعنى الفكرى القرآن فقال عنهم حاكيا:

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾(١).

فهم يرون: أن بشرية الوسيط تتنافى مع وساطته وعدم الجمع بينها وبين النبوة، فبشريته تحجبه عن الاتصال بالله، يبنون ذلك على أصل فكرى لديهم يقول: إن أصل وجود العالم يتقدس أن يتوسط بينه وبين عالم الأرض بشر من الأرض أو النفس الإنسانية لتغلبها فى عالم الرذائل والشهوات وإنما يتقرب إليه وسيط من القوى الروحانية المفارقة للمادية قالوا عنها: هى آلهتنا وأربابنا ووسائلنا إلى حاجتنا وبهم يتقرب إلى الله وهى المدبرة للكواكب .

ثم قالوا – من وجهة نظرهم– : إن الكواكب الفلكية هى هياكل هذه الروحانيات وإن نسبة الروحانيات إليها فى التدبير لها نسبة الأنفس الإنسانية إلى أبدانها، وأن لكل روحانى هيكلا يخصه ولكل هيكل فلكا يكون فيه(٢):

= يتركب من صفوة العناصر دون كدرها واختص بالمزاج القابل لظهور الرب تعالى فيه، إما بذاته وإما بصفة من صفات ذاته على قدر استعداد مزاج ذلك الشخص. وزعموا أن الله يتعالى عن خلق الشرور والقبائح والأشياء الخسيسة الدنيئة كالحشرات الأرضية ونحوها بل هى واقعة ضرورة اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة واجتماعات العناصر صفوة وكدرة. وزعموا أيضا أنه على رأس ستة وثلاثين ألف وستة أربعمائة وخمس وعشرين سنة يحدث روحانى على رأس الدور الآخر وكذا إلى ما يتناهى، وأن الثواب والعقاب على أعمال الخير والشر كل دور واقع لكن فى الدور الذى بعده فى هذه الدار لا غيرها. من كتاب السيد عبد الرازق الحسينى: «الصابئة قديما وحديثا» أعطانا نسخه منه زميلنا الدكتور مصلح بيومى.

(١) الآية ٣٤ من سورة المؤمنون

(٢) يراجع الصابئة: قديما وحديثا ص ١٧ السيد عبد الرازق الحسينى تقديم أحمد زكى باشا ط ١ ١٩٢٥ المطبعة الرحمانية – مصر.

- فهم يؤمنون بالله.

- ويؤمنون بالوسيط من العالم العلوى مثل: النيرات لشفافية نورها وروحانيتها، فهم يقدسونها دون العبادة.

- ينكرون: أن النبوة تجامع البشرية.

وهؤلاء هم الذين قال فيهم أبو حنيفة: إنهم ليسوا بعبدة أوثان إنما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة. وقول أبى حنيفة: يلقى مزيدا من الفهم للوسيط حيث يجعل تعظيمهم للنجوم ليس تعظيم عبادة إنما تعظيم تقديس كما تعظم الكعبة.

لكن ابن كثير قال : اختار الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض لها تدبير أمر هذا العالم.

ثم قال: وهذا القول المنسوب إلى الحرنانيين الذين جاءهم إبراهيم رادا عليهم ومبطلا لقولهم.

قال ابن كثير: قال القرطبي والذى تحصل من مذهبهم فيما ذكر بعض العلماء: أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة. ويبدو أن ما اختاره الرازى وما حصله القرطبى متعلق بنوع معين هم الكلدانيون[١].

وما قاله أبو حنيفة يصدق على اتباع «هرمس».

ويرجع تقديسهم الكواكب لما يقررونه عن «روحانية الوسيط» فلما وجدوا فى النيرات ونورها شفافية الروحانيات قدسوها - كما نقدس الكعبة أو كما نقدس الرسل تقدساً دون العبادة[٢].

---

(١) يطلق على أنصار العبادات التنجيمية اسم عام وهو الكلدانيون ويشمل المذهب الكلدانى مجموعة من المعارف المختلطة نوعا ما .
وأولها وأهمها كشف الغيب بواسطة النجوم وخاصة التنبؤ على أساس تاريخ الميلاد فالكلدانيون مجرد قراء طوالع وأطلق عليهم هذا الاسم بحكم وظيفتهم لا بحكم أصلهم .

(٢) قال أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط (٥٣٩/١)
وقيل : قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان:
أحدهما: أن الله هو خالق العالم إلا أنه أمر بتعظيم الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والتعظيم والدعاء.
والثانى: أنه تعالى خالق الأفلاك والكواكب ثم إن الكواكب هى المدبرة لما فى هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض،: فيجب على البشر: تعظيمها لأنها هى الآلهة المدبرة لهذا العالم ثم أنها تعبد الله وهذا المذهب هو المنسوب للذين جاءهم إبراهيم عليه السلام رادا عليهم : البحر المحيط : «أثير الدين عبد الله محمد بن يوسف بن على بن حيان الأندلسى الغرناطى الجيانى الشهير بأبى حيان المولود فى ٦٥٤ والمتوفى بالقاهرة ٧٤٥ هـ.

يقول الألوسي: إنهم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم.

فهؤلاء هم الصابئة الأولى أو صابئة الحنفاء قال فيهم الألولسي: صابئة الحنفاء شاركوا أهل الإسلام في الحنيفية.

منهم هلال بن محسن الصابئ صاحب الديوان الإنشائي والرسائل .

وأبو إسحق الصابئ كان صابئا وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فامتنع وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل. والصابئون يحرمون الفول والحمام.

يقول الدكتور زكي مبارك: ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلي بأكرم الخصال في رعاية الإسلام. فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه.

حتى إنه لما مات بكاه الشريف الرضي في قصيدته واستكثر الناس عليه في دينه وجاهه، أن يبكي رجلا صابئا: بمثل هذا الشعر الحزين ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله[١] .

نأخذ على الدكتور زكي مبارك قوله: مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم. قد يكون هذا التعليل راجعا إلى حفظه للقرآن وقد يكون حفظ القرآن راجعا إلى حرصه على الأدب لا على الدين الإسلامي، أما صومه رمضان فهذا يرجع إلى شريعة الصابئة الحنيفية .

وأما تحليه بأكرم الخصال فهم قوم يخرجون على رذائل الخصال ودناءة الطبع إلى كريم السجايا وطهارة الطوايا: راجع قول الألوسي السابق في تسميتهم صابئين، فإسحاق الصابئ فاضلا فما ظنه الدكتور زكي مبارك فيه وحمله على محمل حسن عشرة منه للإسلام والمسلمين وهو في واقع الأمر شريعة صابئية كما قدمنا وأما بكاء الشريف عليه فإنما هو كما قال «بكاء لفضله».

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع الهجري (٢ :٢٩٠) دكتور زكي مبارك .

ونرجع فنقول: أما تسميتهم صابئة حنفاء فمرد ذلك فى نظرنا إلى أنهم وافقوا الحنيفية من حيث العقيدة: فى التوحيد ومن حيث الشريعة: فى بعض مبادئها، لذلك صح تسميتهم بحنفاء.

وفارقوا الحنيفية فى إنكارهم أن يكون الوسيط - النبى - بشريا.

وقولهم: بوسائط الكواكب لروحانيتها ونورانيتها.

فيقول الألوسي: ولهذا لم تكن الصابئة من الأمم المستقلة التى لها كتاب ونبى، وإن كانوا من أهل دعوة الرسل فما من أمة إلا ولها نبى قد أقام حججه وقطع عنها حجتها لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون حجته عليهم[1].

فلكونهم من قوم إبراهيم وأخذوا ببعض دينه وأعرضوا عن جانب منه أطلق عليهم «صابئة حنفاء» أى فيهم جانب من الفكر الصابئ، وجانب من الدين الحنفى

فالصابئة الأولى: كان منهم الصابئة الحنفاء، بيد أننا بعد التعرض لشرح تسميتهم نضيف بعض تمايز رأيناه تمايزاً مهما هو:

أن الصابئة الأولى : هى التى نشأت بعيدة عن الجزيرة العربية.

ويذكر عن بعض الباحثين:

«إن الصابئة الذين ورد ذكرهم فى القرآن سكنوا بلاد العرب ومصر قبل الإسلام، وقبل النصرانية، واليهودية، وقد انقرضوا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدهم بالتفصيل»[2].

وصابئة الحنفاء يكونون هم الذين خرجوا من الحنفية العربية إلى تعاليم الصابئة التى وفدت إلى الجزيرة العربية واعتنقتها «سبأ الحميرية» ومن هنا أصبحت صابئية

---

(١) بلوغ الأرب (٢:٢٢٥)

(٢) الصابئة : قديما وحديثا: السيد عبد الرازق الحسينى تقديم أحمد زكى باشا- ط ١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥ .

الحنفاء مذهبا عربيا له مكوناته الفكرية التى من أهمها إنكار بشرية الرسول مع بقائهم على روحانياتهم وبقايا من دين إبراهيم. كذلك يفيد واقع تسميتهم أنهم جوزوا بفكرهم العقلى: الجمع بين دينهم . ومذهبهم الصابئ. أى الأخذ ببعض مبادئ الوحى – مذهبهم الوحى– ومع بعض مبادئهم الوضعية– نحلتهم البشرية . ويذكر البيرونى أنه كانت لهم أصنام وهياكل كما يذكر حكاية أن الكعبة وأصنامها كانت لهم(١).

ثانيا - صابئة بوداسف: أو الصابئة المشركون:

التراث الهندى:

ظهر «بوداسف» بأرض الهند، وكان هنديا، وتنبأ وزعم أنه رسول الله وأنه واسطة بين الله وخلقه.

ويفيدنا التراث الهندى: أن دعوة «براهما» من الدعوات الدينية (الوضعية) التى ليس لله فيها وجود، والتى اعتبرها الباحثون الاجتماعيون نموذجا قويا على أن الأديان ليست جميعها تدعو إلى الله.

ومعتقد هذه الطائفة يصدر عن فكرة تقول: «إن أول من هبط من العالم العلوى إلى العالم السفلى (عقل سماوى) اكتسى بكسوة بشرية لكى يتناسل فى الأرض ويسعى فى عمارها واسمه «برهما»(٢).

فالهنود – حسب دينهم– يعتقدون أن الله جسم، وأن الملائكة أجسام، ويرون: أن عليهم تقديس علمائهم، وحكمائهم، ورفع صورهم فى معابدهم تقديسا لهم دون عبادتهم فهؤلاء – حسب دينهم – مجسمة ومشبهة.

قال المسعودى: وظلوا على هذا حتى نبههم بعض حكمائهم إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية له، وأنها حية ناطقة، وأن كل ما يجرى فى هذا

---

(١) الآثار الباقية ص ٢٠٤ للبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ.

(٢) مفتاح الأبواب ص ١٠/ د / ميرزا محمد مهدى خان رئيس الحكماء ط ١٢١ .

العالم : إنما هو على قدر ما تجرى به الكواكب من أمر الله. فعظموها وقربوا لها القرابين[١].

ومن هنا يظهر لنا أن دعوة «بوداسف» الهندى أخذت منابعها من التراث الهندى، الحافل بألوان من الوثنية والشرك والزندقة، واتخذ (بوداسف) روافد لدعوته عبر السند، وسجستان، إلى أن بلغ فارس وذلك فى أوائل ملك «طهمورث» .

ويقول المسعودى: وهو - أى بوداسف- أول من أظهر مذاهب الصابئة.

وجدد «بوداسف» عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها، بشُبَهِ ذكرها، وقرب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع.

فصابئة «بوداسف» : صابئة مشركون، جانبوا الصابئة الأولى: فى توحيدها، وإنزال الوسيط معبودا غاية، وليس وسيلة وزلفى، وفارقوا الحنيفية: فى وحيها السماوى، واتبعوا وثنية «بوداسف» الهندية، ويرى المؤرخون أنها أصناف :

صابئة النبط والفرس والروم: مفزعها السيارات.

صابئة الهند مفزعها الثوابت.

صابئة فزعت إلى الأشخاص التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم شيئا.

صابئة الحرنانية.

صابئة الفلاسفة.

صابئة البطائح .

هؤلاء الأصناف من الصابئة يمكن ردهم إلى مسمى واحد أطلقه القرآن ويدخلون تحته هو : «الذين أشركوا».

وذلك عندما صيروا مفهوم الوسيط فى الصابئة الأولى - وكان عندهم له صفة التقديس والوسيلة- إلى غاية ومعبود، كذلك حولوا مفهوم الوسيط الروحانى:

---

(١) مروج الذهب (١ :٤٦).

إلى أشكال مختلة من الصور المادية فأدى هذا التحول إلى دراسة الفلك وتكوين علم له، فالذين نزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات السبع درسوا بيوتها ومنازلها ومطالعها ومغاربها واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة، مترتبة على طبائعها، وتقسيم الأيام والليالى والساعات عليها ثم تقدير الصور والأشخاص والأقاليم، والأمصار عليها

واستطاعوا من خلال رصدهم لها: أن يعينوا اليوم فـ «زحل» أو غيره مثلا ليوم السبت، وراعوا فيه ساعته الأولى، وتختموا بخاتمه، والمعمول على صورته، وهيئته، وصفته، ولبسوا اللباس الخاص به. وتبخروا ببخوره الخاص، ودعوا بدعوته الخاصة به، سألوا حاجاتهم منه، وترتب على هذا الاتجاه الدينى نحو الكواكب: أن تسرب إلى الدين نوع من الوثنية وأخلاط من الشرك، هذا من جانب، ومن جانب آخر، نتجت دراسة طيبة تكون منها علم الفلك، ثم النهاية: خلطوا الطلسمات المذكورة فى كتب السحر، والكهانة، والتنجيم، والتعزيم، والخواتيم، وخلطوها كلها بعلم الفلك .

يقول ابن حجر معللا:

وكانت علومهم أحكام النجوم، مع ذلك كان السحرة منهم يستعملون سائر وجوه السحر، وينسبونها إلى فعل الكواكب، لئلا يبحث عنها وينكشف تمويههم[1].

وهؤلاء هم الصابئة الفرس، والنبط، والروم ، والهند.

ثالثا صابئة الأشخاص :

أما الصابئة الذين فزعوا إلى أشخاص، فقالوا: إذا كان لابد من متوسط يتوسل به إذا كان من الروحانيات، فإننا لا نستطيع رؤيته، ولا مخاطبته، وإذا أخذنا هياكلها وسائط، فإن الهياكل قد ترى فى وقت، ولا ترى فى آخر ، لأن لها أفولا وطلوعا.

لذلك كان لابد لنا من صور أشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا نعكف عليها، فاتخذوا: أصناما (أشخاصا) على مثال الهياكل السبعة وصورها

(١) فتح البارى (١٠ : ١٨١)

بصورتها وراعوا فى ذلك: الزمان ، والمكان والساعة والدرجة الدقيقة، فإن أرادوا حاجة: تبخروا بالبخور، وتحينوا الساعة وراحوا يسألونه حاجاتهم.

فأصحاب الهياكل: هم عبدة الكواكب إذ قالوا بآلهيتها.

وأصحاب الأشخاص، هم عبدة الأوثان وهذا النوع من الصابئة انتقل إلى الجزيرة العربية على يد عمرو بن لحى، وسوف نعرض له.

وصابئة الحرانية[١] قالوا : «إن الصانع المعبود واحد وكثير» أما واحد: ففى الذات ، والأول ، والأصل ، والأزل.

وأما كثير فلأنه يتكثر بالأشخاص فى رأى العين وهى المدبرات السبعة.

والأشخاص الأرضية ونماذجها: الخير، والعلم، والفضيلة ، فإنه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته فى ذاته[٢].

وواضح أن صابئة الحرانية: أخلاط: من فلسفة اليونان، وفلسفة الهند، ففيها: مثل أفلاطون، وفيها:، تجسيد «برهما» الديانة الهندية.

وهؤلاء هم من قال فيهم ديبور:

وقد أخذوا عن حسن نية بحكم وآراء موضوعة ترجع للعصر الإغريقى المتأخر وربما يكون بعض هذه الحكم قد وضع بين ظهرانيهم[٣].

ويذهب ابن النديم إلى أن الصابئة ليست مذهبا للحرانيين إنما هى منحولة لهم، فيقول:

---

(١) مدينة حران ظلت مركزا دائما للثقافة اليونانية وكانت إلى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال وكان جيرانهم من النصارى ينظرون شزرا إلى الحرنانيين وكانوا يسمـون مدينتهم (هلينوليس) مدينة اليونانيين احتقارا لهم وتهكما عليها وكانت الدراسات رياضية سحرية فلسفية طبية وعند الصابئة كانت للفلك المكانة الأولى وكانت حران مشهورة بوثنيتها فى منطقة مسيحية، ووثنيتها : مزيج من الديانة البابلية والوثنية الإغريقية والأفلاطونية المحدثة.

(٢) الملل والنحل (٢ :٥٣) الشهرستانى تحقيق د/ محمد بن فتح الله بدران.

(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٥ نقله د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة .

قال أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرنانيين المعروفين في عصرنا بالصابئة: إن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مصر، يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاه الناس يدعون له،وفيهم جماعة من الحرنانيين، وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة بوفرات[1] كوفرة قرة جد سنان بن ثابت، فأنكر المأمون زيهم، وقال لهم: من أنتم من الذمة؟

فقالوا: نحن الحرنانيون.

فقال: أنصارى أنتم؟

قالوا: لا .

قال : أمجوس أنتم؟

قالوا : لا .

قال لهم: أفلكم كتاب أو نبى؟

فـجمجموا فى القول.

فقال لهم: فأنتم إذن الزنادقة، عبدة الأوثان، وأصحاب الرأس فى أيام الرشيد والدى؟ وأنتم حلال دماؤكم لا ذمة لكم؟

فقالوا: نحن نؤدى الجزية. فقال لهم: إنما تؤخذ الجزية لمن خالف الإسلام من أهل الأديان، الذين ذكرهم الله فى كتابه، ولهم كتاب، وصالحهم المسلمون عن ذلك .

فأنتم لستم هؤلاء ولا من هؤلاء فاختاروا الآن أحد أمرين:

إما أن تنتحلوا دين الإسلام، وإما دينا من الأديان التى ذكرها الله فى كتابه .

وإلا قتلناكم عن آخركم؟ فإنى قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتى هذه فإن أنتم دخلتم فى الإسلام، أو فى دين من هذه الأديان التى ذكرها الله فى كتابه،

(١) قال أبو حيان فى البحر المحيط (١ :٢٣٩) : قال قتادة والكلبى هم بين اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم ويجبون مذاكرهم ثم قال أنه رأى غريب قرأه وذكره ولم يتحقق لدى.

وإلا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم، ورحل المأمون يريد بلاد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية وقد قصر كثير منهم شعورهم ولبسوا زنانير، وأسلم منهم طائفة وبقي منهم شرذمة بحالهم، وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران فقيه، فقال لهم: قد وجدت لكم شيئا تنجون به وتسلمون من القتل فحملوا إليه مالا عظيما من بيت مالهم أحدثوه منذ أيام الرشيد إلى هذه الغاية وأعدوه للنوائب.

فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له : نحن الصابئون فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه فى القرآن فانتحلوه فأنتم تنجون به، واتفق أن المأمون توفى فى سفرته تلك عام ١٢٨ هـ.

انتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت، لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة، فلما اتصل بهم وفاة المأمون: ارتد كثير ممن كان تنصر منهم ورجع إلى الحرنانية، وطولوا شعورهم. حسب ما كانوا عليه قبل مرور المأمون بهم على أنهم صابئون، ومنعهم المسلمون من لبس الأقبية. ومن أسلم منهم لم يمكنه الارتداد خوفا من أن يقتل فأقاموا متسترين بالإسلام فكانوا يتزوجون بنساء حرنانيات ويجعلون الولد الذكر مسلما والأنثى حرانية وهذه كانت سبيل كل أهل «ترعوز» و«سلمسين» القريتين المشهورتين العظيمتين بالقرب من حران إلى نحو عشرين سنة هـ.

فإن الشيخين المعروفين: بأبى زرارة، وأبى عروبة علماء أهل حران بالفقه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر مشايخ أهل حران وفقهائهم: احتسبوا عليهم ومنعوهم من أن يتزوجوا بنساء حرنـيات أعنى صابئات وقالوا: لا يحل للمسلمين نكاحهم لانهن لسن من أهل الكتاب .

وبحران أيضا منازل كثيرة إلى هذه الغاية بعض أهلها حرانية ممن كان أقام على دينه فى أيام المأمون وبعضهم مسلمون وبعضهم نصارى ممن كان دخل فى الإسلام وتنصر فى ذلك الوقت مثل : قوم يقال لهم : بنو أيلوط، وبنو قبطران وغيرهم مشهورين بحران[1] .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

فما ذكره ابن النديم المتوفى ٣٧٨ هـ يفيد من ظاهر نصه أن نحلة الصابئة انتحلت لهم في عصر المأمون وهو قابل للطعن وغير قابل للرفض.

أما قابليته للطعن: فإن ما ذكره الشهرستاني عند الحرنانيين «بأنهم جماعة من الصابئة»[١] هذه العبارة: تتيح مجالا للطعن فيما قاله ابن النديم فضلا عن كتب التاريخ الفكرى التي تجعل حران مركزاً مهما للتبادل الثقافي في تلك المنطقة، وتجعل أهلها وثنيين يعبدون الكواكب مما دفعهم إلى ملاحظة السماء والتعمق في الدراسات الفلكية، وهذه الدراسات لها عند الصابئة مكانتها الأولى العلمية والتقديسية، ومما يضاف إلى الطعون السابقة قول الألوسي: وهؤلاء أي الصابئة كانوا قوم إبراهيم وهم أهل دعوته وكانوا بحران[٢].

ونرى أنفسنا أمام روايات متعددة تسند لحران مذهب الصابئة حينا وتجعلها مركزها القديم سوى نص ابن النديم الذي يقرر : أن الصابئة منحولة للحرنانيين .

لذلك قلنا إن النص قابل للطعن وتيار الطعن قوى .

فالشهرستاني: يجعل الحرنانيين جماعة من الصابئة .

والألوسي: يقول إن الحرنانيين أصل الصابئة .

والمسعودي: ينسب إلى بوداسف أول من أظهر آراء الصابئة من الحرنانيين والكيماريين وهذا النوع من الصابئة مباين للحرنانيين في نحلتهم .

هذه أقوال يمكن أن تتيح مجالا للطعن في رواية دون أخرى .

فإذا اعتبرنا قول ابن النديم منصرفا إلى هذه الجماعة بذاتها فإنا نصدم بتعقيب داخل النص نفسه يقول : «وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة» فنص ابن النديم هو رواية عن كتاب ذكره على أنه حكاية في أمرهم من غير استقصاء تاريخي وعلى ذلك قد نقبلها ونصرفها إلى هذه

---

(١) الملل والنحل (٢ :٥٨)

(٢) بلوغ الأرب (٢ :٢٢٤) ويذكر أحمد أمين رواية ابن النديم ويأخذ بها فيقول: وهم الذين تسموا بعد ذلك - في عصر المأمون وبعده بالصابئين وكان منهم كثيرون من المؤلفين ومن تولوا الترجمة: فجر الإسلام (١ :١٣٠)

الجماعة بذاتها وأنها غير صابئة ، ونرفض ما فيها من تعليقات، ولا سيما أن ابن النديم نقلها من غير تعليق وأسندها إلى غيره، وبذلك تتعاون النصوص على إثبات الصابئة للحرانيين.

وسواء قوى شيئا نص ابن النديم أو ضعف أمام نسبة الصابئة إلى حران فإن هناك شيئا جوهريا ينبغى التعقيب عليه وهو أن الصابئة المذكورة فى القرآن ليست هى صابئة حران(١) .

ثالثا : صابئة الهند :

صابئة الهند منزعها الثوابت من حيث أنهم ربطوا عبادتهم بزحل وزحل من شأنه البقاء والثبوت وهم الذين قالوا : بالتناسخ والحلول.

١ – التناسخ : يعنى لديهم أن تتكرر الأدوار والأطوار إلى ما لا نهاية ويحدث فى كل دور مثل ما حدث فى الأول .

وأن الثواب والعقاب سيحدث فى هذه الدار لا فى دار أخرى لا عمل فيها .

٢ – الحلول: يعنى لديهم أن الشخص ربما يحدث ذلك منه بحلول ذاته وربما يكون بحلول جزء من ذاته على قدر استعداد المزاج الشخصى .

والهياكل تحل فيه فينطق بلسانها ويبصر بعينها ويسمع بآذانها ويقبض بيدها ويبسط بها(٢). وفى هذا يقول مجاهد : هم قوم لا دين لهم ليسوا بيهود ولا نصارى.

---

(١) يقول السيد عبد الرازق الحسينى فى كتابه: الصابئة قديما وحديثا ص ٢١ . من المتعذر جدا أن يوفق الباحث إلى معرفة ما بين هذه الفرق من الرابطة. فقد ذكر القرآن قسما من الصابئة وفسرها المفسرون بعد أن نسبوا لها أصولا تختلف كثيرا عن الصابئة الحرانية، كما أن هذين القسمين من الصابئة يختلفان كثيرا عن صابئة البطائح المبثوثين الآن فى مدن العراق النهرية .

والحق أن كل فرقة من هذه الفرق تختلف فى أصول معتقداتها عن الأخرى اختلافا واسعا فقد سكن الصابئة الذين ورد ذكرهم فى القرآن بلاد العرب ومصر قبل الإسلام وقبل النصرانية واليهودية وقد انقرضوا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدهم بالتفصيل.

(٢) الملل والنحل (٢ :٥٠١) تحقيق د / محمد بن فتح الله بدران .

خامسا : صابئة الفلاسفة:

وهم الذين ابتدعوا عبادة الكواكب وأبراجها. وقدوصفهم المسعودى بقوله: «ألا إنهم من حشوية الفلاسفة» ويقول: إنما أضفناهم إلى الفلاسفة إضافة سبب لا إضافة حكمة .

ويقول الألوسى: والفلاسفة يأخذون بزعمهم بمحاسن ما دلت عليه العقول، وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم، وبعضهم لا يوجب ذلك ولا يحرمه، وسفهاؤهم وسفلتهم يمنعون ذلك[1] .

ويبدو أن فلاسفتهم اتصلوا باليونان وكان بينهم وبين اليونانيين محاورات مما يسوغ إطلاق كلمة فلاسفة» على حكمائهم، ومما ينسبه ابن النديم للكندى أن له «رسالة فيما جرى بين سقراط والحرنانيين» وبذا لا يجانبنا الصواب إن اعتبرنا أن لهم فلاسفة،فلاسفة بمعناها اليونانى على خلاف ما يرى المسعودى .

ويقول الألوسى:

فهؤلاء الصابئة كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم .

الأول: عبادة الله وحده لا شريك له، والكفر بما يعبد من دونه من إله.

والثانى: الإيمان برسله وما جاءوا به من عند الله تصديقا وإقرارا وانقيادا وامتثالا.

وليس هذا مختصا بمشركى الصابئة كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات، بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم، ولكن شرك الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات[2] .

---

(١) المرجع نفسه (٢ :٢٢٦) جـ ٢ .

* لابن تيمية بعض إطلاقات خاصة بالصابئة غير دقيقة مثل: قوله وهكذا تكون مناظرة الصابئة الفلاسفة والمشركين ونحوهم وقوله : الصابئ الفيلسوف، وقوله : وهو الغالب على الصابئة المبدلين مثل أرسطو وأتباعه.

ثم يقول: وعربت طائفة من كتب الأعاجم من المجوس والفرس والصابئين الروم، والمشركين الهند يراجع الفتاوى جـ ١ ، ص ٦٥ ، ٧٧ ، ١٢٠ ، ٢٩٧ و جـ ٤ ص ١١٣ ، و ١١٥ .

والمعتمد عند علماء الإسلام أنهم ليسوا أهل كتاب ولا نبى أى هؤلاء الفلاسفة الصابئة .

سادسا: صابئة أهل الكتاب:

(أ) صابئة اليهود:

وهم نوعان:

النوع الأول: هم الذين اتبعوا المسيح من اليهود فهم فى عرف اليهود صابئة.

النوع الثانى: وهم الذين وافقوا أبوللونيوس عندما أعلن الوثنية فى معبدهم ووضع تمثالا لهيكل إغريقى .

(ب) صابئة: مسيحيون:

وهم الذين اتبعوا القديس يوحنا المعمدان فى شعيرة التعميد (وهؤلاء هم المنديون) ولا يزال قوم منهم يسكنون إلى الآن الأغوار المحاذية لمصب الفرات[1].

لهذه الأصناف الكتابية يمكن أن تحمل عليها ما نذكره من آثار :

قال ابن أبى نجيح: قوم تركب دينهم من اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذبائحهم.

– قال ابن عباس هم قوم من اليهود والنصارى لا تحل مناكحتهم ولا تؤكل ذبائحهم .

– وقال أبو العالية: قوم من أهل الكتاب ذبائحهم كذبائح أهل الكتاب يقرءون الزبور ويخالفونهم فى بقية أفعالهم.

– وقال الخليع هم أشباه النصارى قبلتهم مهب الجنوب ويقرءون الزبور ويعبدون الملائكة[2].

سابعا: صابئة البطائح:

« يعيش بين ظهرانينا فى العراق قسم من الناس لهم تقاليدهم، وعاداتهم ولغتهم. ويكادون يكونون ممتازين فى كل مظاهر حياتهم حتى بأشكالهم وسحنة وجوههم، ويطلق عليهم اسم(الصابئة) وقد يكون هؤلاء هم الصابئة الأصليون وقد

---

(١) تاريخ سورية (٢ : ٩٨)

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان (١ :٢٣٩)

لا يكونون. إلا أن الشيء المحقق هو أن قسماً كبيراً من عبادة الصابئة من القدماء وطقوس دينهم، بارزة بين معتقدات هؤلاء القوم وطقوسهم، فعبادة النجوم واستقبال نجم القطب وتأليه الكواكب وغير ذلك من أصول الدين الصابئ مما يتدين به هذا المجموع المتميز.

وقد يتعرف الباحث من اللغةالتى يتكلم بها هؤلاء ومن إسبالهم شعور لحاهم ورؤوسهم، أنهم شعب غريب نزح إلى هذه البلاد واستوطنها واحتفظ بما له من تقاليد وعادات والتزم بالسكنى على ضفاف الأنهر وبقرب المياه الجارية نظراً لما يقيمه من الطقوس التى لا تتم إلا بالارتماء فى الماء الجارى لذا عرف هذا القسم من الناس بصابئة البطائح نسبة الى بطائح العراق المشهور.

فإما أن يكون هذا الشعب قد انحدر من الصابئة الحرنانية أو أنه من بقية الصابئة الأقدمين وهذا أمر مشكوك فيه وموكول إلى فحص التاريخ الدقيق.

ونظن أن أحسن رواية ـ وقد تكون أقربها إلى الحقيقة ـ هى التى أثبتها هنرى يونيون فى كتابه الفرنسى الموسوم بـ (الفرقة المندائية) المطبوع فى عام ١٨٩٨ فقد جاء فى ص ٢٢٤ منه تحت عنوان (الفرقة الدستائية) وهى المندائية التى اشتهر بها الصابئة الحاليون ما مضمونه: أن صاحبها (أى صاحب هذه الفرقة) كان متسولا وقد جاء من بلاد ما بين الزابين إلى ميسان (أى جنوب العراق) للتسول وكان مسيحياً اسمه (دبدا)واسم أمه (أم كشطا) ثم توطن ضفاف نهر قارون وأسس ديانة جديدة وعقائد مأخوذ معظمها من فرق المرقيونيين والمانويين والكنتيين وغيرها من الفرق الصابئة، ثم توسعت هذه الطائفة على مر السنين وسموا بالصابئة المغتسلة لأن جميع طقوسهم الدينية لا تتم إلا بالاغتسال فى الماء الجارى أ هـ. والذى يؤسفنا كثيراً ويجعل تاريخ الصابئة مفصولا وغير مرتبط الحلقات، خلو هذا التلخيص من الزمن الذى يعين قدوم(دبدا) إلى جنوبى العراق(ميسان) الأمر الذى يوقفنا على تاريخ منشأ صابئة البطائح والصلة بينهم وبين الصابئة الحرنانية. ومع ذلك لا يخلو من فائدة تاريخية تكشف لنا عن تاريخ غامض من تاريخ الصابئة[1].

(١) يراجع الصابئة قديما وحديثا ص ٢٥ ، ٢٦ .

حول نسبة مذاهب الصابئة

هرمس وعاذيمون:

نسب الشهرستانى مذهب الصابئة الأولى إلى هرمس قائلا:

قالت الحنفاء: بم عرفتم – معاشر الصابئة وجود هذه الروحانيات؟ والحس ما دلكم عليه، والدليل ما أرشدكم إليه؟

وقالوا: – أى الصابئة – عرفنا وجودها وتعرفنا أحوالها من: «عاذيمون» و«هرمس» و«شيث» و«إدريس» عليهما السلام.

هذا النص يعطى الباحث ارتياحا نفسيا لما يفيده ويكشفه عن واضع هذا المذهب، ولكن عندما يأتى الباحث على آخر المحاورة التى عقدها الشهرستانى بين الحنفاء والصابئة يرى نصا يقول فيه الشهرستانى: وكان فى الخاطر بعض زوايا: نريد نمليها، وفى القلم خفايا أكاد أخفيها فعدلت عنها إلى ذكر «حكم هرمس العظيم» لا على أنه من جملة فرق الصابئة حاشاه، بل على أن حكمه مما يدل على تقرير مذهب الحنفاء فى إثبات الكمال فى الأشخاص البشرية وإيجاد القول باتباع النواميس الإلهية على خلاف مذاهب الصابئة.

يفيد النص استبعاد «هرمس» أن يكون واضعا لمذهب الصابئة وحاشاه كما يقول: الشهرستانى، فوقع فى النفس سؤالان:

من هرمس العظيم؟

ومن يكون إذا واضع مذهب الصابئة إذا لم يكن هو واضعه؟

فانتقلنا معه فى كتابه لنعرف من هرمس العظيم ونتعرف على سر عظمته فألفيناه يقول: عندما أراد أن يحقق شخصية «هرمس» وشخصية «عاذيمون»: يقال: أن عاذيمون، وهرمس، هما: شيث، وإدريس عليهما السلام.

وأسند الشهرستانى لعاذيمون وضع المبادئ الأولى وهى خمسة[1].

(١) يقول ابن تيمية: مذهب اليونانيين يقول أن القدماء خمسة: الرب. النفس – المادة – الدهر – الفضاء. الفتاوى (١: ٦٥) فتفصيل الخمسة فيه خلاف بين ابن تيمية والشهرستانى.

الباري- والعقل- والنفس- والمكان- والخلاء. وبعدها وجود المركبات ولم ينقل هذا عن «هرمس».

ثم أسند أيضا لهرمس طائفة من الحكم وهو - في نظر الشهرستاني- الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وأثبت لها: الشرف، والوبال، والأوج والحضيض، والمناظر: بالتثليث والتسديس، والتربيع، والمقابلة، والمقارنة، والمراجع، والاستقامة، ويبين: تعديل الكواكب وتقويمها. وأما الأحكام المنسوبة إلى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع.

وللهند والعرب طريقة أخرى في الأحكام أخذوها من خواص الكواكب لا من طبائعها ورتبوها على الثوابت لا على السيارات.

فهرمس عند الشهرستاني غير واضح في تاريخه وفي نسبه وفي موطنه وكل ما يعرفه به قول جاء على صيغة المجهول لا يلتمس من ورائه شئ سوى الدفع إلى مزيد من البحث يقول فيه: يقال هو إدريس النبي عليه السلام. فالعبارة فيها احتياطها العلمي للمتشكك في أمره أو الذي يحاول على وجه من التاريخ إثباته.

وأورد الشهرستاني نصا يفيد: أنه عايش الصابئة وحمل معهم مسئولية فكرهم وهو قوله: «انظروا - معاشر الصابئة- كيف عظم الرسالة حتى قرن طلعة الرسول- الذي عبر بالناموس- بمعرفة الله تعالى».

على أي حال فإن الشهرستاني لم يتحقق شخصية هرمس لا لنفسه ولا للتاريخ وإن كان أسبغ عليه لقب العظيم، وربما كان منه لكي يخفي قلقه من عدم معرفته وأن ما ذكره عنه من حكمه يبدو عليها التكلف، وطابع تأليف الشهرستاني.

وأما قوله: يقال هو إدريس النبي .

فإن المقارنات الحقيقية بين نصوص الشهرستاني فقط لتستبعد هذا القول وربما كان هذا هو ما جعل الشهرستاني يقف عند قوله «يقال» مرتين دون تعقيب مريح أو غير مريح، ونأخذ على الشهرستاني عبارات تجعل هرمس في مدة تاريخية بعد الحنفاء منها: «أن حكمه تدل على تقرير مذهب الحنفاء» . فلو كان هرمس معايشا

للحنفاء لكانت حكمه مؤسسة لمذهبهم أو واضعة له، فوصف حكمه بأنها مقررة لمذهب الحنفاء فيها ما يفيد بأنه وجد في فترة تالية لهم.

وعبارة هو إدريس، تفيد:أنه مقدم على نوح أو هو جده، والحنفاء يرجع نسبتها إلى إبراهيم.

وصاحب كتاب فقر الحكماء ونوادر القدماء والعلماء[1]: اختار مجموعة من الفلاسفة، وذكر عنهم بعضا من حكمهم ، ونوادرهم، وذكر من بينهم: «هرمس الفيلسوف» فذكر حكمه ونوادره، دون ذكر شئ عنه، وعند مطالعتنا تلك الحكم تبينا منها: أنها هي الأخرى مجموعة تأليفات أخذت من حكم «لقمان» في القرآن، يقول الدكتور : عبد الرحمن بدوى: ويلوح أن المؤلف كان أديبا في غالب أمره ولم يكن من المشتغلين بالفلسفة أو علوم الأوائل إلا على سبيل الثقافة العامة. وقبل ذلك قال: على أن نقد المصدر لا يستطيع أيضا أن يعتمد على النقد الباطن لمضمون الكتاب وإنما تهجم المشاكل حين يتعرض الباحث لما فيه:

وأولها مشكلة الأسماء التي نسب إليها حكما نادرة فبعضها لا نعرف بالدقة من هم؟ وهذا ينطبق على : زيمون الشاعر- وأرطيبوس- وزيموس .

وعند مراجعتنا ابن النديم وجدناه يقول: قد اختلف في أمره.

فقيل: إنه كان أحد السبعة السدنة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة.

وقيل: إنه كان إليه بيت عطارد وباسمه يسمى، فإن عطارد باللغة الكلدانية (هرمس).

وقيل: أنه انتقل إلى أرض مصر لأسباب وأنه ملكها وكان له أولاد عدة منهم: طاطا وصا، وأشمن، وأثريب، وقفط، وأنه كان حكيم زمانه ولما توفي: دفن في البناء

---

(١) هذا الكتاب نشر للدكتور عبد الرحمن بدوى ضمن رسائل فلسفية للكندى والفارابى وابن ماجه وابن عدى من منشورات الجامعة الليبية- بنغازى جـ١ ١٩٧٣ ص ٢٧٧.

يراجع الفهرست لابن النديم ص ٥٦ ذكر فيها كتبه وعددها ثلاثة عشر كتابا أو رسالة وفي صفحة ٤٩٧ ذكر أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة .

الذى يعرف بمدينة مصر بأبى هرمس، ويعرفه العامة بالهرمين، فإن أحدهما: قبره والآخر قبر زوجته، وقيل: قبر ابنه، الذى خلفه بعد موته، وذكر لهرمس كتبا منها: كتب فى النجوم، والنيرنجات، والروحانيات، وكتاب قيلادس، تلميذ هرمس، فى رأى هرمس، وعده ابن النديم من بين أسماء الفلاسفة الذين تكلموا فى الصنعة فقال: وهم : هرمس وأغاذيمون.

والآراء: والأقوال، التى ذكرها ابن النديم: نراها لا تذكر ما رواه الشهرستانى بأنه: قيل إدريس، فإذا أضفنا ما قاله الشهرستانى وهو، لم يذكره ابن النديم فإنه يعتبر قولا رابعا لأنه لا يلتقى مع ما ذكره ابن النديم .

وينبغى أن يذكر أن ابن النديم ذكر أقوالا هى فى مجموعها لها علاقة باسم «هرمس» ، ومن جانب آخر أن ابن النديم يجزم أنه اسم لشخص وذكر مؤلفاته وأبناءه، فالمؤلفات العربية ترى فى هرمس إنسانا له دوره التاريخى .

ونحن فى سبيل التحقيق رجعنا إلى معجم اللغة الفارسية واستعرضنا المادة فوجدناها تطلق على الآتى: هرماس : شيطان وأهريمن.

وهرمز: اسم كوكب المشترى. واليوم الأول من كل شهر شمسى.

واسم يوم الخميس ورب النوع لدى الزرادشتيين.

وتلفظ: أرمزد. وأورمز. أهرامزادا.

- وهرمس . وهرمزه: عطارد ورب النوع إله المصريين[1].

قواميس اللغة الفارسية لم تذكر أن أطلق على شخص ما لكن كل ما ذكرته أنه اسم لإله الكواكب أى يحمل معنى من معانى المقدسات

يذكر إميل بربيه عن كرنوس فى كتابه نصا يقول فيه:

---

(١) يراجع المعجم الذهبى فارسى - عربى للدكتور محمد التونجى فرهنك طلائى ص ٦٠٢ دار العلم للملايين - بيروت.

إن هرمس: «هو اللغوس الذى أرسلته الآلهة من السماء نحونا» ثم يقول: كلمة هرمس ترجع إلى أن اللغوس هو وسيلة دفاعنا وأنه كقلعة لنا . ثم يقول: وهرمس هو رئيس النعم .

واللغوس: عن فيلون: هو رسول الآلهة.

وهرمس: قائد الأرواح.

وهرمس ولد عند زوس .

فاتحد زوس ومليا (ابنه أطفلس ومعه عطارد) هذا الاتحاد كان منه هرمس.

فهرمس غير واضح أنه إنسان لا من جهة التاريخ ولا النسب ولا الموطن والمصادر التى تكلمت عنه يناقض بعضها بعضاً فضلا على ضعف روايتها الكائن فيها.

ويترتب على ذلك ضرورة ظهور السؤال الثانى وهو: لمن ينتسب مذهب الصابئة؟ على فرض عدم نسبتها (لهرمس) وهذا ما ذكره الشهرستانى ضمنا فى محاورة الحنفاء للصابئة عندما نفاها عنه، مع أنه نفسه لا يعرف من «هرمس» حين تكلم عنه فى كتابه الذى خصصه لمثل تلك البحوث التاريخية الدينية وهو الملل والنحل: وصنعته فيه تحقيق التاريخ الدينى: وسوف يظل السؤال : لمن تنتسب الصابئة؟

أما ابن النديم وهو الذى توسع فى الحديث عنه توسعا يغلب عليه الإحاطة فإننا نراه خدم منهجه - وهو جمع المعلومات عن المؤلف ومؤلفاته - من حديث كونه ورّاقا- ليس مطلوبا منه أكثر مما قدم وهو فهرسته .

ومن العناصر التاريخية - من خلال ما ذكر- ما يؤكد أن هناك ارتباطا بين هرمس وعناصر مقدسة ويطعن فى نحلة الاسم لشخص.

يقول الدكتور: أبو العلا عفيفى:

من بين الوثائق اليونانية الهامة: مجموعة من المقالات الفلسفية الدينية كتبها متأخرو العصر اليونانى بالإسكندرية فيما بين القرنين الأول والثالث المسيحيين على وجه التقريب وتعرف هذه المجموعة باسم الكتابات الهرمسية نسبة إلى هرميس الإله

اليوناني المصرى[١] المعروف باسم: هرميس المثلث الحكمة أو «المثلث العظمة»[٢] وقد كان لهذه الكتابات أثر بالغ فى تشكيل الحياة الروحية المسيحية وتشكيل العقلية الإسلامية الفلسفية والصوفية، وهذه الكتابات الهرميسية هى الحلقة المفقودة فى تاريخ التراث اليونانى والفلسفة الإسلامية.

ثم يقول: لا عبرة بما ذهب إليه المؤرخون القدماء وتابعهم فى القول به مؤرخو العرب من أن الكتابات الهرميسية منسوبة حقا إلى هرميس المثلث الحكمة الذى عاش فى زمن موسى أو قبله، وأنه كان مصدر علوم اللاهوت والأسرار التى اختص بها كهنة مصر منذ عصور سحيقة، فقد أظهر التحليل التاريخى النقدى بطلان هذه الأسطورة منذ أواخر القرن السادس عشر وبرهن على أن هذه المقالات صدرت عن أقلام كتاب عديدين لا كاتب واحد، وأن الفلسفة اليونانية، الأفلاطونية والفيثاغورية بوجه خاص - كانت أصلا لها ومصدرا على عكس ما كان يعتقد من أن فلسفة هرميس كانت الأصل الذى استقى منه الفيلسوفان اليونانيان فلسفتهما .

ويختلف شرح هذه الرسائل باختلاف كتابها، فأحيانا ترى الحديث، يدور بين هرميس وابنه طاط، أو بينه وبين إله الطب أسقليبوس، أو بينه وبين الملك آمون، وأحيانا يصور هرميس بصورة التلميذ الذى يتلقى الوحى أو عن الإله بويمندريس كما هو الحال فى الرسالة الأولى أو عن الإله أغاثا ذيمون.

وتدل الشواهد التاريخية: على أن كتابات هرميس قد وصلت إلى المسلمين لا عن طريق الإسكندرية التى هى منبعها الأصلى، بل عن طريق «حران» التى ورثت ثقافة الإسكندرية وحافظت عليها قرونا عديدة قبل الإسلام وبعده. ولكننا لا ندرى

---

(١) الآراء الدينية والفلسفية (فيلون الإسكندرى) تأليف الأستاذ اميل بريهو ترجمة الدكتورين محمد يوسف موسى، وعبد الحليم النجار ص ١٥٣ .

(٢) بينما ثورة اليهود محتدمة بينهم وبين السلطات الرومانية تكتب «بوديموتيس» التى ابنها أبو للينوس وفى ٣٠ يونيو من عام ١١٦ مؤكدة له أنه بمشيئة الإله وخاصة هرميس (إله هرمو بولس) الذى لا يقهر .
لعله هو الذى لا يقهر . . ص ١٩٥ .
يراجع مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية د. عبد اللطيف أحمد على

على وجه التحقيق كيف بدأ وصول هذه الكتابات إلى حران ولا فى أى زمن بدأ ولا الرجال الذين تم على أيديهم نقل هذه الثقافة.

ويحدثنا التاريخ أيضا: أن جماعة الحرنانيين الذين كانوا يعرفون باسم الصابئة. قد اتخذوا فلسفة هرمس: دينا لهم، واعتبروا هرميس وأغاثا ذيمون وغيرهما من الحكماء الذين وردت أسماؤهم فى الرسائل الهرميسية: أنبياءهم، كما اعتبروا هذه الرسائل: كتابهم المقدس، وأن وثنيى حران عندما أمنوا جانب المسلمين ونال بعضهم الحظوة عند خلفاء بنى العباس تدفق سيلهم على بغداد وأسسوا المدرسة الأفلاطونية الحديثة أشبه بالمدرسة الأفلاطونية الحديثة التى كانت قائمة فى أثينا حتى أغلقها الإمبراطور جوستنيان حوالى سنة ٣٥٠ م غير أن مدرسة بغداد الحرانية جعلت من أول أغراضها نشر تعاليم هرميس وإذاعتها بينما أغفلت أختها الأثينية هذه التعاليم وأهملتها[١].

منذ ذلك الوقت اشتهر اسم هرميس فى الأوساط الإسلامية وقد استحدث عنه وعن عجائب حكمته وعلمه وظل موضع إجلال المسلمين واحترامهم حتى نهاية القرن السادس الهجرى، ورفعه المسلمون لا إلى مصاف الآلهة كما فعل اليونان والمصريون بل إلى مصاف الأنبياء مما يثبت قطعا أن الفلسفة الهرميسية لم تصل إلى المسلمين فى صورتها اليونانية الخالصة بل وصلتهم بعد أن امتزجت ببعض الأفكار والعقائد الإسرائيلية. ومما يثبت تأثر الفلسفة الهرميسية التى وصلت المسلمين بالأفكار اليهودية أن الهرامسة تعددوا عندهم وأصبحوا ثلاثة :

الأول: هرميس الهرامسة الذى قالوا عنه: أنه إدريس النبى أو أخنوخ. وقد ذكروا: أنه ولد بمنف، وعاش قبل الطوفان، وعنه ظهرت كل العلوم التى عرفها الإنسان فى ذلك العهد.

الثانى: هرميس البابلى، الذى اعتبروه من تلاميذ فيثاغورس، وقد ذكروا أنه عاش بعد الطوفان، وأنه كان عالما بالطب والفلسفة وطبائع الأعداد والكيمياء. ونسبوا

(١) الأثر الفلسفى الإسكندرى فى قصة حى بن يقظان أبو العلا عفيفى لجنة التأليف والترجمة والنشر، بحث من مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول - الإسكندرية المجلد الثانى ١٩٤٤ .

إليه كثيرا من الروحانيات والطلسمات بل قالوا إنه انتقل إلى مصر وحكمها وكان له أولاد منهم طاط وأشمن وقفط وغيرهم.

الثالث: هرميس المثلث الحكمة: قالوا سمى كذلك لأنه ثالث الهرامسة الحكماء، ومثلث العظمة.

وليس من شك فى أن هرميس الأول من نسج الخيال اليهودى وأن هرميس الثانى اسم اخترعه العرب لمؤلف المقالات الهرميسية التى تدور حول علوم الأسرار من السحر والطلسمة والكيمياء وما إليها.

أما هرمس الثالث: المثلث الحكمة فلم يعرفه العرب بالاسم فقط بل عرفوا الرسائل المنسوبة إليه، يقول القفطى فى تاريخه: ونقلت من صحف هرمس المثلث الحكمة، نبذا من مقالته إلى تلميذه طاطى على سبيل سؤال وجواب بينهما وهى على غير نظام وولاء، لأن الأصل كان باليا مفرقا، وهناك كتاب كثيرون غير القفطى يشيرون إلى رسائل هرميس ووجودها فى أصل عربى، أو ترجمة سريانية وإلى اقتباسهم منها مما لا يدع مجالا للشك فى أن العرب عرفوا هذه الرسائل فى صورتها الأصلية. ويرد على ذلك أن كتبا عربية وضعت برمتها ملخصة الفلسفة الهرميسية مما يساعد كثيرا على ذيوع هذه الفلسفة وشيوعها بين المسلمين. من هذه الكتب: كتابان أشار إليهما العلامة الأستاذ «سانتلانا» فى محاضراته فى الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية القديمة وهما:

« كتاب «سر الخليقة» المنسوب لبليتوس (وهو ابن لونيوسالطيانى من أهل طيانة) الفيثاغورى من حكماء القرن الأول المسيحى .

وهذا الكتاب مخطوط بمكتبة باريس وهو يحمل طابعا هرميسيا لا يشك فيه الأستاذ سانتلانا.

* الثانى: رسالة «هرميس المثلث الحكمة فى معاتبة النفس أو معازلة أوزجر النفس».

وقد تعرف أيضا باسم (رسالة المعانى) وتنسب خطأ إلى سقراط وأحيانا إلى أفلاطون أو أرسطو .

وقد طبع الأبواب السبعة الأولى منها الأستاذ «فلايشر» سنة ١٨٧٠ وطبع الباقى منها الأستاذ (باردنهافر) سنة ١٨٧٣ .

ونشر الرسالة برمتها فى العصر الحديث الراهب الخورى «فليمون» الكاتب أحد رهبان دير المخلص سنة ١٩٠٣ ببيروت[١] .

من كل هذا يتبين إلى أى حد انتشرت تعاليم هرميس فى الشرق القديم قبل الإسلام وبعده.

بوداسف:

ذكر المسعودى صاحب كتاب «مروج الذهب» : أن الذى جدد مذاهب الصابئة «بوداسف» الذى وفد من الهند إلى فارس فى حكم طهمورث من ملوك الفرس الأولى: وما ذكره المسعودى لم نره لغيره .

وقد رأيت أن أتتبع تاريخه فى المعاجم الفارسية ولا سيما بعد ما انتهينا من البحث عن تاريخ «هرمس» الذى ذكره الشهرستانى فى المحاورة التى وقعت بين الحنفاء والصابئين ورأينا ما وصل إليه البحث من نتائج .

ولما تتبعته فى المعاجم الفارسية لم أعثر له على ذكر فيها غير أنه غلب على ظنى أن «بوداسف» الذى أورده المسعودى على أنه المحدث لمذاهب الصابئة ولا سيما أنه نشأ فى الهند - كما ذكر أيضا- هو «بوذا» واضع الديانة البوذية.

و«بوذا» «ينطق بالفارسية» بوذا ويبدو أن المسعودى وهو الذى انفرد بذكره، نقله محرفا، أو نقله ترجمة عن الفارسية، بتلك الزيادة من بعض الرسائل القديمة. وإذا كان «بوداسف» هو بوذا، فهناك علاقة بين ما ذكره المسعودى - وتعاليم «بوذا» ؟

يقول الدكتور محمد غلاب .

(١) اعتمدنا فى الكتابة الخاصة عن هرمس بصفة مؤكدة على البحث السابق، دكتور أبو العلا عفيفى .

ليس عندنا من المصادر عن الديانة الفارسية السابقة على (زرادشت) القدر الكافى لإعطائنا عنها صورة واضحة تمكننا من تحليلها على الطريقة العلمية القيمة. ولكن ما نعرفه فى هذا الصدد: هو أن نقوشا أثرية، يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح وجدت فى الشمال الغربى من بلاد فارس ووجدت فيها: أسماء آلهة هندية وهى :

* ميتهرا .
* أدرا .
* فارنا.

ولما كان من غير الممكن أن تصل هذه الآلهة الهندية إلى ذلك المكان دون أن تخترق البلاد الفارسية استنتج بعض الباحثين – ونخص منهم بالذكر الأستاذ «دينيس سوريه» – أن للديانة الهندية أثرا عظيما على الفارسية الأولى .

ثم يقول الدكتور غلاب: ومهما يكن من الأمر فإن تأثر الفارسية بالهندية أمر مقطوع به إذ أننا نجد مثلا فى الكتاب الفارسى المقدس أسطورة تحدثنا أن «بيما» هو أول إنسان أطعم أبناءه لحما محرما ولعله «لحم ثور» ليصيرهم خالدين .

ويلاحظ : أن بيما الذى هو أول إنسان عند الفرس هو نفس (باما) أول إنسان فى الديانة الهندية[1] .

هذا من وجهة النظر العامة، وهو لا يبعد عما يفهم من كلام المسعودى الذى نصه: «ويقال أن هذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرنانيين والكيماريين. وهذا النوع من الصابئة مباين للحرنانيين فى نحلتهم» .

ولفهم هذا النص ينبغى أن نوضح بصفة عامة: آراء الحرنانيين والكيماريين.

فنقول:

---

(١) يراجع الفلسفة الشرقية : بحوث تحليلية – الدكتور محمد غلاب مقالات نشرات بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٧ السنة الخامسة

حران مدينة من مدن العراق عرفت مدرستها فى التاريخ الفكرى بأنها مدرسة وثنية، كانت ذات أهمية كبرى لمرور طرق القوافل وأن اشتقاق اسم المدينة فى البابلية هو : «حرانو» أو «حرانو» تعنى الطريق.

كما اشتهرت فى التوراة فى سفر التكوين : ٢٤ ، ٤ ، ٢٩ ، ٢١ وقد كانت الموطن الأصلى للآباء العبرانيين الأوائل قبل ذهابهم إلى فلسطين.

والمرجح كثيرا أن إبراهيم وأحفاده كانوا من سكان أراضى هذه المنطقة كما تشير إلى ذلك التوراة نفسها[١] فى هذا المركز عاشت الصابئة وهى كما يقول الشهرستانى: «الحرانية هم جماعة من الصابئة ».

ثم يقول عن مذهبها الحلولى:

«ثم من المواليد من قد يتفق شخص مركب من صفوها – أى العناصر– دون كدرها– ويحصل له مزج كامل الاستعداد فيتشخص الإله به فى العالم .

هذا فضلا عن فصل آخر للشهرستانى عنهم عنونه بقوله: «مزاعم الحرنانية[٢]» .

ويصفها «أوليرى» بصفة عامة فيقول:

هذا وكان هناك بعض مصادر ثانوية متفرقة للعلوم اليونانية مثل مدينة حران التى كانت مستعمرة يونانية ظلت متشبثة بوثنيتها فى منطقة مسيحية ويغلب على الظن أنه كان لها نصيب فى نقل العلوم اليونانية إلى العرب ولو فى أضيق نطاق، فمدرسة حران عرفت وتخصصت فى الوثنية ولا نرى مؤلفا أو باحثا فى تاريخ الفكر العربى يذكرها دون أن يصفها بالوثنية .

فمدينة «حران» ظلت مركزا مهما دائما للثقافة اليونانية فى المنطقة التى يتكلم أهلها اللغة الآرامية الشرقية، وكانت إلى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال، أما

(١) يراجع : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص ٤٩٣ . د. طه باقر .
(٢) الملل والنحل الشهرستانى (٢ :٥٨).

أهلها فكانت الغالبية منهم وثنيين يعبدون الكواكب مما دفعهم إلى ملاحظة السماء والتعمق في الدراسات الفلكية [١].

فالآراء التي حملها «بوداسف» تتميز بوثنية كوثنية حران وليست هي آراء حران ولكنها تتفق في الوثنية فقط مع الحرنانيين. وديانة (بوذا) من الديانات التي تتميز بالإلحاد ومن أقدمها تلك التي لا تعترف بإله خارج عن عناصره.

ومن هنا نتساءل : ما الإله؟

هل هو العناصر نفسها؟ ، . . فإذا كان ذلك فلا يكون في الأمر جديد سوى وضع اسم مكان آخر، وإذا كان غيرها ولها هذه الخواص التي نشاهدها فقد ثبت خلوه هو من بعض الخواص الثابتة للعناصر، وهو نقص فيه، وإذا كان كل خواصها لم يكن في حاجة إليها، لاتخاذها وسيلة لإيجاد العالم، وإذا فنحن أمام خلاء من الألوهية يؤيده منطقها [٢].

أخذت هذه الآراء عدة تحويرات حتى انتهت إلى «الحلولية» على يد «سانكرا» الذي قرر: أن هذا العالم الظاهر، ليس هو حقيقة الإله إنما هو كائن أدنى محدث، ولكن كل جزئية منه، تشتمل على طرف من تلك الحقيقة الإلهية. غير أن «سانكرا» لم يكد يعلن هذه الآراء حتى وصفه البراهمة بأنه بوذى، يتقمص جسم «براهمي». أو زنديق يرتدي ثوب متدين، وكان ذلك موافقا بالمصادفة لأوان الفتح الإسلامي، وعلى بدء تاريخ جديد يبرز للباحثين أثر الإسلام في تلك الأصقاع على صورته الحقيقية، فالإلحاد الوثني يتغلغل في البوذية وتعاليمها وهي أول ديانة – كما تزعم لنفسها– تتخلى عن الله ولا تخرجه عن العناصر الكونية .

يقول الدكتور ميزار مهدى:

---

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب. دلاسي أوليرى ترجمة. د. وهيب كامل ص ٣ .
(٢) الفلسفة الشرقية: بحوث تحليلية دكتور محمد غلاب .

وأهل هذا الدين، يعتقدون أن (ميرزا) : هو أول من ظهر في الأرض على صورة البشر. ويجبر هذا الدين تابعيه: على أن ينزهوا ملوكهم عن الغلطات ويقدسوهم عن الهفوات، فلذا نرى معابدهم: مزينة بصور سلاطينهم، وأكابر رجال كهنوتهم، وأعاظم ملتهم، وهؤلاء القوم ليس عندهم خبر نصي، أو أثرى رمزي عن ظهور مجدد أو مصلح جديد في المستقبل ليقوم ما أعوج من دعائم دين (بوذا) إلا أنهم يزعمون : أن بوذا سوف يظهر مرة أخرى بنفسه عندما يرى عودته[(١)].

لاحظ «ميجاشتيس» وهو عالم يوناني في بلاط «مجاذاه» وقد وضع كتابا وصف فيه الهند: أن بعض الهنود كانوا يرفعون بوذا إلى مرتبة الإله.

يقول أوليرى معلقا: ملاحظة لها طرافتها لأنها ترينا أن البوذية في عهده كانت قد جاوزت فعلا طورها البدائي الذي كان فيه بوذا يعتبر مجرد معلم ديني، وأنها كانت في هذا الحين تنتقل إلى طورها الثاني الذي أله فيه بوذا والذي أدى إلى تصوير بوذا في صورة إنسانية[(٢)].

إذا كانت هذه الديانة البوذية ترى في الإلحاد والوثنية عقيدة لها فإن وثنيتها ليست عبادة الكواكب كما كان يرى أهل حران فمن هنا حصل التباين بين عقيلتين وثنيتين كما ذكر المسعودي .

هل البوذية خرجت من الهند؟

يرى المؤرخون أنها خرجت من هناك، بيد أنهم يختلفون حول أسباب خروجها، فبعضهم يرى ذلك عندما اغتال برهمي متعصب اسمه منبا آخر ملوك أسرة (ملوريا) وهو بوشيا ميترا سنة ١٨٤ ثم اغتصب العرش وأخذ يضطهد البوذيين، أي أن الاضطهاد السياسي كان وراء خروجها.

---

(١) مفتاح الأبواب: زعيم الدولة الدكتور ميرزا محمد مهدي خان رئيس الحكماء الإيراني والأذربيجاني التبريزي نزيل مصر ص ٨ – ١٥ الطبعة الأولى بمطبعة المنار الإسلامية بشارع درب الجماميز بمصر في غرة رجب ١٣٢١ .

(٢) علوم اليونان ص ١٧٢ .

وبعضهم يرى أن الديانة البوذية كانت فى بدايتها طائفة زهدية صغيرة ولكنها فيما بعد نمت وانتشرت حتى صارت إحدى ديانات العالم الكبرى،ويرجع أصل هذا الدين- فى نظر أوليرى- إلى نظام السانخيا الفلسفى الذى كان قائما من قبل والذى بدأه كامبيلا.

أما الدكتور غلاب فيرى: أن «كامبيلا» وبوذا متعاصران، إذ قد عثر فى هذا المذهب، وفى المذهب البوذى: على تأثرات قوية متبادلة بين المذهبين مما يدل على أنهما متعاصران تقريبا.

ثم يقول الدكتور محمد غلاب: ولكن هذه الديانة حينما أجلتها البراهمية فى القرون الأولى للميلاد المسيحى لم تكن قد انتهت من الوجود وإنما كانت قد تفرقت شمالا وجنوبا إلى الصين: واليابان وجاوه وسومطره[1].

أما إلى أى مدى انتشرت البوذية فعلا فى العالم القديم فمسألة مستعصية. لكن يمكن القول بأن الديانة البوذية فى عهد «سوكا» : Asoqs ثالث ملوك أسرة (ماوريا) التى اعتبرها الهندوك أسرة نجسة لأنها لا تنتمى لطبقة الكهنة، أو طبقة الجند، هذا الملك اعتنق البوذية لأنها لا تعير نظام الطبقات أية أهمية، فالديانة البوذية لقيت تعضيدا قويا من هذا الملك ودعا إلى عقد مجمع بوذى ثالث فى (الأسو كاراما) فى ياتالى بوترا، وتلك قرية كان بوذا قد زارها فى سالف الزمان. ونوقشت فى هذا المجمع ثمانى عشرة مشكلة مذهبية وتم التصالح بشأنها. ولكن الأهم من كل هذا أنه قد تقرر فيه: أن البوذية ينبغى أن تنهج سياسة تبشيرية تدعو فيها شعوب العالم كلها إلى اعتناق ما يقضى به (قانون التقوى) وطبقا لهذا القرار أوفدت الدعاة إلى الجنوب وإلى الغرب(٢).

فالقرار الذى اتخذه أسوكا: جعل الدعوة إلى الديانة البوذية دعوة عالمية. وأوجب على الداعين أن يحملوا عبء الدعوة إليها فانتشروا فى أفناء الأرض وقد زاد من انتشار أتباعها أخيراً اضطهاد البرهميين لمعتنقيها .

---

(١) الفلسفة الشرقية نفس المرجع .

(٢)مرجع علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ص ١٦٦ .

فالعنصر البوذى الذى ظهر فى شرق فارس يرجع إلى مدينة «باميان» جنوب بلخ وكان فيها مركز بوذى عام .

وفى القرن الثالث عشر يصف ياقوت: صنمين كبيرين لبوذا فى هذه المدينة ويقعان فى بهو واسع محفور فى جانب الجبل. وهما صنمان كانا يعرفان باسمه:

وأحدهما * سشق بد : أى بوذا الأحمر.

ثانيهما * وخنج بد : أى بوذا الأشهب .

وكانا قائمين فى أيامه وقد ذكرهما القزوينى . كما ذكرهما ياقوت.

وقد دمر (جنكيز خان) مدينة باميان هذه[1] .

فالبوذية خرجت من الهند واختلطت بتراث فارس هروبا من الاضطهاد الذى لاحقهـا من البراهمة، وتحقيقا لمنهجها فى الدعوة التبشيرية التى قررتها لنفسها أخيرا.

ولقد أصبحت مدرسة (جند يسابور) التى أنشئت فى النصف الثانى من القرن الثامن أيام الملكين خسرو وأنوشروان، وبفضل العلماء الذين طردوا من الرها آنذاك قامت بعبء المزج بين التراث اليونانى والشرقى، وفى هذه المدرسة أيضا اتصل العلماء اليونانيون والسريان والفرس بعلماء الهند وتأثر بعضهم ببعض وزاد ازدهارها حين أقفل «جوستينيان» مدارس أثينا وتولى الفلاسفة عنها إلى جند يسابور، وجلبوا معهم كتبا فى الفلسفة والعلوم الهندية، ومن بين تلاميذها فى «جند يسابور» الحارث بن كلدة وابنه النضر.

ثم لما ظهر مانى[2] أو «مانيس» مؤسس الديانة المانوية والمولود فى بابل ٢١٥ م من أم فارسية من نسل الملوك الأشكانيين وأب من رجالات همدان هاجر إلى بابل فى تلكم البلاد.

---

(١) المعجم الذهبى: فارسى – عربى د. محمد التونجى فرهنك طلائى ص ٥٤٦ ، ص ٥٦٣ دار العلم للملايين .

(٢) ينقل صاحب حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى (٢ :١٧٢) أن الصابئة من المانوية.

وقد ادعى ماني النبوة وسمى نفسه «فارقليط» الذى أخبر عنه المسيح وقتله أحد ملوك الفرس سنة ٢٧٥ بعد المسيح وكانت عقائده مزيجا من الهندية، والزرادشتية، واليهودية،والمسيحية، قبل وضع قواعد الكنيسة ثم تبعه مزدك من الطرف الشرقى لنهر دجلة فى بلدة اسمها (ماذارايا) فى عهد الملك «قباذ» الذى حكم سنة ٤٨٨ م ودعا إلى الإشتراكية فى الأموال والنساء ثم قتل هو الآخر مع ثمانين ألفا من أتباعه .

ويقول ابن قتيبة إن قباذ بنى فى فارس والأهواز مدينة «أريجان» فأسكن فيها سبى (همذان) فوثب فيها «مردق» وقال بدعوته[1] .

فبوداسف الذى أظهر مبادئ الصابئة فى ملك طهمورث ربما يكون هو «بوذا» .

أصول فكر الصابئة الأولى :.

يقول المقدسى: المنائية، والديصانية، والماهانية، والسمنية، والمرقوتية والكبائبون، والصابئون، وكثير من البراهمة والمجوس، وكل من قال باثنين، أو بأكثر، أو بشئ قديم مع البارئ، وكذلك القائلون بالجنة، والجوهر، والفضاء.

ويقول الصابئون: النور حى عالم، والظلمة جاهلة معمية . والمرقيون يقولون: ثلاثة أشياء قديمة: نور، وظلمة، وثالث معدل بينهما .

ويقول المنائية: النور خالق الخير، والظلمة خالق الشر.

ويجعل من مذاهب المجوسية: الذين يعبدون النار والشمس والقمر والنجوم .

ويقول المقدسى[2] عن : أصل مقالات الثنوية والحرانية:

أصل اعتقاد هؤلاء فى الجملة أن : المبدأ شيئان اثنان:

— نور .

(١) المعارف لابن قتيبة تحقيق د. ثروت عكاشة ص ٦١٣ .

(٢) البدء والتاريخ جـ١ ص ١٤٢ .

- وظلمة .

وأن النور كان فى الأصل: أعلى العلو، نوراً خالصاً.

وأن الظلمة كانت أسفل السّفل . وظلمة خالصة .

غير مما سبق على مثال الظل والشمس فامتزجا فكان من امتزاجهما: هذا العالم بما فيه .

هذا الذى يجمع أصل عقائدهم .

ثم اختلفوا بعد ذلك: فزعم «ابن ديصان» أن : النور ، خالق الخير، والظلمة خالقة الشر. بعد قوله بأن: النور حى حساس والظلمة موات. فكيف يصح الفعل من الموات؟

ولما رأى من فنون ما لحق المانوية، والديصانية من التناقض، والفساد. أحدث مذهباً زعم أن الكونين: النور والظلمة قد يمان، ومعهما شئ قديم ثالث، وهو الذى حمل الكونين على المشابكة والامتزاج، ولولا ذلك المعدل بينهما لما كان من جوهرهما إلاّ التباين والتنافر.

وزعم «كنان» أن أصل القديم ثلاثة أشياء: الأرض، والماء والنار. غير أن المدبر لها اثنان: خير، وشر .

وأما الحرانية: فمختلف عندهم فى الحكاية؛ زعم أحمد بن الطيب: فى رسالة له يذكر فيها مذاهبهم أن القوم مجمعون على أن: العالم علة، لم يزل.

ويقولون: المدبرات سبع واثنا عشر. ويقولون: فى الهيولى والعدم، والصورة، والزمان والمكان، والحركة والقوة .

يقول «أرسطاطاليس» : فى كتاب سمع الكبا. وزعم «زرقان» :

أنهم يقولون مثل قول المانية. وقال بعضهم: أن مذهب الحرانية ناموس مذهب الفلاسفة، وما لم يكن يجرؤ أحد أن يظهر خلافهم.

وأما المجوس: فأصناف كثيرة، ولهم هوس عظيم وترهات متجاوزة الحد والمقدار، لا يكاديوقف عليها. فبعضهم يقول: بقول الثانوية.

وبعضهم: على مذهب الحورانية والخرمية - جنس منهم يتسترون بالإسلام. ويقولون: مبدأ العالم نور، وأنه نسخ بعضه فاستحال ظلمة .

وأما أهل الصين: فعامتهم الثنوية إلى كثير ممن يليهم من الترك وفيهم المعطلة الذين يقولون: بقدم الأعيان، وأن العالم لا صانع له ولا مدبر.

والهنود أصناف كثيرة: وتجمعهم البراهمة والسمنية، والمعطلة الأخرى.

يقولون بالتوحيد: غير أنهم يبطلون الرسالة، ومنهم المهادرزية يزعمون أن المبدأ ثلاثة إخوة ولهم أسطورة طويلة ذكرها المقدسى .

هذا من جهة الصفة العامة الغالبة على المذهب أما تفصيلاته فهى:

أولا - الإقرار بالقوة الإلهية:

بمعنى أن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً مقدساً عن سمات الحدثان.

ثانيا - الإقرار بالعجز الإنسانى:

فى الإنسان عجز عن إدراكه، أى : الإله وعلينا الإقرار بهذا العجز. وفى الوقت نفسه علينا التقرب إليه لحاجتنا إليه.

فاتخذوا سبيلهم إليه بالمتوسطات المقربين لديه .

ثالثا: الإقرار بإمكانية الاتصال به :

أدى شعورهم بالحاجة إليه إلى إعمال الفكر لكيفية تصور إمكانية العلاقة بينهم وبين القوة الإلهية، بيد أن هذه العلاقات كما تصوروها لا يمكن أن تكون مباشرة، لما عليه الإنسان من دنس النفس وإظلامها بالشهوات الطبعية ولذلك رأوا أن الوسيط يجب أن يكون روحانيا.

والروحاني – في نظرهم– هو : المقدس من المواد الجسمانية المبرأ عن القوى الجسمانية المنزه عن الحركات والتغيرات الزمانية.

فللاتصال به علينا أن نطهر أنفسنا من علائق القوى الشهوانية حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين «الروحانيات» فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم .

وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا باكتسابنا ورياضتنا وفطامنا عن الشهوات الدنيا .

والاستمداد هو : التضرع وإقامة الصلوات وبذل الزكاة، والصيام وتقريب القرابين وتبخير البخور. وفي هذه الحالة قد لا يحتاج الإنسان إلى وسيط .

لذلك رفضوا، كل وساطة من البشر فقالوا عن الأنبياء أنهم أمثالنا في النوع وأشكالنا في الصورة يشاركوننا في المادة يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ويشاركوننا في الصورة .

أناس بشر مثلنا فمن أين طاعتهم؟

وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم؟

قال تعالى: حاكيا ذلك عنهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾(١) .

أنواع الوساطات :

والوساطة قد تكون عبادة العناصر الطبيعية وقد تكون عبادات تنجمية ظهرت على أنها عبادة واحدة ثم انقسمت إلى نجوم وسماء .

١ – فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها وهي: هياكلها فكل روحاني: (هيكل)، ولكل «هيكل»: «فلك»، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به كنسبة الروح إلى الجسد فهو ربه ومدبره ومريده .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٤ .

وكانوا يسمون العناصر : أمهات .

وفعل الروحانيات فيها هو: تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات فى الطبائع والعناصر لمزج المركبات فتتكون القوى الجسمانية وتركب عليها نقوش روحانية مثل:

* أنواع النبات .

* أنواع الحيوان .

٢- والتأثير قد يكون آليا صادرا عن روحانى كلّىّ: فمع جنس المطرملك هو هذا الكلى.

والتأثير قد يكون: جزئيا صادرا عن «روحانى» جزئى أى مع كل قطرة ملك وهذا هو الجزئى .

٣- ومنها مدبرات الآثار العلوية :

* الظاهرة فى الجو مثل : الأمطار والثلوج والرعد والبرق .

* الظاهرة فى الأرض مثل: الزلازل والأبخرة .

٤- ومنها متوسطات القوى مثل : قوى الحس .

٥- ومنها: مدبرات الهداية مثل : العقل .

وهذه الروحانيات لها طعامها الذى يتناسب معها وهو :

التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد وأنسهم بذكر الله وطاعته .

أعمال الصابئة كلهم :

يصلون ثلاث صلوات، ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت وحرموا أكل الجزور والخنزير والكلب .

ومن الطير ما له مخلب، والحمام .

ونهوا عن السكر فى الشراب وعن الاختتان .

وأمروا : بالتزويج بولى وشهود .

ولا يجوزون الطلاق إلا بحكم حاكم ولا يجمعون بين امرأتين .

هياكلهم :

بنى الصابئة هياكلهم على أسماء الجواهر العقلية الروحانية وأشكال الكواكب السماوية فمنها : هيكل العلة الأولى ودونها: هيكل العقل وهيكل السياسة وهيكل الصورة وهيكل النفس- وكلها مدورات الشكل .

وهيكل زحل : مسدس .

وهيكل المشترى : مثلث .

وهيكل المريخ : مربع مستطيل .

وهيكل الشمس : مربع .

وهيكل الزهرة : مثلث فى جوف مربع .

وهيكل عطارد: مثلث فى جوف مربع مستطيل .

وهيكل القمر: مثمن .

يقول المسعودى: والذى بقى من هياكلهم المعظمة فى هذا الوقت وهو (سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ٣٣٢) بيت لهم بمدينة حران فى باب الرقة يعرف بمغليتيا هو هيكل أبى إبراهيم عندهم .

رؤساؤهم: ذكرهم ابن النديم فى فهرسته ومن أراد الوقوف عليهم فليرجع لها (*) .

(*) الملل والنحل للشهرستانى ص ٦٠، ٦١ كذلك يراجع المسعودى (١ : ٤١٧) وما بعدها مروج الذهب

تعقيب حول فكر الصابئة:

وأخيراً ، لقد خلفت الصابئة أثرا شاهدا على تاريخها: وهو عبادة النجوم التى تولد منها التنجيم .

ذلك أن النجوم وفوق كل شئ الكواكب – كانت فيما يبدو وفق قوانين ثابتة. تقول بالتقابل والتوافق: أى أن السموات من فوق والأرض من تحت شقيقتان متكاملتان فما كان يحدث فى العالم النجمى كان يعاد إخراجه على الأرض، وهذا هو الأمر الحيوى فى الموضوع .

بيد أن حركات العالم النجمى ثابتة فإذا كان هناك تقابل فكل ما يحدث على الأرض يكون ثابتا، والحال بالمثل بالنسبة لأفعال الناس أيضا، فهى ثابتة وذلك الإنسان هو كون مصغر فهو الشقيق المكمل العالم الكبير، وروحه شرارة من تلك النار السماوية التى تتوهج فى صفحة النجوم .

ومن هنا نشأ مذهب من أفظع المذاهب التى عذبت الإنسانية على مر الزمان وهو المذهب البابلى المسمى (القضاء المحتوم) الذى يتحكم على السواء فى النجوم والأرض والناس.

فحركة هذه الكائنات جميعا ثابتة بفضل قوة باقية لا تتبدل وهى قوة لا علاقة لها بالأخلاق. قوة لا تحب ولا تكره ولكنها تواظب على مسارها بطريقة لاهوادة فيها مواظبة النجوم فى مسارها عبر القبة الزرقاء.

وقد استطاع التنجيم فى النهاية أن يتغلغل فى كثير من الديانات ويصبغها بلونه. وكان هناك أكثر من نظام للتنجيم .

* عبادة الكواكب .
* أبراج الفلك وعلاماتها الاثنتا عشرة.

بيد أن التنجيم القائم على الكواكب كانت له قوة أعظم. فالكواكب السبع هى: الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل.

كانت فى عبادتها المسيرات للقضاء والقدر وفى النهاية هى مستقر عروش «حكام هذا العالم» الذين أصبحوا فيما بعد معادين لروح الإنسان وشرا عليها بصورة قاطعة لأنهم أصبحوا يجرون المقادير عليها بلاد هوادة .

كذلك خصص للكواكب السبعة ألوانها الخاصة المقابلة للطوابق السبعة للمعبد البابلى .

كما خصص لها معادنها الخاصة ونباتاتها وحيواناتها .

* أما أبراج الفلك فقد كانت تتحكم فى مصائر الشعوب ومدنها المنوعة وتشهد العملية بأن أنطاكية ونصيبين كانتا تحت سيطرة برج الحمل .

والرها تحت سيطرة برج الدلو.

وأن سنجارا و «ريساينا» تحت برج القوس(١).

وإن الذى كان يهم الناس هو أن مصائرهم كانت ثابتة منذ الولادة بفضل نجومهم ،كما أن المنجم المقتدر كان يستطيع أن يتنبأ لهم بالمستقبل عن طريق حسبانه لطوالعهم. وقد أسهم التنجيم فى إدخال عناصر كثيرة غير منطقية مثل .

الحظ.

الفرص.

ثم تحدد مسار الكفاح الإنسانى ضد سيطرة النجوم عليه بثلاثة خطوط رئيسية حاول بها الإنسان الفرار من تأثير نجومه عليه، وكلها تعتمد على الاعتقاد فى الله الأقوى من كل شئ أعطى الإنسان كثيرا من الحرية والإرادة، وللعقل البشرى سيادته من خلال توجيهات الوحى الذى استطاع به أن يثور ضد ثقل: «الجبرية» — القاهر بسبب الاعتقاد فى تأثير النجوم بأفلاكها عليه وعلى مصدره .

والخطوط الثلاثة هى :

* الدين.

* المعرفة الروحية

* السحر

---

(١) الحضارة الهيلينستية ن. ن. تارن ترجمة عبد العزيز جاويد ص ١٤١ - ١٤٢ .

وكفاح الدين ضد سيطرة النجوم على الإنسان سوف نعرض له من خلال محاورة نبى الله إبراهيم معهم .

أما المعرفة الروحانية: فهى بِكُنْهِ الأشياء وليست هى المعرفة التى تتوافر للفيلسوف.

فالمعرفة الروحانية الحقة تجعل الإنسان يأمن من قضاء وقدر النجوم على أساس اعتقاده أن روحه بعيدة عن منالها، وهذا من المبادئ الرفيعة للمعرفة الروحانية التى تساعد الإنسان ألا يذل لغير الله وهذا ما يتفق مع العقل .

السحر:

أما السحر فالفكرة الأساسية فيه: هى أنه باستخدام الوسائل الصحيحة يمكن إجبار القوى الخفية على العمل، من أهداف السحر التى يراها الإنسان القديم أن يعود بالحرية إليه من سيطرة الكواكب عليه، ويعطى الإنسان مزيدا من السيادة على القوى الخفية،وتصبح كل عبادة للنجوم التى تعطى لنفسها السيادة على الإنسان فى نظر السحر والسحرة مرفوضة .

فالسحر طريق اتخذه الإنسان للحصول على رغائبه المادية والروحية.وفلسفته قائمة على منح الإنسان قدرة على تغيير ما قضت به النجوم عليه، وقد أوشك السحر أن يصبح نظاما دينيا .

وكانت للسحر صلات بأشكال المعرفة الروحانية السفلى.فأنت تستطيع أن تجبر القوى الروحية على أن تطلع الإنسان على ما لديها من خفايا وأسرار، بيد أن المعرفة الروحية فى أسمى مراتبها تنبذ السحر، وكذلك الدين ينبذه، لأن السحر إذا كان يغير من قضاء المقدر من لدن الأرواح، فإن الدين يرفعك فوق قضاء التنجيم إذ الهدف العام للدين هو أن يجعلك مرتبطا بالله مؤثرا كل قضاء صادر عنه.

من قضايا الصابئة وموقف القرآن منها :

من مشاكلهم التى أثارها القرآن:

١- عبادة الكواكب، وعبادة الأصنام كما فى محاورة إبراهيم .

٢- القول بأن بشرية النبى تمنعه من الاتصال بالله ولا تتفق معه ليكون وسيطا.

المشكلة الأولى: عبادتهم للكواكب والأصنام .

إبراهيم والصابئة :

ساق القرآن محاورة من الأدب الراقى بين نبى الله إبراهيم وعباد الكواكب تعتبر تأسيسا لعلم الكلام الدينى وبيانا مقارناً بين علم الكلام الدينى وعلم الكلام الوثنى .

ونلاحظ من تحاور إبراهيم مع قومه أن علم الكلام الوثنى قد نشأ بجانب علم التوحيد. وإبراهيم نبى الله إذ يهدم العبادات الطبعية التى انتشرت إبان بعثته – وهى التى ألهت العالم الطبعى – وكان بعضها من النيرات مثل الكواكب، والبعض الآخر له شكله الأدنى من حيث الإشراك أيضا مثل عبادة الأصنام التى عرض لها نبى الله إبراهيم، وهو إذ يهدم هذه المظاهر يبين لهم فى النهاية أن الآلهة التى تحتوى عليها وثنيتهم ليست إلا أسماء كاذبة أطلقت على بعض أجزاء من العالم المادى .

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٢)

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (٣)

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ
فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)
وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ
رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾.

(١ – ٢ – ٣) سورة الأنعام الآيات ٧٤ – ٨٢ .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

الواضح أن نبى الله إبراهيم قدم سعيا تدريجيا مصحوبا بنقد حقيقى لهذا الكون من العبادة، والسعى واضح من محاورة نبى الله إبراهيم لأبيه وليس لذات أبيه- وإنما هو لكل عباد هذا اللون من العبادة- عبادة مظاهر الطبيعة- كما قدم نقدا حقيقياً للتنجيم والعبادات الكونية وذلك؛ ليس نقدا جدليا بل هو وصف تدريجى لمنحنى النفس الداخلى آخذا نقطة بدئه من المحسنات منتهيا به إلى اللامعقول .

والشك الذى أراد نبى الله إحداثه فى نفوسهم حول هذه العقائد ليس إلا طريقة تمهيدية لحكمة أرفع شأنا وهى معرفة الإنسان لنفسه. هذه المعرفة هى التى تميز فينا ثنائيتنا وهى:

* الروح وهى غير مرئية غير أن لها قدرة السيطرة على الجسم.

*والجسم وهو مرئى وخاضع للروح .

كذلك معرفة الإنسان لنفسه التى أراد نبى الله إبراهيم لفت النظر إليها هى التى تحملنا على تأمل المعقول واللامعقول. كذلك تتيح للإنسان الانتقال من الكون إلى الإنسان ثم من الإنسان إلى الكون انتقالا عن علم وبصيرة نافذة وسبيل ذلك كله: هو الوحى الإلهى أساس علم التوحيد .

وقد أفادت المحاورة أن هذه الكواكب ليست شيئا من حيث عبادتها أو الاعتقاد فى أنها مدبرة ولكنها كما قررها القرآن آيات كونية فقط.

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(٢).

---

(١) الآية ٨٣ / ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٣٧ من سورة فصلت .

ويقول الرسول: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان ولا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته» . كذلك درأ القرآن انحرافهم بعلم الفلك إلى علم التنجيم ليستطيع الإنسان من خلاله التنبؤ بمصير الإنسان، فربطوا مثلا: بين الدب الأكبر، والاتحاد بين الناس، وبين إنضاج الثمار والقمر، كذلك مبدأ قراءة المستقبل بالتنجيم: موجود لدى عبادها. ويمكن التنبؤ بالحوادث: من شروقها، وغروبها، وكسوفها، وخسوفها، وفى نظرهم إذا كانت النبوة لها قدرة التنبؤ بالمستقبل، فوسائلهم لها أيضا: قدرة التنبؤ، وهى فى نظرهم: أرهف شفافية، لذلك عرض الإسلام هذا الاتجاه فقرر : أنها ليست محلا للعبادة وليس لها علاقة بمشيئة الإنسان.

فالإسلام لا يقرر ما يقول به علم التنجيم، لأنه يسند كل شئ إلى غير مشيئة الله فلا يمكن أن تجرى الحوادث طبقا لسلطان الكواكب كما يعتقد الصابئة .

وأصبح هذا الرأى: هو السائد بين المسلمين وعقيدتهم، فلم يعد أحد ينظر إلى الكواكب على أنها هى المسيطرة والموجهة للحوادث كما كانت فى علم التنجيم الوثنى بل أصبحت تعد مظاهر كونية وآيات من آيات الله .

وهذه النظرة التى قررها الإسلام تخالف ما كان عليه الصابئة وما كانت عليه اليهودية والمسيحية.

فاليهود يعترفون صراحة بالكواكب على أنها (حكام) استنادا على ما جاء فى سفر التكوين (١ ، ١٤ ،١٦) من أن الله وضع أنوار السماء ليحكم الأرض.

وقد جرى المسيحيون على نهجهم فى هذا الصدد:

وفى هذا المجال نعرض لكلمة : ديلاسى أوليرى فى مقدمة كتابه «الفكر العربى ومكانه فى التاريخ» . والتى يقول فيها :.

والحق أن هذه الفلسفة الإسلامية فى أساسها وفى جوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية، بل إنه حتى علم التوحيد الإسلامى قد حدد وقعد بوساطة منابع هلينية .

ثم يقول: وتظهر أعظم قوة لها فى أنه قد عرض المادة القديمة فى شكل جديد جدة تامة، فهنا مثلا أى تشابه: بين اليهودية والإسلام، أو المسيحية والإسلام فى هذا المقام الذى عرضناه.

ثم نقول أخيراً: أى تشابه بينه وبين الهلينية، التى قررت الوثنية منذ أن بدأ الإنسان اليونانى يفكر من خلال مدارسه الطبعية عندما أجاب على سؤال: م يتكون العالم؟ أمن الماء، أم من التراب، أم من النار، حصر فكره فيها ، ومن هنا تأسست الوثنية التى قررت أن مظاهر الطبيعة صالحة للعبادة حينما أسندت لها قدرة الكون والفساد أو التدبير .

المشكلة الثانية : أن الاتصال بالله لا يحتاج إلى وساطة الوحى:

الوساطة بين الإنسان والله :

أن اتخاذ وسيط بين الله والروح الإنسانية، سمة كل الأديان والمذاهب الروحية القديمة من صابئة ومجوسية ووثنية وشرك، والوساطة قد تتنوع بتنوع المذاهب المختلفة:

* ففى الدين السماوى: تظهر فى الوحى الإلهى فى الإسلام، أو «الكلمة» فى المسيحية، أو اليهودية، وهذه الوساطة لا شرك معها ولا تأثيم، لأنها توجه صاحبها إلى عبادة الله وتوحيده. فالوساطة هنا ليست معبودة، وإنما لها مظهر من مظاهر العبادة: وهو التقديس .

* وفى الفلسفة : تظهر فى العقل الفعال، وبوساطته كان الفيض الإلهى، وهذه فكرة فلسفية ترجع إلى التراث اليونانى، وهذا أول ميل فكرى نحو الشرك المنزه عن المادة .

* والديانات الوضعية فى الشرق: تميل إلى فكرة الوساطة المجسدة، إما فى شكل نار، أو حيوان، أو جمادات، ويشترك مع نزعة الشرق الفلاسفة الطبعيون الأول فى اليونان وذلك حينما اعتبروا العناصر من ماء وهواء ونار وتراب أصل العالم .

فالمظاهر المادية التى رافقت الإنسان فى تفسيره لله وشابت علاقته به كانت أصلا لنشأة الوثنية لأنها اعتبرت مبادئ مدبرة وإلهية لا مادة للعالم .

فالوساطة: إما أن تكون موجهة إلى التوحيد، وإلى السلوك الطبعى للعبادة، وذلك: كالوحى أو الكلمة فلا شرك فيها ولا ميل إلى الشرك .

أما أن تكون الوساطة شركا، أو داعية إلى الشرك، وذلك إذا كان الوسيط يقوم مقام الله أو يشترك مع الله ويقوم الإنسان بعبادته أو يعتقد فيه فى حاجة إلى وسيط .

واضح: أن فكرة الوساطة (الشريك) نشأت بعيدا عن الدين السماوى. وليس ذلك فحسب بل إن الدين السماوى نبذها وحاربها بمختلف وسائل المحاربة.

فالوساطة التى أنشأها الإنسان ليعبدها تجدها نشأت إما فى مجتمع خال من الدين فابتدعها الإنسان تعبيرا عن ميله الفطرى للعبادة، وإما أنها نشأت فى مجتمع حافل بالفكر الذى يكثر القول عن السبب الاسمى، فإن استطاع الفيلسوف تصور قيمة هذه الفكرة، فإن عوام المجتمع سوف يهربون من تلك التصورات المنطقية الجافة ثم يقعون وهم يفرون من فكرة العقل الفعال فى نظر الفلاسفة – فى حوزة الوسيط المجسد– لأن الوصول إليه عسير .

والكائنات التى رشحها الإنسان للعبادة ليست وسطاء بين الله والعالم فقط بل بين الله والنفس الإنسانية المتعطشة للدين حتى إنها – لاستحالة صعودها إلى أعلى وانبهار بصرها من التأمل – لا يسعها إلا الوقوف عند درجة أدنى .

فمذهب الوسطاء ليس مؤداه استحالة خلق الله للعالم بل استحالة وصول النفس مباشرة إلى الله .

وما نستخلصه من وراء مذاهب عبادة الوسطاء وجود الروح الدينية العميقة المتغلغلة فى النفس الإنسانية، وأنها سلكت بالإنسان طريق العبادة وطريق الفكر الميتافيزيقى .

وإذا كان فراغ المجتمع الإغريقى من الدين لم يستطع أن يلغى الإحساس بضرورة الحاجة إلى العبادة،وذلك باستحداثه أنماطا من الوساطات الدينية ليدين لها. وإذا كان الفكر الفلسفى لم يستطع أن يقدم للإنسان شيئا عن الله وعن علاقته به

سوى الدعوة إلى التأمل فقط، وكان في ذلك توسعة لمعنى المقدس، فإن الدين السماوي - «الإسلام» وهو المقدس الحقيقي - هو الدعوة الطبعية والآمنة من فراغ المجتمعات من الدين ولنبذ وثنية الوساطة والشرك التي يحوم حولها عندما يمحى الدين الإلهي منها.

ملاحظات على ما أورده الشهرستاني في المناظرة بين الصابئة والحنفاء:

أورد الشهرستاني مناظرة بين الحنفاء والصابئة وكان لنا عليها ملاحظات:

أولا: أنها خالية من تاريخ زمنها ومكانها فهل كانت أيام بعثة إبراهيم رأس الحنفاء؟هذا الفرض لا نجد له في المناظرة ما يؤيده لأن الشهرستاني ضمنها بيتين من الشعر لزهير:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل

كذلك ضمنها آيات من القرآن.

كما ضمنها اصطلاحات فلسفية .

منها ما يرجع إلى الفكر اليوناني وما يرجع إلى أفلاطون كقوله: إن النفوس كانت في البدء في عالم الذكر ثم هبطت إلى عالم النسيان .

وما يعود إلى أرسطو مثل : الهيولي والصورة والحيوانية الناطقة.ومنها ما هو منسوب إلى مدرسة الإسكندر أو التراث الهليني مثل:

العقل الفعال : ماهيات مجردة من المادة، العقل المستفاد، العقول المفارقة .

ومنها ما هو منسوب إلى اصطلاحات صوفية إسلامية مثل : وما أشرق عليه من الأنوار القدسية : وحيا وإلهاما ومناجاة وإكراما .

ومنها ما هو تأليفات شهرستانية مثل: النفس النبوية - الحيوان الناطق المائت، المتكلم الحنيف، المتكلم الصابئ .

فالمناظرة حوت الكثير من المصطلحات المختلفة من حيث الزمن والمكان ومن حيث الألوان الكفرية ففيها الفلسفى القديم والوسيط والدينى الإسلامى وغيره والعربى وغير العربى .

وهذا مما يجعلنا نميل إلى أنها ثقافة شهرستانية - صياغة وفكرا، ويصبح الاعتماد عليها لبيان أصولها الفكرية مقدوحاً فيه لتصرف الشهرستانى فيها، ولقد صرح بهذا التصرف فقال:

وقد جرت مناظراته ومحاوراته بين الصابئة والحنفاء فى المفاضلة بين الروحانى المحض والبشرية النبوية .

«ونحن أردنا أن نوردها على شكل سؤال وجواب» .

هذا فضلا عما يظهر فيها من التكلف المنطقى الذى يجانب الفكر الشرقى القديم .

ثانيا: ومما يلاحظ - وهو شئ غريب- أن المناظرة خالية من النصوص القديمة التى تمثل صحف إبراهيم. وإن كانت اعتمدت على الجدل المنطقى. فاستوفاها الشهرستانى من كل شئ عدا نصوص من صحف إبراهيم .

ثالثا: لم يذكر الشهرستانى من صاحبها ولا تاريخ نشأتها ولا مكانها وفى المناظرة ما يفيد - من خلال كلام الصابئة أنفسهم وبتصريحهم- أنها تنتسب إلى «هرمس» و «عاذيمون» .

غير أن الشهرستانى وحده - أى : على لسانه هو دون لسان الحنفاء- استبعد أن يكون هرمس من الصابئة، وهذا تصرف جرئ لا يقدر عليه إلا إذا كانت المحاورة من تأليفاته .

رابعا: وفى المناظرة فكر يخدم الفكر الإنسانى من حيث النظرة العامة وفيها: مالا ينفع الحنفاء - حيث إنهم ورثة إبراهيم بل يناقض مذهبهم .

وهذا وقع فيه الشهرستانى وهو يصوغ فكره معتمدا على أسلوبه الفلسفى دون الرجوع إلى مستندهم الحقيقى .

خامسا: ومما ينبغي لفت النظر إليه أن الشهرستانى حاول - وهو غير مسبوق إليها- أن يضع تمييزا بين الحنفاء والصابئة .

ملاحظات على ما ذكره المسعودى عن الصابئة فى كتابه مروج الذهب:

ذكر المسعودى أخبارا عن الصابئة فى موضعين:.

الموضع الأول :

ذكر فيه تاريخا عن أحداث مذاهب الصابئة واسم الملك الحاكم. وذلك فى صفحة ١٦٨ .

الموضع الثانى :

عاود القول عنهم فذكر البيوت المعظمة والهياكل المشرفة للصابئة وغيرها، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بذلك المعنى وذلك فى صفحة ٤٦٧ - ٤٧٠ .

ومما نلاحظ عليه:

أنه قدم معلومات محددة ودقيقة فيها استقصاء لبعض استفهامات يحاول المسعودى وهو مؤرخ أن يثيرها مثل قولهم «هيكل العقل» .

يقول المسعودى متسائلا: وما أدرى آشاروا إلى العقل الأول أم الثانى ؟ وحول هذا الاستفهام الذى يدل على نزعة المسعودى الفلسفية - وهو مؤرخ - يقدم إجابات مسندة إلى مراجعها القديمة .

وعندما أخذ فى شرح الهياكل قدم لنا شواهد كثيرة تؤيد ما يسوقه لنا منها :

- حكاية رجل من ملكانية النصارى من أهل حران يذكر اسمه فيقول: أخذ يعرف بالحارث بن سنباط للصابئة الحرنانيين. وحكى المسعودى أشياء قال عنها: امتنعنا عن ذكرها مخافة التطويل .

- وقدم ما شهده من هياكلهم وحدد السنة التى شاهد فيها هيكل آزر.

– وذكر لابن عيشون الحرنانى القاضى – المتوفى بعد الثلثمائة – قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرنانيين المعروفين بالصابئة .

– وروى شيئا مما أراه فى وصفه فقال: ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حران مكتوبا على مدفنه بالسريانية قولا لأفلاطون فسره مالك ابن عقبون وغيره هو : من عرف ذاته تأله .

وما ذكره المسعودى من مشاهدة العيان يفيد بوضوح الأثر الأفلاطونى فى مبادئ هذا المذهب .

ثم تكلم عن مراجع الصابئة التى قرأ فيها أخبارا عن مذاهب الصابئة الحرنانية.

فمن ذلك كتاب رآه لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى الفيلسوف صاحب كتاب المنصورى فى الطب وغيره: ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرنانيين ودون فيه مذهب الصابئة الحرنانيين منهم دون من خالفهم من الصابئة الكيماريين.

ثم قال: وقد خاطب مالك بن عبقون وغيره منهم بشئ مما ذكرناه وغيره مما عنه كتبنا .. ثم قال ممتحنا ما دونه عنهم :

فمنهم من اعترف ببعض وأنكر بعضا من ذكر القرابين وغيره من الآراء مثل: فعلهم بالثور الأسود .

ومن ذلك أيضا ما قدم روايات تاريخية مسندة إلى روايات سمعها بنفسه أو شاهدها لآثارهم كل ذلك وفق منهجه التاريخى .

وما قدمه عن الصابئة من الناحية التاريخية أمر جديد لم يذكره الشهرستانى– أكبر مؤرخ دينى كتب الكثير عن الصابئة. مثل: بوداسف الذى أحدث مذاهب الصابئة فى فارس وفى الهند: كذا أفاد صلة حران بالصابئة من قديم ما ذكره ابن النديم .

وفى كلامه ما يفيد: صلة المذهب الصابئى بالأفلاطونية .

كذلك ذكر أن للصابئة فلاسفة بيد أنهم حشوية يقول فيهم: إنما أضفناهم إلى الفلاسفة إضافة سبب لا إضافة حكمة .

وخلاصة القول: أن ما ذكره المسعودى يعتبر مصدرا مفيدا عن الصابئة وهو بتقدمه الزمنى والتاريخى على الشهرستانى قدم مادة تاريخية تخدم الباحث فى تكوين تصور ما عن الصابئة وهذا ما لم يتوافر للشهرستانى .

وللمسعودى: كتب فى الدين المقارن- هذا الفن الدينى- نراه كثيرا ما كان ينبه إليها ويحيل القارئ عليها ومنها:

* المقالات فى أصول الديانات .

* الاستبصار .

* الصفوة .

* سر الحياة .

* الدعاوى .

فى هذه الكتب ما يشير إلى عنايته بهذه القضايا على الرغم من أن هذه الكتب مفقودة إلى الآن، غير أننا كنا نلاحظ من خلال النصوص التى كان يذكرها المسعودى فى هذه الكتب أنه كان متخصصا فى تاريخ المذاهب والديانات، واللمحات التى ذكرها لتنبئ عن أصالة ثقافته فى هذا المجال.

الزندقة عند عرب الجاهلية :

يقول جواد على : إن فى كلام أهل الأخبار عن الزندقة، ووصفهم لزندقة قريش إبهاما وغموضا، وخلطا؛ وإذا كان الزنديق هو القائل: ببقاء الدهر، وبعدم وجود عالم ثان بعد الموت ؛ فتكون الزندقة: الدهرية، ويكون الزنديق هو : الدهرى، لقوله بالدهر؛ وبأبدية الكون والمادة. أما القول بالثنوية: بالنور والظلمة، وبالكفر والإلحاد: إنما وقع فى الإسلام بسبب الخلط الذى وقع بين المعنى المفهوم للفظة فى الفارسية القديمة، وفى الفارسية الحديثة، وبالمعنى الذى ظهر للكلمة فى الإسلام،

والذى تحول إلى زندقة بغيضة تحوى العناصر المذكورة والتى كانت تؤدى بمن يتهم بها إلى القتل(١).

وقد ذكر محمد بن حبيب: أسماء زنادقة قريش، فجعلهم أبو سفيان ابن حرب، وعقبة بن أبى معيط، وأبىّ بن خلف، والنضر بن الحارث ومنبه، ونبيه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة.

وذكر أنهم تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة؛ فربط هنا بين الزندقة وبين نصارى الحيرة .

وقد ذهب ابن قتيبة: أيضاً إلى أخذ قريش الزندقة من الحيرة، والذى نعرفه عن المذكورين، أنهم: كانوا من المتمسكين الأشداء بعبادة الأصنام؛ وقد كان أبو سفيان يستصرخ «هبل» على المسلمين يوم أحد، ويناديه : أعل هبل أعل هبل؛ وقد نص على أنه كان من أشد المتحمسين لعبادة الأصنام؛ ولم يذكر أحد من أهل الأخبار أنهم كانوا ثنويين على رأى المجوس، يقولون بإلهين – بالنور، والظلمة – وأنهم تعبدوا للنار، أو تأثروا برأى «مزدك» أو «مانى» الذى أضيف إليه الزنادقة، ولا نجد فى آرائهم المنسوبة إليهم – وفى حججهم فى معارضة الرسول ما يشير إلى زندقة بمعنى ثنوية ، لذلك :

فزندقة من ذكرت لا يمكن أن تكون بهذا المعنى(٢).

وأما ما يراه أهل الأخبار من أخذ زنادقة قريش زندقتهم من الحيرة، أو من نصارى الحيرة، فإن فيه تأييداً لما قلته: من أن الزندقة لا تعنى المجوسية، والثنوية، وإنما القول: بالدهر وإنكار المعاد الجسمانى .

ولنا ملاحظات على ما ذكره ابن قتيبه عن أديان العرب وزندقتهم:

ذكر ابن قتيبه أديان العرب فى الجاهلية فقال:

---

(١) المفصل جـ٦ ص ١٤٦ المعرب ص ١٦٦، اللسان ١٢ / ١٢

(٢) المفصل ص ١٤٧ ، المعارف ص ٦٢١ .

كانت النصرانية فى «ربيعة» و«غسان» وبعض «قضاعة»،

وكانت اليهودية فى «حمير» وبنى «كنانة» و«بنى الحارث بن كعب وكندة».

وكانت المجوسية فى بنى «تميم». منهم زرارة بن عدس التميمى وابنه حاجب ابن زرارة، وكان قد تزوج ابنته.

ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس - وكان مجوسيا، وأبو سودة جد وكيع بن حسان - وكان مجوسيا.

* وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من «الحيرة» وكان «بنو حنيفة» اتخذو لها فى الجاهلية إلها من «حيس» فعبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال رجل من «بنى تميم» شعراً:

أكلت ربها حنيفة من جو ع قـديم ومـن إعواز

ونلاحظ أن المادة العلمية التى قدمها ابن قتيبة غير دقيقة لا من جهة الموضوع ولا من جهة الحصر ولا من جهة تحديد القبائل التى تدين بالدين الذى نسبهم إليه.

فهو أولا لم يعد الصابئة ضمن أديان العرب.

وثانيا: أنه ذكر الزندقة فى أديان العرب.

فأخرج الصابئة وهى داخلة فى أديانهم وأدخل الزندقة وهى خارجة عنهم.

وفى نظرنا يعتبر هو الوحيد الذى ذكر الزندقة، والوحيد أيضا الذى لم يعد الصابئة.

يقول الألوسى:(١)

والذى يظهر أن مراد ابن قتيبة من الزندقة هو الملة التى نسبها إلى بعض العرب الذين اعتنقوا الثنوية أو القائلين بالنور والظلمة بمقتضى قوله: أخذوها من الحيرة فإنها من بلاد الفرس.

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكرى الألوسى ط ٢ ص (٢: ٢٢٨).

وإن كان سكانها وملوكها من العرب المتدينين بدين الفرس أو دين المسيح ولو كان مراده من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية لما كان لقوله (أخذوها من الحيرة) وجه فإن كثيرا من قبائل العرب كانوا كذلك فتعين أن مراده ما ذكرنا.

ثم يقول فى لفظ زندقة: وهو أى: الزندقة اصطلاح جديد ولا مشاحة فيه والزندقة اصطلاح فارسى يرجع إلى العصر العباسى حين اتهم به البرامكة.

يقول ابن قتيبة :

وكذا البرامكة يرمون بالزندقة وفيهم قال الأصمعي:

إذا ذكر الشرك في مجلس ... أضاءت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدك

يقول صاحب لسان العرب:[1]

الزنديق القائل ببقاء الدهر فارسى معرب.

وليس فى كلام العرب زنديق.

وإنما تقول العرب: زندق وزندقى إذا كان شديد البخل .

فإذا أرادت العرب بمعنى ما تقوله العامة قالوا ملحد ودهرى بفتح الدال.

أما معناه فى المسموع فدهرى بضمها.

ويرجع اصطلاح الزندقة إلى (مانى) وذلك أن الفرس حين أتاهم (زرادشت) أتاهم بكتابه المعروف: «بالبستاه» باللغة الأولى من الفارسية وعمل له التفسير وهو: «الزند» وعمل لهذا التفسير شرحا سماه «البازند» وكان الزند بيانا لتأويل المنزل .

ومن أورد فى شريعتهم شيئا بخلاف المنزل الذى هو البستا وعدل إلى تأويل هو الزند قالوا: هذا زندى فأضافوه إلى التأويل وإنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى التأويل وهو بخلاف التنزيل.

---

(١) لسان العرب لابن منظور

فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا: زنديق وعربوه، والثنوية: هم الزنادقة.

قال المسعودى: وألحق بهؤلاء: سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم[1].

ويقول الشهرستاني: ومما اتفقت حوله الأديان والملل: أن للعالم قوة إلهية مدبرة له، بيد أنها لها أسماء شتى:

* تسمىٰ عند «زرادشت» مشا سيد.
* وعند الصابئة : المدبر الأقرب .
* وعند الفلاسفة: العقل الفعال، ومنه فى الفيض الإلهى.
* وعند المانوية: الأرواح الطيبة .
* وعند العرب: الملائكة .
* وفى الإسلام : الله .

ولعل ما لاحظه الشهرستانى : كان موضع تقدير لدى الذين حاولوا توحيد الأديان، وذلك على أساس أن الشعوب المختلفة إنما. تعبد فى الحقيقة الإله نفسه تحت أسماء مختلفة، وأنه يمكن بناء على ذلك توحيد الأسماء، والنحل وهذا الاعتقاد هو ما جعل أنطيوخوس الرابع يعتقد أنه لن تكون هناك صعوبة شديدة تستعصى على إدخال عبادة «زيوس» حتى فى بلاد اليهودية نفسها.

المجوسية أقدم من زرادشت:

وكلمة مجوس من الكلمات المعربة. عربت عن لفظة «مغوس» الفارسية، التى تعنى «عابد النار»، وهى من الألفاظ التى دخلت إلى اليونانية. كذلك حيث وردت لفظة « Magi » فيها وهى. جمع «مجوس» Magus . وقد دخلت إلى لغة بنى إرم أيضاً. ولا ندرى اليوم على وجه صحيح من أى طريق دخلت لفظة مجوس إلى العربية عند الفرس أنفسهم، أو عن اليونانية، أو عن طريق لغة بنى إرم .

ترتد الديانة المجوسية من حيث تشابه عناصرها إلى التراث الهندى وتناقضها مع ديانة جيرانهم الساميين وفى ذلك. يقول دى بورج:

---

(١) مروج الذهب ص ١٧٣ .

في أزمان ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهندية – الأوربية موطنهم الأصلي في أراضي السهوب شمالي قزوين، وهاجر في اتجاه جنوبي شرقي. ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر إلى البنجاب بينما استقر البعض الآخر في شرق الهضبة الإيرانية العضيمة، وفي بواكير السنوات الألف الثانية، يممت هذه القبائل الإيرانية –سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليان آريا وإيران– صوب الغرب إلى المرتفعات التي تحف سهول ما بين النهرين وكلديا، وبعد ذلك بألف سنة، نجد الميديين في الجنوب من بحر قزوين،والبرتيين في خراسان،والبكتريين في منحدرات الهندوكوش الشمالية،والفرس في الجبال التي تشرف على الخليج الفارسي إلى الشمال الشرقي، وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزاً من جهة الهند.

ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب،ولم يكن للبابليين أيام حمورابي عهد به ولكن استخدمه الأشوريون كعدة حرب[١]. ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا. يتناقض تناقضا يسترعي البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل، وكان يختلف أيضا– على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس إلى يومنا – عن دين الآريين ذوي قرابتهم في الهند[٢]. وبينما أخضعت العقيدة الهندية كل الآلهة الأخرى إلى إله أعظم أوحد وجدنا الدين الإيراني له مظاهر ثنائية[٣] وكان مجمع آلهتهم يأتلف حول قوتين لهما السيادة، الواحدة قوة الخير وهي إيجابية ومصدر النور والحياة. والأخرى قوة الشر وهي الظلمة والموت، وهي سالبة، وكانت القوتان تسميان على الولاء، أهورا مزدا (أورمزد) وأهريمن. والصراع خارق العادة ، بين هاتين القوتين الإلهيتين غدا ينعكس في مجرى تاريخ البشر. وبين الاثنين ، ويقف الإنسان وقد وهب الحرية الخلقية التي

(١) كما يدل على هذا الاسم البابلي للحصان «جحش الشرق» .

(٢) بين العناصر المشتركة عبادة ميترا وهو إله الشمس وذابح المارد (أندرا الهندي) وعبادة النار والاعتقاد بشرعة قدر يتوفق على الآلهة والإنسان. انظر ف . كيمون (F. Cumont) ص١ – ٢ (Les mysteres de) وكان وارونا أعظم إله خلقي في مجمع الآلهة الفيدية تطورا موازيا لأهور مزدا ومن أصل آري مشترك .

(٣) ولكن براهما الأعلى في دين التوحيد الهندي كان لا سبيل للوصول إليه وكان الناس مشتاقين إلى استرضاء إلهين أقل شأنا هما سيوا وويشنو .

يتوقف على استخدامها مصيره فى العالم الذى يقع فيما يلى اللحد. وكان الدين الإيرانى ينزع إلى آداب السلوك ولم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود. معانى مجردة تصورية ولكنهم كانوا شخوصاً خلقيين، ولم يكن هدف الجهد الإنسانى الاندماج التألهى فى مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية فى السماء حيث يحكم أهورا مزدا. وما كانت الحياة الإنسانية وما يلازمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للعمل فى همة والقيام بالواجب الخلقى. وفى اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه إلى غاية يكون فيها الخلاص الفردى وليس الخلاص القومى، نجد دين إيران يختلف عن دين العبريين وإن تشابه معه فى تعليمه الخلقى الرفيع.

وكان الفرس يتسامحون مع الديانات المحلية عندما لا تناصب دينها العداء، ومع هذا فإن عقيدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسع إمبراطوريتهم. وفى نقاوته كما نهض به النبى زرداشت، كان دون ريب، عقيدة القلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة وكان من شأنه بين أيدى المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور إلى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعاليمه فى صيغ ديانة ما قبل زرداشت القديمة[1]، وكان مرجع قوته الحقيقية إلى إصراره على المسئولية الخلقية.

زرادشت:

يقول البيرونى: وقد كانت خراسان، وفارس، والعراق، والموصل إلى حدود الشام فى القديم على دين «الشمنية» – نحلة هندية– إلى أن نجم «زرداشت» فى أذربيجان، ودعا ببلخ إلى المجوسية، وراجت دعوته عند «كشتاسب» وقام بنشرها ابنه «اسفنديار» فى بلاد المشرق والمغرب قهرا وصلحا، ونصب بيوت النيران من الصين إلى الروم،ثـم استصفى الملوك بعده فارس والعراق لملتهم فانجلت «الشمنية» عنها إلى مشارق بلخ، وبقى المجوس إلى الآن – زمن البيرونى ٤٤٠– بأرض الهند ويسمون بها «مسك» .

(١) عاش زرادشت على الراجح حوالى عام ٦٥٠ ق.م. وتحوى الأسفار الفارسية المقدسة التى يطلق على مجموعها لفظ أوِيتا، الجاثات وهى ترانيم ربما كتبها النبى نفسه. ويقرب المذهب الزرداشتى من أن يكون توحيدا. وكانت عبادة النار لها شأن عظيم إذ كانت النار أنقى مظهر لأهورا مزدا، ويظهر أن المجوس الأوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل.

وهناك مدرسة واحدة من المدارس الفكرية تنادى: بأنه لم يكن له وجود على الإطلاق، وأقدم تاريخ ذكر هو سنة ٦٠٠٠ ق.م. - وقد تمسك «بيروسبوس» المؤرخ البابلى الذى عاش فى القرن الرابع ق.م. بالرأى القائل بأن: زرادشت: قد ولد حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م. ويميل العلماء اليوم إلى الاعتقاد بأن زرادشت لم يولد قبل ٦٦٠ق. م. واسم زرادشت Zaranstrs هو: الترجمة الإغريقية لـ «زرداثوسترا» الذى ضمنه «نيتشه» في مسرحيته الشعرية المشهورة. كذلك قال: زرداثوسترا، وقد ولد زرادشت في بلاد فارس.

«أفيستا» أقدم نص دينى فارسى. من هنا كان من الصعب بالطبع الجزم بالموقع المضبوط - موطن «زرادشت» وتعاليمه، هل هو «باكتريا» أم «مرغيانا». يرى العالم السوفيتى «مستروفه» : بأن مرغيانا «مرو» والبلاد المتاخمة لها هى الاحتمال الأقوى .

ويرى دليله على فرضه هو: أن «أفيستا» يذكر بلداً هو : «مرو» أى مرغوش بالفارسية، ومرغيانا باليونانية بوصفه البلد الوحيد الذى يتبع أهله قواعد قانونية «آشا» أى أساس الأسس فى تعاليم «زرادشت»؛ وهذا القانون تشخيص للنظام الحقوقى الثابت، والذى ترتكز عليه كل الفضائل. . وهذا القول: لا ينسبه كتاب «أفيستا» إلى أى من البلدان التى يتطرق إليها ما عدا «مرو».

وعلى أساس هذه المعطيات وغيرها يؤكد الأكاديمى «مستروفه» قائلاً: لذا أرى فى هذه الإشارة دليلاً يعزز افتراض بأن «مرغيانا» هى أول منطقة تبنت الجماهير الشعبية فيها تعاليم «زرادشت» . وفى ختام بحثه يقول: وحاولت أن أثبت بأن مرغيانا، والمناطق المتاخمة لها فى آسيا الوسطى كانت موطنا للزرادشتية». وهناك أقوال أخرى لا تزال تفترض فرضيات معاكسة تقول: إن وطن زرادشت هو: بلاد «الميلابين» غربى إيران، حتى أقصى جنوب غربى أفغانستان .

يذهب بعض علماء الآثار إلى افتراض أصل مشترك بين قبائل هضبة إيران الشرقية «تل تيه وبازتيه» وشبه القارة الهندية؛ وذلك أن المكتشفات الأثرية تشير إلى الثنائية الواضحة فى المعتقدات المحلية، وتلك نظرية فلسفية أخلاقية تكاد تكون مطابقة لجوهر تعاليم «زرادشت» ومن معطيات الدراسة لتلك الدراسة استنتج الباحثون الأثريون أن «زرادشت» عاش وأسس تعاليمه فى فترة لا تتجاوز القرن السابع ق. م. ففى هذه

الفترة التاريخية عاش «زرادشت» وعن طريق تعاليمه نشأت الزرادشتية كمذهب فلسفي وأخلاقي وديني.

ويرى علماء الآثار: أن مضمونها يجسد تصورات متطورة جداً للفلسفة الطبيعية. وذلك يقوى افتراضهم أنها لم تنشأ من فراغ، وأن المجتمع الذى نشأت فيه قد قطع شوطاً بعيداً فى تطوره الذهنى فقد كان ثمة أفكار تسبق تطابق ما عليه .

من هنا يرى علماء الآثار أن المبادئ الأساسية للديانة «الزرادشتية» غرفت من مناهل النظرات الفلسفية والأخلاقية المنتشرة قبلها على نطاق واسع فى : «باكتريا ومرغيانا» .

ولما سمح له فى الوقت المناسب بمصاحبة الأرواح، كان فى استطاعة زرادشت أن يوجه أسئلة إلى « أهورا مازدا» نفسه، فلقد تساءل : «فى علم التجسيد، ما هو الشئ الأول فى الكمال، وأيها الثانى وأيها الثالث؟» فرد عليه «أهورا مازدا» قائلاً: «إن أول كمال هو الأفكار السديدة، وثانيها الكلمات الطيبة،وثالثها الأعمال الصالحة»[1] فى بدء رسالته، يبدو أن «زرادشت» قد عاش حياة الناسك.

وعلى شاكلة «يوحنا المعمدانى» نزح إلى البرية، وعاش على لا شئ، اللهم إلا على الجبن والجذور، ثم جاء الإغراء.

قامت الشيطانة «سيندارماد بالتغرير بـ زرادشت، ولم يتم اللقاء فى البرية بل بين أشخاص عاديين قرر زرادشت أن يدرس عاداتهم: «لقد اتجه زرادثوسترا إلى العالم الذى يعيش فيه، عالم الصداقة، مستهدفاً أن يراقب تماماً ذلك الطريق المعبد للوجود التجسيدى. ثم تقدمت الشيطانة – امرأة ذات جسد ذهبى، ناهدة الصدر. لقد طلبت صحبته كما طلبت أن يخاطبها وأن يعاونها» .

ولما كان على علم بأن مفاتنها خداعة تماماً، طالبها بأن تدير ظهرها ولكنها ردت عليه قائلة : يا زاراثوسترا الأستبماسى، حينما نكن، تكن النساء منا جميلات من الأمام، قبيحات بصورة مخيفة من الخلف، فلا تطالبنى بأن أدير ظهرى» ولكنه

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ تأليف ا . و . ف توملين ترجمة عبد الحميد سليم .

أصر، وبعد أن عارضت للمرة الثالثة، وافقت على أن تدير ظهرها، عندئذ خرجت منها سلالة كريهة من الثعابين والضفادع البرية والسحالى وأم الأربع والأربعين، والضفادع البحرية. على أن المحنة الحقيقية جاءت فيما بعد فى صورة هجمات شيطانية عليه، من بينها كان إيلاج رصاص مصهور فى معدته، ولكن لم يفلح شئ فى زعزعة إيمانه فى عدالة الإله الذى تمتع بصحبته أعنى (أهورامازدا). وأخيراً كمكافأة له على تعبده الرواقى أهداه «أهورامازدا» شخصيا بكتاب الحكمة السماوية الذى سمى فيما بعد باسم «أفيستا Avesta» وكان هذا هو الإنجيل الذى كان يحلم به وهو صبى. وبذا صار للمبعوث الآن إنجيله. وبرغم أن تبشيره قد لقى فى بادئ الأمر أذنا صماء؛ لأن الفرس كان لديهم بالفعل آلهتهم وطقوسهم الطبيعية- إلا أن «زرادشت» قد بدأ بالتدريج فى اجتذاب مهتدين، وعندما قرر فى النهاية أمير فارسى يد عى «فيشتاسبا Vishtaspa »، أو هيستاسبس Hystspes أن يعتنق العقيدة الجديدة بدأت حركة تحول دينية قوية، لأن هذا الأمير أعلن على الفور عن نيته فى نشر العقيدة الزارادشتية فى أرجاء مملكته، ولكن خليفة «قمبيز» وكان يعتقد فى آلهة الماجيين القدامى Old Magingods سعى لاستئصال شأفة الديانة الزرادشتية، ولكن باعتلاء «داريوس الأول» العرش فى سنة ٥٢١ ق.م أعلنت العقيدة الزرادشية ديانة رسمية للفرس. ويعتقد بعض المؤرخين أن الأمير «هيستاسبس» الذى كان أول من صادق زرادشت – لم يكن إلا والد «داريوس» وإذا صح هذا القول فإن هذا ينهض دليلاً على أن زارادشت قد ولد فى أقدم تاريخ عزى إليه[1] .

* كانت آلهة الفرس السابقة لعصر «زرادشت» تحمل شبهاً كبيراً لتلك الآلهة الواردة بالكتب المقدسة الهندية Vedas . وفى الواقع لقد كان كثيراً ما ينادى العلماء الهنود بأن الأفستا Avesta – تكاد تدين بكل تعاليمها الأساسية للفيداس بما فى ذلك اسمها. لقد كان «البانثيون Pantheon أو مدفن عظماء الآلهة يضم إلهين عظيمين:

ميثرى Mithre – إله الشمس–، وأنيتا Anaita – إله الأرض والخصوبة، وقد تأكدت أهمية عبادة الخصوبة أكثر من ذلك بعبادة هاووما Hama الإله الثور، الذى

(١) – المرجع السابق ص ١٤٩ ص ١٥٠ تأليف أ. و. ف تولمين .

كان من المفروض أن دمه يهب الخلود لمن شربه. لقد كان عشب «هاووما» أول ما حلت به روح زرادشت فى رحلتها البعيدة نحو مولده. ولما كانت الهاووما موجودة بصورة خاصة فى الجبال لذا كانت لها خصائص مخدرة، وكانت عبادة الإله الثور تتمثل فى شرب عصير النبات باعتباره مماثلاً للدم الذى يهب الحياة.

ومن المحتمل أن يكون إله الهند «سوما Soma » مثل الهاووما. ونجد أيضا بين هؤلاء الناس القدامى آثاراً واضحة لعبادة السلف: ديانة ترك اختفاؤها فى الأزمنة المتحضرة فراغاً يملؤه مثل تلك الأمور البديلة المجردة مثل القومية، العقيدة الوحيدة التى قدمها الغرب للشرق.

لقد ذكرنا أن الكتب الزرادشيتة المقدسة التى بقيت أعنى الأفستا والنصوص البهلوية تصعب قراءتها على الدارس الغربى، ولا شك أن السبب فى هذا هو أنه لا يكاد يكون هناك شئ فى الأدب الغربى يمكن مقارنته بها. والواقع هو أن النصوص التى بقيت لا تعدو أن تكون أجزاء من مجموعة كبيرة جداً من الكتب المقدسة[1].

مضمون العقيدة :

إن ما يبدو أن «زرادشت» قد فعله هو : تنقية عبادة الخصوبة من مظاهرها الخشنة. ولا شك أن زرادشت حاول أن يمنع أبناء وطنه من عبادة «الهاووما»[2].

فهنا نجد أنه قد ورد بوضوح ذكر جوهر علم اللاهوت الزرادشتى الذى هو صراع على مستوى العالم بين قوى الخير والشر، النور والظلمة «أهورامازدا»، وأهريمان Ahriman الشيطان الوحيد .

وبدلاً من كونه الطوفان قد بعث به الله كجزاء وعقاب كما جاء فى سفر التكوين نجد أن الكارثة الزرادشتية قد خططتها بدقة قوى الظلمة للإطاحة بـ«أهورامازدا» . ويشكل صراع الريح والماء فحسب خلفية لصراع ثنائى هائل بين أهورامازدا، وخلفائه من ناحية «وأهريمان» من ناحية أخرى. ولم يكن إلا عن طريق ما وهب به تيستار Tistar » إله النجوم من «قوة عشرة جياد قوية وعشرة جمال قوية،

(١) أ. و. ف توملين فلاسفة الشرق ص ١٥٠ ، ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٢ ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥ بتصرف .

وعشرة ثيران قوية، وعشرة جبال وعشرة أنهر» إلى أن دبرت قوى الخير أن تكون لها السيادة بالفعل [١].

الخير والشر:

ونجد في «زاد - سبارام» رواية رمزية غامضة عن الخلاف المتأصل بين: «أهورامازدا» و«أهريمان» ونحاط علماً في كلمات تذكرنا بسفر التكوين القديم أنه في بداية الزمن «كان النور فوق والظلمة تحت، وبين هذين الاثنين فراغ مكشوف» وقد سكن «أهورامازدا» مملكة النور كما سكن «أهريمان» مملكة الظلام. وفي الوقت الذي كان فيه «أهورامازادا» على علم بوجود «أهريمان» وقدومه للصراع لم يكن «أهريمان» مع ذلك على علم بمملكة النور التي فوق رأسه. وذات يوم في أثناء تسكعه في الظلام، خرج «أهريمان» مصادفة من المناطق السفلية وإذا به يرى شعاعاً من النور ونظراً لاختلاف طبيعة ذلك الشعاع في اعتقاده «جاهد أهريمان للوصول إليه» حتى يمكن أيضاً أن يدخل في نطاق نفوذه المطلق: عند ذلك اقترب «أهورامازدا» من الحدود [٢].

ولو رجعنا إلى الوصايا العشر العبرية لوجدنا أن ثمانية من بنودها من النواهي والتعاليم الزرادشتية برغم ما تضمنته من النواهي والمتناقضات في لاهوتيتها، إلا أنها في مجموعها إيجابية في وصاياها [٣].

أما عن أن هدف زرادشت الرئيسي فكان بالأحرى تنقية العقيدة التقليدية لأبناء وطنه لا الإطاحة بها، فتشير إليه عدة أصول، فقد كان «مثرى» إله الشمس، وهو أبعد من أن يطرد، يعبد على أنه نار سماوية، كما كان يمتدح في معظم الأناشيد الزرادشتية و«هاووما» الثور وتماماً مثلما لم يكن مسموحاً لأتباع زرادشت بأن تكون لهم معابد، فكذلك كان محظوراً عليهم أن تكون لهم أصنام [٤].

وهنا نجد عبارة طويلة عن الإقلاع عن شئ واتجاها بصورة خاصة إلى التخلص من نفوذ الشياطين: «من بعيد أنا أنكر الشياطين وكل من تتملكهم: العرافين، وكل

(١) المرجع السابق ص ١٥٢، ص ١٥٤، ص ١٥٥ بتصرف.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٧، ص ١٥٨.
(٣) السابق ص ١٥٩.
(٤) المرجع السابق ص ١٦١.

من يصدقون أساليبهم، وكل كائن حي موجود ينهج نهجهم. إنني أنكر أساليبهم، كما أنكر كلماتهم وأفعالهم، وذريتهم التي تفشي خطيئتهم، إنني أنكر رعايتهم كما أنكر رئاستهم.

ويقال أحياناً بأن زرادشت في توكيد سمو أهورامازدا كان يقصد إنكار حقيقة الشياطين[١].

زرادشت وكتاب الأفستا :

إن الديانة الفارسية من حيث لاهوتها، ومن حيث المستوى الخلقي الأدبي لا تضاهيها ديانة أخرى من ديانات العالم القديم باستثناء الديانتين اليهودية والمسيحية. وهي ديانة تفضل الديانات التي كانت تدين بها بلاد ما بين النهرين ومصر واليونان، ومؤسس الديانة الإيرانية الوطنية التي كانت تدين بها السلالة الأخمينية إلى الدولة الساسانية، كان زرادشت وهو مصلح ديني من ميديا توفي حوالي ٦٠٠ ق.م. وقد اكتنفت حياته هالة من الأسرار والأساطير. وكان الدين الجديد الذي بشر به عميق الجذور في المعتقدات الشعبية الإيرانية التي لم تكن تختلف عن المعتقدات الشعبية عند قدامى الهنود. وكتاب الزرادشتية المقدس ويعرف بكتاب الأفستا، من أقدم الكتب الأدبية في بلاد فارس، وهو مجموعة أقوال قديمة تعزى إلى النبي زرادشت، وتراتيل دينية ترتل عند تقديم الذبائح وصلوات وشرائع كهنوتية وطقوس عبادة جوهر الديانة الزرادشتية تقوم على ثنائية تجسد المبدأين المتضادين مبدأ الخير ومبدأ الشر، أو مبدأي النور والظلام، ويمثل هذين المبدأين إلهان كبيران- أهورا مازدا (أو رمازد) وضده أهريمان؛ والمبدآن الخير والشر مبدآن يتصفان بقوى مبدعة خالقة، ويذكرنا الإله اهورامازدا بالإله العبري يهوه بوصفه إلهاً كلي المعرفة، كلي الوجود، غير مخلوق، مبدعاً لكل ما هو نقي وحي، وأما ضده أهريمان فيذكرنا بالشيطان على ما نعرفه في العصور التالية. والزرادشتية تتصور الحياة أنها صراع دائم بين هاتين القوتين، قوة الخير وقوة الشر[٢].

---

(١) المرجع السابق ص ١٦١ ، ص ١٦٢ .

(٢) خمسة آلاف سنة جـ١ ص ٩٤ .

وأما النصر النهائي فلمبدأ الخير، وواجب المؤمن الديني والخلقي أن يقوم بكل عمل من شأنه مساعدة قوة الخير لكي تنتصر على قوة الشر، وجميع أفكار الإنسان وأعماله وأقواله مكتوبة في سجل الحياة لتقابل يوماً بأعماله الشريرة وبخطاياه التي لا يمكن الإغضاء عنها أو منحه المغفرة عن واحدة منها. وعندما تفارق الروح الجسد تقاد إلى ما يسمونه -جسر الحساب- الذى يتحتم على نفس المرء أن تعبره لتدخل ملكوت السماء. وإذا رجحت كفة ميزان الأعمال الصالحة التي علمها الإنسان في حياته سمح له أن يعبر الجسر، وإلا فإنه يهوى من على الجسر إلى جهنم.

وفكرة الجسر تشبه الميزان عند المصريين القدماء ومن بعدهم الصراط عند المسلمين. لأن فكرة الحياة الثانية بعد الموت كما هي في القرآن الكريم، وكما هي في العهد الجديد والتي تتوقف على الأعمال الصالحة التي يقوم بها المرء في الحياة الدنيا أقرب إلى أن تكون فكرة وثيقة الصلة بكتاب الأفستا عند الفرس وكتاب الموتى عند المصريين، منها أن تكون فكرة مستمدة من العهد القديم؛ أما تحريم حرق الجثة أو دفنها، وتركيز العبادة حول النار المقدسة على المذابح تلك التي أصبحت فيما بعد هياكل للنار المقدسة فهي أمور دخلت الزرادشتية وتطورت في عصور تالية. أما الشهادة التي يطلب إلى معتنق الديانة أن يؤديها فتشهد على مبلغ سمو مستوى الشريعة الخلقية في ديانة زرادشت. يقول الداخل في الدين «أقسم أني منذ اليوم أمتنع عن اللصوصية، وسرقة الماشية، والنهب وتدمير القرى التي تخص المؤمنين من عباد مزدا وأعد أرباب البيوت المقيمين مع ماشيتهم في أية بقعة من بقاع الأرض أن لا أتعرض لهم بسوء، وأن يتجولوا أني يشاؤون ويقيموا أنّي يشاؤون دون أني يزعجهم أحد، وبكل خشوع رافعاً يدي إلى السماء إلى آشا- أقسم على هذا، ومنذ الآن أعد بأن لا أجلب الخراب والدمار على القرى المزدية حتى إن كان ذلك للأخذ بثأر قتيل. وأعترف أني من عباد مزدا وتابع من أتباع زرادشت ومن المؤمنين بهما. كما أومن بالأفكار النافعة والأقوال الحكيمة والأعمال الصالحة» وآخر عبارة في هذا القسم هي شعار الديانة الزرادشتية[1].

---

(١) Zenaide A. Ragazin, Medaia, Balybon and persia, P. 111

وأيضاً خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى جـ١ ص ٩٦

بعد دخول الإسلام بلاد فارس فى العقد الثالث من القرن السابع للميلاد ولم يبق من أتباع زرادشت سوى عدد قليل جداً. وقد بقيت من أولئك القلائل الذين لجأوا إلى مدينة بومباى أو إلى ضواحيها جالية إلى يومنا هذا تعرف بجماعة البارسى أى الفرس- تخلت عن كثير من المعتقدات الدينية القديمة التى تدور حول أهريمان وبذلك أصبحوا من أصحاب التوحيد[1].

وهذه الديانة لا تجيز عبادة الأصنام أو احترام الأوثان مطلقاً،ولا تقر إلا بإله واحد أزلى سرمدى أبدى ليس له شريك فى الملك ومنه الأمر وإليه يرجع،ويسمون «الله»: « أورمزيد. أو - هرمز أو هرمس» والإله «إيزد» ، ويعتقدون بخلود النفس وبعالم آخر بعد الموت يكون فيه العقاب والثواب، ولكن يعتقدون بأن الله خلق مع الخلق قوتين عظيمتين:

اسم أولاهما: يزدان مصدر الخير.

واسم الثانية: أهرمن مصدر الشر.

فجميع الخيرات والشرور فى هذه الدنيا ينسب إلى هاتين القوتين ويفسرهما حكماؤهم بالعقل والنفس.

وهم يبجلون ويعظمون كل الأقمار والكواكب والنجوم وجميع النيرات المضيئات بقولهم: إنها مظاهر الأنوار الأبدية ولاسيما الشمس فإنهم يتعاونون فى تعظيمها لاعتقادهم فيها أنها مصدر النور والحرارة، وهما أصل مادة الحياة وأعظم وساطة عند الله تعالى، وأكبر مظهر من مظاهر الله، ولولاها لما وجد كائن حى فى العوالم التى تحت نظامها.

ويوجد فى كتبهم أخبار متعددة عن ظهور مجدد ومصلح جديد ويوجد لهذا المصلح علامات فى تلك الكتب ينطبق البعض فيها صراحة على أحوال حضرة صاحب الرسالة (الرسول) ، والبعض جاء تلميحا وتأويلا[2].

---

(١) نفس المرجع السابق جزءاً وصفحة.

(٢) يراجع: مفتاح باب الأبواب زعيم الدولة الدكتور ميرزا محمد مهدى خان رئيس الحكماء الإيرانى والأذربيجانى التبريزى نزيل مصر ط ١ مطبعة مجلة المنار سنة ١٣٢١.

والمجوس إنما يعظمون النار لمعان فيها منها: أنها جوهر شريف علوى. ومنها: أنها ما أحرقت إبراهيم.

ومنها: ظنهم أن التعظيم لها ينجيهم فى «المعاد» من عذاب النار.

وبالجملة: هى قبلة لهم: ووسيلة وإنارة.

ومن عجيب الأمر أن فارس المقدسة لو كانت فى عصرنا لدلت العلماء على آبار البترول التى تغذيها، فالنار كان وراءها سر عجيب وهو البترول كم أفنت تلك النار آبارا.

يقول الشهرستانى: ولقد كان فى كل أمة من الأمم قوم مثل الإباحية والمزدكية والزنادقة والقرامطة وكان تشويش ذلك الدين منهم وفتنة الناس مقصورة عليهم[1].

ويقول فيليب حتى: عبدة النار (المجوس) من أتباع زرادشت[2]. هى أصفى وأطهر العناصر المخلوقة لاعلى أنها هى الخلاق المعبود.وقال مشيرا إلى أن المجوسية سابقة على كون زرادشت قد استخلص من أخلاط المجوسية وسطا بين العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الإلهية الحديثة[3].

ويقول الشهرستانى : فارقا بين المجوسية والحنفية .

إن الحنفية هى الملة الكبرى والشريعة العظمى وذلك هو الدين القيم.

والتوحيد من أخص أركان الحنفية ولهذا: يقترن نفى الشرك بكل موضع ذكر فيه الحنيفية «حنيفا» وما كان من المشركين.

ويقول:

* ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ... ﴾

(١) راجع الملل والنحل (١٩ :٢١٦) كذلك يراجع للمسعودى مروج الذهب (١ :١٧٢) .

(٢) تاريخ سورية (٢ :٩٩)

(٣) الله - للعقاد (ص ١٠٩ : ١١٠) .

* الآية ٣١ من سورة الحج .

ثم إن الثانوية اختصت بالمجوس الذين أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين. يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد. يسمون أحدهما: النور والآخر الظلمة ، وبالفارسية : يزدان وأترامان.

ومسائل المجوسية كلها تدور على قاعدتين اثنتين:

إحداهما: بيان سبب امتزاج النور والظلمة .

والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة.

وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا[1] .

وقد أصاب الشهرستانى حين قال: إن هذه الثنوية هى ألزم سمات المذاهب المجوسية لأنها تتراءى فى كل مذهب منها بلا استثناء. وهى كذلك أبقى منها فى مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء لأننا نرى منها ملامح اليونان[2] .

المجوسية والعرب:

وقد عرف علماء اللغة بأن لفظة «مجوس» من الألفاظ المعربة. وقد ذهبوا إلى أنها معربة عن الفارسية القديمة، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم فى أصل اللفظة وفى بيان معناها؛ وذهبوا فى ذلك مذاهب.

وإذاصح ما ورد فى شطر بيت منسوب إلى الشاعر الجاهلى: التوأم اليشكرى المعاصر لامرئ القيس، هو «كنار مجوسى تستعر استعاراً» فإن فيه دلالة على أن هذا الشاعر هو وامرؤ القيس كانا على علم بنار المجوس، وكان مجوس اليمن من الفرس الذين ارسلهم كسرى لطرد الحبش من اليمن فهم وأبناؤهم كانوا على هذا الدين. دين الإمبراطورية الفارسية، ولما ظهر الإسلام نبذ هؤلاء المجوسية، واعتنقوا الإسلام .

وأما مجوس عمان، وبقية أنحاء العربية الجنوبية فقد كانوا من الفرس كذلك، وأما مجوس البحرين فقد كانوا أكثر عدداً، وأكبر نفوذا من إخوانهم فى عمان لقرب

---

(١) الشهرستانى - الملل والنحل (١ :٢١٢)

(٢) الله - للعقاد ص ١١٩ .

هذه الأرضين من إمبراطورية الساسانيين، ولهجة الفرس من السواحل المقابلة، ومن طريق الأبلة الساحلي[١].

وقد عرف عالم المجوس ورئيسهم الروحي عند العرب بـ «الموبذان» وعرف كبيرهم بـ «موبذان موبذ» ؛ وجعل بعض العلماء «الموبذان» بمنزلة قاضي القضاة للمسلمين؛ والموبذ بمنزلة القاضي .

وقد فسر المسعودي لفظة «الموبذ» بمعنى حافظ الدين، ورجع أصلها إلى «مو» بمعنى دين في رأيه؛ و«بذ» بمعنى حافظ .

ورأى اليعقوبي: أن «الموبذان» بمعنى عالم العلماء. وقد ذكر الألوسي أن صنفا من العرب عبدالنار وقال عنهم : وهم أشتات من العرب، وكأن ذلك سرى إليهم من الفرس والمجوس[٢].

وإلى النعمان تشير الروايات متحدثة عن قصة تلقبه بالسائح فتذكر أنه جلس يوماً في مجلسه من الخورنق فأشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان مما يلي المغرب. وعلى الفرات مما يلي الشرق وهو على متن النجف في يوم من أيام الربيع فأعجبه ما رأى من الخضرة والنور والأنهار فقال لوزيره وصاحبه: هل رأيت مثل هذا المنظر قط؟ فقال: لا، لو كان يدوم . قال: فما الذي يدوم؟ قال: ما عند الله في الآخرة. قال فبم ينال ذاك؟ قال بتركك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده. فترك ملكه من ليلته ولبس المسوح وخرج مستخفياً هاربا لا يعلم به.

وقد يكون في هذه القصة تفسير لاعتناقه النصرانية وتفكره بخلق الله وعزوفه عن العبادة الوثنية. وهناك روايات تنسب تنصره إلى غير هذه القصة فتقول: إنه تنصر بتأثير القديس سمعان العموري الذي كان يقوم بالتبشير للمسيحية بين أهل الحيرة، وإن سمعان هذا شفاه ببركته من مرض كان به فتنصر[٣].

---

(١) المفصل جـ٦ ص٦٩٢، ٦٩٣، غرائب اللغة ص ٢٦٩ .

(٢) السابق ص ٦٩٥، واللسان ٥١٣/٣ .

(٣) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ١٨٢، ص ١٨٣، الطبري الجزء الثاني ص ٦٧، جواد علي الجزء الرابع ص ٤١ .

وقد خلف المنذر الأول (٤١٨ -٤٦٢) أباه النعمان على العرش وكانت له منزلة رفيعة عند كسرى الفارسى يزدجرد حتى إنه على ما يذكر الطبرى شرفه وأكرمه وملكه على العرب وحباه بمرتبتين سنيتين تدعى أحداهما رام أبزوذيزدجرد وتأويلها «زادسرور يزدجرد» والأخرى تدعى بمهشت وتأويلها «أعظم الخول» وأمر له بصلة وكسوة بقدر استحقاقه لذلك فى منزله. وقد فوّض يزدجرد المنذر بحكم جميع الأرض - أرض العرب[1].

والمنذر بن امرئ القيس المعروف بابن ماء السماء (٥١٢ - ٥٥٤) هو أول المشهورين من ملوك الحيرة المناذرة اللخميين. وماء السماء هو لقب أمه مارية بنت عوف بن جشم ينتهى نسبه إلى النمر بن قاسط. وقد لعب المنذر هذا دوراً بارزاً فى الحروب التى قامت بين فارس وبيزنطة فى عصره. ففى سنة ٥١٨ قام كسرى الفارسى قباذ يطالب الإمبراطور البيزنطى جوستين الأول بدفع الأتاوة التى قبلت بيزنطة بدفعها لفارس فى الصلح الذى عقد بينهما عام ٥٠٦ - ولما تباطأ جوستين بدفع الاتاوة قام المنذر بتحريض من قباذ بالهجوم على الممتلكات البيزنطية فى سورية سنة ٥١٩[2].

وفى أيام المنذر وقع الاحتلال الحبشى لليمن- فاتسع بذلك نفوذ الروم فى بلاد العرب، وذلك لما يربط الأحباش بالبيزنطيين من روابط ودّ أساسها تدينهما بدين واحد، وفى سنة ٥٤٥ وقعت فارس وبيزنطة هدنة جديدة مدتها خمس سنوات. ولكن هذه الهدنة لم تؤد إلى توقف المناوشات بين الحارث بن جبلة- الذى كان قد عين ملكا على عرب الشام- والمنذر بن ماء السماء[3] وتمكن المنذر فى إحدى المرات من أسر ابن الحارث فقدمه للإله العزى.

ولعل من المهم قبل أن نختم هذه الصفحة المشرقة من تاريخ دولة المناذرة التى خطها المنذر بن ماء السماء بدمه وعصبه أن نشير إلى النزاع الذى قام بينه وبين الكسرى الفارسى قباذ من أجل الذهب المزدكي.

(١) المرجع السابق ص ١٨٣ ، ص ١٨٤، الطبرى جـ٢ ص ٦٩، جواد على جـ٤ ص ٤٤

(٢) نفس المرجع ص ١٨٦ .

(٣) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ١٨٧ بتصرف .

وتفصيل الأمر أن قباذ (٤٨٨-٥٣١) كان يحكم فى فترة اضطربت فيها الأحوال فى فارس وزاد تسلط كبار الملاك ورجال الإقطاع، ففكر فى طريقة يضع فيها حداً لتسلطهم وما يمثلونه من خطر حتى على ملكه بالذات فوجد أن خير ما يفعل هو نشر تعاليم مزدك بين أتباعه وأهل مملكته فإذا انتشرت هذه المبادئ كانت كفيلة بالقضاء على الأغنياء ورجال الدين المتنفعين. وكان مزدك وأصحابه يقولون:

«إن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتأسى،ولكن الناس تظالموا فيها وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء، ويردّون من المكثرين على المقلين،وأنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره فافترص السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا - أى عاونوا- مزدك وأصحابه وشايعوهم،فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم» .

وفى هذا الوصف لمذهب مزدك الذى يقدمه الطبرى شرح لآرائه التى كانت تقوم على الاعتقاد بأن الغيرة والحقد والتنافس بين الناس منشؤها شيئان هما: المال والنساء، فإذا جعلنا هذين الشيئين مشاعاً بين الناس زالت هذه المساوئ التى تفرقهم وتخلق الفتن بينهم. وقد تبع الكثير من العامة هذا المبدأ فقوى وازدادت قوته بانضمام قباذ إليه. وطلب قباذ من المنذر أن يعتنق المزدكية فرفض المنذر ذلك فغضب قباذ وعزل المنذر عن ملك الحيرة، وكان ذلك على ما يقرر جواد على بعد مناقشات طويلة فى سنة ما تقع بين (٥١٥ و ٥٣١).

وقد لجأ المنذر بعد عزله إلى القبائل العربية فى الصحراء، وظل لاجئا عندهم حتى توفى قباذ وملك بعده ابنه أنوشروان الذى قاوم المزدكية وعارضها منذ حياة أبيه[١]. فأعاد المنذر إلى ملك الحيرة.

كان قباذ حين عزل المنذر، قد ولّى عرش الحيرة الحارث بن عمرو الكندى- من كندة- وقد عزله أنوشروان بعد وفاة قباذ، وأعاد العرش إلى صاحبه الأول، ويعلق جواد على هذه القضية بقوله:

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٨، ص ١٨٩ .

« وليس بمستبعد في نظرى أن تكون هذه القصة قصة دخول الحارث الكندى في المزدكية، ومتابعته دين قباذ من وضع أهل الحيرة المعادين لكندة؛ وضعوها وألصقوها بالحارث الكندى لتكون سبة له وعاراً عليه، وعلى كندة. لهذا العمل الذى قام به تجاههم، وهم كما نعلم يكرهون هذا الكندى، وينكرون تولية الحيرة، ولا يدخلون اسمه فى قائمة ملوك الحيرة. كما صرح بذلك ابن الكلبى.

يقول ابن قتيبة: وكانت المجوسية في تميم، ومنهم زرارة ابن عدس التميمي، وابن حاجب بن زرارة، وكان تزوج ابنته ثم ندم. ومنهم: الأقرع بن حابس؛ وكان مجوسياً، وأبو سودة جد وكيع بن حسان، وكان مجوسياً.

قال أبو حاتم: إن المجوسية لم تكن فيهم – العرب– على ما ذكره الرواة وقالوا : سمى (دقتوس) باسم ابنة كسرى وتزوجها فعيره بذلك أهل بيته .

فقال: أليست حلالا فى دينى؟ ثم ندم على ذلك وأنشأ يقول:

لحـــا الله دينك من أغلف ... تحل البنات لنا والخـــوات

أحشت على أسرتى ســـوءة ... وطـــوقت جيلى بالمخزيات

وأبقيت فى عقبى ســـــنة ... مشاتم تحيا بعيد الممات[1]

ثم قال: ولم يتمجس منهم أحد قبل.

ويقول: ويقال: إن المجوسية كانت فى بنى تميم.

ويقول: وروى عن أبي عمرو بن العلاء أن نسرا كان صنما لبعض حمير وكانوا فيما يزعمون مجوسا.

(١) وقال أبو حاتم الرازى وهو الشيخ أحمد بن حمدان الرازى المتوفى سنة ٣٢٢هـ . وفى كتابه الزينة فى المصطلحات الإسلامية عارضه وعلق عليه حسين بن فيض الله الهمدانى اليعبرى سنة ١٩٥٦ .

وذكر مراجعة: المعارف لابن قتيبة ٢٢٩ .

الشعر والشعراء : ٤٤٦ .

العقد الفريد : (١ :١٧٤)

أعلام النبوة للماوردى . ص ١٦٨ سنن أبى داود فى الخراج عن محمد بن المسكين والذخائر عن عبد الله ابن عباس ٣١٣ .

وهم الذين ذكروا فى كتاب الله ..﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (النمل ٢١ ، ٢٤) .

ويقال أن بقايا المجوس الذين كانوا باليمن والبحرين منهم.

علاقة الإسلام بهم:

سنن أبى داود: عن ابن عباس رضى الله عنه قال:.

كان رجل من الإسبنديين من أهل البحرين[1]– وهم مجوس– هاجر إلى رسول الله فمكث عنده ثم خرج.

فسألته ما قضى الله ورسوله فيكم؟

قال: بِشَرٍّ.

قلت: مه.

قال: الإسلام أو القتل.

قال: وقال عبد الرحمن بن عوف: قبل منهم الجزية.

قال ابن عباس: فأخذ الناس بقول عبد الرحمن وتركوا ما سمعت أنا من الأسبندى، (الأسبنديون منسوبون إلى بلدة بهجر بالبحرين) .

وقيل الكلمة فارسية ومعناها: عبدة الفرس وكانوا يعبدون فرسا، والفرس فى لغة الفرس: أسب.

وفى حديث آخر عن عمر بن أوس:

فرقوا بين كل ذى محرم من المجوس.

ثم قال: وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحرمه فى كتاب الله.

مرويات لم تحقق:

---

(1) بعث رسول الله العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام وكتب إليه كتابا. فكتب إلى رسول الله يقول: وإنى قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحب الإسلام وبأرضى مجوس ويهود . . (طبقات ابن سعد).

عن ابن عباس قال: إن أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس كتابا.

القدرية والمجوس:

قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤ :٨٥) من حديث أبي هريرة. قال:.

القدرية مجوس هذه الأمة .

قيل: إنما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم المجوس في قولهم بالأصلين وهما: النور والظلمة .

يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة.

وكذا القدرية: يضيفون الخير إلى الله، والشر: إلى الإنسان والشيطان، والله تعالى خالقهما معا لا يكون شيء منهما إلا بمشيئة الله فهما مضافان إليه خلقا وإيجادا وإلى الفاعلين لهما: عملا وكتابا.

المشركون والمجوس:

«الذين أشركوا»

قال: الألوسي: هم المجوس: ووصفوا بالإشراك لأنهم يقولون بالنور والظلمة[١] .

النيسابوري على هامش الطبري يقول[٢] .

ومن الذين أشركوا عبدة النار وهم المجوس.

لماذا كان حاجب بن زرارة هو الذي تمجس؟

يقول صاحب السيرة الحلبية[٣] .

لما أجدبت أرض تميم «بدعاء» النبي ﷺ عليهم ذهب سيدهم حاجب بن زرارة والد عطارد رضي الله عنه إلى كسرى ليأخذ منه أمانا لقومه لينزلوا ريف العراق لأجل المرعى. فقال له كسرى: أنتم قوم غدر وأخاف على الرعايا منكم .

فقال له حاجب: أنا ضامن أن لا نفعل شيئا من ذلك.

فقال له كسرى: ومن لي بوفائك؟

(١) روح المعاني (١ :٢٧٠). (٢) (١ :٩٧).

(٣) ص (١ : ١٠).

قال: هذه فرسى رهينة .

فحمقه كسرى وجلساؤه وضحكوا منه .

فقال له: العرب لو رهن أحدهم شيئا فلا بد أن يفى به .

فكانت بنو تميم تعد ذلك القول من مفاخرها.

وأورد البلاذرى فى فتوح البلدان. قال: أخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر. ومجوس أهل اليمن وفرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل وامرأة دينارا. هذه روايات تفيد أن المجوسية هى دين زرادشت فى المفهوم العربى.

وأما الروايات التاريخية الخاصة بتمجمس حاجب بن زرارة فهى من وجهة نظرى غير صحيحة لأننا تتبعنا كلمة وفد بنى تميم بين يدى الرسول فما وجدنا ما يشير من قريب أو من بعيد إلى نسبة المجوسية إليهم أو نسبتهم إليها سواء أكان القول قول خطيبهم أم كان القول قول حسان بن ثابت.

وإذا كنّا رفضنا الرواية الخاصة بحاجب بن زرارة فإنا لا نمنع أن يكون بين قومه من تمجس، ولا سيما أنهم كانوا من غسان وهم ملوك الشام وهم وسط الأعاجم. يقول حسان:

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ولا تلبسوا زيا كزى الأعاجم

وجاء فى كلمة وفد بنى تميم ما يفيد ذلك على لسان الزبرقان (من أسماء القمر) حيث قال:.

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

يقال عن الزبرقان إنه كان يرفع بيتا من عمائم وثياب وينضحه بالزعفران والطيب، وكانت بنو تميم تحج ذلك البيت، قال الشاعر وهو المخبل السعدى وأيمه كعب بن ربيعة :

وأشهر من عوف جلولا كثيرة

حنفاء العرب رواد الثقافة الهلينستيه

يقول خودا بخش: كان العرب -كما يبدو يقدسون آلهتهم فيحجون إلى أماكنهم المقدسة ويقدمون الأضحيات في معابدهم ويخضبون بدماء هذه الأضحيات الهياكل المصنوعة من الأحجار أو الخشب ويستجيرون بكهنتها في وقت الشدة ويسألونهم عما يخبئه المستقبل، ولكن كان ذلك تظاهرا وتصنعا فلم يكن هناك، شعور بإيمان حقيقي.

يقول دوزى: كان العربي يبدى غضبه لأقل شئ على الآلهة ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم فيسخر منهم.

ومن هذه المظاهر التي لوحظت عليهم وضح لنا: أن عرب ما قبل الإسلام كانوا في حالة قلق ديني عاجزين عن الوصول إلى ما هو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم، ويمارسون عبادة الأوثان ولكن بدون شعور بإيمان حقيقي، ووجود المسيحية واليهودية بينهم أبرز حالة القلق الديني وأدى ببعض منهم إلى تحويل أفكارهم من الوثنية إلى أفكار أسمى وسعوا في طلبها.

وسنقدم عدة نماذج من الذين سخطوا على أوثانهم وكان وراء هذا السخط بعض الخطوات الفكرية ومن أهم ما نشير إليه من تلك الخطوات الفكرية «عدم معقولية الإله أو المعبود» وهذا المعنى: يفيده موقف الساخطين ولازم أيضا للذين تشككوا في أوثانهم ورغبوا عنها إلى ملة سماوية.

سحب الثقة من عبادة الأصنام:

أولا: موقف الساخطين على الأوثان:

١- ذو الخلصة وامرؤ القيس:

لما أقبل امرؤ القيس بن حجر، يريد الغارة على بني أسد، مر بذي الخلصة، وكان صنما بتبالة، وكانت العرب جميعا تعظمه، وكانت له ثلاثة أقداح: الآمر، والناهي، والمتربص، فاستقسم عنده ثلاث مرات:

فخرج الناهي، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم، وقال:

لو كنت ياذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

لو كان أبوك هو الذى قتل ما توانيت عن الثأر، ثم غزا بنى أسد فظفر بهم .

فلما فتح رسول الله مكة وأسلمت العرب ووفدت عليهوفودها قدم عليه جرير ابن عبد الله مسلما فقال له: يا جرير ألا تكفينى ذا الخلصة؟ فقال: بلى. فوجهه إليه، فخرج حتى أتى بنى أحمس من بجيلة فسار بهم إليه فقاتلته خثعم، وباهلة دونه فقتل من سدنته ومن باهلة يومئذ مائة رجل وأكثر القتل فى خثعم وقتل مائتين من بنى قحافة بن عامر بن خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذى الخلصة. وأضرم فيه النار فاحترق، وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة .

٢- سعد:

وكان لمالك وملكان ابنى كنانة صنم يقال له: سعد، وكان صخرة طويلة، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها فلما أدناها منه نفرت منه وكان يهراق عليها الدماء، فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه وأسف فتناول حجرا فرماه به وقال: لا بارك الله فيك إلهاً نفرت علىَّ إبلى. ثم خرج فى طلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد، فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد

٣- وقال أوس بن حجر يحلف باللات:

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

٤- وقال بعضهم حين وجد الثُّعْلُبَان بال على رأس صنمه:

إله يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ويروى: «أربٌ» بدل «إله» وقال شاعر:

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إعواز

وقال آخر:

أكلت حنيــفــة ربهــا   زمن التــقــحم والمجــاعــه
لم يحــذروا من ربهـــم   ســوء العــواقب والتــبــاعــه[1]

ثانيا: المتشككون فى أوثانهم:

الحنيفية:

ما معنى الحنيف؟

فى معنى الحنيف أقوال:

١- هو المائل عن الأديان كلها قاله ابن عباس.

٢- أو المائل عما عليه العامة. قاله الزجاج.

٣- أو المستقيم، قاله بن قتيبة.

٤- أو الحاج، قاله ابن عباس وابن الحنفية.

٥- أو المتبع، قاله مجاهد.

٦- أو المخلص، قاله السدى.

٧- أو المخالف للكل، قاله ابن حجر.

٨- أو المسلم، قاله الضحاك.

٩- قالوا: فإذا جمع الحنيف مع المسلم فهو الحاج أو المختتن.

١٠- أو الحنف هو الاختتان وإقامة المناسك وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات.

روى أبو حيان المفسر[2] عشرة أقوال متقاربة فى المعنى.

وإنما خص إبراهيم بالإمامة لما سنه من مناسك الحج والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام مما تبتدئ به إلى قيام الساعة.

وصارت الحنيفية علما مميزا بين المؤمن والكافر.

---

(١) الأصنام ص ٤ هامش، وتاج العروس مادة ث . ع . ل . ب.

(٢) البحر المحيط(١ :٤٠١) وقال الراغب الأصفهانى (١ :٢٩٠) على هامش النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير.

وسمت العرب: كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها أنه على دين إبراهيم .وابن الأثير فى كتابه السابق أورد معانى أخرى فقال: خلقت عبادى حنفاء: أى طاهرى الأعضاء من المعاصى، وقيل أراد أنه خلقهم حنفاءمؤمنين لما أخذ عليهم الميثاق« ألست بربكم قالوا بلى» فلا يوجد أحد إلا وهو مقر بأن له ربا وأن أشرك به واختلفوا فيه: والحنفاء جمع حنيف وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه .

الحنيف عند العرب: ما كان على دين إبراهيم .

وسمى الحنيف من ابتعد واستقام على هديه وسمى المنكث عن ملته بسائر أسماء الملل. فقيل: يهودى، ونصراني، ومجوسى وغير ذلك من ضروب الملل.

والآراء الكثيرة المذكورة تتجه وجهتين:

وجهة الاتجاه اللغوى عند العرب، وتعنى: المائل أو المخالف.

والوجهة الثانية اصطلاحية: وتعنى من اتخذ وجهته نحو إبراهيم دينا، من حيث التوحيد أو شريعة من اختتن أو شعائر الحج. ومن حيث المنهج الإسلامي: سوى القرآن بين الحنيفية والإسلام والفطرة.

يقرر الشهرستاني[1]: أن الصبوة في مقابل الحنيفية فيقول: وكانت الفرق في زمان إبراهيم راجعة إلى صنفين اثنين: حنفاء وصابئة.

ومدار مذهب الصابئة: التعصب للروحانيين.

والصابئة تدعى: أن مذهبها هو الاكتساب.

ومدار مذهب الحنفاءهو: التعصب للبشرية الجسمانيين.

والحنفاء تدعى: أن مذهبها الفطرة.

وكانوا يقولون: إنا نحتاج فى المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد فوق الروحانيات:

ويماثلنا فى البشرية .ويمايزنا: فى الروحانية .

ويتلقى الوحى بطرف الروحانية، ويلقى إلى النوع الإنسانى بطرف البشرية .

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ[2]﴾.

وقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا[3]﴾.

ولقد قررها: إبراهيم، وأطلق عليها: الملة الكبرى، والأنبياء بعده أطلقوا على دينهم: وصف الحنيف، ولا سيما القرآن، فالتوحيد: كان من أخص أركان الحنيفية، ولهذا يقترن عدم الشرك بكل موضع ذكرت الحنيفية فيه.

(١) الملل والنحل ص ٦ جـ ٢ . (٢) (سورة الكهف آية ١١٠)
(٣) (سورة الإسراء آية ٩٤)

قال تعالى: ﴿ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. (سورة النحل آية ١٢٣).

وقال: ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾. (سورة الحج آية ٣١).

والصابئة بمذهبها الروحي وعمقها التاريخي تضع أمامنا مشكلة وهي:

كيف عرف الإنسان الاتجاه الروحي - وهو أعقد من الاتجاه المادى؟ أعرف بالعقل؟ أم بالوحى؟ وهل الإنسان فكر أولا ماديا أو روحيا؟

يجيب الشهرستانى فى المناظرة بين الصابئة والحنفاء: أنهم عرفوه أى الاتجاه الروحى من الأنبياء[1].

بعد ما قلناه عن معنى الحنيفية نرجع إلى الحنفاء الشاكين فى أصنامهم فنقول: إن التعدد فى الأصنام، والأنصاب، وإنشاء البيوت المقدسة لها، كى يزاحم بها الكعبة، مع نظرات الساخطين عليها، إلى وجود المسيحية، بجانب اليهود، وأشتات من الصابئة، ولاجئين من المجوس، كل ذلك: حفلت به الجزيرة العربية وله آثاره الواضحة فى خلق آفاق جديدة من التفكير لدى بعض أفراد أداهم ميلهم العقلى إلى تقويم ما حولهم من وثنية واضطلعوا بعبء مسئولية التفكير فيها.

قال الشافعى فى الأم: فكانت المجوس يدينون غير دين أهل الأوثان،ويخالفون أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى بعض دينهم،وكان أهل الكتاب اليهود والنصارى يختلفون فى بعض أحكام دينهم.

ويقول: الشيخ مصطفى عبد الرازق معلقا:

وكان هذا الجدل يتناول بالضرورة شئون الألوهية والرسالة والبعث والآخرة والملائكة والجن والأرواح،،يدعو إلى الموازنة بين المذاهب المختلفة فى تلك الشئون. وقوى أمر هذا الجدل الدينى فى ذلك العهد حتى تولدت نزعة ترمى إلى تلمس دين إبراهيم أبى العرب[2]. وبذلك تسرب الشك فى الأصنام والأوثان إلى نفوس العرب.

قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به، وكان ذلك عيدا لهم فى

---

(١) راجع ما سبق فى باب الصابئة.

(٢) التمهيد ص ١٠٣ .

كل سنة يوما. فخلص منهم أربعة نفر نجياً ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتمن بعضكم على بعض.

قالوا : أجل وهم :

ورقة بن نوفل، عبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو ابن نفيل(١).

فقال بعضهم لبعض:«تعلموا والله ما قومكم على شئ لقد اخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شئ» فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش: فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانيا، وكان عبيد الله بن جحش حين تنصر يمر بأصحاب رسول الله وهم هنالك من أرض الحبشة فيقولون.

فقحنا أى أبصرنا وصأصأتم: أى تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده.

قال صاحب الروض: أن قيصر الروم كان قد توج عثمان وولاه أمر مكة،فلما جاءهم بذلك أنفوا من أن يدينوا للملك،وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى ألا إن مكة حى لقاح لا تدين، فلم يتم له مراده.. قال: وكان يقال له البطريق ولا عقب له ومات بالشام مسموما سمه عمرو بن جفنة الغسانى الملك .

---

(١) ذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب: أسماء أناس من العرب دعوا قومهم إلى الله ونبهوهم على آياته فى زمن الفترة كقس بن ساعدة، ورياب الشنى وبحيرا الراهب وكان من عبد القيس.

وأما زيد بن عمرو: فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم ونادى قومه يعيب ما هم عليه.

ثم خرج إلى الشام يسأل عن الدين؟ ويتبعه فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم وقال إنى لأحب أن أدين بدينكم فأخبرونى فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا وإنى أستطيعه فهل تدلنىَ على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا .

قال: وما الحنيف؟

قال : دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد فلقى عالما من النصارى فذكر له مثله فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضب الله شيئا أبدا وإنى أستطيع فهل تدلنى على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا.

قال : وما الحنيف؟

قال دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم خرج فلما برز مع ولديه قال اللهم إنى أشهد أنى على دين إبراهيم.

وفى حديث البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت: رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيرى. وكان يحيى الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أكفك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها.

ومن الشعر يقول زيد بن عمرو بن نفيل:

أربا واحــــــدا أم ألـف رب أدين إذا تقــســمت الأمــور
عـزلت اللات والعزى جـمـيـعا كـذلك يفـعل الجلد الصـبـور
فـلا عـزى أدين ولا ابنيـتـهـا ولا صنمى بنى عـمـرو أزور
ولا هبــلا أدين وكـــان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى يسـير
عـجبت وفى الليـالى مـعـجبات وفى الأيام يعـرفـهـا البـصـير
بأن الله قـــد أفنى رجـــالا كـثـيـرا كـان شأنهم الفـجـور
وبينا المرء يعـشـر تاب يومـا كـمـا يتـروح الغـصن العطير
ولكن أعـبـد الرحــمن ربى ليـغـفـر ذنبى الرب الغـفـور
فـتـقـوى الله ربكم احـفظوها مـتى مـا تحـفظوها لا تبـوروا
تـرى الأبـرار دارهـم جـنــان وللكفـار حـامـيـة سـعـير
وخـزى فى الحـيـاة وإن يموتوا يلاقـوا مـا تضـيق به الصـدور

وقال مما ذكره أبو الفرج:

أدين إلها يستجار ولا أرى أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا

ومما سبق نلحظ أن هؤلاء الأربعة خرجوا عن الوثنية ثم بعد ذلك تفرقوا إلى وجهات مختلفة غير وجهة الوثنية. وكانت لهم وجهة نظر فى اطراح الوثنية هى: أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع، وهم إذ يقولون هذا يخرجون عن وصف قطعة الحجر أنها كذلك، غير أنهم لم يبحثوا فيما وراء ذلك من مشكلات دينية، وعلى الرغم من أنهم لم يستهزئوا بالدين استهزأوا بالإله المصنوع من حجر وغيره، فإن من الواضح أن فكرة وجود إله مغاير لما عليه الأصنام كانت تؤرقهم غير أنهم لم يبحثوها ولو من ناحية تحقيق حاجاتهم الدينية التى كانوا يحسون أن ما هم عليه لا يحقق رغبتهم فيها ولا سيما بعد ما بدا لهم أن آلهتهم تعتبر غريبة على هذا العالم.

ولقد رأوا أن عليهم اختيار دين آخر مما هو منتشر بينهم. فمنهم من اتخذ سبيل المسيحية والبحث كورقة، ومن تحير إلى أن تنصر ومات كعبيد الله بن جحش ومن وقع فى براثن السياسة فأهلكته كابن الحويرث، ومن قال: «كذلك يفعل الجلد

الصبور» فتحسس المسيحية واليهودية إلى أن وقع هواه على الحنيفية دين أبيه إبراهيم. كزيد بن عمرو .

«وسمى هؤلاء المفكرون بـ (الحنفاء) ولكنهم لم ينتظموا فى طائفة ولم يرتبطوا برباط واحد ولم يشتركوا فى عبادة واحدة معينة ثم ظهر الصابئة الذين كانوا يسمون أيضاً الحنفاء.

وقد نبذ هذان النوعان من الحنفاء: اليهودية والمسيحية وآمنوا بدين إبراهيم وكانت تعاليمهم فطرية يسيرة تتفق مع سلوك العرب .

ولتصبح الحنيفية دين العرب كانت في حاجة إلي تعاليم محددة وتنظيم قوى وطقوس دينية وكتاب سماوى ولما كانت الحنيفية تعوزها الأسس السماوية التى تجذب الإنسان فإنها لم تتمكن من الانتشار بحيث تصبح دين العرب.

وخلاصة القول: أن الإسلام منح العرب عقيدة التوحيد فى أنقى صورها غير متأثرة بغيرها وأشعرهم بمسئوليات الحياة وقضى على الفساد الاجتماعى من جذوره وحطم حياتهم الانعزالية وجعلهم رسل الحضارة.

ولا نجد ما يعبر عن خلاصة هذا البحث خيرا مما قاله الأستاذ براون وهو: «فقد رأينا فى موقعة «ذى قار» علاقات تدل على حيوية العرب العظيمة وشدة بأسهم بينما كان جيرانهم ينظرون إليهم على أنهم كميات مهملة بشكل غير مألوف كما كانوا فى عصر ما قبل الإسلام»[1] .

أما الإسلام ذلك القانون الإلهى الفريد الذى لا يستطيع أى متعلم منصف أن ينكر عظمته فقد جعل العرب يأخذون نصيبا كبيرا من أسباب العظمة والمجد ويؤدون دورهم فى الحضارة على خير وجه.

بعد ذلك نحب أن نذكر بعض التعليقات حول بعض الأسماء التى أطلقت على ذلك النفر من بعض كتب السيرة فبعضها أطلق على هؤلاء النفر «حنفاء» والبعض الآخر أطلق عليهم لفظة «المتحنثين».

فمن ناحية كلمة «حنفاء» يجوز إطلاقها عليهم من جهة المعنى اللغوى أى الذين خرجوا على دين قومهم.

---

(١) حضارة الإسلام ص ٣١ صلاح الدين جودا أبخش ترجمة على حسنى الخربوطلى.

ومن ناحية المعنى الاصطلاحي نراه يشملهم جميعا من باب قصدهم.فهم قصدوا جميعا- عند ما انسحبوا من عبادة الأوثان ودين قومهم - الحنيفية.أو من باب التغليب أي لما كان منهم من انتسب إلى الحنفاء سموا جميعا بالحنفاء لأن الذي اعتنق الحنيفية بعد أن بحث عنها واحد منهم فقط.

أما من ناحية: أهل الحنث.

حنث في اليمين: أي نقضها.

قال الجوهري: بلغ الغلام الحنث: أي بلغ المعصية أو الطاعة .

وفيه أن الرسول كان يأتي حراء فيتحنث فيه: أي يتعبد فيه.

يقال فلان يتحنث: أي يفعل فعلا يخرج به من الأثم والحرج.

ومنه حديث حكيم بن حزام: أرأيت أمورا كنت أتحنث بها في الجاهلية.

أي أتقرب بها إلى الله.

ومنه حديث عائشة: ولا أتحنث إلى نذري. أي لا أكتسب الحنث وهو: الذنب والإثم .

ومنه : تكثر فيهم أولاد الحنث أي: أولاد الزنا.

ما عرضناه من معان لكلمة «الحنث» هو معان صالحة لإطلاقها على أهل الحنث. فهم حنثوا أي: نقضوا ما تواعدوا عليه وهو طلب الحنيفية ثم لم يطلبها غير واحد .

وبعضهم بلغ بحنثه (عبادته) المعصية ولا سيما ما كان من بعضهم عندما ترك الحق واتبع السياسة فأهلكته، والبعض الآخر بلغ بحنثه الطاعة،وكلهم طلبوا أمورا صالحة في نظرهم لتعبدهم،وكلهم فعلوا فعلا خرجوا به من الإثم إلى الطاعة بحسب اجتهادهم.

وهكذ أوقفتنا معاجم اللغة- كما رأينا- أمام حشد من المعاني دون تنبيه منها يبين متى نشأ المعنى الاصطلاحي للفظ أو متى نقل من معناه اللغوي إلى معناه المذهبي.

وقد وردت لفظة «حنيفاً» في عشر مواضع من القرآن الكريم[1]. ووردت لفظة «حنفاء» في موضعين منه[2]. وبعض الآيات التي وردت فيها: آيات مكية، وبعضها مدنية. وقد نصَّ في بعض منها: على «إبراهيم» وهو على الحنيفية؛ لم ينص في مواضع منها على «اسمه».

وقد وردت لفظة «حنفاء» في : سورتين فقط[3]،وهما من السور المدنية. وقد لخص الفخر الرازي، والطبرسي: آراء العلماء في الحنيفية، وأجملاها في تفسيرهما للآية الكريمة. قوله تعالى:. ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فقالا : وفي الحنيفية أقول:.

أحدها- أنها: حج البيت. عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد.

ثانيها- أنها: اتباع الحق . عن مجاهد.

ثالثها- أنها: اتباع «إبراهيم» فيما يأتي به من الشريعة، التي صار بها إماماً للناس بعده، من الحج والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام.

رابعها: أنها الإخلاص لله وحده، والإقرار بالربوبية، والإذعان للعبودية.

يقول جواد علي ونلاحظ أن أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة، وعلم واضح بأحوال «الحنيفية» ؛ وبآرائها، وقواعد أحكامها وأصولها،وأنهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة، ولا سيما: «رهبنة النصرانية»[4]. فأدخلوا فيها من يجب إخراجهم عنها. لأنهم: كانوا نصارى، على ما يذكره: نفس أهل الأخبار في أثناء تحدثهم عنهم. ومن هؤلاء: «قس بن ساعدة الإيادي،وورقة بن نوفل ، وعثمان ابن الحويرث».

فقد نصوا نصوصاً صريحة على : أنهم كانوا من العرب المتنصرة؛ ثم نجدهم مع ذلك : يدخلونهم في جملة «الأحناف».

---

(١) انظر سورة البقرة آية ١٣٥، سورة آل عمران آية ٦٧، ٩٥ ، والنساء آية ١٢٥، والأنعام آية ٧٩، ١٦١ ، ويونس آية ١٠٥ ، والنحل آية ١٢٠ ، والروم آية ٣٠ .

(٢) - أنظر سورة الحج آية ٢٣١ . سورة البينة آية ٥.

(٣) الهامش السابق.

(٤) المفصل ص ٤٥١،٤٥٢،٤٥٣ مجمع البيان جـ١ ص ٢١٥، التفسير الكبير جـ٤ ص ٨٩ .

وللمستشرقين بحوث فى أصلها، ومعناها، وفى ورودها عند العرب قبل الإسلام، ومنهم من يرى: أن اللفظة من أصل «إرمى» وقد كانت معروفة عند النصارى؛ وأخذها الجاهليون منهم؛ وأطلقت على القائلين «بالتوحيد» من العرب – على أولئك الذين ظهروا فى اليمن خاصة، ونادوا : «بالتوحيد وعبادة الرحمن» وهى : ديانة «توحيد» ظهرت بتأثير اليهودية، والنصرانية. غير أن أصحابها لم يكونوا «يهودا، ولا نصارى»؛ وإنما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين[1].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن اللفظة من أصل «عبرانى» وهو: «تحينوت». Thinath . أو من «حنف» Tnef. ومعناه: «التحنث» فى العربية. وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهّاد.

وقال «نولدكه»: إنها من أصل «عربى»، وهو : «تحنف» على وزن «تبرر» وهى: من الكلمات التى لها معانٍ دينية. ويلاحظ أن: السريان يطلقون لفظة «حنف» على «الصابئة». وقد وردت لفظة «حنف» فى النصوص العربية الجنوبية بمعنى: «صبأ» أى: مال وتأثر بشئ ما.

وعندى: أن لفظة «حنيف» هى فى الأصل بمعنى «صابئ» . أى: خارج عن ملة قوم ، وتارك لعبادتهم. ويؤيد رأيى هذا: ما ذهب إليه علماء اللغة من أنها: من الميل عن الشئ ونزله، ومن ورودها بهذا المنعى فى النصوص العربية الجنوبية؛ وبمعنى «الملحد»– المنافق، الكافر– فى لغة بنى«إرم»؛ ومن إطلاق: المسعودى ابن العبرى.لهذه اللفظة على «الصابئة». ومن ذهاب «المسعودى» إلى : أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة .

وقد أُطلقت على: «المنشقين» على عبادة قومهم، الخارجين عليها كما أطلق أهل مكة على: «النبى» ﷺ وعلى أتباعه «الصابئ»، «الصباة». فصارت علماً على: من تنكر لعبادة قومه، ،خرج على الأصنام.

ولهذا نجد الإسلام يطلقها فى بادئ الأمر على: نابذى عبادة الأصنام، وهم الذين دعاهم بأنهم على دين «إبراهيم».

---

(١٢) المفصل جـ٦ ص ٤٥٣ .

ولما كان التنكر للأصنام هو: عقيدة الإسلام، لذلك صارت مدحا لمن أطلق عليهم تلك اللفظة لازماً[١].

وقد عدّ بعض المستشرقين: «الحنفاء» شيعة من شيع «النصرانية» وعدّوهم نصارى عرباً زهاداً، كيفوا النصرانية بعض التكييف، وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها.

وقد استدلوا على ذلك: بما ورد من تنصر بعضهم؛ وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم أن المراد بهم شيعة من شيع «النصرانية»[٢].

غير أن : «القرآن الكريم» قد نص نصاً صريحاً على أن: الحنفاء لم يكونوا يهوداً، ولا نصارى، وأنهم ينتمون في عقيدتهم إلى: «إبراهيم» .

ثم إن : الإخباريين– وإن أدخلوا في الأحناف أناسًا نصوا على أنهم كانوا نصارى – إلا أنهم نصوا في الوقت نفسه نصًا صريحًا على أن : البقية الباقية كانت واقفة، لم تدخل في «يهودية»، ولا «نصرانية». وإذا وجدت في كل ديانة من الديانتين أموراً جعلتها تتريث. فلم تدخل في إحداهما، وبقيت مخلصة لسنة إبراهيم. لذلك : فلا يمكن اعتبار «الأحناف» «نصارى» خلصاً، أو شيعة من الشيع «النصرانية» .[٣]

وجلّ هؤلاء الأحناف هم: من أسر معروفة، وبيوت يظهر أنها كانت مرفهة، أو فوق مستوى الوسط بالنسبة إلى تلك الأيام. ولهذا صار في إمكانهم الحصول على ثقافة، وعلى شراء الكتب، وقد كانت غالية الثمن إذ ذاك لنيل العلم منها.

كما صار في إمكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتصاص المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة إلى تلك الأوقات مثل: العراق، وبلاد الشام. وقد اتصلوا –كما يزعم أهل الأخبار– فعلاً برجال العلم والدين فيها، وتحادثوا معهم، وأخذوا الرأى منهم. ومن يدرى فلعلهم قرأوا عليهم الكتب، وفي جملتها كتب اليونان، أو ترجمات كتبهم بالسريانية فحصلوا نتيجة لذلك على علم بمقولات اليونان، وبآرائهم في الفلسفة والدين والحياة.

---

(١) المفصل جـ٤ ص ٤٥٤.

(٢) السابق جزءاً وصفحة .

(٣) السابق. ص ٤٥٦ .

وقد تكون بعض الآراء المنسوبة إليهم- والتى ترجع إلى أصل يوناني- قد قالوها من أخذهم لها من تلك الكتب، ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء فى أثناء وجودهم فى العراق، وفى بلاد الشام[1].

وقد ذهب «ولهوزن» إلى أن: الأحناف هم من النصارى، وإن حركتهم حركة نصرانية، وإنهم كانوا القنطرة التى توصل بين النصرانية والإسلام. غير أن ما لدينا من معارف عن الأحناف لا يكفى لإبداء رأى كهذا الرأى. وللتسليم بمثل هذا القول ينبغى لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً،ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لنتمكن من التوصل إلى رأى علمى فى هذا الشأن[2].

وقد أدخل «المسعودى»: بعض الأحناف فى جماعة «أهل الفترة» ممن كان بين «المسيح ومحمد» - عليهما السلام- ومن أهل «التوحيد» ممن يقر بالبعث. ثم قال: وقد اختلف الناس فيهم، فمن الناس من رأى: أنهم أنبياء - ومنهم من رأى غير ذلك[3].

وقد ذكر من بينهم: «حنظلة بن صفوان، وخالد بن سنان العبسى، ورئاب الشنى، وأمية بن أبى الصلت، وقس بن ساعدة الإيادى، وعبد الله بن جحش الأسدى، وبحيرا الراهب».

ومن هؤلاء من كان على النصرانية، وقد نص: المسعودى على ذلك[4].

والرجال الذين قال أهل الأخبار عنهم أنهم: كانوا على دين، وكانوا من «الأحناف» هم: «قس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبى الصلت، وزهير بن أبى سُلْمَى، وخالد بن سنان، وكعب بن لؤى». وغير هؤلاء كثير ذكرهم المسعودى[5].

وقد اقتصر محمد بن حبيب على ذكر بعض من تقدم، حين تكلم عن أسماء الذين رفضوا عبادة الأصنام؛ فذكرهم على النحو الذى نذكر بعضه: «عثمان ابن الحويرث، ورقة بن نوفل، زيد بن عمرو بن نفيل، عبيد الله بن جحش». وذكر منهم من تنصر ومات على النصرانية.

مثل «عثمان ، وورقة، وعبيد الله».

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٤٥٨.

(٢) السابق جـ٦ ص ٤٦٠.

(٣) السابق جـ ٦. ص ٤٦١ ، ، مروج الذهب جـ١ ص ٧٨.

(٤) المفصل جـ٦ ص ٤٦٢، مروج الذهب جـ١ ص ٧٨ .

(٥) المفصل جـ٦ ص ٤٦٣. والمروج جزءا وصفحة.

وأما قس بن ساعدة؛ فقد رفعه الإخباريون من مصاف أسوياء البشر، ووضعوه في صف المعمرين، الذين عاشوا مئتين من السنين قبل سبع مئة سنة أو أقل من ذلك. غير أنه لا يقل عن ثلاث مئة سنة على كل حال[1].

وقس هو: مخترع؛ أوجد للعرب أشياء عديدة- على زعم أهل الأخبار- أحدث لهم أمورا كثيرة: فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ عند خطبته على سيف أو عصا، وأول من علا على شرف، وأول من قال «أما بعد» وأول من قال: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر». فكل ما عرفه العرب من مثل هذه الأمور هو من صنعة قس وعمله. ثم إنه كان أحد حكماء العرب وخطيبهم كافة. كما ذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب؛ لأن الرسول-ﷺ- روى كلامه، وموقفه على جمله الأورق بعكاظ، وموعظته، وعجب من حسن كلامه، وقال فيه: «يحشر أمة وحدة».

وذهب «شبرنكر» : إلى أن : قسًا كان من «الركوسية» وهم: فرقة عرفهم أهل اللغة بأنهم: بين النصارى، والصابئين، شملت جماعة من الحائرين فى أمر دينهم؛ ولذلك عمدوا إلى: السياحة، والترهب، والإنزواء، وقد حسبهم العرب نصارى فأدخلوهم فيهم فى أثناء كلامهم على هؤلاء[2].

وجميع هذا القصص المروى عن «قس» هو من النوع الذى يحتاج إلى تمحيص.

(أ) زيد بن عمرو بن نفيل:

هو: زيد بن عمرو بن نفيل بن رياح بن عبد الله، ينتهى نسبه إلى غالب بن فهر. فهو من «قريش». ولم تعجبه عبادة قومه، فانتقدها، وهزئ منها، ووقف فلم يدخل فى «يهودية» ولا «نصرانية» وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة وامتنع عن الذبح للأنصاب، ومن أكل الميتة، وما ذبح على النصب.

وترجع إحدى الروايات: سبب خروج «زيد» على عبادة قومه أنه حضر يوماً، وحضر معه في ذلك اليوم: ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث- عيداً من أعياد قريش عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه، ويعكفون

---

(١) السابق جـ٦ ص ٤٦٥، المؤتلف والمختلف ص ٣٣٨ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٤٦٧

عنده، وينحرون له فلما خلا بعضهم إلى بعض، وتصادقوا قالوا: ليكتم بعضكم على بعض واتفقوا على ذلك؛ ثم قال قائلهم: تعلمون والله ما قومكم على شئ، لقد أخطأوا دين «إبراهيم» وخالفوه؛ وما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم؛ فإنكم والله ما أنتم على شئ.

فخرجوا يطلبون، ويسيرون فى الأرض يلتمسون أهل الكتاب[1].

وقد زار «زيد» الشام، والبلقاء، وعاش إلى خمس سنين قبل البعثة فهو: من أولئك الرهط الثائرين على قومهم، والذين أدركوا أيام الرسول؛ وقد نسبوا إليه شعراً فى تسفيه عبادة قومه، وفى فراقه دينهم، ومالقيه منهم، كان قد أوذى لمقالته هذه فى دين قومه؛ حتى أكره على ترك مكة والنزول بـ «حداء» وكان «الخطاب بن نفيل» عمه. وقد وكل به شباباً من شباب قريش، وسفهاء من سفهائهم كلفهم ألا يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعه من الاتصال بأهلها مخافة أن يفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحد منهم على فراق ما هم عليه، واضطر زيد إلى المعيشة فى هذا المحل معتزلاً قومه إلا فترات كان يهرب خلالها سراً ليذهب إلى موطنه ومسكنه؛ فكانوا إذا أحسوا بوجوده هناك آلموه وآذوه[2].

وقالوا إنه التقى فى أثناء أسفاره هذه بأ حبار من اليهود، وبعلماء من النصارى. ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه، وما يرى فيه التوحيد الخالص، ومبادئ إبراهيم. لذلك لم يدخل فى ديانة ما من هاتين الديانتين حتى قتل.

وهناك روايات أخرى تفيد رجوع «زيد» إلى قومه بعد عودته من الشام، ووفاته وفاة طبيعية لا قتلا بيد إنسان، ودفن بأصل حراء[3].

(٢) عبيد الله بن جحش:

هو : «عبيد الله بن جحش بن رئاب بن أسد بن عبد العزى بن قصى».

وقد بقى مرتاباً فى دين قومه ، بعيداً عنهم وعن عبادتهم. حتى إذا ظهر الإسلام: دخل فيه؛ ثم هاجر مع من هاجر إلى الحبشة، ومعه امرأته «أم حبيبة» بنت

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٤٦٩ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٤٧٠

(٣) المفصل جـ٦ ص ٤٧١، بلوغ الأرب جـ٢ ص ٢٥١ .

أبي سفيان، وكانت مسلمة كذلك. فلما صار في الحبشة فارق الإسلام، وتنصر وهلك هناك(١).

(٣) عثمان بن الحويرث.

وأما عثمان هذا: فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم، ثم رأى الذهاب إلى الروم، فذهب إليهم، وتقرب إلى قيصر، وحسنت منزلته عنده، وتنصر ومنحه لقب «بطريق»؛ وأراد تنصيبه «ملكاً»على «مكة» . ولكن قومه أبوا عليه ذلك، فلم يتم له مراده، ومات بالشام مسموماً. سمه عمرو بن جفنة الغساني.

وذكر الزبيرى: أن والدة «عثمان» هي : «تماضر» بنت عمير. وأنه خرج إلى: قيصر فسأله أن يملكه على قريش، وقال: «أحملهم على دينك» . فيدخلون في طاعتك، ففعل وكتب له عهداً وختمه بالذهب فهابت «قريش» «قيصر» وهموا أن يدينوا له؛ ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة فصاح، والناس في الطواف: إن قريشا لقاح لا تملك، ولا تملك، فاتسعت قريش على كلامه ومنعوا عثمان مما جاء له، فمات عند ابن جفنة، فاتهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله، وكان ابن جفنة حبس أبا ذئب عنده وأبا أحيحة بسبب عثمان بن الحويرث، ويقصدون بابن جفنة: عمرو بن جفنة الغساني(٢).

(٤) أمية بن أبي الصلت.

وأما أمية فهو أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر؛ بقي كثيرمن شعره؛ وربما وضع كثير منه على لسانه، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره، وسبب ذلك: بقاؤه إلى ما بعد البعث، واتصاله بتأريخ النبوة، والإسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروم الإسلام، لم يكن مسلماً ولم يرض أن يدخل في الإسلام؛لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه، وأن ينزل الوحي عليه؛ فيكون نبي العرب والعالم أجمعين فلما رأى النبوة في الرسول حسده وأثار المشركين عليه، ورثى قتلاهم في معركة بدر،

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٤٧٧ سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٤٣.

(٢) المفصل جـ ٦ ص ٤٧٦ ، ص ٤٧٧ ، سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٤٣ .

وحرض قريشاً عليه حتى مات على حسده وعناده سنة تسع بالطائف، قبل أن يسلم قومه الثقفيون؛ فهو لم يمت مسلماً، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه، بل مات كافراً بالديانتين[1].

وقد ورد في بعض الأخبار أن أمية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في تجارة إلى بلاد الشام، فكان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرؤه على من معه، كما كان يزور علماء النصارى، ويتباحث معهم، وكان يلبس ثوبين أسودين حينما يقابلهم.

ولأمية ديوان ضم أكثر ما نسب إليه من شعر، وفي بطون كتب الأدب، والأخبار أشعار أخرى لم يرد ذكرها في هذا الديوان، ومعظم شعره عن الدين، والآخرة وعن الجنة، والنار والحساب، والكتاب وقد تضمن إشارات إلى حوادث وقعت في أيامه، أو في أيام قريبة من أيامه مثل قصة الفيل. كما تضمن بعض قصص الأنبياء. ولتعرض شعره إلى هذه النواحي: نعت بشاعر الآخرة.

ومما ذكره الإخباريون، ورواة شعر أمية من أمثلة، على استعماله للكلم الغريب، أنه استعمل : «الساهور للقمر»؛ وأنه ذكر السلطليط «اسما لله تعالى» وأطلق كلمة «التغرور» على «الله تعالى». وأنه سمى السماء «صاقورة»، و«حاقورة».

ولولعه باستعمال الغريب: رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره[2].

والساهور كلمة آرامية الأصل من أصل «سهرو» بمعنى «القمر» وذكر ابن «دريد»: كان بعض العلماء يقول له: لولا النبي -ﷺ- لادّعت ثقيف أن أمية نبي، لأنه قد دارس النصارى، وقرأ معهم، ودارس اليهود وقرأ كل الكتب[3].

وقد كسف وتألم كثيراً، وأكل الحسد قلبه حين فلت الأمر منه، إذ سمع بإعلان الرسول رسالته، ودعوة الناس إلى دين الله تعالى، الذي كان أمية نفسه يدعو إليه. وقد ورد: أنه لما سمع بنبوة الرسول قال: إنما كنت أرجو أن أكونه.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٤٧٩، الأغاني جـ٤ ص ١٢٠ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٤٧٨ .

(٣) المفصل جـ٦ ص ٤٨١ .

ويروى أهل الأخبار : أن أمية كان قد مات، وهو معتقد بأن «الحنيفية حق» إذ رووا أنه قال فى مرض موته: قد دنا أجلى، وهذه المرضة فيها منيتى، وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك: يداخلنى فى «محمد». وقال: لا برئ فأعتذر، ولا قوى فأنتصر[١].

ويذكرون عنه أنه: بعد أن صبأ عن قومه وتحنف لبس المسوح على زى المترهّبين الزاهدين فى هذه الدنيا، ورافق الكتب ونظر فيها: ليستلهم منها العلم والحكمة والرأى الصحيح؛ ثم حرم الخمر على نفسه مثل: بقية المتألهين، وتجنب الأصنام، والتمس الدين، وذكر إبراهيم وإسماعيل، وأنه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب، والمعاهدات والمراسلات بجملة: «باسمك اللهم» وهى الجملة التى نسخت فى الإسلام بجملة : «بسم الله الرحمن الرحيم»[٢].

ويروى أن النبى -ﷺ- سمع شعر أمية، وقال: كاد يسلم. وذكر أن الرسول -ﷺ- قال فى حديث له عنه: آمن شعره، وكفر قلبه. وإنه لما سمع شعره فى الحنيفية والدين، والذى مطلعه:.

الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبّحنا ربى ومسّانا

قال: «إن كاد أمية ليسلم»[٣].

٥ - ورقة بن نوفل

هو: ورقة بن نوفل بن أسد...؛ يلتحم نسبه بنسب الرسول ـ ﷺ ـ فى حد جده.

ذكروا أنه: ساح على شاكلة من شك فى دين قومه، وتتبع اليهود والنصارى، وقرأ الكتب، وعد فى جملة المتنصرين فى أغلب الروايات فقد ذكروا: أنه تنصر واستحكم فى النصرانية، ومات عليها؛ وهذا هو رأى أكثر أهل الأخبار.

---

(١) السابق جـ٦ ص ٤٨٢ .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٤٨٤ .
(٣) السابق جـ٦ ص ٤٨٥، صحيح مسلم ٤٨/٧.

وهو: ابن عم السيدة «خديجة» الكبرى، زوج «الرسول»؛ وقد أشير إليه في خبر مجيء جبريل إلى النبي ـ ﷺ ـ في حراء. وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات[1].

يقال: إنه قال للرسول ـ ص ـ وكان قد ذهب إليه مع زوجته «خديجة» ليسأله رأيه فيما رآه من الرؤيا ـ: ليتني كنت حياً حين يخرجك قومك!، وإن الرسول ـ ﷺ ـ قال: أومخرجي هم؟

قال: نعم. إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي؛ ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً.

وجاء في خبر: أن ورقة كان يمر بمكة فيرى بلالاًوهو يعذب؛يعذبه المشركون برمضاء «مكة» يلصقون ظهره بالرمضاء، ويضربونه، يريدون منه أن يشرك «بالله تعالى». فلا يشرك، ويأبى إلا أن يقول: «أحد أحد» فيرثي ورقة لحاله ويقول: «أحد أحد والله يا بلال». ولئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين[2].

وورد في بعض الروايات: أنه كان يكتب الكتاب العربي، فكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء أن يكتب.

وورد في رواية أخرى:أنه كان يكتب الكتاب «العبراني» فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب.

ولما كان الإنجيل: باليونانية، وبلغة بني «إرم» التي كانت لغة العلم والأدب.فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الإنجيل هي: «العبرانية».

وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية، والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني «إرم» التي كانت لغةالعلم والأدب والدين في العراق، وفي بلاد الشام[3].

---

(١) السابق جـ٦ ص ٥٠٠، ص ٥٠١ ، اليعقوبي جـ١ ص ٢٩٨ .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٠٢ .
(٣) المفصل جـ٦، ص ٥٠٣، النصرانية ١١٩/١٠ .

٦ - وكيع بن سلمة

هو: وكيع بن سلمة بن زهير الربادى. زعم ابن الكلبي أنه ولى البيت بعد «جرهم». فبنى صرحاً بأسفل «مكة»، وجعل فيه أمة يقال لها: «حزورة». وبها سميت «حزورة مكة». وجعل فى الصراح سلما،فكان يرقاه،ويزعم أنه يناجي الله تعالى[١].

٧ - عمير بن جندب

كل ما عرفه أهل الأخبار عنه: أنه كان من «جهينة»، أنه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً، وأنه مات قبل الإسلام[٢].

٨ - عامر بن الظرب العدوانى

كان من الحكماء. ونسبت إليه أقوال فى الحكم والدين. منها: «إنى ما رأيت شيئا خلق نفسه ـ ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً،ولوكان يميت الناس الداء.لأحياهم الدواء» ثم قال: «إنى أرى أموراً شتى وحتى. قيل له: وما حتى؟. قال: حتى يرجع الميت حياً ويعود اللاشى شيئا.؛ ولذلك خلقت السماوات والأرض. فتولواعنه ذاهبين[٣].

٩ - المتلمس بن امية الكنانى

ذكروا أنه: كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه، ويعظ قومه عظات دينية. فكان فى جملة ما قاله لهم: «إنكم قد تفردتم بآلهة شتى؛ وإنى لأعلم ما الله ـ تعالى ـ راضٍ به. وإن الله ـ تعالى ـ رب هذه الآلهة وإنه ليحب أن يعبد وحده. فنفَّرت كلماته هذه، وأمثالها القوم منه وتجنبوه. وقالوا عنه: إنه على دين بنى تميم»[٤].

---

(١) السابق جـ٦ ص ٢٦١. ومابعدها.

(٢) السابق جزءا وصفحة، وبلوغ الأرب جـ٢ ص٢٦١. وما بعدها.

(٣) السابق جزءاً وصفحة .

(٤) السابق جـ٦. ص ٥٠٦، البيان والتبين جـ١ ص ٢٢٦ .

١٠- عبيد بن الأبرص

هو شاعر جاهلي شهير. له في قتله قصة هي من ذيول قصة «الغريبين» للمنذر بن ماء السماء. نجد في الشعر المنسوب إليه: اسم الله «تعالى» يتردد في كثير من المواضع؛ ونراه من المتشائمين، المؤمنين بالمنايا وبالحتّم المكتوب؛ ونراه في القصيدة البائية يتوكل على الله تعالى، ويدعو الناس إلى الاعتماد عليه. فيقول:

من يسأل الناس يحرموه　　وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير　　والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك　　علام ما أخفت القلوب

ونراه يقول في المنايا:

فأبلغ بنّي وأعمامهم　　بأن المنايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العباد　　إليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا　　فللموت ما تلد الوالده(١)

١١- كعب بن لؤي بن غالب

كان على الحنيفية؛ وهو: جد من أجداد النبي ﷺ وإليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة، فكان يعظهم، ويوجههم، ويرشدهم ويأمرهم بالطاعة والتفكر في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين، ويحثهم على صلة الأرحام، وإفشاء السلام، وحفظ العهد، ومراعاة حق القرابة، والتصدق على الفقراء والأيتام(٢).

خلاصة ما تقدم:

يقول جواد علي: لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم – إن لم نقل كلهم– من القارئين الكاتبين؛ ونسبوا إلى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزبور ومجلة لقمان. يريدون بذلك الكتب المقدسة.

---

(١) السابق جـ٦ ص ٥٠٦، البيان والتبيين جـ١ ص ٢٢٦.
(٢) المفصل جـ٦ ص ٥٠٧، طبقات ابن سعد جـ١ قسم أول ص ٣٩.

ويفهم من كلامهم في بعض الأحيان: إن منهم من كان يحسن فهم «العبرانية» أو لغة بني «إرم».

ولكن الإخباريين: - عفا الله تعالى عنهم- لم يتبسطوا لنا في الحديث عن ماهية تلك الصحف، وعن محتويات مجلة لقمان، وعن الكتب المنزلة؛ ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة، أو قطع ترشد إلى المظان التي نقلت منها. فأضاعوا علينا بعدم الإشارة إلى هذه الأمور: أشياء كثيرة مهمة بنا حاجة ماسة إلى معرفتها؛ للوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الإسلام، وإبان ظهوره. ويؤكد أهل الأخبار أن بعض أولئك الحنفاء كانوا يسيرون على سنة «إبراهيم» وشريعته؛ وإن بعضاً آخر منهم كان يتلمس كلماته، ويسأل عنها، وإنهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق، والأسفار والصعاب.

وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز، وبلاد الشام، وأعالي العراق أي: المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان. وقد أضافوا إليهم الأخبار أحياناً وذكروا: أن الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين «إبراهيم»، و«إسماعيل»؛ ولذلك لم يدخلوا في «يهودية» ، ولا «نصرانية» بل ظلوا ينتظرون الوعد الحق. ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة. مات معتقداً بدين «إبراهيم» حنيفاً غير مشرك بربه أحداً.

أما كيف كانت شريعة «إبراهيم»، وعلى أيِّ نهج سار الحنفاء؟ وهل كان لهم كتاب، أو كتب، أو نحو ذلك؟: فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة واضحة، لذلك صرنا في جهل بأمر تلك الشريعة - شريعة إبراهيم- شريعة التوحيد الحق[1] .

ويذكر أهل الأخبار: أنه كان لأتباع «إبراهيم» من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم، منها : «الختان، وحلق العانة، وقص الشارب»، وهي

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٠٨ وما بعدها .

علامات جعلها بعض المفسرين: من كلمات «إبراهيم»، التي ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ البقرة آية١٢٤.

ذهب القائلون بهذا الرأي: إلى أن تلك الكلمات هي عشر. خمس في الرأس، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس، فالمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، وفرق الرأس، والسواك.

وأما التي في الجسد فهي: الاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط وحلق العانة،والختان.

ومن سنن شريعة «إبراهيم» الاختتان، وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين.

أما العرب النصارى: فلم يكونوا يختتنون. فالحنفاء في هذه العادة والوثنيون سواء.

وفي أخبار معركة «حنين»: أن الأنصار حينما أجهزوا على قتلى «ثقيف» ممن سقط في هذه المعركة مع «هوازن» وجدوا عبداً عندما كشف ليستلب ما عليه وجدَ «أغرل». فلما تبين ذلك للأنصار نادى أحدهم بأعلى صوته: يعلم الله أن ثقيفاً «غرل» ما تختتن. فقام إليه: «المغيرة بن شعبة»- وهو من ثقيف- فأخذ بيده، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب، فقال له: لا تقل ذلك فداك أبي وأمي؛ إنما هو غلام لنا نصراني. ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول له : ألا تراهم مختتنين.

ويتبين من هذا الخبر: أن العرب كانوا يعدون «الغرل» شيئاً معيباً ومنقصة تكون حديث الناس.

وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختتنون، وأن الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم، وأنهم في ذلك «كاليهود».

وقد ورد في : الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب، ولعل التوراة التي ذكرت قصة اختتان «إسماعيل» أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين، التي كانت شائعة بينهم في: ذلك العهد[1]. ومن وجهة نظرنا: أن هؤلاء الحنفاء – من بين قومهم– خرجوا يبتغون الثقافة في رحلة علمية من مراكزهم المنتشرة على مشارف الجزيرة التي أشرنا إليها سابقا وليست طلبا للتجارة، وحين رجع بعضهم إلى مكة اعتزل الأصنام وهيأ بما دعا إليه الذهن للتوحيد فكان ورقة أول من بشر الرسول... وأمية بن الصلت قال عنه الرسول: آمن لسانه وكفر قلبه.. وعبد الله بن الزبعرى يحاجج الرسول عندما سمع قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[2] قال للرسول : إن النصارى تعبد عيسى فهل هو كذلك .. وما ذلك كان منهم إلا من ثقافتهم.

(١) المفصل جـ٦ ص ٥٠٩، الطبرى ٤١٤/١، روح المعانى ١ / ٣٧٤ .
(٢) سورة الأنبياء آية ٩٨.

الباب الخامس

مكة عاصمة ثقافية ودينية

الحجاز:

إن الحجاز -بعكس الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة -أمضى قروناً طويلة من حياته فى القديم، وهو فى شبه عزلة عن العالم المتمدن.اللهم إلا بعض ما كان له من نشاط تجارى.

فجدب الحجاز، وقساوة إقليمه، وصعوبة الوصول إليه، ووعورة مسالكه: كلها كانت عوامل فى إبعاد الفاتحين العظام فى التاريخ القديم عن غزو هذه البقعة من الجزيرة العربية أو محاولة ضمها إلى إمبراطورياتهم.

لهذا: كله، عاش الحجاز حياته الخاصة بعيداً عن أضواء السياسة العالمية والاحتكاك بالدول، وظل أهله على بداوتهم، وارتحالهم إلا فى القليل النادر، حيث نشأت بعض المدن التى كان أهمها: «مكة».

وقضية البداوة لها دور هام وبارز فى الإطار العام لحياة الحجاز فى فترة ما قبل الإسلام.

والاقتصاد البدوى القائم على الارتحال مع قطعان الماشية، من أجل البحث عن مواطن الكلأ والماء هو: اقتصاد الحجاز فى هذه الفترة لأنه ما عدا بعض المدن «مكة ـ المدينة ـ الطائف» التى كانت: كجزر صغيرة فى خضم صحراوى كبير؛ كان الارتحال هو ناموس الحياة ومحورها الأساسى.

-وكما هو معلوم- فإن الحياة البدوية تعتمد على تربية الماشية، وبصورة خاصة «الجمال» كأساس فى نشاطها اليومى، وكناظم لتحركها، وأسلوب معيشتها.

ولما كان تدبير الكلأ، والماء لهذه المواشى هو الشغل الشاغل للناس، فإن التنقل وعدم الاستقرار أديا إلى: عدم قيام حضارة مستقرة على أرض الحجاز القديم. وما عدا بعض الواحات وبعض المنبسطات الخصبة فى الجبال فإن أرض الحجاز لم تكن صالحة للزراعة، ولا تبنت إلا أعشاباً، وشجيرات، تستسيغها الماشية بشكل عام، والجمال بشكل خاص.

وكان محصول النخيل أهم محصولات الواحات، أما فى المناطق الجبلية المثمرة، كالطائف مثلاً، فقد كانت الحبوب تنتج بكميات محدودة، لا تكفى للاستهلاك المحلى.

وكانت هناك مستعمرات يهودية تُزرع فيها بعض المزروعات، التي تستهلك محلياً، أو تنقل إلى المدن المجاورة لاستهلاك سكانها(١).

مكة وموقعها المتميز:

تقع مكة في واد منحصر بين الجبال في منطقة جافة، ذات مناخ قارى حار جداً في الصيف، قليل الأمطار في الشتاء، وحين تسقط الأمطار: فإنها لا تكون غزيرة، ولكنها تشكل سيولاً، تنحدر من الجبال إلى الوديان والشعاب، وكثيراً ما جرفت «الكعبة».

وإنه مما لا شك فيه أن «مكة» منذ أن ظهرت للوجود كانت مركزاً تجارياً هاماً، وأن ازدهارها كمركز مرتبط إلى أبعد الحدود بوجود الحرم فيها، وهو المنطقة التي تحرم فيها كل أنواع القتل. يضاف إلى هذا موقعها الجغرافي، ووجودها على مفترق الطرق، التي تحمل التجارة من «اليمن إلى سورية» ومن «الحبشة إلى العراق» قد ساعدا على إضفاء الأهمية التجارية عليها.

وهكذا: فقد كانت «مكة» مقصد البدو الذين يرتادونها لشراء ما يحتاجون من البضائع التي تصلها من جميع الجهات، بواسطة القوافل التجارية.

وأغلب الظن: أن المكيين كانوا في الأساس وسطاء تجاريين، أو تجار مفرق، ولم يكونوا من فئة المستوردين الكبار، الذين ينظمون القوافل ويسيرونها(٢).

ويذهب التجار المكيون بالمقابل إلى الحيرة ليبتاعوا، وينقلوا ما يحتاجون من منتوجاتها. كذلك كان نشاط المكيين التجارى واسعًا مع بلاد الشام. فقد كانوا يأتون إليها حاملين بضائع الهند، ويعودون منها ومعهم الحبوب والزيت، والخمور والأسلحة، والمنسوجات والجواري.

وكان الصّيف هو الفصلُ الذى تقصد فيه قوافلهم بلاد الشام، وتزور مدن «غزة» حيث دفن هاشم جد النبي ﷺ. و«آيلة» و«بصري»، وتعود بعد أن تقوم بعملية البيع والشراء محمّلة بالبضائع من جديد.

(١) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٢٢٣، ص ٢٢٤

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٨ .

أما مع الحبشة: فقد كانت تجارتهم تجرى عن طريق البحر، وكذلك كانت رحلاتهم التجارية إلى اليمن تتم فى فصل الشتاء، وكدليل على أهمية التجارة عند المكيين، يمكننا أن نذكر الألفاظ المتعلقة بالتجارة وهى كثيرة جداً «بالقرآن الكريم». حيث نجد: كلمات تجارية مثل:.

«حساب، ميزان، قسط، ذرة، ...» تتردد كثيراً، ولم يقتصر العمل بهذه المهنة على الرجال؛ بل اشتغلت بها النساء، كخديجة بنت خويلد، وهند بنت عبد المطلب وغيرهما.

وقد مَهَرَ المكيون بالتجارة لدرجة ضرب بها المثل. فكان يقال مثلاً عن عبد الرحمن بن عوف أنه كان يحصل الذهب من الحجارة.

وكان البعض يقوم بهذه التجارة مستقلاً لنفسه؛ بينما كان آخرون، يتشاركون فى تجارتهم، ويقوم عدد كبير منهم فى تجهيز قافلة واحدة، ويسير أصحاب القافلة مع قوافلهم بأنفسهم، أو يرسلون أجيراً لهم أو إنساناً يستأجرونه لهذا العمل .

ولتأمين حماية القوافل كانوا يعقدون الاتفاقيات مع رؤساء القبائل، التى ستمر قوافلهم فى أراضيها. وحين تقصد هذه القوافل بلداً معيناً كانوا: يعقدون محالفات مع رؤساء أو حكام هذه الدول. وتسمى هذه المعاهدات عادة «بالإيلاف» .

وقد أدى هذا النشاط التجارى – عند المكيين– إلى نشوء أعمال مصرفية، ونشوء طبقة من الصيارفة يهتمون بشئون عملات الدولة التى يتعامل معها المكيون.

كما وُجِدَ المرابون الذين يقومون بالإقراض، ويفرضون الفوائد الفاحشة على المدينين[1] .

علاقات «مكة» التجارية :

أقدم من سجل اسمه من اليونان فى سجل العلاقات العربيةاليونانية هو: «الإسكندر الأكبر» ٣٥٦ –٣٢٣ ق. م. بعد أن سيطر هذا الرجل الجبار الغريب

(١) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٢٢٩ ، ص ٢٣٠ ص ١٣١ . باختصار وتصرف

الأطوار، الذى تُوفىَ شاباً على أرضٍ واسعة. وأسس إمبراطورية شاسعة الأرجاء، ذات منافذ على البحر الأحمر، والخليج العربى.وبعد أن استولى على مصر، والهلال الخصيب ، فكر فى السيطرة على جزيرة العرب، وجعلها جزءاً من إمبراطوريته ليتم له بذلك الوصول إلى سواحل المحيط الهندى ، والسيطرة على تجارة «إفريقية، وآسية» وتحويل ذلك المحيط إلى بحر يونانى .

وقد شرح الكاتب -«أريان» - المولود سنة ٩٥ ب. م ، والمتوفىّ سنة ١٧٥ ب.م . الأسباب التى حملت الإسكندر على التفكير فى الاستيلاء على جزيرة العرب وعلى بحارها فى الكتاب السابع من مؤلفه Anabasis Alexandri - فذكر أن هناك من يزعم أن الأسكندر إنما جهز تلك الحملة البحرية ، لأن معظم القبائل العربية لم ترسل إليه رسلاً للترحيب به ولتكريمه فغاظه ذلك.

أما - «أريان»- فإنه يرى : أن السبب الحقيقى الذى حمل الإسكندر على إرسال هذه الحملة يكمن فى رغبته فى اكتساب أرضٍ جديدة .

وأورد «أريان»[١] فى كتابه قصة أخرى خلاصتها: أن العرب كانوا يتعبدون لإلاهين هما : «أورانوس ، ديونيسوس» . وجميع الكواكب وخاصة الشمس فلما سمع «الإسكندر» بذلك أراد أن يجعل نفسه الإلٰه الثالث للعرب.

وذكر أيضاً: أنه سمع ببخور بلاد العرب وطيبها، وحاصلاتها الثمينة ، وبسعة سواحلها ، التى لا تقل مساحتها كثيراً عن سواحل الهند ، وبالجزر الكثيرة المحدقة بها ، وبالمرافئ الكثيرة فيها، والتى يستطيع أسطوله أن يرسو فيها ، وبناء مدن يمكن أن تكون من المدن الغنية، وسمع بأشياء أخرى . فهاجت فيه هذه الأخبار الشوق إلى الاستيلاء عليها ؛ فسير إليها حملة بحرية للطواف بسواحلها إلى ملتقاها بخليج العقبة .

١- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٢ ص ٥ ا.د / جواد على ط دار العلم .

ليست فتوحات الإسكندر ، التى قذفت بالإغريق ، والرومان إلى مساحات واسعة من آسية حدثاً سياسياً فحسب ؛ إنما هى : فصل من فصول كتاب التأريخ البشرى ؛ نقرأ فيه أخبار التقاء العالمين : الشرقى، والغربى ؛ وجهاً لوجه على مساحات واسعة من وجه المسكونة؛ ونزعة الغرب فى السيطرة على الشرق وتأثر الحضارات والثقافات بعضها ببعض، وحصول علماء اليونان والرومان على معارف مباشرة عن أحوال أمم كانوا يسمعون أخبارها من أفواه التجار والسياح، والملاّحين: فإذا وصلت إليهم كان عنصر الخيال فيها الذى يميل إلى التفخيم، والتجسيم قد انتهى من عمله، وأدى واجبه. فصحّحت فتوحات «الإسكندر» هذه للهلال الخصيب ولمصر بعض تلك الأوهام، وجاءت بعلماء من اليونان إلى هذه البلاد؛ ولا سيما مصر. فأفادوا ، واستفادوا وصارت «الإسكندرية» ؛ بصورة خاصة، وبعض مدن بلاد الشام ملتقى الثقافات –الثقافات الشرقية، والثقافات الغربية ، ومركز الاتصال العقلى بين الغرب والشرق؛ وبقيت الإسكندرية محافظة على مكانتها هذه ، حتى ظهور الإسلام .

وقد حملت فتوحات «الإسكندر» ، والحروب التى وقعت بين الروم والفرس إلى الشرق الأدنى دماً جديداً هو : دم الإغريق ، ومن دخل فى خدمة «الإسكندر»، واليونان والرومان من الجنود والمتطوعة والمرتزقة من سواحل البحر المتوسط الشمالية ، وما صاقبها من أصقاع أوربية .

لقد بنى « الإسكندر » الأكبر مدينة Gharax – على ملتقى نهر : « كارون» بدجلة ، وأسكنها أتباعه ، وجنوده ومواطنى المدينة الملكية . كما بنى مدناً أخرى، وقد كان من المحبين المولعين ببناء المدن . وبنى خلفاؤه : مدناً جديدة فى الشرق. وكذلك من أخذ تراثهم من اليونان والرومان .

وحمل الفرس عدداً من أسرى الروم ، وأسكنوهم فى ساحل «الخليج» وفى مواضع أخرى . وطبيعى أن تترك سكنى هؤلاء فى الشرق أثراً ثقافيا فى الأماكن التى أقاموا فيها ، وفى نفوس مَنْ جاوروهم أدرك قيمته المؤرخون المعاصرون[1] .

(١) المفصل جـ ٢ ص ١١ ، ص ١٢ .

وفى أيام «بطليموس فيلادلفوس» كذلك أسست موانئ جديدة على سواحل البحر الأحمر لرسوّ السفن فيها، وللمحافظة على الطرق البحرية من لصوص البحر بلغت مداها جزيرة «سقطرى». حيث أنشئت فيها جملة مستعمرات يونانية؛ وقد بقى اليونانيون فيها عصوراً؛ غير أن نزولهم فيها لا يدل على احتلالهم لها(١).

ويذكر الباحثون: أن تسميتها جاءتها من «ألسنسكريتة» «دفيباسوخنزا». وهى تسمية إن صح أنها من هذا الأصل فإنها : تدل على صلة أهل «الهند» بها منذ عهد قديم.

وأهلها خليط من عرب وروم إفريقيين وهنود يتكلمون بلهجات متداخلة، وهذا الاختلاط نفسه أمارة على الأهمية التى كانت للجزيرة فى ذلك الزمن.

وقد ذكر «ياقوت الحموى» : أن أكثر أهلها نصارى عرب، وأن اليونانيين الذين فيها يحافظون على أنسابهم محافظة شديدة، وقد وصلوا إليها فى أيام «الإسكندر».

ويزعم بعض الإخباريين : أن «كسرى» هو الذى نقل اليونانيين إليها؛ ثم نزل معهم جمع من «مهرة» فساكنوهم، وتنصر معهم بعضهم وفى الروايات العربية عن : الروم الذين بجزيرة «سقطرى» شئ من الصحة(٢).

لقد أحدث دخول اليونان البحار الجنوبية من الخيلج العربى ومن البحر الأحمر احتكاكا مباشراً بين الثقافة اليونانية، والثقافات الشرقية. وقد عثر على كتابات يونانية فى مواضع متعددة من الخليج، ومن السواحل الإفريقية تتحدث عن وجود اليونان فى هذه الأماكن(٣).

وقد عُثر فى خرائب : مدينة «تمنع» على كثير من الأشياء الهيلينية الأصل، أو المتأثرة بالهيلينية من تماثيل، وتحف فنية، وفخار وما شابه ذلك هى من نتائج التبادل التجارى، والاتصال، الذى كان بين حوض البحر المتوسط، وعرب الجنوب(٣).

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٤.
(٢) السابق جـ٢، ص ٢٤، ص ٢٥، مروج الذهب جـ١ ص ٣٣٥، معجم البلدان جـ٥ ص ٩٣.
(٣) - المفصل جـ٢ ص ٣٠.

مكة والصراعات السياسية بين الفرس والرومان: .

وفى جملة ما اتخذه البيزنطيون من وسائل التأثير فى الشرقيين وفى جملتهم العرب : نشر النصرانية – الديانة التى قبلوها ، ودانوا بها ، واتخذوها ديانة رسمية للدولة .

وتمكنت النصرانية، من كسب بعض العرب فجرتهم إليها. وجذبت إليها القبائل الساكنة على حدود الأرياف والأطراف ؛ أى : سكان المناطق الحساسة الدقيقة بالنسبة إلى : الخطط السياسية والعسكرية « للساسانيين» و «للبيزنطيين» على حد سواء .

وقد كان من سوء المصادفات أن النصرانية كانت قد تجزأت إلى شيع؛ وأن غالبية النصارى العرب تمذهبت بمذهب يخالف مذهب الروم ؛ ولكنها كانت تشعر على كل حال أنها مع الروم على دين واحد. ولهذا: لم يحفل ساسة «القسطنطينية» كثيراً بموضوع اختلاف المذاهب ، وإن تألموا من وجوده وظهوره ، فساعدوا نصارى اليمن ، ونصارى الأماكن الأخرى من جزيرة العرب على اختلافهم عنهم ، وعملوا فى الوقت نفسه على نشر مذهبهم بين العرب ؛ ليتمكنوا بذلك من إيجاد محيط ثقافى سياسى يؤيد البيزنطيين[١] .

وشجع « الساسانيون» مذهب «نسطور» مع أنهم كانوا مجوساً ولم يكونوا نصارى . وشجعوه لأنه مذهب يعارض مذهب الروم، فانتشر فى العراق، وفى إيران، وفى سائر الأرضين الخاضعة للحكم الساسانى. ودخل فى هذا المذهب أكثر النصارى العرب فى العراق .

وكان من نتائج العداء الموروث بين « الساسانيين» و «البيزنطيين» أن انتقلت عدواه للعرب أيضاً . فصار أناس منهم مع « الفرس » وآخرون مع «الروم» وبين العربين عداوة وبغضاء ، مع أنهما من جنس واحد ، وكلاهما غريب عن الساسانيين والبيزنطيين .

---

(١) السابق جـ ٢ ص ٦٢٨ .

وقد تجمعت هذه العداوة : فى غزو « عرب الحيرة» للغساسنة ، وفى غزو «الغساسنة» لأهل الحيرة، حتى فى الأيام التى لم يكن فيها قتال بين الفرس والروم. مما أدى أحياناً إلى: تكدير صفو السلم، الذى كان بين البيزنطيين والساسانيين[١] .

أما ملوك «الساسانيين » فقد كانوا يتاجرون مع العرب ، يشترون منهم ، ويبيعونهم ويرسلون القوافل بأسمائهم إلى العربية الجنوبية لبيع ما تحمله فى أسواقها، ولشراء سلع العربية الجنوبية يحملونها إلى أسواق العراق . وقد كانوا يوكلون حراستها إلى جماعة يختارونهم من سادات القبائل المهيبين ، المعروفين بجعلٍ يدفعونه لهم[٢] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن جماعة من أهل مكة قد تخصصت بالاتجار مع العراق . وقد كان لها تعامل مع «كسرى» ؛ وربما مع كبار رجال دولته أيضاً، من أولئك الذين اقتدوا بملوكهم فى الاشتغال بالتجارة وبالنزول إلى الأسواق .

فإنا نجد أناساً من كبار تجار مكة كانوا يفدون على المدائن، ويتصلون بديوان «كسرى» ، ويتعاملون هناك بيعاً وشراء. وكانت لهم دالة على ملك المدائن ، وربما كان يساعدهم هو نفسه فى مال القوافل ، أو يجعل له نصيبا من الأرباح[٣] .

بناء البيت والدعوة إلى التوحيد

رأينا من عرضنا السابق لتاريخ المنطقة العربية وخاصة شبه الجزيرة العربية أنها لم تكن معزولة عمن حولها: سياسيا، اقتصاديا، ثقافيا، أو دينيا، فرأينا كيف قامت هنا أو هناك تحت إشراف الكنيسة التى أنشأتها وساعدت على قيامها مدارس وميول مذهبية، وهكذا كنا نرى أنها لا تكاد توجد إلا ويعطل رئتيها الهواء . وهذه المدارس الوليدة كانت صبغة دينية ولسانها لا يرطن بغير السريانية لغتها القومية .

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٣١

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ٦٣٢ .

(٣) المصدر السابق جـ٢ ص ٦٣٣ .

ومع هذا الاضطهاد وجدت قبائل عربية ذات مظهر حضارى اعتزلت الأوثان إلى المسيحية،وكنا نلاحظ أن الدافع إلى هذا التغيير ليس دينيا خالصا إنما بعضه كان سياسيا .

ووجدت قبائل يهودية الأصل، أو يهودية الدين، غير الجنس، أى قبائل عربية في يثرب ، ويختلف المؤرخون حول تاريخ نزولهم ، وأصلهم. فى هذه المنطقة، وهل هى قبائل يهودية الأصل ؟ أو قبائل عربية تهودت ؟ والاحتمال الثانى له من أسمائهم العربية ما يسوغه ، وهذا فضلا عن التيارات الأخرى .

كانت هذه التيارات حول مكة، مركز المنطقة العربية ، فهل تجاوبت مكة مع هذه التغيرات ؟ أو بمعنى آخر هل أحست مكة بهذه التغيرات؟ وما دلائل هذا الإحساس ؟

لا شك أن هذه الأشياء بددت سكون المنطقة العربية ، وأحلت فيها تغيرات شاهدناها محصورة على مستوى أفراد من القبائل ولم يبلغ مستوى عامتها إلى الشعور الاجتماعى .

- فوجدنا من تمرد على الوثنية ، وأطلقوا على أنفسهم «المتحنثين»
- ومن اعتنق المسيحية .
- ومن اعتنق الحنيفية ، وأتى بها من الشام .
- ووجدنا من تثقف ثقافة عامة تلقاها فى مدرسة جنديسابور مثل : النضر ابن الحارث ووالده الحارث بن كلدة .
- ومن كان عنده «مجلة لقمان» . مثل : سويد بن الصامت .
- والداعون إلى توحيد الله بفطرتهم مثل : قس بن ساعدة .
- وطبقات من الحكماء . مثل : أكثم بن صيفى .
- والإباحيون ، الذين يسبون أصنامهم . مثل : امرئ القيس .
- ورواية تاريخية تسند إلى «عمرو بن لحى» أنه أتى بصنم من بلاد البلقاء بعد غزو الإسكندر للشرق .
- ووجدنا فيها الصابئين والمجوس .

ونلاحظ أن: هذه التغييرات كان منها: ما هو شرقى، وما أكثره، ومنها ما هو هيلينى، وذلك يظهر فى الأصنام .

كذلك لم تبق الجزيرة العربية بمنأى عن دينى التوحيد الكبيرين اللذين قاما على حدودها . فقد نفذت اليهودية والمسيحية إلى الصحراء .

ومن المصادر المهمة، التى تفيد كثيراً فى معرفة المساحة الجغرافية التى انتشرت فيها اليهودية ، المسيحية والمجوسية، وبعض العقائد الوثنية على خريطة شبه الجزيرة العربية وخارجها ؛ كتاب : « فتوح البلدان – للإمام : أبى الحسن البلاذرى – المتوفى ٢٩٦ هـ . ».

فلقد ضمنه كثيراً من الإشارات المهمة فى جمل وجيزة، عن بعض أحوال البلاد التى فتحها المسلمون من حيث العقائد المسيحية، أو اليهودية أو المجوسية ، أو الملل الوثنية ، التى قد لا يعثر عليها فى المصادر المعنية بدراسة موضوع العقائد والأديان ، والمذاهب .

كذلك يمكن للقارئ أن يتتبع موضوع العقائد التى انتشرت فى رقعة فتوح البلدان، التى فتحها «الله» عليهم . من خلال كتب المصالحة التى صالح الرسول ﷺ عليها أهل تلك البلاد أو صحابته، فإنه كثيراً ما ينص فيها على عقائد تلك البلاد .

كذلك يمكن للقارئ من خلال كتب المصالحات ، أو المعاهدات أن يتبين العلاقة بين أصحاب الأديان المختلفة فى البلد الواحد، فهل الغلبة لليهودية ، أو المسيحية، أو المجوسية، أو الوثنية؟ ومَنْ منهم كان أكثر استجابة للإسلام ، وأمنعهم عليه؟ ومن منهم كان أكثر تآمراً عليه، وغدراً به ؟ .

مثال ذلك: ١ – ما رواه عن المجوس حين تحصّن «المكبر» الفارسى صاحب كسرى، وانضم إليه المجوس، وامتنعوا عن أداء الجزية .

٢– ومن ذلك قوله : فكره المجوس واليهود الإسلام ، ورحبّوا أداء الجزية .

٣– وقوله : قال هشام : وسمعت مشايخنا يذكرون : أن اليهود كانوا كالذمة، يؤدون إليهم الخراج فدخلوا معهم الصلح .

وذلك كان : فتح مدينة دمشق .

٤– وثنية دومة الجندل :

ذكر البلاذرى : صلح دومة الجندل، الذى كتب به «رسول ﷺ الله» لأكيدر . حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد، والأصنام.

وقال فى رواية : وكانوا من عباد الكوفة . أى كانت وثنية .

٥- مسيحية نجران :

ويبدو أن المسيحية كانت غالبة على نجران .

يقول البلاذرى : دخل يهود نجران مع النصارى فى الصلح، وكانوا كالأتباع لهم .

٦- صلح اليمن :

وفى صلح اليمن ورد فيه : وجَزّ رؤوس من أقام على النصرانية والمجوسية، واليهودية منهم .

٧- أمر نصارى بنى تغلب :

روى البلاذرى ـ وهو يتكلم عن أمر نصارى بنى تغلب بن وائل ـ: أن نصارى بنى تغلب يطلق عليهم نصارى العرب، وقال: ليس فى مواشى أهل الكتاب صدقة إلا نصارى بنى تغلب، أو قال نصارى العرب.

٨ - البحرين :

قال البلاذرى : وكانت أرض البحرين من مملكة الفرس ، وكان بها خلق كثير من «عبد القيس» ، و«بكر بن وائل» وكان على العرب بها من قبل الفرس على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة ، وعبد الله بن زيد هذا هو الأسبذى، نسب إلى قرية بهجر يقال لها : الأسبذ، ويقال : إنه نسب إلى الأسبذيين، وهم قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين .

فلما كانت سنة ثمان : وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. والعلاء ابن عبد الله بن عماد الحضرمى حليف بنى عبد شمس إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية . ثم قال : فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى . فإنهم صالحوا العلاء .فكره المجوس واليهود الإسلام ، وأحبوا أداء الجزية ، فقال منافقوا العرب: زعم محمد أنه لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، وقد قبلها من

مجوس هجر وهم غير أهل كتاب . فنزلت : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ . (سورة المائدة آية ١٠٨)

وذلك : قلّ من كثر. ذكرناه لبيان قيمة الكتاب لدى الباحث ، الذى يريد رسم منحنى بيانى لانتشار اليهودية ، والمسيحية ، والمجوسية فى شبه الجزيرة ، وما فتحه المسلمون من البلاد والدول .

يقول المقدسى فى معرض ذكره شرائع أهل الجاهلية ومللها: «كان فيهم من كل ملة، ودين. وكانت «الزندقة ، والتعطيل» فى قريش، « والمزدكية والمجوسية» فى تميم، واليهودية والنصرانية فى غسان، والشرك وعبادة الأوثان فى سائرهم .

ونستطيع أن نقول: إن قلب الجزيرة العربية فى مكة. استقبل تيارات متضاربة من الأفكار، والمذاهب، والديانات. مثل: المزدكية واليهودية والمسيحية الشرقية، والبوذية، والعقائد السحرية الآتية من بلاد الزنوج، وكلها نجد لها ردود فعل فى القرآن الكريم.

لكن السؤال هو: إذا كانت الاتجاهات الدينية وُجدت فى مكة كلها ، أو أكثرها، وفدت إليها من الخارج فما هو الاتجاه الدينى لمكة؟

نبى الله إبراهيم والجزيرة العربية .

عصر إبراهيم الخليل يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهو عصر عربى بحت قائم بذاته وبلغته. وهى مرتبطة بالجزيرة العربية وبلغتها وبقبائلها التى سميت فيما بعد: بالعرب البائدة لانقراضها .

وقد كانت القبائل العربية المعروفة بالقبائل البائدة آخذ على قيد الحياة فى جزيرتهم فى هذا العهد، وقد أدت دوراً مهماً فى تنمية الحضارة العربية السامية.

وقد نبه «القرآن الكريم» على ذلك بربط صلة إبراهيم الخليل بالجزيرة العربية، وبيت الله العتيق، وليس بفلسطين .

(١) فتوح البلدان – للإمام أبى الحسن البلاذرى ص ٩٠ . عنى بمراجعته رضوان محمد رضوان، وقوبل هذا الكتاب على نسخة الأستاذ الشنقيطى المحفوظة بدار الكتب – دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان .

وإن الأثريين ميزوه عن الأدوار التالية ، وأطلقوا عليه: تسمية «عصر الجواليين» .

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم كان أول كاشف لنا عن هذه الحقيقة ، وقد جاءت المكتشفات الأثرية حول الهجرات السامية ودراسة علم المقارنة بين اللغات مؤيدة لهذه الحقيقة نفسها التي تربط صلة إبراهيم بجزيرة العرب.

والتوراة ترى أن أرض فلسطين باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وآل إسحاق وآل يعقوب، إذ كانوا مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين ، والتوراة تتحدث عنهم بصفتهم غرباء وافدين طارئين على فلسطين[1] .

أما وطنهم الأصلي فهو (أرام النهرين) أي منطقة حران (حران الحالية) حيث كانت العشائر الآرامية ، المنتمية إليها قد استقرت عند منابع نهر البليخ بعد هجرتها من الجزيرة العربية[2] .

ثم نزحت فروع من هذه القبائل إلى جنوب العراق (منطة بابل) فكان إبراهيم الخليل من ذريتها. وقد وردت كلمة (اغتراب) كلما ذكر تنقل إبراهيم في فلسطين وفي مصر، فقيل : (تغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين)[3] .

---

(١) وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على ما كان له. ضع يدك تحت فخذي فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم. بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق (تك ٢٤ :٢ - ٤) «ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده فقام وذهب إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور» (تك ٢٤ :١٠-١٠) راجع أيضا (تك ٢٤ :٣٢-٣٨).

(٢) أليست هذه عادة أصيلة لا علاقة لها بالتقاليد اليهودية ؟ ثم ألا يستشف منه أن سيدنا إبراهيم الخليل(عليه السلام) كان غريبا وفردا في أرض كنعان؟ أو لم يكن بإمكانه فيما لو كان هناك يهود من عشيرته تزويج ولده من إحدى بناتهم بدلا من إرسال عبده إلى آرام النهرين لجلبه عروسا لابنه من هناك فلا يفرح بزواج ولده إسحاق : راجع أيضا: ٢٨ : ١-٢ (تك ٤٧ - ٩) .

(٣) يجب التمييز هنا بين بني إسرائيل عند هجرتهم إلى مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد وهم أسرة واحدة لم يتجاوز عدد أفرادها السبعين شخصا، وبين قوم موسى عندما نزحوا إلى فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . لأن أسرة إسرائيل انصهرت وذابت في المجتمع المصري على مر الزمن بحيث لم يبق لها أي أثر عندما غزا النبي موسى -عليه السلام- وأتباعه أرض فلسطين بعد خروجهم من مصر بعد مرور حوالي ستمائة عام على زمن دخول أسرة يعقوب إلى مصر. لقد كان هؤلاء يؤلفون حملة مصرية بحتة أكثرها من بقايا الهكسوس ومن الجنود المصريين الفارين كما سنوضح ذلك فيما بعد .

و «انحدر ابرام إلى مصر للتغرب هناك»[١] وانتقل إبراهيم إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وأشور في جرار[٢] .. ولما اشترى إبراهيم مغارة المكفيلة من الحيثيين في حبرون قال لهم : «أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي»[٣] ومثل ذلك ورد في التوراة فيما يخص إسحاق ويعقوب : «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه كنعان[٤]» وجاء يعقوب إلى إسحاق أبيه في حبرون . حيث تغرب إبراهيم وإسحاق[٥] «تصرخ وتقول أمام الرب إلهك : أراميا تائها كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك» وهكذا فلا يمكن أن تكون كلمة «تغرب» بمعنى اتجه نحو الغرب لأن ورود كلمة (أرض الغربة) تنفي هذا الاحتمال .

ثانيا : إن أبناء إسرائيل الاثنى عشر ولدوا كلهم باعتراف التوراة في فران آرام منطقة حران[٦] حيث مكث يعقوب المسمى إسرائيل عشرين سنة[٧] ويعني ذلك أن مولدهم ونشأتهم كانا خارج فلسطين، وهؤلاء هم بنو إسرائيل الذين ورد ذكرهم في التوراة .

﴿ مَاكَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾[٨] ﴿قرآن كريم﴾

يتضح مما تقدم أن تسمية إبراهيم (إبراهيم الخليل) بالعبراني كما في التوراة كان يراد بها معنى (العبريين) «أي» القبائل البدوية العربية ، والقبائل الآرامية التي

---

(١) تك : ٣٢ : ١ : ١٠ .

(٢) تك : ٢٠ : ١ .

(٣) تك : ٢٣ : ٤ .

(٤) تك : ٣٧ : ١ .

(٥) راجع أيضا (وظهر الرب لإسحاق وقال لا تنزل إلى مصر اسكن في الأرض التي أقول لك تغرب في هذه الأرض) تك (٢٦ : ١ - ٣).

(٦) تك (٣٥ : ٢٧) راجع أيضا ثم أخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وجميع نفوس بيته من وجه أخيه يعقوب لأن أملاكهما كانت كثيرة على السكن معا ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما . تك ٢٦ : ٦ - ٧.

(٧) وكان بنو يعقوب اثنى عشر أخا ، بنو أبنه : روابين وشمعون ولاوى ويهودا وعساكر وزبولون، وابنا راحيل : يوسف وبنيامين ، وابنا بلهة جارية راحيل : دان ونفتالي وابنا زلفة جارية ليئة وأشير وهؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في فران أرام (تك ١٥ : ٢٣ - ٢٦)

(٨) الآية ٦٧ من سورة آل عمران

ينتمي إليها الخليل نفسه . وبهذا المعنى جاءت كلمة (عبيرو) التي عثر عليها في النصوص المصرية والتي تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، ويعترف جورج بوست في مصنفه «قاموس الكتاب المقدس» بأن لقب إبرام بالعبراني لم يقصد به الإسرائيلي وإنما يمكن تأويله على تعبيره بإبرام السائح أو المهاجر[١] فقد عثر في تل العمارنة بمصر على ست رسائل من أحد ملوك منطقة أورشليم الكنعانية اسمه «عبد - خيبا» موجهة إلى فرعون مصر أمنوفيس الرابع يتكلم فيها عن «العبيرو» الذين اجتاحوا بلاده. ولما كانت أرض فلسطين في هذا الدور محمية مصرية فإن «عبد - خيبا» يقول في رسائله : لم يبق في أرض مولاى الملك شيء . . نهب (العبيرو) كل البلاد من سيد الملك.. البلاد وقعت في أيدى (العبيرو) . ومن الواضح هنا أنه يمكن أن يكون (العبيرو) الذين ورد ذكرهم في هذه الرسائل هم اليهود. وهكذا في التوراة حين تصف إبراهيم الخليل بالعبراني تساير واقع الحال باعتباره من قبائل الخبيرو (العبيرو) التي ينتمي إليها، أى القبائل الأرامية ، قبل أن يكون لليهود وجود بعد . ويؤيد ذلك المستشرق توردارسون ، أستاذ اللاهوت في جامعة أيسلندا ، فيرى أن إبراهام شبه بدوى ينتمي إلى القبائل القديمة المسماة بالعبيرو ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلي نفسه[٢]. فقد عاش إبراهيم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أى في زمن يسبق عهد موسى بسبعمائة عام. وقد ظلت هذه التسمية، أى تسمية عبرى وعبراني ، تطلق على الجماعات من القبائل النازحة من البادية ومن جهة فلسطين إلى مصر وعلى هذا الأساس صار المصريون يسمون الإسرائيليين بالعبرانيين باعتبارهم من تلك الجماعات البدوية[٣] .

(١) يلاحظ أن هذه العبارة قد حذفت من الطبعة الجديدة لقاموس الكتاب المقدس لعام ١٩٧١ ، بل وأكثر من ذلك حذفت جميع الدراسات العملية التي قام بها العلامة جورج بوست ليوضع مكانها، خلافا لما جاء في المقدمة - ما يؤكد ربط اليهود بمصر إبراهيم الخليل واعتبار كلمة عبرانيين شاملة لكل أدوار اليهود التاريخية التي تبدأ بإبراهيم الخليل وفقا للتقاليد اليهودية التي تعتبره جد اليهود، ويلاحظ أيضا أن هذا القاموس الجديد يدعم النظرية الصهيونية الحديثة التي تعتبر جميع الأسماء الواردة في التوراة من أسماء أشخاص وأماكن عبرية أى يهودية بقصد إرجاعها إلى عهد العبريين (العبيرو) عن طريق الاستغلال في ذلك الخلط بين العبرى واليهودية الذى سار عليه في وقت متأخر للتمويه. إن العبرية القديمة هي في الحقيقة لغة عهد (العبيرو) أى الكنعانيين لأن العبرية بمعنى اليهودية متأخرة ولم تكن قد وجدت في ذلك العهد القديم. من ملاحظات - د. سوسة في كتابه السابق .

(٢) انظر ما تقدم عن الأخلامو والخبيرو في بحث الآراميين في الفصل الأول .

(٣) دائرة المعارف البريطانية ١٩٢٥ ، م١ ، ص ٤٥ .

وأما ما أورده الباحثون من أن كلمة «عبرى» مشتقة من عبر أى قطع نهرا أو غيره أو من «عابر» أحد أسلاف إبراهيم[1] فغير مستند إلى أى دليل أو أساس وهى من قبيل الحدس والاجتهاد، وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه الناحية حيث قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2] (آل عمران ٦٦ ، ٦٧)

ولهاتين الآيتين الشريفتين معنيان : المعنى الأول : هو أن إبراهيم ما كان على دين (يهوه – إله اليهود – بل كان حنيفا مسلما) كما تقدم . والمعنى الثانى : هو أن دور إبراهيم الخليل هو غير دور اليهود ولا يتصل بدور اليهود الأخير .

يتضح من التنبيه الذى ورد فى القرآن الكريم أن هناك من وقع فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه الكتاب العرب بربطهم عهد إبراهيم الخليل باليهود، وأن هذا التنبيه إلى أن إبراهيم الخليل ظهر قبل وجود اليهود وأنه لا يمكن أن يكون يهوديا ثم الإشارة إلى اتصاله بالجزيرة العربية (بيت الله العتيق) يتفق تماماً مع ما توصل إليه العلماء فى ضوء الاكتشافات الأخيرة، وعلى الباحثين أن يتبعوا ما نبه إليه القرآن الكريم فى هذا الموضوع، لأن استعمال كلمة عبرى بمعنى يهودى عندما يبحث عن تلك الأزمان القديمة لا يتفق مع المستند العلمى التاريخى فضلا عما يحدثه من ارتباك إذ يربط اليهود بأدوار تاريخية قديمة .

إله إبراهيم الخليل غير إله اليهود :

إن الإله الذى كان إبراهيم الخليل يدعو لعبادته هو غير إله اليهود الذى تصفه التوراة ، دعوة إبراهيم الخليل لعبادة الإله الواحد كانت دعوة عامة موجهة إلى جميع السكان الوثنيين فى عصره بلا استثناء . الإله الأوحد خالق السموات

---

(١) تكوين : (٣٩، ١٤–١٧، ٤٠ –١٥، ٤١ – ١٢ (خروج ١–١٥–١٦، ١٥–٢، ٧، ١١ و١٣).

(٢) وانظر تكوين : (١٠، ٢٤، ١١ :١٤) .

(٣) فتحى رضوان: «اليهود وبنو إسرائيل» الأهرام (١٧ / ١٠ / ١٩٧٢ ص) .

والأرض وجميع البشر، رب جميع المخلوقات بدون تمييز بين الأقوام[١]

ومما يؤيد ذلك أن إبراهيم الخليل لما استدعى عبده وأمره بأن يذهب[٢] إلى «حران» ليأخذ زوجة لابنه إسحاق من عشيرته هناك قال له: فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض ألا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن معهم[٣].

وقد ورد ذكر هذا الإله الذى دعا إبراهيم إلى عبادته باسم (إيل) في التوراة[٤] وهو مفرد لكلمة (أباهيم) الكنعانية المراد بها الجمع والتعدد، أى الآلهة، ومنه جاءت تسمية «بيت»[٥] و«إيل» هو الإله الذى تكلم مع هاجر[٦]

كما ورد هذا المصطلح نفسه فى نصوص الكنعانيين والآرامية ثم فى النصوص المصرية التى ترجع إلى عهد الهكسوس بهذا المعنى فقيل (يعقوب إيل) و(يوسف إيل) أى يعقوب الإله أو يوسف[٧] عملا بالطريقة التى كانت متبعة بإضافة اسم الإله إلى اسم الشخص تبركا به كما هو متبع الآن بتسمية الأشخاص بعبد الله وعبد الإله إلخ .. وذلك مما يدل على أن كلمة (إيل) بمعنى الإله الواحد كانت معروفة فى كنعان فى عهد إبراهيم الخليل وفى عصر الهكسوس الذى يليه أى قبل أن يظهر موسى واليهود بعدة قرون، ولما ظهر اليهود عبدوا إلههم الخاص بهم الذى سمى باسم (يهوه) وهو الإله الذى لا يهمه من العالم والخلق سوى اليهود وشعبه المختار ، وذلك على غرار مبدأ التفريد، وهو المبدأ الذى اعتنقه الأقوام القدماء عندما كانت كل مدينة تختص بإله واحد من بين مجموعة الآلهة بدون نبذها عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها[٨].وهو حاكمها وهو قائدها على صورة البشر، والبشر على

(١) فتحى رضوان: «اليهود وبنو إسرائيل» الأهرام (١٧ /١٠ / ١٩٧٢ ص ٧).
(٢) تكوين ١٤ : ١٩ .
(٣)تكوين ٣٤ : ٣ .
(٤) تكوين ١٢ : ٨ ، ٧٣٥ – ٨ ..
(٥) تكوين ١٢ : ٨ ، ١٣ : ٣ .
(٦) تكوين ١٦ : ١٣ – ١٤ .
(٧) انظر ما تقدم عن الهكسوس فى الفصل الأول وما تقدم عن إبراهيم وإسحق ويعقوب فى هذا الفصل .
(٨) طه باقر ، (مقدمة .. ، (ج ٢ ، ٣٠٣)

صورة الإله، مسكنه فى السماء وينزل أحيانا إلى الأرض، فيتفحص الأشكال البشرية، ويكلم البشر بصوت ولفظ ويأكل ويشرب إلخ .. "(١).

وهكذا كان الإله الذى تصوره اليهود إلها قَبَلِيًا خاصا بهم ويناقش آلهة الأقوام الأخرى ويحارب معهم كما كانت الحال عليه فى عصر دويلات المدن فى العراق القديم.

ولا يخفى أن دعوة إبراهيم الخليل للوحدانية الخالصة بدأت فى العراق وليس من فلسطين وهى موجهة إلى جميع الوثنيين فى عصره ولم تخطر ببال إبراهيم الخليل فكرة الشعب المختار، وهى البدعة التى اختلقها مدونو التوراة وأدخلوها فى الكتاب المقدس بعد ربطها بإبراهيم الخليل، إذ لا يمكن أن تكون هذه الادعاءات منزلة من الإله خالق السماوات والأرض الذى دعا إبراهيم الخليل إلى عبادته قبل أن يظهر اليهود بعدة قرون.

لذلك كله تُعتَبَرُ دعوة إبراهيم الخليل إلى الوحدانية الخالصة أول دعوة عامة للتوحيد بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد فى تاريخ البشرية، وهى عربية لغة ووطنا، كما جاءت بعدها رسالة محمد -عليه الصلاة والسلام- ، النبى العظيم خاتم الأنبياء، وقد نزلت عليه باللغة العربية أيضاً **لأن اللغة التى كان يتكلم بها إبراهيم الخليل والآراميون معه فى تلك الأزمان هى اللغة العربية الأم التى يرجع وطنها الأصلى إلى الجزيرة العربية، وكانت لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل، وذلك قبل أن تتفرق هذه اللغة الأصلية إلى لهجات مختلفة ضمن كتلة اللغات السامية**، وما كان الإسلام إلا ملة إبراهيم حنيفا.

يقول الدكتور هوميل: «ومما لا شك فيه أن اللغة الآرامية فى عصر أبرام (إبراهيم الخليل) كانت لهجة عربية، ويقصد هنا اللغة الأصليه التى كان يتكلم بها الآراميون فى الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها، لأن ما نسميه بالآرامية لم يظهر إلى

(١) تصور التوراة الإله كشخص يحارب بنفسه من أجل إسرائيل (خروج ١٤ : ١٤ يشوع١٠ : ٤٢، ٢٣، ٣) وله رجلان ويمشى كالإنسان (خروج ٢٤ : ١٠) ويكتب بأصبعه (خروج ٣١ : ١٨، ٢٣: ١٥ - ١٦، ١٩ ، ٣٤) ويندم على بعض أعماله (١ صموئيل ١٣ - ١٤ إلخ ...)

حيز الوجود إلا بعد زمن متأخر جدا وأن ما يعرف بآرامية التوراة آرامية عصر المسيح يرجع إلى زمن الفرس وأيام العصر المسيحي[١].

وقد ورد اسم الإله (إيل) مضافا إلى أسماء عدد من الملوك المعينيين ف اليمن ومنهم: «وقه - إيل» ، «يصدق إيل» ملك حضرموت ومعين الذى كان حكمه حوالى سنة ٢٠١ .ق.م و «يثع إيل» كما ورد اسم الإله إيل مضافا إلى أسماء بعض ملوك سبأ، والمعروف منهم «يدع إيل» «كرب إيل» وتر الأول والثانى والثالث والرابع والخامس «وهب إيل» ففى ذلك دليل واضح على ارتباط إبراهيم الخليل بالجزيرة العربية وأن الإله الواحد الذى كان يدعو إلى عبادته إبراهيم الخليل كان معروفا فى جزيرة العرب بصفته «الإله العلى» مثل ما كان معروفا عند الكنعانيين والآراميين بهذه الصفة، وأن إضافة اسمه إلى أسماء بعض ملوك اليمن دليل على أن اسم «ايل عربى الأصل أى الإله».

ومما يدل على أن عبادة إبراهيم الخليل للإله «إيل» منفصله تماما عن عبادة اليهودية للإله «يهوه» التى ابتدعها كتبة التوراة بعد عهد إبراهيم الخليل بأربعمائة وألف سنة، أن أسرة إبراهيم الخليل فى ثلاثة أظهر كانت تضيف اسم الإله «إيل» إلى أسماء زعمائها. فإبراهيم الخليل نفسه هو النبى الوحيد الذى سمى.. «خليل الله» كما ورد فى القرآن الكريم ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾[٢]

ومن المراجع أن كلمة «خليل» عربية مركبة من (خل) وإيل، بمعنى صديق اللاله (إيل). ومثلها اسم إسماعيل الذى معناه ليسمع اللاله (إيل) وكذلك اسم يعقوب (إسرائيل) الذى معناه عبد الإله «إيل».

ويؤيد المستشرق توربر ثوردارسون أستاذ اللاهوت فى جامعة إيسلندا كون ديانة التوحيد التى دعا إبراهيم الخليل إلى عبادتها هى خَاصَّةً به وبعشيرته ولا صلة لها باليهودية، فيقول فى ذلك: «لقد أظهرت المدونات الآشورية من القرن العشرين قبل الميلاد والكتابات التى تعود إلى العصور التى تلى ذلك أن دعوة إبراهيم تستند إلى

(١) Dr . F. Hommel "the Anicent Tradition" P. 202 .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٥ .

الإيمان بالإله العلى، وهذا يتفق مع الصورة التى نجدها فى التوراة (أنا إله ابراهيم أبيك)[١] فإبراهيم إذن هو مؤسس وحامل لواء هذه الديانة التى تدعو إلى عبادة الإله العلى وأصبحت تقترن بصلة وثيقة بعشيرته[٢].

ومما يذكر فى هذا الصدد أن التوراة عندما تتحدث عن إبراهيم الخليل وعن كلامه مع الإله تستعمل كلمتى «الله» و«إيل» وقال الله لإبراهيم ..[٣] مع أنها تستعمل أحيانا كلمة «الرب» ومثل ذلك هى الحال بالنسبة ليعقوب ثم قال«الله» ليعقوب قم واصعد إلى بيت «إيل» وأقم هناك واصنع هناك مذبحا لله ...[٤] وظهر الله ليعقوب: إلخ[٥].

أما الإله «يهوه» فإنه لم يبدأ استعماله إلا فى عهد النبى موسى (عليه السلام) إله اليهود وحدهم[٦].

النبوة الإلهية عربية لفظا ومعنى :

ويؤكد المرحوم الأستاذ العقاد أن الإسرائيليين (اليهود) تعلموا النبوة الإلهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب، ولم تكن لهذه الكلمة عند الإسرائيليين «اليهود» لفظة تؤديها قبل وفودهم إلى أرض كنعان ومحاورتهم للعرب المقيمين فى أرض «مدين» .

فيقول : «إن كلمة «نبى» عربية لفظا ومعنى، لأن المعنى الذى تؤديه: لا تجمعه كلمة واحدة فى اللغات الأخرى، والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بهم؛ لأنهم كانوا يسمون الأنبياء القدماء بالآباء، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار .. فكانوا يسمون «النبى»

(١) تك ٢٦ : ٢٤ .
(٢) دائرة للمعارف البريطانية طبعة ١٩٢٥ (٤٥٠)
(٣) تكوين ١٧ : ٩ .
(٤) تكوين ٣٥ : ١
(٥) تكوين ٣٠ : ٩
(٦) خروج ٦ : ٣ . ١٥ : ٦ ، ٦ : ٦ .

بالرائى[1] والناظر ، أو رجل «الله» ولم يطلقوا عليه اسم النبى إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين فى التوراة، وهم : «ملكى صادق وأيوب وبلعام وشعيب، الذى يسمونه «يثروب»، وهو معلم «موسى الكليم[2]».

وقد سمى «إبراهيم الخليل» برئيس الآباء[3].

ويستشهد «العقاد» : ببعض علماء الأديان الغربيين، الذين ذهبوا إلى تأييد اقتباس أتباع موسى كلمة النبوة من العرب مثل : الأستاذ / «هولشر» والأستاذ / «شميدت» اللذين يرجحان أن : الكلمة دخلت اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين فتسير التوراة إلى أن «عاموس» اغتاظ وغضب لما أطلق عليه اسم نبى وقال: لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبى بل إسرائيل[4] أنا راع وجانى جميز. فأخذنى الرب من وراء الضأن، وقال الرب : اذهب تنبأ لشعبى .

إلى وإيل:

يجد الباحثون صعوبة فى الاتفاق على تعيين أصول أسماء مثل:

أل-

إيل .

وضبط معانيها، وهناك أسماء واضحة، جلية ظاهرة، تدل على أشياء معروفة محسوسة مثل : شمس – ورخ بمعنى قمر – وعثتر– والشعرى العبور – ونجم – وثريا – وأمثال ذلك من أسماء تشير إلى أشياء مادية هى كواكب ونجوم، ويستدل بها على وجود عبادة الأجرام السماوية عند الجاهليين. وهناك أسماء هى نعوت فى الواقع لا تدل على ظواهر حسية؛ وإنما تعبر عن أمور معنوية مثل: ودّ ، بمعنى حبّ – ورضى– وسعد– وحكم– ونهى– ورحمن– ورحم– والرحيم – ومحرم.

---

(١) عا (٧ : ١٢)

(٢) – خر (٧ ٩٤

(٣) عا (٧: ١٤ ، ١٥)

(٤) العقاد – الثقافة العربية ص ٧١ .

وأمثال ذلك من ألفاظ هي نعوت جرت بين الناس مجرى الأسماء. وعلى هذه الصفات الأسماء سيكون جلّ اعتمادنا في استنباط الصورة، التي نريد تكوينها عن طبيعة آلهة العرب الجنوبيين .

وعلينا أن نضيف: على ما تقدم الأعلام المركبة المضافة للأشخاص مثل: عبد ود – عبد مناف – عبد شمس – عبد يغوث – أمت العزى –

فالكلمات الثانية من الاسم، أسماء أصنام – وفي تركيب الاسم على هذا النحو دلالة على تذلل الإنسان تجاه ربه، واعتبار نفسه عبداً له، وفيه تعبير عن صلة الأشخاص بربهم. أضف إليها الأعلام المركبة تركيبا إخبارياً مثل:

ود أبم – أى ود أب أو أب ود.

ففي هذا التركيب دلالة على حنو الإله على المؤمنين به، وإشفاقه عليهم إشفاق الأب على أولاده.

ومن بين أسماء الآلهة. أسماء مركبة استهلت بـ (ذ) أو ذتع، [ذأ] بمعنى [ذو] في عربيتنا، [ذت] بمعنى [ذات]، [ذ] للمذكر، [ذات] للمؤنث .

أما الكلمات التالية فهي صفات . فجملة:

عثتر ذ قبضم . تدل على إله ذكر ، اسمه عثير ذو القبض . أو عثتر القابض – بتعبير أصح .

وجملة [ذشقرن]،[ذصهرم]،[ذعذبتم]،[ذيسرم]،[ذايني] هي جملة تشير إلى إله ذكر لوجود (ذ) علامة التذكير فيه. [وجملة ذت حمم] [ذت بعدن]، (ذت) (سرن)، (ذت غضدن) تشير إلى إلهة إناث لوجود ذت في الاسم.

ومعنى هذا أن العرب الجنوبيين كانوا قد جعلوا الآلهة كالإنسان إناثا وذكوراً .

وكل اسم ورد في المسند استهل بلفظة [ذت]،[ذات] فيراد به «الشمس» ، وهي إلهة.

وكل لفظة بدأت بـ[ذ] ،[ذى] ، فإنها تعني: إلها هو «القمر» أو «عثتر». فنحن أمام ثالوث سماوي يمثل عقيدة الجاهليين في الألوهية. كما يمثل عقيدة الساميين عموماً .

والثالوث السماوى هو نواة الألوهية عند جميع الساميين، ومنه انبثقت عقيدة التوحيد فيما بعد .

«وعثتر» هو :

النجم الثاقب، المذكور فى القرآن الكريم. فى قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾ سورة الطارق آية ٣ .

وقد ذهب المفسرون: إلى أن العرب كانت تُسمى «الثريا» النجم. وذكر بعض منهم : أن «النجم الثاقب» هو «زحل» والثاقب الذى قد ارتفع على النجوم .

وذكر بعض آخر : أن النجم الثاقب هو «الجدى».

وأقسم فى موضع آخر من القرآن الكريم بـ : «النجم» فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ سورة النجم آية ١ .

ونحن لا يهمنا هنا اختلاف علماء التفسير فى تثبيت المراد من النجم : إنما يهمنا أن المراد به النجم من النجوم . فنكون أمام ثالوث معبود هو : .

الشمس – القمر – النجم الثاقب الذى هو «عثتر» فى نصوص العرب الجنوبيين

وقد ذكر أن العرب تعبدت «للشمس» «وللقمر». وأن طائفة منها تعبدت لكواكب أخرى مثل :. الشعرى.

حيث : تعبدت لها خزاعة وقيس .

ومثل: سهيل :

حيث : تعبدت لها طيئ.

ومثل : الزهرة :

وقد تعبد لها أكثر العرب .

ومثل : زحل :

وقد تعبد له أهل مكة حتى أن من الباحثين من زعم أن الكعبة كانت معبداً لزحل في بادئ الأمر .

المشترى :

وتعبد للمشترى قوم من لخم وجذام .

ونجد في الكتابات العربية الجنوبية جملة :ود أبم :

أى : «ود أب» ، « وأبم ودم» أى «أب ود» . كما نجد جملة : ولدود :.

أى : أولاد «ود» بمعنى شعب معين. وتعبر الجمل الأولى عن معنى أن الإله «ود» هو إله شفيق رحيم عطوف على الإنسان هو بالنسبة له بمنزلة الأب من الابن. فهو أب للإنسان لا بالمعنى الحقيقي بالطبع أى : بمعنى أن الإنسان انحدر من صلبه، بل بالمعنى المجازى الذى أشرت إليه .

وبهذا المعنى نفسر جملة «أولاد ودّ»– تعبيراً عن شعب معين فالإله «ود» هو أب هذا الشعب يحميه ويدافع عنه ، ويعطف عليه. وبهذا المعنى : وردت أيضاً جملة :ولدعم : عند القتبانيين .

وولد المقة : عند السبئيين .

فـ «عم» ، الذى هو «القمر» في لغة القتبانيين هو بمنزلة الأب لشعبه وكذلك : «المقه» الذى هو «القمر» في لهجة سبأ .

وقد عبر عن «الشمس» بلفظة: هـ الت :

أى – الآلهة في النصوص العربية الشمالية، وقيل لها : «نكرح» في النصوص المعينية، ذت حمم .

ذات حميم .

في النصوص السبئية . كما قيل لها :.

ذت بعدن : ذت غضرن – ذت ظهرن :

فى هذه النصوص كذلك ، وقيل لها :.

ذت صنم : ذت صهرن .

وقد وردت : لفظة «حميم ويحموم» فى القرآن الكريم. فى سورة الواقعة آية٣.

والحميم : الحار الشديد الحرارة، المتقد من شدة الحر، الساخن الشديد السخونة .

وقد ذكر علماء التفسير أن : «اليحموم» دخان حميم، ودخان شديد السواد يخرج من نار جهنم . فمعنى :

ذت حمم :

إذن الإلهة ذات الحرارة الشديدة، المتقدة المهلكة، التى تلفح وتحرق. والشمس نفسها حارة، ملتهبة متقدة. لذلك : يكون الناس قد أخذوا صفتها هذه منها فأطلقوها عليها، وصاروا ينعتونها بها، ويخيفون الناس منها بانتقامها منهم إن خالفوا أمرها، وعملوا عملا يثير غضبها عليهم.

ويقابل هذه الآلهة :.

ذات الحميم : الإله

الحمون.

-بعل حمون . عند الساميين الشماليين.

فهذا الإله الذكر عند الساميين الشماليين بسبب أن لفظة الشمس نفسها مذكرة عندهم. هو «ذو حميم»، و«حما» أى: ذو سخونة وحماوة، وشدة حرارة. وقد نعت عندهم بالنعت الذى نعت به عند العرب. فهو إله ذو حرارة مفزعة، وحميم لا يوصف.

وقد استمد هذا الوصف من الطبيعة بالطبع. فالشمس مبعث الحرارة على هذه الأرض، يدرك الإنسان حرارتها فى كل مكان . فهى إذن: ذات حمم حقاً [١].

وقد يُعبّر عن «الشمس» بـ «الفرس». و«الفرس» : من الحيوانات التى قدسها قدماء الساميين .

وقد كان العرب الجنوبيون يتقدمون بتماثيل «الخيل» تقرباً إلى الآلهة، ومنها الإلهة «ذت بعدن» أى البعيدة وهى «الشمس».

وأما : «عثتر» ، الذى هو «الزهرة» فيرد اسمه فى نصوص عربية جنوبية كثيرة. ولاسمه هذا صلة بأسماء بعض الجاهليين الواردة إلينا مثل :. «أوس عثت» بمعنى «عطية عثتر».

وفى الكتابات العربية الجنوبية أسماء يُظن أنها تخص الإله «عثتر» منها :.

ذ قبضم – ذ يهرق – متب نطين – متب مضجب . وغيرها .

وقد عرف «عثتر» بـ «الشارق» فى الكتابات فورد :.

«عثتر شرقن» . أى : «عثتر الشارق» وعرف بـ «شرقن» فقط[٢].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى : أن المراد من «شرقن» بمعنى «الطالع من الشرق» وهو تفسير رده بعض آخر من الباحثين . إذ رأوا : أن «شرقن» بمعنى «الشارق» . وهى لفظة ترد فى اللهجات العربية الشمالية . وورد فى بعض كتابات المسند : .

«ذغربم» ؛ «عثتر ذغربم» : أى «الغارب» ، و«عثتر الغارب»، ومعنى ذلك: «نجمة الغروب» أو : «نجمة الماء» «وكوكب الماء» فى مقابل: «نجمة الصباح» و«كوكب الصباح».

---

(١) المفصل جـ٦ ص ١٦٨ ، ص ١٦٩ .

(٢) تاج العروس مادة «شرق» .

وورد : «عشتر ثورو» أى : «عشتر نور» . ونور صفة من صفات الله تعالى فى الإسلام. قال تعالى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولفظة «نورو» هى نعت من نعوت «عشتر» .

وورد «سحرن» بمعنى : السحر، والسحر قبيل الصبح، وآخر الليل. فيراد بذلك «كوكب السحر» أى : الكوكب الذى يطلع عند طلوع السحر. كما ورد « متب نطين» أى إلى مل للرطوبةوورد : «عشتر قهحم» أى: ثتر القديم، وعشتر القادر والقاهر. و«سمعم» أى : السميع، و«يغل» بمعنى المدمر والمنتقم .

وقد ورد : هذا النعت فى أحجار القبور بصورة خاصة. وذلك لتذكير من يحاول تغيير الحجر أو أخذه من موضعه، أو تدميره أو إلحاق أذى به، أو الاستفادة منه فى أغراض أخرى بأنه فى حماية إله قدير منتقم[١] .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الإله «رضى» الذى يرد فى النصوص «الثمودية» و«الصفوية» هو الإله «عشتر» وهو : صنم ذكره أهل الأخبار . لكنهم: لم يذكروا شيئا عن صلته بالكواكب، ولا عن المعبود الذى يمثله[٢] .

وقد ورد : فى الأخبار المتعلقة بـ «الرها» أن أهل هذه المدينة كانوا يعبدون «الشمس» ، ويعتقدون بوجود إله يطلع قبلها، اسمه :«إزيزوس» Azizos وإله يظهر بعدها يسمى: «مونيموس» .

وذهب الباحثون: إلى أن «أزيزوس» هو «عزيز» وهو نجم الصباح، ويطلع قبل طلوع الشمس ويمثل «رضى وعشتر» .

ويرد : اسم «رضى» فى الكتابات التدمرية كذلك .

«وعزيز والعزيز» : من صفات الله تعالى فى الإسلام .

وقد ذهب : بعض الباحثين إلى أن الصنم المنحوت على شكل طفل هو رمز «عشتر أى رضى ، وعزيز» . وقد حفر على شكل طفل عارى الجسم فى الكتابات التدمرية .

---

(١) المفصل جـ ٦ ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٢) السابق جزءا وصفحة، Handbuch, I , S . 229 .

أما - «الشمس والقمر» : فقد مثلا إنسانين كاملين . ونجد هذا التصور للآلهة في الديانات الفطرية، التي استمدت أدراكها لكنه الآلهة عن مظاهر الطبيعة .

ولعل تصور الجاهليين الإله: «رضو» على هيئة طفل هو الذى يحل لنا المشكلة الواردة فى أخبار «نيلوس» عن تقديم العرب قرابين أطفالاً لكوكب الصباح .

ذكر «نيلوس» : أن العرب سرقوا ابنه الجميل الصغير «ثيودولس» وقرروا : تقديمه قرباناً لكوكب الصباح، وقد قضى الطفل ليلة تعسة، صعبة. فلما طلع الكوكب، وحان وقت تقريب الطفل قرباناً له. نام مختطفوه ولم يستيقظوا إلا وقد طلعت الشمس وفات وقت القربان؛ وبذلك نجا الطفل من الهلاك .

وقد تُفسر جملة: «إننا نقدم لك قرباناً يُشبهك» ؛ الواردة فى دعاء «عثتر» على نصه فى «حران» . قصة تقديم الأطفال الجميلة قرابين إلى هذا الإله .

وقد أشار كتاب يونان إلى تعبد العرب إلى الشمس، والقمر وكوكب الصباح. وهى أجرام سماوية تراها العين، ذاكرين أن العرب لا يتعبدون لآلهة روحية، لا يبصرونها بأعينهم. ولهذا: تعبدوا لهذه الأجرام المادية وللأحجار[1] .

الاتجاه نحو الوثنية وأصنامها

رحلة إبراهيم

الكعبة مركز دينى قديم عده المؤرخون أحد البيوت السبعة المقدسة، ووصفه القرآن بأنه أول بيت وضع للناس وهو الذى بمكة مباركا فيه آيات بينات، ويسند القرآن تجديد بنائه إلى إبراهيم وإسماعيل فيقول .

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

ويقول: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

وليس فى القرآن ما يدل على أن إبراهيم دعا سكان البلد الحرام أو من جاورهم إلى دعوته الحنيفية، وكل ما أشار إليه القرآن أن إبراهيم كلف بأمرين :

---

(١) نص ص ١٧١ من جـ ٦ من المفصل .

الأمر الأول: إيداع إسماعيل وأمه في جوار البيت .

الأمر الثاني: بناؤه هو وإسماعيل البيت الحرام .

كانت مكة وهي المدينة الرئيسية بالحجاز والتي اشتق اسمها من كلمة (محراب) بلغة أهل سبأ[١] تضم ما لايقل عن ثلاثمائة وثن ترضى كل ذوق .

أي أوجدت كل قبيلة وكل أسرة بل كل محراب مستقل طقوس دينه ومادة عبادته كما عمدت إلى تغييرها ولكن الأمة العربية في كل عصر خضعت لدين مكة كما أحنت الرأس أمام لهجتها .

ويرجع تاريخ الكعبة حقا إلى ما قبل العصر المسيحي. وقد لاحظ المؤرخ اليوناني «ديودوروس» في وصفه لشاطئ البحر الأحمر أن هناك معبدا شهيرا يقع بين أرض ثمود وأرض سبأ يبجّله العرب لما له من قدسية سامية .

وجدير بالذكر أن الكسوة المصنوعة من التيل أو الحرير كان أول من قدمها ملك تقي من ملوك حمير عاش قبل زمن محمد بسبعمائة سنة[٢].

وتعتبر مكة من البلاد القديمة قدم بيتها. وكان اليونانيون يعرفون مكة ويطلقون عليها «ماكواريا» يقول جيبون: وهذا يدل على عظمة هذه البلدة.[٣].

ويبدو أن اسم مكة[٤] لم يكن معروفا قبله وذلك يظهر من قول إبراهيم حكاية عنه في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾.

---

(١) العرب ص ٢٢ لتتج ترجمة د. راشد البراوي .

(٢) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها تأليف: إدوارد جيبون .
ترجمة : د. محمد سليم سالم . مراجعة محمد أبو درة.

(٣) المرجع السابق ص ١٣ جـ ٣ .

(٤) أسماء مكة: من تمككت العظم إذا اجتذبت ما فيه من المخ وتمكك الفصيل ما في ضرع الناقة. فكأنها تجذب إلى نفسها ما في البلاد من الناس والأقوات التي تأتيها من المواسم. وقيل لما كانت في بطن واد فهي تمكك الماء من جبالها عند نزول المطر وتنجذب إليها السيول، قال الراجز :

إذا الشريب أخذته أكه فخلّه حتى تبك بكه

فالأكه : الشدة وأكاك الدهر : شدائده.

بكة : من أنها تبك الجبارين أي تكسرهم وتقرعهم. وقيل من التباك وهو الازدحام.

قال أبو عبيدة أن بكة اسم للبطن لأنهم يتباكون فيها أي يزدحمون.

وأيضا يذكر من أسمائها: الرأس – وصلاح – وأم رحم – وكوثا.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾.
(إبراهيم)

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ (الحج)

وواضح من الآيات أن نبى الله إبراهيم لم يدعها مكة وإنما دعاها: بواد غير ذى زرع مرة، وبلدا آمنا مرة أخرى، والبلد الأمين الثالثة.

ثم يذكره الله –تبارك وتعالى– بقوله ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾

فلم تذكر مكة فى الروايات التاريخية للقرآن – كما رأينا – وفى هذا مدخل لبعض مؤرخى اليهود أو المسيحية لينكروا رحلة إبراهيم إلى مكة وبناءه البيت حيث لم يسمعوا ذاكراً لمكة، ويذكر المؤرخون المنصفون بعض الأسماء القديمة التى تشير إلى ذلك : يقول الشهرستانى : نقلا عنهم وكما ورد فى التوراة : إن الله تعالى جاء من «طور سيناء» وظهر «بساعير» واستعلن «بفاران» .

وساعير: جبال بيت المقدس التى كانت مظهر عيسى –عليه السلام–: وفاران: جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى ﷺ . فمن يتمعن الآيات القرآنية يجدها لا تشير من خلال رواياتها التاريخية إلى أن إبراهيم سماها مكة.

ويغلب فى وجهة نظرى من خلال آيات القرآن: أن إبراهيم سار بهاجر وابنه إسماعيل بوحى إلهى وليس كما تزعم الروايات الأخرى أن سارة طردتها ولطمتها فتلك نزعة عرقية من اليهود تراودهم فى كل وقت: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾. هذه النزعة صورت لهم دائماً أنهم سلالة واحدة وعنصر لا يزاوج العناصر الغريبة عنه وهذا الإسراف فى فهم الذات جعلهم مولعين بتزييف بعض الروايات التاريخية التى تخدم فكرتهم. ولذلك حدث أن نبى الله إبراهيم سار بهاجر وإسماعيل وفق نداء الله وحكمته فى قوله ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ فكانت المسيرة ذات هدف وظيفى وليست طردا أو غضبا، ولنا فى ذلك حجة بالغة هى قوله تعالى:﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾، وأما تساؤل أهل الكتاب عن مصدر معرفة الرسول من أين استقى أخباره عن إبراهيم وبعضها

غير موجود فى التوراة والإنجيل فإن الله رد عليهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ آل عمران :

فروايات التوراة والإنجيل كانت من بعده فلا تنهض حجة لموقف سارة من هاجر[1].

ومما نحب أن نقرره : أن الآيات القرآنية الخاصة بإسماعيل وصفته بالنبوة والرسالة معا فهو نبى ورسول، واشترك مع والده فى بناء البيت وإعداده مثابة للناس وأمنا. غير أن القرآن لم يوضح أو لم يشر إلى أى قوم كان مبعثه، من العرب أو غيرهم. ويبدو أن رسالته كما أشار القرآن كانت إلى أهله.

قال تعالى :﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾(سورة مريم) وأهله هم الذين حطوا بجوار زمزم وتزوج منهم. ومما أشار إليه القرآن أنه كان من الصابرين. قال تعالى ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنبياء)

وعلى الرغم من أن دعوة إسماعيل كانت إلى ذلك الرهط الذى نزل بجوار زمزم وتزوج منهم إسماعيل فإنه لقى منهم عنتا ورهقا استلزما أن يصفه القرآن بأنه كان من الصابرين، ويبدو أن قريشا خلفهم لم يكونوا بأحسن حالاً من سلفهم أصهار أبيهم إسماعيل.

ومما يحسن الالتفات إليه أن رسالة إسماعيل كانت لا تخرج عن ملة إبراهيم لأن القرآن كثيراً ما كان يذكر العرب بأن الإسلام ملة إبراهيم حنيفا هو

(١) يقول أبو حيان صاحب التفسير (٢١٧:١) إنهم ذكروا قصصا كثيرة واستطردوا من ذلك للكذب فى شأن البيت المعمور، والحجر الأسود، وطولوا فى ذلك بأشياء لم يتضمنها القرآن ولا الحديث الصحيح وبعضها، يناقض بعضا وذلك على مجرى عادتهم ولا ينبغى أن يعتمد إلا على ما صح فى كتاب الله وسنة رسوله. قال ابن عطية : والذى يصح من هذا كله أن الله أمر إبراهيم برفع القواعد من البيت .

سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا ما يشير إلى أن ملة إبراهيم هى دعوة إسماعيل غير أنه أسند إليه أمر الدعوة فى قومه العرب. فمنذ أن أقام إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت مثابة للناس وأمنا ودين التوحيد قائم معه لولا ما طرأ عليه من عوامل التغيير، وقد أصبحت رحلة إبراهيم تعنى إقامة أهله حول البيت ثم رفع قواعده وتأسيس دين التوحيد، ومن بقى من العرب على بقية من دين إسماعيل قبائل: «معد وربيعة ومضر الذين كانوا جميعا على بقية من دينه»[١].

«والدين العربى القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلى الآشورى المعقد، كما أن ذلك الدين العربى القديم هو الذى مهد لهذا الطور التاريخى للدين العربى اليهودى مع حرصه على الاحتفاظ بدين الآباء، دين الصحراء البدائى الذى دان به آباء الشعب وأجداده الأولون كما أنه بقى زمنا طويلا موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين: السامية الشمالية والسامية الجنوبية والذى تحول أخيراً إلى الثالوث الإلهى (أب وابن والروح القدس) ومن ثم خطا خطوة إلى التوحيد المسيحى فى صورته القديمة التى نعرفها فى الحضارة العربية القديمة»[٢].

ومن بين الباحثين المتخصصين الذين أكدوا الدور الفعال الذى أداه الساميون العرب من شبه جزيرتهم العربية فى التحول السياسى أو الحضارى لمنطقة الشرق الأدنى وعلاقته الوثيقة بالعنصر السامى كما يقرر المستشرق الألمانى دكتور أنطوان موتكات رذ يقول: «لا تعتبر بلدان الشرق الأدنى مركز الديانات فحسب بل مصدر الإشعاع الدينى الذى أنار الأرض بكاملها»[٣].

ويؤيد هذا ما يشير إليه الكلبى فى رواية أخرى غير رواية عمرو بن لحى إلى أن الوثنية طارئة والأصل عندهم عبادة التوحيد التى كانت أثرا من دعوة إبراهيم وإسماعيل فيقول: وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنا منهم بها أو صبابة بالحرم حبا له، ففكرة الأحجار المقدسة نشأت من حبهم لمكة.

---

(١) الأصنام ص ١٣ للكلبى تحقيق أحمد زكى باشا .

(٢) يراجع العرب واليهود فى التاريخ ص ١٩٨ د. أحمد سوسة .

(٣) التاريخ العربى القديم ص ٥٣ د . دنتلف نيلش ورفاقه .

وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم[١]. يقول المقدسي: وكان في مشركيهم بقية من دين إسماعيل كالنكاح والختان والمناسك وتعظيم الأشهر الحرم وغير ذلك[٢].

وذكر الشهرستاني من سننهم التي وافقهم عليها القرآن فقال: قال محمد ابن السائب الكلبي: كانت العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها: كانوا لا ينكحون الأمهات، ولا البنات، ولا الخالات، ولا العمات.

وكانوا : يطلِّقونَ ثلاثاً على التفرقة، وقال عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما–: أول من طلق ثلاثا على التفرقة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وكان العرب يفعلون ذلك، فيطلقها واحدة وهو أحق الناس بها، حتى إذا استوفى الثلاث: انقطع السبيل عنها. ومنه قول: «الأعشى: ميمون بن قيس» حين تزوج امرأة فرغب قومها عنه، فأتاه قومها، فهددوه بالضرب أو يطلقها.

أيا جارتا بيني فإنك طالقـــــة   كـــذاك أمور الناس غاد وطارقه

قالوا : ثنه، فقال:

وبيني، فإن البين خير من العصا   وأن لا ترى لي فوق رأسك بارقه

قالوا: ثلث ، فقال:

وبيني حصان الفرج غير ذميمة   وموموقة قد كنت فينا، ووامقة

قال: وكانوا يحجون البيت ويعتمرون، ويحرمون ، قال «زهير»:

«وكم بالقيان من محل ومحرم»..

ويطوفون بالبيت سبعا، ويمسحون بالحجر، ويسعون بين الصفا والمروة، قال أبو طالب:

---

(١) الزصنام ص ٦.
(٢) البدء وأي تاريخ (٤ : ٣٣)

وأشواط بين المروتين إلى الصفا   وما فيهما من صورة وتخايل

وكانوايلبون ، إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته، بقوله: «إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» ، ويقفون المواقف كلها، قال العدوى:

فاقسم بالذى حجت قريش   وموقف ذى الحجيج على اللآلى

وكانوا يهدون الهدايا، ويرمون الجمار، ويحرمون الأشهر الحرم، فلا يغزون ولا يقاتلون فيها... إلا «طيئ» وخثعم وبعض «بنى الحارث بن كعب» . فإنهم كانوا لا يحجون، ولا يعتمرون، ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام وكانوا يكرهون الظلم فى «الحرم» ، وقالت امرأة منهم تنهى ابنها عن الظلم :

أَبُنَيَّ ! لا تظلم بِمَكَّةَ لا الصغيرَ، ولا الْكَبِيرْ
أَبُنَيَّ من يظلم بِمَكَّةَ يلقَ أطراف الشُّرُورْ
أَبُنَيَّ ! قد جربتُها فوجدتُ ظالمها يَبُورْ

قال صاحب «الرَّوْضَ الأُنُفُ» :

وينسبون إلى الوليد بن المغيرة قوله: يا معشر قريش لا تُدْخِلُوا فى بنائها من كسبكم إلا طيِّباً،لا يدخل فيه مهر بغِيٍّ،ولا بيع ربا،ولا مظلمة أحد من الناس .

ثم قال معلقاً:

وهو يدل على أن الربا كان محرما عليهم فى الجاهلية كما كان الظلم والبغاء. وكانوا يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع إبراهيم، كما كان بقى فيهم الحج والعمرة وشئ من أحكام الطلاق والعتق .

وفى هذا ما يفيد ويقوى ما نحن بصدده: وهو أن الدعوة إلى التوحيد رافقت بناء البيت، وإذا كانت ملة إبراهيم هى الملة الكبرى، فإن رحلته فى التاريخ هى الرحلة الكبرى إذ كان لها أثرها فى فلسطين، وكان لها أثرها فى مكة، وأن الإله «إيل» هو إله إبراهيم الذى أصبح دينه منتشرا من مكة إلى فلسطين، وأنه ما دعا إلى الله إلا بعد أن حارب الصابئةوأبطل عبادة التنجيم،وحارب الوثنية وجعل مسئولية تحطيمها على صنمهم الأكبر إمعانا فى الزراية بهم.

ولقد كانت الكعبة حرم الله الآمن: موطناً لدعوة إسماعيل وأهله من نسله، فكانت منذ أن عهد الله ببنائها إلى إبراهيم وإسماعيل هى محل تقديس، وأرضا لدين سماوى أقامه إسماعيل فيها وحولها، إلى أن آلت مقاليدها إلى جرهم ظلما من ولد إسماعيل – ورأى ولد إسماعيل عدم منازعتهم لخئولتهم من جهة وإعظاما لحرمة البيت من جهة أخرى.

بيد أن جرهم بغوا فيها واستحلوا كثيرا من الحرمات: فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها فتفرق أمرهم، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة «لعلها مناف» بن كنانة وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا على حربهم وإخراجهم من مكة، فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفوهم من مكة وآل أمر البيت إلى رئيسهم عمرو بن لحى .

وكانت مكة فى الجاهلية لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته.

كيف نشأت:

أمامنا روايتان تتحدثان عن نشأة الوثنية العربية .

الأولى نرى أنها وافدة والثانية نرى أنها نشأت نشأة محلية .

أما عن الراوية الأولى فإنها وفدت مع عمرو بن لحِي حِين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة، وقد جعلته العرب ربا لا يبتدِع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة؛ لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم، وتذكر الرواية التاريخية أنه أول من أدخل الأصنام فى الحرم .

يقول الرازى المفسر : اعلم أن اليونانيين كانوا قبل خروج الإسكندر قد عمدوا إلى بناء هياكل لهم معروفة بأسماء القوى الروحانية والأجرام النيرة واتخذوها معبدا لهم على حدة وقد كان هيكل العلة الأولى عندهم هو الأمر الإلهى .

وهيكل العقل الصريح .

وهيكل العامة المطلقة .

وهيكل النفس والصورة وقد كانت مدورات كلها.

وكان هيكل زحل مسدسا.

وهيكل المشترى مثلثا .

وهيكل المريخ مستطيلا .

وهيكل الشمس مربعا .

وهيكل عطارد مثلثا في جوفه مستطيلا فى ظاهره.

وهيكل القمر مثمنا.

فزعم التاريخ: أن عمرو بن لحى لما ساد قومه وترأس على طبقاتهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة إلى البلقان فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أربابنا نستنصر بها فننصر ونستسقى فيها فنسقى. فالتمس إليهم أن يكرموه بواحد منها فأعطوه الصنم المعروف «بهبل» فسار به إلى مكة ووضعه فى الكعبة ودعا الناس إلى تعظيمه، وذلك فى أول ملك «سابور ذى الأكتاف».

وواضح من هذه الرواية أنها تسند أول عملية أدخلت فيها الأصنام للحرم إلى عمرو بن لحى، وأنه أتى بها من اليونان، فالوثنية اليونانية دخلت مكة، وهذا من الآثار اليونانية، وهذه الرواية[١] يبدو أنها أكيدة لأن الأصنام غير «هبل» كانت حجارة خالية من الفن، والذوق الجمالى، فلو أنهم أبدعوها لألبسوها مسحة فنية جمالية، وفى هذا ما يشير إلى أن العربى غير من دينه الحنيفى، لكنه ظل محبا لرمزياته المقدسة، ومن أهمها الكعبة فحينما ابتدع أصناما أو حينما أتى بها من الخارج فى بعض رحلاته رأيناه يودعها فى الكعبة، فالرمزيات عند العربى، لا تخرج عن معنى: الإلف، والعادة، والإرث، ولا تحمل لديه مضمونا فكريا أو دينيا، لذلك كنا نراه لا يعنى بالدين فى شئ، فالمعنى الدينى عنده لا يخرج عن معنى العصبية القبلية، ولعل ما قاله لهم عمرو بن لحى: نستنصر فننصر، وقد صارت عقيدة بينهم توارثوها، ونراها: ظهرت على

(١) راجع تفسير الفخر الرازى : (١ - ٢٣٢) وفتح البارى : (٨ - ٤٧٢) ابن هشام ص ٦٢ ظ والروض الأنف: (١ - ٦٢)

لسان عبد المطلب وهو يفاوض أبرهة حينما قال له: «أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه»، وتعنى هذه العبارة فى نظرنا أن العربى يتميز بنظرته المادية، هذا من ناحية، وأما من ناحية الموقف العربى القبلى أمام أبرهة فلم يظهر بالمستوى اللائق به فإنه كان قبليا فى تشتته وليس عربيا، فالوحدة العربية ظهرت مع الدعوة الإسلامية، ولعل ذلك يرجع فى نظرنا إلى العربى نفسه، حين أيد وجهة نظر العربى المفاوض: إن الأمان يتحقق عند العربى حين يأمن اقتصاديا ولو أوذى الدين وليس الأمان فى الدين، حين يهدّد الاقتصاد، وكانت هذه النظرة من أهم ما كافحها الإسلام.

ونظرته المادية هذه هى التى دفعتهم -وفقا لما يقول المؤرخون الإسلاميون- إلى الاعتقاد أن فكرة الحجر المقدس نشأت أساسا من حبه للكعبة وارتباطه الدينى بها منذ أن بناها أبوه إبراهيم وربط بها ملته الحنيفية، غير أن العربى أكثر من الرمزيات المحسوسة دون مضمون فكرى وراءها فكانت وثنيته من غير مضمون فكرى، وكانت أصنامه من غير مسحة فنية، وكانت الوثنية العربية ساذجة.

وأما عن الرواية الثانية فإنها ذُكِرتْ فى أكثر من مصدر. يقول الألوسى: «وقد بلغ تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجرا من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت ثم يجعله فى طريقه قبلة ويطوف ويصلى له تشبيها بأصنام البيت، ثم أفضى بهم الأمر بعد طول المدة إلى أن كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه فلذلك كان أصل عبادة العرب للحجارة فى منازلهم شغفا منهم بأصنام الحرم وليس تذوقا للمعنى الدينى القويم.

ثم نعود فنقول نحن بين روايتين:

رواية عمرو بن لحى التى تقرر أن الأصنام وافدة من اليونان، أى نشأت عن مصادر خارجية .

والرواية الثانية: تقرر أنها ليست وافدة وإنما هى من صنعهم، أى نشأت نشأة محلية، ولا مانع لدينا أن نأخذ بالروايتين معا، على أساس أن عمرو بن لحى استقدم

التماثيل حتى يوافق هوى قومه من حبهم للأحجار وتصبح هذه الرواية مخصوصة بالأحجار المصورة المنحوتة وليس بأصل عبادتها.

الأصنام :

نجد : في كتاب الأصنام لابن الكلبي، وفي المؤلفات الإسلامية مثل: المخصص. لابن سيده: أسماء عدد من الأصنام. كان الجاهليون يعبدونها وهي على الأكثر: أصنام كان يتعبد لها أهل الحجاز ونجد، والعربية الشمالية. وذلك قبيل الإسلام.

ومن هذه الموارد الإسلامية : استقينا علمنا عن هذه الأصنام. وهي أصنام ذكرت في القرآن الكريم، في قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ.... ﴾ إلخ الآية سورة النجم آية ١٩ .

ويجب أن نضيف إليها «الشمس»[١]

(أ) اللات :

ذكر ابن الكلبي: أنه كان صخرة مربعة بيضاء، بَنَتْ «ثقيف» عليها بيتاً، صاروا يسيرون إليه، يضاهون به الكعبة، وله حجبة، وكسوة، ويحرمون واديه. وكانت سدانته: لآل «أبي العاص» ابن «أبي يسار» ابن مالك من ثقيف، أو لبني عتاب بن مالك. وكانت قريش، وجميع العرب يعظمونه أيضاً، ويتقربون إليه. حتى إن ثقيفاً كانوا إذا ما قدموا من سفر توجهوا إلى بيت «اللات» أولاً للتقرب إليه وشكره على السلامة. ثم يذهبون بعد ذلك : إلى بيوتهم،وقد كانت له معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من الحجاز[٢].

وذكر ابن كثير أن «اللات» صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف،وهم ثقيف ومن تابعها،يفتخرون بها على مَنْ عداهم من أحياء العرب بعد قريش. وكانت في داخل بيت له أستار على شاكلة الكعبة[٣].

(١) – المفصل جـ٦ ص ٢٢٧.

(٢) – السابق جزءا و صفحة.

(٣) السابق جـ٦ ص ٢٢٨ ، تفسير ابن كثير ص ٢٥٣ ومابعدها.

وللإخباريين روايات عن صخرة «اللات» . منها أنها فى الأصل صخرة كان يجلس عليها رجل يبيع السمن واللبن للحجاج فى الزمن الأول. وقالوا: إنها سميت «باللات» لأن: «عمرو بن لحى» كان يلت عندها السويق للحجاج على تلك الصخرة.

وقالوا : بل كانت «اللات» فى الأصل رجلاً من ثقيف. فلما مات قال لهم «عمرو بن لحى» : لم يمت، ولكن دخل فى الصخرة، ثم أمر بعبادتها؛ وأن يبنوا بنياناً يسمى «اللات» .

وقيل: كانت صخرة مربعة، وكان يهودى يلت عندها السويق.

وذكر المفسر أبو السعود: أن هناك رواية تزعم أن حجر «اللات» كان على صورة ذلك الرجل الذى قبر تحته. وهو الذى كان يلت السويق. فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه .

وقيل: إن «اللات» الذى كان يقوم على آلهتهم ، ويلت لهم السويق[١]. وذكر الطبرى: أن «اللات» هى: من الله تعالى– ألحقت فيه التاء فأنثت. كما قيل: «عمرو» للذكر، وللأنثى «عمرة» ، وكما قيل: للذكر «عباس» ثم قيل للأنثى «عباسة»[٢] .

ولا يستبعد أن تكون صخرة «اللات» صخرة من هذه الصخور المقدسة، التى كان يقدسها الجاهليون، ومن بينها: «الحجر الأسود» ، الذى كان يقدسه أهل مكة، ومن كان يأتى إلى مكة للحج، وفى غير موسم الحج، لذلك : كانوا يلمسونه ويتبركون به.

و«اللات» : من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً. وقد ورد اسمها فى نصوص: «الحجر، وصلخد وتدمر» – وهى من مواضع النبط.

ويذكر الباحثون : أن النبط عدوا «اللات» أمًّا للآلهة[٣] .

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٢٩ ، ص ٢٣٠ .
(٢) السابق جـ٦ ص ٢٣٠ ، ص ٢٣١
(٣) السابق جـ٦ ص ٢٣٢، ص ٢٣٣.

وقد عُبدت «اللات» : في تدمر، وفي أرض مدين عند اللحيانيين.

وقد ذهب: بعض المستشرقين إلى أن «اللات» تمثل الشمس وهي أنثى. أي : إلهة.

وقد انتهت إلينا: أسماء رجال أضيفت إلى «اللات» مثل :.

«تميم اللات» ، و«زيد اللات» ، «شيع اللات» ، «هب اللات» ، وكما شاكل ذلك من الأسماء.

ومما يُلفت النظر أننا لم نلاحظ ورود اسم «عبد اللات» بين أسماء الجاهليين.

وقد أقسموا «باللات» كما أقسموا بالأصنام الأخرى[1] .

٢- العزّى:

«والعزى» : صنم أنثى.

وأما الذى اتخذ العزى-على رواية ابن الكلبى- فهو «ظالم بن أسعد» وقد ذكر الطبرى روايات عديدة تفيد أن «العزى» شجيرات، ولكنه أورد روايات أخرى تفيد أنها حجر أبيض. فنحن إذن أمام رأيين :.

رأى يقول: إن «العزى» شجيرات.

ورأى يقول: إنها حجر.

وذكر ابن حبيب أن «العزى» شجرة بنخلة، عندها وثن تعبدها «غطفان». سدنتها من بنى «صرمة بن مرة».

وذكر غيره: أنها سمرة «لغطفان».

وقد تسمى العرب وقريش بالعزى. فقالوا «عبد العزى» . وأقسموا بها

وتشير رواية من زعم أن عمرو بن لحى قال لقومه :.

---

(١) السابق جزءاً وصفحة.

«إن ربكم يتصيف «باللات» لبرد الطائف، ويشتو بالعزى. لحرّ تهامة.

ويقول ابن الكلبى أيضاً: ولم تكن قريش بمكة، ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئا من الأصنام إعظامهم «العزى». ثم «مناة».

فأما «العزى»: فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة، والهدية. وكانت ثقيف: تخص «اللات» كخاصة هؤلاء الآخرين. وكلهم كان معظماً لها. أى: العزى.

ولابن الكلبى رأى فى إقبال قريش على «العزى» إذ يقول:.

فأما «العزى»: فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية. وذلك: فيما أظن لقربها منها. فجعل بيت «العزى» من قريش هو السبب فى إقبال قريش عليها[1].

وهو يرى: هذا الرأى نفسه. حين تكلم على الأصنام:

أ - ود .ب - سواع جـ - يعوق - د - نسر.

وقارن بينها وبين الأصنام:.

اللات - العزى - مناة إذ قال:.

ولم يكونوا: يرون فى الأصنام الخمسة، التى دفعها «عمرو بن لحى» كرأيهم فى هذه، ولا قريباً من ذلك. فظننت أن ذلك كان لبعدها منهم.

وقال ابن الكلبى فى كتابه الأصنام: وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ - ذكرها يوماً فقال: لقد أهديت «للعزى» شاة عفراء وأنا على دين قومى. وكان فيمن يتقدم إلى «العزى» بالنذور والهدايا والد «خالد بن الوليد».

ذكر خالد أن والده كان يأتى «العزى» بخير ماله من الإبل والغنم، فيذبحها «للعزى» ويقيم عندها ثلاثة أيام.

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٣٩ الأصنام ٢٧، ١٦.

وذكر الطبرى أن «العزى». صنم لبنى شيبان بطن من سليم- حلفاء بنى هاشم – وبنو أسد بن عبد العزى- يقولون :هذا صنمنا، وإنها كانت بيتاً يعظمه هذا الحى من قريش ، وكنانة ومضر كلها(١).

وينسب ابن الكلبى بناء بيت العزى إلى ظالم بن أسعد إذ يقول: بس . بيت لغطفان بن سعد بن قيس عيلان كانت تعبده، بناه ظالم بن أسعد بن ربيعة لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة، فذرع البيت، ونص العباب، وأخذ حجراً من الصفا، وحجراً من المروة. فرجع إلى قومه، وقال : يا معشر غطفان لقريش بيت يطوفون حوله والصفا والمروة، وليس لكم شئ؟فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين، فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج، فأغار – زهير ابن جناب، فقتل ظالماً، وهدم بناءه(٢).

٣ - مناة :

وهو من الأصنام المذكورة فى القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ النجم آية ١٩ ،٢٠ .

وهذه الأصنام الثلاثة : هى إناث فى نظر الجاهليين .

وموضع «مناة». بالمشلل على سبعة أميال من المدينة. وقيل : إنه بموضع «ودان» أوفى موضع قريب منه .

وذكر اليعقوبى أن مناة كان منصوباً بفدك مما يلى ساحل البحر. والرأى الغالب بين أهل الأخبار أنه كان على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد.

وذكر محمد بن حبيب : أنه كان بسيف البحر، وكانت الأنصار، وأزد شنوءة، وغيرهم تتعبد له.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٤٠ الطبرى جـ٢ ص ٣٦٤ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٤١ ، الأغانى ٢١ ، ٦٣ .

وأما سدنته: فهم «الغطاريف» من الأزد. وذُكر: أن تلبيته كانت :. لبيك اللهم لبيك، لولا أن بكرا دونك، يبرك الناس ويهجرونك، ومازال حج عثج يأتونك. أنا على عدوائهم من دونك[1].

ويظهر من أقوال ابن الكلبي أن هذا الصنم كان معظماً وخاصة عند الأوس والخزرج، أى أهل يثرب، ومن كان يأخذ مأخذهم من عرب المدينة، والأزد، وغسان؛ فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم؛ فإذا نفروا أتوا «مناة» وحلقوا رؤوسهم عنده، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك، ولكن القبائل العربية الأخرى كانت تعظمه كذلك. وفى جملتها : «قريش، وهذيل، وخزاعة، وأزدشنوءة.»[2].

٤- هبل :

يقول ابن الكلبي: وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها «هبل»، وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب. وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

وكان يقال له :«هبل خزيمة». وكان فى جوف الكعبة، قدامهُ سبعة أقداح، مكتوب فى أولها: «صريح» والآخر: «ملصق» فإذا شكّوا فى مولود أهدوا إليه هدية؛ ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج «صريح» ألحقوه، وإن خرج «ملصق» دفعوه وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر على ما كانت فإذا اختصموا فى. أمر، أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالأزلام عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه، وعنده ضرَب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٤٦، الطبرى ٢٧٠ ، ٣٢ .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٤٧ .

وجاء في رواية أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره،فلما قدم «مآب» من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق -ويقال عمليق – وجدهم يتعبدون للأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه الأصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له «هبل» . وأخذه فتقدم به إلى مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته.

وكانت تلبية من نسك «هبل»: لبيك اللهم لبيك. إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح. يحسدنا الناس على النجاح[1] .

وذهب بعض المستشرقين : إلى أن «هبل» : هو رمز إلى الإله «القمر» وهو إله الكعبة، وهو الله عند الجاهليين وكان من شدة تعظيم قريش له: أنهم وضعوه في جوف الكعبة، وأنه كان الصنم الأكبر في البيت.وقد ورد اسم «هبل» في الكتابات النبطية، التي عثر عليها في الحجر، ورد مع اسم الصنمين :

دوشرا : ذي الشرى .

منوتو:مناة.

وقد تسمى به أشخاص، وبطون من قبيلة كل؛ مما يدل على أن هذه القبيلة كانت تتعبد له، وأنه كان من معبودات العرب الشماليين.

وباسم هذا الصنم سُمي: «هبل» بن عبد الله بن كنانة الكلبي[2] .

وزعم ابن الكلبي[3] : أن خمسة أصنام من أصنام العرب من زمن نوح وهي:.

ود – سواع – يغوث – يعوق – نسر

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٥١، الأصنام ص ٢٧ وما بعدها.

(٢)المفصل جـ٦ ص ٢٥٢ ص ٢٥٣ سيرة ابن هشام جـ١ ص ٦٢ .

(٣) المفصل جـ٦ ص ٢٥٤.

وقد ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾(١)

٥- ود

كان الصنم «ود» من نصيب عوف بن عذرة بن زيد اللات، أعطاه إياه: عمرو بن لحي، فحمله إلى وادي القرى، فأقره بدومة الجندل، وسمّى ابنه«عبد ود». فهو أول من سمي به، وهو أول من سمّى «عبد ود». ثم سمّت العرب به بعد، وقد تعبد له «بنو كعب» ومنهم من يهمز فيقول: «أد». ومنه سمي «عبد ود»، «أد ابن طابخة» و«أدد» جد معد بن عدنان(٢).

ويظهر أنه «أود» عند ثمود. و«أدد» من الأسماء المعروفة وقبيلة «مرة» نسبة إلى «مرة بن أود».

ويظن : أن الإله «قوس» هو «ود» أي: اسم نعت له.

وذهب بعض الباحثين إلى أن «نسراً»، «ذاغابة» يرمزان إليه، «وود» هو الإله الأكبر لأهل معين(٣).

٦- سواع :

أما«سواع» : فكان موضعه «برها ط» من أرض ينبع، وذُكِرَ أنه كان صنماً على صورة امرأة. وهو صنم «هذيل»

وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته - كعادته- إلى عمرو بن لحي فذكر: أن «مضر بن نزار» أجابت عمرو بن لحي؛ فدفع إلى رجل من هذيل - يقال له «الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل» - سواعاً فكان بأرض يقال لها «رهاط» من بطن نخلة يعبده من يليه من مضر .

---

(١) سورة نوح الآيات ٢١ وما بعدها.

(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٥٥ اللسان جـ٤ ص ٤٦٨.

(٣) السابق جـ٦ ص ٢٥٧ .

وذكر ابن حبيب أنه كان بـ «نعمان» وأن عبدته «بنو كنانة» وهذيل، ومزينة، وكان سدنته «بنو صاهلة» من هذيل.

وفي رواية أن عبدة «سواع» هم آل ذي الكلاع.

وذكر اليعقوبي أنه كان لكنانة (١).

ونسب بعض أهل الأخبار هدم الصنم «سواع» إلى «غاوي ابن ظالم السلمي».

ذكروا أن هذا الصنم كان لبني سليم بن منصور؛ فبينما هو عند الصنم؛ إذ: أقبل ثعلبان يشتدان حتى تسنما. فبالا عليه فقال:

أرب يبول الثعلبان برأسه .:. لقد ذلّ مَن بالت عليه الثعالب.

ثم قال: يا معشر سليم، لا والله هذا الصنم لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع؛ فكسره ولحق بالنبي عام الفتح؛ فقال النبي - ﷺ- ما اسمك؟ فقال: غاوي ابن عبد العزى. فقال: بل أنت راشد بن عبد ربه، وعقد له على قومه.

وقيل: إن هذه الحادثة، إنما وقعت لعباس بن مرداس السلمي. وقيل: لأبي ذر الغفاري (٢).

٧- يغوث:

أما «يغوث»: فكان على رواية ابن الكلبي في جملة الأصنام التي فرقها عمرو ابن لحي على من استجاب إلى دعوته من القبائل، دفعه إلى أنعم بن عمرو المرادي، فوضعه بأكمة «مذحج باليمن»، فعبدته «مذحج» ومن والاها وأهل «جرش».

وذكر الطبري: أن بطنين من طيء أخذا «يغوث»؛ فذهبا به إلى مراد؛ فعبدوه زمانا. ثم إن بني ناجية أرادوا أن ينتزعوه منهم؛ ففروا به إلى بني الحارث بن كعب. أما سدنته: فكانوا من بني أنعم من طيء، وكانوا في: «جرش»، وفي

(١) المفصل جـ٦ ص٢٥٧.

(٢) - السابق جـ٦ ص٢٥٩.

حوالى سنة ٦٣٢ م أى السنة التى وقعت فيها معركة «بدر» حدث نزاع على الصنم: أراد بنو مراد أن يكون الصنم فيهم وسدنته لهم؛ وأراد بنو أنعم الاحتفاظ بحقهم فيه.

فهرب بنو أنعم بصنمهم إلى بنى الحارث، واحتفظوا به بعد أن وقعت الهزيمة فى مراد .

وفى الحرب التى وقعت بين بنى أنعم، وغطيف - حمل عبدة «يغوث» صنمهم معهم، وحاربوا مستمدين منه العون والمدد[1] .

ونجد بين أسماء الجاهليين عدداً من الرجال سُموا بـ«عبد يغوث» منهم : من كان فى «مذحج» ومنهم : من كان فى قريش؛ ومنهم من كان من هوازن[2] .

٨- يعوق:

«ويعوق» أيضاً: فى جملة هذه الأصنام التى فرقها عمرو بن لحى على القبائل .

وذكر ياقوت الحموى أن ابن الكلبى قال:

واتخذت خيوان «يعوق». وكان بقرية لهم يقال لها «خيوان» من صنعاء على ليلتين مما يلى مكة؛ ولم أسمع لها ولا لغيرها شعراً فيه. وأظن ذلك: لأنهم قربوا من صنعاء، واختلطوا بحمير؛ فدانوا معهم باليهودية أيام تهود ذى «نواس» فتهودوا معه .

ونسب الطبرى عبادة «يعوق» إلى «كهلان». وذكر أنهم توارثوه كابرا عن كابر؛ حتى صار إلى همدان. وذكر فى رواية أخرى؛ أن «يعوق» اسم صنم كان لكنانة[3].

٩- نَسْر:

وأما «نسر» فكان من نصيب حمير، أعطاه عمرو بن لحى. قيل: لذى رعين المسمى «معد يكرب»؛ فوضعه فى موضع بلخع من أرض سبأ، فتعبدت له حمير إلى أيام ذى نواس، فتهودت معه وتركت هذا الصنم .

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٦٠، ٢٦١

(٢) السابق جـ٦ ص ٢٦١ ، ص ٢٦٢

(٣) السابق جـ٦ ص ٢٦٢ ، ص ٢٦٣

وكان عباد «نسر» آل الكلاح من حمير على رواية من الروايات.

وذكر محمد بن حبيب أن حمير تنكست «لنسر» وعظمته ودانت له، وكان في غمدان قصر ملك اليمن .

وذكر اليعقوبي أنه كان لحمير وهمدان، منصوباً بصنعاء.

ولم يُشر ابن الكلبي إلى صورة الصنم «نسر» .

وذكر الطبرسي : في أشكال الأصنام، أسندها الواقدي قال فيها كان «ود» : على صورة رجل، و«سواع» : على صورة امرأة، و«يغوث» : على صورة أسد، «ويعوق» : على صورة فرس، و«نسر» : على صورة نسر من الطير[1] .

١٠ - عميانس:

هو صنم«خولان» ؛ وموضعه في أرض خولان، وكان يقدم له في كل عام نصيبه المقرر من الأنعام والحروث.

وذكر ابن الكلبي أن الذين تعبدوا له من خولان، هم بطن منهم؛ يقال لهم الأدوم، وهم الأسوم. وفيهم نزل قوله تعالى:. ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا﴾ إلخ آية ١٣٦ سورة الأنعام.

وقد ورد ذكر هذا الصنم في خبر (وفد خولان) الذى قدم على رسول الله ﷺ في شعبان سنة عشر.

إذ ذكر أن رسول الله ﷺ قال لهم: ما فعل عمأنسي؟ فقالوا: بَشّرَ وعسّر، أبدلنا الله به، ولو قد رجعنا إليه هدمناه، وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به[2] .

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٦٣ ، ص ٢٦٤ .

(٢) السابق جـ٦ ص ٢٦٥ .

١١- اساف ونائلة:

ذكر اليعقوبي: أن عمرو بن لحي وضع هبل عند الكعبة. فكان أول صنم وُضع بمكة؛ ثم وضعوا به «إساف ونائلة». كل واحد منهما على ركن من أركان البيت؛ فكان الطائف إذا طاف بدأ «بأساف» فقبله وختم به؛ ونصبوا على «الصفا» صنماً يقال له: «مجاور الريح». وعلى المروة صنماً يقال له: «مطعم الطير».

وذكر محمد بن حبيب أن أسافاً كان على «الصفا»؛ وأما نائلة فكان على «المروة». وهما صنمان. وكانا من جرهم، ففجر أسافٍ بنائلة في الكعبة؛ فمسخا حجرين، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما؛ ثم عُبدا بعد. وكان نسك قريش «لأساف» لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك.

ويظهر أن مرد هذا القصص الذى يقصه علينا أهل الأخبار عن الصنمين؛ إنما هو إلى شكل الصنمين.

كان : أساف تمثال رجل على ما يظهر من روايات الإخباريين وكانت: «نائلة» تمثال امرأة. يظهر أنهما استوردا من بلاد الشام فنصبا فى مكة، فتولد من كونهما صنمين لرجل وامرأة هذا القصص المذكور، ولعله من صنع القبائل الكارهة لقريش، التى لم تكن ترى حرمة للصنمين[1]

١٢ رضى:

ذكر ابن الكلبى: أنه كان لبنى ربيعة بن كعب. . . بن تميم، فهدمه «المستوغر» وهو عمرو بن ربيعة بن كعب؛ هدمه فى الإسلام وتعبدت لهذا الصنم قبيلة تميم.

وقد ورد اسم «عبد رضى» بين أسماء الجاهليين. ويظهر أن قبيلة طيئ كانت قد تعبدت له كذلك .

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٦٦ ، ص ٢٦٧ ، اليعقوبى جـ١ ص ٢٢٤ .

«ورضى» من الأصنام المعروفة عند قوم «ثمود».

وقد ورد اسمه في كتابات ثمودية عديدة. وكانت عبادته منتشر «بين العرب الشماليين.

وورد في نصوص تدمر، وبين أسماء بني إرم. كما ورد في كتابات الصفويين، وورد على هذا الشكل: «رضو - رضى - هرضو- ها : رضو» ويظن أنه يرمز إلى كوكب(١).

١٣ مناف:

صنم من أصنام الجاهلية؛ قال عنه ابن الكلبي: وكان لهم «مناف»، فبه كانت تسمى قريش «عبد مناف» ولا أدرى: أين كان، ولا من نصبه، وسمى به أيضاً رجال من «هذيل» وبه سمى«عبد مناف»؛ وكانت أمه أخدمته هذا الصنم .

وقد عثر : على كتابة وجدت في «حوران»؛ ورد فيها اسم «مناف» مع إله آخر. ورد اسم «مناف» فيها على هذا الشكل MN,PHA وقد عثر: على كتابة أخرى وجد فيها الاسم على هذه الصورة: «منافيوس» Manaphius. مما يدل على : أن المراد بالاسمين شئ واحد: هو الإله مناف» (١).

١٤ ذو الخلصة:

أما «ذو الخلصة»: فكان صنم «خثعم» ، و«بجيلة» و«دوس». ومن قاربهم من بطون العرب من «هوازن». ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، والحارث بن كعب، وزبيد، والغوث بن مر.

وذكر ابن الكلبي أن سدنته بنو أمامة من باهلة بن أعصر(٢). وفي رواية لابن اسحاق أن عمرو بن لحي نصب «ذا الخلصة» بأسفل مكة، فكانوا يلبسونه القلائد، ويهدون إليه الشعير والحنطة، ويصبون عليه اللبن، ويذبحون له، ويعلقون عليه بيض النعام.

---

(١) السابق جـ٦ ص ٢٦٨ .

(٢) السابق جـ ٦ ص ٢٦٩

(٣) الأصنام ص ٣٥ ، ٤٧ .

وهناك روايات: جعلت «ذا الخلصة» الكعبة اليمانية «لخثعم» ومنهم من سمّاه كعبة اليمامة.

ويستنتج من كل هذه الروايات: أن «ذا الخلصة» بيت كان يدعى كعبة أيضاً، وكان فيه صنم يدعى «الخلصة» لدوس وخثعم، وغيرهم .

وكان بيت «ذى الخلصة» : من البيوت التى يقصدها الناس للاستقسام عندها بالأزلام. وكان له ثلاثة أقداح: الآمر- الناهى - المتربص.

وفى «ذى الخلصة» قال أحد الرجّازين:

لو كنت ياذا الخلصة الموتورا .·. مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه، عن قتل العداة زورا[1] .

١٥- سعد :

كان صخرة طويلة. وذكر اليعقوبى أنه كان لبنى بكر بن كنانة، وذهب ابن إسحاق إلى أنه فى موضع قفر. وقيل إنه قرب اليمامة.

وذكر ابن الكلبى: أنه أقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها؛ فلما أدناها منه نفرت منه، وكان يهراق عليه الدماء، فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه، وأسف؛ فتناول حجراً فرماه به، وقال : لا بارك الله فيك إلهاً، أنفرت علىّ إبلى، ثم خرج فى طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا .·. فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة .·. من الأرض لا يدعى لغىّ ولا رشد[2].

١٦- ذو الكفين :

ذكر ابن الكلبى: أنه كان لدوس، ثم لبنى منهب بن دوس، فلما أسلموا بعث النبى ﷺ - الطفيل بن عمرو الدوسى فحرقه، وهو يقول:

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٧١ ، ص ٢٧٢.

(٢) السابق جـ٦ ص ٢٧٣، ص ٢٧٤.

يا ذا الكفين من عبادكا   ميلادنا أكبر من ميلادكا

إني حشوت النار في فؤادكا

وذكر أن هذا الصنم كان صنم عمرو بن حممة الدوسى أحد حكام العرب.

١٧- ذو الشرى :

وكان لبنى الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد- صنم، يقال له: «ذو الشرى».

وورد في رواية للإخباريين: أن «ذا الشرى» صنم لدوس، كان بالسراة. وقد ورد اسم هذا الصنم في الحديث النبوى، وورد: بين أسماء الجاهليين اسم «عبد ذى الشرى» «وذو الشرى»: إله ورد اسمه في كتابات: بطر، وبصرى[١].

١٨-الأقيصر:

كان صنم قضاعة، ولخم، وجذام، وعاملة، وغطفان. وكان في مشارف الشام.

وقد ذكر اسمه في : شعر لزهير بن أبي سلمى، ولربيع بن ضبع الفزارى، وللشنفرى الأزدى وكانوا يحجون إليه، ويحلقون رؤوسهم عنده، ويلقون مع الشعر قرة من دقيق، وهي عادة كانت متبعة عند بعض قبائل اليمن كذلك.

ويذكر ابن الكلبي: أن هوازن كانت تنتاب حجاج الأقيصر، فإن أدركت المواسم قبل أن يلقى القرة، قال أحدهم: لمن يلقى: أعطنيه فإني من هوازن ضارع، وإن فاته: أخذ ذلك الشعر بما فيه من القمل والدقيق فخبزه وأكله[٢].

١٩- نهم :

وكانت لمزينة، كسره سادنه خزاعي بن عبد نهم، وهو من مزينة من بني عداء، وأعلن إسلامه.

---

(١) السابق جـ٦ ص ٢٧٥، امتاع الأسماع جـ١ ص ٣٨٨.

(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٧٥ ، الأصنام، تاج العروس جـ١٠ ص ١٩٧ .

(٣) المفصل جـ٦ ص ٢٧٦ ، البلدان جـ١ ص ٣٤١ .

٢٠- عائم :

وكان : لأزد السراة. ورد اسمه في شعر لزيد الخير، المعروف أيضاً بزيد الخيل[١].

٢١- سعير :

أما «سعير» فهو صنم عنَزة، وكان الناس يحجون إليه، ويطوفون حوله، ويَعْترون العتائر له[٢].

٢٢- الفَلْس :

كان لطيئ، وكان أنفا أحمر في وسط جَبَلهم، الذي يقال له: أجأ، أسود، كأنه تمثال إنسان.وكانوا: يعبدونه، ويهدون إليه، ويعترون عنده العتائر، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد وأحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له، ولم تخفر حوزته وحرمه.

ذكر ابن حبيب: أنه كان بنجد، وسدنته بنو بولان[٣].

٢٣-اليعبوب:

وهو : صنم لجديلة طيئ.

٢٤-باجر:

كان : صنما للأزد، ومن جاورهم من طيئ، وقضاعة.

٢٥-المحرق:

كان صنما لبكر بن وائل، وبقية ربيعة في موضع سلمان، وأما سدنته فكانوا أولاد الأسود العجلي[٤].

٢٦-الشمس:

«والشمس» : صنم كان لبني تميم، وله بيت، وكانت تعبده بنو «أد» كلها: ضبة - تميم - عدى- عكل - ثور.

---

(١) المفصل جزءاً وصفحة، الأصنام ص ٤٠ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٧٧، الأصنام ص ٥٠ .

(٢) السابق جـ٦ ص ٢٧٨، الروض الأنف جـ١ ص ٦٥ .

(٤) السابق جـ٦ ص ٢٧٩ ، ص ٢٨٠ .

وأما سدنته فكانوا من بنى أوس بن مخاش ... بن تميم، فكسره هند بن أبى هالة، وصفوان بن أسيد ... بن مخاش.

وقد قيل لها: الإلاهة.

وذكر اليعقوبى أن قوما من عذرة تعبدوا لصنم يقال له: «شمس»[1].

٣٧ - تيم :

به: سمي رجال من تيم، ومن غيرهم؛ مثل : «عبد تيم»، «تيم الله». وهناك أسماء أصنام أخرى لم ترد فى كتاب الأصنام؛ إنما وردت فى كتب أخرى. وقد ذكرها: «ابن الكلبى». نفسه فى بعض مؤلفاته. ومن هذه الأصنام .

(آ) - الأسحم.

(ب) - الأشهل.

(جـ) أوال.

(د) البجة.

(هـ) الجبهة.

(و) - جريش.

(ز) جهار.

(ح) الشارق .

(ط) صمودا.

(ى) العبعب.

(ك) عوض .

(ل) ذو اللبا

(م) السعيدة.

(ن) عنم

(س) قزح

(ع) قيس

(١) السابق جـ٦ ص ٢٨١ ، شمس العلوم جـ١ ق ١ ص ٩٣ .

(ف) المنطبق.

(ص) نهيك.

وغير ذلك [١].

وذكر ابن الكلبي أن العرب تسمي الطواف حول الأصنام، والأوثان: الدوار.

وعرف بعض أهل الأخبار: الدوار بأنه :.

نسك للجاهلية، يدورون فيه لصنم، أو غيره [٢].

٢٨-مرحب :

وأما «مرحب» : فصنم من أصنام حضرموت؛ وبه سمي: «ذو مر حب» سادن هذا الصنم، وكانت تلبية من نسك له:.

لبيك . لبيك، إننا لديك . لبيك جئنا إليك.

٢٩-رئام:

وذكر اليعقوبي أن للأزد صنما يقال له: رئام.

الوثن:

قال ابن هشام: يقال لكل صنم من حجر، أو غيره: صنم، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه.

وقد أورد أيضاً نصاً يفهم منه خلاف ذلك، وهو رواية: عن عمر بن الخطاب يقول فيه: اللهم غفرا، لقد كنا في الجاهلية على شر من هذا، نعبد الأصنام، ونعتنق الأوثان.

يفهم من قول عمر: أن الأصنام تطلق على مظاهر عبادتهم، والأوثان على عقائدهم، فهما على القولين ليسا من المترادفات فنقول مثلا إن آلهة الوثنيين أصنام فالوثني يترادف مع المشرك ويتقابل مع الموحد في الرواية التي ذكرها ابن هشام وتشير إلى التفريق بين الصنم والوثن، نراها غير دقيقة فالوثنية عقيدة والصنم مظهرها.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٨٢، الأصنام ص ١٠٧، المجد ص ٣١٥ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، شرح ديوان لبيد ص ٤٤ .

سدنتها

السدنة: هم الذين يقومون بأمر الكعبة أو بطواغيتها.

فكان للات سدنتها وحجابها من بني معتب من ثقيف، ولمناة سدنتها من الأوس والخزرج، وللعزى سدنتها من بني شيبان خلفاء بني هاشم.

وهذه أسماء سريانية[١] وقعت إلى الهند فسموا بها أصنامهم التي زعموا أنها الدراري السبعة ثم أدخلها عمرو بن لحي. ثم أصبحت عبادتها تقليدا حتى خلفت الخلوف وقالوا: ماعظم هؤلاء آباؤنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر واتخذوها آلهة. فاتخذت العرب مع الكعبة هذه الطواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى إليها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها مع عرفانها بفضل الكعبة.

والطواغيت أطلقها القرآن على كل معبود من دون الله.

والجبت: الكاهن.

قال الرازي: كلمتان وضعتا علمين على من كان غاية في الفساد[٢].

وقال ابن الكلبي: وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزلة أن يتمسح به أيضا[٣].

وتدنت العرب في عبادة الأصنام:

فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت: نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت،

---

(١) الروض ص ٦٢.

(٢) الرازي في تفسيره (٢ : ٢٤١).

قال عكرمة: الجبت بلسان الحبشة شيطان. الطاغوت الكاهن.

قال ابن عباس: الجبت الأصنام والطواغيت الذين كانوا يعبرون عن الأصنام بالكذب أو يترجمون للناس عنها الأكاذيب.

(٣) يقول ابن حجر في فتح الباري (٨ : ٤٧٠) هذه الأصنام كانت آلهة يعبدها العرب في عبادة الأصنام بعد نوح أو من الشيطان؟

قال بعض الشراح: مجمل ما قيل في هذه الأصنام قولان: أحدهما أنها كانت قوم نوح، والثاني: أنها كانت أسماء رجال صالحين ثم أرجع ابن حجر الرأيين إلى رأي واحد وأنها كانت في المبدأ أسماء رجال صالحين.

وسموها: الأنصاب، فإذاكانت تماثيل دعوها الأصنام،والأوثان وسموا طوافهم الدوار، وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها، فاتخذه رباً، وجعل الثلاثةَ: أثافيَّ للقدر، وإذا ارتحل: تركه فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون، ويذبحون عندها كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك: عارفون بفضل الكعبة عليها، يحجونها ويعتمرون إليها، وكان الذين يفعلون ذلك فى أسفارهم يهدفون للاقتداء بما يفعلون عندها ولصبابة بها، وكانوا يسمون ذبائح الغنم التى يذبحون عند أصنامهم وأنصابهم تلك: العتائر، والعتيرة فى كلام العرب:الذبيحة والمذبح الذى يذبحون فيه لها العتر.

ويقول ابن الكلبى: وكانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعترون عندها يسمونها الأنصاب ويسمون الطواف بها الدوار[١].

ومازالت بداية ظهور الإلحاد عند العرب سرا غامضا،ولكننا نعتقد أن إلحادهم كان يختلف عن أى نوع من الإلحاد عند الأمم الأخرى .

وإذا نظرنا إلى تقدمهم العقلى نجد أفكارهم الدينية ساذجة وسهلة، وإذا سلطنا عليهم أضواء التاريخ نجد لديهم نوعا من أحط أنواع الوثنية.

ففى العصر الجاهلى لا نجد أى تعاليم جوهرية، ولكن على الرغم من ذلك كانت الأحداث كما يقول« كرهل» : لا تثبت إذا ما كان الشعب السامى الذى هاجر إلى بلاد العرب من الشمال الشرقى قد اعتنق العبادة التى وجدها فى البلاد ثم أدخل نوعا جديدا من العبادة التى انتشرت فى أطوار تدريجية بين العرب[٣].

فتحولهم من التوحيد إلى الوثنية والإلحاد، لم يكن مباشرة، وإنما تم بعد مرحلة جرهم العبثية التى فسد فيها الدين وشوه، فلما ولى عمرو بن لحى دفعه إلى الوثنية لون من العصبية، وليست قضايا عقلية شغلته، فأراد لها حلا فتحول بسببٍ إلى الإلحاد، ولكن كانت العصبية، والتقليد، وهجر ما كان عليه جرهم من فساد وعبث.

---

(١) كتاب الأصنام لأبى المنذر محمد بن السائب الكلبى تحقيق أحمد زكى.

(٢)الأصنام ص ٣٣ .

(٣) حضارة الإسلام صلاح الدين خودا بخش ص ٢٥ .

وهذا التعدد في الأصنام والأوثان والأنصاب واختلاف أسمائها ليس نتيجة فكر شغل به العقل العربي ولكن كان ذلك ناشئا من مجاورتهم لأهل هذه الملل والنحل «إن أديان العرب كانت مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والانتقال إلى البلدان والانتجاعات»[1].

ولم تأت هذه الآلهة جميعها من التراث القومي، فبعضها وفد من الشعوب المجاورة طبقا لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحدوهم إلى النقل والاستيعاب استعداد يَسَّرَ في مراحل متأخرة دخول عقائد اليهودية والمسيحية.

اتجاه قريش نحو الزعامة:

١- ولاية الكعبة:

وليَ قصيٌّ البيت وأمر مكة، وجمع قومِه من منازلِهم إلى مكة، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه، فكان قصي: أولَ رجل من كعْبِ بن لؤى أصاب ملكا أقَرَّ له به قومه، ثم أعطوه مقاليد الأمور فكان له أمر:

الحجابة.

والسقاية.

والرفادة.

والندوة.

واللواء.

وبها حاز شرف مكة كله.

أعاد تخطيط مكة، فقطعها رباعا بين قومه. فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها، وأصبحت داره بيت شورى لقريش والعرب فلا يقضى أمر من أمورها إلا وفيه تشريعاته.

---

(١) اليعقوبي في تاريخ (١ : ٢١٠).

وقد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه دِينًا في نفسه، لا ينبغي تغييره، فأقر: آل صفوان، وعدوان، والنسأة، ومرة بن عوف: على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام.

على أى شئ أقرهم؟

آل صفوان:

كان صفوان هو الذى يجيز للناسِ بالحجِ من عرفة، ثم بنوه من بعده، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام هو كَرِب بن صفوان.

وعدوان:

وكانت الإفاضة من المزدلفة: فى عدوان، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام: هو أبا سيادة بن الأعزل.

والنساة :

هى التى كانت تحرم صفرا أو غيره، من الأشهر بدلا من الشهر الحرام.

ومرة بن عوف :

وكان يلى للناس الإجازة بالحج من بعد عرفة.

والغوث :

كان الغوث إذا دفع بالناس يقول:

لا هم إنى تابع تباعه إن كان إثم فعلى قضاعه

وتقول بعض الأخبار أن ولاية الغوث بن مرة كانت من قبل ملوك كندة. قثم بعد تقسيمهم فى مكة،ففرض على قريش: رفادة الحاج وهى:وضع طعام لمن لا زاد له من الحجاج فقال:

يا معشر قريش: إنكم جيران الله، وأهل بيته، وأهل الحرم، وأن الحجاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحجيج، حتى يصدروا عنكم، ففعلوا ظلت سنة، حتى بعد الإسلام ولم تنقطع إلا في عصرنا هذا، وأصبح قصي في قومه: لا يخالف ولا يردُّ عليه شيء صنعه،فكان أمره من قريش في حياته، بعد مماته كالدين المتبع لا يعمل بغيره.

لاحظت تشريعات قصي هذه الاعتبارات فأعطت لقبيلة قريش: إمكان السيطرة على من جاورهم من العرب، فأصبح لها الزعامة السياسية، والدينية، فزعامتها السياسية مكنتها من تخطيط مكة مرة ثانية، وحفظت عليها وضعها وقيادتها، وزعامتها الدينية أعطتها سلطة تشريعية في الدين، فشرعت مذهبها الديني: وهو ما عرف بتشريع الحمس.

وهذا التشريع: حفظ عليها دينها، وعصبيتها القبلية، وساعد على انتشار ما ورثوه من وثنية عمرو بن لحي، وبقايا دين إسماعيل، وبفضل هذا أصبحت ذات كيان مقدس وذلك بمظهرها الطبقي الديني.

٢- لقريش محامد تنسب إليهم

* فمنهم كعب بن لؤى وهو أول من جمَّع يوم العروبة،ولم تسم العروبة الجمعة إلا منذ جاء الإسلام.

* وإلياس : أول من أهدى البدن للبيت .

* وعبد بن قصي : أول من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز قبل تعلمه بالحيرة،وتعَلَّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار.

* وأسعد الحميري: قال الرسول لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كَسَا الكعبة .

* ودار قصي : هي دار الندوة، وقد جعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورها .

* وهاشم : هو أول من سن الرحلتين لقريش: رحلتى الشتاء، والصيف، وأول من أطعم الثريد للحجيج وكان يسمى : الفيض، لسماحته.

وبجانب طبيعتها الدينية كانت ذات مظهر حضارى أيضا.

«ويبتدئ بقصى التاريخ، تاريخا جديدا ليس لقريش ولكنه لمكة كلها. فقد نظم أمور مكة على شكل مبتكر جمهورى - قبلى، يمكن أن يشبه بجمهوريتى: البندقية، وقرطاجة، لسيطرة الماليين من أرباب التجارة ورؤوس الأموال عليها.

ولا يفترق قصى فى وصفه هذا عن «الملك» فى الملكية الرومانية الأولى، إلا أنه كان لا يحمل لقب ملك، والمؤرخون المسلمون منحوه فيما بعد هذا اللقب رمزا لهذه السلطة الواسعة[1] وكانت فوق ذلك تحوز أكبر الأصنام.

١ -العزى:

وكان الذين اتخذو العزى الهاً هو ظالم بن أسعد.

وكان بواد من نخلة الشامية يقال له : حراض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال، فبنى عليها بسا (يريد بيتا) وكانوا يسمعون فيه الصوت، وكانت العرب وقريش تسمى عبد العزى. وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول[2] :

واللات والعـــــزى ومناة الثـالثـة الأخـرى
فإنهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى

وكانوا يقولون: إنها بنات الله وهن يشفعن إليه.

وكانت قريش قد هيأت لها شعبا من وادى حراض يقال له: سقام، يضاهون به حرم الكعبة، وكان لها منحر: ينحرون فيه هداياهم، يقال له: الغبغب ويقسمون

---

(١) الإسلام فى حضارته ونظمه - ص ٥٢ الأستاذ أنور الرفاعى - دار الفكر

(٢) يقول ابن الكلبى: وقد بلغنا أن رسول الله ذكر يوما فقال لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومى ص ١٩، ويكذب هذه الرواية حديث لرسول الله ورد فيه أنه ما عبد صنما قط.

لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها، وتخصها بالإعظام، وسدنة العزى: بنو شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم وكان آخر من سدنها منهم دبية بن حرمى السلمى.

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾

(١٩-٢٣) (سورة النجم)

فاشتد ذلك على قريش، ومرض أبو أحيحة مرضه الذى مات فيه، فدخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولابد منه؟ قال : لا : ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعد .

فقال أبو لهب: والله ما عبدت فى حياتك لأجلك، ولا تترك عبادتها بعد لموتك.

وكانت للعزى شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح النبى مكة بعث خالد بن الوليد فقال له:

ايت بطن نخلة . فإنك تجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى، فأتاها فعضدها، فلما جاء إليه، قال: هل رأيت شيئا؟ قال : لا .. قال: فأعضد الثانية، فأتاها فعضدها، ثم أتى النبى فقال: هل رأيت شيئا؟ قال لا : فقال: فأعضد الثالثة فأتاها فإذا بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها وخلفها دبية وكان سادنها. فلما نظر إلى خالد قال:

أعزاه.. شدى شدة لا تكذبـــى   على خالد ألقى الخمار وشمرى

يا عـز إن لم تقـتلى المرء خـالدا   فـبوئى بإثم عـاجل أو تنصـرى

فقال خالد :

يا عز كفرانك لاسبحانك   إنى رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هى حممة ثم عضد الشجرة وقتل دبيةالسادن، ثم أتى النبى فأخبره فقال: تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب؟ أما إنها لن تعبد بعد اليوم . قال أبو النذرة: ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئا من الأصنام إعظامهم العزى ثم اللات، ثم مناة، فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية، وذلك فيما أظن كان لقربها منها.

٢- هبل (بعل) :.

وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها عندهم هبل وكان يسمى (بعلا) كما سيأتى، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر وكان يقال له (هبل خزيمة) وكان فى جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح مكتوب فى أولها: صريح ، والآخر: ملصق.

فإذا شكوا فى مولود أدُّوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فإن خرج صريح ألحقوه وإن خرج ملصق دفعوه.

وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة[1] لم تفسر لى على ما كانت. فإذا اختصموا فى أمر، أو أرادوا سفرا، أو عملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده،

(١) يقول ابن هشام : : وكان عند هبل قداح سبعة كل قدح فيها كتب:

(ا) قدح فيه (العقل) إذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة فإن خرج العقل فعلى من خرج حمله.

(٢) وقدح فيه(نعم) للأمر إذا أرادوه يضرب به القداح فإن خرج قدح نعم عملوا به .

(٣) وقدح فيه (لا) إذا أرادوا امرأ ضربوا به فى القداح فإن خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر .

(٤) وقدح فيه (منكم).

(٥) وقدح فيه (ملصق).

(٦) وقدح فيه (من غيركم)

(٧) وقدح فيه (المياه).

إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقدح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج ضربوا به.

فما خرج عملوا به وانتهوا إليه، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله والد الرسول ﷺ وهو الذى قال له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد: اعل هبل؟ أى علا دينك، فقال رسول الله: الله أعلى وأجل[١].

وهبل هو الصنم الذى أتى به عمرو بن لحى ونصبه على البئر التى حفرها إبراهيم -عليه السلام- فى بطن الكعبة وكان تمثالا من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلت له يدا من ذهب، وكما هو واضح فى الرواية نرى أن الصنم واسمه مستعربان.

لذلك رأينا للمؤرخين خلافا حول أصل اشتقاق اسمه:

فبعضهم يذهب إلى أن أصل اشتقاقه من العربية ويقول: هبل، أظنه من الهابل وهو الكثير اللحم والشحم ويستأنس بقول عائشة: والنساء يومئذ لم يهبلن اللحم أى: لم يسمن.

أو من الهبل والهبالة: وهو الغنيمة «أى» أنه يغتنم عبادته أو يغتنم من عبده[٢].

أو من الهبل والشكل يراد به أن لم يطعمه هبله: أى شكله.

ونلاحظ أن هذا التحليل فيه تكلف التوجيه ومشقة الرد إلى أصل عربى وخروج باللفظ عن حد الاعتدال فى تأويله.

* وبعضهم يذهب إلى أن لفظ هُبَلَ لا اشتقاق له فى العربية من معناه. فهو غير مشتق من لفظ عربى. ويقول: أنه عبرانى أصله هبعل ومعنى بعل السيد.

وزاد على ذلك فقال: إن الهاء فى التعبير العبرى أداة التعريف مثل: أل فى اللغة فبإضافة هذه الأداة إلى بعل يريد الأكبر.

وقال: أما العين الزائدة، فسهل إهمالها بالتخفيف، ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصا فى لفظ بعل، لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه «بل» بإهمال العين وهو اسم هذا الإله عندهم. وقيل أن هبل القرشى هو بعل الإسرائيلى[٣].

---

(١) يراجع كتاب الأصنام ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥.

(٢) معجم البلدان لياقوت (٤: ٩٧).

(٣) التاريخ الإسلامى العام ص ٢٤٤ د. على حسن إبراهيم.

وعلى ذلك إذا صح تعليل الأستاذ جورجى زيدان اللغوى فلا يبقى شك فى أن هبل هو بعل، والذى يؤكد صحة هذا الرأى أن الله أورده فى التنزيل «أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين».

فقال الله: «بعلا» ولم يقل هبلا.

وفى هذا ما يدل على أنه كان يسمى بعلا عند الإسرائيليين(١).

والأوفق عندى من خلال البحوث الحديثة: أن بعلا كان إله العبرانيين ولكن متى عرف العبرانيون وثنية بعل؟ والجواب أن ذلك حدث عندما استقر العبرانيون فى كنعان وتمت عملية امتزاج بطيئة تركت عرضاً علامات فى دين العبرانيين مثل عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم: أسياد البلاد). ولم يكن هؤلاء البعليم على غرار يهوه آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين تتمثل فى شخوصهم قوى الخصب والحياة المنتجة ويتألفون أزواجا: ذكر (بعلا) وأنثاه (عشتاروت).

ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية فربما كان دين العبريين قد هبط فى يسر إلى مستوى الدين الكنعانى وكان يهوه قد اندمج فى البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحى.. وظل يهوه بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرتفعات والصور الخشبية لعشتاروت أو العمد المقدسة إله شعبه المختار. وهذا أثر كنعانى على العبريين.

وأما العبرانى فهو أقدم من بنى إسرائيل وإن كان إسرائيل منهم غير أن العبرانى أعم من جهة ثانية لأنه يشمل إبراهيم وقومه وهم غير اليهود «فكان بعل هذا هو إله قوم إبراهيم ويقارب أن يكون اسمه (هبعل = البعل) ولعله يقابل (مردوخ) البابليين وبعل الكلدانيين، فأصله لا شك دخيل»(٢).

حاول عمرو بن لحى أن يجعله إله الجزيرة الأكبر،إذ بمقارنة وظائف هذه الآلهة مع ما روى عن هبل، يتضح لنا أنه كان إله الخصب. والرزق، ومن ثم إله

(١) المرجع نفسه.

(٢) الإسلام فى نظمه ص ٤١ الأستاذ أنور الرفاعى.

السعادة عند العرب، وربما أيضا كان إله الحرب، فلا يرحل الراحل ولا يئوب الآيب المغترب إلا ويطوف به، وكانت عنده أقداح الأزلام ولا يستقسم بها إلا أمامه، ومراسم الأفراح والأحزان عنده أيضاً..

يقول على حسن إبراهيم: وتشير إقامة هبل على البئر الكائن فى بطن الكعبة إلى أنه كان ذا علاقة بالرزق والخصب فى عقيدة العرب»[1].

يقول محمد عبد المعين خان: لا أتردد أن أقول أن هبل كان إله الخصب والرزق ومن ثم إله السعادة وشبه رب الأرباب فى عقيدة العرب[2].

وفى الروايات ما يؤكد عدم تردد خان فى أن هبل هو الإله الذى عناه عمرو ابن لحى حينما قال: إن ربكم مصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالعزى لحر تهامة[3].

وبذلك يكون هبل أو بعل – ربّ الأرباب عند العرب وله جميع السلطات وأهمها: الخصب والتجارة والرزق ومن «اللات والعزى ومناة» وهم بناته يتشفع بهن لديه تكون عائلة وثنية مقدسة. أبطلها الله بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾

٣- معاهداتهم التجارية:

وملكت قريش المعاهدات التجارية التى عرفت بالإيلاف .

والإيلاف كتاب أمان: يعنى أن يأمنوا عندهم فى أرضهم بغير حلف إنما هو أمان الطريق، وكان فى قريش .يقول الهروى فى «الغريبين» : الإيلاف: عهود بينهم وبين الملوك.

* تعاقد هاشم مع الروم على أمان التجارة فى طريق الشام ومات فى إحدى سفراته بغزة .

---

(١) الأساطير العربية ص ١١٠ محمد عبد المعين خان .

(٢) المرجع نفسه ص ١١٧ .

(٣) أخبار مكة ١ : ٧٤ .

* وتعاقد المطلب بن عبد مناف مع اليمن وأخذ من ملوكهم عهدا لمن يتجر إليهم من قريش .

* وتعاقد عبد شمس بن عبد مناف مع الحبش فأخذ إيلافاً، وهلك بمكة فقبره بالحجون .

* وتعاقد نوفل بن عبد مناف فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافا ممن مر به من العرب ثم خدم ورجع إلى العراق ومات بسلمان .

وبهذه الإيلافات (العهود الآمنة) لمسالك التجارة اتسعت تجارة قريش وكثرت أموالها[١] .

٤- التحمس القرشي[٢]:

الحمس جمع الأحمس وهم : قريش، ومن ولدت قريش، وكنانة، وبجيلة، وقيس، سموا حمسا: لأنهم تحمسوا في دينهم، أي تشددوا والحماسة الشجاعة، بمعنى: إنهم كانوا يقفون بمزدلفة ، ولا يقفون بعرفة، ويقولون: نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون، وكانوا قد ذهبوا في ذلك مذهب التزهد والتأله، يقول ابن إسحق: لا أدرى قبل الفيل. أو بعده

(١) يراجع الأمالي والنوادر ملحق بالأمالي لابن على إسماعيل بن القاسم القالي البغدادى (٢ :٢٠٤) .
دار الباز للنشر والتوزيع .
وحاشية الشهاب على البيضاوى (١ :٣٩٩)

(٢) ابن هشام (١ :١٢٣) وكذا النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير جزء أول في حديث : هذا من الحمس فما باله خرج من الحرم- وكتاب مروج الذهب للمسعودى (١ :٢٠٧) قال النبي للأنصار : أنا رجل أحمسي.

عن قيس بن حازم قال دخل أبو بكر رضى الله عنه على امرأة من أحمس يقال لها زينب بنت المهاجر لا تتكلم فقال ما لها لا تتكلم قالوا: جمعت مصمتة، قال لها تكلمي فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت.

قال جبير بن مطعم حين رآه واقفا بعرفه مع الناس – قبل الهجرة وقبل النبوة– هذا رجل أحمسي،فما باله لا يقف مع الحمس حيث يقفون. ابن هشام (١ :١٣٥) قال السهيلي: وكان وقوف النبي ﷺ بعرفة مع الناس قبل الهجرة وقبل النبوة توفيقا من الله.

ابتدعت آراء الحمس، ويغلب على ظنى أنهم ابتدعوا هذا المذهب قبل عام الفيل منذ أن استقر أمرهم على خدمة البيت بعد قصي ووزعوا الزعامة بينهم وأحسوا بعصبيتهم القبلية وتميزهم، فبيتهم: بيت العرب، ورب قبيلتهم: رب العرب، فنشأت فكرة الجمع بين فكرة الألوهية، وفكرة الملكية للبيت ليصبغ عليهم الصفة المقدسة .

ولقد قالوا فى سبب تميزهم الطبقى والدينى: نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطان مكة وسكانها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظم من الحرم. فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها - وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم - ويرون لسائر العرب أن يفيضوا منها.

إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم فليس ينبغى أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس. والحمس : أهل الحرم، ثم جعلوا لمن ولدوا للعرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم قد دخلوا معهم فى ذلك، ثم ابتدعوا فى ذلك أمورا لم تكن لأنهم حتى قالوا: يحل لهم ما يحل لنا ويحرم عليهم ما يحرم علينا، وكانت كنانة وخزاعة ترى أنه ينبغى للحمس أن يأتقطوا، ويأكلوا السمن، وهم لا يدخلون بيتا من شعر ولا يستظلون إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما.

ثم رفعوا فى ذلك فقالوا: لا ينبغى لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعام جلدوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة.

فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوفه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا. وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى .

فحملوا على ذلك العرب فدانت به،ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها،وطاف الرجال بالبيت عراة وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعا مفرجا ثم تطوف فيه[١].

قال الشاعر يذكر شيئا تركه من ثيابه فلا يقربه – وهو يحبه:

كفى حزنا كرى عليها كأنها لقى بين أيدى الطائفين حريم

أى حرام لا تمس.

ونلاحظ أن هذا المذهب الدينى عندما وضعته قريش رمت به إلى ربط قبيلتها بقدسية البيت سواء أكانت القبيلة قائمة فى حرمه الآمن أم كانت فى الحل،فكل من ينتمى إلى قريش توالدا يكون تشريعه الخاص فى نسكه .

هكذا أصبح للعبادة فى الكعبة مراسيم وثنية معينة: يحج الناس إليها فى التاسع من ذى الحجة، فيحرمون، ويطوفون، ويلبون، ويرمون الحجارة، ويتمسحون بالأنصاب والأوثان التى فيها، ويهدون ما هم مهدون ثم ينصرفون. وكان أهل الحرم يؤمون الناس فى المناسك، وسدانة البيت عندهم: وراثية فى آل (عبد الدار) «وهم يشبهون الأسر الدينية التى كان بيدها تنظيم الأعياد الدينية لدى اليونان»[٢].

ومن جانب آخر عززت قريش بكل قوتها مركزها المالى باستغلال مركز مكة التجارى فنظمت القوافل فكان لها رحلتان: رحلة الشتاء: إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، عدا الرحلات إلى الحيرة وتزايدت فى اليمن وبالغت فى نشر قداسة البيت الحرام لحماية تجارتها فى الصحراء من غزو الفتاك.

وبهذا الإيلاف ربطت علائقها مع الأمم المجاورة أى باتفاقاته.

عقد هاشم بن عبد مناف: أحدها مع أمراء الغساسنة والرومان، فأذنوا له ولقومه بالتجارة مع الولاية العربية فى بصرى ومع ولاية فلسطين فى غزة، وعقد عبد شمس

(١) والذين يطوفون بالبيت أصناف ثلاثة: أهل الحمس: يطوفون فى ثيابهم. وأهل الحل: يطوفون عراة إذا لم يجدوا ثياب الحمس، أو فى ثيابهم ثم يلقونها محرمة عليهم. وأهل الطلس: كانوا يأتون من أقصى اليمن حاملين الغبار فيطوفون بالبيت فى تلك الطلس. ولعلهم يقصدون من طرح الثياب طرح الذنوب التى اقترفوها.

(٢)الإسلام فى حضارته ونظمه ص ٥٥ أنور الرافعى.

وإخوته: إذنا مع ملوك الحبشة بأكسوم ونال مثل هذا الإذن أخواه نوفل والمطلب من الحمريين في اليمن ومن فارس والمناذرة في العراق، وبذلك «نشأت في مكة بيوت تجارية «وكالات» للحبشة وللرومان ولعلها كانت نتيجة لهذه الاتفاقات، وبلغ من تغلغل التجارة في قريش أنه قيل من لم يكن من قريش تاجرا فليس بشيء»[1].

عززت قريش، وضعها الاقتصادي: برحلاتها التجارية، وعززت أيضا وضعها القبلي: بتشريعاتها الوثنية، وارتباطها بالبيت حتى أصبح كل من يتمرد على قريش متمردا على قدسية البيت، ومن يتمرد على البيت فهو يتمرد على قريش، وبهذا أصّلت الوثنية الوضع القبلي وأصبح هدم النظام القبلي يستدعي هدم النظام الوثني وهذه تعد عقبات في سبيل الإصلاح .

٥- نتائج التحمس القرشي:

الطواغيت

ولما رأت العرب ذلك طلبوا بيوتا يضاهون بها الكعبة. قال ابن هشام: وكانت العرب قد اتخذت من الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب،وتهدى إليها كما تهدى للكعبة،وتطوف بها كطوافها حول البيت العتيق، ومنها:.

بيت رضاً : فأصبح هناك بيت لبني ربيعة: يدعى بيت رُضًا –بضم الراء والتنوين– هدمه المستوغر في الإسلام.

وذو الكَعَبَاتِ بسنداد: لبكر وتغلب ابني وائل.

وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض الكوفة والبصرة في الظهر، وهي : التي ذكرها الأسود بن يعفر، وقد سمعت أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة إنما كان منزلا شريفا فذكره.

والقليس: وقد كان أبرهة الأشرم قد بنى بيتا بصنعاء «كنيسة» سماها: القليس – بالرخام وجيد الخشب المذهب –وكتب إلى ملك الحبشة يقول: إني قد

---

(١) الإسلام في حضارته ونظمه ص ٥٢ .

بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط، ولست تاركا العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذى يحجون إليه. فبلغ ذلك بعض نَسَأة الشُّهور فبعث رجلين من قومه وأمرهما أن يخرجا حتى يتغوطا فيها. ففعلا. فلما بلغه ذَلك غضب وقال من اجترأ على هذا؟[1]. فقيل: بعض أهل الكعبة، فغضب وخرج إلى الحبشة فكان من أمره ما كان.

اللات: بيت لثقيف بالطائف كانوا يعظمونه مثل تعظيم الكعبة.

كعبة نجران: وكان لبنى الحارث كعبة بنجران يعظمونها وهى التى ذكرها الأعشى فى قوله:

وكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخى بأبوابها

وقد زعموا أنها لم تكن كعبة عبادة ولكن كانت غرفة لأولئك القوم الذين ذكرهم .

رئام:[2] كان لحمير، بصنعاء يعظمونه ويتقربون عنده : بالذبائح وكانوا فيما يذكرون: يكلَّمون منه، فلما انصرف تبع من مسيره الذى سار فيه إلى العراق قدم معه الحبران اللذان صحباه من المدينة فأمراه بهدم رئام.

فقال: ما شأنكما به فهدماه وتهود تبع وأهل اليمن، ثم لم يسمع بذكر رئام ولا نسر فى شئ من الأشعار ولا الأسماء.

بيت الحوراء: وكان رجل من جهينة يقال له: (عبد الدار بن حديب) قال لقومه: هلم نبنى بيتا - بأرض فى بلادهم يقال لها الحوراء- نضاهى به الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيرا من العرب. فأعظموا ذلك وأبوا عليه.

---

(١) القليس: هو الكنيسة التى بناها أبرهة فى صنعاء وهو لفظ أخذه العرب عن الروم ثم حرف بعد إلى كنيسة ويظن بعضهم أن القليس لفظ عربى مبنى ومعنى يقول عبد الرحمن ابن محمد: سميت القليس لارتفاع بنيانها من القلانس لأنها أعلى الرؤوس. معجم البلدان. مادة قليس، تاريخ الإسلام العام ص ٥٥ هامش د . على حسن إبراهيم.

(٢) قال فى القاموس: رآم - كسحاب- : بلد لحمير:
وفى اللسان : رئام - ككتاب- موضع ، وقيل: هى مدينة من مدائن حمير - يحل بها أولاد أود، قال الأفوه الأودى:

إنــا بنو أود الــذى بلوائه منعت رئام وقد غزاها الأجدع

ولعل نشأة تلك البيوت المقدسة أو الطواغيت يرجع - فى نظرنا- إلى نشأة مذهب قريش الأحمسي الذى صبغ البيت الحرام بصبغة قبلية قرشية اضطرت القبائل المجاورة أن تحاكيها بمثل بيتها.

تقويم التحمس القرشى:

ينازعنا القول فى محاولتنا الإدلاء برأى يحدد بوجه تقريبى تاريخ ابتداع قريش تحمسهم .

يغلب على ظني أن ابتداع مذهب الحُمْس القرشى كان قبل غزو أبرهة للبيت لأن مذهب الحمس يؤكد على عصبية قريش القبلية، وكانوا يرون فى ذلك امتيازا طبقيا «فليس لأحد من العرب مثل حقنا» فلا يُساوَى الحرم وساكنوه بالحلّ وساكنيه،وقالوا بعضهم لبعض: «إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم» واقتضاهم رأيهم فى تحمسهم أن يخرجوا فيه عن بعض دين إبراهيم «فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر ومناسك الحج ودين إبراهيم» .

فتألههم العصبى «العرقى» جرفهم عن الالتزام بدين إبراهيم.

وكما أنهم خرجوا بتحمسهم عن دين إبراهيم ليرفعوا عصبيتهم على دينهم فرضوا تحمسهم على العرب «فحملوا على ذلك العرب فدانت به» وكان من نتائج ذلك على العرب وقريش أن اعتبر العرب أن مسئولية البيت تقع بالدرجة الأولى على قريش، وظهر ذلك عندما سأل أبرهة عن سـيد أهل هذا البلد وشريفها فقيل له: عبد المطلب.. فلما جاء إليه عبد المطلب سأله أن يرد إليه الإبل،قال أبرهة لترجمانه قل له: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتهـا لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك.. قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه! قال له عبد المطلب: الإبل لى والبيت له رب يحميه.

هذا يعنى أن قريشا عزلت نفسها والبيت عن العرب، كذلك مر حديث أبرهة وغزوه للبيت لدى كتّاب السِّير، كما لو كان الأمر مكيدة لعبد المطلب وبيته فقط، فلم يتحرك له العرب وهم أشعلوا الحروب القبلية أو بين القبيلة الواحدة لأتفه

الأسباب، وعلى ما نظنه يظهر أن الأمر فى هذا لا يفهم إلا من خلال رأى قريش فى التحمس وهو أنهم عزلوا أنفسهم به من حيث أرادوا تسودا ورفعة قبلية.

وكانت النتيجة أن ظهرت قريش وعليها طابع الذلة عند مفاوضتها لأبرهة، وتخلّف العرب عنه. يقول ابن هشام: ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده .

ويبدو لنا أن حلف الفضول - وهو يحمل فى طياته نزعة إنسانية عالية حيث تعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته.

قلنا يبدو لنا - ولا سيما أنه كان معه حملة أبرهة- أنه رد فعلٍ لموقف العرب من قريش وأبرهة وتحويل للجانبين السياسى والاجتماعى لمذهب الحمس القرشى الذى وصفه الرسول بقوله: لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت. تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها وألا يَعِزّ ظالم مظلوما» .

بينما قريش وصفته بقولها[1] :

لقد دخل هؤلاءفى فضل من الأمر، فلم يكن الحلف واقعا من قريش موقع الرضا إنما اعتبرته تدخلا فى فضل من الأمر.

ونلاحظ أن الدعوة إليه كانت فى دار عبد الله بن جُدْعَانَ ولو رضيت عنه قريش لدعوا إليه فى دار ندوتهم.

على أية حال نرى أن ما ابتدعته قريش من رأى الحمس يرجع إلى ما قبل أبرهة بكثير منذ نزعت العرب إلى تقليد الكعبة بطواغيتها. وقد أورد ياقوت نصا يؤيد فيه ما وصلنا إليه، ويقول فيه: كانت تحج إليها وفود حمير وكندة وغسان مقرين بأنهم مدينون للحمس من قريش ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم فرضا وشرفا عندهم.

(١) معجم البلدان

أما الأرزقى فإنه يرى أن ظهور الحمس كان بعد حادثة الفيل (١ : ١١٨) أخبار مكة.

وإذا صح ما ذهبنا إليه وهو أن مذهب الحمس القرشي بانت أصوله قبل حملة أبرهة الحبشي، وحملت قريش العرب عليه فتكون مظاهر الوحدة العربية والسيادة القرشية سابقة على العصر الإسلامي فدينهم الوثني هو دين الجزيرة وبيتهم بات مركزاً للأصنام الممثلة للقبائل - كما حكى الأزرقي أنه وجد في مكة ما يربو على ثلاثمائة صنم - أي أنه لكل قبيلة صنمها في ربعها وصنم في بيت الأصنام.

كذلك يتبع المظهر العام للوحدة، المظهر اللغوي ونعني به أن لغة قريش أصبحت سائدة ولا سيما في المناسبات الرسمية التي تقتضيهم قرض الشعر والمفاخرة به وإذاعته في منتدياتهم الرسمية :عكاظ ومجنة وذي المجاز.

نقول اتجه العرب على اختلاف لهجات قبائلهم إلى صياغة أشعارهم بلغة قريش- وذلك واضح من قراءتنا لها - حيث لا يبدو اختلاف في لهجتهم ونطقهم لها على جدار الكعبة ما يؤيد ما تذهب إليه أن هذه المعلقات تكلف لها العرب لغة قريش لترفع على بيت قريش وتعتبر ظاهرة الوحدة - أي طابع قريش العام- من حيث اللغة والدين ونسك الحج والاقتصاد مما سيطر على العرب قبل الإسلام، وكانت كلها عوامل ممهده لنزول القرآن بلغة قريش إذ ليس من المعقول أن ينزل القرآن بلغة قبيلة من قبائل العرب دون أن يكون وراءه أسباب تاريخية تشهد بسمو هذه اللغة القرشية على غيرها وفي رأينا - الذي له شواهده التاريخية - أن هذه اللغة القرشية تعدت نطاق قبيلة قريش فحملوها معهم - وهم رسل التجارة - إلى بطن الجزيرة ومشارفها وخارجها فكتبت بها العهود التجارية التي أبرمتها مع الرومان - الفرس- واليمن - والحبشة، وفي النقل التجاري عوامل حيوية في ميدان الاقتباس فعندما نزل القرآن كان يتفق مع الروح العربية في اصطفائها لغة قريش: لغة ثقافة وحضارة ونشر للآداب والأشعار .

أما من ناحية المضمون الفكري فنرى أن القضايا الفكرية التي تناولتها لائحة قريش التنفيذية كانت خالية من أي عمق فكري فلا نرى فيها ما يشير من قريب أو من بعيد إلى مشكلات المجهول: كقضايا البشرية، والخلق، ويبدو أنها كانت لا تراود عقل العربي إلا في النادر اليسير من الأوقات .

فدينهم الوثنى : لا حياة فيه ولا معنى له. ولا يساعد أحدا منهم على أن يحدد العلاقات التى تربط هذه الآلهة المتعددة بالبشر. وصرفهم عن فهم ما لديهم من فكر غامض ناشئ عن قوة عالية فكانوا يقدسون الأوثان لأنها تمثل هذه القوة بوساطة طقوس وثنية ورثوها عن أجدادهم.

ووثنية العرب لم تستطع أن تجيب إجابات مقنعة على الأسئلة البدهية التى تتردد فى ذهن كل شخص مفكر مثل:.

من أين خلقتُ؟ وإلى أى نهاية مصيرى؟ وما هدفى وغرضى من الحياة؟

«لم يشغل العربى ذهنه بشىء من القضايا أو ما هو من قبيلها ولكن كانت حياة العربى حياة حرية ومرح وسرور ومجون، وكانت الخمر والنساء والحرب هى الأشياء التى يحبها العربى ويهتم بها». فهو إما أن يستغرق فى الخمر أو ينصرف إلى الفسق أو يستنفد قوته وطاقته فى الحروب القبلية أو سلب جاره. وكانت حياة مرح لا يعكر صفوها أفكار خطيرة أو تأملات دينية تدفعه إلى الميل أو الرغبة فى عمل الخير.

«لقد كان هدفهم من الحياة أن يتمتعوا بحاضرهم وأن يحرزوا النصر فى معاركهم، وإلى يومنا هذا نجد البدوى محتفظا بهذه الصفات فهو فى غالب حالاته لا يتقيد بالدين[(١)].

«والدلائل تشير إلى أن الوثنى فى الجاهلية على العموم لم يكن يتمسك فى دينه بعقيدة نابعة من شعور دينى عميق أو عاطفة روحية شديدة قائمة على عقل سديد أو تفكير سليم، ولكن هى عادات تأصلت فى نفوسهم تقليدا لغيرهم أو تمسكا بسلوك آبائهم وأجدادهم السابقين»[(٢)].

ويحلل بلاشير[(٣)] العاطفة الدينية عند الجاهلية فيقول:

إن العاطفة التى كانت تسيطر على النفوس فى المحيط العربى قبل ظهور

(١) تاريخ الإسلام العام ص ١٨ .
(٢)تاريخ الأدب الجاهلى على الجندى (١ : ١١٧).
(٣) تاريخ الأدب العرب ص ١٦.

الإسلام شبيهة بالعاطفة التى كانت تسيطر على النفوس عند العبرانيين فى مرحلة البداوة وهى:

الاعتقاد بتعدد الشياطين وهذا نوع من المذهب النفسى ومن صفاته: شعور الرجل بأنه محاط بقوى خفية يصعب عليه تحديد ماهيتها وتسميتها بأسماء خاصة إلا أنه يعجز دوما عن تشخيصها .

فإن عبادة الأوثان والإيمان بالجن والأغوال (وهى نفوس شريرة تهاجم الإنسان فى الوحدة) كل هذا يشكل أساسا الدين ومذهبه الفكرى فى علاقتهم بالحياة.

وإن تعدد الآلهة فى صلته الضيقة مع تعدد الشياطين يدل على استعداد العرب القدماء لتشخيص القوة الكامنة فى الأشجار وينابيع المياه وتسميتها بأسماء وربطها مع الإلهيات، ومهما يكن منشأ تعدد الآلهة فلا نرى بدا من تقرير أنه أفاد العرب باستثناء بعض النفوس المتزمتة فى بعض المراكز الحضارية - وقادهم إلى جعل الدين مصدر تأملات أو بحوث نظرية.

على أن حوادث الحياة والتجارب-مع العلم بأن قوى الطبيعة هى الغالبة فى الصحراء - قد نمت في العربى المحارب قدرية عميقة لا لأن العربى يشبه أيوب الصابر على الأذى بل لأن العربى المحارب بالإضافة إلى المتناقضات فى خلقه لا يحتمل أحداث الحياة بصورة سلبية فإن موقفه منها بادئ الأمر هو: موقف المناضل غير أنه إذا وجد أمام المقدور انحنى خاضعا شاعرا بعقم الجهد أمام هذه القوى الهائلة المنطوية تحت كلمة «الدهر».

وهذا الاستسلام النهائى يملى عليه حكمًا ذات يسارة لا تخلو من السمو موحية إليه بتصرفات عرضية ولكنها مؤثرة جدا فى بعض الأحيان، وهكذا كان العربى بارتفاعه فوق نظرته التافهة للوجود قد عوض إلى حد ما عن فقر فكره الدينى.

موقف القرآن من التحمس :

إذا كان التحمس مذهب قريش فإن من المتصور لرجل الإصلاح وهو قرشى سوف ينهض بدعوته من هذا المذهب ليجذب أفراد قبيلته إليه من جانب، ويحيى عصبيتها القبلية والدينية من جانب آخر.

كان هذا هو المتصور ، ولكن واقع الأمر كان غير ذلك فرسالة الإصلاح التى

اضطلع بعبئها الرسول ﷺ لم تكن نابعة من تصوره ولا مدفوعا إليها رغبة فى زعامة أو رياسة أو جاه حتى تكون وفق ما تصورنا ولكن كانت رسالة إلهية تبغى الإصلاح ما استطاعت إليه سبيلا، ورسالة هزت كيان القبائل العربية وأوثانها وكان على رأس هذه القبائل جميعا قبيلته ﷺ فهدم عصبيتها القبلية والدينية ليحل محلها معانى جديدة فى مدلولها الإنسانى كمبدأ الإخاء والتضامن والتكافل، نعم هدم بها عصبيتها الدينية فألغى تشريعاتها التى عرفت بالحمس: « وأحل محلها دينه وفرض فى حجه المساواة قال تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾.(سورة البقرة الآية ١٩٩)

يعنى على قريش أن تتساوى مع الناس فى فريضة الحج فيصعدوا معهم إلى عرفات والوقوف عليها والإفاضة منها.

وأنزل الله عليه فيما كانوا قد حرموا على الناس من طعام ولباس عند البيت حين كانوا يطوفون عراة، قوله:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ ﴾. (سورة الأعراف)

وقال -تبارك وتعالى- عائبا عليهم: سلوكهم الدينى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ ﴾(١) أى أنهم كانوا: يطوفون عراة ويصفقون ويصفرون.

وقال: ﴿ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ (٢)

لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها، فإن احتاج أحدهم فى داره تسنم البيت من ظهره ولم يدخل من الباب فرد الله ذلك عليهم. بقوله سبحانه:.

﴿ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (٣).

ثم بين أنهم يسندون هذه الشعائر إلى إبراهيم.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٥.

(٢ - ٣) سورة البقرة الآية ١٨٩.

وإذا كانت ملة أبيكم إبراهيم فإبراهيم لم يكن من المشركين، وأخيراً ألغى الوحي الإلهي مظهر البيت القبلي القرشي، ومظهره الوثني، وأتى على مذهب الحمس فعصف به،ثم رفع الوحي من شأن البيت الحرام، وجعله مثابة للناس وأمنا، وقبلة للناس جميعاً، وأصبحت عالمية البيت الحرام بالإسلام حقيقة مقررة.

أما الأصنام التي كانت منصوبة حول الكعبة فطعنها الرسول بسية قوسه في عيونها، وهو يقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» ؛ ثم أمر بها فكفئت على وجهها، ثم أخرجت من المسجد فحرقت .

فمن موقف الرسول مع المذهب الأحمس القرشي، وموقفه من الأوثان العربية وأصنامها وأنصابها وضح أن مصدر الإسلام لا يتصل بنسب إلى الوثنية العربية وإنما مصدره الوحي الإلهي.

الباب السادس

من قضايا الفكر الدينى الجاهلى

نظرات تحليلية في نشأة الديانة الوثنية

زعم بعض المستشرقين: أن لفظة «الدين» ؛ من أصل أعجمي وأنها من الألفاظ المعربة؛ وأصلها فارسي، هو : «دينا Daena » وقد دخلت في العربية قبل الإسلام بمدة طويلة .

وترد لفظة «دين» بمعنى: الحشر في الإرمية والعبرانية كذلك، وهي : «دينو» في الإرمية، وتقابل لفظة « Daino » الإرمية لفظة الديان في العربية، وهي بمعنى: القاضي في هذه اللغة، وتعني: لفظة «دين» القضاء في اللغة البابلية، و«ديان» الحاكم والمجازي، والقاضي في لغة بني إرم؛ وهي : بهذا المعنى في العربية أيضا.

والدين في تعريف علماء اللغة: العادة، والشأن؛ تقول العرب:. مازال ذلك ديني وديدني أي: عادتي.

والدين: بمعنى الطاعة والتعبد، وقد ورد في الحديث: كان على دين قومه. أي: كان على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم من الحج والنكاح، والميراث. وجاء: كانت قريش، ومن دان بدينهم؛ أي اتبعهم في دينهم، ووافقهم عليه، واتخذ دينهم له ديناً وعِبادة.

ومن دين: الديان بمعنى الحاكم، والقهار، ومن ذلك: مخاطبة الأعشى الجرمازي الرسول بقوله: «يا سيد الناس، وديان العرب» . والديان : من أسماء الله تعالى.

وقد وردت: هذه اللفظة في المعنى المفهوم منها في الإسلام، في بيت شعر ينسب إلى أمية بن أبي الصلت، وهو:

كل دين يوم القيامة عند اللـ ـه إلا دين الحنيفة زور[1].

ووردت بهذا المعنى أيضاً في النصوص الثمودية؛ ووردت في نص سجله رجل من قوم ثمود، توسل فيه إلى الإله «ود» أن يحفظ له دينه. ووردت: في نص آخر جاء فيه: بدين «ود أمت» أي: بدين ود أموت. فاللفظة إذن من الألفاظ العربية الواردة في النصوص الثمودية؛ وقد يعثر عليها في نصوص جاهلية، مدونة بلهجات عربية أخرى[2].

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٧٢٦، غرائب اللغة ص ١٨٢ ، اللسان مادة دين ١٣/ ١٦٦ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٨

ذهب «رينان»: إلى أن العرب هم: مثل سائر الساميين الآخرين موحدون بطبعهم، وإن دياناتهم هي من ديانات التوحيد!

وهو رأى يخالفه فيه نفر من المستشرقين.

وقد أقام «رينان»: نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلهة، التي تعبد لها الساميون.

ومن وجود أصل كلمة «أل. إيل» في لهجاتهم، فادعى أن الشعوب السامية كانت تتعبد لإله واحد، هو «أل ـ إيل» الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات، فدعى بأسماء أبعدته عن الأصل؛ غير أن أصلها كلها هو إله واحد، هو الإله «أل ـ إيل».

وقد ذهب أهل الأخبار إلى أن العرب الأولى كانت على ملة إبراهيم من الإيمان بإله واحد أحد؛ اعتقدت به، وحجت إلى بيته وعظمت حرمه، وحرمة الأشهر الحرم؛ بقيت على ذلك؛ ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم، وإسماعيل غيره؛ فعبدوا الأوثان، وابتعدوا عن دين آبائهم، وأجدادهم؛ حتى أعادهم الإسلام إليه.

ونظرية «أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين؛ ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد، فعبدوا الأوثان، وأشركوا»: نظرية يقول بها اليوم: بعض العلماء مثل: ـ «ويليم شميد»؛ الذي درس أحوال القبائل البدائية الوثنية، ترجع بعد تحليلها، وتشريحها، ودرسها إلى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود القديم. الكل، أو الأب الأكبر؛ الذي هو في نظرها العلة، والأساس؛ فهوإله واحد؛ وتوصل: إلى أن هذه العقيدة هي: عقيدة سبقت التوحيد؛ ثم ظهر من بعدها الشرك وقد أطلق عليها في الألمانية: مصطلح Urmon Otheismus أي: التوحيد القديم.

رأينا فيما سبق أن الجاهلي عرف حياة دينية تتعمق به حينا ويطفو بهاعلى السطح حينا آخر، حتى يتسرب الشك إلى نفسه، و حتى يخيل إلينا أن البدوى قليل الدين وأنه قلما يكترث لما يعبد.

والعربى إذ يتعمق فى حياته الدينية أو يسخط عليها يُصْدِرُ فى ذلك عن طبيعته البدوية وليس عن فكر دينى فى أغلب الأحيان.

فالعربى ذكى إلى حد أنه تكفيه الإشارة، فمأثور الحكمة والأمثال يشهد بذكائه وحاضر بديهته وطبيعته من وراء ذلك، فهو شخص ميال إلى الاعتزاز بنفسه بما يخدم حريته الشخصية فلا يدين لأحد، فهو ذكى غير ميال إلى التفاهم الاجتماعى.

ونظامه القبلى ـ وهو شكل اجتماعى بدائى ـ صرفه عن أن يفكر فى محيط اجتماعى أوسع، فلم يفكر فى تغيير مجرى حياته الاجتماعية أو الفكرية فانحصر فكره داخل قبيلته ولم يخرجها عن مألوفها إلا بقدر ما يخدم حريته الشخصية، فهو عضو فى قبيلته مخلص مطيع لتقاليدها. ولذلك عاش العربى مقلدا غير ميال إلى التغيير الاجتماعى، وكان يحب من الأفكار ما يلهيه ويرفع عنه سأمة الحياة ويتناسب مع سعة الخيال الخاص الذى يتسع للعُقَاب والغول والجان والشياطين سعة تتناسب أيضا مع رحابة الصحراء فى جزيرة العرب. كان يحبُّ مثل هذا الفكر وليس ذلك لضعف فى طبيعة عقله ولكن لميوله الفكرية فهو يرى أنه غير ميال إلى التغيير ولَِمَ يغير؟

إنه رئيس فى قبيلته أو عضو عامل فيها فالتغيير لماذا؟ إن الحفاظ على وضعه فيه نوع من الفكر الذووى المنغلق على نفسه هو؛ فلذلك اندفع نحو الخرافات ليحفظ بها نظامه القبلى. وليس العربى وحده هو الذى كان مصدقا للخرافات فالأمة اليونانية فيها خرافات كثيرة تتناسب مع عقلها المنطقى.

فحياته الدينية كانت تقليدا، وغير مرتبطة بحياة عقلية ناضجة وليست كما يرى بعض الباحثين من أن العقائد الدينية قبل الإسلام خضعت لعوامل التغيير والتحول،ومن هؤلاء الأستاذ أنور الرفاعى إذ يقول: عرف عن عرب ما قبل الإسلام أنهم وثنيون وعرفت وثنيتهم وتقاليدهم فى القرآن الكريم بالجاهلية وعلى الرغم من

ذهاب معظم أخبارها، تسرب إلينا نتف كثيرة من أساطير الجاهليين ومعتقداتهم وأفكارهم، وكلها تدل على أن الوثنية ليست بسيطة التركيب ولا قريبة المتناول، فما وصلنا منها يدل على أنها مرحلة راقية، وأن كثيرا من قديمها قد بقى فى متأخرها وأن بعض أحوالها صيغ بالأفكار اليهودية أو الصابئية أو المسيحية أو اتحد مع عقائد أجنبية. ومن الضرورى أن نلجأ فى تفهمها إلى تصنيف تاريخى يمهد لبيان أطوارها ومعتقداتها فى الزمن.

واستعراضُ الأساطير والعقائد العربية الجاهلية يدلنا على أن الوثنية العربية مرت فى أطوارتشبه تلك التى مرت بها وثنيات الأمم الأخرى فإنها عرفَت:

١ ـ الطور الحيوى: وفيه اعتقد العرب أن فى كل شئ حياة فعبدوا الشجر والحجر والجن، واعتقدوا أن الحجر شجر الشياطين. وأن الصفا والمروة هما: رجل وامرأة فسقا فى الحرم فمسخا حجرين، وأن الضب هو يهودى مسخ فلا يؤكل لحمه.. وأن حجارة الحرم تحمل قدسيته فهم يحملون منها للعبادة فى ديارهم...إلخ.

٢ ـ الطور الطوطمى: وفيه تنحصر الحياة والأرواح فى أشياء محدودة: ومن بقايا هذا الطور ما وجد عندهم من تسمية الإنسان بأسماء الحيوان، ومن عبادة بعض البهائم، كالجمل الأسود عند طيئ، والكبش الأبيض، ومن التشاؤم بالغراب والبوم.ومن عبادة الأصنام على شكل الحيوان كيغوث وهو على شكل نسر، ويعوق وهو على شكل فرس.. إلخ.

٣ ـ الطور الوثنى وتعدد الآلهة: وفيه وصل العرب إلى تصور الإله بأشكال إنسانية. وتعددت الآلهة عندهم وتخصصت ومهدت للطور الوحدانى الذى جاء به الإسلام.

ونحن لا نشايع الأستاذ أنور الرفاعى فيما ذهب إليه من تحليل للوثنية العربية وانتقالها إلى أطوار مختلفة لما رأيناه بينهم من أنهم مجتمع قبلى وأن لكل قبيلة معبودها حجرا أو شجرا أو حيوانا وأنها ذهبت فى عبادتها لهذه الأوثان المتعددة والمختلفة مذهب التقليد والمحاكاة.

يقول اسبتينو موسكاتى[1] :

وقد عرفت القبائل البدوية فى وسط الجزيرة طائفة كبيرة من الآلهة، ولكنها ليست آلهة أو إلهات محددة تحديدا واضحا لها صفاتها وأساطيرها الثابتة، بل أرواح كل منها تهيمن على موضع وتحميه مثل البعول الكنعانية المختلفة. فخيال البدوى أضفى أرواحا على الآباء والأشجار والحجارة، وشعر بوجود آلهة فيها.

وكانت تسكن الصحراء أرواح أخرى محلية غير الآلهة، هى خليط من مخلوقات غريبة بعضها خيِّر وبعضها شرِّير، تملك القدرة على الاستخفاء وكان على المرء استرضاؤها إذا أراد اجتناب أذاها.

نظرية البيرونى:

يقول :.معلوم أن انطباع العامى نازع إلى المحسوس، نافر عن المعقول الذى لا يعقله إلا العالمون، الموصوفون فى كل زمان ومكان بالقلة، ولسكونه إلى المثال عدل كثير من أهل الملل إلى : التصوير فى الكتب والهياكل «اليهود، والنصارى» ؛ ثم «المنانية» خاصة. ناهيك شاهداً على ما قلته: إنك لو أبديت صورة النبى ﷺ أو مكة والكعبة لعامىّ، أو امرأة لوجدت: من نتيجة الاستبشار فيه دواعى التقبيل وتعصير الخدين، والتمرغ؛ كأنه شاهد المصور، وقضى بذلك مناسك الحج والعمرة؛ وهذا هو السبب الباعث على إيجاد الأصنام بأسامى الأشخاص المعظمة من الأنبياء، والعلماء والملائكة مذكرة أمرهم عند الغيبة والموت ومبقية آثار تعظيم فى القلوب إلى أن طال العهد بعامليها، ودارت القرون والأحقاب عليها ونسيت أسبابها، ودواعيها، وصارت رسماً وسنة مستعملة، ثم داخلهم أصحاب النواميس من بابها؛ إذ كان أشد انطباعاً فيهم فأوجبوه عليهم؛ وهكذا وردت الأخبار فيمن تقدم عهد الطوفان، وفيمن تأخر عنه؛ وحتى قيل: إن كون الناس قبل بعثة الرسل أمة واحدة هو على عبادة الأوثان.

ومن الأصنام المشهورة: صنم «مولتان» باسم الشمس، ولذلك سمى «أدت»، وكان خشبيا ملبساً بسختيان أحمر، وفى عينيه ياقوتتان حمراوان.

---

(١) الحضارات السامية ص ٢٠٦ ترجمة السيد يعقوب أبو بكر .

ومتى كان الصنم المصور من أحد الجواهر كان خيراً من الخشب، والخشب خير من الطين؛ فإن عوائد الجواهر تشمل رجال المملكة ونساءها، والذهب يخص صاحبه بالقوة، والفضة بالمديح، والنحاس بالزيادة فى الولاية، والحجر بامتلاك الأرضين والصنم يشرف بصاحبه لا بجوهره.

وقد كانت اليونانية فى القديم: يوسطون الأصنام بينهم، وبين العلة الأولى، ويعبدونها باسم الكواكب والجواهر العالية؛ إذ لم يصفوا العلة الأولى بشئ من الإيجاب؛ بل بسلب الأضداد تعظيماً لها، وتنزيهاً، فكيف يقصدونها للعبادة؛ ولما نقلت العرب من الشام أصنافاً إلى أرضهم عبدوها كذلك ليقربوهم إلى الله زلفى. وهذا أفلاطون: يقول فى المقالة الرابعة من كتاب النواميس «واجب على من أعطى الكرامات التامة أن يتعبد بسر الآلهة والسكينات، ولا يترأس أصناماً خاصة للآلهة الأبوية؛ ثم الكرامات التى للآباء إذا كانوا أحياء فإنه: أعظم الواجبات على قدر الطاقة، ويعنى بالسر الذكر على المعنى الخاص، وهو لفظ يكثر استعماله فيما بين «الصابئة الحرانية» ، «والثانوية المنائية» ومتكلمى الهند .

وقال جالينيوس: فى كتاب «أخلاق النفس» إن فى زمان «قومودس» من القياصرة، وهو قريب من خمسمائة ونيف للإسكندر أتى؛ رجلان إلى بائع الأصنام فساوماه صنم «هرمس» أحدهما يريد نصبه فى هيكل ليكون تذكرة «الهرمس» ، والآخر يريد نصبه على قبر ليذكر به الميت[1] .

فى نظر الرازى:

يقول الرازى المفسر:

اعلم أنه ليس فى العالم أحد يثبت لله شريكا يساويه فى الوجود والقدرة والعلم والحكمة.. وهذا مما لم يوجد إلى الآن.

---

(١) تحقيق ما للهند – البيرونى ص ٧٨ .

لكن فى الوثنية يثبتون إلهين:

- أحدهما : حليم : يفعل الخير.

- والثانى : سفيه: يفعل الشر.

وأما اتخاذ معبود سوى الله ففى الذاهبين إلى ذلك كثرة:

الفريق الأول: عبدة الكواكب:

وهم الصابئة فإنهم يقولون أن الله خلق هذه الكواكب، وهذه الكواكب هى المدبرات لهذا العالم. قالوا: فيجب علينا أن نعبد الكواكب والكواكب تعبد الله.

الفريق الثانى: النصارى: الذين يعبدون المسيح.

الفريق الثالث: عبدة الأوثان. واعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان، وذلك لأن أقدم الأنبياء الذين نقل إلينا تاريخهم هو نوح وهو إنما جاء بالرد على ما أخبر الله عن قومه فى قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾. (سورة نوح الآية ٢٣).

فعلمنا أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح وهى باقية إلى الآن بل أكثر أهل العالم مستمرون على هذه المقالة.

يقول الرازى : والدين والمذهب الذى هذا شأنه يستحيل أن يعرف فساده بالضرورة، ولكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت فى هذه الساعة ليس هو الذى خلقنى وخلق السموات والأرض علم ضرورى فيستحيل إطباق الجمع العظيم عليه فوجب أن يكون لعبدة الأوثان غرض آخر سوى ذلك.

يقول الرازى:

الوجه الأول: اعتقاد الشبه:

ذكر أبو معشر جعفر بن محمد المنجم البلخى فى بعض مصنفاته: أن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته ويعتقدون أن لله جسما وأنه ذو

صورة كأحسن ما يكون من الصور.. وهكذا حال الملائكة أيضا فى صورهم الحسنة وأنهم كلهم قد احتجبوا عنا بالسماء،وأن الواجب عليهم أن يصوغوا تماثيل أنيقة حسنة الرواء على الهيئة التى كانوا عليها ويعتقدونها من صور الآلهة والملائكة. فيعكفون على عبادتها قاصدين طلب الزلفى إلى الله وملائكته.

قال الرازى تعليقا عليه: فإن صح ما ذكره أبو معشر فالسبب فى عبادة الأوثان هو اعتقاد الشبه .

الوجه الثانى الاعتقاد فى الأسباب الظاهرة:

ذكره أحد العلماء وهو أن الناس رأوا أن تغيرات أحوال هذا العالم مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب. فبحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس تحدث الفصول المختلفة والأحوال المتباينة ثم إنهم رصدوا أحوال سائر الكواكب واعتقدوا ارتباط السعادة والنحوسة فى الدنيا بكيفية وقوعها فى طوالع الناس فلما اعتقدوا ذلك بالغوا فى تعظيمها.

فمنهم من اعتقد أنها أشياء واجبة الوجود لذواتها وهى التى خلقت هذه العوالم.

ومنهم: من اعتقد أنها مخلوقة للإله الأكبر لكنها خالقة لهذا العالم.

فالأولون اعتقدوا أنها هى الآلهة فى الحقيقة.

والفريق الثانى: اعتقدوا أنها هى الوسائط بين الله والبشر، فلا جرم أن اشتغلوا بعبادتها والخضوع لها، ثم لما رأوا الكواكب مستترة فى أكثر الأوقات عن الأبصار اتخذوا لها أصناما وأقبلوا على عبادتها قاصدين بتلك العبادات تلك الأجرام العالية ومتقربين إلى أشباحها الغائبة، ثم لما طالت المدة ألفوا ذكر الكواكب وتجردوا لعبادة تلك التماثيل.

فهؤلاء فى الحقيقة : هم عبدة الكواكب .

الوجه الثالث: تعظيم المجهول:

إن أصحاب الأصنام كانوا يعينون أوقاتا فى السنين المتطاولة إلى نحو الألف والألفين ويزعمون أن من اتخذ طِلَّسْماً فى ذلك الوقت على وجه خاص فإنه ينتفع به فى أوقات مخصوصة ويوجهه نحو السعادة والخصب ودفع الآفات.

وكانوا إذا اتخذوا ذلك الطلسم عظموه لاعتقادهم أنهم ينتفعون به، فلما بالغوا فى ذلك التعظيم صار ذلك كالعبادة. ولما طالت مدة ذلك الفِعْل نسوا مبدأ الأمر واشتغلوا بعبادتها على الجهالة بأصل الأمر.

الوجه الرابع : الاعتقاد فى الأرواح:

وكانوا يعتقدون أنه متى مات منهم رجل كبير كان مجاب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله فاتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد أن ذلك الإنسان يكون شفيعا لهم يوم القيامة عند الله على مقتضى ما أخبر الله به فى قوله على ألسنتهم : ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾.

الوجه الخامس: الاعتقاد فى المقدسات:

ولعلهم اتخذوها محاريب لصلواتهم وطاعتهم ويسجدون إليها لا لها كما أنا نسجد إلى القبلة لا للقبلة، ولما استمرت هذه الحالة ظن الجهال من القوم أنه يجب عبادتها.

الوجه السادس: الحلول.

ولعلهم كانوا من المجسمة فاعتقدوا جواز حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل(١).

وبهذا الاتجاه الوثنى نسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات. ومع ذلك بقيت فيهم بقايا من عهد إبراهيم وكانوا يتمسكون بها.

---

(١) مفتاح الغيب (١: ٢٣١).

وذلك مثل تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة بعرفة والمزدلفة وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس فيه.

فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا: «لبيك اللهم لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾. أى ما يوحدوننى لمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكا من خلقى.

ولقد لاحظنا أن العربى كان متدينا سواء الدافع إلى اعتقاده الدينى فكرة كأمية، ولبيد، وقُسّ بن ساعدة، أو كان الدافع إليه تقليد القبيلة، أو الدافع إليه بعض الاتجاهات السياسية كمسيحية غسان.

وعلى أى حال ومهما كان الدافع فإنه كان متدينا.

وذهب الباحثون فى تدينه مذاهب شتى من حيث قضايا الفكر الدينى،وليس الحال كما رأى بعض الباحثين من أن العربى وقع بتدينه تحت أطوار مختلفة،ولكننا نقول: إن حال العربى فى دينه هو حاله مع آلهته كما تصور هذه الرواية التاريخية:

يقول الكلبى: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا وجعل الثلاثة الباقية أثافى لقدره وإذا ارتحل ترك الحجر الرَّبّ فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك[1].

ويقول أبو عثمان النهدى (نهد قبيلة من قضاعة): كنا فى الجاهلية نعبد حجرا ونحمله معنا فإذا رأينا أحسن منه ألقيناه وعبدنا الثانى وإذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط إلهكم فالتمسوا حجرا[2].

ويقول: ابن دريد[3] « كان الرجل منهم إذا وجد حجرا أحسن من حجر أخذه وعبده». فالعربى لم يعبد الوثن معتقدا أنه خالق الكائنات لأنه تارة يستقسم عنده وتارة أخرى يسبه ويشتمه، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة، لذلك لا نعد تصرف

(١) الأصنام ص ٣٣.
(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة (٣: ٣٢٥) ابن الأثير.
(٣) الاشتقاق ص ٨٦ .

العربى مع وثنه تحولا ولكن استخفافا، ومثله إذ انتقل من عبادة وثن إلى عبادة كوكب لا نرى فى ذلك تحولا أيضا لأنه غير مصحوب بفكر عقلى ولكن هو انتقال من صورة مظلمة إلى صورة مشعة كتركه الحجر لحجر أحسن فى صورته، أما ما يصح أن نطلق عليه «انتقالا من طور إلى طور» فهو الانتقال الذى يصحبه فكر ويتبعه قضايا دينية توجب على المتدين النظر أو الشك.

لم يحصل شئ من هذا حتى عند الحنفاء الذين تشككوا فى الأوثان ورأوا أن علاج شكهم هو اختيار دين آخر، وتفرقت بهم سبل الاختيار فلم يحاولوا عرض قضايا دينية أو قضايا فكرية، وذلك شأن العربى فى الجاهلية.

أما الإسلام فكان شيئا جديدا وكلا متكاملا وفى ذلك ما يدل على سماويته ونبوة الرسول ﷺ .

ونتيجة لهذا التنقل فى الاختيار وقع العربى تحت عدة تناقضات فكرية ودينية أشار إليها القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ... ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١)﴾.

وأشار أيضا إلى لون آخر من ألوان تناقضهم فى قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ (٢)﴾.

فمنهم من كان يعبد الله مع صنمه، ومنهم من كان لا يعبد الله مع صنمه. وسنشير إلى ألوان من عقائدهم لنرى أن الحياة العقدية فى مكة لم يحكمها قانون الترقى ولكن حكمها قانون الانتشار والتقليد. فانتشرت فى ربوع شبه الجزيرة العربية متفرقات من الملل والنحل وعايش بعضها بعضا.

وكان تعدد آلهة الصحراء نتيجة لحالة التشتت التى كانت تعيش فيها القبائل، ولميلها الغالب إلى التفوق، وكان الإله لا يستطيع التغلب على هذين العاملين ومد نفوذه إلى ما وراء حدود منطقته المحلية إلا نادرا مثلما فعلت الإلهات الثلاث: اللات

---

(١) سورة العنكبوت ٦١ ، ٦٣ .

(٢) سورة يونس ١٨ .

ومناة والعزى، وكانت تعبد فى المنطقة التى حول مكة وكان يعلو عليهن أبوهن الله[١].

الإله والتصور الوثنى:

هو فى العادة يتكون من عدة آلهة ... ولكن إذا ما انتصرت مدينة من المدن على عدة مدن، فيصبح إله هذه المدينة إلهاً عاماً مشتركاً تعترف به بقية المدن تحقيقا لانتصار الإله وعباده.

ولا نجد إلهاً قومياً خاصاً بالعرب؛ كالذى نجده عند العبرانيين من تعلقهم بـ «يهوه» ؛ وعدّهم إياه إلهاً خاصاً بإسرائيل .

فقد صار هذا الإله. إله جميع قبائل إسرائيل ويهوذا؛ أما العرب: فقد كانوا يعبدون جملة آلهة، كل قبيلة لها إله خاص بها، وآلهة أخرى، ولم يكن لها إله واحد له اسم واحد يعبده جميع العرب.

والظاهر أن القبائل الساكنة فى الحجاز، ونجد، والعراق، والشام صارت قبيل الإسلام تتنكر لأصنامها العديدة، وتأخذ بالتوحيد، وبالاعتقاد بإله واحد هو «الله تعالى» ، وهو الذى: نجده فى الشعر الجاهلى؛ مما يدل على أن: قبائل أولئك الشعراء دانوا بالاعتقاد بوجود ذلك الإله فوق الأصنام والأوثان وقد توّجت هذه العقيدة بتاج النصر فى الإسلام.

غير أن : «الله تعالى» – فى الإسلام يختلف عن «الله» عند الجاهليين «فالله» هو إله العالمين، إله جميع البشر على اختلافهم ليس له شريك من أصنام وأوثان.

أما –الله– عند الجاهليين :فهو رب الأرباب، وإله الآلهة، يسمو فوق آلهة القبائل؛ ولهذا ذكر فى شعر شعراء مختلف القبائل، لأنه: لا يختص بقبيلة واحدة.

---

(٣) الحضارات السامية ص ٢٠٧ اسبتينومو سكاتى ترجمة د. السيد يعقوب بكر .

ولم يشر القرآن الكريم إلى اعتقاد الجاهليين بوجود زوجة له. فهو فى نظرهم إذن: إله واحد متفرد لا يشاركه مشارك فى حياته؛ وإذا كان «الله» واحداً، أعزب فلا يمكن أن يكون له ولد.

ولكن القرآن: يشير إلى اعتقاد الجاهليين بوجود بنين وبنات «الله». ففى سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١).

وقد ذهب المفسرون : إلى أن العرب قالت: الملائكة بنات «الله»؛ وقالت : «اليهود، والنصارى عزير والمسيح ابنا الله» وقال المشركون : الملائكة بنات «الله».

وفى سورة النحل قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾(٢).

الله - فى الشعر الجاهلى:

قد درس بعض المستشرقين : هذا الموضوع؛ ولا سيما موضوع ورود اسم الجلالة فى الشعر الجاهلى؛ فذهبوا فى ذلك مذاهب.

منهم: من أيد صحّة وروده فى ذلك الشعر، وآمن أن الشعر الذى ورد فيه هو شعر جاهلى حقاً.

ومنهم: من ذهب إلى أنه شعر صحيح، غير أن رواة الشعر أدخلوا اسم الجلالة فيه، ولم يكن هو فيه فى الجاهلية، بأن رفعوا أسماء الأصنام، وأحلوا اسم «الله» بدل اللات.

وبينما نجد : أهل الأخبار ينسبون إلى هؤلاء الشعراء، وأمثالهم . الاعتقاد «بالله» تعالى. نجدهم: ينسبون إليهم الحلف بالأصنام، والاعتقاد بها؛ فقد نسبوا إلى: خداش بن زهير شعرا آمن به بالله تعالى؛ ثم نسبوا إليه قوله:

وبالمروة البيضاء يوم تبالة ... ومحبة النعمان حيث تنصرا

---

(١) الأنعام آية ١٠٠ ، انظر المفصل جـ٦ ص ١١٩ ، روح المعانى جـ٧ ص ٢٠٩ .

(٢) سورة النحل آية ٥٧ ، المفصل جـ٦ ص ١١٩ ، ص ١٢٠ .

والمروة البيضاء: هي «ذو الخلصة» ؛ ثم هو يقسم بمحبة النعمان وهو نصراني. أفلا يدل هذا على وجود تنافر أو تناقض في عقيدة أمثال هؤلاء الشعراء؟

والذى لا وقوف له على طبائع أهل الجاهلية يرى هذا الرأى، أو يذهب إلى أن هذا الشعر مصنوع، مفتعل؛ أما الذى يعرف عادة العرب فى القسم فلا يستغرب منه، ولا يرى فيه تنافراً . فقد كان الجاهليون يقسمون بكل شئ. يقسمون بالشجر والحجر، والكواكب، والليل والنهار، وبالأصنام، وبالمعابد «وبالله». لا يرون فى ذلك بأساً، ولا تناقضاً فى عقيدتهم .

فهذا: «عدى بن زيد» يقسم بمكة على قاعدة العرب فى القسم، وهو نصرانى، وقد أقسم بأمور أخرى من أمور أهل الجاهلية الوثنية، ولم يذكر أحد أنه بدل دينه، وصار وثنياً؛ وكذلك الأمر مع غيره من شعراء نصارى، ويهود، وعباد أصنام أقسموا برهبان النصارى، وبأمور نصرانية مع أنهم كانوا عباد أوثان[1] .

ومن القائلين بالرأى الأخير: «نولدكه» . فقد ذهب إلى أن رواة الشعر وحملته فى الإسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة فى هذا الشعر؛ وذلك بأن حذفوا منه أسماء الأصنام، وأحلوا محلها اسم «الله».

وقد ذهب أيضاً إلى: أن رواة الشعر فى الإسلام حذفوا من شعر الجاهليين ما لم يتفق مع عقيدتهم. ومن جملة ما استدل به على أثر التغيير والتحريف فى الشعر الجاهلى ورود كلمة «الرحمن» فى شعر شاعر جاهلى من هذيل؛ زعم: أن ورود هذه الكلمة فى هذا الشعر دليل كاف لإثبات أثر التلاعب فيه، لأن هذه اللفظة إسلامية استحدثت فى الإسلام، ولا يمكن أن ترد فى شعر شاعر جاهلى وقد فات «نولدكه» : صاحب هذا الرأى أن الكلمة بهذا المعنى كلمة جاهلية، وردت فى

---

(١) المفصل جـ٦ ص ١١٤.، ص ١١٥ .

نصوص المسند وفى نصوص جاهلية أخرى، وإن من جملة من استعملها: «أبرهة الحبشى» فى نصه الشهير، المعروف بنص: «سد مأرب» وإن قوماً من الجاهليين تعبدوا للرحمن.

أما «ولهوزن» : فيرى أن عدم ورود أسماء للأصنام فى الشعر الجاهلى إلا فى النادر، وإلا فى حالة القسم، أو فى أثناء الإشارة إلى صنم أو موضع عبادة ليس من تغيير الرواة الإسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام؛ وإنما سببه هو أدب الجاهليين، وعادتهم فى عدم الإسراف والإسفاف فى ذكر أسماء الآلهة الخاصة، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة «الله» التى لم تكن تعنى إلهاً معيناً: وإنما تعنى ما تعنيه كلمة «رب» «وإله». ومن هنا كثر استعمالها فى القسم وفى التمنى أو التشفى وأمثال ذلك[1].

وقد ذهب : مستشرقون آخرون إلى صحة ورود لفظة الجلالة فى الشعر الجاهلى . كما ذهبوا إلى أن ورودها فى القرآن الكريم، أو فى الحديث لا يمنع من ورودها فى الشعر الجاهلى، ولا يكون سبباً للطعن فى ذلك الشعر؛ لأن من الجاهليين من كان يؤمن بوجود «إله» فوق الآلهة عندهم، فورود اسمه فى شعرهم ليس بأمر غريب .

الشرك ومظاهره عند العرب:

يعرض القرآن الكريم فى إشارات إلى أنواع من الشرك كان عليه الجاهليون، وفيه تعريف لمعنى الشرك.

فالشرك: فى قوله تعالى ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾[2] إلخ عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب، أو المعادن أى: مما لا روح له ، وقابل للكسر.

وفى بعض الآيات: إن من أنواع الشرك القول بأن الجن هم شركاء «الله» – تعالى– ومن أنواعه أيضاً: القول بأن الملائكة هم شركاء «الله» – تعالى– وبناته.

---

(١) المفصل ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

(٢) الأعراف آية ١٩١ ، المفصل ص ٤٤ .

وفى آيات أخرى: أن من الشرك اتخاذ آلهة أخرى مع «الله» . والآلهة هنا: شئ عام فيه تأليه الكواكب، وعبادة الأشياء غير المنظورة أى: غير المادية، وعبادة الأصنام.

وفى القرآن الكريم جوانب عن: فلسفة القوم، وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم أولياء من دون الله؛ إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه إليهم فى عبادة غير «الله» ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

ويتبين من هذه الآية، ومن آيات أخرى: أن فريقاً من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله، وأنه هو الذى خلق الخلق، وأن له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم، ولكنهم عبدوا الأصنام، وغيرها، واتخذوا الأولياء والشفعاء لتقربهم إلى «الله» زلفى. وفى كتاب «الله» : مصطلحات لها علاقة بعبادة الشرك منها:.

شركاء: جمع شريك، وأنداد، وأولياء، وولى، وشفعاء، وشهداء فهذه الكلمات ، وأمثالها تعبر عن عقائد الجاهليين قبيل الإسلام، وعن اعتقادهم فى عبادة أشياء أخرى مع «الله» تعالى. كانوا يرون: أنها تستحق العبادة؛ وأنها فى مقابل «الله» في العرف الإسلامى؛ أو أنها : مساعدة «لله»[1] ولعبادة «الأسلاف» علاقة بعبادة الأصنام.

ويلاحظ : أن عبادة «السلف» تقود أتباعها فى بعض الأحيان إلى الاعتقاد بأن قبيلتهم تنتمى إلى صلب جد واحد أصله حيوان فى رأى الأكثرين، أو من النجوم فى بعض الأحيان. وهذا ما يجعل هذه العقيدة قريبة من الطوطمية.

ومعارفنا عن : عبادة «السلف» عند الجاهليين قليلة؛ ويمكن أن نستنتج من أمر النبى - ﷺ - بتسوية القبور ونهيه عن اتخاذها مساجد، ومواضع للصلاة أن الجاهليين كانوا يعبدون أرواح أصحاب هذه القبور، ويتقربون إليها.

ولعل فى عبارة «قبر ونفس» الواردة فى بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأى؛ فإن النفس هى الروح[2].

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

(٢) السابق جـ٦ ص ٤٨ .

وقد أشار أهل الأخبار إلى قبور اتخذت مزارات كانت لرجال دين، ولسادات قبائل يقسم الناس بها، ويلوذون بصاحب القبر، ويحتمون به؛ كالذى كان من أمر ضريح: «تميم بن مرة»؛ وكالذى ذكروه من أمر «اللات» من أنه كان رجلاً فى الأصل اتخذ قبره معبداً، ثم تحول الرجل إلى صنم.

ونجد فى كتب الحديث نهياً عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها. وقد أشارت إلى اتخاذ اليهود والنصارى قبور ساداتهم، وأوليائهم مساجد تقربوا إليها لذلك: نهى أهل الإسلام من التشبه بهم فى تعظيم القبور[1].

كما نهى عن: تكليل القبور، وتجصيصها.

والتكليل: رفع القبر وجعله كالكلة؛ وهى: الصوامع، والقباب التى تبنى على القبور[2].

ومن مظاهر الشرك، المتجلى فى التعبد للأمور الطبيعية، الملموسة: عبادة الشجر، وهى عبادة شائعة معروفة عند الساميين.

وقد أشار ابن الكلبى إلى «نخلة نجران»؛ وهى نخلة عظيمة كان أهل البلد يتعبدون لها، لها عيد فى كل سنة؛ فإذا كان ذلك العيد: علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه، وحلىّ النساء فخرجوا يوماً إليها، وعكفوا عليها يوماً.

ومنها: العزى، وذات أنواط.

يحدثنا أهل الأخبار: عن «ذات أنواط» فيقولون: ذات أنواط شجرة خضراء عظيمة كانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها فتعلق عليها أسلحتها، وتذبح عندها، وكانت قريبة من مكة وذكر أنهم كانوا إذا حجوا يعلقون أرديتهم عليها، ويدخلون الحرم بغير أردية تعظيماً للبيت؛ ولذلك: سميت «ذات أنواط».

وقد روى أن بعض الناس قال: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط.

---

(١) السابق ص٤٩، وانظر صحيح مسلم جـ٢ ص ٦٦ باب النهى عن بناء المساجد على القبور.
(٢) المفصل جـ٦ ص ٤٩، اللسان ١١/٥٩٥ مادة (ك ل ل).

ونستطيع أن نقول : إن آثار عبادة الشجر لا تزال باقية عند الناس تظهر في امتناع بعضهم، وفي تهيبهم من قطع بعض الشجر، لاعتقادهم أنهم إن فعلوا ذلك أصيبوا بنازلة تنزل بهم، ولذلك تركوا بعض الشجر كالسدر فلم يتعرضوا له بسوء.

وتعبد بعض أهل الجاهلية لبعض الحيوانات. فقد ورد أن جماعة الشاعر «زيد الخيل» وهم من طيئ، كانوا يتعبدون لجمل أسود فلما وفد وفدهم على الرسول قال لهم: ومن الجمل الأسود الذى تعبدونه من دون الله عز وجل».

وورد: أن قوماً كانوا بالبحرين كانوا يعبدون الخيل.

ذكر أنهم قوم من المجوس كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين فهم فرس.

وأن بعض القبائل مثل: إياد كانت تتبرك بالناقة[1].

١- منهم من اتخذ إلهة من الأجسام المعدنية كالحجر والذهب والفضة والنحاس.

٢- ومنهم من اتخذه من النبات كالشجر.

٣- ومنهم من اتخذه من الإنسان.

٤- ومنهم من اتخذه من الأجسام البسيطة: - إما االسفلية: كعبدة النار وهم المجوس. - أو العلوية: كعبدة الشمس والقمر وسائر الكواكب وهم نوع من الصابئة.

٥- ومنهم من قال بالاثنية: النور والظلمة وهم الثنوية .

٦- ومنهم من قال: الملائكة عبارة عن الأرواح الفلكية ولكل إقليم روح من الأرواح الفلكية يديره، وكذا لكل نوع من أنواع هذا العالم فيتخذون لتلك الأرواح صورا وتماثيل ويعبدونها وهم عبدة الملائكة.

---

(١) المفصل جـ ٦ ص ٦٠ ، رسالة الغفران ص ١٤٠ .

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة وهم بخلاف الصابئة الذين يقدسون الملائكة ولا يعبدونها. ويزعمون أنها بنات الله فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله.

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ (سورة النجم).

ومنهم من قال للعالم إلهان:

- أحدهما خير وهو: الله.
- والآخر شر وهو الشيطان.

وهؤلاء هم الذين يشير إليهم القرآن الكريم بقوله:

﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾[2].

ونهاية القول أن ما كان عليه العرب من مظاهر الشرك المتعددة مختلف إلى حد بعيد، فمنهم من كان يتعمق في عبادته حتى يرى الله وراء حقيقة الوجود، فوجه إليهم القرآن الكريم هذه الأسئلة: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾[3].

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4].

ومن الملاحظات العامة على المظاهر الدينية القديمة التي كانت في البابليين والمصريين القدماء والفرس وحتى اليونان أنها كانت مرتبطة بظواهر علوية، أو سفلية، ارتباط تأليه أو تقديس.

---

(١) سورة النحل الآية ٦٧ — (٢) سورة النحل آية ٥١

(٣) سورة المؤمنون: ٨٥ : ٨٩ . — (٤) الآية ٦٣ من سورة العنكبوت.

الدهريون:

والدهرية هم الذين يقولون بإسناد الحوادث إلى الدهر واستقلال الدهر بالتأثير، والدهر عندهم: هو حركات الفلك، وأن العالم يدار بمقتضى تأثير هذه الحركات والعرب يقولون به ولا صانع سواه.

أما تعريف الدهر عند الإسلاميين: فهو: مدة زمان الدنيا.

وعرفه بعضهم بأنه أمد مفعولات الله فى الدنيا أو فعله لما قبل الموت.

يقول الألوسي: وزعم بعض من لا تحقيق لهم أن الدهر من أسماء الله وهو غلط[1] وأطلقه العرب بفتح الدال علي الملحدين الذين ينكرون الله وتأثيره، أما إذا أرادوا منه الرجل المعمر فإنهم يقولون دُهْرِيٌّ بضم الدال[2].

وعقيدة الدهرية ترجع أيضاً إلى بعض مبادئ الصابئة فهى خمسة:

الرب - النفس - المادة - الدهر - الفضاء.

وجعل الشهرستانى الدهرية من المعطلة فقال: معطلة العرب أصناف صنف منهم أنكر الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى وهم الذين أخبر القرآن عنهم فى قوله سبحانه :.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾[3] (سورة المؤمنون آية ٣٧).

يقول الشهرستاني: إشارة إلى الطبائع المحسوسة فى العالم السفلى وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر.

﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[4] فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات فطرية في كثير من السور فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الأعراف الآية ١٨٤).

وقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (سورة فصلت الآية ٩).

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ (سورة البقرة آية ٢١)

---

(١) روح المعانى جـ١ ص٦٩. (٢) لسان العرب لابن منظور.

(٣) وانظر الملل والنحل (٢ :٢٤٦). (٤) سورة الجاثية آية ٢٤

فأثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق وأنه قادر على الكمال ابتداء وإعادة.

وروى صاحب الأغاني: يقول عدى بن زيد بلسان حال المقابر . يتضح منها أن لديهم أكثر من معنى للدهر:

من رآنا فليحدث نفسه إنه موف على قرن زوال
وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتى به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا عندنا وجياد الخيل تردى في الجلال
عمروا دهرا بعيش حسن آمنى دهرهم غير عجال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذاك الدهر يودى بالرجال
وكذاك الدهر يرمى بالفتى في طلاب العيش حالا بعد حال

(جـ) الموحدون:

« وقد نقلت الصحراء أيضاً عدا التقاليد الوثنية تقاليد دين التوحيد ، من أتباع الدينين الكبيرين اللذين كان مركزهما على مقربة من حدود الصحراء، فقد هاجر جماعات من اليهود إلى الجنوب ولعل ذلك كان من أيام تخريب الرومان لبيت المقدس وكونوا جاليات صغيرة على الطريق التجارى وفى واحات الحجاز وكانوا يشتغلون بالزراعة خاصة وقد أتوا إلى موطنهم الجديد بتقاليد قومهم الدينية والحضارية واتخذوا العربية لغة لهم[1]» .

ولقد كان منهم الموحد المقر بخالقه المصدق للبعث موقنا بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصى مثل الذين تحنفوا والذين تهودوا والذين تنصروا.

وبعض القبائل لم تتغير فطرتهم ولا سيما «ربيعة» التى لازمت الحنيفية المشوبة بالأوثان، ومن الأشخاص مثل:

قس بن ساعدة .

وأمية بن أبى الصلت.

ولبيد بن ربيعة.

---

(١) الحضارات السامية ص ٢٠٧ .

يقول الشهرستاني:

ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وينتظر النبوة، وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها، فيما تقدم.

فَممَّنْ كان يعرف النور الظاهر، بالنسب الطاهر، ويعتقد الدين الحنيفي وينتظر المقدم النبَوى زيد بن عمرو بن نفيل، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: أيها الناس هلموا إلى، فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيرى. وسمع «أمية بن أبى الصلت»، يوما ينشد:

كلّ دين يوم القيامة عند الله ... إلا، ديــن الحنــيـفة زور

فقال له صدقت: وقال زيد أيضاً:

فلن تكون لنفس منك واقية ... يوم الحساب إذا ما يجمع البشر

ومن كان يعتقد التوحيد، ويؤمن بيوم الحساب «قس بن ساعدة الإيادى». الذى قال فى موعظه: كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ولئن ذهب ليعودن يوما». وقال أيضا:

« كلا بل هو الله إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غداً».

وأنشد فى معنى الإعادة:

يا باكى الموت والأموات فى جدث ... عليـهم من بقـايا بزهم خـرق

دعـهم: فـإن لهم يوما يصاح بهم ... كـمـا ينبـه من نومـاته الصـعق

حتى يجيئوا بحال غير حالهم ... خلق مضى ثم خلق بعد ذا خلقوا

منهم عـراة ومنهـم فى ثيـابهـم ... منهـا الجديد ومنهـا الأزرق الخلق

ومنهم : عامر بن الظرب العدواني، وكان من شعراء العرب وخطبائهم، وله وصية طويلة يقول فى آخرها : « إنى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا. ولا جائيا إلا ذاهبا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء». ثم قال: « إنى أرى أمورا شتى. وحتى قيل له « وما حتى» ؟ قال: حتى يرجع الميت حيا ويعود لا شئ شيئا، ولذلك خلقت السموات والأرض. فتولوا عنه ذاهبين»، وقال : «ويل: إنها نصيحة ، ولو كان من يقبلها».

وكان عامر، قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرمها، وقال فيها:

إن أشرب الخمر أشربها للذتها وإن أدعها فإني ماقت قالي
لولا اللذاذة والقينات لم أرها ولا رأتني إلا من مدى عالي
سآلة للفتى ما ليس في يده ذهابة بعقول القوم والمال
تورث القوم أضغانا بلا إحن مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي
أقسمت بالله أسقيها وأرويها حتى يفرق ترب الأرض أوصالي[1]

وممن كان قد حرم الخمر في الجاهلية : قيس بن عاصم التميمي، وصفوان ابن أمية بن الحارث الكناني، وعفيف بن معد يكرب الكندي، وقالوا فيها أشعارا. وقال غيره ، وقد حرم الخمر والزنا على نفسه:

سلمت قومي بعد طول مضاضة والسلم أبقى في الأمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهي أثيرة والمومسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أميم تكرما وكذاك يفعل ذو الحجا المتعفف

وممن كان يؤمن بالخالق، وبخلق آدم عليه السلام، عبد «الطابخة بن ثعلب ابن وبرة» من قضاعة، وقال فيه:

وأدعوك يا ربي بما أنت أهله دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لأنك أهل الحمد والخير كله وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت الذي لم يحيه الدهر ثانيا ولم ير عبد منك في صالح وجم
وأنت القديم الأول الماجد الذي تبدأ خلق الناس في أكثم العدم
وأنت الذي أحللتني غيب ظلمة إلى ظلمة من صلب آدم في ظلم

(١) الكلام على تقديره «ألا» بتشديد اللام، وتسكين ياء أسقيها ضرورة.

ومن هؤلاء النابغة الذبياني، وقد آمن بيوم الحساب، فقال:

ووجهتهم ذات الإله ودينهم قويم، فما يرجون غير العواقب

وأراد بذلك الجزاء بالأعمال.

ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمى المزني، وكان يمر بالعضاه[1] وقد أورقت بعد يبس فيقول: لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحيي العظام وهي رميم. ثم آمن بعد ذلك وقال في قصيدته التي أولها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب، أو يعجل فينقم

ومنهم علاف بن شهاب التيمي، كان يؤمن بالله تعالى وبيوم الحساب وفيه قال:

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة فأخـــــذت منه خطة المقتال

وعلمت أن الله جاز عبـــده يوم الحساب بأحسن الأعمال

وكان بعض العرب إذا حضره الموت يقول لولده: ادفنوا معي راحلتي حتى أحشر عليها فإن لم تفعلوا حشرت على رجلي.. قال جريبة بن الأشيم الأسدي في الجاهلية وقد حضره الموت – يوصي ابنه سعدا:

يا سعد أما أهلكن فإنني أوصيك أن أخا الوصاة الأقرب

لا تتركن أباك يعثر راجلا في الحشر يصرع لليدين وينكب

واحمل أباك على بعير صالح والـغ المطية، إنـــه هو أصوب

ولعل لي مما تركت مطيـــة في الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

وقال عمرو بن زيد بن المتمني يوصي ابنه عند موته:

أبني : زودني إذا فارقتني في القبـر راحلة برحل قاتر[2]

---

(١) العضاهة بالكسر: أعظم الشجر، ذات الشوك . جمعه، عضاه بالكسر .

(٢) يقال رحل قاتر إذا كان قدر الإيموج فهقرا هـ. أساس البلاغة (قتر)

للبعث أركبها إذا قيل اظعنوا متساوقين معا لحشر الحاشر
من لا يوافيه على عيرانه فالخلق بين مدافع أو عاثر

وكانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلي ظهرها أو مما يلي كلها وبطنها ويأخذون وليه، فيشدون وسطها ويقلدونها عنق الناقة ويتركونها حتى تموت عند القبر ويسمون الناقة «بلية» والخيط الذى تشد به «ولية» وقال بعضهم يشبه رجلا فى «بلية» كالبلايا فى أعناقها الولايا.

وإذا تصفحنا الشعر الذى ذكره ابن هشام فى سيرته عن حادثة الفيل وجيش أبرهة لو تصفحناه جميعا وأردنا تحليله من ناحية عاطفتهم الدينية ثم أردنا أن نصل إلى ظواهر دينهم العام لما ترددنا فى الحكم عليهم بأنهم مؤمنون موحدون، لا يشوب إيمانهم شوائب الوثنية أو سذاجة الشرك. فما رأينا فى شعرهم اسمالوثن أو صنم .

فعندما تقرأ شعر عبد المطلب يطالعك قوله:

لا هم أن العبد يمنـ ـع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

لاهم : أى يا الله

ثم قال لا يغلبن صليبهم ..

فقابل بين الله والصليب.

فهذا منه يعنى إدراكا موضوعيا حين قابل بينهما أى بين الله والصليب وأن الله حقيقة والصليب زائف.

كذلك شعر عبد الله بن الزبعرى:

فهو يذكره فى شعره: «والله من فوق العباد يقيمها» .. فلم يذكر وثنا ولا صنما وهو العنيد فى جداله مع الرسول.

وأمية بن أبى الصلت:

الذى يبدأ قصيدته بقوله:

إن آيات ربنا ثاقبات لا يمارى فيهن إلا الكفور

ثم ختمها بقوله:

كل دين يوم القيامة ـ عند الله   إلا ديـــن الحـــنيـفة ـ زور

فالشعر الذى ساقه ابن هشام يذكرنا بأمرين إما أنهم موحدون وإما أنه شعر منتحل.

ولعل مثل هذه الملاحظات جعلت بعض المستشرقين يزعم أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظ الجلالة فى شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التى تتفق معها فى الوزن.

يقول كارل فنيللينو:

« بالغ الأب شيخو فى كتابه المسمى بشعراء النصرانية من شعراء الجاهلية. بالغ فى ظنه هذا الرأى أى مبالغة كأنه زعم نصرانيا كل شاعر جاهلى ورد فى شعره شئ مما يقرب من اعتقاده وحدانية الله أو من التأملات والاعتبارات الدينية فعد من النصارى امرؤ القيس والنابغة وطرفة.

يقول فنيللينو: لا شك عند كل منصف فى إنهم من أصحاب الوثنية، أما المؤكد المثبت فإنما هو أن دين النصرانية ذاع فى القرن السابق للهجرة فى شمال جزيرة العرب فاعتنقه بعض القبائل مثل بنى تغلب وقسم غير صغير من بنى تميم فضلا عن أكثر المقمين بمملكة بنى غسان وأكثر سكان مدينة الحيرة[1].

فنيللينو : يرد على مبالغة شيخو قائلا: «أنه ربما تكون الأفكار التى تقترب من التوحيد نتيجة – تأملات وليست نتيجة النصرانية ولا سيما أن النصرانية، من الناحية التاريخية تأخرت عن معاصرة هؤلاء الشعراء»[2].

ورأينا ما يؤيد فنيللينو فى رواية مسلم عن عبد الله بن الصامت قال : قال: أبو ذر يا ابن أخى صليت سنتين قبل مبعث النبى ﷺ قال: قلت : فأين كنت توجه؟

(١) يراجع: رسالة الجاحظ: فى الرد على النصارى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون وهى ملحقه بالكتاب اثبتناها لنبين مدى انتشارها فى الجزيرة العربية .

(٢) تاريخ الآداب العربية وهى محاضراته التى ألقاها فى الجامعة المصرية ١٩١٠ – ١٩١١ طبع دار المعارف.

قال : حيث وجهني الله. يقول رسول الله « غفار غفر الله لها وأسلم سالمها[1] الله» .

فإن أبا ذر لم يبين أثر المسيحية أو اليهودية في توجهه إلى الله، وربما كان ذلك أثرا من الحنيفية ما زال موجودا بين العرب، وهذا ما نميل إليه، وعبادة الرسول قبل البعثة كانت على دين إبراهيم وكان يدفعهم إلى البحث عن اتجاهات عقلية تميل نحو البحث عن حقيقة الدين،ووجدنا مثل ذلك قد ظهر مع الحنفاء.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق:[2] كل ذلك يدل على أن العرب عند ظهور الإسلام كانوا يتشبثون بأنواع من النظر العقلي.

ويقول – وكان يعد العرب للجدل الديني ويحفزهم إليه إما الدفاع عن أديانهم الموروثة ضد الأديان الدخيلة عليهم وإما المهاجمة لهذه الأديان جميعا من أجل ما يلتمسون من الدين الحنيف دين إبراهيم» .

« على أنه ينبغي ألا نبالغ في تصور من تنصروا من العرب قبل الإسلام ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياما دقيقا،فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا الدين الجديد،وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم،وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العبادي:

سعى الأعداء لا يألون شرا عليه ورب مكة والصليب

فهو يجمع بقسمه بين رب مكة ورب الصليب.

والحق أن نصارى العرب في الجاهلية إنما عرفوا ظاهرا من دينهم وقلما عرفوا حدوده،وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثير منه ومن شخوصه وطقوسه فمنذ قول امرئ القيس:

يضيء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبال المفتل

---

(١) فتح الباري إسلام أبي ذر جـ٨ .

(٢) تمهيد في الفلسفة الإسلامية ص ١١١.

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحاريب كنائسهم .

يقول الأعشى:

كدمية صور محرابها   بمذهب ذى مرمر مائر

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقراءهم في أواخر الليل.

يقول المرقش الأكبر في بعض شعره:

وتسمع تزقاء من البوم حولنا   كما ضربت بعد الهدوء النواقس[1]

وفي ذلك ما يدل – ولا سيما قول الأعشى وهو وثني– على أنه كان لديهم بعض معارف عن المسيحية أدخلوها في قصائدهم في بعض وجوه التشبيه أيا كان نوع هذا التشبيه كقول المرقش في جمعه بين البوم والنواقيس وذلك يبعدها عن مظهر التقديس وخاصة أن البوم مما يتشاءم منه العرب.

وعلى أى حال يتضح أن معارفهم عن المسيحية تناهت إليهم فاستعملوا مصطلحاتها دون نظر إلى اتخاذها عقيدة كما هو واضح من أشعارهم .

وظهرت بوادر لمذهب الجبر والاختيار، يروى صاحب الأغاني[2] ما نصه:

قال لي: يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانيا عباديا وكان معمرا قال:

– كان الأعشى قدريا.

– وكان لبيد مثبتا .

قال لبيد:

من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى:

استأثروا الله بالوفاء وبالفضـ   ـل وولى الملامة والرجلا

قلت: فمن أين أخذ الأعشى مذهبه؟

---

(١) العصر الجاهلي ص ١٠٠ – ١٠١ دكتور شوقي ضيف دار المعارف.

قال: من العباديين نصارى الحيرة كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقنوه ذلك.

كذلك كانت لهم وجهة نظر فى تقسيم القوى الروحية فكان فيها الأرواح الخيرة. مثل الملائكة وكان فيها الأرواح الشريرة مثل الشياطين.

وكانت فكرتهم عن هذه الأرواح أنها تحل فيما حولهم من مظاهر الطبيعة. كذلك كانت لهم دراية بتقسيم الشئ أو الأشياء: إلى شئ مقدس، وإلى شئ غير مقدس.

وقد أشار إلى ذلك القرآن فقال:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾[1].

٢- موقفهم من الرسالة:

ذهبت الصابئة والبراهمة ومعهم الوثنيون إلى القول باستحالة النبوات فرأينا فى العرب من مال منهم إلى مبادئ الصابئة فطعنوا فى أصل النبوة وهم الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا أبعث الله بشراً رسولا؟.

فإن الصابئة لا يجوزون أن يكون الوسيط بشريا إنما يجوزونه ملكا فرد الله عليهم بقوله:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[2].

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[3].

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

وهناك موقف اليهود والنصارى ومن تابعهم ممن يسلم بأصل النبوة غير أنهم طعنوا فى نبوة محمد -ﷺ-.

والقرآن مملوء بالرد عليهم. وعلى طعنهم من وجوه:

---

(١) سورة الأنعام آية ١٣٦ .

(٢ - ٤) سورة الأنعام الآيات ٨ - ١٠ .

تارة بالطعن في القرآن فأجاب الله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (سورة البقرة آية ٢٦)

وتارة بالتماس سائر المعجزات كقوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ (سورة الإسراء آية ٩٠).

وتارة بأن هذا القرآن نزل منجما نجما وذلك يوجب تطرق التهمة إليه فأجاب الله بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (سورة الفرقان آية ٣٢).

وهناك موقف من ينكر رسالة محمد على جهة العصبية القبلية حكى الله ذلك بقوله: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الزخرف آية ٣١).

فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ (سورة الزخرف آية ٣٢).

وهناك موقف أهل عبادة الأوثان والدهريين الذين لا يعرفون جنة ولا نارا ولا قيامة ولا كتابا مثل الأوس والخزرج.

يقول الشهرستاني: وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة، وأنكروا الرسل، وعبدوا الأصنام، وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة وحجوا إليها، ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا. وهم الدهماء من العرب إلا شرذمة منهم نذكرهم وهم الذين أخبر عنهم التنزيل: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ فاستدل عليهم بأن المرسلين كلهم كانوا كذلك: قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[1]

ويقول تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾[2].

٣- قضايا الغيب:

ومن العرب من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام.

(١) سورة الفرقان آية ٢٠. (٢) سورة ص الآيات ٤ - ٧.

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾. (سورة الزمر آية ٣)

قال المسعودي: وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ونحروا لها البدن ونسكوا لها النساك وأحلوا لها وحرموا[١].

يقول الشهرستاني: وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة وهم الذين أخبر عنهم القرآن :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[٢].

فاستدل عليهم بالنشأة الأولى إذ اعترفوا بالخلق الأول. فقال عز وجل: ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾، وقال ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[٤]

ومن العرب من يعتقد التناسخ فيقول: إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته وانتصب طيرا «هامة» فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة وعلى هذا أنكر عليهم الرسول فقال:

لا هامة ولا عدوى ولا صفر[٢].

يقول الألوسي: عند قوله تعالى: «نموت ونحيا».

إعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام[٣].

ويقول الشهرستاني: وشبهات العرب كانت مقصورة على هاتين الشبهتين:

إحداهما: إنكار البعث. بعث الأنام.

والثانية : جحد البعث. بعث الرسل.

فعلى الأولى قالوا: أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون؟

---

(١) مروج الذهب ١ : ٢٥ . (٢) سورة يس آية ٧٨ .

(٣) سورة يس آية ٧٩ (٤) سورة ق آية ١٥ .

(٥) سورة الجاثية آية ٢٤ . وانظر روح المعاني ٩ : ٦٩ .

(٦) سورة الصافات الآيتان ١٦ ،١٧ .

وعبروا عن ذلك فى أشعارهم:

حياة ثم موت ثم نشر ... حديث خرافة يا أم عمرو

ولبعضهم مرثية فى أهل بدر من المشركين يقول فيها:

فماذ يا قليب قليب بدر ... ترى ماذا تكلل بالسنام

يخبرنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

وأما الشبهة الثانية: فكان إنكارهم لبعث الرسول ﷺ فى الصورة البشرية أشد وإصرارهم على ذلك أبلغ. وأخبر التنزيل عنهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(١) ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾(٢) ؟

فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتيه ملك من السماء: وقالوا ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾(٣) ومن كان لا يعترف بهم كان يقول: الشفيع والوسيلة لنا إلى الله هى الأصنام المنصوبة أما الأمر والشريعة من الله إلينا- فهو المنكر.

لا حظنا مما سبق تدرجا فى مستويات القربى الروحية أو القوى المعبودة المؤلهة لدى عرب الجاهلية فرأينا قوى روحية عليا معبودة مثل الملائكة واختلطت صور بعضها الملائكة ببعض مثل بشرية أو أخضعوها لتصوراتهم البشرية.

فقالوا عنها: إنها بنات الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾(٤).

ووجدت قوى روحية سفلى فى بنى مليح من خزاعة وهم رهط طلحة الطلحات يعبدون(٥) الجن والشياطين وأنهم كانوا يستخدمونها فى كتابتهم، ولهم معها أساطير واتخذوا أيضاً منها شركاء لله. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ ...﴾(٦).

---

(١) سورة الإسراء آية ٩٤. (٢) سورة التغابن آية ٦.

(٣) سورة الأنعام آية ٨. (٤) سورة الزخرف آية ١٩.

(٥) تشككها فى رمى الجن.

قال ابن إسحاق أنه حدث أن أول العرب فزع للرمى بالنجوم - حين رمى عليها- هذا الحى من ثقيف وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له : عمرو بن أمية.

(٦) سورة الأنعام آية ١٠٠.

ولهم أيضاً بجانب ذلك اتجاهات وثنية لا تنفك عن سذاجة الفطرة، كعبادة المحسوسات من شجر وحجر وغير ذلك، ورأينا فيهم على جاهليتهم وثنيهم أنهم يعرفون لفظ الجلالة «الله».

وتحدثنا الروايات التاريخية: أنهم وجدوه في الكعبة منذ أن بناها إبراهيم ومعه إسماعيل، وكانت قريش تعتبره هو المعبود الحقيقي، ومظاهرها الوثنية كانت زلفى إليه.

ورأينا فيهم: من يتكلم عن الدهر كقوة عظمى تعلو فوق التصور الإنساني، وعبدوا النيران من شمس وقمر . . . إلخ.

ومع كل هذا لا يوجد في العرب طبقة دينية تختص بأمور الدين، وليس في بلاد العرب، ولا سيما في منطقة الحجاز نجد طبقة إكليريكية خاصة، ولكن يقوم مقامها طائفة العرافين والزاجرين والقائفين والسدنة، ولم يكن لهذه الطائفة ما يميزهما أو يرفعها عن سائر الناس فلا مسحة خاصة بها، ولا رتبة ولا فرقة في أساليب المعيشة بينهم وبين أبناء قبيلتهم لهم ما لها وعليهم ما عليها.

القضاء والقدر:

ونرى حاتم الطائي: وهو من النصارى على رأي مؤمناً بالقضاء والقدر، وبما يأمر به الله تعالى.

ونجد المثقب العبدي: مؤمناً بالله تعالى وبالقدر. فما يقع للإنسان يكون بمشيئة الإله وقدره[1].

كذلك: نجد هذه العقيدة - عقيدة القدر في شعر «زهير بن أبي سلمى» وفي شعر غيره من الشعراء. هذا زهير يقول: إن المنايا أمر لا مفر منه، وإن من جاءت منيته لابد أن يموت، ولو حاول الارتقاء إلى السماء فراراً منه؛ ثم يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

ومن القائلين بالقدر: عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي الشهير ونجد : عمرو ابن كلثوم - في جملة من آمن بالقضاء والقدر. وتؤدي: لفظة «منا»: معنى القدر؛

(١) المفصل جـ٦ ص ١٤٨، المعارف ص ٦٢١، المحد ص ١٦١ .

ومنها : «المانى» بمعنى القادر والمنية بمعنى الموت؛ لأن الموت مقدر بوقت مخصوص، وهى من الكلمات السامية المشتركة الواردة فى مختلف لهجات هذه المجموعة. ولهذه الكلمة: صلة باسم – الإله الكنعانى «منى» : وهو إله القدر ولها أيضاً: صلة بالصنم «منوات» من أصنام ثمود. و«مناة» من أصنام الجاهليين[١].

وتؤدى كلمة «المنون» معنى الدهر والموت؛ وقد تسبق بكلمة ريب فى بعض الأحيان فيقال: ريب المنون؛ كما يقال: ريب الدهر.

ويرى نولدكة: أن هذه الكلمات هى أسماء آلهة، وليست أسماء أعلام، هى أسماء تعبر عن معان مجردة للألوهية، وهى مما استخدم فى لغة الشعر للتعبير عن هذه العقائد الدينية، فالزمان مثلاً أو الدهر لا يعنيان على رأيه هذا إلهاً معينا، ولا صنماً خاصاً؛ إنما هى تعبير عن فعل الآلهة فى الإنسان.

وبعض هذه الكلمات فى رأى : «ولهوزن» مثل: «قضاء ومنية» هى بقايا جمل اختصرت ولم يبق منها غير بقايا هذه الكلمات. فكلمة قضاء هى بقية جملة أصلها: قضاء الله – سقطت منها الكلمة الأخيرة، وبقيت الأولى، وكذلك الحال فى منية فإنها: بقية جملة هى: « منية الله». سقط عجزها وبقى صدرها، وهى تعنى أن المنية هى منية «الله» تصيب الإنسان[٢].

يبدو أن : من الغريب ذكر الدهر والزمان والحمام والمنايا، وأمثالها فى الشعر، ونسبة الفعل إليها، بينما يهمل ذكر الأصنام فيه، أو نسبة الفعل إلى «الله» تعالى. فهل يعنى هذا أن الجاهليين لم يكونوا يعلمون أن «لله» سلطانا وحولاً، وأن المنايا، والحتوف وكل خير أو مكروه هو من فعل «الله تعالى».؟

الواقع: أن هذا الذى نذكره. يذهب إليه أهل الجاهلية، ولم يقصدوه، وما ذُكر الدهر فى الشعر إلا: كتشكّى الناس من الزمان أو من الحظ أو النصيب فى هذه الأيام. وشكواهم من ذلك لا يعنى تحديد سلطان «الله» تعالى أو نكرانه؛ وإنما هو بقية من تصور إنسانى قديم بنسبة كل فعل وعمل إلى قوة خفية هى القوة العاملة،

(١) المفصل جـ٦ ، ص ١٥٥، ص ١٥٦، ص ١٥٧ .

(٢) السابق جـ٦ ص ١٥٨ .

وهى ما عبرت عنها بالدهر وبالزمان؛ وذلك لما يتصورونه من مرور الأيام والسنين، وبلاء الإنسان فيه، وبقاء الأرض والكون، ومثل هذه النسبة والشكوى عامة عند جميع الشعوب البدائية والمتطورة المتقدمة، فنراها عند القبائل البدائية، ونراها عند الغربيين[١].

وقد ذكر علماء التفسير: أن قريشاً خاصموا الرسول فى القدر وأن رجلاً جاء إلى الرسول -ﷺ- فقال: يا رسول الله ففيم العمل؟ أفي شئ نستأنفه، أو فى شئ قد فرغ منه؟ فقال رسول الله: اعملوا فكل ميسر لما خلق له. ويظهر من ذلك: أن قريشاً أو جمعاً منهم لم يكونوا يؤمنون بالقدر، بل كانوا يؤمنون بأن فعل الإنسان منه، وأن لا لأحد من سلطان فى تصرفه وفعله[٢].

القدرية:

وقد ذكر: أن الشاعر الأعشى كان قدرياً، يرى أن للإنسان دخلاً فى فعله، وأن له سلطاناً على نفسه؛ حيث يقول:

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا.

فالإنسان مسئول عن فعله، ملام على ما يرتكبه من قبيح.

فالله تعالى عادل لا يجازى الإنسان إلا على فعله، ولو كان قد قدر كل شئ له وحتمه عليه كان ظالماً.

وقد أخذ الأعشى رأيه هذا: من قبل العباديين، نصارى الحيرة كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقنوه ذلك[٣].

التأله والقرابين:

ينقل «البيرونى»[٤]: عن جالينوس من كتابه: الحث على تعلم الصناعات، قوله: ذوو الفضل من الناس إنما استأهلوا ما نالوه من الكرامة حتى لحقوا بالمتألهين بسبب جودة معالجتهم للصناعات لا بالإحصاء والمصارعة ورمى الكرة.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ١٢٨.

(٢) السابق جـ٦ ص ١٦٠، تفسير الطبرى ٢٧ / ٦٤

(٣) السابق جزءا وصفحة.

(٤) وللهند من مقوله ص ٥٠.

ولقد بنى جالينوس فكرته: على أن الأنفس والأرواح قائمة بذاتها قبل التجسد بالأبدان، والاقتدار على تصاريف العالم، ولذلك سموها «آلهة»، وكانوا أى اليونانيين يسمون الماهر بصناعة الطب: رجل إلهى.

وقال يحيى النحوى: في رده على « أبروقلس» كان اليونانيون يوقعون اسم الآلهة على الأجسام المحسوسة فى السماء، كما عليه كثير من العجم؛ ثم لما تفكروا فى الجواهر المعقولة أوقعوا هذا الاسم عليها.

فباضطرار يعلم أن معنى التأله راجع إلى ما يذهب إليه فى الملائكة.

يعلق البيرونى على ذلك فيقول: ولكن من الألفاظ ما يسمح به فى دين دون دين، وتسمح به لغة وتأباه أخرى، ومنها لفظة: «التأله» فى دين الإسلام، فإنا إذا اعتبرناها فى لغة العرب وجدنا جميع الأسامى التى سمى بها الحق المحض متجهة على غيره بوجه ما سوى اسم «الله» فإنه يختص به اختصاصاً قيل له إن اسمه الأعظم.

وإذا تأملناه فى العبرية والسريانية اللتين نزلت بهما الكتب المنزلة قبل القرآن وجدنا : «الرب» فى التوراة وما بعدها من كتب الأنبياء المعدودة فى جملتها موازياً «الله» فى العربى غير منطلق على أحد بإضافة كرب البيت، ورب المال. ووجدنا: الإله فيها موازياً للرب فى العربى، فقد ذكر فيها: أن بنى ألوهيم نزلوا إلى بنات الناس قبل الطوفان وخالطوهن.

وذكر فى كتاب: أيوب الصديق إن الشيطان دخل مع بنى ألوهيم إلى مجمعهم وفى توراة موسى: قول الرب: إنى جعلتك إلهاً لفرعون، وفى المزمور الثانى والثمانين من زبور داود: إن الله قام فى جماعة الآلهة يعنى الملائكة، وسمى فى التوراة الأصنام «آلهة غرباء».

يقول البيرونى: والأمم الذين كانوا حول أرض فلسطين هم الذين كانوا على دين اليونانيين فى عبادة الأصنام، ولم تزل بنو إسرائيل كانوا يعصون «الله» بعبادة صنم «بعلا» وصنم: «استروث» الذى للزهرة. فالتألّه على وجه التملك عند أولئك كان يتجه على الملائكة وعلى الأنفس.[1].

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٥٠.

لقد كانت ديانات الجاهليين ذات حدود ضيقة، آلهتها آلهة محلية، فالإله إما إله قبيلة، وإما إله موضع. وطبيعى أن تكون صلة الإنسان بإلهه متأثرة بدرجة تفكير ذلك الإنسان وبالشكل العام للمجتمع. والإله في نظرهم هو حامى القبيلة وحامى الموضع وهو المدافع عنها وعنه فى أيام السلم وفى أيام الحرب ما دام الشعب مطيعاً له منفذا لأوامره وأحكامه وللشعائر المرسومة التى يعرفها ويقررها ويقوم بتنفيذها رجال الدين.

ومن أهم ما تقرب به الإنسان إلى آلهته: النذور والقرابين والمنح أى الصدقات والعطايا؛ وتدخل الذبائح فى باب النذور كذلك[1].

ويمكن تقسيم ما تقدم به الجاهليون إلى أربابهم إلى قسمين:

الأول: قسم إجبارى يجب الوفاء به بسبب نذر مثلاً.

الثاني : قسم تطوعى أى اختيارى مثل المنح.

وأدخل فى القسم الأول ما يقال له: «خطت- خطات- خطأة».

أى الخطيئة ، ويراد بها تقديم فدية عن عمل مخالف قام به إنسان مثل تقديم ذبيحة بسبب دخول إنسان نجس فى المعبد[2].

وتلعب النذور دوراً خطيراً فى الحياة الدينية عند الجاهليين ؛ حتى صارت عندهم بمثابة المظهر الأول والوحيد، فالعامة لا تكاد تفهم من الدين إلا تقديم النذور للآلهة لتجيب لها طلباتها وتنعم عليها بنعمائها .

والنذور هى وعد على شرط يتوسل الناذر إلى آلهته بأنها إن أجابت طلباً بعينه وحققت مطلباً نواه فعليه كذا نذر بعينه ويذكره.

فهنا عقد ووعد بين طرفين فى مقابل تنفيذ شرط أو شروط أحد طرفيه السائل صاحب النذر؛ أما الطرف الثانى فهو الإله أو الآلهة.

وأما الشرط: فهو تنفيذ المطالب التى يريدها الناذر. وأما النذر: فهو أشياء مختلفة؛ وقد تكون ذبيحة وقد تكون جملة ذبائح، وقد تكون نقوداً، وقد تكون فاكهة وقد تكون أرضاً، وقد تكون تمثالاً، وقد تكون حبساً لإنسان يهب نفسه أو

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٥٠.

(٢) تاج العروس جـ١ ص ٤٧ .

مملوكه أو ابنه لإلهه، وقد يوهب ما في بطن المرأة، أو ما في بطن الحيوان، وهكذا نجد: مادة النذر كثيرة مختلفة متباينة بتباين النذر والأشخاص[١].

ومن هذه النذور: «الربيط» فقد كان الجاهليون ينذرون أنهم إذا عاش لهم مولود جعلوه خادماً للبيت أي لبيت الصنم ومن هنا لقب «الغوث بن مر» بالربيط؛ لأن أمه كانت لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش هذا لتربطن برأسه صوفة ولتجعله ربيط الكعبة، فعاش ففعلت وجعلته خادماً للبيت، حتى بلغ الحلم فنزعته فلقب الربيط[٢].

وقد أشار المفسرون، وأصحاب الحديث والأخبار: إلى نذور كانت معروفة في الجاهلية فمنعها الإسلام، وفي بعضها نوع من التحايل والتلاعب؛ حيث كانوا يتصرفون بحسب أهوائهم، وشهواتهم ومنافعهم وقت استحقاق النذر، ومن ذلك: ما أشير إليه في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ إلخ الآية سورة الأنعام آية ١٣٦.

وقد ذكر المفسرون : أن من الجاهليين من كان يزرع «لله» زرعاً وللأصنام زرعاً، فكان إذا زكا الزرع الذي زرعوه «لله» ولم يزك الزرع الذي زرعوه للأصنام، جعلوا بعضه للأصنام وصرفوه عليها، ويقولون: إن «الله» غني والأصنام أحوج، وإن زكا الزرع الذي زرعوه للأصنام ولم يزك الذي زرعوه «لله» لم يجعلوا منه شيئاً «لله»؛ وقالوا هو غني، وكانوا يقسمون الغنم فيجعلون بعضه «لله» وبعضه للأصنام؛ فما كان «لله» أطعموه الضيفان، وما كان للصنم أنفقوه على الصنم؛ كانوا إذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل «لله» تعالى ردوه، وإذا اختلط ما جعل «لله» بما جعل للأصنام تركوه وقالوا: الله أغنى، وإذا هلك ما جعل للأصنام بدلوه مما جعل «لله»، وإذا هلك ما جعل «لله» لم يبدلوه بما جعل للأصنام.

وقد كان الجاهليون: يعظمون البيت بالدم، ويتقربون إلى أصنامهم بالذبائح. يرون أن تعظيم البيت أو الصنم لا يكون إلا بالذبح وإن الذبائح من تقوى القلوب،

---

(١) المفصل جـ٦ ص ١٨٩ ، ص ١٩٠.

(٢) المفصل جـ٦ ص ١٩١ .

والذبح هو الشعار الدال على الإخلاص في الدين عندهم، وعلامة التعظيم؛ وقال المسلمون: يا رسول الله كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق أن نعظمه. وكلمة قربان وجمعها قرابين، هي من أصل - ق رب- وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى؛ لأنها تقرب إلى الآلهة، والقربان هو كل ما يتقرب به إلى «الله» . فليس القربان خاصاً بالذبائح، وإن صار ذلك مدلوله في الغالب[1] .

ومن القرابين ما يقدم في أوقات معينة موقتة، ومنها ما ليس له وقت محدد ثابت، بل يقدم في كل وقت، ومن أمثلة النوع الأول: ما يقدم في الأعياد أو في المواسم أو في الأشهر أو في أوقات معينة من اليوم وفي ساعات العبادات.

ومن أمثلة النوع الثاني: ما يقدم عند ميلاد مولود، أو إنشاء بناء أو القيام بحملة عسكرية أو لنصر وما شابه ذلك من أحوال[2] .

الترجيب:

وشهر رجب هو من الأشهر الحرم، التي لم يكن يحل فيها القتال. وقد سمي الذبح في هذا الشهر بـ «الترجيب» ؛ وقيل للذبائح التي تقدم فيه «العتائر» جمع عتيرة؛ وقد عدت العتائر من شعائر الجاهلية، وأطلق بعض علماء اللغة : كلمة العتائر على ذبح الحيوانات الأليفة، وأطلق لفظة «النافرة» على ذبح الحيوانات الوحشية وفي الحديث : هل تدرون ما العتيرة؟

وهي التي يسمونها الرجبية؛ كانوا يذبحون في شهر رجب ذبيحة وينسبونها إليه، يقال: هذه أيام ترجيب، وتعتار.

وكانت العرب : ترجب، وكان ذلك لهم نسكاً.

وكان بعض السادة : ينحرون إذا أهل الشهر الأصم: شهر رجب. روى: أن حاتما الطائي كان ينحر إذا أهل الشهر - ينحر عشراً من الإبل، ويطعم الناس لحومها، وذلك لحرمته ومنزلته عنده، ولتعظيم مضر، فهو من شهور مضر الخاصة.

وأصل النسك: الدم، وبهذا المعنى ورد: من فعل كذا وكذا فعليه نسك: أي دم يهريقه.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ١٩٦ .

(٢) السابق جـ٦ ص ١٩٧ .

والنسيكة: الذبيحة، ومنسك: الموضع الذى تذبح فيه النسيكة وهذا هو المعنى القديم الأصلى للكلمة.

وقد صار من معانيها فى العربية الشمالية: العبادة والطاعة وكل ما يتقرب به إلى الله تعالى، لما كان للذبح من شأن فى الديانات القديمة بحيث كان يعد عبادة أساسية عندها؛ ولذلك قيل: لمن انصرف إلى التعبد الناسك. وقد فسر علماء التفسير لفظة نسك الواردة فى قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بذبح ذبيحة شاة أو ما فوق ذلك[1].

وقد أبطل الإسلام «الرجبية» وهى العتيرة كما أبطل «الفرع» وهو: ذبح أول نتاج الإبل والغنم لأصنامهم؛ فكانوا يأكلونه ويلقون جلده على الشجر.

ويذكر: أنهم كانوا إذا أرادوا ذبح «الفرع» زينوه، وألبسوه ليكون ذلك أوكد فى نفوس الآلهة، وتعريفاً للناس؛ وكانوا يفعلون ذلك تبركاً؛ وفى الحديث: «لا فرع ولا عتيرة» والعتائر: الذبائح التى كانوا يذبحونها عند أصنامهم وأنصابهم فى رجب وفى غير رجب، والتى كانوا يلطخون بدمائها الصنم الذى كانوا يعترون له.

وأما الرجبية: فهى العتائر التى تعتر فى رجب خاصة، وقد كانت كثيرة ولذلك: نسبت إلى هذا الشهر، ونظراً إلى كون «الرجبية» عتيرة ذهب البعض: إلى أن «العتيرة» الرجبية، فظن أنهم قصدوا بذلك أن «العتيرة» هى «الرجبية»، مع أن «الرجبية» من العتائر، وليست مساوية لها[2]

ولم تكن للجاهليين أحكام فى الحلال والحرام بالنسبة إلى المأكول على ما يظهر، بل كان مرجع الحرمة والإباحة عندهم إلى عرف القبائل.

وذكر : أن أناساً من المشركين دخلوا على رسول الله – ﷺ– فقالوا: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال: الله قتلها؛ قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتله الله حرام؟.

وذكر أن فارس أوحت إلى أوليائها من مشركى قريش: أن خاصموا محمداً، وقولوا له: إن ماذبحت فهو حلال، وما ذبح الله بشمشار من ذهب فهو حرام؟ فوقع

(١) ـ المفصل جـ٦. ص٢٠٠، ص٢٠١، تفسير الطبرى جـ٢. ص١٣٤ وما بعدها.

(٢) ـ بلوغ الأرب جـ٣. ص٤٠ وما بعدها.

(٣) ـ اللسان مادة عتر، المخصص ص٩٨ وما بعدها.

في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شئ. فقد كانت قريش تأكل كل شئ من ميتة ومختنقة ومن نطيحة، وما أكل السبع، وما أهل به للصنم.

فنزل تحريم ذلك في الإسلام[1].

المقدس وغير المقدس:

قد تعرض اليعقوبي لموضوع أديان العرب، وشعائرها فقال: كانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل، والانتقال إلى البلدان والانتجاعات؛ فكانت قريش وعامة ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم، يحجون البيت ويقيمون المناسك، ويقرون الضيف، ويعظمون الأشهر الحرم، وينكرون الفواحش، والتقاطع، والتظالم، ويعاقبون على الجرائم. فأدخل في الدين: أموراً نعدها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك وجعلها من سنة إبراهيم : أي دين العرب القديم قبل إفساده بالتعبد للأصنام.

وذكر «السكري» : أن العرب كانت دون من سواها من الأمم تصنع عشرة أشياء منها في الرأس خمسة وهي: «المضمضة، والاستنشاق، والسواك، والفرق، وقص الشارب».

وفي الجسد خمسة وهي: الختان ، وحلق العانة، ونتف الإبطين وتقليم الأظافر، والاستنجاء».

خصت بهذا العرب دون الأمم[2].

الحيوانات المقدسة

ومن النذور والقرابين ما يكون حيوانات حية.

وقد أشير في القرآن الكريم: إلى البحيرة، والسائبة، والوصيلة والحام، في قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ... ﴾ إلخ [3].

فأما البحيرة:

فالناقة ، أو الشاة تترك فلا ينتفع من لبنها، ولا تحمل، ولا تركب وترعى، وترد الماء فلا ترد؛ فإذا ما تت حرموا لحمها على النساء، وأباحوه على الرجال، ذلك بعد أن تنتج خمسة أبطن أو عشرة أو ما بين ذلك .

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٢٣، ص ٢٢٤، تفسير الطبري جـ٨ ص ١٢ وما بعدها.

(٢) المفصل،جـ٦ ص ٣٤٥ ، ص ٣٤٦، المحبر ص ٣٢٩ .

(٣) سورة المائدة آية ١٠٣ ، وانظر المفصل جـ٦ ص ٢٠٣ .

وقيل أيضاً: الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن نظروا في البطن الخامس، فإذا كان ذكراً نحروه فأكله الرجال والنساء جميعاً وإن كانت أنثى شقوا أذنها فتلك «البحيرة».

وقيل «البحيرة»: هي التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحتلبها أحد من الناس.

وقال بعض العلماء: «البحيرة» هي ابنة السائبة[1].

وورد في الأخبار: أن أول من بحر البحائر، رجل من بني مدلج، كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم ألبانهما، وظهورهما، وقال: هاتان «لله»؛ ثم احتاج إليهما فشرب ألبانهما وركب ظهورهما.

كما نسب التبحير: إلى «عمرو بن لحي»؛ إذ قيل إنه كان أول من بحر البحيرة[2].

السائبة:

أما السائبة فهي: الناقة، أو البعير، أو الدابة تترك لنذر، أو بعد بلوغ نتاجها حداً معلوماً. فلا تركب، ولا يحمل عليها، ولا تمنع من ماء وكلأ، وتترك سائبة لا يحل لأحد كائنا من كان مخالفة ذلك.

وكان الرجل في الجاهلية: إذا قدم من سفر بعيد، أو برئ من علة قال: ناقتي سائبة؛ أي: تسيب فلا ينتفع بظهرها، ولا تركب. وأغير على رجل من العرب فلم يجد دابة يركبها؛ فركب سائبة فقيل: أتركب حراماً؟ فقال: يركب الحرام من لاحلال له. فذهبت مثلاً، ويذكر أهل الأخبار : إن أول من سيب السوائب؛ عمرو ابن عامر الخزاعي؛ أي عمرو بن لحي أخو بني كعب، وهو أول من غير دين إبراهيم[3].

الوصيلة:

أما الوصيلة: فالناقة التي وصلت بين عشرة أبطن، أو الشاة التي وصلت سبعة أبطن.

وفي رواية: إن الشاة إذا ولدت ستة أبطن . نظروا: فإن كان السابع ذكراً ذبح، وأكل منه الرجال، والنساء.

---

(١) تاج العروس مادة بحر ٣ / ٢٨ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٠٥، الطبري ص ٥٩ .

(٣) المفصل جـ٦ ص ٢٠٦ الكشاف جـ ١ ص ٣٦٨ .

وإن كان إنثى تركت فى الغنم.

وإن كان: ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، ولم يذبح، وكان لحمه حراماً على النساء.

وفى رواية: إن لبن الوصيلة؛ حلال على الرجال دون النساء. قالوا: الوصيلة، الشاة إذا أتمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن، ليس بينهن ذكر. فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الإناث، إلا أن يموت شئ منها فيشترك فى أكله ذكورهم وإناثهم[1].

الحام:

وأما «الحام» : فالبعير إذا نتج ،عشرة أبطن من صلبه.

قالوا: قد حمى ظهره؛ فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من مرعى.

وقالوا: «الحام» من الإبل؛ كان الفحل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه.

وقالوا: «بل الحام» إن الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهم أنثى حمى ظهره، ولم يركب، ولم يجز وبره، ويخلى فى إبله يضرب فيها، لا ينتفع به بغير ذلك.

وذكروا: أن أول من حمى الحامى: هو عمرو بن لحى، وذلك فى سنن أخرى سنها لأهل الجاهلية[2].

السدنة:

«السدنة» قومة الأصنام، متولو أمرها.

و«السدانة». تنتقل بالإرث من الآباء إلى أكابر الأبناء، وتنحصر فى الأسرة فتكون من حقها، ومن نصيبها، لا يمكن انتزاعها منها إلا بالقوة .

ومن واجب العشيرة التى تنتمى هذه الأسرة إليها الدفاع عنها إن حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها.

(١) المفصل جـ٦ ص ٢٠٦، الكشاف جـ١٢ ص ٣٦٨ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٠٦ ، تاج العروس جـ٨ ص ١٥٥، الكشاف جـ١ ص ٣٦٨ .

لقد كانت سدانة الكعبة: في بني عبد الدار، وكانت حجابة «ود» في دومة الجندل إلى بني عامر بن الأحوص من، كلب وكانت سدنة «العزى» من بني صرمة بن مرة.

وكانت سدنة «جهار» من آل عوف من بني نضر.

وكان سدنة «سواع» بنو صاهلة من هذيل.

وكان سدنة بيت الربة – أى الشمس من بنى أوس بن مخاش .

وكان سدنة «مناة» الغطاريف، وسدنة «ذو الخلصة» بنو هلال ابن عامر، وسدنة «المحرق» آل الأسود.

ولا بد من إدخال: النسأة في رجال الدين؛ فقد كان الناسئ هو الذى ينسئ النسئ؛ يعين موسم الحج ويثبته للناس.

فهو إذن فقيه القوم، وعالمهم ومفتيهم فى أمر الحج.

وقد أشار السكرى: إلى أئمة العرب. فذكر أنهم الذين تولوا أمر المواسم، وأمر القضاء بعكاظ، والذين كانوا سدنتهم على دينهم وأمناءهم على قبيلتهم؛ وكانوا من قريش، والذين تولوا الإفتاء فى دينهم؛ وهم من بنى مالك بن كنانة.

ولما تحدث عن النسأة قال: نسأة الشهور من كنانة، وهم القلامسة، وأحدهم قلمسّ وكانوا فقهاء العرب، والمفتين لهم فى دينهم[١].

ومن الصعب تصور وجود طبقة خاصة كبيرة لرجال الدين على نحو ما كان عند المصريين مثلاً أو الأشوريين أو البابليين، أو اليونان أو الرومان، أو فى الكنيسة؛ بسبب النظام القبلى الذى كان غالباً على جزيرة العرب، وصغر المجتمعات الحضرية؟ فالأصنام هى أصنام محلية، أصنام قبيلة، لذلك كان عبدتها: هم عبدة القبيلة أو القبائل المتعبدة لها[٢].

شعائرهم الدينية:

ذكر اليعقوبى: أن العرب كانت إذا أرادت حج البيت الحرام وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوا عنده ثم تلبوا.

(١) المفصل جـ٦ ص ٢١٣، ص ٢١٤، ص ٢١٥ ، ص ٢١٦ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٢٢٠ .

وقد أشير إلى سجود الناس للشمس، والقمر في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ .... ﴾[١] إلخ الآية .

كما أشير إلى سجود أهل سبأ إلى الشمس في قوله تعالى:

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ... ﴾[٢] إلخ الآية .

الصوم :

قد ذكر الصوم في السور المدنية، أما في السور المكية فقد ذكر مرة واحدة في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿ فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا .... ﴾[٣] الآية .

وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام.

والصوم المعروف عند اليهود، والنصارى: معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب. فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود؛ بسبب وجودهم بينهم .

وكان عرب العراق، وبلاد الشام على علم بصوم النصارى؛ بسبب وجود قبائل عربية متنصرة بينهم.

وكان أهل مكة، ولا سيما الأحناف منهم، والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب والرهبان المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة للتفكير في ملكوت السماوات والأرض.

ويظهر : من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم، وسلك مسلكهم. فكان يصوم صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام، والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة.

---

(١) سورة فصلت آية ٣٧ وما بعدها.

(٢) سورة النمل آية ٢٤ .

(٣) سورة مريم آية ٢٦ .

وذكر بعضهم : كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية اقتداء بشرع سابق، وكان النبي - ﷺ - يصومه في الجاهلية فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية؛ فلما نزل رمضان: كان من شاء صام يوم عاشوراء، ومن شاء لا يصومه. وعلّلو سبب صيام قريش هذا اليوم: أنه كان أصابهم قحط؛ ثم رفع عنهم فصاموه شكراً[١].

ورواية: أن قريشاً كانت تصوم في يوم عاشوراء لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان.

ففي هذه الرواية: أن النبي - ﷺ - حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء؛ فسألهم فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق «الله» فيه آل فرعون، ونجّى موسى ومن معه منهم؛ فقال: نحن أحق بموسى منهم فصامه، وأمر الناس بصومه؛ فلما فرض صوم شهر رمضان لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء. ولم ينههم عنه[٢].

التحنث:

كان رسول الله - ﷺ - يجاور في حراء من كل سنة شهرا وكان مما تحنث به قريش في الجاهلية.

والتحنث: التبرر. فكان رسول الله يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله جوارا من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً، ثم يرجع إلى بيته.

وذكر: أن ذلك الشهر: هو شهر رمضان.

وكانوا إذا تقربوا إلى صنم، أو دعوا ربهم، أو أدوا مناسك حجهم فلا يسألون ربهم إلا متاع الدنيا؛ فمن الناس من يقول، ربنا آتنا في الدنيا، هب لنا غنما، هب لنا إبلاً، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ إلخ الآية[٣].

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٣٣٩ .

(٢) السابق جـ٦ ص ٣٤٠، الطبري جـ٢ ص ٢٦٥ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٠٠ .

بيوت العبادة:

المعبد:

هو المحور الأساسي الذى تتركز حوله الحياة فى المدينة اعتقاداً فى أن المعبد هو بيت الإله المعبود، وهو مالك الأرض التى تدر عليهم بالخير.

ولبيوت الأصنام سدنة يحفظون الأصنام بها ويرعونها، وينقلونها معهم حيث ترحل القبيلة؛ فإذا نزلت نزلوا بها ليقيموا لها الواجبات الدينية المفروضة فى الخيمة المقدسة .وبيوت العبادة عند الجاهليين ثلاثة أنواع:

١ – بيوت عبادة خاصة بالمشركين عبدة الأصنام، وهم الكثرة الغالبة.

٢– « « « باليهود.

٣– « « « بالنصارى.

أما بيوت عبادة المجوس: فقد عرفت فى العربية الشرقية، وفى العربية الجنوبية؛ ولكن عبادها هم من المجوس أى العجم.

فالمجوسية لم تنتشر بين العرب، ولم تدخل بينهم إلا بين عدد قليل من الناس.

والبيت: مأوى الإنسان، ومسكنه فى الأصل؛ ثم تجوز الناس فأطلقوا اللفظة على المعبد باعتبار أنه بيت الآلهة أو الإله لاعتقادهم: أن الآلهة تحل به .

وأما الكعبة: فالبيت المربع، وكل بيت مربع كعبة عند العرب، وقد خصصت فى الإسلام بالبيت الحرام بمكة.

والمسجد: كل موضع يتعبد فيه؛ وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى. وذهب «كلاسر» وغيره: إلى أن مكربة Mocoraba المدينة المذكورة فى جغرافيا بطليموس هى مكة، لأنها مقربة إلى الأصنام فهى بمعنى البيت .،. والكعبة فى لهجتنا.

ولفظة «البد» وهى تؤدى معنى صنم كذلك.

وذكروا أنها من الألفاظ المعربة عن الفارسية، عربت من «بت»، وأنها تعنى البيت إذا كان فيه أصنام وتصاوير(١).

والهيكل: من الألفاظ الدالة على موضع العبادة، استعملت لبيوت الأصنام مجازاً، ولمعابد النصارى. والظاهر أن استعمالها كان عند العرب الشماليين فى الغالب(٢).

ومن المعابد الشهيرة: «البيت الحرام» أى الكعبة مكة، ومعبد ذو الشرى بمدينة بطرا، وقد خصص هذا البيت بعبادة الإله «ذى الشرى».

وذات الكعبات: بيت كان لبكر وتغلب ابنى وائل وإياد.

وكان بنجران بيت عبادة عرف: «بكعبة نجران» وهو بناء بُنى على هيئة الكعبة.

وقد ذكر ابن الكلبى: أن رجلاً من جهينة يقال له: عبد الدار بن حديب أراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء؛ ليضاهى به الكعبة، حتى يستميل به العرب. فأعظم قومه ذلك وأبوا عليه. ونجد فى كتاب الأصنام لابن الكلبى: وفى كتب أهل الأخبار: أسماء مواضع ذكر أنها كانت بيوت عبادة حج إليها العرب حجهم لمكة.

وذكر : أن قريشاً بنت للعزى بيتاً بوادى حراض بإزاء الغمير، وحمت له شعبا من وادى حراض يقال له سقام يضاهون به الكعبة، وقد حجت إليه، وكانت تنحر عنده، ويتقربون إلى العزى بالذبائح(٣).

المذابح :

وتلحق بالمعابد مذابح تذبح عليها القرابين، التى يتقرب بها المؤمنون إلى آلهتهم، ويقال للواحد منها: مذبح، ونصب.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٣٩٩، ص ٤٠٠، ص ٤٠١ ، المفردات ص ٦٤ ، اللسان جـ٣ ص ٢٠٤ .

(١) المفصل جـ٦ ص ٤٠٢ .

(٣) السابق جـ٦ ص ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧ .

وقد وردت كلمة النصب فى آية اللحوم المحرمات التى لا يجوز أكلها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ... ﴾[١] إلخ الآية .

سدنة الآلهة :

ولبيوت العبادة سدنة، وحجبة وخدم يقومون كلهم بخدمة البيت وما فيه من الأصنام؛ ويعبر فى عربيتنا عن الذى يتولى أمر الصنم بـ «السادن»، «سادن» الصنم. وتكون وراثية فى الأغلب تنتقل فى أفراد العائلة من الأب إلى ابنه الأكبر، أو إلى غيره من البارزين فى الأسرة .

وكانت السدانة واللواء بمكة لبنى عبد الدار فى الجاهلية فأقرها النبى لهم فى الإسلام، فكان إليهم أمر مفتاح البيت.

الكعبة :

يذكر أهل الأخبار: أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل من تجار الروم، رمى البحر بسفينته إلى الساحل إلى الشعيبة، وهو مرفأ السفن من ساحل الحجاز، وكان مرفأ مكة، ومرسى سفنها قبل جدة - فجاؤوا بالخشب إلى مكة، وكان بها نجار قبطى، استعين به فى تسقيف البيت بذلك الخشب.

وذكر : أن الذى سقف البيت «علج» ؛ كان فى السفينة يحسن النجارة اسمه «باقوم» فجيء به مع الخشب، وسقف الكعبة؛ وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة، أو مسطحاً؟ فأمروه أن يكون مسطحا فعمله على ما أمروه به.

ويذكرون: أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة؛ أتى «عبد الله بن هبل» ومعه مال فقال: دعونى أشرككم فى بنائها؛ فأذنوا له، فبنى الجانب الأيمن؛ فلبنى كلب يد بيضاء فى نصرتهم لقريش حين بنوا الكعبة وصاحب هذا الخبر هو : «ابن الكلبى»، ولا أستبعد أن يكون خبره هذا من وحى العاطفة نحو قومه الكلبيين[٢] .

---

(١) سورة المائدة اية ٣، المفصل جـ٦ ص ٤٢٠ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٤٣٤ ، ص ٤٣٥ .

وقد زوقت الكعبة بعد حريق – زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلت في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر، وصور الملائكة؛ فكان فيها صورة «إبراهيم خليل الرحمن» شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة «عيسى بن مريم» وأمه، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين؛ فلما كان يوم فتح مكة: دخل رسول الله البيت؛ فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم؛ ثم أمر بثوب فبل بالماء، وأمر بطمس تلك الصور فطمست؛ ووضع كفيه على صورة عيسى «ابن مريم» وأمه عليهما السلام، وقال: امح جميع الصور إلا ما تحت يدي؛ فرفع يديه عن «عيسى بن مريم» وأمه، ونظر إلى صورة إبراهيم فقال: قاتلهم الله، جعلوه يستقسم بالأزلام، وما لإبراهيم والأزلام[1].

لقد ذهب يولهوزن»: إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية لم تكن بسبب الأصنام التي فيه، بل كانت بسبب هذا الحجر.

لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته، وهو الذي جلب القدسية للبيت فصار البيت نفسه مقدساً في حد ذاته بحجره هذا الذي هو فيه، ولعله شهاب نيزك، أو جزء من معبود مقدس قديم.

وقد ذهب بعض المستشرقين: إلى أن البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود، الذي كان من أهم معبودات قريش؛ لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين؛ غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد[2].

الكسوة :

وذكر أن أول من كسا البيت الحرير : «نتيلة بنت جناب بن كليب» وهي من بني عامر المعروف بالضحيان، وكان من ملوك ربيعة، وكان العباس بن عبد المطلب ابنها قد ضاع وهو صغير، فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير فكسته، فهي أول من كساه ذلك .

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٤٣٥ ، ص ٤٣٦ .

(٢) السابق جـ٦ ص ٤٣٧ .

وقيل، أول من كسا البيت الديباج : «خالد بن جعفر بن كلاب»، أخذ لطيمة من البر، وأخذ فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة[1].

الحج والعمرة:

وكلمة «حج» من الكلمات السامية الأصلية العتيقة.

وقد وردت : فى كتابات مختلف الشعوب المنسوبة إلى بنى سام. كما وردت فى مواضع من أسفار التوراة، وهى تعنى قصد مكان مقدس وزيارته.

ويكون الحج بأدعية، وبمخاطبة إلى الآلهة، وبتوسلات لتتقبل حج ذلك الشخص، الذى قصدها تقرباً إليها.

وقد ميز الشهر الذى يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته شهر «ذى الحجة» «شهر الحج» وذلك: لوقوع الحج فيه.

وقد ورد : فى القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾[2]. قال الطبرى: اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ فقال بعضهم: يعنى بالأشهر المعلومات شوالاً، وذا القعدة ، وعشرا من ذى الحجة. جعلهن الله تعالى للحج، وسائر الشهور للعمرة، فلا يصلح أن يحرم أحد بالحج إلا فى أشهر الحج، والعمرة يحرم بها فى كل شهر.

والحج إلى «مكة»، وإلى البيوت المقدسة الأخرى، مثل بيت «اللات»فى الطائف، وبيت «العزى» على مقربة من عرفات، وبقية البيوت الجاهلية المعظمة. إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام، وهم بذلك يدخلون على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم، وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات كلٌ يذبح على قدر طاقته ومكانته.

(١) السابق جـ٦ ص ٤٤٣ ، الإصابة جـ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) سورة البقرة آية ١٩٧ .

والطواف بالبيوت وبالأصنام ركن من أركان الحج، ومنسك من مناسكه، وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام؛ فإذا دخل أحدهم البيت الحرام، وإذا سافر أو عاد من سفر فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت؛ وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم؛ إذ كانوا يطوفون حولها كالذى يفعله أهل يثرب من: طوافهم «بمناة»(١).

إن الطائفين بالبيت كانوا صنفين: صنف يطوف عرياناً، وصنف يطوف فى ثيابه؛ ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً «بالحلة» أما الذين يطوفون بثيابهم فيعرفون «بالحمس».

وأضاف بعض أهل الأخبار : صنفاً ثالثاً قالوا له: «الطلس» وقبائل الحلة من العرب: تميم بن مر كلها غير يربوع، ومازن وضبة، وحميس، وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً، وعدوان وغيرهم وغيرهم(٢).

وقد ذكر هذه الأسماء: «محمد بن حبيب»؛ وذكرها : «اليعقوبى» وهم يذكرون أن «الحلة» هم ما عدا الحمس».

وإنهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمسي، وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها .

ويذكرون أنهم كانوا يقولون : لا نطوف فى الثياب التى قارفنا فيها الذنوب، ولا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها؛ فيلقون الثياب عنهم، ويسمون ذلك الثوب اللقى.

كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عراة، إلا أن تعطيهم الحمس ثياباً فيعطى الرجال الرجال، والنساء النساء؛ فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً، ولا يسار يستأجر به كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عرياناً؛ وإما أن يطوف فى ثيابه؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه؛ فلم يمسه أحد، وكان ذلك الثوب يسمىّ اللقى.

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٣٤٧ ، ص ٣٤٨ ، ص٣٥١، ص ٣٥٤ .
(٢) السابق جـ٦ ص ٣٥٤ .

وجاء في رواية: أن الحمس كانوا يقولون: نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا[١].

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لها صلة بالتحمس، وقد تفسر لنا معنى: «التحمس»، وسبب شموله أناساً هم من غير قريش.

ذكر: أن الإسلام لما ظهر لم تكن هنالك أية امرأة قرشية كانت مسبية عند غير قريش؛ ولم تكن هنالك أية امرأة مسبية في أيدي القبائل وأمها من قريش.

ويذكر أيضاً: أن قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل حتى تشترط عليهم أن من تلد منهن فيكون من يلدن من الحمس، أماهم فكانوا إذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى؛ فإنهم لم يشترطوا على أنفسهم أي شرط.

وكان من هذه القبائل: عامر بن صعصعة، وثقيف، وخزاعة، والحارث بن كعب؛ وكانوا ديّانين، وكانوا على دين قريش في أمورها؛ وكانت قريش كريمة، ولم ترض بالغارات، والغزو ولا بالظلم، ولم تقبل بالوأد، ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء. وكان من فضائلهم: أن من الله عليهم بالإيلاف؛ فأغناهم وجعلهم «لقاحاً» فلم يخضعوا الملك، ولم يستعبدهم سلطان أجنبي، ولم يدفعوا أي شئ عنهم لملك من الملوك؛ بل كانت الملوك تأتي إلى مكة، وتعظم البيت، وتحرم سكانه؛ وهم قريش «الحمس»[٢].

الطلس:

أما «الطلس»: فقد وصفهم محمد بن حبيب بقوله: إنهم بين الحلة والحمس، يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس.

وكانوا لا يتعرون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثياباً، ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يئدون بناتهم، وكانوا يقفون مع الحلة، ويصنعون ما يصنعون؛ وهم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت، وعجيب، وإياد بن نزار[٣].

(١) المفصل جـ٦ ص ٣٥٧، ص ٣٥٩، تفسير الطبري جـ٢ . ص ١٧٠، القرطبي جـ١ ص ١١٤ .
(٢)المفصل جـ٦ ص ٣٦٥.
(٣) السابق جـ٦ ص ٣٧٣ .

وقد ذكر علماء التفسير: أن قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾(١) نزلت في طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا فكانوا يبقون عالة على الناس؛ فنهوا عن ذلك، وأمروا بالزاد وكان النبي - ﷺ - في مسيره راحلة عليها زاد وفد عليه ثلثمائة رجل من مزينة؛ فلما أرادوا أن ينصرفوا قال: يا عمر زوِّد القوم.

كما روى البخاري: عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس(٢).

التلبية:

قد تعرض اليعقوبي لموضوع التلبية فقال: فكانت العرب إذا أرادت الحج إلى بيت الله الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها، وصلوا عنده، ثم لبوا حتى يقدموا مكة؛ فكانت تلبياتهم مختلفة

وكانت تلبية قريش: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، وكانت تلبية كنانة: لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف.

وكانت تلبية بني أسد: لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد أهل النوائب والوفاء والجلد إليك.

وكانت تلبية بني تميم: لبيك اللهم لبيك، لبيك عن تميم، قد تراها قد أخلقت أثوابها، وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءها.

والتلبية: إجابة المنادى، أي: إجابة الملبي ربه، وقولهم: «لبيك اللهم لبيك». معناه إجابتي لك يا رب، وإخلاصي لك.

وقد كان الجاهليون: يلبون لأصنامهم تلبيات مختلفة(٣).

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٧ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٣٧٤ ، القرطبي جـ٢ ص ٤١١ .

(٣) المفصل جـ٦ ص ٣٧٦ ، ص ٣٧٧ ، اليعقوبي جـ ١ ص ٢٢٥ .

والتلبية هي من الشعائر الدينية التى أبقاها الإسلام؛ غير أنه غيّر صيغتها القديمة، بما يتفق مع عقيدة التوحيد؛ فصارت على هذا النحو: « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»[١].

الإفاضة :

ومن عرفة تكون الإفاضة إلى المزدلفة، وإن «قصى بن كلاب» كان قد أوقد ناراً على المزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة؛ وإن العرب سارت على سنته هذه، وبقيت توقدها حتى فى الإسلام.

ويفيض الحجاج فى الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذى الحجة من المزدلفة إلى منى لرمى الجمرات، ولنحر الأضحية[٢].

وقد ذكر العلماء: أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون: أشرق ثبير، وأن النبى - ﷺ - خالفهم حين أسفر قبل طلوع الشمس، ورمى الجمرات بمنى من مناسك الحج وشعائره.

وكلمة «رجم»: من الكلمات السامية القديمة، وقد وردت: فى حديث عبد الله بن مغفل - لا ترجموا قبرى- أى لا تجعلوا عليه الرجم وهى: الحجارة على طريقة أهل الجاهلية، ولا تجعلوه مسنماً مرتفعاً، وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التعظيم؛ فكان أحدهم إذا مّر بقبر وأراد تقدير صاحبه، وتعظيمه، وضع «رجمة، أو رجاماً عليه»[٣].

ويرجع أهل الأخبار: مبدأ رمى الجمرات إلى - عمرو بن لحى- يذكرون : أنه جاء بسبعة أصنام فنصبها بمنى عند مواضع الجمرات وعلى شفير الوادى، ومواضع أخرى، وقسم عليها حصى الجمار، إحدى وعشرون حصاة؛ يرمى كل منها بثلاث جمرات.

(١) المفصل جـ٦ ص ٣٧٩، صحيح البخارى كتاب الحج حديث ٣١ .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٣٨٤ .
(٣) المفصل جـ٦ ص ٣٨٥ .

ويظهر من الروايات الواردة عن : «ثبير» أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين؛ أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون إليه لزيارته ، وللتبرك به[1] .

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة، أو بنعلين يعلقان على رقبتي الهدى اشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدى، فلا يجوز الاعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه، والإشعار: الإعلام، وهو أن يشق جلد البدنة، أو يطعن في أسنمتها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه وقيل في سنامها الأيمن؛ حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدى، والشعيرة: البدنة المهداة[2] .

العمرة:

العمرة: هي بمثابة الحج الأصغر في الإسلام؛ وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر رجب[3] .

أما بالنسبة إلى الجاهليين: فيظهر من ذكره العمرة في القرآن الكريم أنهم يؤدونها، كما كانوا يؤدون الحج، ولوقوعها في شهر رجب، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه، لعلنا لا نخطئ إذا قلنا إنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمرة حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولها؛ أما في الإسلام فالعمرة دون الحج؛ وإذا كانت في شهر رجب في الجاهلية كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر، الذى يقع في شهر ذي الحجة.

حرص الجاهليون على : ألا يوافق موعدها مواسم الحج لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم فلا تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج[4] .

وقيل: إن من شعائر الجاهليين في الحج: أن الرجل منهم كان إذا أحرم تقلد قلادة من شعر فلا يتعرض له أحد، فإذا حج وقضى حجه تقلد قلادة من «إذخر»،

---

(١) السابق جـ٦ ص ٣٨٧ .
(٢) السابق جـ٦ ص ٣٨٨ .
(٣) السابق جـ٦ ص ٣٩١ .
(٤) السابق جـ٦ ص ٣٩١ ، المشرق جـ٣٩ ص ٢٥٠ .

والإذخر: نبات ذكى الرائحة-وأن الرجل منهم يقلد بعيره، أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم فلا يخاف من أحد، ولا يتعرض له أحد بسوء.

وتذكرنا هذه العادة: بما يلبسه بعض الحجاج عند إتمامهم حجهم، وعودتهم إلى بلادهم من لباس: كوفية خاصة بأهل مكة ومن عقال حجازى؛ وذلك: بالنسبة للرجال، وخمار أبيض بالنسبة للنساء، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج

رمزياتهم

الاختلاف فى النفس عند العرب فى الجاهلية:

يقول المسعودى: كانت للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفوس، وآراء يتنازعون فى كيفياتها:

١- فمنهم من زعم أن النفس هى الدم لا غير، وأن الروح والهواء الذى فى باطن جسم المرء منه نفسه.

ولذلك سموا المرأة منه نفساء لما يخرج منها الدم ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة إذا سقط فى الماء: هل ينجسه أم لا ؟

وقال تأبط شرا لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله. كيف كانت قصته؟ فقال: ألقمته عضبا: فسال نفسه سكبا. وقال إن الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه أبدا فى حالة الحياة. وطبيعة الحياة: النماء مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حى فيه الحرارة ورطوبة فإذا ما بقى اليبيس والبرد نفيت الحرارة.

وقال ابن براق بن كلعة:

وكم لاقيت ذا نجب شديد ... تسيل به النفوس على الصدور

إذا الحرب العوان به استهامت ... وجـال ، فذاك يوم قمطرير

٢- وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط فى جسم الإنسان فإذا مات أو قتل لم يزل مطبقا به متصورا إليه صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً.

وفى ذلك يقول بعض الشعراء وذكر أصحاب الفيل:

سلط الطير والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام

البعث:

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث، كما يتبين ذلك من القرآن الكريم.

لقد كانوا يرون أن: الموت نهاية؛ وأنهم غير مبعوثين، وأن البعث بعد الموت شئ غير معقول؛ لذا تعجبوا من قول النبى بوجود البعث والحساب؛ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا .. ﴾[1] إلخ الآية ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾[2].

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ .. ﴾[3] إلخ الآية.

ونجد: رأى الناكرين للبعث فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ... ﴾[4] إلخ الآية.

فهم يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ويحيا أبناؤنا بعدنا فجعلوا حياة أبنائهم بعدهم حياة لهم؛ لأنهم منهم، وبعضهم؛ فكأنهم بحياتهم أحياء.

والدهر: الزمان، وهو الذى يهلك ويفنى، فالحياة بهذا المعنى فعل مستمر، وتطور لا ينتهى؛ يهلك جيل ليأخذ محله الجيل الذى نبت منه، وكل يأخذ دوره فى الحياة فإذا انتهى دور إنسان قام بدوره نسله، وهكذا، وبهذا المعنى تفسر الحياة، ويفسر الموت.

الروح والنفس والقول بالدهر:

الرجعة:

واعتقد قوم من العرب فى الجاهلية بالرجعة، أى: الرجوع إلى الدنيا بعد الموت فيقولون: إن الميت يرجع إلى الدنيا كرة أخرى، ويكون فيها حيا كما كان.

(١) سورة الأنعام آية ٢٩.

(٢) سورة النحل آية ٣٨.

(٣) سورة التغابن آية ٧.

(٤) سورة الأنعام آية ٢٩.

ولما توفي: رسول الله - ﷺ - قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإن رسول الله والله ما مات؛ ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات. ثم جاء أبو بكر وعمر يكلم الناس فقال: على رسلك يا عمر؛ فأنصت فأبى إلا أن يتكلم؛ فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه، وتركوا عمر؛ فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس؛ إنه من كان يعبد محمداً فإن محمد قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت؛ ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ....﴾[1] إلخ. وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاى وعرفت أن رسول الله قد مات .

وقد اعتقد بعض الجاهليين «بالمسخ» وهو: تحول صورة إلى صورة أخرى أقبح، وتحول إنسان قرداً أو حيواناً آخر، أو إلى شئ جماد؛ من ذلك ما يراه بعض أهل الأخبار عن «اللات» من أنه كان رجلاً يلت السويق عند صخرة بالطائف؛ فلما مات قال لهم: عمرو بن لحى إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، ثم أمرهم بعبادته، وبنى بيتا عليها يسمى «اللات»[2].

تسخير عالم الأرواح:

لم يتوصل الباحثون حتى الآن: إلى رأى ثابت في أصل كلمة «الجن». فمنهم من رأى أنها اسم صنم من أصنام العرب القديمة، ومنهم من رأى أنها من أصل أعجمي؛ ومنهم من وجد لها صلة بالحبشية.

أما علماء اللغة فرأوا: أن معنى الكلمة الأصلي هو الاستتار، وأنها من الاجتنان، ولعدم إمكان رؤية ذلك العالم أطلقت عليه كلمة «الجن»؛ وتقابل لفظة «الجن» لفظة "Demons" الإنجليزية ويرى «نولدكه»: أن فكرة الجن فكرة

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤

(٢) تاج العروس مادة مسخ جـ٢ ص ٢٧٩ ، مادة - لت - جـ١ ص ٥٨٠ .

استوردها العرب من الخارج بدليل: قولهم إن الجنة من عمل الجن، ومن تلبس الجن بالإنسان،وهي في نظره عقيدة قديمة دخلت العرب من جيرانهم الشماليين، فقد كان الإيرانيون يطلقون على المجنون لفظة: «ديوانة» أي الذي به «ديو» من الأصل «ديوة» ومعناه الجان .

ومن هذه الفكرة: دخلت العهد الجديد من الكتاب المقدس .

ويأتي «نولدكه» : بدليل آخر على إثبات نظريته في أن فكرة «الجن» فكرة مستوردة، شيوع قصص بناء جن سليمان مدينة تدمر. بين الجاهليين، وهو قصص ورد من قصة بناء سليمان «لتامار» في العهد القديم، وتفسير «تامار بتدمر» عند المفسرين العبرانيين، وإذا سكن الجني مع الناس قالوا: «عامر» ، والجمع «عمار» ؛ وإن كان ممن يعرض للصبيان فهم «أرواح» ؛ فإن خبث أحدهم وتعرم فهو : «شيطان» فإن زاد على ذلك فهو : «مارد» ؛ فإن زاد على ذلك فهو «عفريت» ؛ فإن ظهر الجني ونظف وصار خيرا كله فهو «ملك» ، وهم في الجملة «جن وخوافي» وفي القرآن الكريم : إن قريشا جعلت بين الله تعالى وبين الجنة نسبا؟ قال تعالى:﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾[1] .

وإنها جعلت : «الجن» شركاء له قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ... ﴾[2] . أي: جعلوا «لله» تعالى الجن شركاء في عبادتهم إياه، وخرقوا له بنين وبنات، وتخرصوا لله كذباً، فافتعلوا له بنين وبنات جهلاً وكذباً. وورد: أن الله – تعالى– تزوج الجن، وأن الملائكة هم بناته من هذا الزواج؛ وقال كبار قريش : الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن ويفهم من القرآن الكريم أيضاً: أن من العرب من كان يعبد الجن. قال تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ... ﴾[3] إلخ الآية .

(١) سورة الصافات آية ١٥٨ .
(٢) سورة الأنعام آية ١٠٠ .
(٣) سورة سبأ آية ٤١ .

وذكر ابن الكلبي: أن بني مليح من خزاعة كانوا: ممن تعبد الجن من الجاهليين؛ ويزعمون أن الجن تتراءى لهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾[1] .

وذكر : أن قبائل من العرب عبدت الجن، أو صنفاً من الملائكة يقال لهم : الجن، ويقولون هم بنات الله؛ فأنزل الله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ .. ﴾[2] إلخ الآية .

وقد يقع الحب بين الجن والإنس، فقد ذكر: أن الجنية قد تتبع الرجل تحبه، ويقال لها تابعة، ومن ذلك قولهم: معه تابعة أي من الجن، والتابعة جنية تتبع الإنسان، كما يكون للمرأة تابع من الجن، يتبع المرأة يحبها، وقد يعشق الجن امرأة ويتصادق معها؛ هذا «منظور» الجني عشق امرأة اسمها «حبة»، وتصادق معها، فكانت «حبة» تتطبب بما يعلمها «منظور» .

وأهم مواطن الجن في نظر الجاهليين: هي المواضع الموحشة، والأماكن المقفرة، التي لا تطرق إلا نادراً، والمحلات التي لا تلائم الصحة والمقابر، والأماكن المظلمة المهجورة.

وسكنت الجن المواضع المظلمة والفجوات العميقة فيها، وباطن الأرض ولذلك قيل لها: ساكنو الأرض كما سكنت المقابر.

وقد ادعى أناس من الجاهليين: أنهم كانوا يرون الغيلان، والجن، ويسمعون عزيف الجان، أي صوت الجن، وقد بالغ الأعراب في ذلك، وأغربوا في قصص الجان لما كانوا يتوهمونه من ظهور الأشباح لهم في تجوالهم بالفيافي المقفرة الخالية، فتصوروه جناً وغولاً وسعالي، وبالغوا في ذلك أيضاً لما وجدوه في أهل الحضر؛ ولا سيما في الإسلام من ميل إلى سماع قصص الجان، والسعالي والغول[3] .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩٣ .

(٢) سورة الإسراء آية ٥٧ . وأيضاً المفصل جـ٦ ص ٧٠٩ ، ٧١٠.

(٣) المفصل جـ ٦ ص ٧١٨، ص ٧٢٣ .

ونسبوا إلى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية مثل: الأمراض والأوبئة، والصرع والاستهواء، والجنون خاصة.

فالجنون هو: تلبس الجن بالإنسان، ودخولهم جسمه؛ لذلك: ربطو بين الجن والجنون .

ويرى «نولدكه» : أن فكرة الجنون من عمل الجن عقيدة قديمة، وجدت عند غير العرب كذلك[1] .

الشيطان:

الشيطان – «ساطان ، سطن» فى العبرانية، ومعناه عدو ومشتك فى هذه اللغة.

وذكر الطبرى: «الشيطان» فى كلام العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب، وكل شئ؛ ثم قال: وإنما سمى المتمرد من كل شئ شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله، وبعده من الخير، وقد قيل: إنه أخذ من قول القائل شطنت دارى من دارك؛ يريد بذلك بعدت .

ومن الشياطين: شيطان اسمه «زوبعة» ، وقيل هو رئيس للجن،ومنه سمى الاعصار زوبعة، ويقال: «أم زوبعة، وأبو زوبعة» وهو الذى يثير الأعصاب حين يدور على نفسه، ثم يرتفع فى السماء ساطعاً كأنه عمود .

وأما ما ورد فى القصص عن الشياطين عند الجاهليين: فهو يختلف عما جاء عن الشيطان فى الكتب اليهودية والنصرانية؛ مما يدل على أن منبعه منبع آخر، وأن الشيطان عند الجاهليين هو غير الشيطان المعروف عند اليهود والنصارى، الذى دخل إلى العرب قبيل الإسلام وفى الإسلام .

وقد وصف الشيطان بالقبح؛ فإذا أريد تعنيف شخص وتقبيحه قيل له : يا وجه الشيطان. وما هو إلا شيطان. يريدون بذلك القبح، وذلك على سبيل تمثيل قبحه بقبح الشيطان.

---

(١) المفصل جـ ٦ ص ٧٢٣ .

وقيل الشيطان: حية ذو عرف قبيح الخلقة، وقالوا الشجرة تكون ببلاد اليمن لها مظهر كريه، رؤوس الشياطين؛ وبهذا المعنى فسرت رؤوس الشياطين فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ... ﴾[1] إلخ الآية، يعنى شجرة الزقوم فى قبحه وسماجته، رؤوس الشياطين فى قبحها، وذلك: أن استعمال الناس قد جرى بينهم فى مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة فى تقبيح الشئ قال: كأنه شيطان؛ فذلك أحد الأقوال؛ والثانى: أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطاناً[2].

وكانت الشعراء تزعم: أن الشياطين تلقى على أفواهها الشعر، وتلقنها إياه وتعينها عليه، وتدعى أن لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه؛ فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود.

وقد انتقلت هذه العقيدة فى إلهام الشعر للشعراء إلى المسلمين كذلك، وقد دعا جرير شيطانه الذى يلقى عليه الشعر: إبليس الأباليس.

ويكنى عن الشيطان بالشيخ النجدى، وقد أشير إليه مراراً فى كتب السير والأخبار؛ أشير إليه فى بنيان الكعبة؛ حين حكموا رسول الله - ﷺ- فى أمر الركن من يرفعه فحضر فى زى شيخ نجدى بين الحاضرين وصاح: يا معشر قريش أرضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوى أسنانكم. وحضر اجتماع دار الندوة، وأيد قرارهم فى قتله.

وذكر علماء الأخبار: أنه عرف بالشيخ النجدى؛ لأنه: تمثل نجدياً، وقيل: لأن نجدا يطلع منها قرن الشيطان، ورووا أحاديث تذكر ذلك؛ وتذكر أن الفتن تخرج من المشرق. والمشرق : «نجد» بالنسبة لأهل الحجاز.

وكان الكهان: يستعينون بالشياطين فى الإخبار عن المغيبات، يذكرون أن : الشياطين يسترقون السمع من السماء؛ فيخبرونهم عن أنباء الأرض؛ وكان للكاهن «صاف بن صياد»: شيطان يلقى إليه بما خفى من أخبار الأرض.

---

(١) سورة الصافات آية ٦٤.

(٢) المفصل جـ٦ ص ٧٣١ ، ص٧٣٢ ، تاج العروس جـ٥ ص ٣٦٧ .

وإبليس من هذه الأفكار التى نفذت إلى العرب عن طريق أهل الكتاب. والعلماء. على أن الكلمة معربة، وهى كذلك؛ فأصلها: ديابولس Diabolos ، وهى كلمة يونانية استعملت فى مقابل لفظة شيطان[١] .

الهاتف والرئى:

ويؤمن الأعراب بالهاتف، ويتعجبون ممن يرد ذلك، وهم يزعمون أنهم يسمعون الهاتف يخبرهم ببعض الخبر فيكون صحيحاً وكانوا يقولون : إذا ألف الجنى إنساناً وتعطف عليه، وخبره ببعض الأخبار وجد حسّه، ورأى خياله، فإذا كان عندهم كذلك قالوا: مع فلان رئى من الجن يخبره بما وقع، ويقع وعن الأسرار[٢] .

الملائكة :

والملائكة: هم روحانيون؛ أى من أرواح فى نظر أهل الجاهلية، ويدل ورود الملائكة فى مواضع عديدة من القرآن الكريم، ومن الآيات التى تشير إلى مجادلة المشركين، ومحادثتهم للرسول فى الملائكة. وإن فكرة الملائكة كانت معروفة شائعة بينهم؛ وأن بعض العرب كانوا يعبدونها كما يظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ... ﴾ إلخ الآية ٤٠ من سورة سبأ.

ويظهر : أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة ؛ لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية، ثم النصرانية وهم لا يعرفون الكتاب إلا من كان منهم على دين اليهودية، أو النصرانية، أو كان من الحنفاء، أو على اتصال بأهل الكتاب كأمية بن أبى الصلت، وأمثاله[٣] .

الهامة :

الهامة وهى اليوم وكانوا يعتقدون أن الرجل إذا قتل خرجت من رأسه هامة تصيح، أسقونى أسقونى حتى يأخذ بثأره، قال ذو الأصبع العدوانى:

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٧٣٣، ص ٧٣٤ ، ص ٧٣٥ .

(٢) السابق جـ٦ ص ٧٣٦ ، ص ٧٣٧ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٣٤ .

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني[١]

ويضيف المسعودي ص ٣٦٩

وهي أن تتوحش وتصدح وتوجد أبدا في الديار المعطلة والنواويس وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى.

ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت في محلته بفنائهم لتعلم ما يكون بعده فتخبره به .

وحتى قال الصلت بن أمية لبنيه: هامتي تخبرني بما تستشعرون .

لنتجنب الشنعاء والمكروه.

ولما جاء الإسلام قال: لا هام ولا صفر[٢].

وذكر الزبير بن بكار أن العرب كانت في الجاهلية تقول : إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة وهي دودة فتدور حول قبره فتقول:

أسقوني أسقوني فإن أدرك ثأره ذهبت وإلا بقيت .

قال: وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب .

وذكر ابن فارس وغيره من اللغويين نحو الأول إلا أنهم لم يعينوا كونها دودة وقال القزاز: الهامة طائر من طير الليل كأنه البومة. وقال ابن الأعرابي كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم:

يقول : نعت إلي نفسي أو أحدا من أهل داري .

وقال أبو عبيد: كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير ويسمون ذلك الطائر[٣] : الصدى.

---

(١) مروج الذهب جـ١ ص ١٣٤

(٢) ومعنى الحديث لاحياة لهامة من الميت ولا شؤم بالبومة .

(٣) فتح الباري (١٠ : ١٩٧)

ويعبر هذا عن فتن اليهود للسيطرة على عرب الجاهلية لأن معنى سبعة أيام مدة زمنية كافية ليؤلب اليهود مواقع الثأر بين العرب أى على العربى أن يثأر. وبذلك أشعلوا الحرب بين الأوس والخزرج باستغلال تلك المعتقدات .

(ب) الغول:

« العرب يزعمون أن الغول «السعلاة» يتغول لهم فى الفلوات ويظهر لخواصهم فى أنواع من الصور فيخاطبونها، وربما ضيفوها. وكانت إذا تراءت لهم فى الليالى وأوقات الخلوات فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها فتزيلهم عن الطريق التى هم عليها وتتبعهم. وكذلك لهم اعتقادات ومزاعم فى الشياطين والمردة والجن[١] .

يقول المسعودى: ويمكن لجميع ما قلناه مما حكيناه عما ذكرناه من أهل البقاع أن يكون ضربا من السوانح الفاسدة والخواطر الرديئة أو غير ذلك من الآفات والأدوار المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين وغيرهم.

(جـ) الهواتف والجان[٢]:

أما الهواتف فقد كانت كثرة فى العرب، ومن حكم الهاتفة أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى. وقد كانت العرب قبل ظهور الإسلام تقول: إن من الجن من هو على صورة نصف الإنسان وأنه يظهر لهم فى أسفارهم وحين خلواتهم وتسميه شقا:وذكروا أشخاصا قتلتهم الجن :

- حرب بن أمية
- وعباس بن مرداس[٣] .

---

(١) مروج الذهب (١ : ٤٠١) المسعودى.

(٢،٣) المرجع نفسه (١ : ٤٠٥).

يقول المسعودى:

إن ما تذكره العرب وتنبئ به من ذلك فإنما يعرض لها من قبل التوحد فى القفار،والتفرد فى الأودية والسلوك فى المهامة الموحشة. لأن الإنسان إذا صار فى مثل هذه الأماكن وتوحد وتفكر إذا هو تفكر وجل وجبن وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية والسوداوية الفاسدة فصورت له الأصوات ومثلت له الأشخاص وأوهمته الحال بنحو ما يعرض لذوى الوسواس. وأنتج ذلك فى رأسه سوء التفكير والخروج على غير نظام قوى أو طريق مستقيم سليم؛لأن المنفرد فى القفار والمتوحد فى المفاوز مستشعر للمخاوف متوهم للمتالف متوقع للحتوف لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها فى نفسه فيتوهم ما يحكيه من هتاف الهواتف واعتراض الجان له .

ونضيف أن مثل هذه الأشياء تعتبر من لوازم الوثنية، إذ أن الإيمان بالله موجب لطرح هذه الخواطر الفاسدة.

(د) التطير:

– التطير هو : أنهم كانوا فى الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع .

– وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها وكانوا يسمونها السانح والبارح.

فالسانح ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك، والبارح العكس وكانوا يتيمنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح لأنه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه.

يقول ابن حجر: وليس فى شئ من سنوح الطير وبروحها ما يقتضى شيئا مما اعتقدوه[١] .

وإنما هو تكلف بتعاطى ما لا أصل له؛إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه. وطلب العلم من غير مكانه جهل من فاعله .

---

(١) فتح البارى (١٠ : ١٧٤).

وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويمتدح بتركه .

قال شاعر منهم :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واف وحائم
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

وقال آخر:

الزجر والطير والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

وقال آخر:

بلى شئ يوافق بعض شئ أحايينا وباطله كثير

ويقول لبيد[٢] :

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع
سلوهن إن كذبتمونى متى الفتى يذوق المنايا أو متى الغيث واقع ؟

ويقول ابن حجر: وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين .

يقول أبو هريرة: إذا تطيرتم فأمضوا وعلى الله فتوكلوا.

وعن أبى الدرداء : لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم أو رجع.
وعن ابن مسعود: الطيرة شرك ، وما منا إلا تطير ولكن الله يذهبهن بالتوكل. من كلام ابن مسعود.

وقال ابن حجر: وإنما جعل ذلك شركا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعا أو يدفع ضرا فإنهم أشركوه مع الله .

وعن عبد الله بن عمر : من عرض له من هذه الطيرة شئ فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك .

ومن علاج التطير الفأل :

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامرى ص ٩٠ دار صادر .

يقول أبو هريرة عن الرسول: لا طيرة وخيرها الفأل: قيل : وما الفأل؟ قال : الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم .

وقال عن أنس : ويعجبنى الفأل الصالح والكلمة الحسنة .

قال ابن بطال: جعل الله فى فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها كما جعل الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافى وإن كان لا يملكه ولا يشربه .

الفرق بين الفال : والتطير :

- الفأل من طريق حسن الظن بالله .

- والطيرة لا تكون إلا فى السوء، وفيها سوء ظن بالله بغير سبب محقق،وذكر البيهقى فى الشعب عن الحليمى ما ملخصه .

كان التطير فى الجاهلية فى العرب إزعاج الطير عند إرادة الخروج للحاجة وكانوا يتطيرون بصوت الغراب،وبمرور الظباء فسموا الكل تطيرا لأن أصله الأول .

قال : وكان التشاؤم فى العجم إذا رأى الصبى ذاهبا إلى المعلم تشاءم أو راجعا تيمن.. إلخ، فجاء الشرع يرفع ذلك كله وأسند التدبير إلى الله[1] .

(هـ) الكهانة:

الكهانة: ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب .

والكاهن : لفظ يطلق على:

١- العراف الذى يضرب بالحصى- والمنجم

٢- ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى فى قضاء حوائجه .

٣- وقال فى المحكم : الكاهن: القاضى بالغيب.

---

(١) يراجع فتح البارى (١٠ : ١٧١) ، والسيرة الحلبية للاستزادة (١ : ٦٥).

٤ – وقال في الجامع: العرب تسمى كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهنا

الكهنة:

يشملون الفئة المتعلمة، النيرة في المجتمع؛ وهم على جانب كبير من الثراء والنفوذ، يتعاطون في بعض أعمال السحر في إخراج الأرواح الشريرة من المرضى .

وكثيراً ما يكون الكاهن حاكما يحكم من قصره المجاور للهيكل، وهذا الحاكم: كان يتولى السلطتين: الزمنية والكهنوتية وكثيرا ما يكونون ملاك الأرض كحق من حقوقهم، وامتياز من امتيازاتهم بصفتهم نوابا عن الآلهة .

قال الخطابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة، وطباع نارية .

وكانت الكهانة: في الجاهلية فاشية خصوصاً في العرب لانقطاع النبوة فيهم .

أصناف الكهانة:

١ – منها ما يخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع الإنسان عليه غالباً، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد.

٢ – ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس. فهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

٣ – ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، وقد يعضده بعضهم بالزجر، والطرق والنجوم .

وكل ذلك مذموم شرعاً؛ فعن أبي هريرة: من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد.

وقال القرطبي : كانوا في الجاهلية يترافعون إلى الكهان في الوقائع والأحكام ويرجعون إلى أقوالهم، وقد انقطعت الكهانة بالبعثة المحمدية، لكن بقى في الوجود من يتشبه بهم، وثبت النهى عن إتيانهم فلا يحل إتيانهم ولا تصديقهم.

قال ابن إسحاق: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى والكهان من العرب ، ويربطون انتهاء الكهانة بقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا ... ﴾ إلخ الآية(١).

وتحدث عن الكواكب بقوله ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ... ﴾(٢).

الكاهن:

هو الذى يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن. والعراف: الذى يخبر بالأخبار المستقبلية على نحو ذلك.

ولكون هاتين الصناعتين مبنيتين على الظن الذى يخطئ، ويصيب، قال عليه الصلاة والسلام: من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما قال، فقد كفر بما أنزل على أبى القاسم.

ويقال: كهن فلان كهانة؛ إذا تعاطى ذلك، وكَهَنَ، إذا تخصص بذلك، وتكهن إذا تكلف ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(٣).

من الكهان:

١ – صاف بن صياد، كان يتكهن ويدعى النبوة، وينسبون إليه أنه تكلم مع الرسول ﷺ، وينسبون إليه أنه قال فيه: اخسأ فلن تعدو قدر الله فيك.

٢ – الغيطلة الكاهنة بنت مالك بن الحارث، وينسبون إليها أنها قالت: شعوب ما شعوب، يُصرع فيه كعب لجنوب، وهو كعب بن لؤى .

السحر:

وقد جمع «البخارى»: بين الكهانة والسحر، بأن قدم الكهانة على السحر؛ لأن مرجع الاثنين شئ واحد هو: الشياطين.

وقد كان أكثر السحرة فى الجاهلية من يهود، يقصدهم الجاهليون من أنحاء بعيدة لاعتقادهم بسعة علمهم، وباختصاصهم فيه، وكان اليهود يسندون علمهم إلى بابل، ولهذا نجد الأحاديث والأخبار العربية ترجع علم السحر إلى بابل واليهود .

---

(١) سورة الجن آية ٨ .

(٢) سورة الملك آية ٥ .

(٣) سورة الحاقة آية ٤٢ .

والفرق بين الكهانة والسحر، أن الكهانة تنبؤ فسند الكاهن هو كلامه، الذى يذكره للناس. أما السحر فإنه عمل فى الأكثر للتأثير فى الأرواح؛ كى تقوم بأداء ما طلب منها، ولا يمكن صنع سحر مالم يقترن بعمل، ويصحب هذا العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم، وإشارات يدعى الساحر أنه إنما يقوم به، وبالإشارات لتسخير الأرواح، وإن ما يفعله مفهوم عند جنوده، وهم : الجن والشياطين.

ومن طرق السحر عند الجاهليين: «النفث فى العقد»، وقد دلت عليه الآية الكريمة ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[1] .ويكون ذلك بعقد عقد، والنفث عليها[2] .

وأما الكهان من العرب : فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع إذا كانت وهى لا تحجب عن ذلك بالقذف من النجوم وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يسمع منهما بعض أموره ولكن لا تلقى العرب لذلك فيه بالا .

(و) السحر

من صفات اليهود وليس من صفات العرب.

قال الراغب[2] : السحر يطلق على معان:

١ – أحدهما: ما لطف ودق، منه سحرت الصبى خادعته واستملته، ومنه إطلاق الشعراء: يسحرون العيون لاستمالتها النفوس. ومنه قول الأدباء الطبيعة ساحرة.

٢ – الثانى: ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده. وإلى ذلك أشار قوله تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[3] وقوله ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾[4] .

٣– الثالث: ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم وإلى ذلك أشار قوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾[5] .

٤– الرابع: ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانيتها بزعمهم:

والسحر يطلق ويراد به :

---

(١) سورة الفلق آية ٤ .

(٢) المفصل جـ٦ ص ٧٤٠ ، ص ٧٤١، ص ٧٤٣ ، أسباب النزول ص ٣٤٦ .

(٣) سورة طه آية ٦٦ . (٤) سورة الأعراف آية ١٦٦ .

(٥) سورة البقرة آية ١٠٢ .

١- الآلة التي يسحر بها .

٢- ويطلق ويراد به: فعل السحر.

الآلة التي يسحر بها قد تكون معنى من المعاني: كالرقى والنفث في العقد، وقد تكون من المحسوسات: كتصوير الصورة على المسحور وتارة بجمع الأمرين وهو أبلغ.

والسحر : تخييل فقط ولا حقيقة له .

٣- فاطمة بنت النعمان النجارية: كان لها تابع من الجن ويزعمون أن تابعها كان إذا جاءها اقتحم عليها بيتها، وفي أول البعث جاءها وقعد على حائط الدار فقالت له لم لا تدخل قد بعث نبي بتحريم الزنا .

٤- أخطر بن مالك من أعلم الكهان وعنده علم النجوم ينسبون إليه:

يا معشر أعني بني قحطان   أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان   والبلد المؤتمن السدان
قد منع السمع عتاة الجان   بثاقب بكف ذي سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان   يبعث بالتنزيل والقرآن
وبالهدى وفواصل القرآن   تبطل به عبادة الأوثان

فقالوا: وماذا ترى لقومك فقال:

أرى لقومي ما أرى لنفسي   أن يتبعوا خير نبي الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس   يبعث في مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس

فقلنا: يا أخطر من هو؟

فقال: والحياة والعيش، وإنه لمن قريش، وما في حلمه طيش، وما في خلقه طيش.. أخبرني به رئيس الجان .

---

(١) سيرة ابن هشام (١٤ ك ١٢٥).

١ – ويقال أن جنيا من بطن اليمن كان لقومه كاهن فى الجاهلية سألوه عن الرسول عندما انتشر أمره بين العرب فقال:

أيها الناس إن الله أكرم محمداً واصطفاه .

وجنى مذحج وهم: عبد الله، وأنس الله، وزيد الله، وأوس الله .

قال ابن اسحاق: وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وكلها من العرب قد تحدثوا بأمر الرسول قبل مبعثه لما تقارب من زمانه.

– أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى، فمما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم فيه .

وقال النووى: إن له حقيقة[1] .

والذى قال تخييل جعله انقلاب عين. والذى جعله حقيقة جعل له تأثيرا على المزاج فيكون نوعا من الأمراض أو تأثيرا بحالة الجماد الحيوان.

ونحن نرى أن ما يقع منه لا يخرج عن كونه خيالات باطلة، ولما كان السحر يشبه خوارق العادات رأى العلماء أن يفرقوا بينه وبين غيره من الكرامة والمعجزة.

١ – السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، وقال الجوينى نقلا بالإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق. وقال القرطبى: كذلك «السحر» حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، وحِدّه الوقوف على ظواهر الأشياء وأكثرها تخييلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت .

الكرامة: لا تحتاج إلى ذلك من أقوال الناس أو أفعالهم، أو تعلم إنما تقع غالبا اتفاقا وأنها لا تظهر، على فاسق .

المعجزة: مثل الكرامة غير أنها تمتاز عنها بالتحدى.

---

(١) فتح البارى (١٠ : ١٨٠).

والسحر : يرجع إلى اليهود منذ نبى الله سليمان وظهوره فى جزيرة العرب مرتبط باليهود.

قال النووى: عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع.

قال صاحب المحيط: وأما فى زماننا الآن فكل ما وقفنا عليه فى الكتب فهو كذب وافتراء لا يترتب عليه شئ ولا يصح منه شئ ألبتة وكذلك العزائم وضرب المندل. والناس الذين يعتقد فيهم أنهم عقلاء يصدقون بهذه الأشياء ويصغون إلى سماعها.

قال: وقد رأيت بعض من ينتمى إلى العلم إذا أفلس وضع كتبا وذكر فيها أشياء من رأسه وباعها فى الأسواق بالدراهم الجيدة .

قال فى فتح البارى[1]:

شرح: لا عدوى:

البرهان العقلى والحسى: رد على قول أن المرض يعدى بطبيعته عقيدة للطبعيين يجوز مشافهة من وقعت له شبهة فى اعتقاده بذكر البرهان العقلى إذا كان السائل أهلا لفهمه .

وأما من كان قاصرا فيخاطب بما يحتمله عقله من الاقتناعات .

وقول الرسول لا عدوى نفى لشبهة وقع فيها الطبعيون أولا والمعتزلة ثانيا:

فقال الطبعيون: بتأثير الأشياء بعضها فى بعض وإيجادها وسموا المؤثر طبيعة .

وقال المعتزلة : بنحو من ذلك فى الحيوانات والمتولدات وأن قدرتهم مؤثرة فيها بالإيجاد وأنهم خالقون لأفعالهم مستقلون باختراعها .

واستندت الطائفتان إلى المشاهد الحسية ونسبوا من أنكر ذلك إلى إنكار البديهة. وغلط من قال منهم غلطا فاحشا لالتباس إدراك الحس بإدراك العقل، فإن المشاهد إنما هو تأثير شئ على آخر وهذا حظ الحس فأما تأثيره فهو حظ العقل.

---

(١) فتح البارى (٣ : ٢٩٩)

فالحس إدراك وجود شئ عند وجود شئ وارتفاعه عند ارتفاعه. وأما إيجاد به للحس فليس للحس فيه مدخل .

فالعقل هو الذى يفرق فيحكم بتلازمهما عقلا أو عادة مع جواز التبدل عقلا .

على أى حال كانت الخرافات المتعددة وتنوعها ثقلا شديداً على كاهل الوثنى الذى تشتت فكره واضطربت عقليته .

وكنا نرى ذلك سببا وراء عدم ظهور وحدة القصيدة فى قصيدة الشاعر الجاهلى مضافا إليه تأثر الشاعر ببيئته القبلية، وكان مجتمعه محكوماً بأنظمة قبلية شتى، ومن جانب آخر افتقد الوحدة التى تجمع بينه وبين أديانه المتعددة أضف ذلك كله إلى شخصية الشاعر التى وقعت تحت ذاتيه منغلقة، وبسبب من واقع الشاعر تحت مؤثرات البيئة التى لم تشعره بضرورة وحدة القصيدة .

العراف:

فى حديث: من أتى عرافاً أو كاهناً، ذكر أن: العراف - الكاهن- أو الطبيب، أو المنجم، أو الحازى الذى يدعى علم الغيب.

فللكلمة معان عديدة، ولا تختص بمعنى واحد.

وقد ذهب المسعودى: إلى أن العراف دون الكاهن .

وخلاصة ما يفهم عن الكهانة، والعرافة فى روايات الإخباريين أن : الكهانة هى التنبؤ بواسطة تابع؛ وأن العرافة - تكون بالملاحظات، وبالاستنتاجات، وبمراقبة الأشياء لاستنتاج أمور منها يخبر بها السائلون على سبيل التنبؤ.

وقد عد العبرانيون العرافة من الحيل الشيطانية كالسحر، والتفاؤل؛ لأنها من رجس المشركين[١].

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٧٧٣ .

القيافة:

ويقصد بها التنبؤ، والإخبار عن شئ بتتبع الأثر والشبه.

الفراسة :

فتكون بالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله، وأقواله على صفاته وطبائعه.

وقد ذهب بعض المستشرقين: إلى أنها من الكلمات المعربة، التى أخذت من بنى إرم .

العيافة:

هى: التنبؤ بملاحظة حركات الطيور، والحيوانات، ودراسة أصواتها، وقراءة بعض أحشائها؛ ولذلك قيل فى العبرانية للعائف: «الشاق» ؛ لشقه الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخبر مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف، يرى: أن فى أوضاعها معانى يذكرها للسائل على شكل نبوءة .

والزجر: العيافة، وهو يزجر الطير يعافها، وأصله أن يرمى الطير، يصيح؛ فإن ولاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به، أو مياسره تطير، وهو ضرب من التكهن[1].

الاستقسام بالأزلام:

ومن طرق التنبؤ: الاستقسام بالأزلام؛ وتقابل ذلك ما يقال له: «كسيم ، كسم» فى العبرانية؛ وهى طريقة معروفة عند البابليين كذلك، وعند غيرهم من الشعوب.

وقد أشير فى التوراة: إلى أن: بختنصر أجال السهام حين عزم على فتح أورشليم – القدس– فإن ملك بابل قد وقف عند أم الطريق فى رأس الطريقين ليباشر عرافة فأجال السهام، وسأل التراقيم، ونظر فى الكبد، وقد خرج السهم الذى كتب عليه أورشليم؛ فعمل به وهاجم القدس وفتحها.

(١) المفصل جـ٦ ص ٧٧٤ ، ص ٧٧٥ .

وقد عرف أهل الأخبار: الأزلام؛ أنها السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها؛ وعرفوا «الزلم» أنه السهم، وإنه القدح المزلم.

وذكر بعض آخر: أن الأزلام: سهام كانت لأهل الجاهلية، مكتوب على بعضها «أمرنى ربى»، وعلى بعضها نهانى ربى؛ فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً ضرب تلك القداح؛ فإن خرج السهم الذى عليه أمرنى ربى مضى لحاجته؛ وإن خرج الذى عليه «نهانى ربى» لم يمض فى أمره[1] وطريقة الضرب أن الرجل منهم إذا أراد أن يخرج مسافراً كتب فى قدح هذا يأمرنى بالمكث، وهذا يأمرنى بالخروج وجعل معهما أزلاماً مسحة لم يكتب فيها شيئا؛ ثم استقسم بها حين يريد الخروج؛ فإن خرج الذى يأمر بالمكث مكث؛ وإن خرج الذى يأمر بالخروج خرج، وإن خرج الآخر أى المسح أجالها ثانية حتي يخرج أحد القدحين؛ وجاء فى سورة المائدة: ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾[2]، وذلك مع أمور نهى عنها الإسلام؛ منها تحريم أكل الميتة، والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة إلخ ما جاء فى الآية.

وجاء ذكر الأزلام فى موضع آخر: مع ذكر الخمر، والميسر والأنصاب، والأزلام حيث جعلت رجساً من عمل الشيطان لذلك: على المسلم اجتنابها والابتعاد عنها.

فالاستقسام بالأزلام من الأمور التى نزل الأمر بالنهى عنها فى الإسلام. وقد جاء الأمر بالنهى عنها فى شريعة «يهود» كذلك؛ إذا اعتبرت رجساً ومن أعمال الوثنيين.

والأزلام: كانت لقريش فى الجاهلية، مكتوب عليها: أمر ، نهى، وافعل ولا تفعل، وقد زلمت وسويت ووضعت فى الكعبة، يقوم بها سدنة البيت؛ فإذا أراد رجل سفراً، أو نكاحاً: أتى السادن فقال: أخرج لى زلماً فيخرجه، وينظر إليه؛ فإذا خرج

---

(١) المفصل جـ٦ ص ٧٧٦ .

(٢) سورة المائدة آية ٣ .

قدح الأمر مضى على ما عزم عليه؛ وإن خرج قدح النهى قعد عما أراده؛ ور بما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه؛ فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما[(١)].

الطيرة:

قال الجاحظ: وأصل التطير إنما كان من الطير، ومن جهة الطير إذا مر بارحاً أو سانحاً، أو رآه يتفلى، وينتف حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس، أو البهائم، أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا النظير، ثم استعملوا ذلك في كل شئ[(٢)].

(١) المفصل جـ٦ ص ٧٧٧ ، ص ٧٧٨ ، ص ٧٧٩ ، اللسان جـ١٢ ص ٢٧٠ وما بعدها .
(٢) المفصل جـ٦ ص ٧٨٦، ص ٧٨٧، الحيوان جـ١ ص ٤٣٨ ، العمدة جـ٢ ص ٢٥٩ .

تعقيب

أما عن تحليلنا لهذه الرمزيات فيكون من خلال أثرها على العربى وتأثيره عليها، فحينما أبدعها خياله: كان يرى فيها نوعا من المناسبة بين مكوناته النفسية وما هو كامن فى طبيعة صحرائه من سعة لا حد لها تشعره بالتضاؤل والضحالة وهو فيها وبجفاف قاس، إلى إيحاء تسوده رهبة .

فهو مثلا يرى فى التطير إن اتجه إلى التجارة نوعا من فهم سبيله، فهو يرى فى ميامنها تفاؤلا: يدفعه لوجهته وفى مياسرها تشاؤما: يدفعه ليعدل عن وجهته.

وتبعا لمعتقده هذا نراه يتجاوب فكريا مع أى معنى يوحى إليه من خلال ميامن الطير أو مياسرها، وربما كان ذلك - من وجهة نظرنا- محاولة من العربى يفك بها لغز الكون بعد ما بات يحس من نفسه ضعفه أمام لغزه على الرغم من شجاعته المشهود له بها فى شعره .

كذلك يرى فيها: دلائل عرفان نحو مستقبله، فخوفه من المستقبل يدفعه نحو تلك الأشياءليفهم بها مكامن المجهول، وعلى أى حال نراها فى رمزيتها محاولات يخفف بها عن نفسه عبء اليأس من عدم فهمه للوجود وتبعد عنه فكرة الانتحار الذى قد يكون حلا قانطا وسلبيا لمشكلة اليأس من عدم فهم مستقبله، وليس بدعا من العربى أن يبدأ التفكير من بداية الفكر الإنسانى فى طفولته ولقد « كان الفكر الإنسانى فى طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحاً مشفوعا بالعجب والهيبة» (١)

وكانوا يودون من مغزى هذه الرموز أن تكفيهم شر الحياة المادية الخبيثة وذلك لما يرون فيها من معايير مقدسة يفزعون إليها إن ألم بهم شئ أوهموا بعمل شئ.

وعلى الرغم من أنها تصورات خيالية نجدها توقفنا على شئ ذى بال فى حياة العربى النفسية والدينية: فإنها من الناحية النفسية تفسر لنا مثيرات انفعالاته وعواطفه، وبها نستطيع أن نفسر مكوناته الشخصية ومؤثراتها الخارجية، فعن طريق هذه

(١) سيرة تاريخ وفن ص٢٣ د . ما هر حسين فهمى مكتبة النهضة .

المعتقدات يتسع لنا المجال لاستنباط أحاسيسه الداخلية وتقدير طموحه فى حياته العامة.

ومن الناحية الدينية تفسر لنا أثر المعتقد على الإنسان لما لها من معنى مقدس فى نفس العربى الذى لا يجد متسعا لمخالفتها فينكرها، ومظهر تقديسها يظهر فى أنه تصورها على هيئة قوى روحية على شكل طيور ليتناسب طيرانها مع صحرائه - ولها قدرة الإيحاء إليه أمرا أو نهيا مع التزامه بطاعتها فى كلا الحالين.

وفى هذا رؤية رمزية للكون تتناسب مع فكر لما يزل فى دور الطفولة ملازماً فكرة التشاؤم والتفاؤل من إحساس العربى بتأثيرهما عليه ومن نظرية انقسام الروح إلى خيرة وشريرة أى بعضها يختص بالخير وبعضها يختص بالشر.

يمنح العربى هذا كله معنى المعرفة يستوحى منها مظان الخير فى مستقبل حياته. وليست فكرة الخير لديه - كما نتصور- رفيعة فى معناها ولكنها فكرة رديئة رداءة رمزها: فهو يرى فى قول الهامة: أسقونى من دم قاتلى: دعوة خير بينما الهامة وقولها يتشابهان فى الرداءة، لكنها مع ذلك هى من دلائل الخير عند العربى صاحب الثأر.

ولعل الذى جعل فكرته عن الخلود باهتة الألوان ما كابده من شظف العيش وما يمسه فى حياته من لغوب ومن جفاف فى صحرائه لعل فى ذلك مقنعا للعربى فى عدم خلق أساطير يرمز بها إلى البحث عن فكرة الخلود، وكيف يبحث خلوده وربما يكون مكان بحثه لا يبعد عن صحرائه أو يناظرها فى القسوة والجفاف. على أى حال كانت كل معتقداته الرمزية تنبع عن معنى خوفه :

- خوفه من العار : فقد وأد البنات وثأر.

- خوفه من خسارة فى رحلته التجارية: لجأ إلى التطير.

فصفة الخوف من المستقبل هى الغالبة على الروح العربية، لذلك نرى شجاعة العربى فورة حماسية أو نزوة عصبية تشعلها كلمة وتطفئها أخرى.

فشجاعة الخوف: نوع من توترات عصبية من غير تركيز منه على الهدف وقيمته .

ومن هنا كانت فكرته العقلية عن الأشياء غير مركزة وغير ثابتة، وقد يضل عن مضمونها إن فاوض أو ناقش، وقد يتسرب معها فى مساربها دون وعى منه يميز به بين ما هو ضرورى وأساسى فى القضية المطروحة وما هو فيها من باب الطرافة، وقد يصرفه عن مناقشة القضية كلمة عابرة يقولها: رجل خبيث ذكى دون أن يفطن هو إلى خبثه، وقد يصرفه بها عن مناقشة القضية دون أن يلتفت إلى حقيقة الدور الذى حوله، وأما إذا كانت نتيجة المناقشة تنتهى إلى جانب العربى فسيثأر العربى لينهى بنفسه دوره ثم أخيرا يتحمل مسئولية عمله بينما هو مدفوع إليه.

وفى النهاية: نرى أن الأوهام والعقائد الشعبية وأعمال السحر - التى كانت المركز الأساسى لدائرتهم الثقافية- كانت تعمل دائما على قهرهم إذا حاولوا فهم وجودهم أو تغيير علاقاتهم الاجتماعية من مستواها القبلى إلى مستوى إنسانى.

فلما جاء الإسلام عصف بتلك الروح وأحل فيهم روحه العامرة بالحياة . وكان من أرفع ما قدمه الإسلام أن ربط كتابه بالعقل الإنسانى، وأزال ما يعوق تفاهمه مع العقل وكان أهم ما يعوق رحلة التفاهم بينه وبين الدين وجود طبقة دينية أكليريكية ترى فى نفسها: امتيازا دينيا يؤهلها للوصاية على لغة التفاهم بين العقل والقرآن.

« وقد دمغ القرآن بالشرك أولئك الذين أعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال الأديان الذين بدلوا كلمات الله، وغيروا شرع الله فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله افتراء على الله.

وفى هذا يقول فى شأن أهل الكتاب: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة التوبة الآية ٣١).

اعتبر القرآن: هؤلاء الأحبار والرهبان أربابا وآلهة معبودين من دون الله وما كانت عبادتهم إلا طاعتهم فى إحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، أى إعطائهم

حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى كما فسر ذلك النبى ﷺ لعدى بن حاتم الطائى.

فقد كان عدى تنصر فى الجاهلية فلما دخل على النبى ﷺ - وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال يا رسول الله: ما كنا نعبدهم «كأنه حصر مفهوم العبادة فى الركوع والسجود والصلاة ونحوها». فقال النبى ﷺ: ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحلونه ويحرمون عليكم الحلال فترحرمونه: قال: بلى، قال فتلك عبادتكم إياهم[1].

فكان موقف القرآن من الطبقة الإكليريكية واضحا وفيه حزم لأن وجود مثل هذه الطبقة يعمل دائما على شل العقل عن وظيفته وتغيير مفهوم المقدس وهو ما عناه الرسول بقوله: ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحلونه ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه قال: بلى؟

قال الرسول: فتلك عبادتكم إياهم.

أما بعد:

ففى القرآن ثلاث آيات متفرقات فى سور مدنية تناولت موضوعا واحدا هو: الحياة الاعتقادية السائدة فى العالم إبان ظهور الإسلام من خلال مستوى مذاهبهم الدينية كما فصلنا القول من قبل.

الآية الأولى من سورة البقرة آية ٦٢ يقول الله فيها:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

والآية الثانية: من سورة المائدة آية ٦٩ يقول الله فيها:

---

(١) الخصائص العامة للإسلام . د. يوسف القرضاوى.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

الآية الثالثة: من سورة الحج آية ١٧ يقول الله فيها:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

نلاحظ أن القرآن عدد فيها الكثير من الملل والنحل القديمة – رعاية منه للجانب التاريخي – ثم عرض لبعضها بالنقاش، وفصل من قضاياها ما شاء أن يفصل، وأعرض عن البعض – في بعض مسائله– إذا كان مداره قائما على التقليد الساذج الذى لا يراعى فكرا ولا يراعى جانب العقل.

مثل هذه الملل يعرض عنها القرآن وحسبه فيها أن يردها إلى التقاليد وهو إذ يردها إلى التقاليد يكون قد أصاب المحز فى عملية النقد.

وكان الهدف الأساسى من منهج القرآن الجدلى لهذه الملل، هو السعى بذويها إلى نتيجة محددة هى: الإيمان بالله وحده وتنزيهه .

واقتضاء سعيه إلى تلك القضية المحددة، أن يرفع دور العقل ووظيفته ويحط من شأن التقاليد مزدريا إياه، وكان ذلك منه بخطى معينة ومحددة لأن الحياة الاعتقادية التى أشاعتها هذه الأديان: كان مجال التفكير فيها محدودا ضيقا، والإنسان معها: كان متزمتا، فبسبب مجال التفكير المحدود الضيق – من السيطرة الكاملة لهذه المذاهب المتزمتة عليه – اتخذ القرآن خطواته نحو رفع القيمة للبحث والنقد، وكانت خطواته معها متأنية مترفقة غير أنه لا لين فيها .

يلاحظ ذلك من الآيات السابقة، فمرة يقول: إن استجابوا للإيمان ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ومرة يقول ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

والثالثة الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾. ويغلب على ظنى – والأمر يحتاج إلى توقيف – أن ترتيب نزول الآيات هو:

آية البقرة أولا . وآية المائدة ثانيا . وآية الحج ثالثا .

وإن صح هذا وخاصة أن هذه السور مدنية - يمكن اعتبارها نموذجا تطبيقيا- من بين نماذج كثيرة حفل بها القرآن- فى هذا المقام بالذات لنوع من الجدل نحو غايته .

كنا نلاحظ من خلال تفصيل القرآن للأديان القديمة والنحل . أن له منهجا سار عليه - إزاء تلك المعتقدات القديمة- حين ردها على كثرتها إلى مبدأ التقابل، فمن كان معتقده عن كتاب فليدخل مع أهل الكتاب الذين تعلموا من كتب السماء التى حرفت، يتقابلون مع الأميين الذين التمسوا تعليمهم تقليدا لغيرهم وبعيدا عن كتب السماء . وهذا مما يتقابلون فيه مع الذين آمنوا بالدين الخالص وهو دين الله ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[1] .

مصر الجديدة فى ١٩٨٣

دكتور
محمد إبراهيم الفيومى

---

(١) سورة الزمر آية ٣ .

المراجع العربية

على رأس هذه المراجع القرآن الكريم ثم الكتاب المقدس ودائرة المعارف الإسلامية.

المؤلف	الكتاب
١- ابن الأثير:(٦٣٠هـ - ١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم	- أسد الغابة فى معرفة الصحابة . - النهاية فى غريب الحديث والأثر
٢- ابن الخطيب التبريزى:	- تهذيب إصلاح المنطق (شرح على إصلاح المنطق)
٣- ابن السكيت:	- إصلاح المنطق
٤- ابن الكلبى: أبو المنذر هشام بن أبى النصر محمد بن السائب	- الأصنام تحقيق أحمد زكى باشا، الدار القومية
٥- ابن النديم: محمد بن إسحاق	- الفهرست
٦- ابن تيمية:	الفتاوى - ط السعودية
٧- ابن حجر العسقلانى:	- فتح البارى شرح صحيح البخارى
٨- ابن حزم:	- الفصل فى الملل والنحل ط الحلبى
٩- ابن عبد ربه: أبوعمر أحمد بن محمد	- العقد الفريد، نشر الأساتذة: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبيارى.
١٠- ابن قتيبه(٢١٣هـ) أبو عبد الله بن مسد	- المعارف تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف. - الشعر والشعراء
١١- ابن كثير:	- القرآن العظيم (تفسير)
١٢- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم	- لسان العرب
١٣- أبو حيان(أثير الدين):	- البحر المحيط (تفسير)
١٤- أحمد أمين	- فجر الإسلام
١٥- الأزرقى: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد	- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ط. خياط، بيروت سنة ١٩٦٤ م

١٦ـ الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين
– الأغاني
ط. دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٧ م

١٧ـ الأصفهاني (الراغب)
– مفردات القرآن

سبتينو موسكاتي
الحضارات السامية القديمة
ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر
مراجعة : محمد القصاص
ط. دار الكاتب العربي

١٨ـ الألوسي:
– روح المعاني (تفسير)

السيد محمود شكري
– بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب سنة ١٣٤٢ هـ.
عني بشرحه وتصحيح ضبطه: محمد بهجة الأثري: دار الكتاب الحديث

السيد عبد الرازق الحسيني
ـ الصابئة: قديماً وحديثاً
تقديم: أحمد زكي باشا
طبعة أولى ١٩٢٥، المطبعة الرحمانية بمصر

١٩ـ البكري:
عبد الله بن عبد العزيز
ابن محمد بن عمر
ـ معجم ما استعجم
بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

٢٠ـ البلاذري: (٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م)
احمد بن يحيى بن جابر
ـ فتوح البلدان، القاهرة سنة ١٣١٨هـ

٢١ـ البهي: دكتور محمد
–الجانب الإلهي في التفكير الاسلامي ط وهبة

٢٢ـ البيروني: أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمي
ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبسك ١٨٧٨ م)

٢٣ـ الجندي:
(الدكتور علي)
الأنجلو المصرية
ـ تاريخ الأدب الجاهلي،

٢٤ـ الرازي:
(أبو حاتم)
ـ الزينة في المصطلحات الإسلامية
علق عليه حسين بن فيض الله الهمداني

٢٥ـ الرازي (فخر الدين)
ـ مفاتيح الغيب (تفسير)

٢٦ـ السهيلى:
أبو القاسم عبد الرحمن
ابن عبد الله الخثعمى
ـ الروض الأنف،
القاهرة ١٩١٤ م

٢٧ـ الشهاب:
ـ حاشية الشهاب على البيضاوى

٢٨ـ الشهرستانى:
المتوفى(٥٤٨هـ)
ابو الفتح محمد بن عبد الكريم
ـ الملل والنحل، الانجلو
تخريج د. محمد بن فتح الله بدران

٢٩ـ الطبرى (ابن جرير)
ـ جامع البيان فى تفسير القرآن (تفسير)

طه باقر
ـ مقدمة فى: تاريخ الحضارات القديمة
الجزء الأول الوجيز فى تاريخ حضارة وادى الرافدين، الطبعة الأولى ١٩٧٣ مطبعة الحوادث، بغداد

٣٠ـ العقاد:
عباس محمود
ـ أبو الأنبياء
ـ الله
موسوعة العقاد الإسلامية
دار الكتاب اللبنانى

٣١ـ الفيومى:
د. محمد إبراهيم
ـ قضايا فى الاجتماع الاسلامى
حول حركة تفاعل الإنسان وتكيفه بالوحى
ـ القلق الإنسانى، سنة ١٩٧٥
الانجلو المصرية

٣٢ـ القرطبى:
ـ جامع الاحكام(تفسير)

٣٣ـ القرضاوى: (د. يوسف)
ـ الخصائص العامة للإسلام
مكتبة وهبة

٣٤ـ المسعودى المتوفى (٣٤٦هـ)
أبو الحسن على بن الحسين بن على
ـ مروج الذهب
ط. دار الشعب، القاهرة

٣٥ـ المقدسى:
ـ البدء والتاريخ

٣٦ـ المكلاتى:
أبو الحجاج يوسف محمد
ـ لباب العقول فى الرد على الفلاسفة
ـ فى علم الأصول، تحقيق د. فوقية حسين محمود، دار الأنصار ١٩٧٧

٣٧ـ النيسابورى:
ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير)

٣٨ـ الهمذانى:
أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب
- الإكليل، نشر وتعليق الاب انستاس الكرملى ١٩٣١

٣٩ـ اليعقوبى:
أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر
ابن وهيب المعروف بابن واضح
- تاريخ اليعقوبى

٤٠ـ أنور الرفاعى:
- الإسلام فى حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق

٤١ـ أنوليتمان:
- لهجات عربية شمالية قبل الإسلام بحث مستخرج من مجمع اللغة العربية الملكى سنة ١٩٣٦ م

٤٢ـ أوليرى (دى لاسى)
- الفكر العربى ومكانته فى التاريخ
ترجمة د. تمام حسان .
مراجعة د. محمد مصطفى حلمى
- علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب، ترجمة دوهيب كامل
مراجعة الأستاذ زكى على

٤٣ـ بدوى:
دكتور عبد الرحمن
- رسائل فلسفية، نشر جامعة بنى غازى
- شخصيات قلقة فى الإسلام

٤٤ـ بربيه (اميل)
- الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندرى، ترجمة د. محمد يوسف موسى
ود. عبد الحليم النجار ط ٣.

٤٥ـ تارن:
- الحضارة الهللينية،
ترجمة عبد العزيز جاويد

٤٦ـ حتى:
(دكتور فيليب حتى)
- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين
ترجم الجزء الأول د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، مراجعة جبرئيل جبور، ترجم الجزء الثانى د. كمال اليازجى، مراجعة د. جبرئيل جبور دار الثقافة ، بيروت

٤٧ـ دحلان: (أحمد زينى)
- على هامش السيرة الحلبية

٤٨ـ دراز (د. محمد عبد الله) - مدخل إلى القرآن، عرض تاريخى مقارن ترجمة محمد عبد العظيم على
- القرآن والمبشرون
٤٩ـ دروزة: الأستاذ محمد عزة
٥٠ـ ديورانت (ول) - قصة الحضارة ترجمة الأستاذ محمد بدران، دار التأليف والترجمة والنشر
٥١ـ دى بور: -تاريخ الفلسفة فى الإسلام ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريده لجنة التأليف والترجمة والنشر
٥٢ـ رشيد رضا: (الأستاذ الشيخ محمد) - تفسير المنار
٥٣ـ زكى مبارك: (الدكتور) - النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى
٥٤ـ سوسة: دكتور أحمد - العرب واليهود فى التاريخ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية، العربى للإعلان والنشر سنة ١٩٧٥ ط ٤.
٥٥ـ شوقى ضيف (دكتور) - تاريخ الأدب العربى، العصر الجاهلى، دار المعارف
٥٦ـ شيخو (لويس): - النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ط بيروت
٥٧ـ صابر طعيمة (دكتور) - التاريخ اليهودى العام، دار الجيل
٥٨ـ صلاح الدين خودابخش: - حضارة الإسلام، ترجمة على حسنى الخربوطلى
٥٩ـ صموئيل نوح كريمر: - السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم،ترجمة فيصل الوائلى نشر وكالة الكويت
٦٠ـ ظاظا (دكتور حسن) - الساميون ولغاتهم، تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية للعرب دار المعارف
٦١ـ عبد الحليم محمود (دكتور) - التفكير الفلسفى فى الإسلام الأنجلو المصرية

٦٢- عفيفي (دكتور) أبو العلا	- الأثر الفلسفي الإسكندري في قصة حي ابن يقظان، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول (الإسكندرية) المجلد الثاني ١٩٤٤ لجنة التأليف والترجمة والنشر
٦٣-على حسن إبراهيم (دكتور)	- التاريخ الإسلامى العام، الجاهلية، الدول العربية، الدولة العباسية، النهضة المصرية ١٩٧٢
٦٤- غلاب (دكتور محمد)	- الفلسفة الشرقية بحوث تحليلية نشرت في مجلة الرسالة ١٩٣٧ م
٦٥ -فلهوزن (يوليوس) مستشرق ألماني	- تاريخ الدولة العربية ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريده
٦٦- ماكس مايرهف	- من الإسكندرية إلى بغداد بحث في تاريخ التعليم الفلسفي والطبى عند العرب، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ضمن المجموعة المسماة: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دار النهضة .
٦٧- ما هر حسن فهمى (دكتور)	- السيرة الذاتية تاريخ وفن . دار النهضة القاهرة
٦٨- محمد التونجى فرهنك	- المعجم الذهبى فارسى وعربى دار العلم للملايين بيروت - معجم الأدباء
٦٩ - محمد عبد المعيد خان	- الأساطير العربية قبل الإسلام سنة ١٩٣٧م
٧٠- محمد نعمان الجارم	- أديان العرب في الجاهلية سنة ١٩٢٣ م .
٧١- مدكور (دكتور إبراهيم بيومى)	- في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه دار المعارف

٧٢- مراد فرج المحامى
- ملتقى اللغتين العبرية والعربية

٧٣- مصطفى عبد الرازق (الأستاذ الشيخ)
- تمهيد فى الفلسفة الإسلامية
لجنة التأليف والترجمة والنشر

٧٤- ميرزا: (محمد مهدى)
- مفتاح باب الأبواب فى أصول الديانات ١٣٢١

٧٥- نولدكه
- أمراء غسان، ترجمة د. بندلى جوزى ود.قسطنطين زريق

٧٦- نيللينو
كارلو - مستشرق ايطالى
- تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية، نص المحاضرات التى ألقاها بالجامعة المصرية سنة ١٩١٠، سنة ١٩١١ عنيت بنشرها مريم نيللينو، تقديم دكتور طه حسين، دار المعارف بمصر ط ٢

٧٧- هانز هيترش شيدر
- روح الحضارة العربية، ترجمة د.عبد الرحمن بدوى.
دار العلم للملايين ١٩٤٩

٨٧- ياقوت:
شهاب الدين أو عبد الله الحموى
- معجم البلدان

٧٩- جيبون (أدوارد)
- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ترجمة د. محمد سليم سالم
مراجعة : محمد على أبو درة

٨٠- نتنبج:
- العرب
ترجمة دكتور راشد البراوى
الأنجلو المصرية

٨١ - ستوفتزف
- تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى
ترجمة : زكى على
مكتبة النهضة المصرية

٨٢- جلانفيل ديونى
- أنطاكية القديمة
ترجمة: د. إبراهيم نصحى
الناشر: النهضة المصرية

٨٣- د. عبد اللطيف أحمد على – مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية
دار النهضة العربية ١٩٧٤

٨٤ – النابغة الذبيانى – ديوان النابغة الذبيانى دار صادر

٨٥- ابن سعد : محمد كاتب الواقدى – الطبقات الكبرى

٨٦ – لبيد بن ربيعة العامرى. – ديوان لبيد، دار صادر



أولا : دراسات في الفكر الإسلامي والفلسفي

(١) القلق الإنساني : طبعة أولى عام ١٩٧٦م وثانية عام ١٩٨٠م وثالثة عام ١٩٨٢م الأنجلو المصرية - ورابعة عام ١٩٨٤م دار الفكر العربي.

(٢) مقدمة في علم الاجتماع : طبعة أولى عام ١٩٧٥م الانجلو المصرية.

(٣) قضايا في الاجتماع الإسلامي : طبعة أولى عام ١٩٧٥م الانجلو المصرية.

(٤) الإسلام واتجاهات الفكر المعاصر : طبعة أولى عام ١٩٧٦م الانجلو المصرية.

(٥) في الفكر الديني الجاهلي : طبعة أولى عام ١٩٧٩م وثانية علم ١٩٨٠م دار القلم الكويتي وثالثة ١٩٨٤م دار المعارف المصرية.

(٦) تاريخ الفكر الديني الجاهلي : طبعة مزيدة ومنقحة لكتاب الفكر الديني الجاهلي - دار الفكر العربي عام ١٩٩٤م.

(٧) ملاحظات على المدرسة الفلسفية في الإسلام : طبعة أولى عام ١٩٧٩م الانجلو المصرية.

(٨) المدرسة الفلسفية في الإسلام : طبعة ١٩٨٩م - دار الثقافة للنشر والتوزيع.

(٩) تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق : طبعة مزيدة ومنقحة لكتابي الملاحظات والمدرسة طبعة عام ١٩٩٠م - دار الثقافة للنشر والتوزيع.

(١٠) تاريخ الفلسفة الإسلامية فى المغرب : طبعة أولى عام ١٩٩٢م ـ دار المعارف المصرية.

(١١) تأملات ازمة العقل العربى : طبعة أولى عام ١٩٨٢م ـ الانجلو المصرية ـ وثانية عام ١٩٩٠م ـ دار الفكر العربى.

(١٢) رسالة فى الحوار الفكرى بين الإسلام والحضارة : طبعة ١٩٨١م عالم الكتب.

(١٣) رسالة فى الحوار الفكرى بين العرب والحضارة : الانجلو المصرية عام ١٩٨٦م.

(١٤) الوجودية وفلسفة الوهم الإنسانى : طبعة أولى عام ١٩٨٣م الأنجلو المصرية ـ وثانية ١٩٨٤م مجمع البحوث الإسلامية.

(١٥) الاستشراق رسالة استعمار تطور الصراع الغربى مع الإسلام : دار الفكر العربى ١٩٩٣.

ثانيا : فى الشخصيات :

(١٦) الإمام الغزالى : طبعة أولى عام ١٩٧٦م الانجلو المصرية ـ وثانية ١٩٨٧م دار الفكر العربى.

(١٧) البوصيرى وابن عطاء الله السكندرى : طبعة أولى عام ١٩٨٠م الانجلو المصرية.

(١٨) بن باجه وفلسفة الاغتراب : طبعة ١٩٨٨م ـ دار الجبل ـ لبنان.

(١٩) النزعة العقلية عند الإمام الشافعى : نشر فى مقالات فى مجلتى الوعى الإسلامى بالكويت ـ ومنبر الإسلام.

ثالثا : بحوث ودراسات :

(٢٠) الإسلام والغرب ١٦ ـ ٢٤ : بحث منشور فى مجلة رسالة التربية الصادرة عن دائرة البحوث التربوية بالمديرية العامة للتنمية التربوية ـ وزارة التربية والتعليم ـ شئون الشباب.

(٢١) فلسفة خطاب الإعلام العربى بين التبرير والتغيير ١٨٧ ـ ١٩٧ : نشر بكتاب ندوة الإعلام الإسلامى بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل المنعقدة بالقاهرة ٢ ـ ٥ مايو ١٩٩٢م ـ مؤسسة اقرأ الخيرية ـ مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى.

(٢٢) حول قضية التوفيق بين الدين والفلسفة ١٨٧ ـ ١٨٣ : بحث منشور فى حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ـ جامعة قطر ـ العدد الأول ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٢٣) فيلسوف مغترب فى الاندلس ١٢٧ ـ ١٥٨ : بحث منشور فى مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ العدد ٥٨.

(٢٤) علم النفس المعاصر وثنائية الإنسان من منظور إسلامى : بحث منشور فى المجلة المصرية للدراسات النفسية ـ العدد الثالث ـ ديسمبر ١٩٩٢ ـ توزيع مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة.

(٢٥) سيكولوجية الحوار الفكرى بين الشرق والغرب : بحث منشور فى مجلة من ثمار الفكر ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ـ دولة قطر.

(٢٦) الشباب والتطرف : مشتركة فى ندوة مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٨٥م.

(٢٧) حوار حول مفهوم الأصولية : نشر فى قضايا فكرية بملف يصدر عن دار الثقافة الجديدة.

(٢٨) أثر كتاب الله فى حياتى : نشر فى كتاب العقاد وهؤلاء : عام ١٩٨٤م.

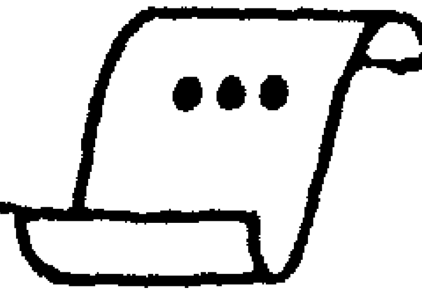
(٢٩) التوظيف التاريخى للإرهاصات النبوية فى سيرة ابن هشام : بحث ألقى فى مؤتمر مجتمع البحوث الإسلامية الحادى عشر نوفمبر ١٩٨٥م.

فضلا عن المقالات والحوارات فى المجلات والصحافة المصرية والعربية.

تحت الطبع ..

«فحص ذات مغتربة»

(حديث فى شئون نفس)



فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع	٩٤٦ / ٩٣
الترقيم الدولى I.S.B.N	977 - 10 - 0598 - 7

مطبعة اميرة

١٣ شارع شنن - عابدين

ت : ٣٩١٥٨١٧





الدكتور / محمد إبراهيم الفيومى

ولد في ٢٧ / ١ / ١٩٣٨ أوليله ميت غمر

الشهادات العلمية :

* ليسانس كلية أصول الدين عام ١٩٦٥ م في العقيدة والفلسفة
* ماجستير في الفلسفة الإسلامية سنة ١٩٦٨م
* دبلوم عال في الفلسفة الإسلامية من السوربون ـ باريس سنة ١٩٧٢
* دكتوراه في الفلسفة الإسلامية ١٩٧٤.

الدرجات والمشاركات العلمية :

* أستاذ في الفلسفة الإسلامية.
* عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية الأسبق ١٩٨١م ـ ١٩٨٥م.
* أعير للمشاركة في تأسيس كلية التربية والعلوم الإسلامية وكلية الآداب ـ جامعة السلطان قابوس سنة ١٩٨٥.
* شغل رئيس قسم الآداب بكلية التربية سنة ١٩٨٧م.
* شغل رئيس قسم الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب ١٩٨٧ ـ ١٩٩٠م.
* يعمل حاليا رئيس قسم أصول الدين كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر.
* شارك في كثير من المؤتمرات والندوات داخل وخارج جمهورية مصر العربية.
* عمل خبيراً في لجنة الفلسفة بمجمع اللغة العربية.

هذا الكتاب

يعالج مصادر الثقافة العربية في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي قبيا... وقضية التفاعل الفكرى والثقافى بين ما فى عمق شبه الجزيرة وبين ما حولها من ... -مؤرخا- الروافد الفكرية التي وفدت من الكنعانيين والآشوريين. والفرس والرومان وال... في شبه الجزيرة العربية. وظهر رد فعلها الثقافي والديني على الثقافة العربية في عص...

